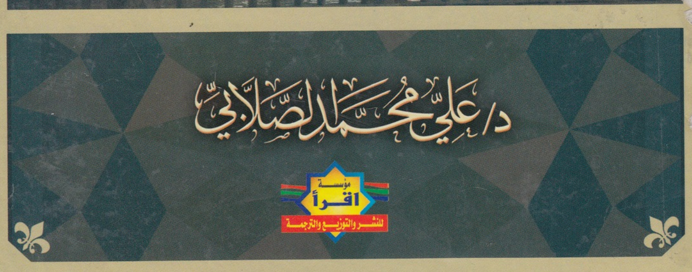
الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا





صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي

الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا

الكتاب الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس (التعليمي والحركي والدعوي والسياسي)

الكتاب الثاني: سيرة الزعيمين محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف

الكتاب الثالث: سيرة الزعيمين إدريس السنوسي وعمر المختار

تأليف الدكتور

علي محمد محمد الصلابي



الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٤٤٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-441-049-1

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ شارع أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ - ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٠٢٣٣٧٣٠٢

www.iqraakotob.com
Email: info@iqraakotob.com

الإهداء

إلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين وطلاب العلم
المجتهدين وأبناء الأمة الغيورين
أهدي هذا الكتاب، سائلا المولى عز وجل
بأسمائه الحسنى وصفاته العلا
أن يكون خالصًا لوجهه الكريم
﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا
يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ [الكهف:١١٠]

الجزء الأول

الإمام محمد بن علي السنوسي

ومنهجه في التأسيس (التعليمي والحركي والدعوي والسياسي)



مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا اتَّقوا اللَّه حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مُّسْلمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمْ الَّذى خلقكم مِّن نَّفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوْجها وبثَّ منهُما رجالاً كثيراً ونساءً واتَّقُوا اللَّه الَّذى تساءلُون به والأرحام إنَّ اللَّه كان عليْكُمْ رقيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّه وقُولُوا قوْلاً سديداً (٧٠) يُصْلحْ لكُمْ أعْمالكُمْ ويغْفرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ ومن يُطع اللَّه ورسُولهُ فقدْ فاز فوْزًا عظيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

هذا هو الكتاب السابع فى سلسلة «صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى» يتحدث عن الحركة السنوسية فى ليبيا وقد سميته [الإمام محمد بن على السنوسى، منهجه فى التأسيس التعليمى، الحركى، الدعوى السياسى].

وقد ذكرت فى مقدمة الكتاب الأول من سلسلة [صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى]، أن اهتمامى بالتاريخ كانت بدايته خلف أسوار السجن السياسى فى ليبيا، وقد أكرمنى الله تعالى أن ألتقى فى مدرسة يوسف عليه السلام بعض وجهاء بلادنا المعتقلين من ذوى الثقافات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والاتجاهات المتباينة، وقد حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم وتاريخهم للأجيال القادمة. وقد استمعت إلى بعض أبناء الحركة السنوسية وهم يتحدثون عما قام به الدعاة والمجاهدون من أبناء الحركة فى إعزاز دين الله، ونصرة أهله والدعوة إليه فى الصحراء الكبرى، وغرب ووسط إفريقيا، وبلاد الحجاز، ومصر، والشمال الإفريقى. وكان لذلك الحديث أثره فى نفسى، ومن ثم اهتممت بجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة السنوسية، من أجل دراستها دراسة تحليلية وافية، والكتابة عنها. وكنت شديد الفرح بكل معلومة أحصل

عليها من أفواه رجال الحركة، فأكتبها على أوراق الصابون، وأوراق البسكويت، وأوراق حليب الكورنيشن بواسطة أقلام الرصاص والجرافيت التى كنا نستخرجها من بطاريات الشحن الصغيرة؛ لأنه كان من الصعوبة بمكان الحصول على أوراق أو أقلام فى المعتقل.

وجاء خروجى من السجن فى (٣/ ٣/ ١٩٨٨م) وقد أكرمنى الله بوضوح الهدف والشعور بوجوب الدعوة إلى الله تعالى، والاستعداد للتضحية فى سبيلها. وعندما خرجنا من المعتقل كانت الصحوة الإسلامية قد امتدت فى شرايين المجتمع الليبى، لقد غمرتنى سعادة كبرى بظهور التيار الإسلامى، وامتلاء المساجد وانتشار الحجاب، وظهور التدين فى المناسبات الاجتماعية. إلا أنه بعد احتكاكى ببعض أبناء الصحوة لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعى من الكتاب والسُّنَّة، كما أننى لمست انقطاعًا واضحًا عند هذا الجيل المبارك عن تاريخ أجداده، وجهادهم ضد فرنسا فى وسط إفريقيا والصحراء الكبرى، وجهادهم العظيم ضد إيطاليا فى طول البلاد وعرضها، وجهادهم ضد بريطانيا على الحدود المصرية الليبية وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقى إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. وبعد خروجى من بلادنا العزيزة لطلب العلم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت فكرة كتابة التاريخ قد استقرت فى ذهنى، وشرعت فى تنفيذها مستعينًا بالله العليم الحكيم، ومتضرعًا إلى التواب الرحيم أن يلهمنى الصواب، وييسر لى الأسباب. وبعد عشر سنين ظهرت تلك الفكرة بفضل الله ومنِّه وتوفيقه إلى حيز الوجود فى سلسلة «صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى» طُبع منها ستة كتب، وانتشرت فى المكتبات العربية، والمعارض الدولية ووصلت إلى كثير من القراء، فكانت بين مادح وذام، ومنتقد ومستدرك.

وقد وصلتنى ملاحظات علمية قيمة أشكر إخوانى على حسن نصحهم، وجميل إهدائهم وتشجيعهم، وأدعو الله العلى الكبير أن يوفقنى وإياهم لخدمة دينه وسُنَّة نبيه ﷺ، وتاريخ الإسلام المجيد.

وها أنا الآن أقدم للجزء الأول للكتاب السابع، وقد اطلع عليه بعض المختصين بعلم التاريخ، وقد قال أحد المؤرخين: إن ما يقوم به هذا الباحث الشاب رد عملى على كل من يريد أن يفصل ليبيا عن جذورها الإسلامية الممتدة فى أعماق التاريخ. ومن النوادر اللطيفة أنه عندما كنت أكتب فى هذا الكتاب طرق باب بيتى مجموعة من الشباب الليبى المهاجر، فأدخلتهم وأكرمتهم وبدأت أحدثهم عن الدرر والجواهر والأمجاد العظيمة، التى يزخر بها تاريخ بلادنا المعاصر، فقال لى أحدهم: لا

نريدك أن تكتب التاريخ وإنما نريدك أن تصنعه؛ فقلت لهم: أنتم تصنعونه وأنا أكتبه، فضحك الجميع. وما كانت تلك الكلمة لتثنيني عن هدفي الذي هيمن على نفسي ومشاعري وأحاسيسي، فبذلت له وقتي وجهدي ومالي سائلا المولى عز وجل أن تكون أعمالاً خالصة لوجهه الكريم.

إنني كلما توغلت في دراسة التاريخ ازددت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وبناء الدول ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم، ونشر العدل. وقد أيقنت أن الأيام دول وأن الأحداث تتكرر على اختلاف في الزمان والمكان ولكنها تتكرر في إطارها العام، والتاريخ يمد القارئ بخصائص وسمات الأحداث فيسهل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم والجماعات.

إن هذا الجزء الأول من الكتاب السابع يعرِّف القارئ الكريم بالإمام محمد بن علي السنوسي الذي يعتبره الكثيرون حامل لواء النهضة الحديثة في ليبيا، ومرسي قواعدها، وموقد جذوتها في قلوب قبائلها.

يتحدث هذا الكتاب عن حياة هذا الإمام الذي بارك الله في علمه وعمله وأحيا الله به شعبًا حمل لواء الدعوة والجهاد في الصحراء الكبرى، ووسط إفريقيا ولم يتردد في بذل ماله ورجاله من أجل نصرة دين الله تعالى.

ويسلط الأضواء على جوانب متعددة في منهج الحركة السنوسية، ليبين للقارئ الكريم أن شعب ليبيا عندما أكرمه الله تعالى بداعية رباني استطاع أن يفجر طاقته الكامنة تحول إلى مجتمع إسلامي قوي حمل مشاعل النور في قلب إفريقيا المظلمة، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الإسلام، وقارع الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي في ملحمة من أروع ملاحم التاريخ المعاصر في الصراع بين الكفر والإيمان والحق والباطل والهدى والضلال.

ويوضح للقارئ الكريم أن ابن السنوسي يعتبر رائدًا من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي، ووسطها وغربها، عمل على نشر الإسلام الصحيح، ومحاربة البدع، والخرافات، والشعوذة بأنواعها وأشكالها التي لحقت به في عصورها المتأخرة في مشرقه ومغربه على حد سواء.

إن هذا الجهد المتواضع يميط اللثام عن شخصية علمية دعوية ربانية، كان لها أثر -ولايزال- في ليبيا خصوصًا وإفريقيا عمومًا، ويجيب القارئ عن كثير من الأسئلة التي يحتاجها المهتمون بدراسة الدعوات الإصلاحية، والتي يبحث عن إجابتها دعاة الإسلام في ليبيا خصوصًا.

ما هى رحلات ابن السنوسى العلمية؟، وما هى العلوم التى درسها؟، ومن هم شيوخه؟، وما سر نجاحه؟، وما هى صفاته؟، وكيف تعرَّف على أحوال المسلمين وأخلاقهم؟، وكيف استطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى؟، وما هى خطة عمله التى سار عليها؟، وهل استفاد من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتجربة محمد على باشا حاكم مصر؟، وما هو أسلوبه فى التعامل مع الدولة العثمانية، وعلمائها؟، كيف تعامل مع الطرق الصوفية والقبائل البدوية، والقبائل الوثنية؟ وما هى حقيقة الزوايا السنوسية؟. وهل استطاع ابن السنوسى أن يجعل من قبائل ليبيا قوة إسلامية يحسب لها حسابها الإقليمى والدولى؟، وهل كانت مفاهيم الحركة السنوسية سلفية؟، وما هى علاقة ابن السنوسى بحركة الجهاد ضد إيطاليا وفرنسا؟، وهل كان من الممكن أن يخرج أبطال الجهاد، من أمثال أحمد الشريف، وعمر المختار، وغيرهم لولا الله ثم جهود ذلك المصلح العظيم؟

نعم، علامات استفهام كثيرة نحاول الإجابة عنها فى الجزء الأول ثم الجزء الثانى بإذن الله تعالى.

هذا وإننى لم آت بجديد، وإنما وفقنى الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً؛ فمن الله وحده، وإنَ أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لى ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأننى قد استفدت كثيراً فى كتابى هذا من الجهود التى سبقتنى ككتاب «السنوسية دين ودولة» لمحمد فؤاد شكرى، و«الحركة السنوسية» للدجانى، و«برقة العربية أمس واليوم» للأشهب، و«السنوسى الكبير» للأشهب، و«الفوائد الجلية فى تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن على، و«المجموعة المختارة» للإمام ابن السنوسى التى أعاد طباعتها محمد عبده بن غلبون وإخوانه، وغيرها من الكتب. وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه فى هامش الكتاب للأمانة العلمية، كما أننى انتهجت منهجًا دعويًا، تاريخيّاً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، وليس معنى هذا التحكم فى الحقيقة التاريخية، بل كشف الحقائق النيرة وتجريدها مما قامت به أقلام الأعداء من الدس والكذب والافتراء والتضليل، ومساهمة منى فى علاج الهزيمة النفسية التى يمر بها شعبنا المظلوم، ومتضرعًا لله تعالى الحى القيوم أن يحيى شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن الكريم، وسنَّة سيد الخلق أجمعين.

وقد قمت بتقسيم الجزء الأول من الكتاب السابع فى السلسلة التاريخية إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وهى كالآتى:

الفصل الأول: محمد بن على السنوسى، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته فى طلب العلم.

* المبحث الثانى: أسباب اختيار ابن السنوسى برقة مركزًا لدعوته.

* المبحث الثالث: إقامة ابن السنوسى فى الحجاز وعودته إلى برقة.

الفصل الثانى: البعد التنظيمى والمنهج التربوى والبعد السياسى عند ابن السنوسى، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول: البعد التنظيمى.

* المبحث الثانى: المنهج التربوى.

* المبحث الثالث: البعد السياسى.

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوى وثروته الفكرية وصفاته الربانية، ويشتمل على ثلاثة مباحث.

* المبحث الأول: الأسلوب الدعوى.

* المبحث الثانى: الجانب الفكرى عند ابن السنوسى من خلال كتبه.

* المبحث الثالث: من أهم صفات ابن السنوسى.

وأخيراً:

أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

على محمد محمد الصلابى

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

المدخل:

أحوال العالم الإسلامى قبيل ظهور الحركة السنوسية

بدأ الضعف والانحلال يدب فى أوصال الأمة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى، الذى هزم الصليبيين، وطهر بلاد المسلمين منهم، ومما زاد الأمر سوءًا احتلال التتار للممالك الإسلامية وتمزيقهم للأمة، والعمل على إزالة معالمها الحضارية، والدينية، والعلمية. وشاء الله عز وجل أن يلطف بهذه الأمة فأكرم الله العثمانيين بالتمكين، وكان قمة ذلك التمكين فى زمن السلطان محمد الفاتح الذى أجرى الله على يديه فتح القسطنطينية -عاصمة الدولة البيزنطية- عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) وبذلك عادت للأمة هيبتها وقوتها، ومجدها، وعزتها وتولى العثمانيون زعامة الأمة الإسلامية، وكان الشعب العثمانى قد تميز بالحماس، وحب الجهاد، وعشق الشهادة فى سبيل الله، وسلامة الفطرة، والبعد عن الأمراض الاجتماعية التى أصابت غيره من الشعوب، أضف إلى ذلك القيادة الربانية التى كانت تقود الشعب نحو ساحات الوغى، وتعمل على نشر الإسلام، وتزيل العوائق من أمام الأمم المفتوحة، ليعرض عليها الإسلام صافيًا نقيًا من كل شائبة، وهيمن الإسلام من جديد على زعامة العالم وقيادته، وأصبحت الدولة العثمانية تحكم فى ثلاث قارات: أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وتوغلت فى أوروبًا حتى بلغت الجيوش العثمانية أسوار فيينا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع، وقد جمعوا بين السيادتين: البرية والبحرية، وبين السلطتين: الروحية والسياسية[(١)].

«ولكن من سوء حظ المسلمين، أخذ الترك فى الانحطاط ودب إليهم داء الأمم قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة، وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة، وكان شر ما أصيبوا به الجمود فى العلم والجمود فى صناعة الحرب وتنظيم الجيوش»[(٢)].

وأخذت ملامح القوميات العرقية تظهر على مسرح الأحداث فى الدولة، وتفجرت الثورات فى البلقان، وشرعت فى تشكيل جمعيات قومية سرًا وعلنًا، وبدأت التوجهات العلمانية تظهر فى الأمة، وعمل اليهود والنصارى على تقوية هذه الاتجاهات الفاسدة، فاليهود أرادوا الانتقام؛

(١) انظر: إمام التوحيد، محمد بن عبد الوهاب (ص ٨، ٩).
(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوى (ص ١٤٨).

لأن العثمانيين منعوهم من فلسطين، والنصارى يريدون أن ينتقموا لحملاتهم الصليبية التى فشلت فى تحقيق أهدافها أمام جهاد عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.

وكانت الأحزاب العلمانية والجمعيات السرية والعصبيات القومية تنخر فى كيان الدولة العثمانية؛ فظهر من يدعو إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية.. إلخ، وبدأت الثورات تتفجر فى البلدان، وأخذت الحركات الانفصالية تتكاثر، وأخذت الدول الأوروبية فى دعمها، وتعد المشاريع لاقتسام تركة الرجل المريض، وكان العالم الإسلامى آنذاك منضويًا تحت لواء الدولة العثمانية التى فقدت عوامل النهوض، وأهملت شروط التمكين، وتباعدت عن أسبابه، وتخلفت عن ركب الحضارة. فدخلت الأقاليم الإسلامية فى دوامة التدهور، والظلام الحالك، والمحنة الشاملة، والجهل المطبق، والظلم الفادح، والفقر المدقع، فتفجرت الثورات بدوافع مختلفة: فمرة بدوافع العرق والقومية، وأخرى دفاعًا عن النفس ضد الجور والتعسف والظلم، وتارة بدافع الحقد والتعصب، وكانت اليهودية والصليبية خلف تمزيق السلطنة وإضعافها، فكثرت مصائبها وتعددت جبهاتها، وأصبح مركز الخلافة مفككًا ضعيفًا متدهورًا منحلاً، وقد أصيبت الولايات -كالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والشام، والحجاز- بالضعف الشديد والتدهور المريع، بسبب الظلم والاستبداد، وانتشار الجهل، وجمود العلم، وغياب القادة.

وصاحب هذا الانهيار فى كيان الدولة، أحداث خطيرة، كان لها أثر فعال على المسلمين فى جميع جوانب حياتهم الفكرية، والدينية، والعلمية، والسياسية، فمن تلك:

أ- احتل الفرنسيون مصر عام (١٧٩٨م) وظلوا فيها حتى عام (١٨٠١م) وتمكن محمد على باشا من الانفراد بحكمها بعد خروج فرنسا (١٨٠٥ - ١٨٤٨م) وكان هذا الرجل مصيبة كبرى على الأمة، واستطاعت الدول الأوروبية والمحافل الماسونية أن تحقق أهدافها بواسطته، فعمل على:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التى كانت عائقًا أمام الأطماع البريطانية فى الخليج العربى خصوصًا والمشرق عمومًا.

٢- فتح البلاد على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامى والمسلمين؛ كالمحافل الماسونية، والإرساليات التبشيرية، والأديرة، والكنائس، ومدارس تتعهد التيارات المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية للأمة.

٣- أتاح الفرص لشركات أوروبية تحكمت فى اقتصاد البلاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين ومنع المسلمين منها.

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيّق على العلماء والفقهاء، ولم يسمح للمسلمين أن يتكلتوا من أجل أهدافهم السامية، وغير ذلك من المساوئ.

ب- وفي عام (١٨٣٠م) احتلت فرنسا الجزائر، وفشلت الدولة العثمانية في منعها. وحاولت فرنسا جعل الجزائر قطعة منها، ثم امتد نفوذها إلى تونس عام (١٨٨١م) ودخلت إلى السودان الغربي.

جـ- احتلت بريطانيا عدن عام (١٨٣٩م) وبدأت في توسيع نفوذها وسلطانها على دول الخليج العربي، وبعض بلاد الشام، وحاولت الدولة العثمانية وقف السرطان الصليبي الذي أنهك جسم الأمة ولكنها فشلت، وأصبحت الأمة تعاني الآثار المترتبة بسبب ابتعادها عن شرع الله؛ فمن الناحية الاجتماعية، تفشى الجهل، وأصبح عامًا شاملاً لكل الديار الإسلامية، وضمر الإيمان، وتقاعست النفوس، وكان النزاع بين الأمراء مستمراً على حطام الدنيا، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين، وولاة الدولة العثمانية همهم جمع الأموال، وتكثير الأملاك إلا من رحم الله، وأخذ الظلم الذي استشرى يعجل بزوال الدولة العثمانية. أما من الناحية العلمية؛ فقد أصبحت الأمة في ليل حالك وظلام دامس؛ وتفشى الجهل في كل طبقات الأمة، وفي جوانبها الثقافية كالأدب والعلم والصناعات... وكان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابًا بالجدب العلمي، وشبه الشلل الفكري، وأصبح في حالة غيبوبة، واستولى عليه النعاس الشديد، ومات فيه النشاط والحيوية، والإبداع والاجتهاد في العلم والدين والأدب والشعر والحكمة، ودخلت الأمة في نفق التقليد الأعمى، وكان مظلمًا شديد الظلمة.

وأصبحت الجامعات الكبرى كالأزهر والزيتونة تهتم بالمتون وتترقى في الشروح، ومن بلغ الذروة في العلم والمعرفة فهم ما في الحواشي، وعاش العالم الإسلامي في عزلة سياسية وعلمية مخيفة، فلا علاقة له بشعوب الأرض إلا من خلال النزاع السياسي، والصدام العسكري، فتجمدت حياته العلمية وانتهت إلى ترديد كتب وعبارات الأقدمين، والمجتهد النحرير من يفهمها[١].

«وأصبح العلم مع الزمن، احتكاراً لأسر معينة، وغدت طبقة العلماء طبقة اجتماعية ذات امتيازات خاصة، واتخذوا موقفًا صلبًا ضد كل تجديد في عالم الفكر، فقد قاوموا إدخال المطابع إلى الدولة، وطباعة الكتب الدينية الإسلامية»[٢].

(١) انظر: إمام التوحيد، (ص١٧).
(٢) انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، (ص١٦).

وكان العلماء هم المشرفين على التربية والتعليم فى الدولة، ولم يستطع العلماء أن يجعلوا للتعليم فى المدارس والمعاهد برنامجًا يتناسب مع عصرهم، وقد تحدث بعض المفكرين عن عيوب التعليم متخذين من الأزهر الشريف مثلاً على ما وصلوا إليه.

فقد قال محمد خليل المرادى عن عيوب التعليم فى الأزهر ما يلى:

١- قبول أبناء الأكابر والأغنياء فى الأزهر ممن لا يتمتعون بمستوى تعليمى جيد.

٢- تدنى مستوى الأساتذة.

٣- استئثار بعض الأساتذة بتعليم كثير من المواد بحيث يعينون بدلاء عنهم مقابل مرتب زهيد.

٤- تحديد الموضوعات، وضيق النظر فى التدريس، فقد كان الهدف من التعليم تلقى بعض المعلومات المحدودة. أما تجاوز هذه المعلومات أو مجرد التساؤل عن صحتها، فقد يثير الشكوك ومقاومة العلماء، أو قد يصل إلى حد العقاب والطرد من المعهد أو فقدان مصدر العيش، ناهيك عن التشهير[1].

هذه أهم ملامح الحياة الأدبية والعلمية فى مصر.

أما من الناحية الصناعية:

فقد ضيع المسلمون الأعمار، وأخلدوا إلى التقليد الأعمى، ورضوا بالجمود، ولم يبتكروا فى الصناعات، بل أضاعوا ما كان لديهم من صناعات قديمة، وفقدوا مهارتهم، وحاول السلطان العثمانى سليم الثالث[2] أن يهتم بالإصلاح الصناعى، فأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه فى مدرسة الهندسة، وألف جيشًا على الطراز الحديث. فثار عليه الجيش؛ لغرابة ذلك، وتم قتله.

ومن الناحية الدينية:

«كان علماء الدين فى الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم حماة الشريعة والحريصين على التمسك بمذهب أهل السنَّة؛ إذ كان دين الدولة الإسلام ومذهبها الرسمى هو المذهب الحنفى، وكان على رأس هؤلاء العلماء: شيخ الإسلام ووظيفته شبيهة بوظيفة الخليفة العباسى الذى كان يقيم فى القاهرة فى ظل حكم المماليك، وكان مركزه معادلاً لمركز الصدر الأعظم «رئيس الوزراء،» ويتمتع شيخ الإسلام بصلاحية إصدار الفتاوى فى القضايا الكبرى، كأن يصدر فتوى بعزل السلطان أو

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة، علىّ المحافظة، (ص١٤، ١٥).
(٢) انظر: ترجمته فى كتاب الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط للمؤلف.

إعلان الجهاد، ولكنه من الناحية العملية يعيَّن من قبل السلطان ويلي شيخ الإسلام في منصبه «قاضي العسكر في الروملي، والأناضول، وقاضي استانبول، ويليهم عدد من القضاة يكوّنون جميعًا -مع شيخ الإسلام- المجلس الأعلى للعلماء»(١).

وجمد المسلمون في علوم دينهم، فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها. وجمدوا على فقه المذاهب، وجُل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

وجعلوا لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتيًا وإمامًا، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد: كلٌ ينتصر لمذهبه، وكلٌ يصلي خلف إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد، كما أن الإفتاء في أي مسألة حسب مذهب السائل، وحُرم على الناس خروجهم عنها، وأُغلق باب الاجتهاد بمغاليق من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآتم، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين، ولما وجب عليهم من النصح تاركين»(٢).

وعندما دخل نابليون بونابرت مصر غازيًا استفاد من أمثال أولئك العلماء وألّف منهم ديوان القضاء وقال: «إني أستعين بهم لاتقاء أكثر العقبات؛ إذ إن أكثرها دينية، ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصانًا، ولا أن يقوموا بأي عمل حربي، وقد استفدت منهم كثيرًا، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب»(٣).

وليس معنى ذلك أنه لم يكن لبعض العلماء دور في محاربة نابليون؛ بل إن ثورات القاهرة المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي، قادها علماء الأزهر، ولقد تعرضتُ لها في كتابي «الدولة العثمانية».

لقد انتشرت في ذاك العصر الدعوات المنحرفة، والأفكار المسمومة، وكثرت مظاهر تقديس القبور، وطلب الحاجات من أصحابها وبناء القباب الضخمة عليها والصلاة حولها، وارتكاب البدع الخطيرة، وانتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية شرقها وغربها، عربيها وعجميها. لقد ضاع مفهوم العبادة الصحيح، والولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنَّة رسولها ﷺ، فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات أعدائها، وأطماعهم الشريرة. فإذا

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، (ص١٢).

(٢) انظر: إمام التوحيد، (ص٢٢).

(٣) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، (ص١٢)

نظرنا للدولة العثمانية نجدها قد انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وكثر السلب والنهب، وفقد الأمن، وانحرف بعض السلاطين عن الصواب، يقول محمد كمال جمعة: «وكانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالجوارى والسبايا، وكان بعض أولئك السبايا أجنبيات من بلاد أجنبية، فكن عيونًا لدولهن على الدولة العثمانية»(١).

«وقد تعالى سلاطين هذه الدولة على الرعية، فإذا خاطبوا الرعية كانوا لا يوجهون الخطاب إليهم مباشرة، بل يقولون لولاتهم: بلغوا عبيد بابنا العالى»(٢).

وكانت الدولة العثمانية فى آخر زمانها لا تحارب التصوف المنحرف بمختلف طرائقه وبصوره التى بعدت عن الإسلام بعدًا شاسعًا، وكانت قد دخلت عليه عادات بعضها نصرانية، كالرهبانية، واللعب بذكر الله، وابتداع أساليب فيه كالرقص، والغناء، والصياح، والتصفيق . . . إلخ.

فإذا نظرنا إلى بلاد فارس؛ نجد الدولة الصفوية الرافضية قد عاصرت الدولة العثمانية، وكانت تدعى الإسلام وهى دولة رافضة على مذهب الإمامية، وكانت تغالى فى الرفض حتى أنها حاربت الدولة العثمانية -لأنها منسوبة إلى السنِّية- أشد الحرب بتحريض من النصارى والصليبيين، واستجابة لمعتقدهم الفاسد.

أما إذا نظرنا إلى بلاد الهند؛ فقد كانت الدولة المغولية؛ لكنها كانت بقية ورثها أبناء ملك الهند المغولى أكبر خان، وقد قرّب الشاعر الشيعى المسمى الملا مبارك ووليده أبا الفائز «وكان شاعرًا متصوفًا» وأبا الفضل «وكان فيلسوفًا على طريقة الصوفية المنحرفة»، وجعل فتح الله الشيرازى من أكابر علماء الشيعة من فارس مستشاره الشرعى، وهو شديد الوطأة على علماء أهل السنَّة، وألغى اللسان العربى من بلاطه وجعل الفارسى مكانه، وكان ميَّالاً إلى التصوف المنحرف ويراه أرقى طريقة إسلامية، وهو على طريقة تصوف أهل وحدة الوجود، وله عقائد أخرى منها تناسخ الأرواح، أخذه عن البراهمة(٣).

مما دعا الشيخ العالم ولى الله الدهلوى (ت ١١٧٦هـ) فى نهاية هذا العصر المغولى إلى أن يقوم بجهود تكسر الجمود، وتطلق العقول لتتماشى مع صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان(٤). لكن انتهت دولة المغول فى الهند، وطمعت دولة البرتغال الكافرة فى مسلمى الهند بسبب فساد ملوك

(١) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، (ص١٢).
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، (ص١٣).
(٣) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، للمودودى (ص٦٩، ٧٩).
(٤) المصدر السابق نفسه، (ص٧٩، ٨٠).

هذه الدولة المغولية، وقامت حروب داخلية كثيرة، وتغلب فيها الهندوس واستعمرتها شركة الهند الشرقية الإنجليزية حوالى (١١٧٥هـ)[١].

وعندما حاول ابنه السلطان عبد الرحمن إعادة بناء الأسطول، وقفت له تلك الدول بالمرصاد وأجبرته على التخلى عن عزمه[٢].

وبدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامى دولاً كلما أتيحت لها الفرصة. لقد اهتز المسلمون لاحتلال الصليبيين أجزاء من الوطن الإسلامى اهتزازاً عنيفًا، كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب، واطلاعهم على تقدمه، بالإضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم.

ومن هنا انبعثت حركات الإصلاح التى تتابعت فى العالم الإسلامى منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة، منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع فى العالم الإسلامى، وتحدى العالم الصليبى الأوروبى للعالم الإسلامى واحتلاله أجزاء منه. فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم. لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعدما أطبقت الجهالة على الأرض، وخيمت الظلمات على البلاد، وانتشر الشرك والضلال والابتداع فى الدين، وانطمس نور الإسلام، وخفى منار الحق والهدى، وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبق سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئًا، واختفت السنَّة وظهرت البدعة، وترأس أهل الضلال والأهواء، وأضحى الدين غريبًا والباطل قريبًا، حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل فى الإصلاح ويصاب بيأس قاتل فى أية محاولة تهدف إلى ذلك.

فكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- تعد البداية الحقيقية لما حدث فى العالم الإسلامى من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين[٣].

لقد كان أثر دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب عظيمًا فى العالم الإسلامى، ويكفى فى ذلك أن تكون عقيدة أهل السنَّة آخذة فى الظهور والزيادة والقوة بعد أن كانت غريبة ومحاربة فى أكثر البلاد، وبدأت الأمة تلتمس كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لتسير على هدى الإسلام الصحيح فى حياتها.

(١) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، (ص٢٠، ٢١).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص١٢).
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، للزهرانى (٢/ ٣٥٨).

وظهر الإمام محمد بن على السنوسى بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين، وكان لدعوته أثر فى مسيرة الأمة الإسلامية فى الشمال الإفريقى، وغربها ووسطها، وكذلك فى الحجاز وغيرها من أقطار العالم الإسلامى. ونترك للصفحات القادمة إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن حياته ورحلاته وأعماله، وكيف عاش واقع المسلمين المؤلم، وخطر الأوروبيين المحدق، فاندفع يعمل محاولا الإصلاح، وما العوامل التى أثرت عليه ودفعته إلى القيام بحركته؟، وما مؤلفاته وأفكاره؟ وما نظامه الحركى الذى سار عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟



الفصل الأول:

الإمام محمد بن على السنوسى

المبحث الأول

اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته فى طلب العلم

أولا: اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد بن على بن السنوسى بن العربى بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن على بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن على بن عمران بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب الهاشمى القرشى(١).

ولد سنة (١٢٠٢هـ) صبيحة يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمداً تيمنًا باسم النبى ﷺ، وكانت ولادته بضاحية «مَيْثَا» الواقعة ضفة وادى شلْف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم فى الجزائر(٢)، وتوفى والده بعد عامين من ولادته، وتولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة فى العلوم ومنقطعة للتدريس والوعظ، يحضر دروسها ومواعظها الرجال(٣)، واهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذى أظهر حبّاً عظيمًا لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيوخ مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها مع تعهد عمته له، ومن أشهر شيوخه فى تلك المرحلة، ممن أخذ عنهم القرآن الكريم مع القراءات السبع: محمد بن قعمش الطهراوى زوج عمته، وابنه عبد القادر -وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسى الذى تولاه بعد وفاة عمته فى الطاعون عام (١٢٠٩هـ) وعمره لم يتجاوز السابعة. وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط، وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الظمآن، المصباح، العقيلية، الندى، الجزيرة، الهداية المرضية فى القراءة المكية، حرز الأمانى

(١) انظر: المجموعة المختارة للإمام السنوسى (ص٧).
(٢) انظر: الفوائد الجلية فى تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علىّ (١/٨).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكرى (ص١١).

للشاطبى، وغيرها مما هو من وظائف قارئ القرآن[١]: وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القرآن وإتقانه، شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسى فى تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج، وتربيته على العمل بما تعلم، وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء. وتوفى ابن عمه عام (١٢١٩هـ)، فجلس محمد بن على عند شيوخ من مستغانم، وهم: محيى الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبى زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولى الطرابلسى، وكلهم من جهابذة العلماء فى زمانهم، ومكث يطلب العلم فى مستغانم سنتين كاملتين[٢].

وفى أوائل (١٢٢١هـ) خرج من مستغانم إلى بلدة مازونة ومكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشايخ هم: محمد بن علىّ بن أبى طالب، أبو رأس المعسكرى، وأبو المهل أبو زوينة[٣].

وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة، وتتلمذ على كبار شيوخها[٤].

ثانيا: نبوغ مبكر:

كان الشيخ محمد بن علىّ السنوسى فى صغره يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضى وقتًا طويلاً فى التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع. وكان يبحث عن عوامل النهوض، وأسباب توحيد صفوف الأمة، وإحياء الملة الإسلامية. وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالسًا فوق كثيب من الرمال تظهر على صفحات وجهه المشرق علامات التفكير العميق، فلما سأله عن السبب فى ذلك أجابه بأنه: «يفكر فى حال العالم الإسلامى الذى لا يعدو عن كونه قطيعًا من الغنم لا راعى له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه. فمع أن هناك عددًا كبيرًا من المرشدين وعلماء الدين الموجودين فى كل مكان، فإن العالم الإسلامى لا يزال مفتقرًا أشد الافتقار إلى مرشد حقيقى هدفه سوق العالم الإسلامى أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد، والسبب فى هذا هو انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ، وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم والتى فرّقتهم شيعًا وجماعات فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة، ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة. زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجبًا عظيمًا

(١)، (٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ١٠).
(٣)، (٤) انظر: الفوائد الجلية (١/ ١١).

فى حق الملة الإسلامية؛ إذ إن الشعوب المجاورة فى السودان والصحراء من إفريقية الغربية لاتزال تعبد الأوثان. ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، مازالوا يفضلون القبوع فى كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا همَّ لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين، الوثنيين»[1].

ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره فى كل حال، وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدى المسلمين فى كل وقت وبسرعة البرق، فالإسلام فى حالة التدهور المخيف. ثم ختم كلامه بقوله: «هذا ما أفكر فيه!، فلما سأله: وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافى ما ذكرت؟ أجاب: سأجتهد، سأجتهد»[2].

لقد كان تفكيره فى حال الأمة مبكرًا، واجتهد فى البحث عن العلل والأسباب التى أدت إلى التدهور والضعف المخيف فى كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التى فرقتهم شيعًا وجماعات، والتفريط فى حق دعوة الناس إلى الإسلام وضياع الأقاليم الإسلامية، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض فرأى أن بدايتها فى الإيمان العميق الذى هو أساس كل خير، وسبب لحصول البركات ونزول الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم فى وسائل الحياة الحرة الكريمة، فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهمًا سليمًا، وعن ضعف إيمانهم بقيمه ومثله، ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذى بيّنه الله فى كتابه، ورسوله ﷺ فى سنّته، وهو يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزًا طبيعيًا للتفوق[3].

وقد وصل إلى حقيقة مهمة ألا وهى أهمية العلم فى نهوض الأفراد والجماعات وَالأمم؛ لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة[4].

لقد كان شغفه بالعلم عظيمًا.

(١، ٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٣).
(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد (ص ٤١).
(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٦٢).

ثالثا: الرحلة إلى فاس:

وكانت المرحلة الثانية فى الطلب؛ حيث قصد مدينة فاس فى المغرب الأقصى ومكث فيها سبع سنوات تقريبًا، فأخذ العلم بالرواية عن أفضل علماء فاس مثل: حمودة بن حاج، حمدون بن عبد الرحمن، والطيب الكيرانى، محمد بن عامر المعوانى، وأبى بكر الإدريسى، وإدريس بن زيان العراقى، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالى، ومحمد البازعى، والعربى بن أحمد الدرقاوى، وكان العربى الدرقاوى من شيوخ الطريقة الشاذلية. وتبحر ابن السنوسى فى معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه فى علوم الدين، وتحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرسًا بالجامع الكبير بمدينة فاس، ونال المشيخة الكبرى بها[1]، وأقبل الناس عليه؛ لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة، وعقله المتنور، وفكره الناضج. وخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد أنه لا فائدة تُرجى من بقائه بفاس، وقرر الارتحال عنها بعد أن تبلورت أصول الدعوة فى ذهنه، وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التى أبعدت الإسلام عن حقيقته، وحالت بينه وبين أتباعه أن يحقق لهم ما حققه فى عهده الأول من رفعة. وتلك هى الوسيلة الوحيدة التى تمنح المسلمين القوة، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم، كما أن تجربته مع السلطان أكسبته خبرة فى التعامل مع الحكام فى المستقبل.

ولقد لاحظ فى فاس تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها، وانحرافها عن كتاب ربها وسُنَّة نبيها، وكيف بدأ الغزو الأوروبى يؤثر على المدن المغربية، وكيف دخلت البلاد فى الصراعات والخلافات الداخلية. ولعل الذى جعله يبقى فى المغرب الأقصى مدة سبع سنين متتالية هو جامع القرويين الذى وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرت بعضهم، وكان يتوق إلى لقائهم[2].

ولقد تعمق إحساسه بالخطر الأوروبى وشعر بالأخطار التى كانت تتهدد هذه البلاد من الدول الصليبية، ولقد سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التى حاقت بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن؛ حيث احتل الإسبان أجزاءً كثيرة منها، كالمرسى الكبير، ووهران، وعنابة وتنس ومدينة الجزائر، ومستغانم [مسقط رأسه]، وما زالت أعمالهم الشنيعة وأفعالهم القبيحة يرويها جيل عن جيل من القتل الذريع، والسبى الشنيع، وإهدار كل حرمة، وتحويل المساجد إلى كنائس. كانت تلك الأمور محل تأمل وتفكر من قبل ابن السنوسى[3].

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤).

(٢) انظر: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية، للحاجرى (ص ٢٧٨).

(٣) انظر: المصدر السابق نفسه (ص ٢٧٩).

لقد كانت تجربة فاس ثرية بالنسبة لابن السنوسي، وقد نقل لنا شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي ما درسه جده في فاس والشيوخ الذين أخذ عنهم فقال: «ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه «مختصر السعد» و«جمع الجوامع»، و«السلم»، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون بأسانيدهم السابقة وغيرهم من أمثال علماء فاس.

ومنهم العلامة التقي المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريس حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها والأسطر لابيين وصناعتها والعلوم الأربعة: الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والأرثماطيقي، والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الأحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر، والمقابلة وغيرها... إلخ»[(١)]، ولقد بقي ابن السنوسي مهتمًا بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه.

ويمكن للباحث أن يلاحظ عدة عوامل أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، وظهور خطوط واضحة بعد انتهاء تجربة المغرب الأقصى في فاس.

•• أما العوامل التي أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، فمنها:

١- ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، وتأثره بتاريخ أجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولذلك صمم على السير في طريق أجداده، ولقد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه «الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية».

٢- نشأته في بيئة علمية حببت إليه العلم وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة؛ فأبوه وعدد من أجداده كانوا من الفقهاء والعلماء.

٣- تأثره بعمته فاطمة التي أشرفت على تربيته في طفولته الأولى، وقد بقي ابن السنوسي في كهولته يذكر بعض توجيهاتها له.

٤- التقاليد والأعراف التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل شخصيته، من ذلك: اهتمام الأسرة بتربية علمية عملية فيها الدراسة وفيها الفروسية[(٢)].

(١) انظر: الحركة السنوسية للدجاني، (ص ٤٧) نقلاً عن «حاضر العالم الإسلامي».
(٢) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني (ص ٤٣).

٥- تأثر ابن السنوسى بما كان يراه من ظلم الولاة العثمانيين، ومن الثورات التى كانت تقوم بها القبائل ضدهم.

٦- لمس أطماع الدول الأوروبية فى بلاده.

•• وأما الخطوط العريضة التى اتضحت فى شخصيته بعد الإقامة بفاس. فمنها:

١- الصوفية التى تعمق ابن السنوسى فى دراستها:

وساعدته الظروف على ذلك، حيث كانت فاس مركزًا نشطًا للطرق الصوفية، وميدانًا خصبًا لنشاطها. ومعلوم لدى الباحثين أن الشمال الإفريقى على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى أهلها اهتمام كبير بها، وكان من الطبيعى أن يتأثر ابن السنوسى بالنظام المغربى للصوفية.

ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى آخر حياته وبقى خطها واضحًا فى شخصيته حتى أنه نظم طريقة خاصة، عرفت باسمه وكتب كتابًا سماه «السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين» تحدث فيه عن الطرق الصوفية عامة، ووصف الطريقة المثلى التى رضى بها والتى عُرفت بنسبتها إليه[1]. وكانت تجربته فى الصوفية قد أعطته خبرة فى التعامل معها؛ فهو لم يقبل الصوفية على إطلاقها، ولم يرفضها بالجملة، بل قيدها بالكتاب والسنَّة وجعل طريقته مبنية على «متابعة السنَّة فى الأقوال والأحوال والأشغال بالصلاة على النبى ﷺ فى عموم الأوقات»[2]، وقد اهتم بالصوفية اهتمامًا كبيرًا وظهرت هذه النزعة فى منهجه التربوى الذى جعله لأتباعه والذى سنفصله فى الصفحات المقبلة بإذن الله تعالى.

٢- اهتمامه بالدراسة الفقهية:

فقد واصل ابن السنوسى فى فاس دراسته الفقهية على المذهب المالكى ودرس كتب الفقه على يد شيوخه، وقد ذكر فى مقدمته «للموطأ» أنه أخذه على طريقتى المغاربة والمشارقة، وذكر اثنين من شيوخه المغاربة وهما: محمد بن عامر المعدانى، ومحمد بن عبد السلام الناصرى. ولقد ظهرت سعة اطلاعه فى الفقه المالكى وفقه المذاهب الأخرى فى تأليفه، ولقد بقى اهتمامه بالجانب الفقهى حتى آخر حياته، واستمر على المذهب المالكى مع اجتهاده فيه ومخالفته للمالكية فى مجموعة من المسائل سنبينها فى الصفحات المقبلة إن شاء الله. ونلاحظ أن اهتمام ابن السنوسى بالتصوف والفقه أكسب حركته طابعًا مميزًا؛ فهو لم يغل فى صوفيته ولم يغرق فى شطحاتها، كما أنه لم يغل ولم

(١) إمام التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، للقطان (ص ١٩٠).
(٢) انظر: السلسبيل (ص ٧).

يقف عند الحروف الفقهية ولم يتجمد فى فهم أحكامها؛ بل زاوج بين دراستها، فأكسب صوفيته طابع السنَّة ولجّمها بحدود الشرع، وأعطى فقهه رونقًا وروحانية متألقة بعيدة عن الجمود.

٣- اهتمامه بالحركات الإصلاحية:

اهتمامه بالحركات الإصلاحية والوقوف فى وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معها لتحقيق الإصلاح وتنظيم تكتل شعبى يسند هذه المطالبة ويعززها، فقد زاد هذا الاهتمام بفاس -عاصمة الدولة المغربية ومركزها المهم- فى نشر الوعى، وإشعاع العلم(١).

•• يقول الدكتور محمد فؤاد شكرى:

«ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته فى أن يرى العدل باسطًا جناحه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طرًا، هما كل ما يريد فى حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة فى أثناء دروسه، وجرّب مع الأهلين وأصحاب الشأن فى فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى. ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاى سليمان إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية، قد تعصف بالسلطنة.

وعلى ذلك فقد شددت الحكومة فى مراقبة السيد، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه فى فاس، وقرر الارتحال»(٢).

رابعًا: الأسباب التى جعلت ابن السنوسى يغادر فاس:

فى عام (١٢٣٥هـ)(٣)، غادر ابن السنوسى فاس إلى الجزائر، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب جعلته يغادر فاس، منها:

١- أن فتنًا كثيرة ثارت فى فاس؛ حيث عمّت الفوضى المدينة واضطر أهل الحل والعقد أن يقوموا بضبطها، ثم حدثت فتنة أخرى بسبب نزاع جرى بين القاضى والمفتى رفع أمره للسلطان سليمان فأخّر المفتى عن الفتوى، فغضب للمفتى جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتحزبوا على القاضى فكتبوا رسمًا يتضمن الشهادة بجوره وجهله(٤)، ثم اضطرمت نار الفتنة حتى انتهت

(١) انظر: الحركة السنوسية، للدجانى (ص ٤٣).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤).
(٣) انظر: ساحتى فى صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد (ص ٦٦).
(٤) انظر: الاستقصاء للناصرى (ص ٨/ ١٤٦).

بخروج أهل فاس على السلطان سليمان، وعزموا على مبايعة المولى إبراهيم بن يزيد زوج ابنة السلطان فامتنع أولاً فهددوه قائلين: «إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس رضى الله عنه» فخاف خروج الأمر من بينهم فوافق[١]، وكان من العلماء الذين حضروا البيعة: محمد العربى الدرقاوى وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسى، ولم يكن دور ابن السنوسى كبيرًا فى تلك الأحداث، وكانت الأحوال فى فاس تدعو ابن السنوسى للمغادرة وخصوصًا بعد أن استطاع السلطان سليمان استعادتها ودخول شيخه الدرقاوى إلى السجن وتزعزع مركز العلماء والطلاب الذين وقفوا ضد السلطان سليمان، ولا شك أن تلك الأحداث أكسبته خبرات كثيرة وأضافت إلى رصيده تجارب مهمة فى حياته المستقبلية[٢].

٢- ومن الأسباب التى شجعت ابن السنوسى على مغادرة فاس أنه كان قد أخذ حظًا وافرًا من الدراسة على علمائها وتاقت نفسه للأخذ على علماء جدد، ولذلك نراه فى طريق عودته من فاس يدخل فى أعماق صحراء الجزائر ليتعرف على أشهر الزوايا وليقابل مقدميها حتى بلغ عين مهدى[٣]، مكث فيها مدة قصيرة ثم قصد «الأغوات» التى كانت تمتاز بموقعها فى جنوب الجزائر بوصفها ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربى، وفيها مكث بعض الوقت وتلقى دروسًا فى الفقه والشريعة، ثم ارتحل منها إلى مسعد ثم إلى جلفة ثم إلى بوسعدة وهو فى أثناء رحلته يوعظ ويدرس ويفقه الناس بأمور دينهم[٤]. وكان لرحلته فى جنوب الجزائر أثر فى نضوج شخصيته، وفى إعداده لما أخذ نفسه به، فها هو ذا يشهد ذلك العالم الذى يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذى عهده فى مدن الجزائر وفى فاس بالمغرب الأقصى، وها هو ذا يرى ميادين جديدة للدعوة والإصلاح تتفتح له، عالم بدوى بعيد عن صور الحضارة وتقيداتها، ثم هو فى الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية.

وقد كانت تلك البوادى -على سكونها وهدوئها- تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمال التجارية، وكانت الزوايا الدينية التى يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هى أهم مراكز هذه الحركات، أو لعلها المراكز الوحيدة لها. وكانت هذه الزوايا، أو هذه المراكز الثقافية، تقع فى الغالب على طرق التجارة التى تربط السودان بالشمال، وتنتقل بواسطتها السلع فى قوافل لاتزال رائحة وغادية.

---

(١) انظر: الاستقصاء للناصرى (٨/ ١٥٠).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ٥٥).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة. (ص ١٤).
(٤) انظر: الحركة السنوسية (ص ٥٧).

وفى هذه الزوايا يلتقى رجال القوافل القادمون من الجنوب والعائدون من الشمال، يجلسون إلى شيوخها، ويستروحون بالتلقى عنهم، والانغماس فى جوهم وبتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التى جاءوا منها أو مروا بها، وبذلك كانت تلك الزوايا محلاً ثرياً بالمعلومات(١)، وأخبار الشعوب الإسلامية، وفى هذه الزوايا كان نشاط ابن السنوسى فى السودان الغربى يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وقد أيقن أن من عوامل نهوض الأمة القيام بهذا الدور العظيم؛ فإن الإسلام الذى آمن به ابن السنوسى لا يكتفى بأن يكون فى نفسه صالحًا مهتديًا، وإنما يريد منه أن يكون مصلحًا هاديًا متسلحًا بالعلم، ومتحليًا بالحلم، ومتجملاً بالصبر، ومتحرراً من كل القيود التى تشده إلى الأرض، وتقعد به عن كلمة الحق، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر، وفى كل البقاع. لم يبال ابن السنوسى بالتعب والنصب فى سبيل رسالته ودعوته، بل كان محتسبًا الأجر والمثوبة عند الله تعالى، وكان يرى أن شرفه معقود بأداء تلك الرسالة المقدسة.

وقد مكث فى تلك الديار ما يقارب العامين معلمًا ومربيًا وداعيًا، ولقد استفاد من هذه التجربة دروسًا عظيمة جعلته يركز فى مستقبله على دعوة البادية؛ لما رأى فيهم من صفاء الفطرة، وجمال الخُلق، وحُب التدين، وبعدهم عن الفساد وتعقيد الحياة الاجتماعية، وسيطرة الأهواء السياسية، كما لاحظ ذلك فى المدن التى عاش فيها(٢).

٣- ومن الأسباب التى جعلته يغادر فاس: رغبته الملحة فى حج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبى ﷺ ولذلك غادر بلاد السودان الغربى فى رفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق(٣).

خامسًا: رحلته إلى المشرق:

كان التفكير عند ابن السنوسى فى السفر إلى مكة طبيعياً؛ فهو من ناحية لابد أنه تاقت نفسه إلى بيت الله الحرام، وحلم طويلاً بالعيش فى الأراضى المقدسة، وقضاء فريضة الحج. كما أنه رأى فى الإقامة بمكة فرصة للقاء كبار علماء العالم الإسلامى، وقد استقرت فى نفسه نصيحة أحد شيوخه إذ قال له: «إن الارتحال المستمر صعب، فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا السفر إلى مكة؛ حيث يلتقى جميع علماء المسلمين»(٤)، بالإضافة إلى التعرف على الشعوب الإسلامية عن قرب.

---

(١) انظر: دراسات وصور، للحاجرى، (ص ٢٨١، ٢٨٢).
(٢) انظر: دراسات وصور، للحاجرى، (ص ٢٨٢).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٢٨٣).
(٤) انظر: الحركة السنوسية (ص ٥٩).

وقد ذكر بعض المؤرخين[١] أن ابن السنوسى قبل أن يسافر إلى المشرق رجع إلى بلدة مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له؛ إذ بنى بإحدى بنات عمومته، ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه واحتكم للقضاء فحكم له بالأملاك والريع ولأقاربه بالسجن، فتنازل عن الريع وطلب إخلاء سبيلهم، فكان له ذلك. ثم إنه بعد ذلك صفّى أملاكه وانتقل إلى جهة قسنطينة وجاء عند عرب اسمهم أولاد نايل، كانوا فى جنوب شرق قسنطينة فبنى عندهم زاوية ومارس هناك الوعظ والتعليم والإرشاد.

وقرر ابن السنوسى بعد ذلك الارتحال إلى مكة وعرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب فى ذلك، فرأى أن يطلقها لعلمه بطول المدة التى يرغب فيها بالانقطاع عن بلده[٢]، ووُلد له من زواجه الأول طفل توفى وهو صغير، ثم ماتت أمه بعد ذلك[٣].

وغادر ابن السنوسى الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه وطُلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب، وكان ذلك فى حكم يوسف القرمانلى الذى كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله ومكث فى مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم ونفع العباد، ولم يترك بها مسجداً معروفًا إلا ألقى فيه دروسًا، وتعلق به آل المنتصر وأصبحوا فيما بعد هم النائبين عنه فى طرابلس، وسافر إلى زليطن للوعظ والإرشاد والدعوة واستطاع أن يكسب لدعوته أنصاراً من مصراتة وزليطن وطرابلس، ومن أشهر الأسر التى أصبحت من ركائز الدعوة السنوسية فيما بعد: آل المحجوب، وآل الآشهب، وآل الدرنى، وآل عمران بن بركة، وآل يوسف، وآل ابن فرج الله، وآل المقرحى، وآل الثنى، وآل الغريانى، وآل العيساوى، وآل الغزالى، وآل الهونى، وآل الزناتى[٤]، وساعده على تعلق الناس به خلق كريم، وطلعة بهية، وقبول من رب العالمين.

ونستطيع أن نحدد تاريخ دخول ابن السنوسى طرابلس الغرب من حديث حفيده أحمد الشريف الذى تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة «فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادمًا من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئاتين والألف فى بلدة زليطن بغرب طرابلس الغرب»[٥].

(١) منهم: أحمد الدجانى.
(٢) انظر: الحركة السنوسية، للدجانى (ص ٥٨).
(٣) انظر: الفوائد الجلية، (ص ١/ ١٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ١٥، ١٦، ١٧).
(٥) انظر: أحمد الشريف، (ص ٨) نقلاً عن الدجانى، (ص ٥٩).

ومن خلال مروره على طول الساحل الإفريقى تعرف على أحوال مسلمى المغرب وكوّن فكرة عن أوضاعهم، وأتاحت له تلك الرحلات التعرف على أناس كثيرين وعلى أماكن كثيرة، وقد استفاد من هذا التعارف فيما بعد عند عودته من الحجاز، وكان من طبيعة ابن السنوسى أن يوطد علاقاته بمن يتعرف عليهم، ووثّق صلته بأشخاص كثيرين، ونجح فى كسب قلوب الكثيرين حتى أن رجلاً كعمران بن بركة كان يريد مرافقة ابن السنوسى ولكنه طلب منه التريث والانتظار حتى يرسل له[١].

وواصل ابن السنوسى سيره ودخل برقة وقبل وصوله إلى مدينة إجدابية مر على نجع شيوخ المغاربة الشيخ علىّ لطيوش فأكرمه وقام بخدمته خير قيام دون سابق معرفة، ورافقه إلى إجدابية وجهزه إلى أوجلع، ولم يمر ببنغازى ولا الساحل، وتعرف على الشيخ عمر بوحوا الأوجلى، وكان فى رفقته عبد له، وعبد الله التواتى، واستمر فى رحلته مع الصحراء بواسطة القوافل حتى وصل القاهرة[٢].

سادساً: دخوله القاهرة:

دخل ابن السنوسى مصر وكان الحكم آنذاك لمحمد على باشا، وكان صاحب الجولة والصولة، وكان ذلك فى عام (١٢٣٩هـ/ ١٨٢٤م)، وكان محمد علىّ باشا قد قبض على زمام الأمور فى مصر بقوة منذ سنة (١٨٠٥) وكانت فرصة لابن السنوسى ليتعرف على تجربة محمد على باشا عن قرب، وقد لاحظ السنوسى عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذى أقامه محمد علىّ باشا وطريقة الإصلاح، وازدادت قناعة ابن السنوسى فيما بعد بخطورة حركة محمد علىّ باشا التى كانت سياسته تخدم أعداء الإسلام، وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية ما زالت آثارها تعانيها الأمة حتى اليوم.

•• لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة محمد علىّ باشا:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التى كانت عقبة كئوداً أمام الأطماع البريطانية فى الخليج العربى خصوصاً والمشرق عموماً.

٢- فتح الأبواب على مصاريعها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامى والمسلمين فى محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس كانت سبباً فى بذر التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية، وقد فصّلتُ ذلك فى كتاب «الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط».

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، للدجانى (ص ٦٠).

(٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ١٥ إلى ٢١).

٣- إتاحة الفرصة أمام شركات أوروبية لتتحكم فى الاقتصاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالى مصر والشام من تلك الامتيازات.

٥- خنق التيار الإسلامى الأصيل، والتضييق على العلماء والفقهاء، وعدم السماح للمسلمين بأن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة(١).

وأما عن حالة الأزهر فى ذلك الوقت فقد كان فى انحطاط؛ فالعلوم التى تدرس فيه تراكم عليها الغبار لقدمها، وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد. أما علماء الأزهر فقد عمل محمد علىّ باشا على إضعاف دورهم ووقعت بينهم المنافسات والضغائن، واستعان بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم. وعمل محمد علىّ باشا على تقويض صف العلماء؛ كالخلاف الذى وقع بين الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر، وبعض المشايخ الآخرين؛ حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علىّ باشا إلى الشيخ الشرقاوى بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة(٢)، وسبب ذلك كما يقول الجبرتى: «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه.. فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر، فامتثل الأمر ولم يجد ناصرًا، وأُهمل أمره»(٣).

وقد أصيبت العلوم الدينية فى الأزهر بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل، منها:

١- الاهتمام بالمختصرات:

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم فى متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة من أدلتها من الكتاب والسُّنَّة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها»(٤).

ويذكر الإمام الشوكانى اهتمام الناس فى عصره بهذه المختصرات والخطورة التى تنطوى على ذلك فيقول: «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التى هى مشتملة على ما هو من علم الرأى والرواية، والرأى الغالب بنظرهم، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأسًا من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنَّة وعلمهما جهلاً شديدًا؛ لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر فى ذلك، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهدًا شديدًا»(٥).

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، للمؤلف (ص ٥٩٠).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٥٩٠). (٣) انظر: عجائب الآثار (٣/ ١٣٤).
(٤) انظر: واقعنا المعاصر (ص ٥٦).
(٥) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (١/ ٨٦).

٢- الشروح والحواشي والتقريرات:

انتشرت الشروح والحواشي والتقريرات فى تلك الفترة فى الأزهر الشريف وفى عموم الأمة، فكانت كالأغلال التى كبّلت العقول وأدت إلى جمود العلوم، وكانت توجد الحواشي والشروح المفيدة ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم بعيدة عن منهج أهل السنَّة والجماعة، وكان الأزهر مركزًا لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام، وأصيبت المناهج الإسلامية بالإضافة إلى الجمود بموجة من الجفاف «... وأصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه، حتى الأبواب التى كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها...»[(١)].

٣- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية فى الأزهر فى تلك الفترة: التساهل فى منح الإجازات؛ فكانت تُعطَى جزافًا؛ إذ كان يكفى أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيرًا ما أُعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة، فكان العالم فى القاهرة يبعث إلى طالب فى مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره[(٢)].

فكان ذلك التساهل من الأمور التى شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم، كما كان ينبغى، وهكذا كان التساهل فى منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمى وضعف العلوم الشرعية؛ حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم: حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التى لم يكن لها فى كثير من الأحيان أى رصيد علمى فى الواقع[(٣)].

٤- رفض فتح باب الاجتهاد:

«أصبحت الدعوة لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمى بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكانت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد قد توارثها المتعصبون على مر العصور، وأصبح حرصهم فى أواخر الدولة العثمانية ظاهرًا، ونافحوا من أجل عدم فتحه ومقاومة كل من يحوم حوله. مما شجع المغتربين على السعى الدءوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا. ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر فى حياة المسلمين إلى يومنا هذا. فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته، فماذا يحدث؟

(١) المجتمع الإسلامى، محمد المبارك (ص ٢١٠).
(٢) الانحرافات العقدية والعلمية، للزهرانى (٢/ ٥٩).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٤).

•• يحدث أحد الأمرين:

* إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ؛ لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها.

* وإما تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج فى ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معًا، الواحد تلو الآخر . . . الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة[1].

لقد عانت الأمة غلق باب الاجتهاد، وكانت الدولة العثمانية فى أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقه، وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم: «وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبدًا، فهى تلد كل يوم جديدًا لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل. وكان من هذا أن مضى الناس -من غير المسلمين- يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديدًا. وهكذا سار الناس من غير المسلمين قدمًا فى الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذى كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون»[2].

٥- التعصب المذهبى:

استمر التعصب المذهبى فى الأزهر يضعف المستوى التعليمى، وانحدرت العلوم، وتكبلت العقول والأفهام، وفرّق بين كلمة المسلمين وأفسد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادى غيرها من أجله. وفى تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعمّ الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميدانًا رحبًا للصراعات المذهبية خصوصًا بين الشوافع والأحناف، وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[3]. إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين فى القرون الأخيرة؛ فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعيًا وسياسيًا، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام»[4].

وكانت زيارته لمصر قد رسّخت فى نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علىّ باشا على مسرح الأحداث فى مصر.

(١) انظر: واقعنا المعاصر (ص ١٥٩).
(٢) انظر: سد باب الاجتهاد وما يترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب (ص ١٤٤).
(٣) انظر: عجائب الآثار (٢/ ٢٤٢).
(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٨٦).

•• وقد وصل إلى قناعات مهمة فى الإصلاح والنهوض، من أهمها:

١ - أن المسلمين كانوا فى حاجة ضرورية إلى العلماء الربانيين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم.

٢ - أهمية إحياء مبدأ الشورى على مستوى الحكومات، وخطورة الحكام المستبدين الذين يتحكمون فى رقاب الأمة باسم الإسلام.

٣ - خطورة جمود العلماء وتعصبهم وتقاعسهم فى نشر العلوم النافعة بين جميع طبقات الشعب.

٤ - أهمية تعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب، وتحبيب عوام المسلمين فى الفروسية والرياضة واستعمال السلاح.

٥ - خطورة التسويف وترك العمل الجاد الخلاق.

وقد عمل ابن السنوسى فى تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه وظهر بهذه النتيجة التى تقول: إنه فى حاجة ملحة إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التى استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبا هو وليد العلم الذى سبب لهم التفوق فى مجالات الصناعة والرياضة والفنون الحربية، وقد لمس ذلك فى المشاريع التى أشرفت عليها فرنسا وبريطانيا فى مصر فى زمن محمد علىّ باشا.

والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم المسلمين وعدم اتحادهم؛ اختلاف المذاهب وكثرة الطرق، والحكم الفردى الاستبدادى، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثل فى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ[1].

وبعد هذه التجربة القصيرة فى مصر قرر مواصلة سفره إلى الحجاز بعد أن أقام عامًا واحدًا، وقد أحدثت زيارته لها آثارًا فى نفسه، من ذلك: أنه ازداد إيمانًا بأن دولة الخلافة كانت فى طريق الانحلال والاضمحلال، وقد ذكر المؤرخ التركى أحمد حلمى قوله: «وأحدثت هذه الزيارة فى نفسه تبدلاً عظيمًا، وانتقش فى ذهنه أن الدولة العثمانية فى طريق الانحلال والاضمحلال»[1].

لقد خبر ابن السنوسى أوضاع الدولة العثمانية فى وطنه الأول الجزائر؛ حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادى، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم. وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علىّ باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعًا بعجز الدولة وضعفها[2].

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٨). (٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ٦٥).

سابعًا: دخول الحجاز:

دخل ابن السنوسى الحجاز عام (١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م)، ونزل بمكة المكرمة، وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير فى قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها.

وساعد على هذه جملة أسباب:

١- استطاع ابن السنوسى أن يتحصل على أنباء عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين إلى مكة.

٢- أتيحت له فرصة طيبة للاحتكاك بعلماء وفقهاء ومفكرى الأمة، وتبادل معهم الآراء والأفكار فى كيفية النهوض وإعادة مجد الأمة.

٣- كانت مكة منبرًا مهمّاً للدعوة، ولذلك اشتغل ابن السنوسى بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها، واجتهد فى دراسة المذاهب الإسلامية حتى حذق مخاطبة جميع العالم الإسلامى.

٤- أتيحت له الدراية بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قرب، وعاشر أتباع الدعوة السلفية ومريديها وتتلمذ على علمائها وشيوخها، ودرس الحركة السلفية دراسة واعية فى مواقفها السياسية واجتهاداتها العلمية.

٦- شيوخه فى مكة:

أقبل ابن السنوسى فى مكة على العلماء يتعرف عليهم ويأخذ عنهم، لقد كان تشوقه للعلم فى أخذه يبدو جليّاً فى أى مكان حل فيه، وكانت مكة تضم عددًا من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة. ففيهم الصوفى وفيهم المذهبى وفيهم السلفى، وهذا جعله يطلع على معظم الاتجاهات فى عصره.

•• ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

١- أبو سليمان عبد الحفيظ العجمى مفتى مكة وقاضيها.

٢- أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار.

وقد ذكرهما فى رسالته التى كتبها، كمقدمة لموطأ مالك باعتبارهما العالمين اللذين يروى الموطأ عنهما من المشارقة.

٣- أحمد الدجانى، حيث أخذ عنه ابن السنوسى عددًا من الطرق الصوفية.

٤- أحمد بن إدريس، من أفضل شيوخ ابن السنوسى، وقد تأثر به ابن السنوسى تأثرًا عظيمًا، وقد أخذ عنه ابن السنوسى عددًا من الطرق الصوفية، ودرس عليه الحديث والسُّنَّة.

وُلد أحمد بن إدريس سنة (١١٧٣هـ) بميسورة[١]، أصله من المغرب الأقصى، وتلقى العلم عن أكابر علمائها، ثم هاجر إلى مكة واستقر في الحجاز، وأصبح من علماء وقته. ومر هذا العالم بالجزائر وطرابلس وبنغازى سيراً على الأقدام، واستقر فترة من الزمن فى بنغازى، ثم رحل إلى الإسكندرية بحراً، وأثنى على أهل بنغارى وأهل الجبل الأخضر؛ لما رأى عندهم من محبة الخير والصلاح وقال فيهم: «هذه بلادنا فيه تحيا أورادنا، حيها سعيد وميتها شهيد، طوبى لمن أراد الخير لأهلها، وويل لمن أراد الشر بأهلها»[٢].

ودخل الحجاز واستمر يتنقل بين مكة والمدينة والطائف ما يقارب ثلاثين سنة، واستفاد منه خلق كثير من أصقاع العالم الإسلامى من مصر، والسودان، والهند، واليمن، وبلاد المغرب، وغيرهم وكان دخول الحجاز عام (١٢١٣هـ)[٣].

وعندما دخل سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز عام (١٢٢١هـ) لم يتعرض للشيخ أحمد ابن إدريس بأذى، وكذلك أتباعه، وقد وصف ابن إدريس بأنه ذو ميول سلفية.

قضى ابن السنوسى سنوات عديدة مع أستاذه ابن إدريس إلى أن اضطر الأخير إلى الارتحال من الحجاز: «وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن إدريس من عنف السلطات الحكومية، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق فى منهجه مع ما اعتاد عليه هؤلاء من أزمان طويلة حتى صاروا يعدونه مبتدعًا، ثم انقلب نقدهم اضطهاداً اضطر بسببه السيد ابن إدريس لمغادرة مكة إلى صبيا العسير». وكانت «صبيا العسير» ضمن أملاك الدولة السعودية ومبادئ الدعوة السلفية متمكنة فى نفوس أهلها، وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية فى مكة وأتباعها.

إن ارتحال أحمد بن إدريس إلى صبيا دليل على حُسن الصلة التى بينه وبين أتباع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٤]، وسافر ابن السنوسى مع أستاذه إلى صبيا وأقام معه هناك حتى وفاته[٥].

إن تتلمذ ابن السنوسى على أحمد بن إدريس أفاده كثيراً، وقد توثقت العلاقة بين ابن السنوسى وشيخه ابن إدريس وأصبحت علاقة قوية جداً يوضحها أحمد الشريف فى كتابه «الأنوار القدسية» ما نقله عن ابن إدريس: «... أما ولدنا السيد محمد بن السنوسى فنحن أمرناه

---

(١) انظر: الدجانى (ص ٧٦).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (ص ٢٤).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢١ إلى ٢٣).
(٤) انظر: الحركة السنوسية (ص ١٠١).
(٥) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢١).

أن يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إلى الله، إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته؛ فإنه النائب عنا قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مرارًا أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره، فلم نر المصلحة إلا فيه هو . . . ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله، فقد قام امتثالاً لأمره، فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه»(١).

لقد أخذ ابن السنوسى من شيخه الإذن لإعطاء العهود وتلقين الذكر فأذن له وأمره «أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله»(٢)، ولم يلبث ابن السنوسى طويلاً بعد ذلك حتى بنى أول زاوية فى الحجاز وباشر الدعوة فى حياة شيخه ابن إدريس، وشرع ابن السنوسى فى إلقاء الدروس فى مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم، ويعتبر المؤرخون زاوية أبى قبيس أولى الزوايا التى أسسها ابن السنوسى بعد اعتزامه القيام بالدعوة واختياره الزوايا كوسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره، ومكث فى الحجاز فى رحلته الأولى خمس عشر سنة، استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع والمريدين أعدادًا كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسُّنَّة فى دروسه، واقتفاء السلف الصالح فى إرشاده وتعليمه، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه.

وزاد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته وخطورة الدعوة التى يحملها من جراء التفاف الناس حوله، وكان ابن السنوسى على اتصال مستمر بأبناء ابن إدريس فى صبيا وهى تابعة للحركة السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة، وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وهكذا كثرت الصعاب والعوائق فى طريقه، وفكر فى الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر، ولا شك أن إقامته الطويلة فى مكة أثرت على جوانب كثيرة فى تفكيره ووجهت اتجاهه الإصلاحى الوجهة التى سار عليها، فهناك فى مكة أخذ كفايته على العلماء، ودرس معظم الاتجاهات الفكرية، والتقى أستاذه ابن إدريس، وكذلك ووفود الحجيج القادمين من مدن وقرى العالم الإسلامى، وتعرَّف على أحوالهم، وزاد فهمًا للداء الذى ينخر فيهم، وكانت هذه الجموع من الحجيج تربة خصبة استطاع أن يبذر فيها دعوته واختار منهم من يصلح لمعاونته(٣).

ولم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد فى نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا. وعندما قَدم محيى الدين الجزائرى برفقة ولده وأشراف قومه إلى مكة، التقاهم ابن السنوسى وأكرمهم غاية الإكرام، وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: «إن الدين الإسلامى يحتم على كل مسلم أن

---

(١) انظر: الأنوار القدسية، مخطوطة (ص ٦٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص ٧٢).

يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدى والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله. وإنى أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً؛ فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد». فكان هذا سببًا فى إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه، ومعلوم لدى الباحثين جهاد عبد القادر محيى الدين الجزائرى فى الجزائر(١).

•• زواجه الثانى:

وفى فترة إقامته فى الحجاز تزوج ابن السنوسى زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية، وقد قام بتزويجه أستاذه ابن إدريس الذى رآه يعيش عزبًا منذ طلاقه لزوجته الأولى، وكانت السيدة خديجة تتصف بالتقوى والصلاح، وقد قامت بدورها نحو زوجها فهيأت له أسباب الراحة ورافقته فى رحلاته، ورضيت بأسلوب حياته الصعب الذى يتصف بالانتقال المستمر والعمل المرهق، وقد توفيت فيما بعد بالجنوب بعد وفاة ابن السنوسى بحوالى عشرين سنة (١٢٦٩هـ)(٢).

ثامنًا: رحلته من الحجاز إلى المغرب:

تضافرت عدة أسباب دفعت ابن السنوسى لمغادرة مكة، منها: وفاة أستاذه أحمد بن إدريس، عداوة شيوخ مكة وعلمائها لما كان يطرحه ابن السنوسى، خوف الحكومة العثمانية من علاقته بأبناء أحمد بن إدريس فى عسير وهى أرض تابعة لأتباع الحركة الوهابية، دعوة مريديه من أهالى المغرب لزيارة بلادهم. وأضاف عبد القادر بن على رغبة ابن السنوسى الجهاد فى بلاده ضد الفرنسيين؛ فعقد النية وصمم على السفر للاشتراك فى جهاد فرنسا فى الجزائر، والتحق بركبه عدد كثير من أتباعه وإخوانه وعين الشيخ عبد الله التوانى على زاوية أبى قيس بمكة للقيام بشئون الأتباع، وكان سفره ذاك فى آخر عام (١٢٥٥هـ فى ٢٦ ذى الحجة) حسبما هو مذكور فى مذكرة مرافقه الشيخ محمد بن صادق البكرى. ثم سافر إلى مصر من مكة ومعه عدد كبير من الإخوان وذلك آخر عام (١٢٥٥هـ ودخلها أول عام ١٢٥٦هـ)، وزار الجامع الأزهر وألقى دروسًا نافعة ووقف أحد كبار مشايخ الأزهر، وقال: «أنصتوا أيها العلماء، لقد حل بين أظهركم عالم الأمة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية: ألا وهو الشيخ الكامل سيدى محمد بن على السنوسى الحسنى الإدريسى. فارتج الجامع بعلمائه ولم يمكث الشيخ بمصر غير مدة قليلة ثم سافر»(٣).

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (ص ١/ ٤٤).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ٧٢).
(٣) انظر: رحلة الحشائشى (ص ١٥٠).

وتعرض ابن السنوسى لهجوم الشيخ عليش المالكى بسبب دعوة ابن السنوسى لفتح باب الاجتهاد، وقد ذكر محمد عبده فى كتابه «الإسلام والنصرانية» أن ابن السنوسى تعرض للقتل: «ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى كتب كتابًا فى أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على أصول المالكية، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسُّنَّة مباشرة، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين. فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية، وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها؛ لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيل غير سبيل المؤمنين. وربما يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه، وإنما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المحرم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة»(١).

وقد تعرض الشيخ ابن السنوسى لمرض فى مصر اضطر على إثره ألا يأكل شيئًا من الزاد سوى مقدار بسيط من الحليب صباحًا ومثله مساءً فقط، وكان الرجل الذى يقدم له الحليب تركيًا، فوضع له سمًا فى الحليب، فلما شرب منه سقطت أسنانه فى الإناء واشتد به الألم حتى يئس منه جميع الإخوان، وأخيرًا منَّ الله عليه بالشفاء بعد معالجات، إلا أنه سبب له مضاعفات من جسمه تخرج على جلده جبة «أى قشرة» تشبه جبة الحنش وصارت له عادة يسلخها رأس كل عام وقت أخذه لذلك «الحليب»، ولما تحسنت صحته أرسل للشيخ عبد الله التواتى فى مكة ولما حضر إليه أرسله إلى قابس بتونس برفقة بعض الإخوان ومعهم زوجته الحبشية وأمر بعض الإخوان أن يواصل رحلته إلى الجزائر(٢).

وكان ابن السنوسى فى سفره ذلك وذهابه إلى مصر قد قصد المدينة المنورة للوداع، ثم نزل ببدر وكان يقصر ويجمع فى الصلاة، وإن حصلت له إقامة ببلد فى طريقه استمر على ذلك يقصر ويجمع إلى تسعة عشر يومًا، تارة يجمع جمع تقديم وتارة جمع تأخير، وهو فى عمله هذا يخالف المالكيه ويتبع الأحاديث الواردة فى قصر الصلاة وجمعها بعد أن اعتقد صحتها(٣).

وبعد الشفاء من مرضه اجتهد فى الدعوة إلى الله وتعليم الناس وإرشادهم، وأقام مددًا متفاوتة فى عدد من المدن والقرى، فترك فى كل منها ركائز وأنصارًا، وقد تميز أسلوبه الدعوى بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلى(٤).

---

(١) انظر: الإسلام فى القرن العشرين، للعقاد، (ص ١٣٠).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٤٧) إلى (٥٠). (٣) انظر: الحركة السنوسية (ص ٧٥).
(٤) انظر: الحركة السنوسية (ص ٧٨).

وواصل ابن السنوسى رحلته براً من سيوة إلى جالوا ثم أوجلة وكان برفقته الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدى الفيلالى. ثم توجه إلى برقة ونزل على نجع عائلة اللواطى من العواقير، ففرحوا به وقاموا بإكرامه ورفقائه ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة فنزل على الشيخ علىّ لطيوش، فأكرم ابن السنوسى ورافقه إلى محل يسمى الهيشة ما بين سرت ومصراتة، وهناك قابله آل المنتصر ومعهم أعيان مصراتة، فدخل معهم إليها وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليطن ومنها إلى طرابلس، ونزل فى بيت أحمد المنتصر، وترك عنده بعض الإخوان وولى سفره إلى وزارة ودخل حدود تونس(١). وشعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسى منذ فترة طويلة، وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائرى والمغاربة عمومًا، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود وجاءته الأخبار بذلك وتقرر ألا يواصل شخصياً سيره، وندب محمد بن صادق وحمله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائرى(٢)، وعاد إلى طرابلس، وتبنى ابن السنوسى دعم حركة الجهاد فى الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد أوفد فى فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال: محمد بن الشفيع، وعمر الفضيل المعروف بأبى حواء، والشيخ أبو خريص الكزة(٣). وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دوفربيه الفرنسى ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسى فى أعمال المقاومة فى الجزائر؛ فزدوفربيه يقول: «إن السنوسية هى المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر، وأنها السبب فى الثورات المختلفة التى قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله فى تلمسان وصحراء الجزائر سنة (١٨٤٨-١٨٦١) وعصيان محمد بن تكون فى الظهرا عام (١٨٨١م)... إلخ».

وقد بيَّن المؤرخ الليبى عبد القادر بن علىّ الذى رافق أحمد الشريف السنوسى عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا فى الجهاد الجزائرى حتى أن بعضهم أكل تمرات غرس نواها وكبر وأثمر وأكل من ثمرها وهو فى ميدان الجهاد(٤).

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجانى على خطاب أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسى من الجزائر إلى مدير غدامس(٥) التركى «غدامس فى ليبيا» وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسى بلغت الجزائر وأن عدداً من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها، ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة (١٢٦٨هـ) وقد كان ابن السنوسى فى الحجاز فى ذلك التاريخ، ومن بين ما جاء فيه: «...

(١)، (٢) انظر الفوائد الجلية (١/ ٥٠).
(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص ٧٨).
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٠).
(٥) قريبة من حدود تونس والجزائر.

وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت فى يد الرومى دمره الله وخليفة الرومى فيها، سبحان من حكم الضعيف فى القرى وصار القوى من عبده مخذولاً مذمومًا. ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدى محمد علىّ السنوسى رضى الله عنه ونفعنا وإياكم به آمين، وصار عربان وارقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بنى مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم فى الزيادة. . . وبعث لنا الرومى دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل . . . تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء فى ثور أسود فنصرنا الله نصرًا عزيزًا وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلاً ووقع لنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك. . »[1].

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسى بالجهاد فى الجزائر ضد فرنسا، وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه فى الجزائر على القتال، وقد استمر أتباع السنوسية والشعب الليبى فى دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسى من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام (١٩٦٢م).

تاسعًا: ابن السنوسى فى طرابلس:

عاد ابن السنوسى من قابس إلى طرابلس فى صحبة مجموعة من الإخوان فى عام (١٢٥٧هـ) ونزل ضيفًا عزيزًا على عائلة المنتصر، وتخوف الوالى العثمانى من ابن السنوسى، واستطاع عميد عائلة المنتصر أن يقنع الوالى على عشقر بأن ابن السنوسى من المخلصين والمحبين للدولة والخلافة، وعمل على جمع الوالى العثمانى بابن السنوسى وقد تأثر الوالى بورعه، وقد فصّل محمد الطيب الأشهب فى هذه النقطة فقال: «فبعد أن وصل قابس عاد إلى طرابلس وذلك فى أوائل (١٢٥٧هـ) وكان حاكم طرابلس يومئذ علىّ باشا عشقر الذى وصلته أنباء مشوهة من دعوة السنوسى وحركته التى قيل على لسان رواة الحاكم العثمانى إنها ترمى إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية، وكان راوية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله.

فأمر علىّ عشقر بالقبض على رفاق الإمام السنوسى الموجودين بمنزل الحاج أحمد باشا المنتصر ريثما يتسنى القبض على شخص الإمام، وتقدم المنتصر بوساطته فى أن يبقى الإخوان السنوسيون

(١) انظر: نص الرسالة الكامل عن سجل رقم (١٩٦/ ٣/ ٥٠١)، دار المحفوظات، طرابلس.

في منزله، وقدم بذلك ضمانًا شخصيًا متعهدًا أن يخبر الحكومة عن الإمام السنوسي حينما يعود، وشاء الله أن يصل الإمام فجأة وما كان يعلم عما حدث، فلما علم أصر على رؤية الوالي، وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته فاعتذر له وانضم إليه اثنان في مجلس المقرحي والقزيري...»[١].

وكان العلامة المقرحي من طليعة علماء طرابلس وقد كلفه عليّ عشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الإمام ابن السنوسي، فما كاد يستمع إليه حتى تأثر به وأصبح من أتباعه ومريديه.

وكان رأي العلماء الذين ناظروا ابن السنوسي بأنه نعمة من الله، ساقها إليهم وفرح الباشا بذلك واعتذر لابن السنوسي، وقال له: هذه بلادك والأهل أهلك، فانفعهم بقدر استطاعتك ونحن في الحاجة الشديدة لأمثالك. فأقام ابن السنوسي في طرابلس مدة يعلِّم الناس ويذكّرهم ويبصِّرهم بأمور دينهم، وتعلق الناس به، وسارت إليه الركبان[٢].

ويذكر بعض المؤرخين أن الوالي العثماني عليّ عشقر أخذ عن ابن السنوسي طريقته وصار من أتباعه، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد التي استمرت قريبًا من سبع سنوات مضت[٣]، وأن الأحداث في تلك السنة كانت على أشدها حيث كانت الثورة مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومة المحمودي، وسيف النصر في سرت ضد الدولة العثمانية. واستطاع غومة المحمودي وسيف النصر أن يستقل كل منهما بمنطقته لفترة من الزمن مقابل دفع مبلغ معين للولاة، ثم تفاقم أمرهما، فعمل الوالي العثماني على الخلاص منهما ونجح في القبض عليهما، فأما غومة فنفاه من طرابلس، وأما عبد الجليل سيف النصر فقطع رأسه[٤].

ولذلك حرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في ليبيا وخصوصًا بعد أن ظهر منه حرصه على الأمن واجتماع الكلمة، ونبذه للتنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم[٥]، وقد كانت نظرة الوالي العثماني تدل على بعده السياسي، وحرصه على الأمن واستقرار البلاد، وحبه للدعوة إلى الله تعالى.

عاشرًا: ابن السنوسي في برقة:

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت وبرفقته أمراء من آل المنتصر بأمر عميد الأسرة، وأعيان من مصراتة، ودخل سرت ووجد هناك كوكبة من الفرسان في انتظاره، هم بعض أعيان وشيوخ

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، للأشهب (ص ١٠٤).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٣٠).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٠).
(٤) الحركة السنوسية (ص ٨٠).
(٥) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٠).

ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازى فرحبوا بسيادته ورافقوه فى رحلته، ومر فى طريقه بالكثير من القبائل. وبعد وصوله إلى بنغازى تنافست بيوتات بنغازى البارزة فى إكرامه، كعائلة الكيخية، وآل شتوان، وآل منينة، وقام فى بنغازى شهر رمضان كاملاً وبعد العيد جاء رجلان من قبيلة العواقير لشراء الكفن للشيخ أبى شنيف الكزة زعيم قبيلة العواقير عمومًا الذى مرض مرضًا تحقق أقاربه منه بالموت، ولما وصل الرجلان إلى بنغازى دخلوا على الرجل الصالح عليّ خريبيش وكانت لهم به معرفة، وأخبروه بمرض الشيخ أبى شنيف وطلبوا منه الدعاء له بالشفاء، فقال لهم: هنا رجل صالح عالم نزوره أنا وأنتم ونطلب منه الدعاء له بالشفاء، فلما التقوا ابن السنوسى أظهر لهم عدم الانزعاج وأطال لهم فى المجلس وهم كأنهم على نار، فألحوا فى طلب الإذن لهم بالخروج، فقال لهم: ربما هذا المريض يدفن بعض الحاضرين، ثم قال لهم: نخرج معكم إليه، ففرحوا. وفعلاً ترك بعض إخوانه وثقل أثاثه وخرج معهم مخفًا. وكان الشيخ أبى شنيف نازلاً بأهله بمكان يسمى الظاهر يبعد عن بنغازى مسافة يوم كامل، فلما وصل إلى الشيخ أبى شنيف وكان فى حالة غيبوبة ومرضه فى بطنه وهى منتفخة فوقف عليه ووضع يده الشريفة على بطنه فانتفش كأنه قربة منفوخة وأفاق فى الحال وتكلم، فعلت أصوات النساء بالزغاريد، وسُرت القبيلة بشفاء عميدها العظيم[1].

لا شك أن ابن السنوسى قد أخلص فى دعوة الله لشفاء هذا المريض، وقرأ عليه بعض الأدعية النبوية المباركة وربما سورة الفاتحة وقرأ عليه القرآن الكريم، وهذا جائز فى الشرع، فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا فى سفر، فمروا بحى من أحياء العرب، فاستضافوهم فقال لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحى لديغ أو مصاب؛ فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فلما علم النبى ﷺ بذلك تبسم وقال: «وما أدراك أنها راقية؟»، ثم قال: «خذوا منهم واضربوا لى بسهم معكم»[2]، علّم رسول الله ﷺ الأمة كيف يفعلون مع مرضاهم، فكان ﷺ إذا أتى المريض يدعو له ويقول: «أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك لا يغادر سقمًا»[3].

لقد كانت حادثة شفاء زعيم قبيلة العواقير على يدى ابن السنوسى مدخلاً عظيمًا للدعوة إلى الله فى قبائل برقة، واعتبره المؤرخ عبد القادر بن عليّ أول فتح لابن السنوسى فى برقة والجبل الأخضر، وأقام فى نواجع العواقير ما يقرب من الشهر واجتمعت على سيادته الناس من أنحاء

(١) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٣).

(٢) انظر: مسلم، كتاب السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية (٤/ ١٧٢٧) رقم (٢٢٠١).

(٣) انظر: مسلم، كتاب الإسلام، باب: استحباب رقية المريض (١/ ١٧٢٢) رقم (٢١٩١).

برقة لزيارته، وطلب الدعاء منه[١]. وقد انتشرت بين الناس كرامات نُسبت لابن السنوسي، فمنها ما ذكره الحشائشي أن ابن السنوسي عندما قَدم من المغرب إلى الحجاز عن طريق قابس من أعمال تونس بحي من أحياء العرب ولم يظهر الشيخ أنه من العلماء وليس معه إلا أربعة أنفار، فأكرم نزله رب الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة، فلما أراد المسير من عنده أهداه رب المكان بغلته ليركبها بالطريق فأخذها الشيخ من عنده، ولما ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به فسقط من أعلاها وانكسرت ذراعه اليمنى من حينه، ورجع إلى رب الحي المذكور فتلقاه مذعوراً وفي الحال أحضر له أناساً عالمين بجبر الكسر، فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار ثم تُجعل على محل الألم، ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه؛ فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله، ومن هنا أخذ الشيخ في الاشتهار[٢].

إن المفتاح الكبير لقبائل برقة هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنائصحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ، وعلماء الأمة يثبتون الكرامات للصالحين: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمَرَ به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بيّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمعلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات الله إنما حصلت ببركة أتباع رسول الله ﷺ..»[٣].

«ومما ينبغي أن يُعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته. ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة»[٤]، ومن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: الإيمان بكرامات الأولياء[٥].

إن ابن السنوسي صحت معرفته بالله ورسوله ودينه، وصدقت متابعته للشرع ظاهراً وباطنًا، ونحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، ولذلك فتح الله عليه بما لم يفتح على غيره من إلهامات صحيحة وفراسات صائبة وأحوال صادقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا

(١) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٣).
(٢) انظر: رحلة الحشائشي (ص ١٤٥).
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٢٧٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (١١/ ٢٨٣).
(٥) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٥٠٨).

من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما﴾[النساء: ٦٦ - ٦٨]، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا ما يقولون؛ فإنه تنجلى لهم أمور صادقة»[١].

وقال ابن عثمان النيسابورى: «من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ [النور: ٥٤]»[٢].

وقال الكرمانى: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السُّنَّة، وعوّد نفسه على أكل الحلال - لم تخطئ له فراسة»[٣].

بعد شهر من بقائه فى نجع العواقير واصل سيره متوغلاً فى برقة الحمراء ومنها الجبل الأخضر، وبصحبته جمع غفير من الإخوان ومشايخ مختلف القبائل من الحاربى والعواقير حتى وصل إلى مكان يسمى ماسة وتقدم من ماسة إلى محل يسمى دنقلة حيث مكان الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابى الجليل رويفع بن ثابت الأنصارى ﷺ[٤]، وقد شرع الإخوان السنوسيون فى تأسيسها قبل مجيء ابن السنوسى وذلك بتوجيه منه، وهى أول زاوية يؤسسها ابن السنوسى خارج الحجاز ولها مقام كبير عند السنوسية ويطلق عليها أم الزوايا، وقد بنيت زاوية البيضاء خارج البلدة وعلى بعد حوالى ثلاثة كيلومترات منها، ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسى اختار لها موقعًا استراتيجياً جيدًا يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول إليه، كما يلاحظ أيضًا أنه أحسن بناءها.

ولقد تميزت كل الزوايا التى أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجى، كما أنها تتابع بانتظام مما يدل على أن السنوسى كان يرمى إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين فى الحروب لأنه كان يتوقع هجوم الأعداء عليها[٥]، ولا ننسى زعيم البراعصة الشيخ أبو بكر بوحدوث الذى وقف بجاهه وماله ونفسه مع الحركة السنوسية، وكان من تواضعه يشارك العمال فى كل أعمالهم بنفسه، فضلاً عن أتباعه، وكان بجلالة قدره ممن يخلط الطين للبنائين الذين يبنون المسجد والزاوية البيضاء؛ رغبة فى الثواب[٦].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٧٣، ٤٧٤).
(٢) انظر: الجامع لأخلاق الراوى، باب: أدب الطلب (١/ ٨٠).
(٣) انظر: قواعد التحديث للقاسمى (ص ١٤٩).
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٤).
(٥) انظر: الحركة السنوسية (ص ٨٣).
(٦) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٦).

وشرع ابن السنوسى من الزاوية البيضاء يعلّم الناس ويذكّرهم بالله ويرشدهم إلى طرق النجاة فى الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها تبركًا به، وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان -رحمه الله- يتوجه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه، وأحيانًا ينتدب بعض الإخوان لذلك، وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر(١).

وظل فى نواحى برقة والجبل الأخضر يزور القبائل، ويؤسس الزوايا حتى تم تأسيس ما ينوف على عشرين زاوية، كما كان طيلة هذه السنوات يتردد ما بين القبائل ويصلح ما بينها ويزيل ما تأصل بينهم من الأحقاد والمشاجرات التى طال أمدها رغم ضررها، وكان يعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى أخوة الإسلام ورابطة الإيمان، ويحثهم على التعاون على البر والتقوى، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة مثل: التبرج، والاختلاط، وقتل النفس لأتفه الأسباب، وعدم الانقياد لأوامر الدين والدولة. وكان يأخذ منهم العهود والمواثيق على أنهم ينقادون لأوامر مشايخ الزوايا ويرجعون إليهم فى مختلف قضاياهم وحل مشاكلهم، ويدخلون أبناءهم فى الزوايا ليتعلموا القرآن وأمور دينهم، كما كان يأخذ عليهم عهودًا باحترام الزوايا ومشائخها والإخوان، وأن يبذلوا جهودهم لمساعدة الزوايا والإخوان فيما هو ضرورى لبقائها عامرة، وكل قبيلة تطلب إقامة زاوية لها تقيمها لهم بالشروط المتقدمة(٢).

والزوايا التى تم تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة فى الجبل الأخضر وبرقة هى «البيضاء، شحات، بنغازى، درنة، مارة، أم الرزم، العرقوب، توكرة، طلميثة، الطيلمون، الفائدية، المخيلى، القصور، المرج، أم ركبة -فى فزان- مرزق، زويلة، هون، سوكنة -فى طرابلس- مردة، طبقة الرجبان، تونين، مصراتة، زليطن، زلة، وفى تونس زوايا الجريد».

وعلى الحركة الإسلامية المعاصرة فى بلادنا وغيرها أن تراجع حساباتها وتتفقد الأماكن التى كانت منارات للعلم والتربية والدعوة، وتعمل على إحياء ما اندرس منها على منهج صحيح سليم وقويم من عقيدة السلف، ومنهج أهل السُّنَّة والجماعة. مع الاستفادة من خبرات الحركات المعاصرة، وتجدد الوسائل، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ويهدينا سواء السبيل، والقصد من ذلك: العمل على إحياء الإسلام فى البوادى والأرياف والقبائل ولا نحصره فى المدن الكبرى.

•• زواجه الثالث:

فى أواخر عام (١٢٥٨هـ) جمع ابن السنوسى إخوانه فى ليلة من الليالى، وقال لهم: تعلمون إخوانى إننى تقدمت بى السن «وكانت سنه آنذاك سبعًا وخمسين سنة» وضعف جسمى وقوتى

(١) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٨). (٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٩).

بعد شربى للسم، ولم يبق لى مأرب فى النساء. غير أنى رأيت سيدنا محمد ﷺ فى منامى وقال لى: خذ إحدى بنات هذا الرجل -أى السيد أحمد بن فرج الله- تأتيك بولدين يكونان من المهاجرين والأنصار، وإننى امتثالاً لأمره ﷺ أريد أن أخطب من أخينا السيد أحمد إحدى بناته، ثم عقد -رحمه الله- على فاطمة وهى الوسطى من البنات(١).

إن الرؤيا الصالحة فى المنام بشرى تُزف لعباده الصالحين، وأمر رسول الله ﷺ فى المنام إذا لم يخالف الشريعة لا يوجد ما يمنع من تنفيذه، وكانت بشرى صادقة وقد وقعت كما رآها ابن السنوسى.

إن أمر الرؤيا فى حياة ابن السنوسى واضح وجلى، ويستأنس بها فى رحلاته وأعماله. وبالنسبة لرؤية رسول الله ﷺ فى المنام فلا خلاف بين أهل العلم فيها، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولا يتمثل الشيطان بى»(٢). وفى رواية عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من رآنى فى المنام فقد رآنى، فإن الشيطان لا يتمثل بى»(٣)، وفى رواية عن أبى قتادة رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من رآنى فقد رأى الحق»(٤).



---

(١) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٥٨).
(٢) انظر: البخارى، فتح البارى، كتاب: التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ رقم (٦٩٩٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (رقم: ٦٩٩٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (رقم: ٦٩٩٥).

المبحث الثاني

أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزًا لدعوته

تمهيد:

إن إقليم برقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة «برقة، طرابلس، فزان»، بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ألف كيلو متر مربع)، وإن لم يكن أكثرها سكانًا، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقًا وحدوده طرابلس غربًا، وكان يعرف عند الرومان بإقليم «سيرينة» التي سماها العرب «قيرين» أو «قرناه» ثم أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بإقليم برقة(١).

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلي يضيق في الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل إلى الساحل، ولكن في جناحي برقة: في البطانان شرقًا، وفي برقة البيضاء والحمراء غربًا، ويتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء(٢)، وإلى جانب هذا السهل الساحلي يوجد الجبل الأخضر الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع الساحل ارتفاعًا مباشرًا ولكنه ينحدر تدريجيًا نحو الصحراء في الجنوب، وبه الأراضي الصالحة للزراعة حيث المساحات الكبيرة التي ترويها مياه الأمطار الغزيرة.

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التي تكوّن معظم مساحة الإقليم، وهذه الصحراء مستوية وإن وُجد بها بعض الكثبان والهضبات فهي مستوية أيضًا، وفي صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلئ بالماء فترة ما، وبعضها يكون جافًا طول السنة(٣)، كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة، وجالو، وأوجلة(٤).

وسكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي اتضحت صورته منذ الفتح الإسلامي، ثم عندما زحفت قبائل بني هلال، وبني سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي- أصبحت هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسيين: القبائل السعدية، وقبائل المرابطين.

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٨/ ٢٨٢).

(٢) انظر: د. نقولا زيادة: ليبيا (ص١).

(٣) انظر: الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فليب رفلة، (ص٣٣٨).

(٤) انظر: في تاريخ العرب الحديث، د. رأفت الشيخ، (ص٢٤٠).

ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح الإسلامى والتى اختلطت مع سكان البلاد وعربتهم، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف النسب إلى بيت الرسول ﷺ، ومن أهم القبائل السعدية؛ العبيدات، وعائلة فايد، والحاسة، والبراعصة، والدرسة، والعبيد، وعرفة، والعواقير، والمغاربة، وأهم قبائل المرابطين: المنفة، والقطعان، والحوطة، والفواخر، والزوية[١].

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل فى أرجائها، وأفراد كل قبيلة متضامنون فى أداء ما عليهم من واجبات وفى الحصول على ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها، ومنذ أيام الفتح الإسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم فى برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار فى تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، بحيث تكون القبيلة أساسًا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام[٢].

كانت القبائل فى برقة تعيش حياة غير مستقرة، فيما عدا الواحات، وكثيرًا ما تتقاتل من أجل المراعى أو مياه الآبار[٣].

وقد توافرت فى برقة ظروف ملائمة لظهور الحركة السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة، منها:

١- أن برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة بالصحارى والفيافى التى تحيط بها.

٢- تتألف برقة من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة.

٣- يقوم النظام القبلى فى برقة على «عصبيات» دموية مشتركة وتقاليد وأعراف متشابهة.

٤- لاتزال المناطق الريفية بعيدة عن سيطرة المدن.

٥- لم يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية[٤].

إن النظام القبلى فى برقة كان حلقة مفقودة فى خطة ابن السنوسى ووجد ضالته فى ذلك المجتمع؛ فقد أوجد النظام القبلى القواعد السياسية التى أقيمت عليها الحركة السنوسية. إن النظام القبلى فى برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسات متطورة لها مصالحها الاقتصادية، وتركيبتها

(١)، (٢) انظر: فى تاريخ العرب الحديث، د. رأفت الشيخ، (ص٢٤٠).
(٣) المصدر السابق، (ص٢٤١).
(٤) انظر: المجتمع الليبى، د. عبد الجليل الطاهر، (ص٢٤٤).

الاجتماعية. ويرجع نجاح الحركة السنوسية فى برقة فى بعض جوانبه إلى التكيف مع هذا التركيب القبلى المعقد[١]. إن الحركة السنوسية وجدت بنية اقتصادية وتركيبة اجتماعية استطاعت أن تتفاعل معها الحركة. لقد استطاع ابن السنوسى أن يشيد على البناء القبلى تنظيمًا إرشادياً ووعظياً، ولم يكن من الممكن إقامة مجتمع جديد بدون ذلك البناء القبلى[٢].

لقد وجد ابن السنوسى ضالته فى قبائل برقة، ووجدت القبائل ضالتها المنشودة فى دعوة ابن السنوسى.

كانت قبائل برقة قبل مجىء ابن السنوسى تتخبط فى دياجير الظلام؛ حيث استفحل الجهل فى تلك القبائل رغم اعتناقها الإسلام الذى تنتسب إليه اسميًا وبالفطرة، ولم يبق لها من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه.

وإليك بعض الصور من هذا الانحراف الخطير:

١- اتخذت بعض القبائل مواقع من برقة لتأدية فريضة الحج بدلا من الحج إلى بيت الله الحرام[٣].

٢- كانت بعض القبائل لا ترى ضرورة صيام رمضان فتكلف ثلاثين شابًا قويًا فيصومون يومًا واحدًا، ويرون بذلك أنهم قد أدوا واجب الصيام عن المسنين والعجزة وأرباب الأعمال من أهل القبيلة.

٣- كثر الأدعياء والدجالون الجهلة الذين يدعون لأنفسهم مقام الولاية والصلاح دون معرفة أصول الدين وعلى غيرْ علم به، وكان حقهم فى هذا المقام هو بالتوارث خصوصًا إذا ما كان بين هؤلاء الأدعياء من له صلة بنسب شريف، ولهؤلاء مكانتهم فى نظر العامة التى اعتقدت أنهم يتصرفون فى ملكوت الله أحياء وأمواتًا، وأنهم فى حالة الغضب أو الرضى يشقون ويسعدون.

٤- لقد غابت كثير من شعائر الدين بين تلك القبائل[٤].

٥- كانت القبائل يكثر بها الجهل وقلما تجد من يعرف القراءة والكتابة، فكل من يصل إليه كتاب يذهب به إلى أقرب المدينتين إليه؛ بنغازى أو درنة لقراءته.

٦- كان القوى منهم لا يتورع عن الحصول على ما تصبو إليه نفسه بالقوة، حتى أن الضعيف لا يرى له حقًا.

٧- كانوا لا يرون فى شن الغارات والغزو والقتال عيبًا؛ فكل قبيلة من القبائل العربية تعمل ما يعزز مركزها ويقوى شوكتها فى نظر القبيلة الأخرى.

(١) انظر: المجتمع الليبى والدولة والاستعمار فى ليبيا، د. على حميدة (ص١١٦).
(٢) انظر: المجتمع الليبى، د. عبد الجليل الطاهر (٢٥٣).
(٣، ٤) انظر: السنوسى الكبير، محمد الطيب، (ص١١٦).

٨- كانت الحروب تندلع بين القبائل لأقل الأسباب وأتفهها، فتارة من أجل شخص حلب ناقة غيره بدون استئذانه، وتارة من أجل شخص ضاف آخر فلم يكرم وفادته، ومرة ضد أهل بهيمة أكلت زرعًا، وحينًا من أجل رجل تزوج امرأة ولها ابن عم لا يريد زواجها منه . . . إلخ، فبمثل هذه الأسباب كانت تقع الحروب الكثيرة التى جرّت القبائل إلى هاوية الخراب والدمار، ولا يمر وقت طويل بدون حرب، ومن أهم الحروب التى وقعت ببرقة قبل مجىء ابن السنوسى: حرب العبيدات وأولاد على، وحرب قبائل الجبارنة مع الفوائد، ثم الجبارنة مع الحرابى المعروفة بحرب «بياض» وحرب المغاربة مع الزواوات، إلى غير ذلك من الحروب الكثيرة(١).

ولكن الدعوة السنوسية استطاعت أن تزكى النفوس، وتقوى الإيمان، وتنشر العلم، وتزيل الجهل، وتحارب الظلم، وتحبب العدل إلى نفوس تلك القبائل. وبعد فترة من الزمن أصبح من تلك القبائل علماء عاملون يدعون إلى الخير وبه يعدلون.

إن اختيار ابن السنوسى لبرقة كان قرارًا حكيمًا، يدل على معرفته للمنطقة جيدًا؛ فقد اتصفت برقة بفراغها السياسى وبجهلها العلمى وبكونها مخرجًا لأواسط إفريقيا(٢).

وظل ابن السنوسى خمس سنين، وقيل ستًا فى برقة، ينشئ الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا. ثم عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز -المركز الأول لدعوته- ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة عنده مركزان رئيسيان: شرقى فى الحجاز وغربى فى برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك(٣).

إن سفر ابن السنوسى إلى مكة يدلنا على أنه كان لديه مشروعات دعوية كثيرة فى العالم الإسلامى، وأن هدفه فتح أراض جديدة لدعوته. لقد استطاع ابن السنوسى أن يرسى قواعد الدعوة فى برقة ويثبت أسسها، فغادر برقة وهو مطمئن إلى أن دعوته ستنتشر، وقد خلف وراءه عددًا من الإخوان للإشراف على الحركة.

لقد كان ابن السنوسى يخطط فى تنظيمه بحيث يكفل الاستمرار بغض النظر عن وجوده أو عدم وجوده(٤).

---

(١) انظر: برقة بين الأمس واليوم، للأشهب، (ص١٦٢، ١٦٣).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص٨٨).
(٣) انظر: دراسات وصور، للحاجرى، (ص٢٩٠).
(٤) انظر: الحركة السنوسية، (ص٨٨).

المبحث الثالث

إقامة ابن السنوسى فى الحجاز وعودته إلى برقة

سافر ابن السنوسى إلى الحجاز واستمرت مدة إقامته حوالى ثمانى سنوات، وحفلت هذه السنوات بنشاط دعوى عالمى لابن السنوسى، دل على قدرته التنظيمية، وذكائه فى تصريف شئون الحركة، وشرع فى إنشاء الزوايا، وكثر دخول الناس فى الدعوة، وتعرض لمتاعب من قِبل بعض العلماء، وقد تحدث الصادق المؤيد عن ذلك فقال: «مع أن المرحوم ابن السنوسى عندما كان فى الحجاز لم يتعرض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى، فإنه أصبح هدفًا لنقمة الآخرين ونقدهم، ومع ذلك فقد توسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبنى حارث وبنى حرب، كما انتشرت الطريقة بواسطة الحجاج، وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة فى الحجاز واليمن على الخصوص.

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسى من رقابة ومنافسة وعداء، فقد كان عدد المريدين فى ازدياد، ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسية التى فى جبل أبى قبيس فى المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة»[(١)].

وكانت كل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص «فزاوية أبى قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس فى موسم الحج خاصة، أما زاوية جدة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجانًا، فهى محل ضيافة عامة»[(٢)].

واستطاع ابن السنوسى أن يساهم فى تربية وتعليم القبائل من الحجاز، وأرشدهم إلى دينهم. وعمل ابن السنوسى -بالإضافة إلى تأسيس الزوايا- على تعليم مريديه بنفسه، فجلس فى مكة يدرسهم الفقه والعلوم الأخرى، كما ألف لهم عددًا من الكتب منها كتابه «بغية المقاصد وخلاصة الراصد» المسمى بالمسائل العشر، وقد انتهى من كتابته كما تشير مقدمة لكتاب «موطأ الإمام مالك» فى أول سنة (١٢٦٧هـ) «وذلك حين بداءته لقراءة الموطأ» بغية إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب[(٣)]، وربما قد كتب بعض مؤلفاته الأخرى فى تلك الفترة، مثل: إيقاظ الوسنان فى العمل

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٨٩).
(٢) انظر: سياحتى فى صحراء إفريقيا (ص٧٥).
(٣) انظر: النسخة المطبوعة من المسائل العشر.

بالحديث والقرآن، والدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية، والسلسبيل المعين. وقد ظهر فى كتبه هذه اتجاهه الصوفى واعتماده على الكتاب والسنة وقوله بالاجتهاد.

وكان طوال إقامته فى الحجاز يحرص على الحج كل عام، ويتصل بالناس ويدعوهم إلى دعوته ويضم من يستجيب منهم، وكان على اتصال مستمر بأتباعه فى برقة يوجههم ويصدر إليهم تعاليمه وإرشاداته بواسطة الرسائل، ويذكر الأشهب: «أنه كان يندب سنويًا من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته»(١).

وكان ابن السنوسى قد ترك زوجته ووليديها محمد المهدى ومحمد الشريف فى برقة وكان على اتصال بهم عن طريق الرسائل، وكان قد عين عمران بن بركة ومحمد بن إبراهيم العمارى للاهتمام بشئون أهله وولديه، وقد ذكر عبد القادر ابن علىّ أن ابن السنوسى عندما بُشّر بمولوده الجديد قال: «الآن ظهر الصباح وخفى المصباح»، وكان يقصد بالصباح ابنه والمصباح نفسه(٢).

وعندما بلغ محمد المهدى الخامسة من عمره «أرسل ابن السنوسى إلى الإخوان الكافلين له وقال لهم: أدخلوه الكُتَّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر»(٣).

وعندما بلغ محمد المهدى السابعة من عمره أرسل إليهم، ليوجهوه إليه مع زوج خالته، فارتحل به، ولما اجتمع ابن السنوسى بولده سُر به سرورًا عظيمًا وطلب لوح قراءته فوجد أوله ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] فازداد سرورًا، وزوّره الروضة الشريفة ولقنه ما عنده من الدعاء، ثم زوّره المآثر كلها التى بالمدينة، كمسجد المائدة ومسجد القبلتين وجبل أحد، وقبور شهداء أُحد، وقبر حمزة ﷺ(٤).

وكان قبل مجيء ابنه قد تزوج ابن السنوسى زوجته الرابعة والأخيرة «ابنة حسن البسكرى»، وكانت بدرنة مع أختها وأخواتها وتوفى والدها، فأرسل ابن السنوسى إلى ابن أخى حسن البسكرى أن يأتى بالأم وبناتها، وكانت أكبر البنات تحت عبد الله البسكرى فاعتنت به كثيرًا، وفى جمادى من سنة (١٢٦٩هـ) طلب ابن السنوسى ابنه محمد المهدى من المدينة وأرسل يطلب من الإخوان فى برقة إرسال ابنه محمد الشريف.

وذكر أحمد الشريف رحلة والده فقال: «فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله، ومروا على العقبة ثم منها إلى الإسكندرية ثم إلى

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص٤٣).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٦٠).
(٣) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، (ص٧٦).
(٤) انظر: أحمد الشريف، مخطوط (ص٧٨).

كراسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزروالى أقاموا بها أيامًا ثم إلى السويس، وركبوا البحر قاصدين جدة، وأتتهم ريح عاصفة قبل نزولهم قلعت بالمركب حتى أيقنوا الغرق، وتقطعت الأشرعة وآخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع، فنزلوا بها وأقاموا أيامًا للاستراحة، ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة، فزاروا الروضة الشريفة واجتمعوا بالباشا الذى رحب بهم وأعطاه ساعة تساوى مائة، وبعد ذلك بنى جامع الزاوية التى بالمدينة بناء متقنًا من نفسه، جزاه الله خيرًا، وكان بالمدينة يومئذ السيد عبد الله التواتى وأكرمهم غاية الإكرام، وأقاموا بها ثلاثة أشهر ونصف الشهر، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة متنصف ذى القعدة سنة تسع وستين بعد المائتين والألف صحبة السيد التواتى، وتخلف السيد عبد الله لوجع فى رأسه وحمى ومعه آخر، فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبت الريح، وقطاع الطريق قد أحاطوا برواحلهما لينهبوا ما عليها، فقاما إليهم للمدافعة عما أرادوه فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض وجرحوا صاحبه، واكتشف رجال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولا ينظر سبب تأخر الرجلين، فتوقفوا لدفنه وساروا فى خوف وحزن يحرسهم العسكر الذى أرسله الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة»[١].

وقد حزن ابن السنوسى على مقتل عبد الله التواتى الذى كان من أوائل رفاقه وكان المسئول الأول عن نشاط الحركة فى الحجاز، وقد أمر ابن السنوسى بنقله إلى بدر، حيث دُفن بجوار الشهداء ﷺ أجمعين[٢].

كان عبد الله التواتى من كبار العباد فى الحركة السنوسية، وقد حدثنى أستاذى فى اللغة العربية الشيخ راشد الزبير السنوسى، عندما كنا معًا فى المعتقل السياسى بطرابلس الغرب بأن عبد الله التواتى كان يقول: والله لأزاحمن أصحاب النبى ﷺ على أبواب الجنان بركبتى. وكان عبد الله التواتى شديد الإخلاص لابن السنوسى حتى أنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله[٣]، وقد أصاب قاتليه مرض مزمن وماتوا ميتة بشعة، وانتشر خبر وفاتهم بين قبائل الحجاز، فأصبحوا يتحاشون السنوسية وأتباعهم ولا يمسونهم بسوء أبدًا حتى أن أهل مكة والمدينة كانوا إذا أرادوا الحج أو الزيارة فلا يخرجون إلا مع الركب السنوسى لكى يأمنوا حياتهم وأمتعتهم[٤].

أولا: عودة ابن السنوسى إلى برقة:

بعد وصول محمد الشريف ابن السنوسى إلى مكة وكان بصحبته جده لأمه أحمد بن فرج الله ووالدته وعمران بن بركة الفيتورى، وكثير من الإخوان، وحج الجميع مع ابن السنوسى، وقدم

---

(١) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، (ص٧٩).
(٢) انظر: الفوائد الجلية، (١/ ٧٢).
(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص٩٠).
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٧٣).

من برقة فى هذا الحج كثير من أعيانها ووجهائها، ومشايخ القبائل، منهم[١]: الشيخ أبو شنيف الكزة، والشيخ عمر جلغاف، وعبد الله أبو سوحيل، والحاج محمد كاهية، وغيرهم ليلتمسوا من السيد عودته إلى البلاد المتعطشة لدعوته، فكان يعدهم خيراً، ومما يلفت النظر أن الشيخ أبو شنيف الكزة الذى تجشم مشاق الطريق لرؤية السيد كان عمره يتجاوز المائة سنة. لقد كان شوق الإخوان فى برقة إلى ابن السنوسى عظيماً.

وبعد أن ألح زعماء برقة على رجوع الشيخ ابن السنوسى معهم، استخار الله سبحانه وتعالى وسأله إرشاده إلى الطريق التى يرضاها سبحانه وتعالى وفيها نفع للأمة المحمدية، فأراه الله ما ألهمه وقوى عزيمته على العودة إلى برقة، فرتب الأمور بالحجاز وعين مشايخ للزوايا وزودهم بما رآه، وحرضهم على سلوك طريقته فى إرشاد العباد، ودلالتهم على الله والتمسك بسُنَّة سيدنا رسول الله ﷺ وبذل النصح للمسلمين أينما كانوا، وأناب عنه فى زاوية أبى قبيس: الشيخ محمد إبراهيم الغمارى، وأبقى ابنيه ووالدتهما وجدهما فى مكة وأمر محمد الغمارى، وأحمد البقالى بتعليم ابنيه القرآن الكريم وغيره من العلوم، وحمل معه جميع كتبه وأثاثه ورافقه جميع الإخوان الملازمين له والأعيان والشيوخ والقادمون من برقة، وتوجه إلى مكة ثم المدينة وأقام بها ما يزيد على مدة شهر[٢]، وقد ذكر بعض المؤرخين أسباب خروجه من الحجاز، فقال بعضهم: كان لديه رغبة لزيارة الشام، وقد أثبت الملك محمد إدريس هذه الرغبة فقال: «إنه كان يفكر فى زيارة الشام بعد إقامته الثانية، وهمّ بالتوجه إليه، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر[٣].

ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غياب ابن السنوسى فى الحجاز «اشتد القلق فى ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبى ليلتمس منه أن يعود، وكانوا يسافرون غالبًا فى موسم الحج»[٤]. أما غرضه من زيارة القدس والشام، فأغلب الظن أنها كانت لزيارة المسجد الأقصى لنشر دعوته، ولكن هذه الزيارة لم تتم[٥]، وقد ذكر ابن السنوسى «كان العزم الذى خرجنا له زيارة القدس، ثم فى أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا -يقصد برقة-»[٦].

وانفرد البستانى بالقول: أنه خرج من مكة خائفًا من تهمة مشاركته مع الشريف عبد المطلب، شريف مكة، الذى عصى الدولة العثمانية «لذلك خاف من الإقامة فى مكة بعد هذه التهمة،

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٧٩).
(٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص٩٦).
(٤) انظر: السنوسى الكبير (ص٤٣).
(٥)، (٦) انظر: الحركة السنوسية، (ص٩٧).

فرحل منها عائدًا إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر»[١]، إلا أن هذا القول يسقط ويتهاوى أمام حرص ابن السنوسى على الابتعاد عن الصدام مع السلطة العثمانية . واصل ابن السنوسى سيره من المدينة متجهًا إلى مصر ودخلها عام (١٨٥٤م)، وغادرها إلى الجبل الأخضر «ونزل بمحل يعرف بالغزيات وهو قصر قديم، فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وأقام هناك سنتين»[٢]، وكان فى تلك الفترة يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا، وكان يرسل مندوبين عنه لتفقد أحوالها، وكان كبار الإخوان يقدمون على العزيات لزيارة ابن السنوسى، فكان يسمع أخبار الزوايا، ويصدر إليهم تعليماته[٣].

وبعد أن أقام ابن السنوسى عامين فى العزيات، عزم على التحول إلى الجغبوب، وكان قصده التوغل فى الصحراء حتى يكون أكثر أمنًا[٤].

ثانيًا: أسباب اختيار الجغبوب:

إن اختيار ابن السنوسى للجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية دليل على بعد نظره، وثاقب فكره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه.

وقد ذكر المؤرخون أسباب ذلك الاختيار فقالوا:

١- أراد أن يجعل من الجغبوب مركزًا للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة، ونشر راية دعوة الإسلام بينهم جميعًا، وكان الجغبوب مركزًا أحسن اختياره، وكان صالحًا لأغراضه فى وسط قبائل فى الشرق والغرب، وكان النزاع بينهما مستمرًا، ومن ثم أمن للحركة السنوسية أن تبسط نفوذها فى المتنازعين، وأن تصلح ذات بينهم.

٢- الاهتمام بأبواب الصحراء مترامية الأطراف من نواحى الغرب والجنوب والشرق، ولذلك كانت زاوية الجغبوب نقطة مهمة وأعقبتها عدة زوايا فيما بعد تخدم نفس الهدف، من أجل ضمان السلامة والأمن فى الصحراء، وضمان المحافظة على طرق التجارة؛ إذ كانت طرق القوافل تربط بين الجزائر وطرابلس وتشاد وبرقة ومصر.

٣- كان البدو فى ليبيا يضطرون أحيانًا إلى ترك دواخل ليبيا بسبب خلاف يقع بين قبيلة وأخرى أو مع الدولة العثمانية، فتكون وجهة النازحين نحو الصحراء. ولذلك فكر ابن السنوسى

(١)، (٢) انظر: البستانى، دائرة المعارف، مادة سنوسى.
(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص٩٩).
(٤) انظر: الحركة السنوسية (ص١٠١).

ونظر إلى هذا الأمر ببصيرة نافذة، فأوجد هذه الزوايا فى المواقع البعيدة، ليأوى إليها النازحون عن دواخل البلاد، فيجدوا أمنًا وأمانًا(١).

٤- ازدادت عداوة علماء إستانبول والقاهرة لأفكار ابن السنوسى الدعوية، فرأى أن يبتعد عن الساحل ويتوغل فى الصحراء بعيدًا عن السلطات العثمانية.

٥- كان ابن السنوسى قد شعر بدنو استيلاء النصارى الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب والإقامة فى الصحراء(٢).

وكان الجغبوب فى تلك الآونة «واحة ملحة يأوى إليها الذعّار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث فى أنحائها، فلما اختارها [السيد] مقرًا له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة، ومشرق أنوار ومعلم هداية، فغرس بها الأشجار، ونسق الجنان، واستنبط العيون، وتوسع فى البناء، وأسس مدرسة لتخريج مريدى الطريقة أجلس للتدريب فيها جلة العلماء»(٣).

«لم تكن الجغبوب مكانًا يصلح لحياة فخمة ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية؛ فهو خارج قبضة الترك والفرنسيين والمصريين، وهو على خط الحج الرئيسى القادم من شمال إفريقيا الغربى عبر مصر إلى مكة، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجارى آخر من الساحل إلى الصحراء إلى السودان. وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت أكثر النقط توسطًا فى برقة التى تشكل شبه جزيرة حتى أنه منها يكون على مقربة من زواياه وطرابلس والصحراء الغربية فى مصر والسودان»(٤).

ثالثًا: الإخوان السنوسيون الذين حملوا مع ابن السنوسى الدعوة:

كان ابن السنوسى فى تجواله بين الأقطار الإسلامية يقوم بدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام، وسلوك منهج القرآن الكريم فى دعوته، فكان يقوم بوظيفته الدعوية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

(١) انظر: السنوسى الكبير، الطيب الأشهب، (ص١٠١، ١٠٢).
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامى، شكيب أرسلان (٢/ ١٤٢).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٦).
(٤) انظر: بريتشارد، (ص١٥)، نقلا عن الحركة السنوسية، (ص١١٣).

وتمثل هذه الواجبات الأمور التالية:

أ- تبليغ وحى الله إلى الناس وتعريفهم به ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ وكان يقوم بالتبليغ بالأمور الآتية:

١- شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

٢- تفسير نصوص القرآن والسنَّة تفسيراً، ملائمًا لعصره من حيث الأسلوب والوسيلة.

٣- جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

٤- استهداف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة، أو منافقين... إلخ.

ب- تزكية الناس، حيث قام ابن السنوسى بتربية الناس على الصفات المحمودة، وتذكيرهم بخطورة الأخلاق الذميمة.

جـ- التعليم، حيث قام ابن السنوسى بتعليم الناس القرآن والحكمة، ونقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق.

واستطاع أثناء تحركه بدعوته أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء والفقهاء والدعاة، ممن اتصفوا بالتميز الإيمانى، والتفوق الروحى، والرصيد العلمى، والزاد الثقافى، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس. وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته، فبعضهم أصبح مشرفًا ومعلمًا فى الزوايا المنتشرة فى ليبيا وتشاد، والحجاز، ومصر. وبعضهم أصبح من أعضاء هيئة التدريس العليا فى الجغبوب، وكان هؤلاء الإخوان الذين ساندوا الحركة السنوسية منهم من هو من الحجاز، كالشيخ فالح الظاهرى، ومحمد بن الصادق الطائفى؛ ومنهم من هو من الجزائر، كأبى القاسم التواتى، ومنهم من هو من تونس، كعلى بن عبد المولى؛ ومنهم من هو من السودان، كالسيد محمد بن الشفيع؛ ومنهم من هو من برقة، كعبد الرحيم المحبوب، ومنهم من هو من طرابلس كعمران بن بركة الفيتورى[١].

واختار ابن السنوسى من كبار علماء الحركة للتفرغ للتدريس فى معهد الجغبوب «... وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب، حيث تدريس جميع أنواع العلوم[٢]، فلا ينحصر التعليم على حفظ القرآن [وهذا شرط أساسى]، وبعض العلوم الدينية والعربية، كما هو الحال فى كثير من المعاهد وقتذاك، وحتى الآن. بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطًا بعيداً وسار خطوات

(١) انظر: دراسات وصور، للحاجرى (ص٢٩٨).
(٢) دراسات وصور، للحاجرى، (ص٢٩٧).

واسعة، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء والأعلام تحت إشراف السيد ابن السنوسى نفسه الذى يضع برامج التعليم ويقرها، فتخرج فى هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم . . . فمنهم العلماء والكتاب والمصنفون[١].

وقد ذكر محمد الطيب أسماء بعض العلماء الذين قاموا بإلقاء الدروس فى معهد الجغبوب تحت إشراف ابن السنوسى، فمنهم: عمران بن بركة الفيتورى، أحمد عبد القادر الريفى، فالح الظاهرى، أحمد التواتى، عبد الرحيم أحمد المحبوب، محمد بن أحمد الشفيع، أبو سيف مقرب حدوث البرعصى، حسين الموهوب الدرسى، محمد صادق الطائفى، أحمد الطائفى، محمد مصطفى المدنى، محمد القسنطينى، محمد حسن البسكرى[٢].

لقد قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء والفقهاء والقادة، والشيوخ. ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسى فى حركته الواسعة:

١- محمد عبد الله التواتى، وهو من أوائل إخوان ابن السنوسى وتلاميذه، وقد قام بعدة أعمال كلفه بها ابن السنوسى فى كل من الحجاز واليمن وليبيا، وقُتل فى الحجاز ودفن بزاوية بدر، وقد مر ذكره.

٢- أحمد أبو القاسم التواتى من الجزائر، وقد تولى مشيخة زوايا سيوة الزيتون، وزوايا فزان، وكان أحيانًا ينتدبه ابن السنوسى للتفتيش على الزوايا ومراقبة أحوالها، ومما قاله ابن السنوسى فى حقه فى كتاب أرسله إلى أعيان واحة سيوة قوله: «وولدنا الشيخ أحمد التواتى قد أقمناه مقامنا، وما أرسلناه إلا لمنفعتكم خاصة، وإلا فغيره يقوم مقامه، واسمعوا لنصيحته فإنه نصوح أمين، وقد هدى الله به أممًا عديدة»[٣].

وقد توفاه الله بزاوية الطيلمون.

٣- عليّ بن عبد المولى من تونس، تولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيل خاصة ابن السنوسى، واستمر فى عهد محمد الثانى، وكان معروفًا بالصلاح والتقوى، توفى بالجغبوب.

٤- أحمد بن فرج الله من طرابلس، وهو والد أم محمد المهدى، ومحمد الشريف وقد توفاه الله بالبيضاء ودفن بمقبرة الصحابى رويفع بن ثابت الأنصارى، ولم يترك عقبًا من الذكور.

---

(١) دراسات وصور، للحاجرى، (ص٢٩٧). (٢) انظر: السنوسى الكبير (ص٥٠).
(٣) انظر: السنوسى الكبير (ص٥٨).

٥- محمد بن الشفيع من سنار السودان، كان من بين تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس الفاسى دفين «صبيًا»، وتعرف على ابن السنوسى أثناء حضوره عند أحمد بن إدريس وسمع ما شهد به ابن إدريس لابن السنوسى، وقد تولى أعمالاً كثيرة منها: مشيخة زاوية المدينة، والقيام بالتفتيش على الزوايا فى كل من الحجاز وليبيا، وكانت آخر أعماله مشيخة زاوية سرت «خليج سدرى»، وكان من أجل العلماء علمًا وتقى وشدة فى الحق وشجاعة[1]، وكان يهابه حكام الأتراك وزعماء العرب لشدة تحرشه معهم فى الحق رغم جميع المجاملات، وكانت له مواقف مشهورة مع الفريق الحاج رشيد باشا عندما كان هذا الأخير حاكمًا لبرقة، وكان يحترم ويجل ابن الشفيع، وذات مرة سافر رشيد باشا إلى الجغبوب وكان يصحبه ابن الشفيع وشرع رشيد باشا يتلو القرآن وابن الشفيع يستمع حتى وصل القارئ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]، فقال ابن الشفيع: أتعلم يا رشيد أن جهنم خُلقت لمن؟، فقال رشيد: الله أعلم يا سيدى، فأجابه قائلا: إنها لك ولأمثالك ما لم تأخذوا بكتاب الله، فضحك رشيد وقبّل يد ابن الشفيع، وتوفى ابن الشفيع بسرت سنة (١٣٢٤هـ)[2].

٦- أحمد المقرحى، وقد سماه ابن السنوسى بالمفراحى من بادية طرابلس وكان من طليعة علمائها الذين يرجع إليهم على باشا عشقر الحاكم العثمانى، وفى بعض الروايات أنه تولى الإفتاء فى ولاية طرابلس، وقد مر ذكر المناظرة التى قامت بين علماء طرابلس وابن السنوسى، وقد توفى المقرحى بالزاوية البيضاء عام (١٢٦٣هـ)، ودفن بمقبرة رويفع الأنصارى ولم يترك عقبًا.

٧- عمران بن بركة الفيتورى، من زليطن، أسندت إليه مشيخة الزاوية البيضاء، وقام بالتدريس فى معهد الجغبوب، وكان مدرسًا لمحمد المهدى السنوسى، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين زملائه وتلاميذه، توفى بالجغبوب عام (١٣١٠هـ) ورثاه شاعر الحركة السنوسية أبو سيف مقرب البرعصى.

وقد تزوج الإمام محمد المهدى كبرى بناته وتزوج محمد الشريف بالثانية، فأنجب منها المجاهد الإسلامى الكبير أحمد الشريف[3].

٨- عبد الله بن محمد السنى -من سنار السودان- كان من تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس، وتولى أعمالاً كثيرة منها إلقاء الدروس فى مختلف العلوم وتولى مشيخة زاوية مزدة حيث توفاه الله بها.

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص٦٠).
(٢) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص١٤٣).
(٣) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص١٤٥).

٩- فالح الظاهرى -من الحمراء بالحجاز- ينتسب لبنى حرب، التحق بابن السنوسى سنة (١٢٤٣هـ) فى مكة وتفرس فيه ابن السنوسى نجابة وذكاء، كان من طليعة المدرسين بالمعهد الجغبوبى، زار إستانبول مندوبًا عن ابن السنوسى، كما زارها فى عهد السلطان عبد الحميد ونزل فى ضيافته معززًا مكرمًا، ثم زار الهند، وجلس للتدريس فى جميع البلاد التى زارها.

وفيما يلى نذكر بعض ما ورد فى رسالة منه، إلى العلامة أحمد الريفى -رحمهما الله-: «وفى هذه السبع سنين، بعد قدومى من البلاد الرومية حصل لى من إفادة العلوم غطوس ما أفقت منه إلا وأعضائى بها خلل من طول الجلوس، لكننى ولله الحمد حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب؛ ولم يبق قطر من الأقطار إلا وحمل عنى إليه دفتر «مفالحة» شيخنا الأستاذ، وهذا أقصى أمنيتى من كونى جعلت فى الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حق فى الهند والسند...»[١]، كان العلامة فالح الظاهرى متضلعًا فى العلوم الدينية والفقهية والحديثية والتاريخية واللغوية وكان شاعرًا يقرض الشعر، توفاه الله بالحجاز [٢]، وله عدة تآليف لم تطبع منها: «أنجح المساعى»، و«حسن الوفا لإخوان الصفا»، و«صحائف العامل بالشرع الكامل»[٣].

١٠- عبد الرحيم بن أحمد المحبوب «البنغازى» تتلمذ على يد ابن السنوسى، وتولى مهام كثيرة أُسندت إليه، منها: مصاحبة محمد المهدى من الحجاز إلى الجغبوب، وكان مفتشًا على الزوايا، وتولى مشيخة زاوية بنغازى، وانتُدب لزيارة إستانبول فى عهد ابن السنوسى، كما زارها فى عهد محمد المهدى، وقام بإلقاء الدروس بمعهد الجغبوب، توفاه الله بزاوية بنغازى.

١١- حسين الغريانى تتلمذ على يد ابن السنوسى وانضم إلى مجلس الإخوان وعرف عنه الصدق والإخلاص والحزم فى جميع أعماله وتولى رئاسة الزواية البيضاء ثم عين لرئاسة زاوية جنزور وعرف عنه الصلاح والتقوى والتفانى فى عمله وتوفى بزاوية جنزور المعروفة باسم زاوية دفنه[٤].

١٢- أحمد بن عبد القادر الريفى، من تلمسان بالجزائر، التحق بابن السنوسى سنة (١٢٦٧هـ) فلازمه ملازمة صادقة وقام بكثير من أعمال الحركة السنوسية وأخذ عنه محمد المهدى السنوسى الكثير من العلوم، ثم أصبح المستشار الخاص لمحمد المهدى، وكان معروفًا بالحلم والورع ولين الجانب، وذكر بعض المؤرخين أن محمد المهدى السنوسى كان يتلو القرآن الكريم وعندما مر بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

(١) انظر: السنوسى الكبير. (٢) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم.
(٣) انظر: السنوسى الكبير.
(٤) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص١٥١).

سَلاَمًا (٦٣) والَّذينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤]، قال: إن معنى هذه الآية ينطبق على السيد أحمد الريفى[1]، وكان مستشار الحركة السنوسية الخاص، وتولى رئاسة مجلس الإخوان بالجغبوب، توفى عام (١٣٢٩هـ/ ١٩٩١م)، فشق موته على أفراد البيت السنوسى، وجميع الإخوان وعامة أهل برقة، ورثاه الشعراء والعلماء، ومن بينهم تلميذه أحمد إدريس الأشهب.

١٣- محمد الصادق -من الطائف- التحق بابن السنوسى بالحجاز وأسندت إليه أعمال كثيرة، وقد أرسله ابن السنوسى إلى الجزائر أكثر من مرة بمهمات خاصة تتعلق بدعم حركة الجهاد فى الجزائر، وتولى مشيخة زوايا الجريد بتونس، كما كان حلقة الوصل بين المجاهدين فى الجزائر والزوايا السنوسية، وقد توفى بالجريد.

١٤- محمد بن مصطفى حامد المدنى -من تلمسان- التحق بابن السنوسى فى الحجاز عام (١٢٦٧هـ)، وتولى أعمالاً كثيرة فى الحركة السنوسية، منها: تعليم القرآن الكريم، وإلقاء الدروس والإشراف على شئون الطلبة والعمال فى الجغبوب، ثم مشيخة زاوية تازريو حيث توفاه الله هناك.

١٥- عمر محمد الأشهب -من زليطن -تعرف على ابن السنوسى مع زميله عمران بن بركة، تولى زاوية درنة ومشيخة زاوية مارة، ثم مشيخة زاوية مسوس، توفاه الله هناك.

١٦- مصطفى المحجوب من مصراتة، وقد تعرف على ابن السنوسى والتحق به فى الزاوية البيضاء سنة (١٢٥٨هـ) تولى مهام كثيرة آخرها مشيخة زاوية الطيلمون.

١٧- أحمد بن على أبو سيف من بادية طرابلس، تولى أعمالاً كثيرة منها: التدريس ومشيخة زاوية مسوس، وزاوية مارة، وتوفى بالحجاز (١٢٩٤هـ).

١٨- أبو القاسم العيساوى -جبل طرابلس- تولى مشيخة زاوية الرحبان، وانتُدب إلى دار الخلافة.

١٩- محمد إبراهيم الغمارى من المغرب الأقصى «مراكش» تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة الزاوية البيضاء والإشراف على صناعة تجليد الكتب الخاصة بمكتبة الجغبوب وتنظيمها.

٢٠- إبراهيم الغمارى -مراكش- تولى مشيخة زاوية دريانة ضمن الأعمال المناطة به.

٢١- مصطفى الغمارى -مراكش- تولى أكثر من زاوية بالحجاز حيث توفاه الله هناك.

---

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص٦٥).

٢٢- محمد حسن البسكرى، كان يقوم بالسكرتارية لمحمد المهدى فيما بعد.

٢٣- عمر أبو حواء الفضيل الأوجلى كان من أوائل رفاق ابن السنوسى، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى والاستقامة، وقد ندبه ابن السنوسى إلى أكثر من مهمة فى كل من الحجاز وليبيا والسودان وشمال إفريقيا، وقد تولى مشيخة زاوية الجوف بواحة الكفرة التى توفاه الله بها.

٢٤- مصطفى الدردفى -من مصراتة- كان من رفاق ابن السنوسى، تولى مشيخة زاوية شحات.

٢٥- محمد بن حمد الفيلالى -من المغرب- كان من رفاق ابن السنوسى، وقد انضم إليه من الجزائر، وتولى أعمالاً كثيرة منها: رئاسة مجلس الإخوان فى برقة، وقد وصفه ابن السنوسى بالرئاسة(١)، إلا أنه بعد سفر ابن السنوسى الأخير إلى الحجاز انفرد «ابن حمد» فى عمله وأساء التصرف واستبد عن رأى مجلس الإخوان، كما أخذ يهددهم ويهينهم بمختلف الإهانات وهم يتحملون ذلك ويرون طاعته مع الصبر على المكاره شيئًا ضرورياً؛ لأنه الوكيل عن ابن السنوسى، ولما ظهرت تصرفاته لابن السنوسى أمر بفصله ثم سافر إلى الحجاز، وهناك استقبله ابن السنوسى وقال له: «أتعبتنا يا أخانا بن حمد، فما من كلمة سوء وجهتها لأحد إخواننا إلا وقد وُجهت لنا بالذات، وما من ضربة سوط أصابت جسم أحدهم إلا وقد أصابتنا مباشرة»(٢).

٢٦- محمد أحمد السكورى -من صنهاجة بالمغرب- تولى مشيخة زاوية الواحات البحرية، وأوفده السنوسى فى مهمة إلى الحجاز ثم ولاه مشيخة زاوية المرج، وورث عن أبيه ثروة ضخمة ومحبة البدو الذين عرفوا والده وأحبوه(٣).

٢٧- المرتضى فركاش: ينتسب إلى نوح المسمارى الشريف الحسنى، كان من كبار الشخصيات المحترمة بالجبل الأخضر، يمتاز بين قبائل العرب بالدهاء وكثرة التجارب والمرونة وكرم الأخلاق وحُسن التصرف وله شهرته الإصلاحية، وقد ساعدته ثروته الطيبة وقتذاك على الاحتفاظ بمركزه الاجتماعى والأدبى، وكان يعيش فى الحضر والبادية، فيأوى إلى مدينة درنة فى وقت الصيف، ويختلف إلى سكنى البادية فى موسم الشتاء والربيع، وعندما وصل ابن السنوسى إلى الزاوية البيضاء التحق به وأخذ فى خدمته بكل إخلاص فنال حظوة عند سيادته، وكان يلازمه فى تنقلاته داخل برقة وحج معه البيت الحرام، وحفظ القرآن وتفقه فى الدين بقدر الإمكان،

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٦٧).
(٢) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص ١٥٣).
(٣) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص ١٥٣).

أنجب أولادًا كانوا جميعًا فى خدمة الحركة السنوسية، وكان لأمر هؤلاء الأولاد دورٌ بارزٌ فى الجهاد ضد إيطاليا، وتميزت عائلة فركاش من بين قبيلة المسامير بخدماتها الجليلة للإسلام من خلال الحركة السنوسية، وارتبطت بصلات المصاهرة مع كثير من الإخوان منهم: الأشهب، المحجوب، عبد المولى الغريانى[1].

٢٨- أبو سيف مقرب: هو من أشهر بيوتات السعادى ينحدر من عائلة طامية البراعصة، وفى بيته رياسة قبائل البراعصة وهو من خيرة رجال الحركة السنوسية، سلمه والده طفلاً لابن السنوسى، وكانت تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة، وكان من بين العمال الذين قاموا ببناء زاوية البيضاء فزلقت رجله وتصادم رأسه بالحجر فشُج حتى قيل إن دماغه ظهر للعيان، فجيء إلى ابن السنوسى فضمد رأسه بقطعة من عمامته قائلاً: هذا الرأس سيملؤه الله علمًا وحكمة». وصدقت فراسة ابن السنوسى ونبغ المصاب الذى كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وأصبح من أبرز العلماء، كما كان فى طليعة أدباء الإخوان، وكان من كبار المدرسين فى معهد الجغبوب، توفى -رحمه الله- بزاوية الجوف «الكفرة» وصلى على جثمانه محمد المهدى الزعيم الثانى للحركة السنوسية وكان ذلك عام (١٣١٥هـ)[2].

٢٩- الحسين الحلافى -من المغرب- تولى من الأعمال مشيخة زاوية المخيلى.

٣٠- المختار بن عمور -من أشراف الجزائر- كان من تلاميذ ابن السنوسى، تولى مشيخة زاوية قفمطة.

٣١- محمد حيدر الهونى، اشتهر بإجادة تلاوة القرآن ترتيلاً حتى روى عن ابن السنوسى أنه كان يقول: «يا هونى قراءتك للقرآن تقول: اسمعونى».

٣٢- عمر جلغاف حدوث -من زعماء قبائل برقة- أخلص للحركة السنوسية، وكان ضمن الوفد الذى التمس من ابن السنوسى عندما كان فى الحجاز أن يرجع إلى برقة، وكان ضمن مجلس الإخوان فى البيضاء، وأوفده ابن السنوسى لتفتيش الزوايا والقيام ببعض المهام فيها.

٣٣- الفضيل أبو خريص الكزة -أحد زعماء قبائل برقة- انضم إلى ابن السنوسى، وكان حظه من التعليم قليلاً، إلا أنه قام بمهمات كبيرة فى السودان والحجاز والجزائر[3].

بالإضافة إلى هؤلاء، كانت مجموعة طيبة من أعيان وزعماء برقة من الحضر والبادية، ومن بينهم: الأمين بك شتيوى متصرف بنغازى، ومحمد بك كاهية وجميع أفراد أسرته، والشيخ على

(١) المصدر السابق، (ص ١٥٨).

(٢) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص ١٥٣).

(٣) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٦٩).

القزيرى، والحاج عبد الله بن شتوان، والشيخ محمد الأسمع، والحاج سالم عثمان، وكبار عائلة منينة وابن زبلح، وهؤلاء من وجهاء وعيون بنغازى. أما من درنة فقد انضم إليه جميع أعيانها ورؤسائها، منهم وقتذاك: عائلة جبريل، وعائلة ساسى وستيتة، ومن شيوخ البدو: علىّ بك الأطيوش، والحاج محمد قادربوه، والشيخ حمد اللواطى، وأبو بكر بك حدوث، وعمر جلغاف وعبد الله سويحل عمدة عائلة مريم وأضرابهم من الشيوخ والعمد والأعيان وعامة الأهالى هؤلاء جميعًا كانوا من أنصار الحركة السنوسية انصهروا فى بوتقتها، وتبنوا تعاليمها، وأصبحوا من دعاتها.

كان هؤلاء الإخوان من شتى بقاع المعمورة فآخى بينهم ابن السنوسى وهم لم يتعارفوا قبله، إذ لا صلة تربطهم غير الإسلام، فأصبحوا كجسد واحد غير قابل للتجزئة، وجاءوا من تونس، والجزائر، ومراكش، و الريف، وسوس الأقصى، وطرابلس الغرب وباديتها، وبرقة وباديتها، ومصر وصعيدها، والسودان، والحجاز، واليمن، ونجد، فأصبحوا لا هم لهم إلا خدمة الإسلام(١).

رابعا: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع عند ابن السنوسى:

لقد استطاع ابن السنوسى بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل فى الصحراء الكبرى مجتمعًا متماسكًا، متوحدًا فى عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك فى توادهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذى يخفق فيه قلب واحد، وتسرى فيه روح واحدة ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هم كالجدار المتين الذى تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة متماسكة متراصة.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخى والاجتماع على البر والتقوى الذى سلكه ابن السنوسى هو طريق أهل السنَّة والجماعة الذى التزموا فى جميع أمورهم بما كان عليه رسول الله وأصحابه ﷺ فى العقائد والأخلاق، والعبادات والمعاملات، وجميع شئون الحياة. إن المنهج الذى اجتمع عليه الإخوان السنوسيون هو كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لأن ذلك طريق الاعتصام بحبل الله، وهذا الأصل من آكد الأصول فى هذا الدين العظيم، ولذلك أمر الله تعالى

(١) انظر: برقة العربية بين الأمس واليوم، (ص ١٥٩).

رسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهى عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع وتناحر سببه عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه، مما ترتب عليه تفرق فى الصفوف، وضعف فى الاتحاد، وأصبحوا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدره الله عز وجل كونًا ووقع كما قدر، إلا أنه -سبحانه- لم يأمر به شرعًا؛ فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعى، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم عوامل النهوض، ونحن مأمورون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لقد تضافرت جهود دعاة الحركة السنوسية وقادتها وعلمائها وطلابها لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفيقياً؛ لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وكأنهم اعتقدوا أن: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم فى عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفى تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثانى، وهو جهاد يُقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين، وجميع أعداء الدين ومقاومتهم؛ وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب فى كل وقت وزمان»(١).

«إن من أعظم الجهاد: السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية»(٢)

إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم كان من أهم أهداف الحركة السنوسية؛ لأن قادة الحركة أيقنوا أهمية هذه الخطوة فى إعزاز المسلمين، وتحكيم شرع ربهم، وتقوية دولتهم.

إن ابن السنوسى عمل على وضع منهج سار عليه علماء الحركة من أجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ولذلك اهتم بالآتى:

أ- وحدة العقيدة:

أيقن ابن السنوسى أنه لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، وكان يعلم أن العقيدة تشكل أساسًا مهمًا فى البناء الفردى والاجتماعى، وهى القاعدة التى تقوم عليها

---

(١)، (٢) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، (ص ٥).

الأعمال والعلاقات؛ فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار، وإن العقيدة التى تصلح لجمع شتات المسلمين هى ما كان منبعها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها: ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دونوا هذه العقيدة تدوينًا يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال(١).

إن سلامة الاعتقاد وصحته هى الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزها وسعادتها فى الدنيا والآخرة إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافى النقى، الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العادات الفاسدة.

إن طريق النهوض بالأمة لابد فيه من وحدة الصف الإسلامى، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، والطريق لفهم القرآن الكريم والسنَّة المطهرة هى طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ، والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» (٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كُفيتم»(٤).

---

(١) انظر: فقه النصر والتمكين، للمؤلف، (ص ٢٥٥).
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، (ص ٢٥٥).
(٣) انظر: مسلم، كتاب: الصحابة، باب: فضل الصحابة، (٤/ ١٩٦٣) رقم (٢٥٣٣).
(٤) انظر: الموطأ، رقم (١٦١٩).

وعنه رضي الله عنه : «من كان متأسيًا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(١).

لقد اهتمت الحركات السنوسية بجانب العقيدة، وكانت رسالة أبى زيد القيروانى العلمية ضمن مقررات مناهج الحركة، وتعتبر هذه الرسالة من أنفع التأليف فى الفقه المالكى قاطبة؛ وذلك لمكانة مؤلفها العلمية من ناحية، ولسهولتها ويسرها، وجمعها لأصول العقيدة والفقه والآداب من ناحية أخرى.

وهى كما وصفها مؤلفها ابن أبى زيد فى مقدمتها: «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسن، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السُّنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشىء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس -رحمه الله تعالى- وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن لبسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته»(٢).

وهذا النص الكامل لمقدمة أبى زيد القيروانى فى العقيدة: «باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

* من ذلك: الإيمانْ بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك له، ليس لولايته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم... العالم الخبير المدبر القدير، السميع البصير، العلى الكبير، وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة، كلم موسى بكلامه الذى هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وتجلى للجبل فصار دكًا من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد، والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قدَّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٣٧٩).
(٢) انظر: شرح مقدمة ابن زيد القيروانى، للأمين الحاج (ص ٩).

ومصدرها عن قضائه، علم كل شىء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤]، يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدى من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقى أو سعيد، تعالى أن يكون فى ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شىء وهو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ، فجعله آخر المرسلين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به إلى الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يَتُب من الكبائر صائرًا إلى مشيئته ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨].

ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه وأدخله به جنته ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ [الزلزلة: ٧]، ويخرج منها بشفاعة النبى ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته... وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهى التى هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق فى سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد فى آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجىء يوم القيامة والملك صفًا لعرض الأمم وحسابهم.

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ٨]، ويؤتون صحائفهم بأعمالهم... وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون فى سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويذاد عنه من بدل وغير، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة ولا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنّة.

وأنه لا يُكفَّر أحد بذنب من أهل القبلة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين، وأن المؤمنين يُفتنون فى قبورهم ويُسألون ﴿يُثبتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شىء من ذلك عن علم ربهم،

وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا»[1].

هذه العقيدة السنية البهية كانت تدرس في مناهج الحركة السنوسية، ويتربى عليها القادة والجنود، وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ الأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتًا عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه[2]، ويعلمون الناس أوامر القرآن والسنّة الشريفة وأصول التوحيد، ويحرمون التضرع للأولياء، ويربون الناس على أن يكون التعبد لله وحده[3].

وكانت بعض القبائل في الصحراء الكبرى وإفريقيا قد انحرفت عن عقيدتها الصحيحة، فجاء إليهم علماء الحركة السنوسية يبينون لهم عقيدتهم ويتلون عليهم آيات الله التي تبين أن النافع والضار هو الله وحده ويفسرون لهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

---

(١) انظر: شرح مقدمة أبي زيد القيرواني (ص ١٦، ١٧، ١٨).
(٢) انظر: الإسلام في القرن العشرين (ص ١٣٢).
(٣) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، حسن إبراهيم (ص ٤٧).

وقال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله﴾ [النمل: ٦٢].

كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة، كالاتحاد، ووحدة الوجود، والحلول. إن عقيدة الاتحاد من عقائد الصوفية الفاسدة المتأثرة بالنصرانية المنحرفة والديانة الهندية القديمة، ومعنى ذلك أن المخلوق يتحد بالخالق، تعالى الله عن قولهم علواً عظيماً، قال تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل (١٠٢) لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣].

أما وحدة الوجود: فإنهم يعتقدون أن كل شيء في الوجود هو الله سواء كان حيواناً أو جماداً أو إنساناً أو غير ذلك، وهي عقيدة فاسدة مضمحلة، لا أساس لها من عقل ولا شرع ولكنها من وحي الشيطان. إن الحركة السنوسية حاربت هذا المعتقد الفاسد الباطل، وسارت على مذهب أهل السنَّة والجماعة الذي يقول بأن الله سبحانه بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته، متصف بصفات الكمال، فله الأسماء الحسنى والصفات العلا ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، فهو المتفرد بالجلال المتصف بصفات الكمال المنزه عن النقائص والعيوب، فمن اعتقد أن الله سبحانه وتعالى متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب، والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ، وخالف الفطر والشرائع، وقد كفَّر الله تعالى النصارى الذين قالوا: إن الله اتحد بعيسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ [المائدة: ١٧]، فكيف بمن يقول إن الله متحد مع جميع مخلوقاته؟ فهو أولى بأن يكون كافراً لأنه يعتقد إن الله متحد بجميع ما في هذا الكون[1].

إن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحتة ليست من الإسلام في شيء، وإن علماء الحركة السنوسية وقفوا ضدها بكل حزم وعزم، قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وحاربت الحركة السنوسية عقيدة الحلول التي تقول بأن الله يحل في الأشخاص، تعالى الله عن قول الحلوليين علواً كبيراً.

«والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة؛ لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه دخل به الإله وصار مع

(١) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود (ص ٢٨٥).

الله وحدة واحدة، لا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من الإيمان»(١).

لقد حاربت الحركة السنوسية العقائد الفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على تحكيم الله وسُنَّة رسوله على نفسها، ودعت غيرها إلى الالتزام بذلك.

ب- تحكيم الكتاب والسُّنَّة:

أيقن ابن السنوسى وإخوانه من العلماء أن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عز ولا نصر، ولا فلاح فى الدنيا، ولا نجاة فى الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد والأسر، والجماعات والقبائل، ومن ثم على مستوى الدولة.

واسترشد ابن السنوسى فيما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ [النساء: ٥٩].

وبقوله ﷺ فى حجة الوداع: «يا أيها الناس. إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسُنَّتى» (٢).

إن ابن السنوسى حرص على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته ومجتمعه، وكان يرى أن ذلك خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة واقترابها من نصر الله تعالى، وأن التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسول ﷺ له آثار دنيوية، كالاستخلاف، والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصح والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة، والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل، وانزواء الرذائل. وأما الآثار الأخروية؛ فهى تشمل: المغفرة وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة وعلو المنزلة ومعية التكريم، وإليك هذه الرسالة التى أرسلها ابن السنوسى إلى أهل وجنقة فى تشاد لتدلنا على ما ذهبنا إليه.

قال -رحمه الله- بعد البسملة:

«من عبد الله محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى، إلى المكرم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الجنقاوى وجميع جماعة بلد وجنقة كبيرًا وصغيرًا ذكرًا وأنثى سلمهم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم آمين، السلام عليكم ورحمة الله

(١) انظر: المؤامرة على الإسلام، لأنور الجندى (ص ٥٢).
(٢) انظر: مسلم، كتاب: الحج، باب: حجة النبى ﷺ (٢/ ٨٩٠) رقم (١٢١٨).

تعالى وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته وبعد، فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية أحوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسُنَّة نبيه محمد ﷺ وشرَّف وكرم وعظم، وثانيًا: فإنا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[النساء: ٦٩، ٧٠].

والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وأداء زكاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة، وأكل أموال الناس بالباطل، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق، وشهادة الزور، وغير ذلك مما حرم الله ورسوله، فبذلك تنالون كل الخير الأبدي والربح السرمدي، الذي لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان، وقد طلب منا أناس من ذلك الطريق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسوله عليهم، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها: ننبه الغافل، نعلِّم الجاهل، ونرشد الضال، ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين، وعندما قَدمنا لهذه النواحي اشتغلنا بدلالة العباد إلى الله، وما رأينا أحدًا من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه، والآن فإن أتباعنا -جماعة زوية- الذين هم أهل تزور -موقع- المعلومة عندكم قدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبوا منا بناء زاوية بموقع تزور المذكورة، وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وأبناءكم كتاب الله وسُنَّة نبيه محمد ﷺ وإصلاح ذات البين بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم، ويأخذون أبناءكم وأموالكم عاملين بقوله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ [الأنفال: ١]، وبقوله تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ [النساء: ١١٤]، فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى.

كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة: ٢]، وبقوله ﷺ: «كونوا عباد الله إخوانًا وعلى الدين أعوانًا». وأما الفتنة والمنازعة فلا

خير فيها؛ بل لقد نهى الله عنها فى كتابه العزيز بقوله :﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦]، وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصحيتنا، فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سُنَّة رسول الله ﷺ، ولا تخافون بعد ذلك إن شاء الله من أحد، وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله، واتباع الكتاب والسُّنَّة، وربكم تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين، دالين على الخير وبه عاملين، بمنّه وكرمه آمين، ودمتم بخير عافية، ونعم متواترة صافية»(١).

وهذه الرسالة تعطينا منهجية ابن السنوسى فى دعوته وأسلوب عرضه، وطريقة خطابه، وجزالة ألفاظه وروعة بيانه.

جـ- صدق الانتماء إلى الإسلام:

أيقن ابن السنوسى أن من أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها: الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

لقد تربى أتباع السنوسية على أن الإسلام منهج للحياة، والعبودية لله معلم كبير فى حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة فى مقابلة التجمعات البشرية، ولقد تربى أتباع السنوسية على الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين ﴾ [فصلت: ٣٣].

لقد كان الانتماء إلى الإسلام فى التربية السنوسية فوق الانتماء للأوطان والأقوام والنعرات الجاهلية.

د- طلب الحق والتحرى فى ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحرى للوصول إليه، يقوى وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله، وهى من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

إن الله تعالى فى كتابه الكريم يبين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ [يونس: ٣٢].

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص ١٥٢).

قال القرطبى - رحمه الله -:

[«قال علماؤنا»: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول فإن الحق فيها فى طرف واحد](١).

ولذلك نجد أن ابن السنوسى وهو المالكى المذهب والثقافة يخالف مذهب مالك فى بعض المسائل عندما تبين له أن الحق خلاف مذهب الإمام مالك، فكان يقبض فى صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر فى الصلاة أثناء السفر... إلخ، وقد حذا أتباعه حذوه، وهذا يدلنا على تحرى ابن السنوسى وأتباعه للدليل الشرعى والتمسك، ونقده كثيرًا من آراء التصوف المخالفة لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وكانت وسائل الوصول إلى الحق تقوى الله والتجرد والإخلاص.

هـ- تحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع:

أيقن ابن السنوسى أنه بتحقيق الأخوة بين القبائل، وأتباع الحركة، تتحقق وحدة الصف، وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد الحركة، كما كان على علم بأن الأخوة منحة من الله عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

إن الأخوة فى الله بين أتباع الحركة السنوسية أورثتهم شعورًا عميقًا، وعاطفة صادقة، ومحبة وودًا واحترامًا فيما بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

إن الأخوة فى الله ملازمة للإيمان، ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أُشرب هذه الأخوة، ولذلك حرص عليها السنوسيون وأتباعهم.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»(٢).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٣٦).
(٢) انظر: البخارى، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١/ ١١).

لقد حرص السنوسيون على أن يطبقوا تلك الصورة الجميلة لأصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

إن الأخوة فى الله من أهم الأسباب التى جعلت الحركة السنوسية تصمد فى وجه أعتى المحن التى تعرضت لها.



الفصل الثانى:

البعد التنظيمى والمنهج التربوى والبعد السياسى عند ابن السنوسى

المبحث الأول

البعد التنظيمى عند ابن السنوسى

إن البعد التنظيمى يظهر فى شخصية محمد بن علىّ السنوسى فى بناء الزوايا التى يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوى الذى سار عليه، فأما الزوايا فهى ركيزة نظام الحركة السنوسية وهى التطبيق العملى لأفكار ابن السنوسى التى دعا إليها.

إن نظام الزوايا، كان معروفًا فى العالم الإسلامى والشمال الإفريقى خصوصًا، فكلمة الزاوية تطلق عند الطرق الصوفية على مكان يختلى فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم، ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهارًا، منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة الناس لهم، على يد رجال القوافل الذين يضربون فى الطرق الصحراوية، وينزلون بهذه الزوايا التى غالبًا ما كانت مواقعها فى أماكن خلوية بعيدة عن العمران، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحتسبها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربًا إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية.

أما الزوايا السنوسية فهى تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون؛ أى من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها[1]؛ فلقد استطاع ابن السنوسى بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية. وقد تحدث ابن السنوسى فى إحدى رسائله عن الزاوية فقال: «والزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده... والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أُسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»[2].

وقال فى رسالة أخرى: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منها «يعنى الزاوية» ويدوم، من

(١) انظر: فى تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت الشيخ (ص٢٥٥).
(٢) انظر: السنوسى الكبير، (ص١٤٣).

تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»(١).

وقال فى رسالة ثالثة: «رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم، وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة وتتسع الإدارة»(٢).

لقد استطاع ابن السنوسى أن يؤسس تنظيمًا هرميًا للحركة فكان تشكيله كالآتى:

١- شيخ الطريقة أو رئيس النظام، وهو الرئيس الأعلى لها.

٢- مجلس الإخوان «الشورى» ومهمته مساعدة شيخ الحركة فى تعيين شيوخ الزوايا.

٣- شيوخ الزوايا.

٤- الإخوان، ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة(٣).

كما أصبحت فى أواخر حياة ابن السنوسى زاوية الجغبوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل فى البناء التنظيمى فى الحركة زوايا رئيسية أو زوايا عليا، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية الكبار، كزاوية أبى قبيس بمكة، وزاوية البيضاء بدرنة، وزاوية بنغازى، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعًا واستجابة للحاجات الدينية والعقلية(٤).

استطاع ابن السنوسى أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش، وفق نظام دقيق تلتقى أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزاويا قد انتشرت فى تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان الغربى «تشاد»، وكانت تقارير هذه البلاد تَرِدُ أولا إلى بنغازى ثم تُرسَل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة(٥).

وكانت العقلية التنظيمية عند ابن السنوسى تهتم بالتخطيط السليم والإدارة الناجحة، وكان تخطيطه يعتمد على تحفيزه لأتباعه والاستعداد لما سيواجههم فى المستقبل، استنادًا إلى فهمه لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١)، (٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص٢٣٧).

(٣) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، (ص١٣٣).

(٤) تاريخ المغرب العربى الحديث «ليبيا»، محمود عامر (ص١٣٣).

(٥) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص٥٠).

وجعل من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العامة توجيهًا سديدًا؛ فأصبحت مراكز إصلاح إنسانى متكامل، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية(١).

إن البناء التنظيمى للزوايا فى الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسى استفاد من سُنَّة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة، وكان مقتنعًا بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعبوا سُنَّة الأسباب، وأن يحسنوا التعامل معها؛ بحيث يستطيعون أن يُنزلوها على أرض الواقع.

إن مفهوم التوكل عند ابن السنوسى، يعنى الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، ولذلك استطاع أن يبنى البناء التنظيمى البديع المتين، وفق أسس ونظم رائعة، وإليك تفصيلها:

أولا: الأسلوب الذى تبنى به الزاوية:

تبنى الزاوية بالاتفاق بين إحدى القبائل التى ترغب فى بنائها مع ابن السنوسى، ويكون البناء وفق الأسلوب الآتى:

١- تُبنى الزاوية فى قطعة من الأرض المختارة بالاتفاق مع القبيلة التى تملك الناحية ومع ممثل ابن السنوسى أو ابن السنوسى نفسه.

٢- يعين ابن السنوسى لهذه الزاوية رئيسًا يلقب بـ«الشيخ» إذا كانت الزاوية قد بُنيت، وإن لم تكن فيختط الشيخ زاويته فى الموضع المتفق عليه وتكون أرضها وقفًا، وعادة تكون على ربوة عالية تشرف على ما حولها ويُتوخى فيها المناخ الصحى(٢).

٣- تكون تكاليف بناء مسكن الشيخ والمسجد والمدرسة من الأهالى.

٤- للزاوية حرم كبير يحيط بها من الجهات الأربع؛ يكون آمنًا لمن دخله واستجار به، ولا يجوز أن يطلق داخله الرصاص، أو يشهر السلاح، وكذلك المشاجرة وإعلاء الصوت بالغناء أو الخصومة، كما يمنع فيه رعاية الحيوانات(٣).

(١) انظر: دراسات وصور، (ص٢٨٦).
(٢) انظر: السنوسى الكبير، (ص٣١).
(٣) انظر: السنوسى الكبير، (ص٣١).

٥- من المألوف أن يرسل ابن السنوسى عدداً من «الإخوان» بينهم من يشتغل بالبناء والعمارة والتجارة وكل المهارات التى تحتاج إليها القبيلة فى تشييد الزاوية(١). ومن الطبيعى أن يستغرق البناء وقتًا يطول أكثر من العام، ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولاً، ثم دار لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية فى النهاية بيوتًا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنًا لحفظ المؤن وإسطبلاً وبستانًا ومتجراً على الأقل، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرنًا لسد حاجة السكان من الخبز(٢)، ويقوم حولها مبانٍ أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالى ليأووا إليها فى موسم الصيف، ويكون لها متسع من الأراضى الزراعية والآبار والصهاريج لحفظ الماء(٣).

ثانيا: مواقع الزوايا:

تميزت مواقع الزوايا بصفات سياسية وتجارية وعسكرية؛ فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تُنشر فى الدواخل أكثر من انتشارها فى السواحل، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسى على الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية. ولذلك فضل ابن السنوسى أن يتوغل بزواياه فى الصحراء، وحرص على أن يوضح غرضه الدعوى من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثمانى فى ليبيا تفاديًا للصدام بها، فكتب إلى مصطفى باشا -حاكم فزان- عند بناء زاوية هناك «أن الزاوية فى الحقيقة إنما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزوايا إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية؛ لأنها ما أُسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان»(٤).

وأوضح الغرض الدينى نفسه للزاوية للمشير محمد أمين باشا -والى طرابلس الغرب العثمانى- فقال: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا، فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها»(٥).

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا، فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة؛ فقد أقيمت معظم الزوايا فى طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية فى الأراضى الليبية: الطريق الأول للقوافل يتجه جنوبًا من الساحل الليبى عبر واحة فزان إلى بحيرة

(١) انظر: المجتمع الليبى، (ص٣١٤).
(٢) انظر: السنوسى الكبير (ص ٢٤).
(٣) انظر: السنوسى الكبير (ص ٢٥).
(٤) انظرا السنوسى الكبير (ص ٢٤).
(٥) انظر: السنوسى الكبير (ص ٢٥).

تشاد، والطريق الثانى ينعطف جنوبًا غربًا عبر غدامس وغات إلى تمبكتو، والطريق الثالث يسير جنوبًا شرقًا عبر واحة الكفرة، ثم سواكن وزيلع وإلى واداى ودافور الغنى بخصبه وثروته. والمتتبع لمواقع هذه الزوايا فى الأراضى الليبية مثلاً يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة؛ مما جعل ابن السنوسى يستخدم زواياه والقبائل التى توجد الزوايا فى أراضيها لاستغلال التجارة وتنشطيها، مما كان له أثر كبير فى تحريك عجلة البلاد الاقتصادية، بسبب دور الزوايا فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين موردًا مهمًا فى حياة البلاد الاقتصادية[١]. زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذى حث عليه ابن السنوسى أهل القبيلة أو القبائل الواقعة فى أراضيها الزاوية أو الزوايا[٢].

ولا تقل الأهمية العسكرية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية؛ فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للإخوان السنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، ومن ثم بُنيت الكثير من الزوايا على أنقاض الأطلال الإغريقية والرومانية فيما مضى والعثمانيين فيما بعد. لقد كان من الضرورى بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التى تقوم بها القبائل المتوغلة فى الصحراء، هذا إلى جانب أن ابن السنوسى اتبع فى إنشاء الزوايا نظامًا خاصًا يدل على الأهمية العسكرية للمواقع الحصينة؛ بحيث تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات[٣]. وبمعنى آخر استطاع ابن السنوسى أن يقيم من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند فيها الخط الأول، ويساند الخط الثالث الخط الثانى، وهكذا. وكل هذا تم بدون أن يثير ابن السنوسى ثائرة أو شكوك الحكومة العثمانية[٤].

يقول برتشارد: «إن من درس توزيع الزوايا السنوسية فى برقة يلاحظ أنها أقيمت وفق خطة سياسية اقتصادية؛ فقد بُنى عدد كبير منها على منشآت يونانية ورومانية، وأُسست على طرق القوافل المهمة وفى مواقع دفاعية قوية»[٥].

وقال شكيب أرسلان: «وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة مائها، وفى الجبل الأخضر هى بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقلّ أن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بستانين، فيها من كل أنواع الفواكه»[٦].

---

(١) انظر: دراسات فى التاريخ اللوبى، مصطفى بعبور (ص ٦٠).
(٢) انظر: فى تاريخ العرب الحديث (ص ٢٥٨). (٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٢).
(٤) انظر: فى تاريخ العرب الحديث (ص ٢٥٨، ٢٥٩).
(٥) انظر: عشر سنوات فى بلاط طرابلس (٧٨). (٦) انظر: حاضر العالم الإسلامى (١/ ٢٩٨).

ثالثا: وظائف الزاوية:

كانت الأعمال التى تقوم بها الزوايا كالآتى :

١- التنفيذ العلمى لأحكام ومبادئ الحكم الشرعى بين المواطنين، والتربية الدينية والخلقية للأتباع والإخوان، وإعداد الدعاة.

٢- الدعوة إلى الالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل، والقدوة الحسنة التى وجدها الناس فى شيوخ الزوايا.

٣- الاهتمام بدعوة الشعوب الوثنية، وهذه وظيفة الزوايا المتغلغلة فى الصحراء الكبرى والتى وصلت إلى قلب إفريقيا الغربية والسودان، ولقد اهتدت هذه القبائل إلى الإسلام طائعة مختارة.

٤- تنقية الإسلام مما علق به على يد الغلاة من المتصوفة من بدع وتعاليم تبعده عن سماحة عقيدته وأصوله المحكمة.

٥- قامت بدور تعليمى، فقد كانت أشبه بالمراكز الإسلامية المنتشرة فى العالم، وكانت الزاوية تمثل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامى واللغة العربية، ومن يتميز من الأطفال يلتحق بعاصمة الزوايا سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التى صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن الكريم، والتى حوت مكتبتها ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية[١].

وكانت المناهج التربوية فى الزوايا تشتمل على جميع العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه، والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة وغيرها.

٦- كانت الزوايا تدرب تلاميذها على إتقان الحرف والصناعات، مثل صناعة البارود والأسلحة.

٧- قامت الزوايا بدور اجتماعى مهم، ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار؛ إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعًا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً.

(١) انظر: فى تاريخ العرب الحديث (ص ٢٦٢).

٨- شجعت الزوايا الحركة التجارية والزراعية، وعمِّرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع، وكانت تقدم مساعدات وتسهيلات لراحة المسافرين التجار، مما شجع على التبادل التجارى بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوافر فى أرض الزاوية.

٩- قامت الزوايا بدورها الجهادى فى مواجهة الغزو الفرنسى المتقدم وسط إفريقيا وفى الكفاح ضد الاحتلال الإيطالى فى ليبيا، ولولا الله ثم استعداد الزوايا الجهادى لما استطاع الليبيون أن يصمدوا ضد إيطاليا أكثر من عشرين سنة(١).

رابعاً: السلطة فى الزاوية:

تتألف السلطة فى الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسئول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين، ومهمة هذا المجلس هى النظر فى مشاكل الأهالى وفض المنازعات، وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدم -وهو- كما يقول أرسلان -: «القيم على الزاوية الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل فى الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام. ويليه وكيل الداخل والخارج، وإليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الاقتصادية. وبالإضافة إلى هذين هناك الشيخ الذى يقيم الصلاة فى مسجد الزاوية ويعلم أطفال القبيلة ويعقد فيها عقود النكاح ويصلى على الجنائز»(٢).

ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة؛ لأنها من مهام شيخ الزاوية «مقدمها»، ومن مهام شيخ الزاوية التى ذكرها برتشارد أنه «هو الذى يمثل رئيس النظام، ويقود رجال القبيلة فى الجهاد، ويصل بين القبيلة ورجال الإدارة العثمانيين، ويقوم بضيافة المسافرين، ويشرف على حصاد الزرع، ويؤم صلاة الجمعة، ويساعد فى الوعظ والتعليم»(٣).

خامساً: طريقة فض المنازعات فى الزاوية:

يتخذ رئيس الزاوية مجلساً من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل وجوهها، فما كان يُفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التى يتولى فيها منصب القضاء الحكم فى القضية، وما كان يُفض بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول، وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويُخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون بشأنها رئيس الزاوية مع شيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له، ويُضرب لذلك موعد

(١) انظر: فى تاريخ العرب الحديث، (ص ٢٦٣، ٢٦٤).
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامى (١/ ٢٩٨).
(٣) انظر: عشر سنوات فى بلاط طرابلس، (ص ٨٠).

يحدد زمانه ومكانه، وهناك يحسم بدون عناء. وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ، يُرفع إلى الجغبوب حيث يصدر القرار النهائى[(١)].

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجانى على وثيقة بتاريخ (٩ رجب ١٢٩٧هـ) تتحدث عن خصام وقع بين أهالى هون وسكونة استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف[(٢)].

سادساً: أراضى الزاوية:

كانت أراضى الزاوية موقوفة عليها فلا تباع ولا تشترى، وتبقى مرتبطة بالزاوية، ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذى يكون عن طرق مختلفة، منها: الهبة والتبرع ومنها الشراء، ومنها: إحياء الأراضى البور، وإصلاح الآبار الخربة، ومنها: نزع المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلها للزاوية[(٣)]. وقد ذكر الدجانى إحدى الرسائل التاريخية تبين كيف تتحول الأراضى المحيطة بالزاوية إلى وقف.

والوثيقة هى عبارة عن رسالة بعث بها أحد الإخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة، ويرد فيها «وأيضًا نخبركم أنه فى محل ببرقة يقال له أجدابية قصران معلومان. والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزوية، راغبون فى الأستاذ أن ينشئ لهم زاوية هناك، وكتبوا حججًا فى إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا منهم واحداً مخصوصًا إلى حضرات جنابه رضى الله عنه «يعنى ابن السنوسى»[(٤)]، والقصد لا يتعدى على الأرض، وتاريخ الرسالة (١٥ محرم ١٢٧٦م) أى: قبل وفاة ابن السنوسى بشهر. فالأرض فى هذا المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعًا من مشايخ القبيلتين، ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف[(٥)]. وكانت مساحة أراضى الزاوية كبيرة نسبيًا وتصل أحيانًا إلى (٢٥٠٠ هكتار) بعضها مزروع والبعض الآخر يترك للرعى، وقد ذكر برتشارد أن مجموع أراضى الزاوية فى برقة يبلغ نصف مليون هكتار[(٦)].

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها، ويساعدهم فى الزرع والحصاد رجال القبيلة. وقد ذكر شكيب أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية، ولذلك يسهل العمران بدون نفقة كبيرة[(٧)].

(١) انظر: المجتمع الليبى، (ص ٣١٥). (٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٣٩).
(٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٤٠).
(٤)، (٥) انظر: دار المحفوظات بطرابلس، نقلاً عن الحركة السنوسية، (ص ٢٤١).
(٦) انظر: عشر سنوات فى بلاط طرابلس (ص ٧٧). (٧) انظر: حاضر العالم الإسلامى (١/ ٢٩٨).

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها. وكان يبلغ عدد السكان فى أصغر الزوايا حوالى الخمسين -بما فى ذلك الأطفال والنساء- ويصل العدد فى زوايا إلى المائة. أما الزوايا الكبيرة -كالجغبوب- فيتجاوز الألف، ولم تكن «الزاوية» مقصورة فى تنظيماتها على هذا العدد من سكانها وإنما على القبيلة التى تقيم فى منطقتها، فسلطاتها تسيِّر شئون أفراد القبيلة الذين يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية(١).

سابعًا: موارد الزاوية:

تتكون موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشى والهبات الخيرية والزكاة الشرعية(٢). وقد كانت الهبات الخيرية تقدَّم من أهالى القبيلة، كما كانت الزاوية تجبى الزكاة من القبيلة رسميًا، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب وأعطت لها حق جباية الزكاة، وكانت «الزاوية» تنفق بعض هذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها. أما ما يتبقى فيُبعث إلى المركز الرئيسى حيث يتصرف فيه رئيس النظام(٣).

ثامنًا: التعليمات الخاصة بنظام الزوايا:

كانت هناك تعليمات وأعراف وعادات تلتزم الزوايا بتطبيقها، ومن ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته، وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها.

أما فى حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى، فنفقات ذلك على حسابه الخاص، كذلك حُدد بدقة ما يأخذه شيخ الزاوية سنويًا:

١- يتألف كساء شيخ الزاوية سنويًا من عشر بدل، وتتكون البدلة من «قميص وسروال وغطاء وحذاء» شريطة ألا يكون منها حرير أو جوخ، وكذلك حرامان صيفى ومثلهما شتوى وبُرنس. ولشيخ الزاوية الحق فى شراء سلاحه وفرسه الخاصين به من أجود الأنواع، وله أيضًا مهر ونفقات زوجة واحدة، وإذا ما أراد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع فيكون ذلك على نفقته الخاصة.

٢- لشيخ الزاوية الحق فى تعيين معلم الصبيان والمنادى للصلاة «المؤذن» وعدد من الخدم والعمال وحسب مقتضيات الضرورة وتكون نفقاتهم وأجورهم من موارد الزاوية.

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٤٢). (٢) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٣٣).
(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص ٢٤٢) ومعنى رئيس النظام: شيخ الطريقة.

٣- من واجبات شيخ الزاوية إحضار الطعام الكافى لعشرة أشخاص يوميًا فى موعده الغداء والعشاء، وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيئهم للزاوية، فإن نقص هذا العدد فعلى شيخ الزاوية أن يكمل العدد من الفقراء ومجاورى الزاوية، وإذا تجاوز الضيوف هذا العدد فعليه إحضار ما يكفى فى وقته، ولا يتجاوز الطعام نوعًا واحدًا إلا فى الحالات الخاصة.

٤- إذا تجاوز عدد الضيوف خمسة أشخاص ورأى الشيخ أن ينحر لهم، فله ذلك.

٥- لشيخ الزاوية الحق فى أن يختص بالعُشر من محصولات الزاوية وذلك للإنفاق منها فى حالاته الخاصة وفيما يترتب عليه لأقاربه الذين لا حق لهم من موارد الزاوية.

٦- على الشيخ أن يحتفظ بما يكفى لنفقاتها سنويًا من مجموع الواردات وإرسال الباقى منها إلى المركز الرئيسى.

٧- لا حق لشيخ الزاوية فى أن يضيّف أقاربه على حساب الزاوية، وتفاديًا لضيق ذات يده فقد مُنح عُشر الواردات، وسُمح له بامتلاك المواشى وتعاطى الزراعة لحسابه الخاص؛ كى يواجه بذلك نفقاته الخاصة التى لا حق له فى أخذها من أموال الزاوية، وله الحق فى أن ينحر لنفسه وزوجته الأولى وأولاده منها شاتين أسبوعيًا.

٨- للعمال وخدم الزاوية الحق فى أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع.

٩- لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزاوية المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى هذه الحدود.

١٠- على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنويا «كلهم أو بعضهم» إذا ما رأوا وجوب ذلك، وعليهم أن يتشاوروا فى تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعى لعقد الاجتماع.

١١- إذا التجأ شخص أو أشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما، فعلى الزاوية -والحالة هذه- حمايته والسعى لإزالة السبب الذى دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة أو ما يُتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة.

١٢- تتكون موارد الزاوية من الزراعة وتنمية المواشى والهبات الخيرية والزكاة الشرعية[١].

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٣٢، ٣٣).

تاسعًا: أسماء بعض الزوايا التى أنشأها ابن السنوسى:

١- زاوية أبى قبيس بمكة المكرمة، وهى أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق، تم تأسيسها عام (١٢٤٢هـ)، وكان أول شيخ لها العلامة عبد الله التواتى، ومن بين من تولى مشيختها السادة: مصطفى الغمارى، حامد غانم المكاوى، على جاد، الشارف حامد، الصادق السنوسى حامد.

٢- زاوية المدينة المنورة: تم إنشاؤها عام (١٢٦٦هـ) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيع، ومن بين من تولى مشيختها: العلامة مصطفى الغمارى، ومحمد عبد الله الزاوى، عبد السلام فركاش.

٣- زواية جدة «الحجاز».

٤- زواية الطائف «الحجاز».

٥- زواية منى «الحجاز».

٦- زواية بدر «الحجاز».

٧- زواية البيضاء «برقة»: أنشئت عام (١٢٥٧هـ) وهى أول مركز رئيسى فى ليبيا، وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن حمد الفيلالى، ومن بين من تولى مشيختها الأعلام: عمران بن بركة الفيتورى، حسين الغريانى، محمد بن إبراهيم الغمارى، العلمى الغمارى، محمد العلمى الغمارى.

٨- زاوية مارة «برقة»: وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، وكان من بين من تولى مشيختها: أحمد على أبو سيف، أحمد بن إدريس الأشهب، وعبد الله أبو يوسف.

٩- زاوية درنة «برقة» وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، ومن بين من تولى مشيختها، مفتاح خوجة، السنوسى الغريانى، عبد الرحمن العجال.

١٠- زاوية الجوف «واحة الكفرة» كان ابن السنوسى قد عهد ببنائها إلى المشايخ: الحاج مصطفى أبو شايدة، الحاج محمد أبو حليقة، عقيلة الحليق، وذلك عقب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زوية العربية، وكانت الكفرة يومذاك مأوى للذعار واللصوص ومعقلاً حصينًا لقطاع الطريق، وكان يتناوب غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعى ملكيتها وهى: قبائل الجهمة من مصر، وقبائل التبو من شمال السودان، وقبائل زوية من برقة. وبذلك فقد كوّنت خطرًا على السابلة وقوافل التجارة إلى أن أُنشئت بها زاوية السنوسية؛ فأصبحت دار أمن وسلام

ومشرق الهداية والعرفان. وكان أول شيخ لها هو عمر أبو حواء الفضيل، ومن بين من تولى مشيختها: عبد الهادى الفضيل ثم محمد عمر الفضيل.

١١- زاوية قفنطة «برقة»: وكان أول شيخ لها هو المختار بن عمور، وبقيت مشيختها فى عقبه.

١٢- زاوية شحات «برقة»: أنشئت عام (١٢٦١هـ)، وكان أول شيخ لها هو العلامة مصطفى الدردفى، ومن بين من تولى مشيختها: محمد الدردفى، رافع بدر فركاش، مصطفى محمد الدردفى.

١٣- زاوية العرقوب «برقة»: كان أول شيخ لها هو محمد الجبالى.

١٤- زاوية مسوس «برقة»: وكان أول من تولاها بالوكالة: الشيخ فهيد العاقورى، وكان أول شيخ لها هو أحمد علىّ أبو يوسف، وفى سنة (١٢٧١هـ) تولى مشيختها العلامة عمر الأشهب إلى سنة (١٢٩٧هـ) حيث توفاه الله، فتولى مشخيتها ابنه السيد السنوسى الأشهب، وبعد وفاته (١٣٣٢هـ) تولى مشيختها ابنه محمد يحيى، وفى سنة (١٣٦٧هـ) تولى مشيختها محمد عثمان أبو عريقب.

١٥- زاوية الطيلمون «برقة» كان أول شيخ لها هو مصطفى المحجوب، ثم العلامة علىّ المحجوب، فالسيد أحمد محمد المحجوب.

١٦- زاوية القصور «برقة»: كان أول شيخ لها هو العلامة محمد المبخوت التواتى، ثم محمد مقرب حدوث، فالشهيد الكبير عمر المختار.

١٧- زاوية المرج «برقة»: كان أول شيخ لها هو أحمد بن سعد، فالسيد علىّ العابدى، فالعلامة محمد السكورى، فالعلامة محمد بن عبد الله التواتى، فعمران السكورى، فابنه أحمد.

١٨- زاوية بنغازى «برقة»: وكان أول من تولى مشيختها هو العلامة عبد الله التواتى، فالعلامة عبد الرحيم بن أحمد المحجوب. وكان ممن تولى مشيختها السادة: محمد أبو القاسم العيساوى، فالسيد صالح العوامى، فالعلامة أحمد أبو القاسم العيساوى.

١٩- زاوية مرزق «فزان»: كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتى.

٢٠- زاوية واو «فزان»: وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتى، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة: العلامة محمد بن الشفيع، ثم أُسندت مشيختها إلى محمد علىّ بن عمر الأشهب، فابنه نجم الدين.

٢١- زاوية زويلة «فزان»: كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التواتى.

٢٢- زاوية هون «واحة الجفرة»: كان أول من تولى مشيختها أحمد بن على بن عبيد.

٢٣- زاوية مزدة «طرابلس»: كان أول شيخ لها هو العلامة عبد الله السنى، وقد بقيت مشيختها فى عقبه.

٢٤- زاوية طبقة «طرابلس»: كان أول شيخ لها هو العلامة محمد الأزهرى، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٢٥- زاوية العزيات «برقة»: أنشئت سنة (١٢٧٠هـ)، وكان من بين من تولى مشيختها: عمر جالو.

٢٦- زاوية المخيلى «برقة»: وكان أول شيخ لها هو العلامة الحسين الحلافى، وتعاقب ورثته على مشيختها.

٢٧- زاوية تازربو «واحات الكفرة»: كان من بين من تولى مشيختها العلامة محمد المدنى.

٢٨- زاوية ربيانة «واحات الكفرة»: وكان أول شيخ لها هو حسين بازامه، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٢٩- زاوية دريانة «برقة»: كان أول شيخ لها هو العلامة إبراهيم الغمارى فابنه السيد حسن، فالسيد محمد الحسن الغمارى.

٣٠- زاوية سيوة «مصر»: كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتى.

٣١- زاوية الزيتون «سيوة»: تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتى.

٣٢- سوكنة «واحات الحضرة».

٣٣- زاوية الرجبان «طرابلس»: كان أول شيخ لها هو العلامة أبو القاسم العيساوى، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٣٤- زاوية الواحات البحرية «مصر»: كان أول شيخ لها هو العلامة محمد السكورى.

٣٥- زاوية الداخلة «مصر»: كان أول شيخ لها هو العلامة حسين الموهوب الدرسى.

٣٦- زاوية حوش عيسى «مصر».

٣٧- زاوية الفيوم «مصر».

٣٨- تونين غدامس «طرابلس»: وكان أول شيخ لها هو الشريف الغدامسى.

٣٩- زاوية طلميثة «برقة»: كان من بين من تولى مشيختها محمد الكليلى.

٤٠- زاوية توكرة «برقة»: كان من بين من تولى مشيختها: عبد الله الجيلانى، عبد الله عمر الفضيل، يونس الموهوب.

٤١- زاوية أم ركبة «برقة»: وكان من بين من تولى مشيختها علىّ بن عبد الله.

٤٢- زاوية الفايدية «برقة»: كان أول شيخ لها هو العلامة إسماعيل الفزانى، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٤٣- زاوية ترت «برقة»: كان أول شيخ لها هو عبد القادر الغزالى، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٤٤- زاوية أم الرخم «مصر».

٤٥- زاوية النجيلة «مصر».

٤٦- زاوية الحقنة «مصر».

٤٧- زاوية دفنة «برقة»: وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الغريانى، وبقيت مشيختها فى عقبه.

٤٨- زاوية أم الرزم «برقة»: كان أول شيخ لها هو المرتضى فركاش، فابنه المرتضى الثانى، فالأمين فركاش، فمحمد الأمين فركاش.

٤٩- زاوية مصراتة «طرابلس»: كان أول شيخ لها خليفة شنيشح.

٥٠- زاوية زليطن «طرابلس».

٥١- زاوية الجريد «تونس»: وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن الصادق(١).

هذه بعض المراكز الإصلاحية التى تمكنت من ذكرها والتى أنشئت فى زمن ابن السنوسى، ولا أزعم أنى استطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة وتوسعها وإقبال الناس عليها، وقوة نظامها، وحسن إدارتها.

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٣٣ - ٣٨).

إن القدرة التنظيمية عند ابن السنوسى تظهر للباحث فى ركيزتها الأولى، ألا وهى نظام الزوايا؛ حيث طوّر الزوايا المتعارف عليها فى الشمال الإفريقى.

إن ديننا الإسلامى حثنا على النظام فى كل شىء، فلابد إذًا من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان فى جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة فى كل شىء وفى كل أمر. كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعى، يتحقق بتعاون الفرد وإخوانه فى بوتقة الطاعة والنظام.

ويلاحظ الباحث أن جُل الزوايا ترتكز فى الصحارى، وهذا يرجع إلى اهتمام ابن السنوسى بالبوادى؛ لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيدًا عن متناول يد السلطة، فأوغل فى الأماكن؛ ولأنه رأى فى أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية، ووجد فيهم نفوسًا متهيئة لحمل الدعوة، كما كانوا أكثر استجابة واندفاعًا من غيرهم لحمل تعاليم الحركة. لذلك وقع اختيار ابن السنوسى على برقة كمركز لنشاطه؛ حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية تحمست للدعوة الإسلامية، وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها، فأوجد الزوايا السنوسية ونظمها لتكفى حاجات المحيطين بها: التعليمية، والقضائية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية. ولذلك نجحت الحركة فى البوادى، ولم تنتشر الدعوة فى المدن؛ فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة؛ لأن عندهم المؤسسات الحكومية التى تؤدى لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية والسياسية. ولذلك نلاحظ أن الزوايا التى أُسست فى المدن لم تكن تقوم بوظائفها، كما تقوم بها زوايا البادية، كما أن دورها كان كحلقة وصل بين الحركة فى البادية والحضر، كزوايا بنغازى، ودرنة، وطرابلس(١).

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جدًا، وحصر الدعوة فى المدن، وطبقات معينة من المجتمع يتنافى مع أصول دعوة الإسلام الخالدة؛ ولذلك لابد من الاهتمام بالبدو والأرياف وكل طبقات المجتمع لتوصيلها دعوة الله تعالى.

«... كثيرًا ما حُصرت الدعوة الإسلامية الحديثة فى المدن، حتى أن بعض العاملين فى الحقل الإسلامى لا يعرفون شيئًا عن قرى مدينتهم ولا عن ريفها ولا عن القبائل البدوية الموجودة حولها إن كانت، وهذا إخلال بواجب شرعى...»(٢).

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٦٤).

(٢) انظر: جند الله تخطيطًا، (١٣٥).

«إن التخطيط للعمل الإسلامى للريف والقبائل البدوية مهمٌ جداً، وأعظم شىء نخدم به فى هذا المجال هو العثور على أناس من أهل القرى ومن البدو، يدرسون الدراسة الشرعية الإسلامية ليرجعوا إلى أهليهم دعاة، وإنه لأجر كبير أن يتولى بعض أغنياء المسلمين الإنفاق على أمثال هؤلاء؛ فهذا النوع من التخطيط يحقق[1] قوله تعالى: ﴿وما كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِينفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن التخطيط الذى ينبغى أن يسعى إليه: أن توجد العلاقات والصداقات بين أهل المدينة وأهل الريف؛ بحيث تكون زيارات متبادلة ينزل فيها الريفى عند أخيه الحضرى، وينزل الحضرى فيها عند أخيه الريفى، والأصل فى هذا هو الحديث الشريف«زاهر بادياتنا، ونحن حاضرته» [2].

إن زاهراً الأشجعى صحابى جليل كان رسول الله ﷺ يحبه ويمازحه، وهو من أهل البادية، وعندما يأتى للمدينة على -ساكنها أفضل الصلاة والتسلم- ينزل عنده.

لقد تحدث الدعاة عن ضرورة الاهتمام بالأرياف والقبائل. والمقصود من الحديث أن أهل البادية أصحاب فطرة سليمة، ومحبة للدين عظيمة، ويحتاجون للإرشاد والتوجيه والتعليم والتربية، ثم يُنتظر منهم بعد ذلك خير عظيم فى مجالات عديدة، وهذا ما حدث مع ابن السنوسى عندما اهتم بالقبائل والبوادى.

❀❀❀

(١، ٢) انظر: جند الله تخطيطًا، (ص ١٣٥).

المبحث الثاني

المنهج التربوي

انتهج ابن السنوسي منهجًا تربويًا استمده من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جُلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه. وفي كتابه «السلسبيل» نلاحظ أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق، وحدد معالم الطريقة التي تتقيد بالكتاب والسُّنَّة. إن ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسُّنَّة، والصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسُّنَّة، وقد قال في ذلك: «فاعلم أن سبيل القوم اتباع النبي ﷺ في الجليل والحقير، وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة»(١).

وقد فصّل رحمه الله تعالى في «تدريج المريد في مراتب السلوك»، قال بعون الله وتوفيقه:

الخطوة الأولى:

«يتعين على المريد أن يصحح عقيدته بميزان اعتدال أهل السنّة والجماعة، كثّر الله سوادهم وأدام إمدادهم»(٢).

ولقد بينتُ مجملها عندما تحدثتُ عن رسالة أبي زيد القيرواني كجزء من المنهج الذي كان يتعلمه أتباع الحركة السنوسية.

إن منهج أهل السُّنَّة والجماعة يبين المفهوم الصحيح لتوحيد الله عز وجل لأنه اعتمد على كتاب الله عز وجل وسُنَّة رسوله ﷺ، وقد تتبع علماء أهل السُّنَّة والجماعة نصوص الكتاب والسُّنَّة وخرجوا بالنتيجة التالية: أن توحيد الله سبحانه وتعالى يعني إفراد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

١- توحيد الربوبية:

ومعناه إفراد الله بالخلق والرزق، والملك والتدبير والتصريف، ولا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد، وحتى المشركون الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرون ولا يجعلون أحدًا من آلهتهم شريكًا لله في ربوبيته.

---

(١) انظر: الحركة السنوسية.

(٢) انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين (ص٨).

قال تعالى: ﴿قُل من يرزُقكُم مّن السّماء والأرض أمّن يملكُ السمع والأبصار ومن يُخرجُ الحيّ من الميّت ويُخرجُ الميت من الحي ومن يُدبّرُ الأمر فسيقُولُون اللّهُ فقُل أفلا تتّقُون﴾ [يونس: ٣١].

وقال تعالى: ﴿قُل لّمن الأرضُ ومن فيها إن كُنتُم تعلمُون (٨٤) سيقُولُون لله قُل أفلا تذكّرُون (٨٥) قُل من رّبُّ السّموات السّبع وربُّ العرش العظيم (٨٦) سيقُولُون لله قُل أفلا تتّقُون (٨٧) قُل من بيده ملكُوتُ كُل شيء وهُو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه إن كُنتُم تعلمُون (٨٨) سيقُولُون لله قُل فأنّى تُسحرُون﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

ولكن لما وجد فى الناس من ينازع فى توحيد الله بالربوبية ويجعل لغير الله عز وجل شيئًا من الشركة معه فى الخلق والرزق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتياج له، بل قرره أبدع التقرير[(١)] فى قوله تعالى: ﴿ما اتّخذ اللّهُ من ولد وما كان معهُ من إله إذًا لّذهب كُلُّ إله بما خلق ولعلا بعضُهُم على بعض سُبحان الله عمّا يصفُون﴾ [المؤمنون: ٩١].

٢- توحيد الألوهية:

هو إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده[(٢)]، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا فى كُلّ أُمّة رّسُولاً أن اعبُدُوا اللّه واجتنبُوا الطّاغُوت﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[(٣)]، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[(٤)].

٣- توحيد الأسماء:

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رءوف رحيم، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى[(٥)]. والقاعدة فى هذا الباب عند أهل السُّنَّة أن يصفوا الله بما «وصف الله به نفسه وسماه على لسان رسول الله ﷺ، سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف»[(٦)].

(١) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمد (١/ ١٩٥).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ١٩٩).
(٣) انظر: صحيح مسلم مع النووى (١/ ٢١٢).
(٤) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢٠١).
(٥) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢٠٢).
(٦) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤٦).

أما طريق الراسخين فى العلم فى هذا الباب: «والراسخون فى العلم الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمى منها جحودًا، ولا يتكلفون وصفه بما لم يصف عز وجل، وإنما يثبتون ما أثبت وينفون ما نفى، ذلك أن من يشاقق الله ورسوله ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء: ١١٥]»(١).

الخطوة الثانية:

«أن لا يُقدم المريد على فعل شىء حتى يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية على مذهب من المذاهب الأربعة»(٢).

ولهذا كان أتباع الحركة السنوسية يتدارسون رسالة أبى زيد القيروانى فى العقائد وفى الفقه المالكى. وأضاف ابن السنوسى بعض الكتب المهمة فى هذا الباب كصحيح البخارى، والموطأ، وبلوغ المرام.

١ - صحيح البخارى:

إن الإمام البخارى -رحمه الله- واحد من أعظم علماء هذه الأمة، الذين رفع الله لهم ذكرهم، وأجرى ألسنة الخلق بالثناء عليهم والدعاء لهم.

سبق الجميع فى العناية بحديث رسول الله ﷺ، ووقف عمره عليه، فأصبح أمير المؤمنين فى الحديث، وترك للمسلمين من بعده أصح كتاب بعد القرآن الكريم، كان آية فى الحفظ، وغاية فى الشجاعة والسخاء والورع والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة(٣).

مكانة الجامع الصحيح بين كتب السُّنَّة والستة:

اتفق علماء هذه الأمة على أن جامع البخارى أجلُّ وأعظم من جميع كتب السُّنَّة.

قال العلامة القسطلانى: «أما فضله: فهو أصح الكتب المؤلفة فى هذا الشأن، والمتلقَى بالقبول من العلماء فى كل أوان؛ فقد فاق أمثاله فى جميع الفنون والأقسام، وخُص بمزايا من بين دواوين الإسلام، شهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، ففوائده أكثر من أن تُحصى وأغزر من أن تُستقصى»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤٤).

(٢) انظر: السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين (ص٨).

(٣) انظر: الإمام البخارى، د. تقي الدين الندوى، صفحة الناشر.

(٤) المصدر السابق نفسه (ص٨٨).

وقال البخارى -رحمه الله-: «ما وضعت فى الصحيح حديثًا إلا اغتسلت وصليت ركعتين، وأرجو أن يبارك الله تعالى فى هذه المصنفات»(١).

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: «ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخارى ومسلم بعد القرآن»(٢).

إن كتاب الصحيح للبخارى بين الفقه والحديث وعلوم متعددة، وإن وضعه فى المنهج التربوى عند ابن السنوسى يدل على حرصه على اتباع النبى ﷺ.

٢- موطأ الإمام مالك:

إن حب ابن السنوسى للإمام مالك بن أنس وكتابه «الموطأ» يظهر للباحث جليًا فى المقدمة التى كتبها لطلابه، والتى تدلنا على قدرة ابن السنوسى على تعليم وتفهيم تلاميذه، فيقدم لهم المادة الغزيرة بأسلوب سهل بسيط ملىء بالعلوم التاريخية والفقهية، والحديثية، والتربوية.

ولقد تحدث عن مدح العلماء للموطأ فقال: فاعلم أن كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة المُجمع على جلالته من أجلِّ المصنفات، وأنفس المؤلفات(٣).

وعن محمد بن حرب المدنى: «... ثم إن مالكًا عزم على تصنيف الموطأ فصنّفه، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتونى بما عملوا، فأُتى بذلك فنظر فيه، ثم نبذه فقال: لتعلمن أن لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله، قال: فكأنما ألقيت تلك الكتب فى الآبار، وما سُمع لشىء منها بَعد ذكر يذكر...»(٤).

وذكر سبب وضعه فقال: فقد روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتابًا أحملهم عليه، فكلمه مالك فى ذلك، فقال: ضعه فما أجد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ، فما فرغ منه حتى مات أبو جعفر.

وفى رواية أن المنصور قال له: ضع هذا العلم ودوّن فيه كتابًا، وتجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة

(١) انظر: الإمام البخارى، (ص٨٨). (٢) المصدر السابق نفسه (ص٨٩).
(٣) انظر: مقدمة الإمام مالك، لابن السنوسى (ص ١٣).
(٤) انظر: مقدمة الإمام مالك، لابن السنوسى (ص١٦).

والأئمة[١]. وقد ذكر ابن السنوسى ما رأى فى الموطأ من البشائر فقال: عن مصعب بن عبد الله قال: سمعت أبى يقول: كنت جالسًا مع مالك بن أنس فى مسجد رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا، فسلم عليه واعتنقه وضمه إلى صدره وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالسًا فى هذا الوضع، فقال: ائتونى بمالك، فأُتى بك ترتعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكناك، وقال: اجلس، فجلست، قال: افتح حجرك، ففتحته فملأه مسكًا منثورًا، وقال: ضمه إليك وبثه فى أمتى، قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذى أودعنى الله تعالى[٢].

إن فى الروايات السابقة معان تربوية عميقة كان أتباع الحركة السنوسية يتربون عليها، منها:

١- إخلاص الأعمال لوجه الله، وأن دوامها وقبولها من شروطه هذا الركن الأصيل، وأن العلماء المخلصين يتكفل الله بحفظ علمهم ونشره بين الناس.

٢- أن منهج الاعتدال والحكمة والاستقامة المتمثل فى الوسطية التى سار عليها الإمام مالك، كان منهجية أصيلة فى حياة ابن السنوسى وإخوانه.

٣- أن ابن السنوسى كان يرى أن الرؤى الطيبة لعباده الصالحين تسر ولا تغر، وأحب أن يغرس هذا الفهم فى أذهان تلاميذه، ولذلك ساق لهم رؤيا ذلك الرجل للإمام مالك.

وقد أفرد ابن السنوسى فى مقدمته للموطأ بابًا فى التعريف بمؤلف الموطأ الإمام مالك وثناء الناس عليه، ونقل قول النووى: «قد اجتمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له فى الحفظ والثبات، وحديث رسول الله ﷺ؛ فقد جمع بين شرفىْ الحديث والفقه، فهو إمام الأئمة وشيخهم، قد روى عنه سائر الأئمة خصوصًا الأربعة: أما أبو حنيفة فبلا واسطة، فقد حكى غير واحد أنه لقى مالكًا وأخذ عنه. وأما الشافعى فأمره مشهور معه، حتى قال ابن الأثير: كفى مالك شرفًا أن الشافعى تلميذه، وكفى الشافعى شرفًا أن مالكًا شيخه

وأما الإمام أحمد فقد أخذ عن الشافعى، فهو شيخه بواسطة، ومناقب هذا الإمام وفضائله رحمه الله- تخرج عن أن تُحصى، ولا يمكن فيها الحصر ولا الاستقصاء[٣]

وذكر ابن السنوسى المناقب التى اجتمعت لمالك ولم تجتمع لغيره وأسند هذا القول للذهبى فقال:

(١) انظر: مقدمة الإمام مالك، لابن السنوسى (ص١٧).
(٢) انظر: مقدمة الإمام مالك (ص٢٠).
(٣) انظر: مقدمة الإمام مالك (ص٢٨).

١- طول العمر وعلو الرواية.

٢- الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم.

٣- اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية.

٤- إجماعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن.

٥- تقدمه فى الفقه والفتوى، وصحة قواعده[1].

وذكر ابن السنوسى كلامًا يُكتب بماء الذهب أسنده إلى مالك، ليتربى عليه إخوانه وتلاميذه، منه:

- قول مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس، وإن كان لا يُتهم فى حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به[2].

- وقال مالك: قلّما كان رجل صادق، ولا يكذب فى حديثه، إلا مُتِّع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة ولا خرف[3].

- ومن قوله: القول الباطل بُعدٌ عن الحق، ولا خير فى شىء، وإن كثر من الدنيا يفسد دين المرء ومروءته[4].

لقد كان كتاب «الموطأ» حافلاً بالحديث والآثار، وقد جعله ابن السنوسى ضمن منهجه العلمى التربوى لأتباعه.

٣- بلوغ المرام:

وهو كتاب جامع للأحكام، ألفه العلامة أحمد بن على بن محمد أبو الفضل الكتانى الشافعى المعروف بابن حجر العسقلانى، وقد نال كتاب «بلوغ المرام» رضا العلماء؛ فهو كتاب مفيد مع صغر حجمه، حوى ما يغنى عن التطويل، وأقبل عليه العلماء قديمًا وحديثًا، فلا تجد حلقة عالم إلا وكتاب بلوغ المرام على رأس القائمة، وأقبل عليه الطلاب بالحفظ والتداول واستغنوا به عن

(١) المصدر السابق نفسه (ص٢٩).
(٢) انظر: مقدمة الموطأ لابن السنوسى، (ص٣٠).
(٣، ٤) انظر: مقدمة الموطأ (ص٣٠).

غيره من أمثاله فصار له القبول وعليه إقبال حتى استفاد منه فى كل عصر الجم الغفير، وقد جعله ابن السنوسى ضمن منهجه التربوى التعليمى، ويتعلم الطالب من هذا الكتاب:

* مرتبة الحديث من الصحة والحسن والضعيف بما يغنى الطالب عن الرجوع إلى غيره.

* اقتصر من الحديث على الشاهد من الباب بما لا يخل بالمعنى المقصود، فخلص من هذا بالإيجاز والفائدة.

* انتقى أحاديث الكتاب من دواوينه المشهورة وأمهاته المعتبرة التى أشهرها: مسند أحمد والصحيحان والسنن الأربع.

* يصدّر الباب -غالبًا- بما فى الصحيحين أو أحدهما ثم يتبعها بما فى السنن أو غيرها؛ لتكون الأحاديث الصحيحة هى العمدة فى الباب والمرجع فى المسائل، والباقى مكملات ومتممات.

* رتّب المؤلف كتبه وأبوابه وأحاديثه على كتب الفقه ليسهل على الطالب مراجعته.

* جعل فى آخره نخبة طيبة من أحاديث جامعة فى الآداب ليستفيد منه الطالب فى الأحكام والسلوك[1].

هذه بعض الكتب القيمة التى جعلها ابن السنوسى فى منهجه العلمى التربوى.

الخطوة الثالثة:

«ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وتنقية السر».

إن دعوة ابن السنوسى إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق من صميم القرآن الكريم والهدى النبوى الشريف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك، وبعد الآيات التى نهت عن إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا، وبعد النهى عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله البسام، (ص٢٢، ٢٣).

وذلك يؤكد ما يلى:

١- أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله، وهذا يقتضى شيئين: بذل جهد فى التزكية، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها، وفى الحديث: «اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» (١).

٢- أن من تزكية النفس: العفو والصفح عمن أساء إلينا؛ لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذى كان ينفق عليه أبو بكر ﷺ، الذى خاض فى الإفك، فمنع عنه أبو بكر ما كان يعطيه من قبل، فجاءت الآية واعظة، وفاء أبو بكر إلى سيرته، وما أرقاه من مقام!! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية!!

٣- أن من تزكية النفس: عدم اتباع خطوات الشيطان؛ لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر. وإذن فالتزكية تعنى: تجنب الفاحشة والمنكر، وتجنب خطوات الشيطان، وأولى خطواته الحسد والكبر، فقد حسد آدم وتكبر عن السجود له.

٤- إمساك اللسان عن الأعراض، وترك المشاركة فى كل ما يؤذيها إلا إذا توافرت شروط الشهادة وتعينت(٢).

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية، فالتزكية باب واسع، وقد تحدث ابن السنوسى عن النفس البشرية وأنواعها وأمراضها وكيفية علاجها حديث العالم الخبير فى تحقيقها، فذكر أن:

١- النفس الأمارة:

هى صاحبة الجهل والبخل والحرص والكبر والغضب والشره والشهوة والحسد، وسوء الخُلق والخوض فيما لا يعنى من الكلام وغيره، والاستهزاء والبغض والإيذاء باليد واللسان وغير ذلك من القبائح... فكن أيها الأخ منها على حذر ولا تنتصر لها إن أحد آذاها، بل كن معينًا له عليها وتخلص من هذه الآفات... بالذكر الكثير القوى، وتقليل الطعام والمنام، وحساب النفس كل ساعة، وخوِّفها بالموت وعذاب القبر وما بعده من الأهوال، إلا إذا أوصل الخوف إلى درجة القنوط فيجب عليك حينئذ تذكر أسباب الرجاء وسعة رحمة الله تعالى، وعليك بالتذلل والخضوع والتضرع لله تعالى، واطلب الخلاص -بلطفه وإحسانه- من الأوصاف الذميمة والتحلى بالصفات الحميدة كالصدق والتواضع، والمحبة والإخلاص، ونحو ذلك؛ لأنك إذا اشتغلت فى خلاص نفسك من الآفات وتبدلت بالأوصاف الحميدة -شاهدت بعض العجائب

(١) رواه مسلم.
(٢) انظر: المستخلص فى تزكية الأنفس، سعيد حوى (ص١٥٤).

المكنونة والأسرار المخزونة في صدفة البشرية، وأقبل على من لا غنى لك عنه بمعاملات الإحسان قبل أن تُساق إليه بسلاسل الامتحان وقد قال لك: «من تقرب إليّ بشبر تقربت منه ذراعًا» «الحديث»؛ فاترك التواني وأعرض عما يشغلك عن مولاك، واستغن بالقناعة بما في يدك ودع اللذات الفانية لأهلها، ولا تسوف التوبة والإقبال على الله تعالى؛ فإنك لا تدري ما بقي من عمرك. وقد نقل السنوسي الإجماع على أن التوبة واجبة على الفور، ويلزم من تأخيرها تضاعف الذنوب على من لم يتب، وذنب ترك التوبة، وهذان الذنبان تجب التوبة منهما أيضًا، وإذا لم يتب منهما على الفور صار أربعة، وعلى هذا القياس. وإذا نظرت بعين الإنصاف والشفقة على نفسك رأيت احتياجك إلى التوبة أشد من احتياجك إلى المأكل والمشرب والمسكن؛ لأنها قد حجبتك عن مطالعة الغيوب وحالت بينك وبين كل محبوب. وعلامة خلاص النفس من الآفات المارة أن يكون الخلق كلهم عنده على السوية، لا يحبهم محبة طبيعية تميله إليهم في منكر، ولا يكرههم كراهة تغير باطنه عليهم في معروف. ويستوي عنده جميع المأكل، وجميع الملبس؛ فمن رأى في نفسه شهوة لبعض دون بعض وجب عليه المجاهدة، إلى أن يستوي ذلك عنده وإلا كان حيوانًا في صورة إنسان، بل الحيوان خير منه؛ لأنه ليس عليه تكليف ولا حساب ولا عقاب[1]، وما قاله ابن السنوسي آنفاً تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

٢- النفس اللوامة:

وقد تحدث ابن السنوسي عنها فقال: وهي التي لها رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع، ولها أعمال صالحة من قيام وصيام وصدقة وغير ذلك من أفعال البر، يدخل عليها العجب والكبر وكذا الرياء الخفي؛ بأن يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة، كالإخلاص وغيره ويحمده عليها مع أنه يخفيها عنهم ويعمل لله، ويكره هذه الخاصة لكن لا يمكنه قلعها بالكلية، والخلاص من ذلك الرياء يكون بالفناء عن شهود الإخلاص بشهود أن المحرك والمسكن هو الله تعالى شهود ذوق، ويشهد أن المنة لله تعالى عليه حيث فتح له أبواب العبادات ومكنه من الدخول إلى حضرته وأهّله للقبول في خدمته، والخلاص من الأولين يكون بالمجاهدة وهي ترك العادات، ومعظمها يكون بخمسة أشياء: تقليل المنام، وتقليل الكلام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التام. فمن فعلها بصدق نقلته إلى الباقي، والمطلوب من هذه الأشياء الاعتدال، ولذا لم يقولوا: ترك الطعام، بل لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم

(١) انظر: المسائل العشر لابن السنوسي، (ص٢٨٠، ٢٨١).

يشبع . . . فعالج نفسك بالشريعة وخلصها من أمراضها وأعظمها الكبر والعجب اللذان هما أصل الغضب الذى ينشأ عنه الحقد الذى يتفرع عنه الحسد، ولا يزول الكبر والعجب إلا إذا انقطع المدد عنهما وهو امتلاء البطن. وللحسد أسباب أخر، كحب الرياسة، وخبث النفس، وكثيرًا ما تكون هذه الأسباب بين أهل الطريق المتصوفين فيتمنى زوال ما على أخيه من المشيخة أو الخلافة وما هو عليه من الاستقامة والتوجه إلى الله، إذا عرفت ذلك فعليك بمعرفة أربعة أشياء، والتأمل فيها:

الأول: أنه تعالى لا يعجزه شيء.

الثاني: إحاطة علمه بكل شيء.

الثالث: أنه تعالى أرحم الراحمين.

الرابع: أن جميع أفعاله خير.

فإن تحقق الأول يزيد همتك بالتوجه إليه والطلب منه مع اليقين بالإجابة، والطلب على هذا المنوال لا يرد أصلا، وتحققك بالثانى والأخير يحقق لكل مقام التوكل والرضى والشوق والمحبة وغير ذلك، وتحققك بالثالث يدفع عنك خوف الإنس والجن[1]، وهذا شرح لقوله تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ٢].

وقال ابن السنوسي عن النفس المطمئنة:

٣- النفس المطمئنة:

قال عنها ابن السنوسى: هى التى لا تفارق الأمر التكليفى شبرًا ولا تتلذذ إلا بأخلاق المصطفى ﷺ ولا تطمئن إلا باتباع أقواله وتتلذذ بصاحبها أعين الناظرين وأسماع السامعين والذى علم معنى قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦]؛ فيجب عليه الاجتماع مع الخلق فى بعض الأوقات ليفيض عليهم بما أنعم الله به عليه من علم الصدور، لا علم السطور وليكن فى بقية الأوقات مع الله ليرقى إلى المقامات الباقية وليكثر من الذكر ولا يلتفت إلى ما يظهر من أنوار أو كمالات أو كرامات لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العباد الخلص، وكل ما سوى الله قاطع عن المقصود، فهو فتنة فلا تقف عنده وإن إلى ربك المنتهى، ومن وصل إلى حضرة القرب صارت الكرامات طوع يده، ومن تعرض لكرامة أولا فقد طلب الشيء قبل أوانه، فيعاقب بحرمانه فيكون مشتغلا بما لا نعنى، والإنسان مدة حياته متعرض للمحن، فينبغى التحرز من الآفات إلى الممات، وإياك وحب الرياسة والشهرة والتعرض للمشيخة والإرشاد[2].

(١) انظر: المسائل العشر، (ص٢٨٥).

(٢) انظر: المسائل العشر، (٢٩٠).

٤ - النفس الكاملة:

قال عنها ابن السنوسى: هى التى لا يفتر صاحبها عن العبادة إما بجميع البدن أو باللسان أو بالقلب أو بعضو من الأعضاء، وصاحبها كثير الاستغفار، كثير التواضع، سروره ورضاه فى توجه الخلق إلى الحق، وحزنه فى ضد ذلك، وهو كثير الأوجاع قليل القوى قليل الحركة، ليس فى قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات مع أنه يأمر وينهى ولا تأخذه فى الله لومة لائم، ويظهر الكراهة لمستحقيها والمحبة لمستحقها، فيضع كل شىء فى محله، متى ما وجه همته إلى كون من الأكوان أوجده الله تعالى على وفق مراده؛ وذلك لأن مراده فى مراد الحق سبحانه وتعالى[(١)].

لقد كان ابن السنوسى مربيًا من الطراز، الأول وكان عليمًا بأمراض النفوس، وخبيرًا بعلاجها، ولقد نجح فى تربية أصحابه على الأخلاق الرفيعة، وحقق نجاحًا باهرًا، ورسم لأتباعه طريقة تعتمد على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. لقد تحدث ابن السنوسى عن الأسباب التى تعين العبد على تصفية نفسه وتزكيتها فقال:

الخطوة الرابعة:

ومن أسباب حصولها: طيب المطعم؛ فإن من أكل حرامًا فعلَه[(٢)] فى ظاهره أو باطنه لا محالة، ومن أسبابه: سماع أحاديث الترغيب والترهيب، وحكايات الشيوخ فى مجاهداتهم وشريف معاملاتهم؛ فإنها جند من جنود الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].. وليشتغل المريد بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال، كالصلاة على النبى ﷺ، فقد قال بعضهم إنها لا يدخلها الرياء، وبعضهم إنها مقبولة مطلقًا، وهى على هذا من الغنائم الباردة المبذولة لسالكى طريق المجاهدة فى الله...»[(٣)].

١ - طيب الطعام والابتعاد عن الحرام:

إن ابن السنوسى يبين لأتباعه أن من أسباب تزكية النفوس، والتخلق بالأخلاق الرفيعة، وتصفية القلوب، أن يحرصوا على طيب الطعام، وأن يبتعدوا عن الحرام.

إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ ناطقة بربط قبول سائر العبادات من دعاء، وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك من صالح الأعمال بتحرى الحلال من الكسب:

---

(١) انظر: المسائل العشرة، (ص١٩١).
(٢) غير واضحة من الأصل، ولعل معنى الكلمة أثر فى ظاهره وباطنه.
(٣) انظر: السلسبيل المعين، (ص٩).

الدعاء:

ففى الدعاء -وهو -كما صح الحديث- العبادة- يقول تعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ **[البقرة ١٨٦].**

وعباد الله الذين استجابوا له، هم من يفعلون الحلال ويتركون الحرام، فيكونون أهلاً للإجابة، قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ **[غافر: ٦٠].**

وإجابة الدعاء منوطة بأكل الحلال وترك الحرام واتقاء الشبهات، أخرج مسلم بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، **فقال:** ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم﴾ **[المؤمنون: ٥١].**

وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ **[البقرة: ١٧٢].**

ثم ذكر: «الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يده إلى السماء، يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك؟»(١)، ولا شك أن قبول الدعاء من الوسائل المهمة فى تزكية نفس العبد، وتهذيب أخلاقه، وحياة قلبه.

الصدقة:

والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، والحرام سواء أكان مالاً أم متاعًا أم غير ذلك، غير طيب، لأنه خبيث ومن مصدر خبيث غير مشروع، فهو بالتالى غير مقبول.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ **[البقرة: ٢٦٧].**

وكذلك الشأن فى سائر العبادات، فكيف يقبل الله تعالى الصلاة ممن تغذى بالحرام، وكانت أنفاسه التى يناجى بها ربه، تمتد طاقتها من الحرام، وكل جسم غُذى بالحرام فالنار أولى به.(٢)

إن من وسائل تزكية النفوس: العبادات عندما يتقبلها الله، ويجعل لها آثارها فى نفس العبد وقلبه وعقله وجسده.

---

(١) انظر: مسلم (٢/ ٧٠٣) رقم (١٠١٥).

(٢) انظر: طلب الرزق بين الحلال والحرام، أحمد الطويل، (ص١٤٧).

٢- سماع أحاديث الترغيب والترهيب:

فإن لها أثرًا فى تزكية النفوس وإحياء القلوب، فعن ابن عباس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «يا ابن آدم: إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك. يا ابن آدم.. لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»(١).

وأما فى الترهيب، فعن أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»(٢). فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين.

إن ابن السنوسى -رحمه الله- يرى أن لأحاديث الترغيب والترهيب أثرًا فى تزكية النفوس، كما يرى لسير وتراحم الصالحين أثرًا فى صفاء القلوب وتطهير النفوس، بل يرى أن تلك السير جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

٣- المسارعة للخيرات:

يرى ابن السنوسى أن من وسائل التزكية: المسارعة فى الخيرات والأعمال الصالحة، كالصلاة على النبى ﷺ، ويراها من الغنائم الباردة لسالكى طريق المجاهدة فى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. إن صلاة الله وملائكته على النبى ﷺ معناها الثناء عليه، وإظهار فضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ومنها؛ عن يعقوب بن زيد بن طلحة التيمى قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى آت من ربى فقال: ما من عبد يصلى عليك إلا صلى الله عليها بها عشرا»، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، أجعل نصف دعائى لك؟. قال: «إن شئت»، قال: ألا أجعل ثلثى دعائى؟ قال: «إن شئت»، قال: ألا أجعل دعائى كله؟ قال: «إذن يكفيك الله همّ الدنيا وهمّ الآخرة»(٣).

قال ابن السنوسى: إذا أكثر السالك من الصلاة على النبى ﷺ أنقذه الله بها من المهالك وأخذ بناصيته إلى أحسن المسالك. ودعا ابن السنوسى تلاميذه إلى دراسة سيرته ﷺ وبيان أحواله، وحياته(٤).

(١) انظر: الدارمى (٢/ ٣٢٢) حسنه الألبانى رقم (١٢٧).
(٢) انظر: البخارى، كتاب الرقاق (١١/ ٣١٩).
(٣) انظر: مسلم، أبو داود (١٥١٦).
(٤) السلسبيل المعين، (ص٨).

إن الصلاة على النبى ﷺ لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة، منها:

* امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه فى الصلاة عليه ﷺ، وموافقة ملائكته فيها.

* حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلى بالصلاة مرة واحدة على النبى ﷺ.

* أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.

* أنها سبب لكفاية العبد ما أهمّه.

* أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.

* أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء والحسن والبركة للمصلى؛ لأن المصلى طالب من الله أن يثنى على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب فلابد أن يحصل للمصلى نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.

* أنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله ﷺ، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذى لا يتم إلا به(١).

هذه بعض الأصول التى توضح منهج ابن السنوسى التربوى، وقد ألزم أتباعه بأوراد الطريقة، وهى عبارة عن تلاوة القرآن الكريم، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبى ﷺ(٢)، وقراءة بعض الأدعية التى تحمل فى طياتها معانى التوسل والتضرع إلى الله وحمده جل جلاله وتسبيحه(٣).

وكان أتباع الحركة السنوسية يحافظون على أورادهم، ولم تكن معهم موسيقى ولا حركات راقصة، وكانوا بعيدين عن الأعمال البهلوانية كأكل الزجاج، وطعن الصدور بالسيوف، واللعب مع الأفاعى(٤).

وكان ابن السنوسى يلقن طريقته للمريدين بقصد تعليمهم الشريعة الغراء، ويلح عليهم فى التمسك بأحكامها، ويأخذ عليهم العهد بألا يخالفوا فى أعمالهم الشرع الحنيف(٥).

خامساً: ابن السنوسى ونقده لأخطاء الصوفية:

لقد وقعت كثير من الطرق الصوفية فى انحرافات كثيرة، وقد تعرض ابن السنوسى لبعض الطرق ووضح الأخطاء التى وقعت فيها؛ ففى حديثه عن الطريقة الصديقية يقول: «دخل الغلط

---

(١) انظر: البحر الرائق. أحمد فريد، (ص١٢١).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص٢٤٩).
(٣) انظر: السنوسى الكبير، (ص٩٩).
(٤) انظرا: الحركة السنوسية، (ص٢٥١).
(٥) المصدر السابق نفسه، (ص٢٥٢).

فى الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية فى علاج عيوب النفس وطريق دوائها؛ فمثلهم كمثل من يدخل بيتًا مظلمًا بلا سراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته، فالله هو الولى الحميد»[١].

وانتقد ابن السنوسى بعض دخلاء المتصوفة بقوله: «. . . ومنها ما كثر به تبجح كثير من بعض المتنسكين، من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين، من الإعجاب بأعمالهم، والمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد، ومواهب الكرامة، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة. . .»[٢].

وعمل على تصحيح مفاهيم الإسلام، التى انحرفت بعض طرق الصوفية عنها، كالعبادة، والتوكل، والجهاد.

أ- العبادة:

إن من عوامل النهوض التى سار عليها ابن السنوسى: تصحيح مفهوم العبادة فى أذهان أتباعه، ونجد ذلك فى قوله لبعض تلاميذه وإخوانه «لأى شىء نأمركم بقراءة النحو؟، لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول ﷺ»، ثم قال: «بالكم تقولون الذى يقرأ النحو ما نوصله إلى الله. بالكم تقولون الذى يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون الذى يرعى الإبل ما نوصله إلى الله. . . وهكذا، وعدّ أشياء كثيرة»[٣].

وقد اتضح مفهوم العبادة الشامل عند أتباع الحركة السنوسية، وكان طلاب الزوايا فى يوم الخميس من كل أسبوع يخصصونه للشغل بالأيدى، فيتركون الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن من بناء ونجارة وحدادة ونساجة، وغير ذلك، لا تجد فيهم إلا عاملاً بيده. وكان محمد المهدى السنوسى -الزعيم الثانى للحركة- يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام بالحرف والصناعات، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم فى حرفهم حتى لا يزدروا بها أو يظنوا طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء، فكان يقول لهم: «يكفيكم من الدنيا حُسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وليس غيركم بأفضل منكم». وأحيانًا يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا»[٤].

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٤٣).
(٢) انظر: المسائل العشر (ص ٩).
(٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص ١٥٧).
(٤) انظر: الحركة السنوسية، (ص ١٩٣).

إن مفهوم العبادة عند السنوسية وافق تعريف ابن تيمية عندما قال:

«العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار . . . وأمثال ذلك من العبادة»(١).

ب- التوكل:

كان ابن السنوسى يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده وعرق جبينه ليغرس فى نفسه حب التعفف، وقد روى كبار الإخوان عن ابن السنوسى أنه كان يقول: «الذهب فى الأرض، فغوصوا لاستخراجه بالمحراث». وكان يقول: «الدرر فى غرس الشجر أو تحت ورق الشجر». ويقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى، والاستقامة كنز لا يبلى، والعفة حسب دائم»، «ومن مد يده متسولاً قصر لسانه»(٢).

إن مفهوم التوكل على الله يكون فى كل الأمور، وهذه التوجيهات تدلنا على فهم ابن السنوسى لمفهوم التوكل، فدعا إلى مباشرة الأسباب مع تفويض الأمر لله تعالى، وحارب التواكل الذى انتشر فى كثير من الطرق الصوفية.

جـ- الجهاد:

قامت بعض الحركات الصوفية بصرف الناس عن القتال فى سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الإسلامية، وعمل ابن السنوسى على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد فى سبيل الله، وكان كثيراً ما يدعو للجهاد ويأمر به ضد كل معتد على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبيا، وقال مرة للشيخ الكاسح -أحد زعماء قبيلة العواقير-: «ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان إذا غزا بلادك ليأخذها؟»، فقال له الشيخ الكاسح: أعددت له جرابًا من البارود وشيئًا من الرصاص، فقال له ابن السنوسى: إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل، فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟!!»، وأخبره ابن السنوسى أن النابلتان آت للبلاد لا محالة، وسيصيبكم منهم أذى كبير، وأن الله مع الصابرين ﴿ولا تَرْكَنوا إلى الَّذين ظلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ١٥٠).
(٢) انظر: برقة بين الأمس واليوم، (ص ١٨٧، ١٨٨).

وكان ابن السنوسى يُفَهِّم ذلك لكل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا وشيوخ القبائل والأعيان، ويأمرهم أن يحذروا من ذلك وأن يحتاطوا له، وأن يأمروا معلمى الصبيان بإلقاء الدروس فى هذا الشأن، وكان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويحتفظوا به فى مخازن خاصة(١)، وذات مرة قال لأحد شيوخ القبائل إن النابولتان سيغزو هذا البلد ويقف أهلها للدفاع عنها موقفًا مشرفًا، وسيتخذ جميع الوسائل لإخضاعهم، ومن بين هذه الوسائل سيقدمون الأموال للإغراء، فماذا أنتم فاعلون فى هذه الحالة؟، فقال الشيخ: إننا سنأخذ المال ونتثنى عليهم نقاتلهم.

فكان جواب ابن السنوسى: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم، وقد صحّ ذلك كله فعلاً(٢).

وكان يتصيد الفرص لبيان أهمية الاستعداد وجمع الذخائر، والاحتفاظ بها لوقت الحاجة، فعندما وصل إلى العزيات عام (١٢٦٩هـ) قادمًا من الحجاز وأخذت وفود القبائل تتوافد على زيارته من جميع أنحاء برقة وطرابلس زرافات ووحدانًا، وكان من تقاليد البدو فى مثل هذه الحالة أنهم يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم دليلاً على فرحهم وابتهاجهم، وفى ليلة من الليالى كان يتصدر مجلسًا من الإخوان وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر، وذلك بعد صلاة العشاء، فسمع طلقًا متواصلاً من البارود، وسأل عن السبب فقيل له إن «مزارًا» من قبائل العواقير قد وصل الآن، «وكلمة مزار تطلق عند البادية على الزائرين» فقال: لقد نبهنا أكثر من مرة للمحافظة على الرصاص والبارود، والعناية بإدخال الأسلحة كى لا تُستعمل إلا عند الحاجة، وإن الوقت الذى ندخر له السلاح لآت، ونود من إخواننا وشيوخ العشائر أن يواصلوا إسداء النصح بذلك، فأجابه محمد بن الشفيع بقوله: أتنتظر غزوًا خارجيًا قريبًا؟، فالتفت ابن السنوسى عنه إلى الشمال - وكان يستقبل القبلة- وقال -وقد تقطع وجهه- أكاد أقول لكم إننى أرى العدو رأى العين؛ ومن مد الله فى عمره منكم سوف يقاتله، وهو آت من هنا (وأشار إلى جهة البحر)، فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وأصبح أتباع الحركة السنوسية يستعدون لأعدائهم الذين أخبر شيخهم بأنهم قادمون، وسنرى بإذن الله معاركهم البطولية ضد فرنسا وبريطانيا وإيطاليا فى الجزء الثانى من الدراسة.

---

(١) انظر: برقة بين الأمس واليوم، (ص ١٧٩).
(٢) انظر: السنوسى الكبير، (ص ١٤٤)، نابلتان، أى: إيطاليا.

المبحث الثالث

البعد السياسى عند ابن السنوسى

يظهر البعد السياسى عند ابن السنوسى فى تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية؛ حيث رأى فى الدولة العثمانية دولة خلافة، ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، رغم ما كان يعتقده فى الأصل من أن الخلافة ينبغى أن تكون بيد قرشى. ومع هذا فإنه لم يشأ أن يثير موضوع الخلافة من هذه الناحية؛ لأنه يعلم يقينًا أن إثارة هذا الموضوع معناها فتح باب للنزاع لا يعود إلا بضرر على السنوسية وعلى المسلمين جميعًا. ويبدو أنه اعتبر من الأحداث التى عاصرها فى صراع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الدولة العثمانية، واقتنع بأن أخف الضررين فى هذه المسألة الحية الواقعية عدم معاداة الدولة الثعمانية، ولذلك نجد ابن السنوسى يعمل على توثيق علاقته بحكام الأقاليم فى طرابلس وفزان وبنغازى.

وتولدت علاقة وثيقة بين الولاة العثمانيين وابن السنوسى مبنية على الاحترام والتقدير، فقد جاء فى رسالة بعث بها ابن السنوسى لوالى طرابلس محمد أمين باشا بعد تأسيس الزاوية البيضاء: «ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله فى عافية وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا، وواجب المكافأة علينا، ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمارة، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه. هذا مع بعد المسافة واشتغالكم بمصالح الدولة العلية وقيامكم بأعباء سياسة الرعية، فإن هذه الزاوية -وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم- فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم، فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع، ومذكورون مع الحاضرين فى كل مجمع... والإخوان المهاجرون دائمًا لكم داعون».

ثم يتحدث عن عمله وعمل الإخوان فى نشر العلم وإقامة شعائر الدين فيقول:

«ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بنغازى للقيام بمصالح الدولة السنية فنعم ما فعلتم، ونرجو أن يكون على قدمكم فى طرق السداد والرحمة للعباد، فأوصوه بذلك، وادعوا له به؛ فإن رضاء الحق فى رضائكم عليه. ونحن والإخوان عليه راضون، وله راعون، وبالسيرة الحسنة موصون، جعله الله وارث كمالكم بعد طول الأعمار، وجمع لكم بين عز هذه الدار وتلك الدار... فنوصيكم وأنفسنا بوصية الله سبحانه للنبيين والمرسلين الأولين والآخرين:

﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[النساء: ١٣١] وأن تتخلقوا بمحض الرحمة لعباد الله:

قال العلى الشأن: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[النحل: ٩٠].

وقال ذو الشمائل الحسنة: عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، والجزاء من جنس العمل، وإنما هى أعمالكم ترد عليكم، وكما يدين الفتى يدان. نسأل الله سبحانه لنا ولكم وللمسلمين أن يؤتينا من لدنه رحمة ويهيئ لنا من أمرنا رشداً، ويحل علينا رضوانه الأكبر الذى لا سخط بعده أبداً، إنه جواد كريم رءوف رحيم وعلى جنابكم السلام وهو الختام»(١).

فالباحث يلمس وداً قوياً بين ابن السنوسى والوالى، ويستنتج منه رضا الوالى وتأييده لحركة ابن السنوسى.

ونجد رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسى إلى محمد باشا صالح -حاكم بنغازى- يعهد فيها للوالى بمهمة رعاية الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها، وذلك قبل سفر ابن السنوسى للحجاز.

وقد جاء فى الرسالة:

«. . . فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التى حدثت بهمة حضرتكم ومنة جناب والدكم «هنا بياض فى الأصل». . . وكل من الزوايا حول عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدى بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم. . . وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرم الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها. . . وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزيز خطابكم لا يستباح لها حصن ولا تخفر لها ذمة وتصير حرماً آمناً. . . »(٢).

وهذه الرسالة وجهها ابن السنوسى إلى حاكم إقليم فزان فقال بعد البسملة والديباجة الأولى: «ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالاً، أدام الله بقاءه وزاده عزاً وإجلالاً.

وبعد إهداء تحيات عطرة تليق بعزيز الجناب، ورفع أكف الضراعة مستمطراً أكف الإنعام وسوابغ الآلاء مدى الدهور والأحقاب، وأنه قد وصل مشرفكم الكريم، وحمدنا الله تعالى على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم، وأسفر عن مكارمكم الفائقة. . . باستنشاق ريا منكم الرائقة، إنكم للفضل أهل ولعلم الصالحات مأوى ومحل إذ أن مقاصدكم كلها صالحة، وفضائلكم لدى

(١) انظر: السنوسى (ص١٣٩، ١٤٠).
(٢) انظر: السنوسى (ص١٤٣، ١٤٤).

الخواص والعوام واضحة، وقد أخبرنا والدنا الشيخ أحمد بن أبى القاسم التواتى عن جميع خيراتكم تفصيلاً وتتابع ذلك منكم بكرة وأصيلاً، زاد كم الله عزًا ورفعة وجعلكم تحت كنفه فى غز دائم ومنعة وأفاض عليكم من نوره الأسنى، وأمدكم من فيوضاته المباركة الحسنى فأبشر بحول الله وقوته بالعز الأبدى والفخر الدائم السرمدى، وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع يذكر عباد الله فى كل الناحية، ويكون مقامه بزاوية «واو» حتى يرجع إليها الشيخ أحمد بن أبى القاسم التواتى؛ لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض كتب غير موجودة فى خزانتنا ويرجع إن شاء الله عاجلاً، وها نحن داعون لكم بصالح الدعوات فى الخلوات والجلوات وأوقات الإجابات، وعلى الله القبول وهو المرجو منه والمأمول، وسلام السلام يخصكم ويعم سائر اللائذين بجنابكم»(١).

ومن خلال الرسائل نستنتج أن ابن السنوسى استطاع أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدو أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسى لصفها وخصوصًا بعد أن قدم للقبائل خدمات عظيمة فى مجال الدعوة والتعليم والإرشاد، وعالج ظاهرة خروج القبائل عن الدولة بحكمة نادرة، فكانت القبائل تقبل نصائح ابن السنوسى ويطيعون العثمانيين بناءً على توجيهاته؛ ولذلك تركت الدولة الدواخل فى يد الحركة السنوسية، وبدأت الحركة تتحول إلى إمارة منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية. وأوفد ابن السنوسى مندوبًا عن الحركة السنوسية إلى إستانبول، وقام بهذه المهمة الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازى؛ حيث قابل السلطان عبد المجيد وحصل منه على «فرمان» عام (١٨٥٦م) يعفى ملاك الزوايا من الضرائب ويسمح لها بجبى نقود من أتباعها.

ونخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسى بالدولة كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى فى برقة، وقد أشار صادق المؤيد لهذا الفرمان الذى لم نعثر على صورة له، ثم سافر الشيخ أبو القاسم العيساوى من طرابلس إلى إستانبول وحصل على «فرمان» آخر من السلطان عبد العزيز يؤكد الفرمان الأول، وأتى به إلى حاكم طرابلس(٢).

وقد وجد المؤرخ أحمد الدجانى فى دار المخطوطات فى طرابلس «مرسومًا ولائيًا» من والى طرابلس إلى متصرف الجبل يؤكد ما تحصل عليه أبو القاسم العيساوى من فرمان من إستانبول، وقد جاء فيه بعد التحية: وبعد فإن الشيخ العالم... السيد الحاج بلقاسم العيساوى دام موقرًا مرعيًا بيده أوامره من أسلافنا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالى الشأن فى تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لما تحقق من حسن سيرته وخلوص طريقته وسريرته وفضله وسلوكه مسلك أستاذه ذى الهداية والإرشاد موصل السالكين لإدراك المراد، صاحب المقام الأنور الباهر،

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص١٤١). (٢) انظر: الحركة السنوسية (ص١٠٥).

والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار عين أعيان الأخبار محمد ابن علي السنوسي الخطابي الإدريسي . . . كما تشعر بأنه أسس زاوية باسم أستاذه المشار إليه، قاصدًا بذلك نشر العلم وتعليم أولاد المسلمين، وظهور طريقة الأستاذ ليعم النفع والإرشاد، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين ورفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمال والوقار والإجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة. . . وعدم التعدي على الزوار الوافدين عليها. . . وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما هم عليه وأن لا يقاسون بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية وأن لا يطالب بميرى ولا أعشار. . .»[١].

إن ابن السنوسي استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية له سواءً عن طريق باشواتها في ليبيا أو السلاطين العثمانيين في إستانبول، فقد استطاع أن يتحد مع الدولة العثمانية في السعي الدءوب من أجل تحقيق أهداف الإسلام الكبرى. وقد نظر ابن السنوسي إلى دولة الخلافة، كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره، بل الصواب العمل على الحفاظ عليه وعدم الاصطدام به، لذلك جعل علاقته بها طيبة. أما الدولة العثمانية فكانت ترى في الحركة بعض الفوائد استطاعت تحقيقها، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة. وقد سئل ملك ليبيا السابق محمد إدريس السنوسي -رحمه الله-: هل كان جده يهدف إلى إقامة دولة إسلامية؟ فأجاب بالنفي؛ ذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفًا طيبًا عندما أعفى السلطان عبدالمجيد الإخوان من دفع الأموال الأميرية، ولأنه كان يخشى أن يكون حاكمًا؛ لأن الحاكم يظلم أحيانًا وهو يعلم وأحيانًا دون أن يعلم[٢].

إن ابن السنوسي -مع قناعته بأحقية القرشي بالخلافة- لم ير إثارة موضوع الخلافة؛ لأنه رأى أن ذلك من غير المناسب وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف، ولذلك ركز على جوانب الاصلاح الأخرى، فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الإسلام وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع أن يقوم بواجباته نحو الإسلام، من رد الاعتداء وإقامة شرع الله، ودعوة الناس إلى الإسلام. . . ولا بد أن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة.

وقد اختار ابن السنوسي التعليم والإرشاد طريقًا لإصلاح المجتمع[٣]، ولذلك كانت خطواته الحركية والدعوية محسوبة، فلم يصطدم بالدولة، ولا بالعلماء ولا غيرهم، وإنما سعى لتحقيق

---

(١) انظر: الحركة السنوسية (ص١٦٣). (٢) انظر: الحركة السنوسية (ص١٦٣).
(٣) المصدر السابق، (ص١٦٤).

أهدافه بالوسائل السلمية، وأقام زوايا لتكون بمثابة خلايا حية، تمتد منها الحياة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية(١).

إن ابن السنوسى لم يترك فرصة تمر إلا واتخذها لتعزيز مركز دولة الخلافة والأخذ بيدها، وكان يرى أن طرق الإقناع هى خير الوسائل لبلوغ الأهداف السامية، ولم يستعن ابن السنوسى بأى دولة أجنبية؛ أو تعاون مع أى منها، أو ارتمى فى أحضانها، أو قام بتشجيع الثورات التى لا تأتى بفائدة مرجوة للمسلمين.

إن خطواته الدعوية الحكيمة قد أغضبت بعض الخائفين على ملكهم من الحكام والجامدين من العلماء والمفكرين من دهاة الاستعمار ودعاته، واستطاع -ببعد نظره وحكمته- أن يتغلب عليهم، وأن يرسم خطوطًا متينة سار عليها أتباعه من بعده(٢).

وقد تكلمت جريدة «الصباح» الفرنسية عام (١٩١٢م) عن البعد السياسى عند ابن السنوسى فقالت: «لم يكن مجىء السنوسيين إلى طرابلس وتوطنهم فيها من قبيل المصادفات والاتفاق، فهؤلاء أدركوا منذ طويل أن الأوروبيين سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر ومراكش، فأرادوا أن يقفوا وراء ساحل طرابلس كالبنيان المرصوص، ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبا أساطيلها بسهولة على تلك السواحل»(٣).

لقد كان ابن السنوسى لا يفرق بين الدين والدولة، بل كان يرى أن الدين والدولة كل لا يتجزأ، ولهذا كانت نظرته إلى الحياة نافذة، استمدها من دينه الذى يدعو إلى الشمول. ولو كان البعد السياسى غائبًا عن ابن السنوسى، لما حاربته حكومة السلطان مولاى سليمان فى مراكش، ولما ناصبه العداء حكام الجزائر، ولما أوجس منه حاكم مكة خيفة، ولما تحرش به بعض علماء مصر، ولما اهتمت بشأنه دولة الخلافة، ولما فزعت منه دولة الاستعمار رعبًا وفى مقدمتها فرنسا، ولو كان كمثل شيوخ الطرق الصوفية التقليدية لبقى معززًا محترمًا، ولعاش عيشة الخنوع والاستسلام(٤).

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد -رحمه الله: «وكان الشيخ السنوسى -بخلاف الغالب على مشايخ الطرق- خبيرًا بأحوال السياسة العالمية، فوقر فى ذهنه أن النابلطان أى -الإيطاليين- مغيرون لا محالة على برقة فى يوم قريب، فأوغل بمقاومة إلى واحة الكفرة على طريق السودان

(١) انظر: السنوسى (ص١٠٢).
(٢) انظر: السنوسى الكبير، (ص١٠٨، ١٠٩).
(٣) المصدر السابق (ص١١٦).
(٤) انظر: السنوسى الكبير، (ص٩٧).

ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا ويهيئ فى جوف الصحراء ملاذًا لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة»(١).

لقد اعتبر الأوروبيون الحركة السنوسية عقبة كأداء فى طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسى دوفريه فى غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان، فيقول: إن السنوسية خطر عام: خطر على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال أفريقيا، وخطر على مصر(٢).

أما السياسى الفرنسى المعروف المسيو هانوتو فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسى فى جبهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر وطرابلس وبنغازى مذهبًا خطيرًا له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائمًا بها هيكل البرجيس آمون: إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسى وأتباعه التشديد فى القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمنًا طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية. غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التى أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا فى إفريقيا الجنوبية. ولم يكن الأمر مقصوراً على وسط القارة الإفريقية، فإنه يوجد بالآستانة نفسها والشام وبلاد اليمن، وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب، ويُخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها(٣).

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد(٤).

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التى أقضّت مضاجعها، ولم تكتم فرنسا رغبتها فى القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته(٥).

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: «استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة فى إفريقيا واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية»(٦).

(١) انظر: الإسلام فى القرن العشرين (ص١٣٢).
(٢) انظر: السنوسى الكبير (ص٤٤).
(٣) انظر: السنوسى الكبير (ص٤٤).
(٤) انظر: السيد محمد رشيد رضا، لمحمد أحمد درنيقة (ص٢٠٢).
(٥) المصدر السابق (ص٢٠٣).
(٦) انظر: السيد محمد رشيد رضا، لمحمد أحمد درنيقة (ص٢٠٣).

إن البعد السياسى عند ابن السنوسى يتضح للباحث فى: حملة التوعية التى قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار؛ بغرس الثقة فى دينهم وعقيدتهم والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل البناء.

وتحدث آدمز عن ابن السنوسى وختم كلامه قائلاً: «وعلى أية حال فإن ابن السنوسى كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحس عملى دقيق للأحداث»(١).

ووصفه ستودار بأنه «كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة، عظيم الاقتدار على التنظيم والإصلاح»(٢).

وقال فيه المؤرخ التركى أحمد حلمى: «إن من يمعن النظر فى عظمة المقصد وجلالته وفى قدرة الوسائط وفقدانها وجسامة المشكلات التى اقتحمها المؤسس وقاسها على الجمعيات الأوروبية والشرقية لا يمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه»(٣).

أما محمد الطيب فيقول فى شخصية ابن السنوسى: «كان ذا شخصية قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن، وكان عدواً للجهل، وخصمًا للاستكانة، وضداً للأفكار العقيمة»(٤).

أما الزعيم الليبى السياسى الكبير بشير السعداوى فيقول: «مهما أوتى المؤرخون والكتاب والشعراء من قوة فى البيان وإبداع فى البلاغة وهم يتناولون الحقائق عن سيرة السيد السنوسى وأهدافه التى يرمى إليها وقد حقق جزءاً منها، فلا يستطيعون إيفاء المقام حقه ولن يصلوا إلى معرفة هذا المصلح الإسلامى العظيم، كما ينبغى. وكلما توالت الأيام والسنون، فهى تثبت لنا عظمة السنوسى ونبل مقاصده السامية التى تصلح من شأن المسلمين»(٥).

وأما سالم بن عامر فيصف السنوسية فيقول: «هى طريقة أُسست على حكمة علمية واجتماعية، وأن أسس هذه الجمعية السنوسية هى الأخوة والتعاون.. إلى أن يقول: إن الجمعية السنوسية مع أنها طريقة مخصوصة فهى جمعية سياسية أفكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الإخوان والخلفاء والمشايخ والزعماء...»(٦).

❁❁❁

(١) الحركة السنوسية (ص١٦٥).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص١٦٦).
(٣) انظر: برقة العربية (ص١٧٨).
(٤) انظر: برقة العربية (ص١٧٨).
(٥) المصدر السابق نفسه، (ص١٨٤).
(٦) المصدر السابق نفسه، (ص١٧٨).

الفصل الثالث:

أسلوبه الدعوى وثروته الفكرية وصفاته الربانية

المبحث الأول

الأسلوب الدعوى عند ابن السنوسى

كان أسلوب ابن السنوسى فى الدعوة إلى الله مستمدًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن رسالته إلى شيخ زاوية المدينة ابن الشفيع، نلاحظ ذلك حيث قال: [. . . وحسّنوا أخلاقكم وليّنوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال جلا وعلا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال ﷺ: «ارفقوا فإن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه، وإن الحمق ما كان فى شىء إلا شانه، وارفعوا همتكم عن الخلق»، عليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه، والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا، وعلى البر أعوانًا»[1].

ولذلك نجد دعاة الحركة السنوسية يتخذون الرفق واللين فى دعوتهم منهجًا، وتعلموا ذلك من مؤسس الحركة، ونلاحظ ذلك فى عدة أمور منها:

أولاً: التعامل مع الطرق الصوفية:

تميز زعماء الحركة السنوسية بالحلم والرفق، ولذلك تجنبوا الاصطدام مع الطرق الصوفية فى ليبيا والحجاز ومصر، وغيرها. فبدلاً من كسب عدائهم، عملوا على نصحهم والتعاون معهم فى أمور الخير، وشيئًا فشيئًا دخل بعض زعماء الطرق الصوفية فى ليبيا فى بوتقة الحركة السنوسية، وبقيت الطريقة الصوفية المدنية تتمتع بنفوذ محدود لدى قسم القبائل البدوية[2]. وكانت معاملة السنوسية لباقى الطرق فيها رفق وتسامح ونصح، واستطاعت أن تبين لأتباع الطرق الأخرى الانحرافات التى وقعت فيها، كالغناء، وهز وضرب الدفوف. وسارت بمنهجية حكيمة حتى استطاعت أن تهيمن على البوادى، والواحات، والمناطق الداخلية. وأصبح ولاء تلك الأماكن لفكر الحركة السنوسية، وأصبح نشاط الطرق الأخرى محصورًا فى المدن، كبنغازى وطرابلس وغيرها، بعيدة عن الصراع السياسى العالمى، بعكس السنوسية التى استطاعت أن تصبح حركة

---

(١) انظر: جامعة السيد محمد بن على السنوسى الإسلامية من رسالة (١٢ ربيع ١٢٢٤هـ).
(٢) تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، (ص٣٢).

سياسية مؤثرة، ومن أشهر الطرق الصوفية فى ليبيا: العروسية، والعيساوية، والقادرية، والمدنية، والسعدية، والطيبة، والعزوزية[(١)].

ثانيًا: عتق السنوسى للعبيد من الأفارقة:

كان ابن السنوسى يهتم اهتمامًا كبيرًا بدعوة القبائل الوثنية فى إفريقيا، فمن وسائله فى نشر الإسلام بقلب إفريقيا: أنه اشترى مرة قافلة من العبيد، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم فى سوق الرقيق، ولكن ابن السنوسى أعتقهم جميعًا وأكرمهم وعلّمهم الإسلام، وبث فيهم حبه وتقديره. ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاةً يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين، فكانوا دعائم مهمة لنشر الإسلام بين أهليهم وقبائلهم[(٢)]. وكان يشترى العبيد من القبائل التى كانت تغير على القوافل ليعتقهم، وعمل على دعوة القبائل إلى الالتزام بالإسلام، وتخليص العبيد من العبودية. وكان ابن السنوسى يشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ثم يرسلهم إلى قبائلهم، ودعوة الزنوج إلى الإسلام. وبفضل الله -ثم هذا الأسلوب- أصبحت قبائل «وادای فى تشاد يرسلون أبناءهم لتعلم الإسلام فى الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية»[(٣)].

ثالثًا: التعامل مع القبائل وتوظيفها للدعوة:

اهتم ابن السنوسى فى دعوته بزعماء القبائل واستطاع أن يجعل من بعضهم دعاة إلى الله، كما رأينا فى سيرة مرتضى فركاش، وأبو بكر بوحدوث وغيرهما، واهتم بتوصيل الدعوة إلى الأحياء البدوية، ونظم أمر الدعاة المكلفين بهذه المهمة، وحرص على أن يضرب أروع الأمثلة فى العفة والاستغناء عما فى أيدى الناس من متاع الدنيا، وقام بإرسال الكثيرين من المرشدين والوعاظ إلى مواطن البدو البعيدة، فكان يرسل بعض إخوانه إلى جهات خاصة، ويحدد لهم مادة عملهم ثم يرسل بمن يخلفهم ليعود الأوائل لأخذ الراحة.

وكانت إحدى البعثات مؤلفة من الشيخين مرتضى فركاش وحسين الغريانى، فقاما بالدعوة إلى الله بين القبائل، ومن شدة فرح البدو بهما أهدوا إليهما هدايا من الإبل والبقر والغنم، ولما أكملا مدتهم ورجعا إلى ابن السنوسى، وعلم بما حدث احمر وجهه، وظهرت على وجهه علامات التأثر، وقال لهما: ما جئت لأجمع مالاً ولا لأرغب فى الدنيا، ولم أرسلكما لتجمعا لى مالاً ولكننى جئت لأنشر علمًا ودينًا، فارجعا بكل ما معكما لتسلماه إلى أصحابه بالعدد،

(١) انظر: المجتمع الليبى (ص٣٢٥).
(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامى، محمود شاكر (٤٣٧).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٩).

وقال لدعاته: لا تشقا على أحد ولا أود أن يتكلف أحد بضيافتكما، فخذا أمتعتكما، وكل ما يلزمكما ولا تتقبلا من الأهالى شيئًا إلا «الزبدة» واللبن «المخموض».

وقام الشيخان مرتضى فركاش، وحسين الغريانى، بإرجاع الهدايا إلى أصحابها، فكل من يعطيانه ما كان جاد به يتكدر ويتأثر ويقول: لعل ابن السنوسى رفض قبول ما قدمته لشىء فى نفسه عنى، فيقنعاه بأن ابن السنوسى تمام رضاه فى أن تقبل ما جُدت به وأن ترسل بابنك إلى الزاوية ليتعلم وأن تحضر معنا دروس الوعظ والإرشاد(١). وانتشر بين البدو أن ابن السنوسى أمر دعاه بأن لا يشقا على أحد فى إكرامهما، فتحايل البدو فى إكرام الدعاة إلى الله. فأسلوب ابن السنوسى لم يقتصر على الزوايا، بل أرسل الدعاة إلى القبائل البعيدة لتعم دعوة الإسلام المباركة كل الناس(٢)، واستطاع ابن السنوسى أن يقنع القبائل البدوية بأهمية الدعوة إلى الله، وخصوصًا تلك التى كانت تتعامل فى التجارة مع وثنيى إفريقيا لنشر الدعوة هناك، ومن أشهر تلك القبائل التجارية الصحراوية: أولاد سليمان الطوارق، التبو، المجابرة، الزوية(٣).

رابعا: ضرب الأمثال عند ابن السنوسى:

استخدم ابن السنوسى وسيلة ضرب الأمثال فى أسلوب دعوته، وقد استنتج هذه الوسيلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وإن لضرب الأمثال فى القرآن الكريم، والسنة فوائد كثيرة ومنافع جمة، منها:

١- تقرير الحقائق تقريرًا واضحًا جليًا.

٢- تقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع.

٣- تشويق السامع وترغيبه إلى الإيمان والخير والحق والمعروف والفضيلة.

٤- تنفير السامع وترهيبه من الكفر والشر والباطل والمنكر والرذيلة.

٥- تذكير السامع ووعظه ليعتبر وينزجر.

٦- تشبيه شىء بشىء فى حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر.

(١) انظر: برقة العربية (ص١٦٥). (٢) انظر: برقة العربية (ص١٦٦).
(٣) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار فى ليبيا (ص١٣١).

٧- تأتى لإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى المراد، وظهور ذلك على وجه السامع، ولذا فقد اختير لها لفظ الضرب؛ لأنه يأتى عند إرادة التأثير وهيجان الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا ينفذ تأثيره وأثره إلى قلبه وينتهى إلى أعماق نفسه(١).

ولذلك استخدم ابن السنوسى ضرب الأمثال فى الدعوة والإرشاد والوعظ والتذكير التى تؤثر فى القلوب والنفوس أثرًا بليغًا فى قبول الدعوة، وتوصيل المفاهيم إلى الناس، ومن ذلك حديثه للإخوان أثناء بناء الجغبوب حيث كان يشرف بنفسه على العمل ويخطط بناء السور على شكل مربع، ثم يخاطب الحاضرين فيقول لهم: «الطير له عقل أم لا؟، فقالوا: لا عقل له. فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذئب، ولا ثعلب ولا غيرهما. وقال: اليربوع له عقل؟، فقالوا له: لا. فقال: هو يجعل فى جحره طربقة: وهى النافقاء، فإذا دخل عليه الحنش الأسود عليها من هنا. وقال: تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا- وأشار بأصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب»(٢).

ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسى استخدم لغة الحوار والاستجواب، وفى هذا الأسلوب دعوة للتفكير وتشجيع على المناقشة، وتعود الإخوان على العطاء والمشاركة وإبداء الرأى، وإن هذا الأسلوب فى الحوار والمناقشة يثير الانتباه لتلقى المعلومات ويذهب السآمة، ويزيل ما يصيب النفس من ملل نتيجة الإلقاء الطويل، ويشوق الذهن، وينشط العقل لمواصلة السعى. وبهذا الأسلوب استطاع ابن السنوسى أن يركز على بعض الحقائق لترسيخها فى النفوس وتثبيتها فى القلوب وتحذير إخوانه من الخطر الداهم على بلادهم، والدعوة للاستعداد لمواجهة هذا الخطر.

لقد أشار إلى مجىء الطليان فى قوله: إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا.

خامسًا: استخدام القصة عند ابن السنوسى:

إن من طبيعة النفوس البشرية -إذا خوطبت تلقائيًا بكلام نظرى مجرد يتبع آخره أوله- أن جهدها التفكيرى يضعف، واستعدادها النفسى يذبل، فلا تعود تعى أو تفهم شيئًا مما يقال لها. ولذلك استخدم ابن السنوسى الأسلوب القصصى فى تجسيد الأحداث على شكل أشخاص، يتحرك معها القلب، وتنشط لها الآذان والعقول، فهى تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة. ماذا سيحدث؟.

---

(١) انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد المورعى (ص٢٧٤).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٥٤).

إن القصة تعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والنصح والإرشاد؛ فأسلوبها له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية فى نفوس المدعوين، فهى تستولى على قلوبهم استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر؛ لما لها من سرعة نفاذ، وقوة تأثير، واستمرار أثر(١).

إن الغرض الأكبر من الأسلوب القصصى للدعاة، أخذ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

ولذلك كان ابن السنوسى يكثر من استخدام القصة لتفهيم إخوانه وأتباعه، باعتبارها أسلوبًا مهمًا، ووسيلة تعليمية ناجحة، ومن ذلك قصة حكاها لابنه وإخوانه يبين لهم فيها أهمية القيادة فى الجماعة، وضرورة المحافظة على القائد الذى هو بمثابة الرأس من الجسم. والقصة -كما قالها محمد المهدى السنوسى- : «كنت جالسًا مع سيدى رضي الله عنه وتكلم معى طويلاً فى الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب، ثم حكى لى حكاية أنه كان كبير قوم ارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان، فبينما هم فى أثناء الطريق، وإذا بالعدو قد ظهر عليهم فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يئون إليه، فلما لم يروا شيئًا قالوا: لم يبق إلا القتال، وكبير القوم معه ولد، فصار الولد كلما رأى العدو آتيًا من جهة هاجمه من جهة أخرى، فقال له بعض القوم: أنت ما شغلك إلا أبوك. فقال لهم: نعم رجل كألف وألف خفاف كاف. فقال رضي الله عنه: صدق الولد، متى كان الرأس موجودًا، فالذى يذهب يأتى الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه»(٢).

سادسًا: استعماله للشدة فى موقف الشدة:

كان الأصل فى أسلوب ابن السنوسى استعماله اللين والرفق، ومعاملة الناس بالحسنى والتودد إليهم وكسب قلوبهم، ولكن فى بعض الأحوال والظروف كان يستخدم الشدة لكونها أنسب وأوقع وأعمق أثرًا، فكان يقدر للأمور قدرها ويعطى كل موقف من اللين والرفق أو الشدة والحزم.

قال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]: إن القول الحسن ليس هو عبارة عن القول الذى يشتهيه المدعو ويوافق هواه ويحبه. بل القول الحسن هو الذى

(١) انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، (ص٢٨٨). (٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٥٤).

يحصل انتفاعه به سواء حصل عن طريق اللين والرفق أو الشدة والحزم، وعلى هذا قد تكون الشدة من القول الحسن(١).

لذلك كان ابن السنوسى ضابطًا لأتباعه، يحسن توجيههم، ولا يتهاون فى معاقبة المنحرف منهم. وقد حكى أحمد الشريف فى رحلته عن أحد شيوخ الحركة واسمه المدنى التلمسانى، أنه كان مقدم إحدى الزوايا فى الصحراء، فثار بها للجهاد فى كافر وأمه جاءا سائحين، الكافر يداوى الرجل وأمه كحالته تداوى النساء، فلم يشعرا إلا والمجاهد قد قام عليهما ومعه المعاون سيدى عبدالهادى الفاسى خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة والمعاون متقلداً سيفًا قد أخرج من نصله قدر ثلاثة أصابع لإرهاب العدو، فصادفا حاكم البلاد وهو تركى؛ فقال لهم القائم للجهاد: اليوم يخرج النصرانى من البلاد، فقال له: أمهله اليوم وغداً يخرج. فقال المجاهد: لا بد أن يخرج اليوم، فتلطف التركى معه فلم يفد، واشتد الخصام بين القائد التركى وبين الشيخ وتراشقا بالكلام وحدثت فتنة عظيمة؛ فلما وصل الخبر إلى ابن السنوسى أرسل إليهما وعندما وصل المعاون قبل القائم فهجره أيامًا حتى قدم مقدم الزاوية فخاصمهما وقال لهما: أنا أرسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين؟، ولم يرجعا محلهما»(٢).

فهذه الحادثة تعطى للباحث فكرة عن ضيق أفق مقدم الزاوية وعن مواقف ابن السنوسى من انحرافه، وعن الأسلوب الذى اتبعه فى عقابه؛ فهو يهجر المعاون أيامًا دلالة على شدة غضبه، ثم يخاصم الاثنين، ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة ويعزلهما عن عملهما. وموقفه الشديد هذا لا يُستغرب؛ لأن تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسى فى الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة(٣).

سابعًا: من رسائل ابن السنوسى الدعوية:

كانت رسائل ابن السنوسى التى يبعث بها إلى الإخوان أو لغير الإخوان، تتجلى فيها شخصيته الدعوية؛ ففى رسالة بعث بها فى محرم (١٢٧٦هـ) إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب يقول موصيًا الإخوان: «والوصية لكم بالوقوف فى باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، والتخلى عن التوانى والكسل، وابذلوا الوسع فى حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيدى الناس، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى توصية

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازى (٣/ ١٦٨).
(٢) انظر: الرحلة، لأحمد الشريف، مخطوط(ص٢٠).
(٣) انظر: الحركة السنوسية (ص١٥٥).

فيما هو بين يديه، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعيًا قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦][1].

فكان ابن السنوسى -رحمه الله- فى هذه الرسالة يحث إخوانه على الجد والاجتهاد، ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، ويدعوهم إلى ترك التوانى والكسل، وأن يستعدوا للآخرة كأن آجالهم تأتى غدًا، والعمل للدنيا كأنما يعيشون أبدًا. ولذلك حثهم على حصاد الزرع والدراس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدى الناس، ويطلب منهم الإحسان فى أعمالهم الدنيوية والأخروية.

هذه بعض الخطوط العريضة التى تبين لنا أسلوب ابن السنوسى الدعوى.



(١) انظر: الحركة السنوسية (ص١٥٨).

المبحث الثاني

الجانب الفكرى عند ابن السنوسى من خلال كتبه

يمكننا فهم أفكار ابن السنوسى والوصول إليها من خلال مؤلفاته التى ضمّنها آراءه فى عدد من المواضيع، وهذا مهم لفهم الحركة السنوسية. لم يستطع المؤرخون أن يحصروا عدد الكتب التى ألفها ابن السنوسى؛ ذلك أن الكثير منها فُقد، وطُبع بعضها، ولا يزال البعض الآخر كمخطوطات، وحاول الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة إجراء بحث عن «سيرة ابن السنوسى الكبير وفقد المصادر»(١). وقد اختلف مؤرخو الحركة فى ذكر الكتب التى ألفها ابن السنوسى؛ فزيادة نقولا يذكر أن السنوسى الكبير كتب تسعة كتب أحدها كان شعراً(٢). أما محمد فؤاد شكرى، فيذكر أسماء خمسة كتب مطبوعة وثلاثة لم تطبع(٣). أما الأعشب فيقول: ثمانية كتب طبعت وتسعة لم تُطبع(٤)، وأما إسماعيل باشا البغدادى فى كتابه «هداية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» فقد نسب لابن السنوسى خمسة وثلاثين مؤلفًا بين كتاب ورسالة ذكر أسماءها(٥)، ولقد ضاعت كتب كثيرة لابن السنوسى نتيجة احتلال إيطاليا للكفرة، ونتيجة احتراق المكتبة فى مدينة سلوق.

وعلى أية حال فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسى هى:

١- كتاب المسائل العشر بغية المقاصد فى خلاصة الراصد، مطبعة المعاهد بالقاهرة، آخر (١٣٥٣هـ).

(٢) السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين، وهو بهامش الكتاب السابق.

(٣) المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق، الطبعة الأولى (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) مطبعة حجازى القاهرة.

٤- إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الأولى (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، مطبعة حجازى القاهرة.

---

(١) نشر البحث فى مجلة كلية الآداب فى الجامعة الليبية، المجلد الأول، (ص١٨٩).
(٢) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة (ص٧٣).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٤١).
(٤) انظر: السنوسى الكبير (ص٨١).
(٥) انظر: الحركة السنوسية (ص١٣١).

٥- الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية، الطبعة الأولى (١٣٤٩هـ) مطبعة الشباب بالقاهرة، الطبعة الثانية (١٣٧٣هـ) مطبعة الشباب بالقاهرة.

٦- رسالة المسلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (١٣٥٧هـ)، مطبعة الشباب بالقاهرة.

٧- رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك، الطبعة الأولى (١٣٧٤هـ) مطبعة الشباب القاهرة.

٨- شفاء الصدر بأرى المسائل العشر[1]، «الأرى: العسل» (١٣٦٠هـ) مطبعة المحمودية.

أما الكتب التى لم تطبع وورد لها ذكر فى الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها، فهى:

١- الشموس الشارقة فى أسانيد شيوخنا المغاربة والمشارقة: ورد ذكره فى «المنهل الروى» (ص٦) يسميه ابن السنوسى «فهرستنا الكبرى»، وورد ذكره أيضًا فى هدية العارفين تحت اسم «الشموس الشارقة» فى تراجم مشايخى المغاربة والمشارقة».

٢- الدرر السافرة فى عوالى الأسانيد الفاخرة: ورد ذكره فى «المنهل» صفحة (٦)، وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة، وورد فى هداية العارفين بعنوان «البدور السافرة فى اختصار الشموس الشارقة».

٣- الكواكب الدرية فى أوائل الكتب الأثرية: ورد ذكره فى «المنهل» صفحة (٧)، وورد فى هداية العارفين بنفس العنوان مجردًا من (ال التعريف). وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التى درسها ابن السنوسى وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم، وقد ذكر مؤلفه أبوابه فى كتابه «المنهل» باعتباره سار على نهجه فى تأليفه.

٤- سوابغ الأيد بمرويات أبى زيد: ورد ذكره فى «المنهل» وفى «هداية العارفين»، وموضوعه: فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسى.

٥- رسالة جامعة فى أقوال السنن وأفعالها، وهى منظومة توجد -كما يقول الأشهب- بمكتبة الملك، ولا يرد لها ذكر فى «هداية العارفين».

٦- هداية الوسيلة فى اتباع صاحب الوسيلة، وهى منظومة توجد -كما يقول الأشهب- بمكتبة الملك، وقد وردت فى «هداية العارفين».

٧- طواعن الأسنة فى طاعنى أهل السنة.

٨- رسالة شاملة فى مسألتى القبض والتقليد، ويقول الأشهب: إنها موجودة بمكتبة الملك.

---

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص٨١).

٩- رسالة السلوك، موجودة بمكتبة الملك، وردت فى هداية العارفين بعنوان «منظومة السلوك...».

١٠- شذور الذهب فى محض محقق النسب، موضوعه: تاريخ أسلاف ابن السنوسى[1].

هذه أهم الكتب التى ألفها ابن السنوسى، وقد شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع، وكان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية، وفيها كتب أو كتابان يتناولان مواضيع تاريخية.



(١) انظر: السنوسى الكبير (ص٨٣).

المبحث الثالث

من أهم صفات ابن السنوسى

إن ابن السنوسى فى سيرته العطرة اتصف بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التى تشمل: قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ، ونحاول فى هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التى تميزت بها شخصيته الفذة:

أولاً: الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم فى عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقد بلغ ﷺ فى حلمه وعفوه الغاية المثالية، وكان ابن السنوسى شديد الاقتداء فى كل أحواله وأقواله وأفعاله برسول الله ﷺ، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه وضبطه لنفسه، منها: ما ذكره أحد الشريف فى رحلته ﷺ أن رجلاً من الطريقة الدرقاوية، أساء الأدب مع ابن السنوسى أثناء نزوله بسيوه، وقال لابن السنوسى: نحن نكسر رءوس الرجال. فسمع بذلك أصحاب السنوسى وأرادوا أذيته «يعنى الرجل»، فقال لهم الأستاذ: اتركوه عنكم، واختفى الرجل خوفًا من الإخوان[(١)].

ثانيا: العفو والصفح عند المقدرة:

ومن الصفات التى ظهرت فى شخصية ابن السنوسى: حبه للعفو والصفح، فعندما نشب خلاف حول أملاكه مع بنى عمه فى الجزائر، وطالب أبناء عمه بحقوقه، فامتنعوا ورفع عليهم قضية وكسبها، ولم يدفع أولاد عمه المستحقات التى له، وقامت الحكومة بسجنهم- تنازل عن طلبه[(٢)]. وعندما ناصبه العداء بعض العلماء تعصبًا واندفاعًا وجمودًا، واتهموه بالكفر، والمروق

(١) انظر: الحركة السنوسية (ص ١٥٥، ١٥٦).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ١٥٨).

عن الإسلام، فقال ابن السنوسى عمن تولى الهجوم عليه: عفى الله عن الشيخ عليش سامحه الله[١].

ثالثًا: زهده:

. كان ابن السنوسى زاهدًا فى الدنيا، راغبًا فى الآخرة، حريصًا على دعوة الناس للحق، ولم يحرص على جمع الأموال وحطام الدنيا الفانى، وله أشعار تدل على زهده وعلى حقيقة نفسه المنصرفة إلى الله، المقبلة على متاع الروح، الزاهدة فى لذائذ الدنيا ومتعها.

رابعًا: تواضعه:

ومن الصفات البارزة فى شخصية ابن السنوسى صفة التواضع، فعندما دخل مكة، كان يسقى الناس ماء زمزم واتخذها حرفة وصار ملازمًا لها فترة من الوقت، قربة إلى الله[٢]، وقد ذكر ابن علىّ فى فوائده الجلية أن ابن السنوسى كان ناذرًا لله تعالى وقف نفسه على خدمة الكعبة المشرفة، تقربًا إلى الله تعالى وتواضعًا، ومجاهدة لنفسه، وكان عازمًا على المضىّ، غير أن الله تعالى رفع قدره وهيأه لما هو أعم وأنفع، ومن تواضع لله رفعه الله[٣]، وقام بالوفاء بنذره واشترك فى خدمة الحرم بقدر ما يسر الله له[٤].

لقد كان ابن السنوسى غاية فى التواضع، وفى رسالة من رسائله إلى أحد إخوانه تُظهر هذه الصفة جلية حيث يقول: «والذى أوصى به نفسى وإخوانى هو تقوى الله، وصية الله فى الذين خلوا من قبل: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ [النساء: ١٣١]؛ باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات...»[٥].

خامسًا: عفته:

من الصفات البارزة فى شخصية ابن السنوسى: العفة والترفع عما فى أيدى الغير، فعندما حجت إلى مكة والدة عباس باشا حفيد محمد علىّ باشا حاكم مصر، وسمعت بتقوى ابن السنوسى وولايته، ذهبت لزيارته فى الزاوية فلم تجده، ووجدت الشيخ عبد الله التواتى، فسألته: أنت الشيخ؟ فأجابها: بالنفى، وأخبرها أن الشيخ فى الطائف؛ فقصدت الطائف وطلبت مقابلته

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص ٢٦).
(٢) انظر: السنوسى الكبير (١١).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٢٠).
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٢١).
(٥) انظر: السنوسى الكبير (٩١).

بإلحاح؛ فقابلها على مضض؛ فحدثته عن ابنها عباس وكيف يضطهده عمه إبراهيم باشا، وكيف أنها تخشى عليه من عمه؛ ثم سألته أن يدعو لابنها فدعا له بالتوفيق؛ فرغبت هى أن تقدم لابن السنوسى هدية فمدت له صرة مملوءة ذهبًا فرفضها؛ فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ شيئًا، وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على التواتى فى زاوية أبى قيس؛ فعادت إلى مكة وقدمتها للتواتى، فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض، ولما ألحت طلب منها أن توزعها على الفقراء؛ لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة، وعندما عادت إلى مصر توفى محمد على وإبراهيم فى سنة واحدة؛ فخلا كرسى الولاية واحتله ولدها[(١)]، وقد ربى ابن السنوسى أتباعه على العفة والترفع عما فى أيدى الناس، وقد ذكرت قصة مرتضى فركاش وحسين الغريانى مع البدو الذين أهدوا إليهما إبلاً وبقرًا وغنمًا، وكيف ردها ابن السنوسى وبين لهم: أن مهمة بعثاتنا تنحصر فى تلقين قواعد الدين، والتعريف به، لا أن تقبل الهدايا والهبات والتبرعات. وطلب منهم ألا يرهقوا البدو حتى بتكاليف الضيف، وكان يزود الدعاة بجميع ما يلزمهم[(٢)]، وكان يحث إخوانه من العلماء والشيوخ والدعاة، أن يتعلقوا بالله وحده حيث يقول: «. . . . وورد: من أحب شيئًا كان له عبداً، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. وفى الحكم: ما أحببت شيئًا إلا وكنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، وإياك أن تطلب على عملك جزاء آجلاً أو عاجلاً، فيكون درى يقينك فى الله آفلا، أو تشهد أن لك فى ذلك العمل أثرًا، فتشرك بخالق القُوى والقُدَر؛ فإن الإخلاص له مراتب، فرتبة إخلاص العوام: عدم طلب الثناء والسمعة، ورتبة إخلاص الخواص: عدم طلب الجزاء الآجل أو المقدمات المرتفعة، ورتبة إخلاص خواص الخواص: التبرى من الحول والقوة. . .»[(٣)].

لقد كان ابن السنوسى يحذر من الانكسار فى حب الدراهم والدينار، وكان يريد من إخوانه أن يتجردوا فى أعمالهم ويجعلوها لله وحده.

سادسًا: قوة الحجة والقدرة على الإقناع والمناظرة:

عندما وجه على عشقر -والى طرابلس- اتهاماته لابن السنوسى، استطاع ابن السنوسى أن يبدد جميع الاتهامات، وطلب من الوالى العثمانى أن يجمعه مع العلماء فى طرابلس، وتألف مجلس الوالى من كبار العلماء، منهم: أحمد المقرحى، وكان من أبرز العلماء وأقربهم مكانة عند الوالى العثمانى، والشيخ القزيرى البنغازى، وأخذ أعضاء المجلس العلمى يناقشون ابن

(١) انظر: الحركة السنوسية (ص ٩٧).
(٢) انظر: السنوسى الكبير (٨٧).
(٣) انظر: السنوسى الكبير (٨٩).

السنوسى، وجاء رده حاسمًا وشاملاً، بل ومحرجًا لبعض العلماء، فأيقنوا أنهم أمام محيط من العلوم الراسخة، والحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ومن ذلك الحين انضم الشيخ أحمد المقرحى، والشيخ علىّ القزيرى إلى الإخوان وتجردوا لخدمة الحركة السنوسية، وانضم أيضًا الوالى علىّ عشقر وأصبح من أتباع الطريقة السنوسية(١).

وكان من أساليبه فى الإقناع، ضرب الأمثلة العملية الحية، وكان ذات مرة فى مجلسه بمكة يحف به بعض الزوار، فدخل شخص أجنبى له مظهره الملفت للنظر، وحيا الحاضرين ثم وجه سؤالاً علميًا معقدًا إلى ابن السنوسى، وكأنه يريد منه التعجيز، وكان ابن السنوسى مشغولاً بعمل باشره، وطلب السائل سرعة الجواب بصورة لفتت نظر الحاضرين، ففهم ابن السنوسى السائل وطمأنه بسرعة الإجابة، واستدعى تلميذه عبد الله التواتى، وكان يقوم بنصيبه فى العمل، وكان يومها يوقم بـ«عجن الطين» أثناء القيام بعملية بناء زاوية مكة، وكان يرتدى لباس العمال، ولما استدعاه ابن السنوسى جاء مسرعًا بملابس العمل، وقد علق الطين الذى كان يقوم بعجنه فى رجليه وهندامه، فقال له ابن السنوسى أجب سائلنا هذا عن سؤاله كذا وكذا، واسترسل عبد الله فى الإجابة الشاملة من ذاكرته، ولم يترك ثغرة فى السؤال، وجاء بمختلف الأقوال فى المسألة، ثم ردها إلى حقيقتها، فتعجب الناس، وتحير السائل ثم اقتنع وقال: لا يصح أن يكون مثل هذا الرجل الفاضل عاملاً، وبهذه الصورة، فمن حقه أن يتصدر المجالس، فأجابه ابن السنوسى بقوله: إن جماعتنا كلهم على هذا الغرار، ومن لم يصل منهم إلى هذا المستوى فهو فى طريقه إليه، وهذا العمل الذى تعيبه عليهم لم يكن معيبًا لهم أو لينقص من شأنهم وقيمتهم، إنهم يعملون كما يأمر الإسلام لرفعة شأن المسلمين، وإننا نعدهم لمجد الإسلام ولرفعة شأنه، فاعتذر السائل على ما ظهر منه(٢).

سابعًا: شعور بالمسئولية:

كان ابن السنوسى يستشعر مسئوليته وواجبه المنوط به نحو عباد الله والأمانة التى تحملها لهدايتهم وإرشادهم، فكان ذلك دافعًا له للقيام بواجبه وأداء رسالته، وكانت هذه الصفة واضحة فى شخصيته، وكان يستشعر بأنه مأمور بواجب الدعوة إلى الله، وفى خطواته التى سار عليها. وشعوره بهذه الصفة، جعله لا يعرف المستحيل، وكان لا يأمر بأمر إلا وقد نفذه على نفسه، وكان يقول لإخوانه: ليس هناك على همة العالمين ما يسمونه مستحيلاً إذا ما أخلصوا فى عملهم

(١) انظر: السنوسى الكبير (١٠٤).

(٢) انظر: السنوسى الكبير (٩٨، ٩٩).

وصدقت عزيمتهم، واتخذوا من القرآن الكريم دليلاً، وعرفوا معانيه وتدبروها كما يجب أن يتدبروها[1].

ثامنًا: حليته:

كان أزهر اللون مدور الوجه أقنى الأنف خفيف العارضين واللحية، أشقر الشعر معتدل القامة، رقيق الحاجبين، أزجهما، واسع الثغر، فصيح اللسان، جهورى الصوت مع رقة فيه، واسع العينين، وفى إحداهما انكسار لا يكاد يظهر، طويل العنق، عريض الصدر والمنكبين من رآه مرة هابه، وإذا خالطه وكلمه ألفه وأحبه[2].

تاسعًا: هوايته:

كان يهوى اقتناء الخيل، ويحسن ركوبها، إلى درجة عالية من المهارة، وكان يستطيع التقاط بعض الشيء من الأرض من على ظهر الجواد فى أثناء عدوه، كما كان يستطيع الوقوف على رجليه وعلى رأسه على ظهر الجواد أثناء عدوه، ويستطيع إصابة ما يريده من المرمى، وكان يشجع أتباعه وإخوانه على تعلم الفروسية ويقول لهم: إن ذلك من صميم السُّنَّة[3].

وفاته:

كان ابن السنوسى يشعر بالمرض منذ مرة، وكان يصارعه بالصبر، وقوة العزيمة، فلم يركن للراحة، ويخضع لوطأة المرض، وشرع فى إتمام ما عزم على إقامته، وحاول أن يتغلب على المتاعب والأمراض، وكان يمهد الأمور لتولى ابنه محمد المهدى أمر زعامة الحركة السنوسية، ونجح فى ذلك وأقنع الإخوان وزعماء القبائل بذلك، واشتد عليه المرض فى شهر شعبان (١٢٧٥هـ) حتى صار يغيب عن إحساسه، وكان يقول: «أهل الله حمّلونا شيئًا كثيرًا لو نزل على الجبال الراسيات لما أطاقته»[4]. ثم ارتفع بعد ذلك المرض منتصف محرم عام ستة وسبعين، ثم تزايد عليه الألم والأسقام، وصار يغيب أحيانًا، ويفيق أحيانًا إلى أن دعاه مولاه يوم الأربعاء من صفر الخير بعد طلوع الشمس[5]، وهكذا انتقل إلى جوار ربه.

وقبل الدفن اجتمع الإخوان فى المسجد يوم الخميس، وقام فيهم عمران بن بركة خطيبًا فألقى كلمة قال فيها: «. . . حمدًا لمن قضى على جميع العباد بالموت، وسدد سهمه للإصابة فى جميع الوقت، فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص، ولا محيد عن الوقوع فى شركه ولا خلاص،

---

(١) انظر: السنوسى الكبير (١١٧). (٢، ٣) انظر: الفوائد الجليلة (١/ ٨٩).
(٤، ٥) انظر: الحركة السنوسية (ص ١٢٤).

فلم ينج منه أمير ولا وزير، ولا غني ولا فقير، ولا شريف ولا وضيع، ولا دنيء ولا رفيع، حكم بذلك على سائر رسله وأنبيائه وأهل حضرته من أصفيائه وأوليائه، وعلى الموت نفسه بعد إبقاء المقادير بالموت فلا محيص عنه ولا فوت، وجعله منة يقتدى بها من أسرار الأكدار وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار»(١).

وبعد أن دُفن ابن السنوسي -رحمه الله- تولى أمر الحركة ابنه من بعده «محمد المهدى» فقام بإرسال خبر وفاة ابن السنوسي إلى شيوخ الزوايا في مختلف الأقطار، وكان فيها: «. . . إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدى ابن السيد محمد بن عليّ السنوسي الخطابي الحسن الإدريسي إلى الأجلاء والأبرار الأصفياء، الأخيار، أخينا السيد محمد بن إبراهيم الغماري وأخينا إسماعيل بن رمضان، وأخينا وهبة، وجميع إخواننا أهل مكة سلمهم الله آمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته، ومرضاته وبعد، فقد وصلتنا كتبكم التي أرسلت باسم الوالد رحمه الله تعالى وسقى ثراه وأكرم نُزله ومثواه، وكنا قبل هذا أرسلنا إليكم كتبنا وأخبرناكم فيها بما قدره الله وقضاه وأبرمه في أزله وأمضاه ونسأله تعالى أن يجعلنا من عباده الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

واستطرد محمد المهدى في رسالته إلى أن قال: كونوا على ما كنتم عليه من الدلالة على الله تعالى بالحال وبالمقال، وصابروا، ورابطوا، وتواصوا بالصبر، واذكروا عباد الله فيه وجاهدوا في الله حق جهاده، وكونوا يدًا واحدة على من سواكم، وفي الله إخوانًا، وعلى البر والتقوى أعوانًا، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وسلموا منا على جميع الإخوان والمحبين من أهل مكة والمعابد والوادي والطائف وغيرهم»(٢).

هذا ما استطعت جمعه وتلخيصه عن ابن السنوسي رحمه الله تعالى، وما أردت بالكتابة عن حياته إلا إحياء سير المصلحين والدعاة العاملين، والعلماء الراسخين، لتعلم الأجيال الصاعدة أن لها تاريخًا عريقًا ضاربًا في أعماق الزمن يزخر بأمجاد الإسلام، وأن ابن السنوسي ممن واصلوا نهج الصحابة والتابعين في الدعوة إلى الله، وأن سيرته ليست عنا ببعيدة. لعل هذه الصفحات المشرقة تصل إلى قلوب دعاة الإسلام في ليبيا، وفي الأمة، فيقتبسوا من سيرته ما يحثهم على مواصلة السير لدعوة الله والجهاد في سبيله، وما أردت

(١) انظر: الحركة السنوسية (ص ١٢٤).
(٢) انظر: السنوسي الكبير (١٣٨).

بذلك إلا وجه الله تعالى هو حسبى عليه توكلت وإليه أنبت. انتهيت من هذه الترجمة فى العشر الأواخر من شهر رمضان، فاستبشرت بذلك خيراً، وتذكرت رؤيا رأيتها عندما كنت فى المعتقل السياسى بطرابلس الغرب عام (١٩٣٨م) حيث رأيت ابن السنوسى فى منامى وقدم لى كأسًا مملوءة بالحليب فشربته، فإنى أحمد الله على أن وفقنى لكتابة هذا الكتاب، والفضل لله وحده من قبل ومن بعد.



الجزء الثاني

سيرة الزعيمين

محمد المهدي السنوسي وأحمد الشريف



مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠) يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

هذا هو الجزء الثانى من الكتاب يتحدث عن الحركة السنوسية فى ليبيا، وقد أسميته: [الحركة السنوسية فى ليبيا وسيرة الزعيمين محمد المهدى وأحمد الشريف].

إن غربلة التاريخ وحفظه من التزوير، وكشف الأكاذيب التى دسها أصحاب الأغراض الخبيثة الذين عملوا على تشويهه، وتزويره، وتشكيك الأجيال فى سير أبطالهم وقدوتهم.. لعبادة عظيمة يحبها المولى عز وجل الذى من أسمائه الحسنى العدل، والحق. إن الأبناء يحفظون لزعماء بلادهم، وصانعى تاريخها، أعمالهم العظيمة وجهادهم الشاق، ودعوتهم المخلصة مع الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر: ١٠].

لقد اطلع مجموعة من المفكرين والمختصين بشئون الدعوة، والمهتمين بأمر التاريخ على سيرة الإمام محمد بن علىّ السنوسى فنالت إعجابهم، وأشادوا بالأسس التى قامت عليها الحركة السنوسية من إيمان عميق وإخلاص لله، وعلم غزير، وجهاد متواصل. وأشاروا إلى أهمية نشر مثل هذه المعلومات؛ لأنها تساهم فى توعية الأجيال بحقائق مهمة فى مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وفى هذا الجزء من هذه الدراسة نحاول أن نتعرف على سيرة إمامين من أئمة الدعوة السنوسية؛ محمد المهدى السنوسى، وأحمد الشريف السنوسى.

فالإمام محمد المهدى يعتبر الزعيم الثانى للحركة السنوسية وكانت سيرته مليئة بالدروس والعبر والعظات، وتوسعت الحركة فى زمنه أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه، وحققت انتصارات عظيمة للإسلام فى إفريقيا، بسبب إخلاصه لله، وصدقه فى الدعوة، وتفانيه فى العمل، وشجاعته النادرة، ورجولته الصادقة، وسيره الرشيد المستمد من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. لقد نمت الحركة السنوسية فى عهد المهدى حتى بلغت ذروة نموها وانتشارها، وكانت فترة قيادته أكثر من أربعين عامًا، فكانت هذه المدة الطويلة فترة استقرار وانتشار للدعوة، ويمكن تسميتها بالعصر الذهبى للدعوة السنوسية.

وكان المهدى بعيد النظر، سديد الرأى، شديد العزم على إتمام البناء الذى شيده والده ابن السنوسى، فواصل مسيرة والده فى إنشاء الزوايا، وإرسال الدعاة والعلماء إلى قبائل إفريقيا، فدخلوا النيجر والكونغو والكاميرون وجهات بحيرة تشاد، وعمل على ذيوع الدعوة عن طريق واداى، وبرنوا، وكانم، والداهومى وغيرها.

لقد تغلغلت الحركة السنوسية بقيادة المهدى السنوسى فى قلب إفريقيا من البحر المتوسط شمالاً، إلى قلب السودان الغربى جنوبًا حيث كانت تنتشر الوثنية، وبتوفيق الله تعالى -ثم هذه الجهود العظيمة- دخل عدد كبير من الزنوج فى الدين الإسلامى، وخرجت عدة قبائل وثنية من مهاوى الكفر بدرجة لا يتصورها العقل.

لقد بسطت الحركة السنوسية فى زمن المهدى سلطانها الروحى على أقاليم كثيرة فى إفريقيا، وحققت نجاحات كبيرة فى أوساطها، وفى قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة كأداء فى طريق الرسالات المسيحية التنصيرية، التى وجدت فى أتباع السنوسية خصومًا عنيدين، عطلوا عليها لدرجة بعيدة.

لقد كانت سيرة محمد المهدى السنوسى، روحها إيمان عميق بالله، وحب شديد لدعوته الخالدة، ورغبة أكيدة فى الشهادة فى سبيله، وجهاد مجيد لأعداء الإسلام، وصبر لا ينفد فى مجال الدعوة ومجالدة دول الاستعمار بالبناء المتين، والتربية الشاملة، والإعداد المتوازن فى جميع المجالات.

لقد اتصف محمد المهدى بصفات القادة الربانيين، من سلامة المعتقد، والعلم الشرعى، والثقة بالله، والقدوة الحسنة، والصدق، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية،

وحُسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول النصح، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم، وإعداد القادة وإيمان بالله عظيم.

لقد انعكست ثمار الإيمان بالله على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى فى أعماله وسكناته وأحواله، واستطاع بتوفيق الله تعالى الانتقال بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ورؤية واضحة، ومعرفة حقيقية للظروف المحلية والإقليمية والدولية التى تحيط به.

إن هذا الجهد المتواضع يحاول أن يجيب القارئ الكريم عن كثير من الأسئلة التى تتعلق بسيرة محمد المهدى السنوسى: كيف طلب العلم؟ وكيف تولى زعامة الحركة؟ وهل كان له مجلس شورى؟ وهل تطورت مؤسسات الحركة السنوسية فى عهده؟ وما أسباب نمو هذه الحركة؟ وهل كان هناك اهتمام خاص فى زمنه بالمنهج التربوى الجهادى؟ ولماذا هذا الاهتمام؟ وما موقف الدول الأوروبية من الحركة السنوسية؟ وما موقف محمد المهدى السنوسى من الثورة العُرابية فى مصر، وثورة محمد أحمد فى السودان؟ وما موقفه من الدولة العثمانية؟ وفكرة الجامعة الإسلامية، وما الأهداف من رحلاته وانتقالاته إلى الكفرة ثم قرو؟ وما حقيقة الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية؟

أما سيرة الزعيم الثالث للحركة السنوسية السيد أحمد الشريف السنوسى، فيجد القارئ شيئًا منها فى هذا الكتاب الذى يحاول أن يعرّف أبناء الأمة عمومًا وليبيا خصوصًا بهذا السيد الصنديد والعالم الجليل، والعابد الخاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين بقصته الدعوية، وسيرته الجهادية، وأعماله البطولية سواء ضد فرنسا فى تشاد والنيجر ومالى وجنوب الجزائر عبر الصحراء الكبرى، أو ضد إيطاليا فى ليبيا أو بريطانيا فى مصر. لقد قال فى حقه الشيخ الطاهر الزاوى: «فالسيد أحمد رجل صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفّت نفسه، وكبرت همته، وانكمشت يده عما للناس فيه حق أو شبه حق، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسن الناس بمدحه والثناء عليه».

وقال فيه شكيب أرسلان: «.. فالسيد أحمد الشريف السنوسى هو خاتمة مجاهدى الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستانى الذى قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبدالقادر الجزائرى الذى ناهز فرنسا ٢٧ سنة، وتبعه فى الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابى الريفى الذى كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة توافق فيها دولتى فرنسا وإسبانيا معًا وجهًا لوجه وزلزلتا فى حربه زلزالاً شديدًا، ولولا السيد أحمد الشريف -رحمه الله- لكانت

استصفت قطرى طرابلس وبرقة من الشهر الأول. . . . ». وقال أيضًا: «. . . ولم يكن فى قلبه شىء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم الفانى لا يوازى عنده جناح بعوضة فى جانب الواجب الإسلامى، وهذا الرجل هو السيد السنوسى الكبير الذى لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئًا ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحدًا، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائدًا من قواده». وقال أيضًا: «. . . إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هى بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه وزهده فى الدنيا وحبه لمعالى الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومواساته للفقراء وحنانه على الضعفاء، وشدته مع ذلك فى الدين، وانحصار كل همومه فى استتباب أمر المسلمين ومحافظته على الفرائض والسُنن وغير ذلك من الأخلاق العالية، والهمم الشماء والمنازل القعساء. . . علم ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام، بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام. . . ». وقال فى حقه أيضًا: «. . . ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابنى: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر فى أمرهم، إنما يهمنى أمر هذه الأمة فى طرابلس، وكان فى قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان فى إيمانه فى ثبات الجبال، وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام. . . ».

وقال عنه أنور باشا القائد التركى المشهور فى جهاده ببرقة: «. . . رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لى كرمز للصداقة؛ لأنه الشخص الوحيد الذى يتمتع بتأثير سلبى أو إيجابى فى هذه الحرب. . . ».

فى هذا الكتاب سيجد القارئ ما قاله المؤرخون فى حق أحمد الشريف، وهل هو صواب أم خطأ، ويجد إجابات لكثير من الأسئلة المتعلقة بسيرته: كيف تولى أحمد الشريف زعامة الحركة السنوسية؟ وهل خاض بنفسه الحروب ضد فرنسا؟ ومن هم القادة الذين كانوا معه؟ وما موقفه من الغزو الإيطالى؟ وهل وقف مع الأتراك ضد الغزو؟ وهل وافق على الصلح الذى تم بين تركيا وإيطاليا؟ وما موقف الزوايا السنوسية من الاحتلال الإيطالى؟ وهل تفاعل العالم الإسلامى مع جهاد ليبيا؟ وهل دخول أحمد الشريف فى حرب بريطانيا فى الأراضى المصرية كان صحيحًا من الناحية العسكرية والسياسية؟ وما أسباب هزيمة أحمد الشريف أمام بريطانيا فى الجبهة الشرقية؟

وما حقيقة الخلاف بين إدريس السنوسى، وأحمد الشريف؟ وما آثار حملته ضد بريطانيا على حركة الجهاد؟ وما الأسباب الرئيسية فى سفره إلى تركيا؟ وكيف ومتى وصل إلى تركيا؟ وما موقفه من مصطفى كمال؟ وهل عرض عليه مصطفى كمال منصب نيابة الخليفة؟ وهل شارك فى جهاد الأتراك ضد اليونان؟ ولماذا طرده مصطفى كمال من تركيا؟ وإلى أين هاجر؟ وكيف كان استقبال الملك عبد العزيز آل سعود له؟ ومتى توفى؟

نعم أسئلة كثيرة يحاول الكاتب أن يجيب عنها فى هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

لقد وفقنى الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيرًا فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فإنى عنه راجع إن تبين لى ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأننى قد استفدت كثيرًا من الجهود التى سبقتنى، ككتاب «الحركة الوطنية فى شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى لمصطفى علىّ هويدى، و«جهاد الأبطال» للشيخ طاهر الزاوى، و«حركة الجامعة الإسلامية» لأحمد فهد الشوابكة، و«الغزو الإيطالى لليبيا» لعبد المنصف البورى، و«تاريخ ليبيا المعاصر» لمحمود عامر، و«حروب البلقان» لعايض الروقى، و«برقة العربية» لمحمد الطيب الأشهب، و«المهدى السنوسى» لمحمد الطيب الأشهب، و«الحركة السنوسية» للدجانى، و«الفوائد الجلية فى تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علىّ، وغيرها من الكتب. وقد دوّنت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه فى هامش الكتاب للأمانة العلمية، واعترافًا بجهود الذين سبقوا، كما أننى انتهجت منهجًا دعوياً تاريخيًا يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، مساهمة منى فى علاج الهزيمة النفسية التى يمر بها شعبنا المظلوم، ومتضرعًا لله تعالى الحى القيوم أن يحيى شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن وسُنَّة سيد الخلق أجمعين.

إن هاتين السيرتين العطرتين تبيان لمسلمى ليبيا، أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال وعاشوا للذود عن الإسلام ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال والغالى والثمين من أجل دينهم وعقيدتهم وإسلامهم، كما تعطى الأمل فى نفوس أبناء شعبنا بأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها فى شعبنا من زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها.

هذا وقد قمت بتقسيم الجزء الثانى فى السلسلة التاريخية إلى مقدمة وفصلين، وهى كالآتى:

الفصل الأول: محمد المهدى:

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، وموقفه.

المبحث الثانى: موقف محمد المهدى السنوسى والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية.

المبحث الثالث: رحلة المهدى السنوسى إلى الكفرة وقرو.

الفصل الثانى: الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف:

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: ولادته وتربيته وشيوخه.

المبحث الثانى: توليه قيادة الحركة.

المبحث الثالث: الغزو الإيطالى.

المبحث الرابع: الجهاد فى برقة.

المبحث الخامس: الحرب العالمية الأولى.

المبحث السادس: وصول أحمد الشريف إلى تركيا.

وأخيراً:

أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهاد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه فى صالح دعواته.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

على محمد محمد الصلابى

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول:

محمد المهدى السنوسى

المبحث الأول

اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه

أولاً: اسمه وولادته وشيوخه:

هو محمد المهدى بن محمد بن علىّ السنوسى، وُلد فى الجبل الأخضر فى ليبيا فى محل يُقال له «ماسة» يقع بجانب زاوية البيضاء، فى شهر ذى القعدة عام (١٢٦٠هـ) الموافق نوفمبر (١٨٤٤م)(١).

ويذكر أحمد الشريف فى تاريخه: «أن ابن السنوسى كان فى درنة عند ولادة ابنه المهدى، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم، فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية قال: كان رجل يخرز طبلاً فمر به جماعة وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته، ثم قال لحميه أحمد بن فرج الله: هذا المولود الذى ازداد على ابنتك يقف موقفًا يجرى فيه الدم مجرى الماء فى الوادى، وكتب لعمران بتسميته محمد المهدى وقال: أسميناه المهدى ليحوز إن شاء الله أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهديًا(٢). لقد كان مجيء الولد لابن السنوسى بعدما تقدمت به السن، وكان الإخوان السنوسيون يتمنون من الله أن يرزق شيخهم مولودًا مباركًا، ولذلك كانت فرحة الإخوان وابن السنوسى بهذا المولود عظيمة، وسارع عمران بن بركة لزف البشرى لوالده، لإدخال السرور على قلبه، وبعد مدة أرسل ابن السنوسى إلى زوجته بالقدوم إلى درنة، وسلم ابنه للمرضعة، وكان سرور ابن السنوسى عظيمًا، وكان يرى أن ابنه المهدى سيخلفه بالدعوة ويكمل ما بدأه هو من أعمال، ومكث ابن السنوسى فى درنة بجانب أهله إلى أن ولد ابنه الثانى سنة (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)، وعندما كتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثانى رد له الجواب بتسميته الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبى ﷺ وإنما يختلفون فى الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمد المهدى ليحوز أنواع الهداية فسمِّ هذا محمد الشريف ليحوز أنواع الشرف، ثم شرّق للحجاز»(٣).

(١) الحركة السنوسية (ص ١٦٩).
(٢) السنوسى الكبير (ص ٣٤).
(٣) أحمد الشريف، المخطوط (ص ٣٤).

وأسند أمر تربية أولاده للإخوان، وكان المسئول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة، وكان يتابع أخبار ولديه في برقة وعندما أتم المهدى الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للإخوان الكافلين له قائلاً: أدخلوه الكتَّاب وعلِّموه الوضوء والصلاة، ففعلوا كما أمر[1].

وبعد أن أتم السنة السادسة من عمره أدخله المدرسة القرآنية تحت إشراف العلامة عمران بن بركة الفيتورى، وفي منتصف السنة السابعة من عمره، حفظ جميع القرآن الكريم.

وكان علماء الحركة السنوسية يعلِّمون أولادهم كتاب الله، ويشجعونهم على حفظه، مقتدين في فعلهم بفصل الصحابة ﷺ مع أولادهم، وبأقوال العلماء في هذا الباب:

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشأون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال»[2].

وأكد ابن خلدون هذا المفهوم بقوله: «تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى شعار القلوب من رسوخ التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات»[3].

وبعد أن سمع والده بحفظ ابنه للقرآن الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر، وفي سنة (١٢٧٤هـ) رجع محمد المهدى إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبدالرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدى تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

وكان ابن السنوسي يتابع بعناية فائقة أقوال وأفعال ابنه، يوجهه للصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة. وكان محمد المهدى منذ طفولته يتميز بالذكاء، وحُسن الخُلق، والتربية الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة؛ جيء للسيد المهدى في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدى لا يزال صغيرًا بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله بدون واسطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئًا ليصعد المهدى على كتفيه حتى تصل رجله إلى الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدى أن تطأ رجله كتفيْ الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضًا باتًا، وأخذ يقود جواده إلى أن

---

(١) الحركة السنوسية (ص ١٧٠).

(٢) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور (ص ١٠٤).

(٣) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور (ص ١٠٥).

اقترب من حجر عال مثبت بالأرض فعلاه، وبذلك تمكن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج، فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين[١].

«وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه فكانوا يبدون إعجابهم»[٢].

وفى السنتين الأخيرتين من حياة ابن السنوسى اهتم بتوطيد مركز ابنه المهدى بين الإخوان، وألقى الأضواء عليه، وعمل على رفع شأنه.

نقل عن الشيخ عمر الفضل -رحمه الله- قوله: جاء السيد المهدى بـ «لوحة» إلى والده ابن السنوسى يريد أن يبدأ له فيه «بالافتتاح» فلما فرغ من كتابته قال له: اشهد لنا بأننا خدمناك»[٣].

وكان ابن السنوسى يقف احترامًا للمهدى عندما يستأذنه للخروج، وأنه أصلح له حذاءه مرة وقال للإخوان: اشهدوا أننى خدمت المهدى، فخجل ابنه وتبللت ملابسه بالعرق واحمر وجهه حياءً حتى قيل: إنه أصيب بنوع من الحمى[٤].

وقال فى إحدى المناسبات: «المهدى له السيف، والشريف له الكتاب، ثم ألبسه السيف وقال له: تقدم لتصلى بنا»[٥].

وحرص ابن السنوسى على أن يزوج ابنه المهدى فى حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمر بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م)، وقد أنجبت للمهدى عدة أولاد وتوفيت فى حياته سنة (١٨٩١م)[٦].

ثانيا: مبايعته:

عندما توفى ابن السنوسى فى صفر عام (١٢٧٦هـ) كانت سن محمد المهدى حوالى ست عشرة سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ فى الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم: عمران بن بركة، وأحمد الريفى، وعلىّ بن عبد المولى، ومحمد المدنى التلمسانى، ومحمد بن حسن البسكرى، وعبد المتعال الإدريسى، وأحمد أبو القاسم التواتى، أبو القاسم العيساوى، وعمر الأشهب، محمد بن الشفيع، مصطفى المحجوب، عبد الرحيم المحجوب، عمر

(١) انظر: السنوسى الكبير (ص ١٣٥).
(٢) الحركة السنوسية (ص ١٧٢).
(٣، ٤) انظر: السنوسى الكبير، (ص ١٣٦).
(٥) الحركة السنوسية (ص ١٧١). (٦) الحركة السنوسية (ص ١٧٦).

الفضيل، محمد السكورى، أحمد أبو سيف، محمد بن الصادق الطائفى، أبو سيف مقرب، ومحمد بن إبراهيم الغمارى، عبد الله السنى، المرتضى فركاش، حسين الغريانى، فالح الظاهرى، فقدموا لمحمد المهدى وشقيقه محمد الشريف واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدى قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه ألا يتهاونوا بواجب الأمانة التى تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح فى سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسى[١] -رحمه الله تعالى-، وقد بيّن عمران بن بركة فى خطبة تأبين ابن السنوسى هذه البيعة فى قوله: «. . . وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدى ومولاى السيد محمد المهدى. . .»[٢].

ثالثًا: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة:

كون الإمام المهدى السنوسى مجلسًا أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران بن بركة، وأحمد الريفى، وعلىّ بن عبد المولى، وفالح الظاهرى، عبد الرحيم المحبوب، محمد المدنى التلمسانى، محمد بن الحسن البسكرى، وسيف مقرب[٣]. وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذى قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا فى برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنويًا فى الجغبوب للنظر فى أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسى، ثم تُعرض قراراته على الإمام المهدى للموافقة عليها أو تعديلها بما يبدو له أو رفضها. أما المجلس الخاص فيتكون من كبار الإخوان المقيمين فى الجغبوب، فيعقد جلساته يوميًا بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس وهو يشكل قيادة للحركة، وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفى بمثابة رئيس للوزراء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدى، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلىّ بن عبد المولى -حاكم الجغبوب- بمثابة وزير داخلية ومالية فى وقت واحد إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، محمد المدنى بمثابة وزير الشئون الاجتماعية، ومحمد الشريف بمثابة وزير المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام المهدى ورؤساء الزوايا، كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسئوليات أخرى وُزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القرآن وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين فى المدرستين القرآنية والعلمية، والإشراف على العمال وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ٣٠). (٢) الحركة السنوسية (ص ١٧٣).
(٣) انظر: المهدى السنوسى (ص ٣٥).

الجغبوبية ونظام توزيع الأرزاق «التموين»، واستلام الوارد وحفظه. وإلى جانب هذا النظام المحكم، هناك مجالس فرعية فى كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية فى ذلك الإقليم، للنظر فيما يتعلق باختصاصاتهم، والشئون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شئون الحركة[١].

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً فى الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغون حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما فى وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

واهتم الإمام المهدى بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمى والزراعى وانتظم سير العمل فى معهد الجغبوب، ووُزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورُتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التى يحتاجها الأهالى كالحدادة والنجارة. . . إلخ.

واستُصلحت مساحات من الأراضى وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة فى الصحراء، فكانت القوافل تمر منها فى رحلاتها بين الساحل الإفريقى والصحراء، وبين مصر والمغرب، كما كانت قبلة وفود القبائل التى تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل فى الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذى سادها وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدى ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل فى طريقها، أو ينقلها فى بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم الحركة للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركة والإخوان[٢]، وكانت الزوايا تقوم بدورها فى جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد فى الحركة السنوسية فى عهد الإمام المهدى ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب وكان ترتيبه على الوجه الآتى:

- **بريد خاص بزوايا طرابلس.**
- **بريد خاص بزوايا برقة.**
- **بريد خاص بزوايا مصر.**

---

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ٣٥).

(٢) الحركة السنوسية (ص ١٨٠).

● بريد خاص بزوايا السودان.

وكثيراً ما يصل البريد بواسطة قوافل الزوار والتجار، وهذا عدا البريد المنظم والرسل الخاصين متى دعت الحالة، يصل البريد ببرقة إلى زاوية مسوس، وهذه تقوم بتوزيعه إلى زوايا برقة ويصل إلى زاوية جنزور أو العزيات، وهذه تقوم بتوزيعه على زوايا الجبل، ويصل البريد الخاص بطرابلس إلى إحدى زواياها -والمفهوم أنها سرت في المدة الأخيرة -وهذه تقوم بتوزيعه، كما أن البريد الخاص بزوايا واحات فزان يصل إلى زاوية «واو» وهي تقوم بتوزيعه، وتقوم إحدى هذه الزوايا بمهمة إرسال البريد العادى إلى زوايا الجزائر، إن لم يكن البريد مستعجلاً، وإلا يرسَل بصفة خاصة إلى زوايا السيد ابن تكوك رأسًا من الجغبوب والكفرة، ويصل البريد الخاص بزوايا مصر إلى سيوة وهناك يتولى مسئوليته ممثل السنوسيين بما فى ذلك بريد الحجاز، وإذا كان هذا مستعجلاً فتُتخذ له طريقة خاصة. أما إذا كان البريد خاصًا بزوايا خاصة فى أى جهة من الجهات، فيقوم به الساعى من الجغبوب رأسًا، وكل زاوية من الزوايا يحدث لها أمر من الأمور يدعو لمراسلة المركز العام، فيقوم منها ساعٍ مخصوص، ولا يكاد البريد يتأخر أكثر من شهر لأى جهة من الجهات؛ لكثرة القوافل، وتعاقب الزوار. أما البريد الخاص بالسودان، فعادة ما يكون مع سيل القوافل المنهمر ذهابًا وإيابًا، وهكذا كانت الأخبار تصل إلى عاصمة الحركة وتصدر منها التوجيهات والأوامر إلى جميع الزوايا وفى كل البلدان. وممن أشرف على سير بريد الحركة السنوسية من الإخوان: محمد السمالسوسى، عبد السلام الشرداخ، عبد الرسول الرتيوى، السنوسى التيتلى، عيسى التارقى، إبراهيم الشهيبى، علىّ السعيطى، حسين الهبرى، عبدالرحيم الفضيل، محمد البوعيثى(١).

وكان من يريد زيارة الإمام المهدى يذهب إلى الجغبوب، وهناك يخضع لنظام خاص متبع ترتبط إجراءاته بالسيد محمد البسكرى الذى يُعد بمثابة رئيس الديوان والتشريفاتى، فهو الذى يقوم بتحديد مواعيد الزيارة التى لا تكون إلا عن طريقه، ويصحب كبار الزائرين ويقف خلف زعيم الحركة السنوسية أثناء الزيارة سواء كانت الزيارة للعوام أو الخواص. أما إذا كان الزائر أو الزوار تابعين لأحد الزوايا، فعلى رئيس الزاوية -إن كان حاضراً -ترتيب هذه الزيارة مع محمد البسكرى، وقد جرت العادة بأن تكون زيارة الضيوف بعد تمام مدة الضيافة وهى ثلاثة أيام، إلا فى حالات استثنائية(٢).

(١) انظر: برقة الأمس واليوم (ص ٢١٢، ٢١٣).
(٢) الحركة السنوسية (ص ٤٥).

رابعا: نمو الحركة السنوسية وأسبابه:

نمت الحركة السنوسية فى عهد محمد المهدى نموًا كبيرًا، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا فى الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر وتونس، وفى واداى . . . وغيرها.

وكان من أسباب هذا النمو السريع؛ طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التى قضاها الزعيم الثانى فى قيادة الحركة (تجاوزت أربعين سنة)، فتمكن أثناءها من تركيز العمل الذى بدأه والده، وكان يقول: «إن والدى بدأ عملاً من المنتظر أن يأتى بنتائج عظيمة، وقد أخذت على عاتقى إتمامه، وليس علىَّ غرض آخر»[١]. وكانت سياسته الحكيمة تمنعه من الاحتكاك بالدولة العثمانية، أو الدول الأوروبية وحصر جُل اهتمامه بنشر الدعوة بين القبائل، وساعدته أخلاق رفيعة وصفات حميدة تحلى بها فى إقبال الناس على الحركة السنوسية، واحتل بها مكانة رفيعة فى قلوب الإخوان والأتباع ومؤيدى الدعوة، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبث العلوم فى أوساط القبائل متبعًا فى ذلك كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

لقد تحلى الإمام محمد المهدى بعلم وورع وتقوى، وشخصية جذابة، وبعد نظر، وثاقب فكر، ورأى صحيح، وعزم شديد، وحرص أكيد على إتمام البناء الذى شيده والده، والعمل بكل جهد وقوة من أجل نشر الدعوة بين أهل البلاد القريبة والبعيدة فى إفريقيا الوسطى خصوصًا حتى ذاع صيته، وتمكن السنوسيون بفضل الله تعالى ثم جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى، وأطرافها حتى جهات بحيرة تشاد وما يجاورها من إمارات إسلامية قديمة أو قبائل زنجية وثنية أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد[٢].

لقد دخلت عدة قبائل إفريقية فى الدعوة الإسلامية بفضل الله تعالى ثم جهود الحركة السنوسية، ومن أشهر القبائل التى استجابت لدعاة الحركة السنوسية: قبيلة بلى التى كانت على الوثنية، ووصلت الدعوة الإسلامية إلى شعب التيدا فى بلاد تيبستى بالصحراء الكبرى جنوب واحة فزان، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا فى إفريقيا ووصلوا إلى بلاد الجلا فى الحبشة، فيرسلون إليها فى كل عام من هَرَر، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير، وتكاد تجد كل الرؤساء منهم فى بلاط الأمير بلا استثناء، وكانت الحركة

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ١٣٤). (٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٥٨).

السنوسية تفتح المدارس وتبنى المساجد، والمراكز الإصلاحية وتشترى العبيد ثم يعلمونهم مبادئ الإسلام، ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعوا أقوامهم إلى الإسلام(١).

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة فى إفريقيا، وجددت الصلة معها ونسقت معها فى الدعوة وفى الجهاد ضد فرنسا، ومن أشهر هذه القبائل؛ أولاد سليمان، أولاد يعقوب، أولاد غنَّام، والمحافيظ، وغيرها كثير، وكانت قد استقر بعضها فى مالى، وتشاد، والنيجر، ونيجيريا، والكاميرون(٢).

وتمكن الإمام المهدى من أن يبنى علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية فى واداى، وبرقو، وكانم، وغيرها. واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبى الأوروبى فى إفريقيا ثم إعداد العدة لمكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا(٣).

وواصل المهدى السنوسى سيره فى فتح المراكز الإصلاحية والمدارس القرآنية وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإسلام، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام ودين الله، اشتهر منهم: العلامة محمد عبد الله السنى، والشيخ حمودة المقعاوى، وطاهر الدغمارى، وغيرهم كثير.

وقام المهدى بتقوية الصلات التجارية بين الزوايا وبين مراكز التجارة والأسواق المختلفة، ونتج عن ذلك استتباب الأمن فى هذه الربوع وانتشار الطمأنينة، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافى والصحارى من غير تردد، فظهرت بوادر العمران فى الطرق الصحراوية، وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار فى رحلاتهم وأسفارهم ويدعوا إلى الإسلام، ويقضوا على الوثنية، ويعطلوا أعمال التنصير الذى تدعمه الدول الأوروبية فى إفريقيا. وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيمًا فى أوساط إفريقيا مثل بلاد النيجر والكونغو، والكاميرون، وجهات بحيرة تشاد. وذاع خبر الحركة السنوسية فى إفريقيا من خلال طريق واداى وبرقو وكانم وأداموا والداهومى(٤) وغيرها. وبدأت الدول الأوروبية تشعر بخطر الحركة السنوسية، وشرعت فى حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها. لقد صُدمت الدول الأوروبية بالنتائج التى حققتها الحركة السنوسية،

---

(١) انظر: انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم (٤٩).

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا فى الصحراء الكبرى، محمد القشاط.

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٥٨).

(٤) انظر: السنوسية دين ودلة (ص ٦٠).

واشتاطت غضبًا وحقدًا على الإسلام، وهى ترى قبائل وثنية مثل: التبو، والبرقو، والندى تدخل طائعة مختارة فى الإسلام(١).

كان الدعاة السنوسيون يعملون بالليل والنهار، والسر والإعلان، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل دعوة الله تعالى، وكان بعضهم يترك أهله وأطفاله فى الجغبوب. وذات مرة دخلت السيدة صالحة البسكرية -أرملة ابن السنوسى -على محمد المهدى، وكان يجلّها ويحترمها، وقالت له: إن نساء الإخوان قد سئمن كثرة أسفار أزواجهن، وطول تغيبهم، وعدم استقرارهم، فابتسم وقال: إن الجهاد طويل وشاق، وإن العمل يتطلب الجد، والشىء الذى ينتظر إخواننا فى المستقبل أشق مما هم عليه الآن»(٢).

وكان الإمام المهدى مهتمًا بالبناء الداخلى للحركة؛ ولذلك أشرف بنفسه على إصلاح ذات البين بين القبائل. وكان يرى وحدة الصف والتربية الجهادية مهمة فى مواجهة المعارك القادمة ضد الإسلام.

وعندما اشتد النزاع بين قبائل الجبارنة وأولاد علىّ، ووصل إلى مرحلة أوشك القتال أن يندلع بينهم بسبب حادثة قتل جربوع بن الشيخ أبو سيف الكزة بمصر، وكان الشيخ أبو سيف بن أبى شنيف الكزة من الشخصيات الظاهرة بين شيوخ الجبارنة ومسموع الكلمة، وهو والد المقتول، فأصبح داعية كبرى لغزو أولاد علىّ، وأنشد قصيدة باللغة الشعبية مثيرة لما كمن من الأحقاد والضغائن مسعرة لشرار الغضب، ومذكية لنار الانتقام يستنجد بها جميع القبائل الموالية له أو التابعة والمرتبطة به -كما جرت العادات -ويحثهم فى قصيدته على الاستعداد لغزو أولاد علىّ وقتل رجالهم، وأخذ أموالهم، وسبى نسائهم.

وكاد الشيخ أبو سيف ينجح فيما أراده للغزو حيث لُبى طلبه وأخذت قبائل أولاد علىّ تستعد للمعركة، وأرسلت إلى الشيخ أبى سيف تدعوه للإسراع للقتال. وفى هذه الأثناء وصل كتاب من شيخ زاوية مسوس السنوسى الأشهب إلى الزعيم محمد المهدى يخبره بالأمر، فأرسل المهدى فى طلب الشيخ أبى سيف بسرعة، فامتثل الأخير أمر السيد المهدى فى الوقت الذى تقرر فيه الغزو وأرجأه إلى أن يعود من الجغبوب. ولما وصل الشيخ أبو سيف ومثل أمام يدى إمام الحركة السنوسية الذى أخذ ينصحه بالإقلاع عما عزم عليه، ويبين له حرمة هذا الفعل الجاهلى، فامتثل الشيخ أبو سيف أمر المهدى وأقلع عن فكرته وعاهد إمام الحركة بالعدول عنها وألا يعود لمثلها، بالرغم مما فى ذلك من المساس بكرامته وكرامة بنى قومه وسمعتهم التى يرون حفظها فى الأخذ

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ٥١). (٢) انظر: المهدى السنوسى (ص ٣٠).

بالثأر، ورجع الشيخ أبو سيف وبر بوعده وأمر قومه والنجدات التى استعدت لمساعدته بالرجوع إلى مواطنهم، وكتب إلى زعيم قبائل أولاد علىّ وبقية شيوخهم يخبرهم بالعدول عن رأيه وأن يكونوا فى مأمن من جهته لا خوفًا منهم ولا خشية من العاقبة، ولكن امتثالاً لأمر الشرع وطاعة لزعيم الحركة السنوسية(١).

وكان المهدى يحرص دائمًا على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالى والأخلاق الرفيعة. واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت فى قتال فرنسا، وبعد وفاته قاتلت إيطاليا.

لقد كرس المهدى جهوده للبناء الداخلى فى الحركة، واختط طريقًا سليمًا تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت فى السودان وفى مصر، وكذلك الدول الأوروبية.

خامسًا: المنهج التربوى الجهادى:

حرص الإمام المهدى على تعميق المنهج التربوى فى أتباع الحركة، وكان -رحمه الله- يدرك تمامًا أن العمل بأحكام القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة يقتضى وجود القوة والسلطان، ولذلك جعل من الزوايا مركزًا لتعليم الرماية أيضًا، فكان يحث الإخوان والأتباع على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم فى أعينهم فضيلة الجهاد. وكان المهدى يمتلك خمسين بندقية خاصة يعتنى بتنظيفها وإعدادها دائمًا بيده ولا يرضى بأن يؤدى هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصدًا وعمدًا؛ حتى يقتدى به الناس ويهتموا بأمر الجهاد ويحفلوا به(٢).

ونشطت الحركة السنوسية فى تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها. ورأى السلطان عبد الحميد الثانى فى الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعدادًا ماديًا ومعنويًا جيدًا يمكن استغلالها فى المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية فى شمال إفريقيا. وقد أعرب السلطان عبد الحميد عن ثقته بقوة الحركة السنوسية قائلاً: «وإذا كان هناك أحد عليه الدفاع عن حقوقنا، فهو الشيخ السنوسى؛ لأنه قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفًا من الرجال، ولن يتخلى عن بنغازى إلا بعد قتال، ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية. فإذا قام

(١) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، (ص ٢٠٥).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٦٠).

السنوسيون قومتهم، فلابد أن يجرّوا الإيطاليين إلى صراع دموى أشد مما شهدته السودان فى ثورة المهدى. لقد جهزنا السنوسى بمقدار كافٍ من الأسلحة والذخائر، فهم قوة لا يُستهان بهم أبدًا»(١).

كان هذا التصريح بعدما وصلت للسلطان عبد الحميد المخططات الإيطالية التى كانت تستهدف ليبيا، لأن إيطاليا كانت تحلم بضم شمال إفريقيا؛ لأنها تراه ميراثًا إيطاليًا، هكذا صرح رئيس وزرائها «ماتزينى»، لكن فرنسا احتلت تونس، وانجلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

واستطاعت مخابرات السلطان عبد الحميد الثانى أن تكشف سياسة إيطاليا فى ليبيا التى كانت على ثلاث مراحل:

١- الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

٢- العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا فى احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

٣- إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلى.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية فى ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون بخبث ودهاء شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظًا لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط إيطاليا فى ليبيا وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: «إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التى يقيمونها فى الولايات العثمانية، سواء فى ليبيا أو فى ألبانيا، هدفًا أخيرًا هو تحقيق أطماع إيطاليا فى الاستيلاء على كل من:

١- طرابلس الغرب.

٢- ألبانيا.

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير، الإسكندرونة، أنطاكيا.

وقام السلطان عبد الحميد الثانى باتخاذ التدابير اللازمة أمام أطماع إيطاليا، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطاليًا مسلحًا على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية فى ليبيا بـ«١٥,٠٠٠» جندى

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية (ص ١٤٧).

لتقويتها، وظل يقظًا حساسًا تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصيًا وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشئون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية فى روما ووالى طرابلس. مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك فى عهد جمعية الاتحاد والترقى، ولذلك حرص السلطان عبد الحميد على تقوية الحركة السنوسية ودعمها ماديًا ومعنويًا»(١).

لقد اهتمت الحركة السنوسية بإعداد أفرادها للجهاد فى سبيل الله ضد أوروبا الصليبية التى تهاجم ديار المسلمين فى كل مكان، وكانت وسائل التربية عند الحركة السنوسية: روحية، وفكرية، ونفسية، وجسدية، واجتماعية، ومالية. فكان اهتمام الحركة بالتربية الروحية عظيمًا، ولذلك تعلق أفراد الحركة السنوسية بالجنة، وحرصوا على رضى الله تعالى، وتعمقت مفاهيم القضاء والقدر فى نفوسهم، فأصبحوا لا يخافون إلا الله، فكانوا يتربون على قول رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله وشقى أو سعيد...»(٢).

فأجل المرء يُكتب وهو فى بطن أمه، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة المعالم فى فكر الحركة السنوسية، فأصبح أتباعها يؤدون واجبهم بكل شجاعة، وهم على يقين راسخ بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

ولقد التقيت بالشيخ الفاضل رئيس المحاكم الشرعية فى ليبيا سابقًا فى زمن المملكة الليبية، الشيخ منصور المحجوب بمكة المكرمة وحدثته عن حرصى على كتابة تاريخ الحركة السنوسية، فانساب فى ا لحديث عن رجالات الحركة وحبهم للإسلام، وتعلقهم بالآخرة وجهادهم ضد فرنسا، وذكر بعض المجاهدين، فعندما استعصى عليهم فتح حصن من الحصون التى احتلتها فرنسا بتشاد قاموا بحصاره وتأخر الفتح، أقسم أحد الإخوان السنوسيين إما الشهادة وإما الفتح، وانقض كالأسد بجواده على الحصن، وكان ذلك الهجوم سببًا فى الفتح. وفاضت عينا الشيخ منصور بالدموع، وشرع فى البكاء ثم قال: أولئك قوم عرفوا الله وعملوا بهذه المعرفة. ثم وجه

(١) انظر: الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، للمؤلف (ص ٦٨٦).
(٢) انظر: صحيح مسلم رقم (٢٦٤٣).

الخطاب إلىّ وقال لى: يا صلابى، اتق الله فى كتابتك، واعلم بأن الله سيحاسبك عليها يوم القيامة. وانتفضت من مكانى من شدة تأثير كلامه علىّ، وحثنى على الإخلاص والرغبة فيما عند الله، وقال لى: أنا الآن قد جاوزت السبعين من عمرى، وقد رأيت الكثير فى الدنيا. ورفع يده إلى فمه ثم نفخ فى كفه وقال: إن حقيقة هذه الدنيا مثل هذه النفخة.

إن الشيخ منصور المحجوب يعتبر من أتباع الحركة السنوسية، وقد تولى مناصب كبيرة من رئاسة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، وتولى رئاسة القضاء، وهو من مؤسسى رابطة العالم الإسلامى، وأخبرنى بأنه ماكث فى مكة ينتظر الوفاة حتى يُدفن فى الأراضى المقدسة.

إن الحركة السنوسية اهتمت بتربية أتباعها على الصلاة، والقيام، والصوم، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن الكريم الذى هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

إن من أعظم العبادات ومن أحسن الوسائل فى التربية الروحية التى سلكها السنوسيون هى تلاوة القرآن الكريم والتفقه فيه، والعمل به، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

إن القرآن العظيم يُطهر النفوس ويُحيى القلوب، ويغذى الأرواح، ويصل الأفراد بخالقهم العظيم سبحانه وتعالى. ولا تعجب أيها القارئ الكريم إذا علمت أن أحمد الشريف السنوسى القائد الثالث للحركة السنوسية -رحمه الله تعالى- كان يشترط فى حرسه الخاص حفظ القرآن الكريم، وأن التعاقب بين جنوده يُعرف عن طريق تلاوة الأجزاء من القرآن الكريم.

وكانت الحركة فى وسائلها التربوية لأتباعها تهتم بأخبار العالم الإسلامى وتوصيلها إلى الأتباع، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور. وكانت القوافل تتوغل فى الدول الإسلامية للتجارة، وتأتى بأخبار الإسلام والمسلمين والأعداء، وكانت تغذى أتباعها بالتربية الفكرية والنفسية للوقوف ضد أطماع النصارى الغزاة المجرمين، وكانت تهتم بالتربية الجسدية لأتباعها؛ ولذلك نجدهم يقطعون الفيافى والصحارى على الجمال، ثم يجاهدون الأعداء بعد قطع مئات الكيلو مترات، وقد وجدت فى سيرة عمر المختار -رحمه الله- أنه قطع على جواده ثلاثة أيام متواصلة ليلها بنهارها لفض النزاع بين عزيز المصرى -قائد ضباط الأتراك -وإحدى القبائل، وهذا يدل على لياقة بدنية عالية، وقوة بدنية متميزة.

كان المهدى السنوسى يسير بخطى ثابتة، ووفق أهداف مرسومة، ويستعد للمستقبل حيث بدأت الأطماع الفرنسية تتوغل فى إفريقيا، وبدأت الدول الأوروبية تصطدم مصالحها مع وجود الحركة السنوسية فى إفريقيا.

سادسًا: موقف الدول الأوروبية من الحركة:

حققت الحركة السنوسية انتشارًا كبيرًا فى أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها فى قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة فى طريق الرسالات التنصيرية التى وجدت فى الحركة السنوسية خصومًا عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، فحاولت الدول الأوروبية التقدم والتقرب من الإمام المهدى السنوسى، فكان لا يأبه بمحاولة هذه الدول، من أجل التقرب إليه، وفشلت وسائلهم فى اجتذابه إليهم، وأعرض عنهم، وعظمت مخاوفهم من تشكيلاته وحركاته، وانكبوا يسعون لدى الدولة العثمانية ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد الثانى كى يتوسط -بوصفه الخليفة الأكبر- فى استدعاء السيد المهدى من إفريقيا للإقامة فى أرض الحجاز أو فى دار الخلافة، وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه. ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة، بل وقف مع محمد المهدى موقفًا مشرفًا.

لقد وجدت الرسالات التنصيرية المسيحية فى السنوسيين خصومًا عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال فى بعض الجهات وأبطلوها. زد على ذلك أن نجاح الدعوة السنوسية وتقوية أركانها جعلا الدول الأوروبية تسعى لتوقى خطرها، ووجدت فرنسا نفسها فى طريق الاصطدام عاجلاً أو آجلاً مع الحركة السنوسية. أضف إلى ذلك، فقد أصبحت إيطاليا بعد وحدتها تتطلع إلى احتلال طرابلس الغرب، وغدت تبذل كل ما بوسعها لكسب المهدى السنوسى، لعلها تظفر بسكوته حينما تواتيها الفرصة لتحقيق هدفها. أما ألمانيا بعد خروجها منتصرة من الحرب السبعينية، فقد شرعت فى كسب المهدى حتى يدعمهم ضد فرنسا فى إفريقيا الغربية[(١)]، فحاولوا عام (١٨٧٢م) مفاوضة المهدى على أمل تحريكه ضد الجهات التى خضعت للفرنسيين فى إفريقيا الشمالية والغربية، ولكن محاولتهم ذهبت سدى؛ لأن المهدى رفض مقابلة الرسل الذين أوفدوهم إليه، فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه. ومع هذا فقد تكررت محاولات الألمان فى الأعوام التالية للغرض نفسه، واستطاع الرحالة «جيرار رولفس» فى عام (١٨٧٦م) أن يزور برقة والكفرة، ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٦٥، ٦٦).

ووقف عند «سبر سلام» بالقرب منها، وقابله أحمد بن البسكرى عدة مرات، ولكنه عجز عن الوصول إلى المهدى السنوسى[(١)].

تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامى على الحركة السنوسية، وأرسلت عددًا من الرحالة منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفًا عدائيًا وشنت عليها حربًا دعائية، بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة. كما تجلى موقفها العدائى فى ضغطها على الباب العالى للتضييق على السنوسية، ثم تبنوا هذا الموقف فى حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية فى تشاد، وسنتحدث عنها فى موضع آخر.

وكان أكثر الرحالة الفرنسيين تعصبًا فى كتاباته: دوفرييه الذى اتهم السنوسية بعدة تهم، وبالغ فى تخيلاته، وذلك أنه رأى فى الحركة خطرًا عظيمًا يتهدد مصالح فرنسا والمسيحية فى إفريقيا. ولقد اعتبر دوفرييه السنوسية مسئولة عن جميع حوادث الاغتيال التى حدثت فى الصحراء ضد بعض الرحالة الأوروبيين. كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى، وصوّرها عدوًا فاغرًا فاه للقضاء على الأوروبيين. وزعم أنها حركت وساعدت جميع الثورات التى قامت فى الجزائر. وقد وافق الرحالة لوى رين على بعض هذه التهم، ورددها كتاب آخرون مثل: مونتيه وهوايت وفبرود.

إن السنوسية ما تعرضت لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لكونها حركة إسلامية جهادية دعوية شاملة فى مفاهيمها[(٢)]. أما اتهامها بالاغتيالات، فهذا باطل مردود بالحجة والبرهان والدليل. بل كان الإمام المهدى يعامل غير المسلمين باللطف والبشاشة والرفق وحسن الخلق، وعندما يريدون الرجوع يرسل معهم من يوصلهم إلى المكان الذى يريدون سواء مصر أو درنة أو بنغازى، ويقول للإخوان: لا بد لنا من إكرام الأجنبى -ويعنى غير المسلم- عسى الله أن يهديه إلى الدين الحق؛ لأن من واجبات المسلم وشعائره: إكرام الضيف كيفما كانت ديانته ليبلغ عنا ما شاهده منا، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم[(٣)].

وفى عام (١٣١٢هـ) قَدِمَ الجغبوب رجل إنجليزى، فأراد بعض الإخوان أن يؤذوه لكنه طلب مقابلة الشيخ المهدى فأذن له فى ذلك، واجتمع به وسُئل: هل له حاجة لدى الشيخ؟، فقال: ما عندى حاجة، إنما القصد من إتيانى النظر فى وجه الشيخ لما أسمع عنه، وحظى الإنجليزى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٦٩).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٩٨).
(٣) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشى (ص١٦٥).

بالإكرام، وحسن القبول، ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفًا كريمًا، ثم كرّ راجعًا إلى طريق مصر[١].

وكان محمد المهدى السنوسى يوصى جميع إخوانه ومشايخ الزوايا وأتباع الحركة بعدم أخذ أموال السواحين والغرباء ولو من الإفرنج، ويقول على رءوس الأشهاد: إن قتلهم وأخذ أموالهم لظلم عظيم، ولا ظلم إلا ويرجع على فاعله بالنكال والوبال[٢].

أما اتهام الحركة السنوسية بكراهية اليهود والنصارى، فالمعلوم عنها تمسكها بالشريعة، فكان أتباعها يعاملون أهل الكتاب حسب توجيهات الإسلام. وأما كراهيتهم للمستعمرين المعتدين، فهذا أمر يوجبه عليهم دينهم، وكان القصد من الحرب الإعلامية الداعية تمهيد الرأى العام الأوروبى وإقناعه بما ستخطوه فرنسا ضد الحركة فيما بعد، وقد أنصف عدد من الكتاب المحدثين السنوسية وردوا على تلك التهم، منهم: محمد فؤاد شكرى، زيادة نقولا، بريتشارد الحشائشى[٣].

أما بريطانيا فكان موقفها من الحركة السنوسية فى بداية الأمر استطلاعيًا، وكانت حريصة على جمع معلومات دقيقة عن الحركة، وخصوصًا أن لها أطماعًا فى مصر، وتخشى من جهاد السنوسية ضدها، كما أن نفوذ بريطانيا فى طرابلس كان قويًا. وقد زار الرحالة هاملتون الإنجليزى سيوة، وتحدث عن الحركة السنوسية. واستمر موقف بريطانيا يمتاز بالهدوء تجاه الحركة السنوسية حتى عام (١٨٨٢م) عندما شرعت بريطانيا فى احتلال مصر، وقامت ثورة عرابى، فتحركت بريطانيا بجميع الوسائل المتاحة لها لتمنع أى مساعدة متوقعة قد تقدم لعرابى، وتدخلت لدى الدولة العثمانية لمنع الحركة السنوسية من دعم الثورة العرابية[٤].

سابعًا: موقف محمد المهدى من الحركة العرابية:

عندما اشتعلت الثورة العرابية عام (١٨٨٢م) اتصل أحمد عرابى طالبًا العون والمدد، وعلمت بريطانيا بالأمر، فتدخلت لدى الدولة العثمانية ونشط قنصلها فى طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدى. ويتضح من إحدى الرسائل التى بعث بها والى طرابلس إلى ولاية بنغازى بتاريخ (١٦ أغسطس ١٨٨٢م) أنه انتشر خبر مضمونه أن عددًا من قبائل برقة يتهيأ للالتحاق بعرابى، وأن

(١) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشى (ص١٦٥، ١٦٦).
(٢) المصدر السابق: (ص١٦٧).
(٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٩٩).
(٤) انظر: دار للمحفوظات التاريخية بطرابلس، رسائل الولاة.

الخبر وصل إلى طرابلس من الأستانة، وأن قنصل بريطانيا فى طرابلس يستفسر عن صحته، ويقول الوالى: «فى حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم إجراء التدابير الحكيمة». وقد اتضح لدى تحقيق المسئولين فى بنغازى أن هذه الجماعة التى تريد دخول مصر ما هى إلا حجاج، وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج»[(١)].

إن المهدى السنوسى كان حريصًا على نموه الطبيعى، ولذلك ابتعد عن الدخول فى حروب لم يستعد لها، ويبدو أن المهدى السنوسى لم يقتنع بجدوى الثورة كأسلوب لتحقيق مطالب عرابى؛ لأنها تتيح للأجانب التدخل، وقد وضح هذا الرأى فى رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدى إلى الشيخ مصطفى المحجوب -شيخ زاوية الطيلمون- بتاريخ شعبان (١٣٠٦هـ) بمناسبة قيام إحدى قبائل برقة بالعصيان على الدولة العثمانية، إذ قال فيها: «ونرجو أن تكون الفتنة التى بالوطن قد طُفئت؛ لأنها مخيفة سيئة العاقبة تشبه الفتنة العرابية التى من أجلها حلّ بالوطن الشرقى وأهله ما حل؛ لأنهم يحركونها ويعجزون عنها فتكون العاقبة التسليم للأجانب. ، فلو أنهم سلكوا طريقًا غير هذا لكان أسهل وآمن عاقبة، وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية، ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية، التخفيف من هذا المجهول عليهم قائلين: إنهم لا قدرة لهم على هذا الأمر الشاق، والتكليف بما لا يطاق، وإن قلتم لا بد منه نجلو عن الوطن بالكلية؛ إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة. . .»[(٢)].

إن نظرة المهدى للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة، أنها تتيح للأجانب التدخل. ويرى أن طريق البناء والتربية والإعداد العقدى، والوسائل السلمية هى الطريقة المثلى، وتجنب الفتنة حتى لا يتدخل الأجانب فى شئون المسلمين. وكان المهدى قد ألزم نفسه وأتباعه سياسة حكيمة رشيدة بعيدة عن سياسة ردود الفعل، يقول الأستاذ نيقولا زيادة: «طلب العرابيون مساعدته عام (١٨٨٢م)، وتقدمت إليه إيطاليا راغبة فى الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسى فى تونس عام (١٨٨١م)، وحتى السلطان العثمانى طلب منه العون فى حربه هذه ضد روسيا عام (١٨٧٦م)، لكن السيد المهدى رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولى ليتم لهم نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذى نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل»[(٣)].

حاول زعيم الثورة العرابية أحمد العرابى أن يثير الإخوان السنوسيين وشرح لهم موقفه وجهاده، ومن بين من كتب لهم السادة: أحمد الريفى، وفالح الظاهرى، محمد البسكرى،

---

(١) انظر: الحركة السنوسية (ص٢٠٠). (٢) انظر: المهدى السنوسى (ص٥٩).
(٣) انظر: المهدى السنوسى (٥٩).

وأبو سيف مقرب، ومحمد المدنى، وأحمد بن إدريس الأشهب، وأحمد العيساوى. وعندما وصلت الكتب إلى أولئك السادة رفع كل منهم كتابه الخاص إلى السيد المهدى، ورفضوا الرد على عرابى باشا ما لم يؤمروا من السيد المهدى؛ إذ لا حق لهم فى المخابرات السياسية والاتصال فى مثل هذه الأحوال بالعالم الخارجى دون أن يأمرهم زعيم الحركة(١).

وهذا يدل على قوة التنظيم، ومتانة الحركة، وهيبة القيادة، وفهم الإخوان، وتلاحم الصف، ودراسة الأمور بتأن.

ثامنًا: موقف المهدى السنوسى من الثورة السودانية:

سمع محمد أحمد المهدى السودانى بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق وانتصار عظيم، وتوسع كبير فى الصحراء الكبرى، وفى القبائل الليبية. فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد أحمد المهدى فى عام (١٣٠٠هـ) رسالة إلى محمد المهدى السنوسى مع أحد أتباعه واسمه «الطاهر إسحق» وهو من أهالى البلاد الواقعة غرب دارفور، وقد جاء فى الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الولى الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد: فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدى بن عبد الله إلى حبيبه فى الله محمد المهدى بن الولى السنوسى، فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبى المرشد المرقى العباد إلى مقام التقريب: قد كنا يا حبيبى -ومن معنا من الأعوان- ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية، وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، فلم ترد إلينا المكاتبة، وأظن عدم وصولها إليك، حتى أنى ذكرت المعنيين فأبوا ذلك؛ لهوان الدين عندهم، وتمكن حب الوطن والحياة فى قلوبهم، وقلة توحيدهم حتى بايعنى الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين، وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من الممات ولا يزال المساكين الذين لم يبالوا فى الله بما فاتهم من المحبوب، يزدادون وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على عبده الحقير، والله هو الفاعل المختار الذى هو على كل شىء قدير، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أكاتب بها الشرق والغرب من غنى أو فقير، فصدق بها من أراد الله سعادته، وكذب بها الأشقياء، وصاروا فى النكير، مع أن النبى ﷺ قد خلفنى بالمهدية مرارًا بالجلوس على كرسيه، وألبسنى سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام، ولا يزال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبى ﷺ، أنك من الوزراء

(١) انظر: برقة العربية، (ص١٥٤).

لى، ثم مازلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبى ﷺ والخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبى ﷺ خلفاء خلفائه من أصحابى فجلس أحد أصحابى على كرسى أبى بكر الصديق، وأحدهم على كرسى عمر، وأوقف كرسى عثمان، وقال: هذا الكرسى لابن السنوسى إلى أن يأتيكم بقرب أو طول، وأجلس أحد أصحابى على كرسى على، رضوان الله عليهم أجمعين.

وما زالت روحانيتك تحضر معنا فى بعض الحضرات مع أصحابى الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ، واعلم -وإن كان لا يخفى عليك- أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون، كالسيد أحمد بن إدريس، فإنه قد قال: «كتبت فى المهدية أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله»، وقال: «سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها».

وكذلك قال محيى الدين فى بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقوال المحققين، ولا سيما وأن المهدية لا تدعى لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى أنها لما ظهرت أنا بين أظهرهم كانوا فى أشد الضعف والقلة، فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا فى الدين يومًا واحدًا من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب، فألقى الله فى قلوبهم الرعب ومدّهم بالخيبة. وقد أمرنا النبى ﷺ بالهجرة إلى جبل الغرب يقال له قدير، يلصق جبل يقال له: ماسة، فجمعوا جموعهم إلينا مرارًا فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار، ويرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتى، وقد أعلم ﷺ أن من شك فى مهديتى كافر وكررها ثلاثًا ومرارًا يقول: من أنكر مهديتى ومن خالفنى فأبى أمرى كافر، فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتى، ومن جعل الله له شكوكًا وشبهًا تصده عن الإيمان بمهديتى، فيخذله الله فى الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد، فإذا بلغك جوابى هذا، إما أن تجاهد فى جهاتك إلى مصر وجهاتها أو تهاجر إلينا»[(١)].

وكان رد السنوسى بقوله: «إننى لم أبلغ منزلة الغبار الذى ثار فى أنف فرس عثمان رضي الله عنه فى إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ، ولا جواب عندى على هذا الكتاب»، ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[(٢)]، و«أوصى ملك واداى بأن لا يحرك ساكنًا مع المتمهدى، بل إذا جاءه محاربًا يحاربه»[(٣)].

(١) انظر: السودان بين يدى كتشنر وجوردن، إبراهيم فوزى (١/ ٢١٦).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٩٠).
(٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص١٩١).

ولم يؤمن المهدى السنوسى ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السودانى، وقاوم أتباع الحركة السنوسية فى السودان الغربى نفوذ ثورة محمد أحمد السودانى، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدى السنوسى يستوضحه ماذا يكون موقفه من التعايشى الذى طلب مؤازرته، فكان رد المهدى: «إنه إنما يُعنى بالدعوة إلى إصلاح الدين سلمًا ولا حربًا، بينما تنفر الملة التى يراد إحياؤها نفورًا عظيمًا بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها والجرائم التى يرتكبها فى السودان»(١)، وقد قامت الممالك فى السودان الغربى «تشاد» بمحاربة التعايشى خليفة محمد أحمد السودانى وحدّت من انتشار حركته.

إن علماء الحركة السنوسية -وعلى رأسهم المهدى السنوسى- لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدى السنوسى واعتبره محمد المهدى السنوسى نوعًا من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين واستيعابهم لكتاب الله والسنة التى بينت حقيقة المهدى المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التى وضحت هذا المعتقد.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أن الله تعالى يُخْرِجُ فى آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلامًا كما ملئت جورًا وظلمًا، تنعم الأمة فى عهده نعمة لم تنعمها قط، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «فى زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير فى أيامه دائم»(٢).

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه كاسم أبى النبى ﷺ فيكون اسمه محمد، أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسين بن على رضي الله عنهما.

قال ابن كثير -رحمه الله- فى المهدى: «وهو محمد بن عبد الله العلوى الفاطمى الحسنى رضي الله عنه»(٣)، وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»(٤).

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص٥٨).

(٢) انظر: النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٣١)، تحقيق د. طه زينى.

(٣) انظر: النهاية، الفتن والملاحم (١/ ٣١).

(٤) الأجلى: خفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذى انحسر الشعر عن جبهته.

ويكون مكان ظهوره من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.- ثم ذكر شيئًا لا أحفظه- فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبوًا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدى»(١).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «والمراد بالكنز المذكور فى هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذ ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدى، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء»، كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان؛ إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة، ولا معقول صحيحًا، ولا استحسان، إلى أن قال: «ويؤيَد بناس من أهل الشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضًا، وهو زى عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها العقاب».

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدى الممدوح الموعود بوجوده فى آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»(٢).

ذكر الإمام البخارى فى «صحيحه» عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»(٣).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة -إلى أن قال-: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال وصل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»(٤).

والأحاديث التى وردت فى «الصحيحين» تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء يكون المتولى لإمرة المسلمين رجل، منهم.

(١) انظر: ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: خروج المهدى (٢/ ١٣٦٧).
(٢) انظر: النهاية: الفتن والملاحم (١/ ٣١).
(٣) انظر: البخارى، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٦/ ٤٩١) مع الفتح.
(٤) انظر: مسلم، كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٢/ ١٩٣) مع شرح النووى.

والثانى : أن حضور أميرهم للصلاة وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلى لهم، يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث فى السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التى فى «الصحيحين» ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدى، والسنة يفسر بعضها بعضًا.

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منا الذى يصلى عيسى ابن مريم خلفه» (١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدى: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة» (٢).

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدى منى أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت ظلمًا وجورًا، يملك سبع سنين» (٣).

لقد جاءت الأحاديث بالتواتر عن خبر المهدى:

قال الشوكانى- رحمه الله-: «الأحاديث فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر التى أمكن الوقوف عليها، منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهى متواترة فى جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول. وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدى فهى كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع؛ إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك»(٤).

قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة فى المهدى على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا، تبلغ حد التواتر المعنوى، وهى فى السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»(٥).

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتانى: «والحاصل أن الأحاديث الواردة فى المهدى المنتظر متواترة، وكذا الواردة فى الدجال، وفى نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»(٦).

---

(١) انظر: رواه أبو نعيم فى «أخبار المهدى» صححه الألبانى صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧١٧٠).
(٢) انظر: المنار المنيف لابن القيم (ص١٤٧، ١٤٨).
(٣) انظر: سنن أبى داود، كتاب: المهدى (١١/ ٣٧٥) رقم (٤٢٦٥).
(٤) انظر: التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح.
(٥) انظر: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدى الساعة (ص١١٢).
(٦) انظر: نظم المتناثر فى الحديث المتواتر (ص١٤٧).

وأما العلماء الذين صنفوا كتبًا فى المهدى بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة والمسانيد: «مسند أحمد»، و «مسند البزار»، و «مسند أبى يعلى»، و«مسند المحارب ابن أبى أسامة»، و«مستدرك الحاكم»، و «مصنف ابن أبى شيبة»، و«صحيح ابن خزيمة» وغيرها من المصنفات(١) التى ذكرت فيها أحاديث المهدى، فإن طائفة من العلماء أفردوا فى المهدى المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعًا كبيرًا من الأحاديث الواردة فيه(٢)، ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب أمثال الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير «المنار» وصف أحاديث المهدى بالتناقض والبطلان، وأن المهدى ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب السنة(٣).

وممن أنكر أحاديث المهدى: صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»(٤)، محمد فريد وجدى، وسار على نفس الخط أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام».

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون فى تضعيفه لأحاديث المهدى، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يُقبل قوله فى التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال -بعد أن استعرض كثيرًا من أحاديث المهدى وطعن فى كثير من أسانيدها-: «فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى، وخروجه آخر الزمان، وهى -كما رأيت- لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»(٥).

قال يوسف الوابل فى «أشراط الساعة» تعليقًا على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد لكفى به حجة فى شأن المهدى، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة؟»(٦).

قال الشيخ أحمد شاكر ردًا على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئًا مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدى بما غلب عليه من الرأى السياسى فى عصره»(٧).

---

(١) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر فى المهدى المنتظر للعباد، (ص١٦٦، ١٦٨).
(٢) انظر: الدولة العبيدية، للمؤلف، (ص٦٢).
(٣) انظر: تفسير المنار (٩/ ٤٤٩-٥٠٤).
(٤) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، (١٠/ ٤٨٠).
(٥) انظر: مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤).
(٦) انظر: أشراط الساعة للوابل، (ص٢٦٧).
(٧) انظر: مسند الإمام أحمد (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

ثم بيّن أن ما كتبه ابن خلدون فى هذا الفصل عن المهدى مملوء بالأغاليط فى أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

إن ما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد -رحمهم الله تعالى- ليس صوابًا، وإنما الحجة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والروايات المذكورة فى خروج المهدى صحيحة متواترة تواتراً معنويًا، وهذا يكفى، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح. ولكن الروايات الضعيفة قد تصدى لها العلماء، ووضعوا قواعد دقيقة فى الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة فى المهدى تعصبًا، فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه. فإذا عيّن إنسان شخصًا وزعم أنه هو المهدى، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث فإن ذلك لا يؤدى إلى إنكار المهدى على ما فى الحديث. ثم إن المهدى الحقيقى لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارضْ، فقد نشأت عن الروايات التى لم تصح. وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله. وأيضًا فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة. وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ[١].

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله- فى كلامه عن المهدى: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع وهو أن المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى المنتظر من ولد الحسين بن على لا من ولد الحسن، الحاضر فى الأمصار الغائب عن الأبصار، الذى يورث العصا ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه.

(١) انظر: أشراط الساعة للوابل، (ص٢٦٧).

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بنى آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل»[١].

إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون فى الإمام محمد المهدى السنوسى أنه هو المهدى المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدى، وعارضها وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سُئل الملك محمد إدريس -رحمه الله- عن رأى أبيه فى قول بعض أتباع الطريقة بمهديته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدًا لم يعتقد به....»[٢]



(١) انظر: المنار المنيف، (ص١٥٢، ١٥٣).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص١٨٧).

المبحث الثاني

موقف محمد المهدى السنوسى والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية

فى بداية عهد السلطان عبد الحميد الثانى طلب من السيد محمد المهدى السنوسى إرسال قوة من رجاله من الأقطار البرقاوية الطرابلسية لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا عام (١٨٧٧م)، إلا أن السنوسى امتنع عن تنفيذ الطلب لانشغاله بالبناء والتربية والتكوين والانتشار بالدعوة، والاستعداد للجهاد. وهذا الامتناع جعل السلطان عبد الحميد يرسل الرسل إلى الإمام المهدى السنوسى للوقوف على حقيقة أمره، وبذل السلطان عبد الحميد الثانى جهداً كبيراً فى سبيل التعرف على طبيعة الحركة السنوسية وحقيقة نواياها وأهدافها، ومدى استعداد زعيمها للعمل ضمن سياسته فى الجامعة الإسلامية. وتمت الخطوة الأولى فى هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية إلى واليها فى طرابلس، لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها.

أجاب الوالى كمال باشا (١٨٩٣ - ١٨٩٨م) بما يُشعر بحسن علاقة الوالى بالحركة السنوسية واطمئنانه إلى نواياها، وثقته برجالاتها. وأكد فى رسالته -التى بعثها للسلطات العثمانية فى إستانبول- الفوائد العلمية والاجتماعية التى حققتها زوايا الحركة السنوسية المنتشرة فى الصحراء الكبرى [١] بين أعراب البادية ورفع مستوياتهم الدينية والخُلُقية والثقافية، ومزاحمتها الفعالة للجمعيات التنصيرية المنبثة فى القارة الإفريقية، ودخول الكثير من الزنوج فى الإسلام بتأثير دعايتها له. وأكد الوالى فى ختام رسالته انقياد الحركة بزواياها وقادتها إلى دولة الخلافة العثمانية[٢].

وأوفد السلطان عبد الحميد بعثة برئاسة رشيد باشا -والى بنغازى- ومعه الصادق المؤيد العظم -أحد ياورات السلطان إلى واحة الجغبوب فى ليبيا وذلك عام (١٨٨٩م). ومما جاء فى أخبار البعثة أن المهدى السنوسى قد أحسن استقبال البعثة وأتاح لأعضائها مشاهدة زاوية الجغبوب والاطلاع على أعمال أتباع السنوسية، وأن المهدى السنوسى لم يكن إلا داعيًا مرشدًا، وأنه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية[٣].

(١) انظر: حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، (ص ٢٣٠).
(٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ٢٠٤، ٢٠٥).
(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٦٢).

وبعد انتقال المهدى السنوسى من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة فى أقصى الجنوب من ولاية طرابلس عام (١٨٩٥م)، أرسل أحد أتباعه وهو الشيخ عبد العزيز العيساوى إلى إستانبول، لتأكيد إخلاصه وولائه للسلطان العثمانى، وليطلب منه تأكيد الفرمانات التى صدرت من قبل السنوسيين(١).

أصدر الباب العالى أوامره فى إجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس ومتصرفة بنغازى فى التزام الاهتمام والرعاية والاحترام تجاه الحركة السنوسية وأتباعها، وتقديم فريد العناية بجميع الزوايا(٢).

وقد أرسل السلطان مع الشيخ العيساوى هدايا للمهدى السنوسى من بينها نسخة مطبوعة من «صحيح البخارى» له خاصة، خلاف عشر نسخ أخرى تعطَى من قبله لمن يرى فيه الأهلية، كما أرسل له ساعة «لتكون فى الأوقات الخمسة مذكرة بصالح دعواته لجنابه العالى»(٣).

ورد السلطان على هذه البعثة بإرسال الصادق المؤيد العظم بزيارة المهدى السنوسى فى واحة الكفرة، وهناك اطلع الصادق بنفسه على أحوال الزاوية واجتمع بالمهدى الذى استقبله استقبالاً طيبًا، واطمأن لحسن توجهه نحو السلطنة العثمانية. ومما ذكره الصادق المؤيد العظم فى رحلته عن المهدى «أنه شيخ صادق لمقام الخلافة»، وحسب وصية والده، فهو فى كل صباح عقب الصلاة يجرى الدعاء بالصحة والعافية لخليفة المسلمين، ثم تُقرأ الفاتحة، وذلك فى جمع الزوايا، وهو دائمًا يوصى أتباعه بطاعة أمير المؤمنين، ومحبة الدولة العثمانية؛ لأن طاعتها واجبة شرعًا وعقلاً(٤).

ومما زاد السلطان عبد الحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الأوروبية من الحركة، وتبرم قناصل الدول من نشاطها، لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التى كانوا ينوون تنفيذها(٥).

وحين اطمأن السلطان عبد الحميد الثانى إلى صدق توجه الحركة السنوسية لدولة الخلافة العثمانية وإخلاصها فى العمل لسياسة الجامعة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى محمد

(١، ٢) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٥٨).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٨٦).
(٤) انظر: رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد، (ص ٤٨، ٤٩).
(٥) انظر: تعليق على حاضر العالم الإسلامى، شكيب أرسلان (ص ٢/ ١٦٢).

المهدى السنوسى رسالة تتضمن أُسس الجامعة الإسلامية وحقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذى يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة[١].

وأكد السلطان فى رسالته أهمية الخلافة والإمارة الإسلامية المقدسة التى أثبتها الله فى البيت العثمانى منذ مئات السنين، وما افترضه الله على المسلمين من نصرة هذه الخلافة وتأييدها وطاعة ولاة الأمر القائمين على أمرها، ولا سيما فى مثل هذه الظروف التى تحيط بالعالم الإسلامى، والتى جمع فيها من سماهم السلطان: «الأغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين فى جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون فى السر والعلن خصومة للسُّنَّة وعزمًا على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره»[٢]. وحذر السلطان عبد الحميد «محمد المهدى السنوسى» من عمليات التسلل الأوروبى إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار الكشف الجغرافى، والبحث العلمى من جانب الإنجليز والإيطاليين وغيرهم، مبينًا المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قِبل هؤلاء[٣].

وأكد السلطان عبد الحميد الثانى أهمية تبصرة كل من له علاقة بالسنوسية والمتبين طرقها وزواياها المنتشرة فى الصحراء الإفريقية بضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية المقدسة والإمامة الكبرى الإسلامية، التى هى ضمان قوة المسلمين وشعار وحدتهم وتضامنهم[٤].

كما بيَّن لمحمد المهدىّ السنوسى الوسائل العلمية واجبة الاتباع لمواجهة أعمال المبشرين وأعداء الإسلام والمسلمين فى القارة الإفريقية لكشف وسائلهم وأهدافهم الكبرى، وذلك بتكثير أعداد الدعاة والعلماء وإعدادهم، الإعداد المناسب، وبثهم فى جميع الأنحاء الإفريقية لنشر الإسلام بينهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، وتأكيد أهمية الخلافة فى حياة المسلمين، ودور الوحدة والتضامن فى دفع غائلة المعتدين وأعداء الملة والدين[٥].

إن الليبيين عمومًا ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبدالحميد الثانى الذى تبنى الدعوة إليها، وأكدوا فى كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة فى أزمات الدولة، ففى حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات، وقد كُتب على الاستمارات المعدة للجمع عبارة «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات قرابة «مائة ألف فرنك»[٦].

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٨٧).
(٢، ٣) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٨٧).
(٤، ٥) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٨٨).
(٦) انظر: الحوليات الليبية، شارك فيرو (٣/ ٧٧٤).

وامتدح الشيخ سليمان البارونى (١٨٧٠ - ١٩٤٠م) -أحد الزعماء الليبيين- الدولة العثمانية وسلطانها، وأشاد بجيشها بمناسبة حربها مع اليونان وانتصارها عليهم[١].

وساهمت صحافة ليبيا فى المدن -رغم نشأتها المتأخرة - فى دعم حركة الجامعة الإسلامية، ففى أول ديسمبر (١٩٠٨م) ظهرت جريدة «الكشاف»، وكان صاحب امتيازها ومديرها المسئول محمد النائب الأنصارى، ووصف الجريدة بأنها ملتزمة بخط الجامعة الإسلامية[٢].

وفى أوائل مارس (١٩٠٨م) صدر العدد الأول من جريدة «العصر الجديد» حتى وصفت نفسها بأنها سياسية علمية، وجعلت شعارها «من الشعب إلى الشعب»، وتعاطفت مع «اللواء» المصرية، كما سارت فى تيارها بتبنى فكرة الجامعة الإسلامية[٣].

وفى إستانبول أصدر الزعيم الليبى عبد الوهاب عبد الصمد صحيفة «دار الخلافة» التى جعلت محور سياستها الدفاع عن الخلافة والجامعة الإسلامية[٤].

وأسس الشيخ سليمان البارونى فى القاهرة مطبعة عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م) سمَّاها «الأزهار البارونية» التى حدد هدفها قائلاً: «أن تكون خادمة للدين، سائرة فى ركاب الجامعة الإسلامية، ناثرة للآداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهيئة الاجتماعية مترقية فى مدارج التقدم»[٥]، وأصدرت المطبعة جريدتها باسم «الأسد الإسلامى» فى عام (١٩٠٨م)[٦].

اهتم سليمان البارونى بفكرة الجامعة الإسلامية، واتخذ من جريدته منبرًا لإعلاء فكرتها، ومجالاً لبحث مشاكل المسلمين وتقصى أخبارهم، ومما جاء فى افتتاحية العدد الأول منها «. . . فقد كان الرشاد فى الأمة فى زمن انقياد أفرادها بطبيعتهم لقوانين الشرع الشريف، ووقوفهم عند مناهيه. ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر، وتغيرت الطبائع باختلاف أصناف البشر، وقع التساهل فى أمر الدين، وانحلت عرى الاتحاد وساد الشقاق. وتؤكد الجريدة أنه سيكون على رأس اهتماماتها بذل النصح للأمة الإسلامية وإرشادها إلى ما يعود عليها بالنفع العاجل والآجل، والتقدم فى مباراة الأمم الحية، ومزاحمتها فى معترك الحياة الهنيئة[٧]».

---

(١) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة البارونى، (ص ٨٠).
(٢) انظر: صحافة ليبيا فى نصف قرن، علىّ المصراتى (ص ١٠٠).
(٣) انظر: صحافة ليبيا فى نصف قرن، علىّ المصراتى (ص ٧٣).
(٤) انظر: صحافة ليبيا فى نصف قرن، على المصراتى (ص ١٠٩).
(٥) انظر: صفحات خالدة من الجهاد (ص ٤٠).
(٦) انظر: الحوليات الليبية (٣/ ٧٨٦).
(٧) انظر: صفحات خالدة من الجهاد (ص ٢٠).

وتساءل الباروني عن الأسباب الكائنة وراء فرقة المسلمين وتفككهم، وما إذا كان ممكنًا لم شعثها وتوحيد كلمتها في هذا الزمن الذي هم فيه أحوج إلى الاتحاد من أي شيء آخر[١]. وهو يؤكد أن هذا ممكن، مدللاً عليه بشدة اهتمام أوروبا وساستها وكتابها بملاحظة الحالة التي بدأت تظهر بين المسلمين، بفعل ما يبديه سلطانهم عبد الحميد وإلى جانبه المخلصون للعمل في سبيل تحقيق ما بينهم من جامعة تضم كلمتهم وتوحد رأيهم وتجمع شتاتهم أينما كانوا في أطراف المعمورة. حتى إذا ما كانوا يدًا واحدة، وعلى قلب رجل واحد، ناقشوا أوروبا الحساب، وناصبوها الحرب[٢].

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد؛ فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين، وملجأ الدنيا والدين، ودولته ملاذ المسلمين جميعًا ودرعهم الواقية ضد محاولات أوروبا للنيل من استقلالهم[٣].

واستمر هذا الشعور قائمًا لدى أهل المدن في ليبيا، وزعماء الحركة السنوسية وأتباعها، حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بإبعاد السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٨م) فلم يشعر أهل الولاية إزاء هذه الحركة بالاطمئنان، ولم يستبشروا بها خيرًا، بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان؛ لما عرفوه من الاتحاديين من «بعد عن الحكمة ومناهضة الدين»[٤]، واستهجن الليبيون إعلان الدستور، ولم يروا مبررًا لصدوره خاصة والشريعة الإسلامية كفيلة بسد حاجاتهم، ووقع إثر ذلك حوادث كبيرة في طرابلس ضد الحركة والقائمين بها، وطالب غالبية الناس بإبعاد من قدم إلى الولاية من الاتحاديين[٥].

ويذكر كاكيا: «إن الأهالي في ليبيا نظروا إلى الجمعية بغير عين الرضى، وكرهوا رجالها لتدخلهم في مسائل العادات والدين، وعدّوا إعلان الدستور انتهاكًا للشريعة الإسلامية»[٦].

إن زعماء الحركة السنوسية كانوا شديدي الولاء للدولة العثمانية، وكذلك زعماء المدن الليبية، وهذا يدل على الوعي العميق وشعورهم بضرورة مساندة دولة الخلافة والمحافظة عليها من منطلق شرعي يدينون به للمولى عز وجل، وكان هذا الفهم منبثقًا من فهمهم لقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا

---

(١) انظر: صفحات خالدة من الجهاد (ص ٣١).
(٢) انظر: صفحات خالدة من الجهاد (ص ٢٣).
(٣) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي (ص ٢٧).
(٤، ٥) انظر: حركة الجامعة العربية، الشوابكة (ص ٢٣٧).
(٦) انظر: ليبيا في العهد العثماني، كاكيا من الترجمة العربية، (ص ٦٠).

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥]، فقد كان أجدادنا يرون: «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا»(١).

وإن كانت الخلافة الإسلامية العثمانية خرجت فى أيامها الأخيرة عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية، إلا أنها مازالت فى دائرة الإسلام، ولم تمرق منه مروق السهم، وخصوصًا قبل عزل السلطان عبد الحميد الثانى؛ ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عمومًا عدم الخروج على الدولة العثمانية: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم طاعة لله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»(٢)، هكذا كان موقف الحركة السنوسية وزعماء ليبيا من الدولة العثمانية.



(١) انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوى (ص ٢٩٦).
(٢) انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوى (ص ٣٠٢).

المبحث الثالث

رحلة المهدى السنوسى إلى الكفرة وقرو

أولاً: الرحلة إلى الكفرة والصدام مع فرنسا:

كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعى من زعيمها محمد المهدى الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة. وتقرر لدى محمد المهدى الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع فى تنفيذ القرار الاستراتيجى بسرعة البرق، فجُمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطرق، والأمتعة الضرورية، وعيَّن الإمام السنوسى رفقاءه فى سفره إلى العاصمة الجديدة. وفى يوم (٢٢ شوال سنة ١٣١٢هـ)، جمع الإمام السنوسى جميع سكان الجغبوب للوداع وألقى فيهم نصائحه الغالية، وانتقل بعد ذلك من الجغبوب والأفئدة تتقطع لهول الفراق والأعين وراءه شاخصة، فنزل بموقع قريب من الجغبوب يقال له حطيئة «الزربى» وبهذا المكان كان وداع المشيعين وفى طليعتهم كبار الإخوان، كالسيد أحمد الريفى، ومحمد عابد السنوسى، وأبى سيف مقرب، ومحمد المدنى، وأحمد بن إدريس، وعمران السكورى. وهنا يظهر جلال الموقف وشدة الفراق، ونلمس ذلك فى القصائد التى أُلقيت يوم ذاك[١].

يقول الأديب الحشائشى: ولما أفاق أبو يوسف مقرب من غشيته التى أصابته عن مفارقة الشيخ المهدى، صعد فوق هضاب عالية ومعه جماعة من الإخوان وتوجه إلى الركب بنظره وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود ويورق به العود[٢].

لقد كان قرار انتقال الإمام المهدى إلى الكفرة مفاجأة لأهالى ليبيا واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثرًا حزينًا أليمًا فى النفوس.

وكان الإخوان الذين رافقوا الإمام المهدى السنوسى فى رحلته كلاً من: أحمد البسكرى، أحمد التواتى، أحمد الجراولى، أحمد الثنى الغدامسى، ومحمد السنى، وغيرهم من كبار الإخوان[٣].

ولما بلغ الشيخ واحة «الكفرة» تلقته قبيلة زويا من كبار قبائل العرب فى الصحراء ومن جاورها من القبائل، وكانوا فى غاية الفرح والسرور، وكان فى استقباله خارج منطقة الجوف أكثر من ثلاثة

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢١٧).

(٢) انظر: رحلة الحشائشى، (ص ١٦٨).

(٣) انظر: رحلة الحشائشى (ص ١٧٠).

آلاف رجل يتقدمهم رئيس زاوية الجوف ومشايخ وأعيان قبيلة زويه ومن معهم من المجابرة. وابتهجت واحة الكفرة بقدوم زعيم الحركة السنوسية، وتبارت الخيول وأُطلق الرصاص، وفى هذه المناسبة قتل يونس الرويعى رجلاً من قبيلة الزوية بإصابة خطأ، فنادى شيوخ الزوية أعيانهم فى قومهم بألا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل فى مأمن إكرامًا للإمام السنوسى، وبعد انتهاء الاحتفال اجتمع شيوخ وأعيان القبيلة وتقاسموا الدية الشرعية للمقتول ودفعوها إلى أهله فوراً وتسامحوا مع القاتل، كل ذلك تم فى يومه. وقرر جميع أعيان وشيوخ زوية أن يتقدموا بهدية إلى زعيم الحركة السنوسية بمناسبة تشريفه إياهم بقدومه، وكانت الهدية هى التسامح فيما بين أفراد وقبائل زوية من الأحقاد، والتنازل عن حقوقهم التى يطلبها أحد أفراد القبيلة من الآخر، وتطلبها عائلة من أخرى مهما عظمت تلك الحقوق التى قد تؤدى إلى شقاق وفساد، وتنازلوا عن ثلث ممتلكاتهم وفقًا لأعمال الحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراض، كل ذلك عن طيب خاطر وقربى لله، ودعمًا للحركة الإسلامية التى تبنت دعوة الإسلام فى الصحراء الكبرى، وأدغال إفريقيا. وتبرع جميع أغنياء القبيلة ومن معهم من تجار المجابرة بإطعام جميع الفقراء وكسوتهم. واستمر الفرح والاحتفال شهراً بعد وصول زعيم الحركة السنوسية الثانى الإمام المهدى، وشرع الإمام المهدى فى بناء زاوية التاج التى اختطها محمد البسكرى، وحسب توجيهات زعيم الحركة، فأبدع فى تخطيطها وجعلها على قمة ربوة عالية تبعد عن زاوية الجوف بما لا يقل عن ميل ونصف الميل تقريبًا(١).

أصبحت الكفرة عاصمة الحركة السنوسية لوجود زعيمها فيها، ففُتحت المدارس لتعليم القرآن الكريم، وتصدر مجالس التدريس كبار العلماء، وتقدمت سوقها التجارية تقدمًا باهرًا؛ إذ أصبحت تردها بضائع السودان، وتصدر إليه عنها، وهكذا الحال بينها وبين برقة من جهة، وبينها وبين مصر من جهة أخرى، وتحسنت زراعتها إلى حد بعيد، وجُلبت إليها أشجار الفاكهة من واحة سيوة ودرنة، وغيرها، وعمرت بالسكان الذين هاجروا إليها من المجابرة والتبو والسودانيين، فضلاً عن سكانها المعروفين من قبائل الزوية حتى أصبحت ذات أهمية كبرى فى وقت قصير(٢)، وأصبحت قبيلة الزوية بمثابة الحرس الخاص لزعيم الحركة السنوسية(٣).

تولى المهدى السنوسى تصريف أمور الحركة من الكفرة، فعجّت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يَقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها، وفى إحدى رسائل المهدى إلى

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢١٩، ٢٢٠).
(٢) انظر: برقة العربية، (ص ٢٣٧).
(٣) انظر: المهدى السنوسى (ص ٧١).

محمد عليّ المحجوب في زاوية الطيلمون بليبيا يطلب المهدى إرسال خيام؛ لأن وفودًا كثيرة جاءت للتسليم عليه وهو خجلٌ لعدم وجود بيوت تؤويهم[١].

وقام الإمام السنوسى بإرسال رسله إلى مختلف الجهات: فأرسل مرتضى فركاش بن أبى خريص بكتاب إلى سلطان واداى ومعه رجلان، وأرسل رسالة لوالى بنغازى، وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا، ونظم حياة الأهالى فى الكفرة، وفرض النظام ومنع الاعتداءات، ونشر الإسلام بين قبيلتى زوية والتبو اللتين تسكنان تلك المنطقة، ووجه الأتباع نحو العمل المثمر، سواء فى تعمير الزوايا والدعوة إلى الله أو فى التجارة، وقد زاد تبعًا لذلك عدد سكان الكفرة وانتعشت حياة الأهالى وعم الرخاء، واهتم بحفر الآبار المتتابعة على طول خطوط القوافل، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين السودان الغربى «تشاد» والسودان الشرقى وسواحل برقة. ومن البعثات الاستكشافية التى أرسلها الإمام السنوسى تلك البعثة التى اكتشفت حطية العوينات والحطايا التى تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذلك، كما يقول الأشهب[٢]، وخف إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية، وكانت تلك القبيلة صادقة فى وعدها لإمام الحركة السنوسية، فقامت بأعمال كبيرة لصالح الدعوة الإسلامية، ويبدو أن ابن السنوسى المؤسس عرف قدراتها، فاهتم بها، ويظهر هذا جليًا فى حواره مع عقيلة الزوى عند بناء الجغبوب حيث حدثه عن رغبته فى بناء زاوية فى الكفرة وقال له: «مرادنا فى كونكم تتولون أمرها» فكان أن أسس زاوية الجوف التى عُرفت نسبة إلى ابن السنوسى باسم زاوية الأستاذ[٣].

وأنشئت فى فترة الإمام المهدى عدة زوايا فى منطقة الكفرة، منها: «التاج» كما ذكرنا، وربيانة، وتازربو، وامتد نشاط الحركة نحو الجنوب، فوصلت إلى مواطن جديدة فى السودان الإفريقى، بواسطة الدعاة، وقوافل التجارة، فوصلت دعوة الإسلام إلى بشر جدد، وقبائل وثنية متعطشة إلى دين الفطرة. وهذا التوغل المحمود، والانطلاق الجميل بدعوة الله، كان ابن السنوسى المؤسس قد خطط له منذ عهده الباكر فى الدعوة إلى الله، فقد قال: «. . . إذ أن الشعوب المجاورة فى السودان والصحراء من إفريقيا الغربية لا تزال تعبد الأوثان . . .»[٤].

إن انتقال الإمام المهدى إلى الكفرة ينسجم مع خطة الحركة السنوسية التى استهدفت قبائل الصحراء وإفريقيا الوسطى بدعوة الإسلام، ولذلك تحرك زعيم الحركة لاختيار مركز متوسط يعينه على تبليغ رسالته وأداء واجبه. أما قول من قال: إنما قام بذلك خوفًا من الأوروبيين الذين

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ٢٢٠). (٢، ٣) انظر: المهدى السنوسى (٢٢١).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٢).

أرادوا القبض عليه فباطل؛ لأنه جاء للسودان الغربى ليقود حركة الجهاد ضد أطماع فرنسا خصوصًا والأوروبيين عمومًا[١] . وأما قول بعض المؤرخين: إنما اندفع نحو الجنوب خوفًا من السلطات العثمانية[٢]، فهذا مردود؛ لأن علاقة الحركة بالدولة كانت قوية، بل إن السنوسية أصبحت من الركائز المهمة فى فكرة الجامعة الإسلامية.

إن الإمام السنوسى حرص على أن يتوسط ميدانًا يقود به حركة الإسلام فى إفريقيا الوسطى، ولذلك اندفع جنوبًا، كما أنه حدثت أحداث مهمة جعلته يحرص على القرب منها، من ذلك: توغل فرنسا فى القارة الإفريقية ومحاولة بسط نفوذها على الإمارات الإسلامية فى إفريقيا الغربية[٣] . كانت الوسائل الأمنية لدى الحركة السنوسية تقوم بجمع المعلومات عن تحركات جواسيس فرنسا التى تحاول معرفة حقيقة قوة الحركة السنوسية. وكان الحدث الآخر الذى يشكل خطرًا على الحركة السنوسية فى تشاد؛ قيام سلطنة رابح فى السودان الغربى، فقام الإمام السنوسى بحركته الاستراتيجية، فانتقل إلى الكفرة كخطوة أولى، وعمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداى، التى كانت علاقتها بالحركة السنوسية قوية منذ عهد ابن السنوسى الذى كان على صلة بسلطانها: «ثم ازدادت الروابط بين المهدى وسلطان واداى فى المدة التالية حتى طلب يوسف -سلطان واداى- أن يوفد المهدى إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوبًا خاصًا فى عاصمته، فأرسل إليه سيدى محمد بن عبد الله السنى . . . فوطد نفوذ السنوسية فى واداى»[٤] .

ولابد من بيان العمل الجليل الذى قامت به قبيلة زوية فى مساندة الدعوة والوقوف معها ودعم زعيمها.

ثانيا: أحداث أثرت فى الإمام الثانى للحركة السنوسية:

مرت ظروف عصيبة بالإمام السنوسى أثناء إقامته بالكفرة أثرت فيه وفى حركته؛ فقد اشتد مرضه ولزم الفراش وعاوده المرض عدة مرات، واشتد به الألم حتى امتنع عن ملاقاة الناس والجلوس فى الصلاة.

وقد جاء فى رسالة بعث بها لأخيه قوله: «وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء، والألم الذى معى تهاون بحمد الله، وقد ظهر النقص فى الحبة الأولى؛ لأنها الكبيرة، وقل سيلانها وانجلت الزرقة التى حولها، وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع . . . وصرت أقدر على تكلف الجلوس فى الصلاة وملاقاة الناس»[٥] .

(١، ٢، ٣) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢١٨).

(٤) انظر: السنوسية دين ودولة. (٥) انظر: المهدى السنوسى (ص ٦٨).

وجاء فى رسالة أخرى لأخيه بتاريخ (١٣ من ربيع الأول ١٣١٣هـ) قوله: «أحسست بالألم فى الجهة الأخرى وتزايد. . . وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائمًا وقاعدًا، وصرت أصلى على جنبى راقدًا. . وقد تركت الخروج للناس والجمعة، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيرًا»(١). ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد ذلك وقد عرفت ذلك من خلال رسائله التى أرسلها إلى شيخ زاوية الطيلمون محمد على المحجوب. ومن المصائب التى مرت به وكانت متلاحقة. وفاة أستاذه عمران بن بركة فى منتصف سنة (١٣١١هـ)، وتوفيت والدته فى آخر تلك السنة، ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف أن توفى فى (٢٧ من رمضان ١٣١٣هـ)(٢).

ثالثًا: محمد الشريف شقيق الإمام المهدى:

كان محمد الشريف عالمًا ربانيًا ومستشارًا عبقريًا، وكان مشرفًا على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم، ودقة الفهم، والقدرة على التدريس، وتتلمذ على كبار علماء الحركة السنوسية، وتفرغ للطلب والتدريس، وساعده على ذلك وجود مكتبة كبيرة احتوت على النشاط الدينى، والعلمى، والأدبى. وقد تحدث الطيب الأشهب عنها فقال: «ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره؛ إذ أنها تعد فى طليعة المكتبات التى لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها، وكانت تضم قسمًا كبيرًا من المخطوطات النفيسة، ولم يجد الإمام بلدًا إسلاميًا إلا واستجلب منه الكتب، فمن مصر والحجاز والشام والأستانة وتونس ومراكش، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى». وقال الحشائشى عن هذه المكتبة: «أما الكتب الموجودة فى خزائنها فقد نيفت على الثمانية آلاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول توحيد وفقه، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية، ولا يُطبع فى العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به. . .»(٣).

لقد كانت الجغبوب محلاً لتخريج القادة وشيوخ الزوايا، ولذلك حرص ابن السنوسى وابنه المهدى على أن يوفرا جميع أسباب النشاط العلمى، وتتلمذ محمد الشريف على الشيوخ والعلماء، ونهل من الكتب الموجودة فى المكتبة المباركة حتى وصل إلى درجة عظيمة من الفقه والعلم.

يقول الأستاذ الأشهب: «سمعت هذه الحكاية الآتية من تلميذ والدى، السيد أحمد بن إدريس قال: كنا نحضر على السيد الشريف وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب

(١) انظر: المهدى السنوسى (ص ٦٨). (٢) انظر: الحركة السنوسية (ص ٢٢٤).
(٣) انظر: رحلة الحشائشى (ص ١٥٢).

اللغة، يجلس بكل تواضع ويضع الكراس الذى بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا ﷺ من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتى به، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق عليه، وعندما نقف على أى بيت من الشعر فى أى كتاب نقرؤه أو أى موضوع نتناوله يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدئ فى قراءة القصيدة من ذاكرته، إلى أن يقف على البيت الذى كان السبب فى إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته»[(١)].

إن هذا العالم الجليل والحبر العظيم والبحر الزاخر من العلوم كان من أعمدة الحركة العلمية، فبوفاته اهتزت الجغبوب، وتأثر الإمام المهدى بهذا الحدث الجلل. يقول أحمد الشريف عن خبر وفاة والده: «وفى يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره فصعب علينا فراقه غاية، وأزعجنا نهاية، ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون: إنا لله وإنا إليه راجعون»[(٢)].

لقد تأثر الإمام المهدى لوفاة أخيه وصبر واحتسب، وبكاه الإخوان السنوسيون فى كافة الأقطار، وأبّنه العلماء والشعراء والخطباء ومن بينهم: سيف مقرب، والسيد السنى، الذى وصل إليه أتباع الحركة السنوسية.

وبعد أسابيع قليلة من وفاة السيد الشريف أرسل السيد المهدى فى طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة، فسافر محمد عابد وأفراد بيت والده، مصحوبًا بالسيد أحمد الريفى، وأبى سيف مقرب، وبهذا الانتقال لم يبق من أفراد البيت السنوسى أحد بالجغبوب[(٣)].

وفى عام (١٣١٤هـ) جاء جلة أعيان برقة ورؤساء القبائل لزيارة الإمام المهدى ليقدموا لسيادته أحر التعازى فى وفاة أخيه[(٤)]، ويتدارسوا آخر تطورات الأوضاع الدولية والمحلية والإقليمية.

رابعًا: رحلة الإمام المهدى إلى السودان الغربى، والصدام مع فرنسا ووفاته:

كان الإمام المهدى يرسل البعثات الاستكشافية فى الصحراء ويحفر الآبار، ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربى، وكانت تلك الاستعدادات تجرى على قدم وساق، فى جو من الكتمان الشديد. وبعد أربع سنوات من المكوث فى الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو فى برقو فى

(١) انظر: السنوسى الكبير، (ص ٤٧).
(٢) انظر: أحمد الشريف المخطوط، (من ٤٤ إلى ٥٥).
(٣) انظر: برقة العربية، (ص ٢٢٧).
(٤) انظر: برقة العربية، (ص ٢٣١).

السودان الغربى؛ ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد(١) . وقد غادر المهدى الكفرة فى أواخر جمادى الثانية عام (١٣١٧هـ) ورافقه أفراد أسرته، وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل. وكان ذلك فى أواخر جمادى الثانية عام (١٣١٧هـ)(٢) . وكان عدد رفقائه من الرجال (١٠٦٦ رجلاً)، وهم الإخوان وشيوخ القبائل والحاشية الخاصة والخدم(٣) . واستغرقت المسافة بين الكفرة وقرو السودان الغربى شهرين تقريبًا(٤) . وبمجرد وصول الإمام إلى قرو وحط رحاله هناك، أخذ ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذت شعوب تلك المناطق تدخل فى دعوة الإسلام طوعًا، وتنضوى تحت زعامة الحركة السنوسية مختارة. وكانت فرنسا تراقب تحركات الحركة السنوسية، وتستعد لمعركة فاصلة معها، وخصوصًا بعد أن استطاعت القضاء على مملكة رابح الزبير وهزيمته فى معركة لختة، ثم تم قتله فى عام (١٩٠٠م) وخضعت لهم سلطنته وباتوا يهددون كانم(٥)، وكان زعيمها قد: «أرسل محمد البرانى إلى كانم فبنى زاوية فى بير العلالى، وطفق يجمع جيوشًا من قبائل التبو، والطوارق وأولاد سليمان والزاوية والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسى(٦)».

تقدم الفرنسيون نحو كانم فى حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة فى بير العلالى، واشتبكت الحملة فى معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البرانى الساعدى، فارتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد أن تركت ميدان المعركة زاخرًا بأشلاء الموتى والجرحى والمعدات، واستشهد عدد غير قليل من بينهم: الشيخ عبد الله بن موسى فريطيس، ووصل الخبر إلى الإمام المهدى، فأرسل من عنده نجدة لمعاونة المجاهدين واستأنف الفرنسيون زحفهم مرة أخرى، وكان عدد شهداء المعركة الثانية مائة شهيد، من بينهم كل من الشيوخ: غيث سيف النصر، أبو بكر قويطين، يونس بدر، السنوسى خير الله وشقيقه عبد الله وغيرهم، وقد بلغ عدد الأموات من الفرنسيين مائتين وثمانين، منهم خمسة وعشرون ضابطًا. وفى اليوم التالى من هذه المعركة زحف الفرنسيون بعدد كبير من الجيش تعززه قوات احتياطية، فاشتبكت مع المجاهدين فى معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين، واحتلال القوات المعادية لمركز «علالى». وفى هذه الأثناء وصلت نجدة من المجاهدين يقودها محمد عقيلة، واحتكت بالفرنسيين فى مركز لهم أقاموه خارج «علالى»، فالتحمت هناك فى معركة دامية، أسفرت عن احتلال المقر الفرنسى،

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٢٥، ٢٢٨).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٣٩).
(٣، ٤) انظر: برقة العربية، (ص ٢٣٩).
(٥، ٦) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٢٣٩).

والاستيلاء على جميع ما حواه، وفر عدد قليل من الفرنسيين إلى «علالى». ثم قرر القائد السنوسى الزحف على مركز «علالى»، وحاول بعض المجاهدين إقناعه ليكون زحفهم بعد تريث، غير أن القائد صمم على تحرير «علالى» من القوات الفرنسية أو أن يسكن «علالى» غرف الجنة، وتم الهجوم بروح جهادية عالية، واستُشهد القائد السنوسى، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسى أضعافًا مضاعفة. وفى هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدى[1]، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدى بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك فى يوم الأحد (٢٤ من صفر الموافق ٢ يونية ١٩٠٢م)، فى زاوية قرو، واقترح أحمد الريفى نقل جثمان المهدى إلى الكفرة فتم ذلك، ودُفن فى زاوية التاج[2].

لقد كان محمد المهدى داعية من الطراز الأول، تجسدت فى شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين فى كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أى خلاف إسلامى، أو أى مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين العائلات، أو بين القبائل، فكان يولى هذه الناحية مجهودات كبيرة من فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعمله وآرائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام[3]. وكان عفيفًا يحترز من المال العام، فعلى سبيل المثال وصل إلى الجغبوب حاكم برقة العثمانى الفريق رشيد باشا، وحل بطبيعة الحال ضيفًا مكرمًا على الإمام المهدى، فعومل هذا الضيف بالإكرام والاحترام والتقدير، ولم يتناول مع محمد المهدى الطعام إلا مرتين اثنتين، ومرد ذلك إلى أن موارد الجغبوب التى ينفق منها كانت من الأوقاف الإسلامية، والصدقات والزكاة الشرعية والهبات التى خصصها المتبرعون بها لتنفق على أوجه البر والإحسان، ثم ما احتُسب للمشاريع الإصلاحية والإنشاء والتعمير، وللإنفاق على المشاريع، وعلى طلاب العلم، والضيوف وعابرى السبيل والمعسرين. وبطبيعة الحال أن دار الضيافة -وهى أحد هذه المشاريع- هى التى تقوم بإكرام ضيف الجغبوب الكبير، وكان المهدى السنوسى يتحاشى أن يصل إليه شىء من ذلك، وهكذا لا يمكنه -على ما يظهر- أن يتناول من الأطعمة التى تعد لرشيد باشا. وإزاء هذه الحالة أقام مأدبتين من ماله الخاص لضيف الجغبوب المحترم، وتناول معه الطعام. لقد كان المهدى السنوسى ينفق من موارد خاصة، مصدرها الزراعة، وتنمية الماشية، بزاويتى القصور ودفنة، ومن هذه الموارد كان مأكله وملبسه[4].

(١) انظر: المهدى السنوسى، (ص ٧٣).
(٢) انظر: الحركة السنوسية، (ص ١٧٣).
(٣) انظر: المهدى السنوسى، (ص ٨٣).
(٤) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٧٩).

لقد اتصف الإمام المهدى السنوسى بصفات المؤمن ألا وهى «قوة الدين، وحزم فى لين، وإيمان فى يقين، وقصد فى غنى، وتحمل فى فاقة، وإحسان فى قدرة، وصبر فى شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخل، ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظُلِمَ، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه فى عناء، والناس منه فى رخاء»[1]، فرحمة الله على المهدى. لقد اهتز العالم الإسلامى لخبر وفاة المهدى، وكتبت الصحف والمجلات الغربية والشرقية حول وفاة الزعيم الإسلامى، وتولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدى ابن أخيه أحمد الشريف، فقام بتوجيه رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدى، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وبعد:

فإنه من عبد ربه سبحانه أحمد ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد السنوسى الخطابى الإدريسى الحسنى إلى الأجل الأبر الصفى الأنوار سيدى الشيخ... «ويكتب اسم شيخ الزاوية المرسل إليه الكتاب» سلمه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته، والموجب لهذا السؤال عن الأحوال لازالت محفوفة بالتكريم والإجلال، وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجارى الأقدار ساكنون، وفى قبضة من يقول للشىء كن فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا متعرضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون، وبما وعدنا به الله ورسوله موقنون، ولاغتلاس المنون مترقبون، سائلين منه تعالى منح ما بشر به الصابرين والقائلين عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، آجرنا الله وآجركم فى مصيبتنا ومصيبتكم بالأستاذ، الذى طالما رشد الخلق وإلى طريق الحق يهدى، سيدنا محمد ابن المهدى رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا بأسراره وأسرار آبائه وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه

(١) انظر: الحركة السنوسية، (ص ٨٤، ٨٥).

وأصفيائه؛ فقد نقله من الدنيا إلى الآخرة التى هى خير فى منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير من سنة عشرين وثلاثمائة وألف، ضاعف الله له الخيرات، وضاعف الضعوف ألوف ضعف، وسقى بشآبيب الرحمة تربته، وأسكنه مع الذين أنعم الله عليهم جنته، إنه جواد كريم بر رحيم، ومنا جزيل السلام إلى جميع الإخوان والمحبين، ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد، والسيد محمد إدريس، وكافة الأنجال والإخوان والسلام»(١).

[تاريخ ٧ من ربيع الأول ١٣٢٠هـ].

وهكذا انتقل السيد المهدى إلى رحمة الله وهو لم يبلغ الستين من عمره، استطاع خلالها أن يتوسع فى ميادين الدعوة مقتفيًا فى ذلك منهج والده، ومات وهو فى طريقه نحو ساحات الوغى، وألهب مشاعر أتباعه، ودفعهم نحو حب الجهاد، وورث القيادة لجيل آخر استطاع أن يقارع فرنسا وإيطاليا وإنجلترا بقيادة أحمد الشريف.



(١) انظر: مجموعة الشيخ منصور المحجوب، نقلاً عن الحركة السنوسية، (ص ٢٣٢).

الفصل الثاني:

الزعيم الثالث للحركة السنوسية

أحمد الشريف السنوسى

هو العالم الجليل، والقائد العظيم، والمجاهد القدير الذى قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا فى تشاد، وضد إيطاليا فى ليبيا، وضد بريطانيا فى مصر: السيد/ أحمد الشريف بن محمد الشريف ابن محمد بن على السنوسى الخطابى الإدريسى[١].

المبحث الأول

ولادته وتربيته وشيوخه

يتفق معظم المؤرخين على أنه وُلد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ (٢٧ من شوال سنة ١٢٩٠ هـ- الموافق لسنة ١٧٨٣م)[٢]، وانكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل، وحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة.

تربى -رحمه الله- فى حجر والده العلامة محمد الشريف، وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدى السنوسى، فاهتم بتربيته وتهذيبه، وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم، ولما أتم حفظ القرآن الكريم قال له عمه: أنت ما أخذت من القرآن إلا عنى[٣].

ومن أشهر العلماء الذين تعلم وأخذ العلم عليهم: محمد الشريف السنوسى، ومحمد المهدى السنوسى، وأحمد الريفى، ومحمد مصطفى المدنى التلمسانى، وعمران بن بركة، وهو جده من جهة الأم[٤].

ارتحل مع عمه من الجغبوب إلى الكفرة عام (١٣١٢هـ) وأسندت إليه مسئوليات جسام منذ البلوغ، وكان يشرف على رعاية القافلة المتجهة إلى الكفرة والتى تتكون من (٢٦٠٠ شخص)، وكان ينفذ أوامر عمه بدقة وعلى خير ما يرام، فلم يعرف الركون إلى الراحة.

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/٨، ٩).
(٢) انظر: أعلام ليبيا، للزاوى (٥١٢).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/٩).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدى (ص٢٢).

وفى سنة (١٣١٧هـ) ارتحل مع عمه محمد المهدى إلى منطقة قرو بالسودان الأوسط، فى مهمة دعوة الناس وتعليمهم الدين الإسلامى، وألف أحمد الشريف كتابًا عن هذه الرحلات أسماه «السراج الوهاج فى رحلة السيد المهدى من الجغبوب إلى التاج»(١).

وشارك مع عمه وأتباعه فى مجموعة معارك بالسودان وتشاد ضد الفرنسيين فى مناطق مختلفة مثل «واداى، كلك، علالى، وان، جنقة الكبرى، جنقة الصغرى، تبستى، بركو، قرو... إلى آخره»(٢)، واستمر الصراع السنوسى - الفرنسى إلى ما بعد وفاة محمد المهدى.



(١) ويسمى أيضًا: «الدر الفريد الوهاج فى الرحلة من الجغبوب إلى التاج».
(٢) انظر: نشأة العربية الحديثة، محمد عزة (ص٧٧).

المبحث الثاني

أحمد الشريف يتولى قيادة الحركة

ولما شعر محمد المهدى بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة؛ لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة، والوصاية على الخليفة الشرعى «إدريس»؛ ولما لمس فيه من صفات قيادية، واستعداد فطرى، وخبرة اكتسبها فى معاركه ضد فرنسا أهلته لتولى القيادة(١).

وكان إسناد الزعامة إلى أحمد الشريف قد صادف قبولاً وارتياحًا من جانب جميع الإخوان الذين اجتمعوا بالكفرة يوم (١٢ ربيع الأول من عام ١٢٢٠هـ- الموافق ليوم ١٩ يونيو ١٩٠٢م) حيث جرى الاحتفال بانتخاب أحمد الشريف(٢).

استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسى، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة فى إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية، وأناب عنه محمد السنى لإدارة أمور الجهاد. وشرع أحمد الشريف فى تشكيل جبهة إسلامية ضد الغزو الفرنسى الزاحف من جنوب تشاد إلى شرقها وشمالها: فقام بالاتصال بسلطان واداى «داود مرة» سنة (١٩٠٣م)، وأقنعه بسحب اعتراف واداى بالحماية الفرنسية على كانم، وباقومى، واستجاب السلطان داود لذلك وسحب اعترافه بالحماية الفرنسية(٣)، واتصل بالسلطان على دينار «سلطان دارفور» الذى أعلن توحيد جهود المسلمين ضد الغزو الصليبى الأوروبى(٤). لقد رأى أحمد الشريف أن التوسع الفرنسى فى الصحراء الإفريقية يعتبر تهديداً مباشراً لحركته الإسلامية الدعوية ولتجارة القوافل التى كانت تدعم بمردوداتها الاقتصادية نظام زواياه فى تلك المناطق(٥).

لقد كان تجار القوافل التابعون للحركة السنوسية من أعمدة الحركة الاقتصادية، ولنضرب مثلا على ذلك بالحاج أحمد الثنى الغدامسى الذى كانت له تجارة عظيمة مع أهل برنو وواداى وغات

(١) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت، الحولية الأولى، عام (١٩٨٠م)، (ص٧).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٩٨).
(٣) انظر: العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد (١٩٨٣م)، (ص٨٦).
(٤)، (٥) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٢٣).

ومصر وطرابلس وتونس، وكان جميع ما يأتى إلى جغبوب يأتى على يديه وهو الذى يجلبه إلى هناك بأثمان متهاونة، رفقًا بالإخوان ولذلك كان من المقربين من الشيخ محمد المهدى(١).

إن الحركة السنوسية فى بداية أمرها لم تكن لها سلطة الحكام الذين يديرون الشئون العامة كالعزل والتولية وإقامة الحدود، وجباية الأموال، وتنفيذ الأحكام. بل كان بداية أمرها الاهتمام بالدعوة إلى الله، وإرشاد العباد إلى العمل بما يأمر به دينهم الحنيف، ويسعون لإصلاح ذات البين، ويتبادلون النصح للحاكم والمحكوم، ويرشدونهم إلى تعاليم كتاب الله، وتعاليم سنة رسوله ﷺ، ويحرضونهم على بناء المساجد لإقامة الشعائر الإسلامية فيها، ويبذلون الجهد لفض المنازعات ما بين القبائل والمتخاصمين ويعلمونهم كيفية إخراج زكاة أموالهم، وكيفية عقد أنكحتهم، ويحرضونهم على نبذ العادات المخالفة للشرع، وبدأ جهادهم المنظم لحكومة فرنسا التى بدأت بالاعتداء على دعوتهم وحركتهم وقاوموا فرنسا غيرة على الدين الإسلامى الذى نشرته الحركة ودعاتها فى مجاهل إفريقيا(٢).

لقد قام الفرنسيون بعدما دانت لهم تشاد عام (١٩٠٩م) بهدم مراكز الإصلاح والإرشاد التابعة للحركة السنوسية وإلغائها. واستطاع أحمد الشريف أن يقنع العثمانيين بضرورة دعمه، والوقوف مع حركته، وأسفرت مفاوضاته مع العثمانيين عن إرسال جند من النظاميين إلى برقو والتبستى وتأسيس قائم مقام فى الكفرة، عين بها الشيخ كيلانى الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات، وهو والد المجاهد الكبير الذى دوخ إيطاليا صالح باش الأطيوش. ورفعت الراية العثمانية فى «وان» بالقرب من عين كلك. وكان المشرف على حركة الجهاد الشيخ الجليل محمد السنى، الذى أرسله المهدى إلى «أبشة» عاصمة واداى عقب انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة.

وهكذا ظلت المناوشات دائرة بين السنوسى والفرنسيين، واستطاع «الكولونيل لارجو» فى ديسمبر عام (١٩١٣م) أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبيرة فى «قرو» حيث جُرح ولدا السيد المهدى السنوسى نفسه «عبد الله وعبد العال» ووقعا فى الأسر(٣).

إن الفرنسيين كانوا يشعرون بالخطر العظيم من قِبل الحركة السنوسية، وكذلك الدول الأوروبية، وقد نشرت جريدة «دى كولونى» الألمانية كلامًا عن عالم ألمانى خبير بأحوال إفريقيا عامة والسنوسيين خاصة، زعم فيه أن عددهم يبلغ تسعة ملايين، وأن فى وسعهم إنفاذ جيش إلى مصر والسودان مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل، وذكر مجملا من تاريخهم عرّبته جريدة «المؤيد»

(١) انظر: رحلة الحشائشى (ص١٧١).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ١٥ إلى ٢٢).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص١٠٠).

عن جريدة «الميموريان» وهو : «أن طريقة السنوسية مهمة جدًا من حيث انتشارها السياسى فى إفريقيا، ومن حيث الكفاح القائم بين الديانتين الإسلامية والمسيحية فى هذه القارة، وقد أنشئت هذه الطريقة منذ خمسين عامًا تقريبًا أى فى عام (١٨٥٥م) بواحة الجغبوب، وواضع أساسها هو الشيخ محمد بن على السنوسى. . . ثم خلفه ابنه المهدى وكان وقتئذ فتى فتيًا وهو إلى اليوم رئيس المذهب الذى أصبح على عهده واسع النطاق منتشرًا فى الآفاق، وإشارة منه تكفى الآن لإزالة الشحناء والخصومة من بين سلطانين من سلاطين إفريقيا إذا قام بينهما الشقاق واستحكم الخلاف لأمر من الأمور. ومن الأمور التى لا ريب ولا خلاف فيها أنه إذا جاء يوم أمر فيه بالجهاد وأشار بالحرب الدينية اهتزت لصوته أركان العالم الإسلامى التى تترامى حدوده فى إفريقيا إلى مصر شرقًا، والكونغو جنوبًا حتى بحيرة تشاد ومراكش غربًا. وعليه يكون حزب السنوسى قد صار قوة من القوى السياسية التى ينبغى على كل دولة من دول أوروبا أن تعمل لها حسابًا. وقد اشتهر سيدى المهدى محمد بالتناهى فى التقوى والصلاح ورعاية أمور الدين، والتقشف فى المعيشة، وهو دائب السعى على توفير أسباب الوئام والاتفاق بين الأقوام والشعوب الإفريقية. . .»(١).

إن أعداء الإسلام يحاولون أن يرصدوا أى تحرك مفيد للدعوة والمسلمين، ويعملون ليلاً ونهارًا، وسرًا وإعلانًا على التحذير منه، وتشويهه ووضع العوائق فى طريقه مهما كلفهم الثمن، يدفعهم ذلك حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين.

يقول إدروساليفو استنادًا إلى الوثائق الفرنسية: «. . . من المهم أن نوضح أن السنوسية لم تكن مجرد حركة متذمرة ومتعصبة، فهى طريقة إصلاحية تهدف إلى إحياء الدين الإسلامى وإرجاعه إلى أصوله السلفية، كما تهدف إلى تحرير العالم الإسلامى من التبعية الاستعمارية التى سقط فيها. وإلى جانب ذلك الهدف الدينى، فإن السنوسية لها هدف آخر سياسى فى غاية الأهمية، وهو توحيد إفريقيا الإسلامية أولاً، وتوحيد العالم الإسلامى بعد ذلك فى إمبراطورية إسلامية جديدة، تتمتع بالأبهة والمجد والعظمة، وخالية من الشوائب التى لحقت بها خلال القرون التى ابتعد فيها العالم الإسلامى عن السُّنَّة النبوية الصحيحة، مما أضعفه نتيجة لذلك. وبالإضافة إلى الهدف الدينى والهدف السياسى هناك أيضًا الهدف الاقتصادى؛ حيث كان الإخوان يتنافسون بينهم على أعمال الزراعة والصناعة الخفيفة والتجارة من أى مكان تمد فيه الزوايا السنوسية أعمالها ونشاطها»(٢).

(١) انظر: تاريخ الإسلام، أنور الجندى (ص٢١٧).
(٢) انظر: الثورة السنوسية، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، (ص١٢).

لقد كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية فى إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون فى جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية، وبدأت قبائل طوارق النيجر تتجه شرقًا للالتحاق بحركة الجهاد، ولم تقع فى النيجر أى حوادث تذكر حتى بداية عام (١٩٠٣م) عندما بدأ الفرنسيون يزحفون نحو الشمال(١)، واندلعت المعارك الطاحنة التى كان خلفها أتباع الحركة السنوسية، وكان من أشهر قادة الحركة السنوسية:

أولا: المجاهد محمد كاوصن:

ولد محمد كاوصن فى بلدة «مرقو» حوالى عام (١٨٨٠م) وينتمى إلى قبيلة «إيكزكزن» إحدى القبائل الشريفة فى سلطنة الليمدان وإليها تنتهى رئاستها. قاد حركة الجهاد ضد فرنسا فى النيجر فى الحرب العالمية الأولى، وأبلى بلاءًا عظيمًا، وقد عاش هذا القائد أحداث الجهاد منذ اصطدام طوارق شمال النيجر ضد فرنسا عام (١٩٠١م) وهاجر ضمن قبائل الطوارق نحو الشرق، حيث استقر بـ«قورو» وانضم للطريقة السنوسية، وكان ضمن المجاهدين فى هجومهم على «وشنكال» فى نوفمبر فى عين «كلكا» وكان من ضمن المسئولين عن الموقع الفرنسى التابع لسرية الهجانة فى كانم بقيادة الملازم «موتوت».

وقد أعجب به أحمد الشريف وأسند إليه قيادة «عين إيدى»، وانطلق مجاهدًا فأغار على بيسكرى عام (١٩١٠م) وضغطت عليه القوات الفرنسية، فلجأ إلى دارفور حيث «سلطنة على دينار»، ثم رجع إلى «أوتياكا» والتحق بالشيخ محمد السنى فى سبتمبر عام (١٩١١م). ثم سافر إلى أى يروكو ووداى ووضع نفسه تحت قيادة القائم مقام العثمانى فى «عين كلكا» أكتوبر (١٩١١م)، وفى (٢٣ مايو ١٩١٣م) شارك كاوصن فى معركة أم العظام ضد فرنسا ولم يتمكن المجاهدون من النصر، واستشهد القائد عبد الله الطوير الزوى أثناء المعركة(٢). وبعدها انتقل كاوصن إلى فزان ووصل واو ودخل تحت قيادة محمد العباد السنوسى مندوب أحمد الشريف فى فزان، وشارك فى جهاد أهل الجنوب ضد إيطاليا. ثم رجع على رأس مجموعة من المجاهدين للاستيلاء على شمال النيجر، وطرد الفرنسيين منها. وراسل كاوصن سلاطين الطوارق والليمدان والأسير ومشايخ قبيلته يطلب منهم إعلان الجهاد المقدس ضد الكفار، ويعدهم بالنصر ويبلغهم أن الألمان سيلاقونهم فى نيجيريا(٣).

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، محمد القشاط (ص١١٥).

(٢)، (٣) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا (ص١٥٧).

يقول ساليفو : «ولكن كاوصن كان قد بدأ فعلاً في مراسلة مختلف زعماء الطوارق في آيير وخاصة سلطان «أقدز» و«تاقامة» صديقه المتواطئ معه عن طريق مراسلات سرية منتظمة(١).

ويقول ساليفو : ومن ناحية أخرى قام تاقامة بالاتصال بعدد من زعماء القبائل طالبًا مساعدتهم في المعركة المرتقبة التي تستعد السنوسية لخوضها مع الكفار، فلبت القبائل : أيكزكزن، إفدين، كل أغاروس، كل فروان، نداء تاقامة على الفوز. كما ردت قبائل : المشكر، تكريكريت، والليمدن في منطقة طاوة بالموافقة على نداء سلطان أقدز، فجاءت هذه القبائل واستقرت في المدينة مع العائلات والمواشي. . .»(٢).

وفي سرية تامة انطلقت كتائب المجاهدين التي يقودها محمد كاوصن القائد السنوسي باتجاه أقدز في أواخر فصل الخريف من عام (١٩١٦م) متجنبين حر الصحراء وحاجة المسافرين للماء. وفي مساء ليلة (١٢ - ١٣ ديسمبر) كان المجاهدون يطوفون أقدز وقد قبضوا في تلك الليلة على مجموعة من المشبوهين ومن لهم علاقة بالفرنسيين مثل مترجم المركز الفرنسي، وتاجر تونسي يدعى أنه يتعامل مع الفرنسيين في التجارة، كما تم القبض على شخص أمريكي تابع لجمعيات تنصيرية»(٣).

قسّم المجاهدون قواتهم إلى مجموعتين :

١- المجموعة الأولى بقيادة محمد كاوصن.

٢- المجموعة الثانية بقيادة أغالي من قبيلة أيكزكزن.

كانت كتائب المجاهدين تتكون من مجموعة كبيرة من الليبيين وحوالي (٤٠ شخصًا) من الشعانبة جزائريين يرأسهم مولاي قدور وهو جندي سابق مع فرنسا، فر من جيشهم والتحق بالمجاهدين ومجموعة من سكان الجنوب التونسي(٤).

وبدأ المجاهدون في قصف المركز الفرنسي صباح يوم (١٣ ديسمبر) لإجباره على التسليم، وفي (١٨ ديسمبر) سقطت أربعون قذيفة على المركز وألحقت به أضرارًا بالغة، وكان محمد كاوصن يدير المعركة بمهارة فائقة، وقدرة رائعة، ويشرف على سير المعركة، واستطاع المجاهدون أن يستولوا على المدينة وتحصلوا على غنائم، ولم يبق إلا المركز المحاصر الذي

(١) انظر : الثورة السنوسية (ص٦٨).
(٢) انظر : الثورة السنوسية (ص٧٠).
(٣)، (٤) انظر : جهاد الليبيين ضد فرنسا (ص١٥٩).

تخندق الفرنسيون داخله حيث تموينهم وسلاحهم وذخائرهم. وبدأ المجاهدون يرسلون الدوريات إلى المناطق المجاورة، وإلى تقاطع الطرق المؤدية إلى أقدز وفى يوم (٢٦ ديسمبر ١٩١٦م) اصطدمت قوة من المجاهدين بمجموعة فرنسية بقيادة الملازم سودان قادمة من زندر وأبادتها وقتلت الملازم سودان.

علم المجاهدون بقدوم قوة فرنسية تحمى قافلة الملح القادمة من بلما، فخصص كاوصن قسمًا من جماعته لحصار المركز، وانسحب بمن معه لملاقاة القافلة، ونصب لها كمينًا فى منطقة «شين تبوراق» يوم (٢٧ من ديسمبر ١٩١٦م)[(١)].

يقول النقيب «سابانى» بتاريخ (٢٨ من ديسمبر ١٩١٦م): «إن إطلاق النار قد سُمع من بعيد فى حوالى الساعة (١٧) من جهة الشرق، وبما أن الوقت متأخر فإننى لم أعين مجموعة للقيام بالاستطلاع فى تلك الجهة، وكان ذلك خسارة للفرنسيين؛ لأنه كان معركة «شين تبوراق» الشهيرة لا تنسى»[(٢)].

وقد استطاع المجاهدون تحقيق نصر ساحق ضد القوة الفرنسية، وكان حصاد معركة شين تبوراق: «(٦٠) ستين من رجال الهجانة التابعين للفصيل المتنقل قد لقوا حتفهم فلقى الملازم «ديفو» والطبيب العسكرى «رينود» والعريف «مريل» والعريف «قازلان» نفس المصير»[(٣)].

كما استولى المجاهدون على ستة أسرى، وستة من سكان المنطقة المجندين مع الفرنسيين وأعدموهم.

يقول كافيو: «ولكن من الناحية المعنوية فإن الهيبة التى أحرزها كاوصن من هذه الضربة كانت واضحة، فانتشرت أخبار الانتصار بسرعة فى أحياء الطوارق، مما زاد من تشجيع السنوسيين وأتباعهم وأصدقائهم ورفع معنوياتهم، فحسم موقف المترددين فقرروا الانضمام للمعسكر الأقوى، وفى ذلك الوقت على كل حال كان الأقوى فى نظر الأهالى كاوصن، وقد توافد الطوارق إلى معسكر كاوصن للانضمام إليه، ومن أجل الحصول على الشرعية للمشاركة فى الغنائم»[(٤)].

ويقول ساليفو: «وفى (٢٨ من ديسمبر) فى أثناء الليل زمجرت الطبول المعلنة للاحتفالات فى مدينة أقدز، وكان الوطنيون يحتفلون بانتصارهم الساحق ضد الرجال البيض الكفار»[(٥)].

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص١٦٠).
(٢) انظر: الثورة السنوسية، (ص ٨٢).
(٣) انظر: الثورة السنوسية، (ص٨٥).
(٤) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص١٦١).
(٥) انظر: الثورة السنوسية، (ص٨٦).

وكانت رسائل كاوصن تصل إلى السلاطين فى مناطق الطوارق تدعوهم للانضمام للجهاد ضد الكفار، وكانت فى هذه الأثناء مجموعات من المجاهدين الليبيين تهاجم أزوار بشمال تشاد، وأخرى تهاجم جادو، كما أن مجموعات أولاد سليمان فى شمال تينبكتو توجهت للمساهمة فى حصار أقدز بقيادة الخليفة ولد محمد، وهكذا تشتتت كل جهود الفرنسيين.

يقول ساليفو: «وهكذا إذن لم يكن أى فصيل من الهجانة فى كل أنحاء إقليم النيجر مستعدًا للذهاب إلى أقدز، فما العمل؟ هل يطلب من فصائل السودان التدخل وعلى الأخص من فصائل كيدال وتنبكتو التى كانت قريبة أكثر من غيرها؟ ولكن وبدون شك فإن القدر قد ساعد جماعة كاوصن؛ لأنه فى الواقع إذا كانت فصائل الهجانة مشغولة هنا فى أى مكان من النيجر، فإن هجانة كيدال قد انطلقوا لتوهم فى مطاردة غزوة عبر الصحراء»[(١)].

ويقول ساليفو نقلا عن المصادر الفرنسية: «فلا فائدة أيضًا من النظر إلى إقليم الجنوب الجزائرى؛ فقد تم إخلاء حصن «بولينياك» وهاجم السنوسيون حصن «موتيلانسكى»[(٢)]. «كان الموقف الأوروبى هو الذى استهدفته مسألة «كاوصن» وهددته فى إفريقيا الوسطى، ألم يكن كاوصن لديه مشروع التوغل فى بلاد الهوسا؟ وحينئذ تضامن الإنجليز والفرنسيون الذين كانوا قبل سنوات يتنافسون على هذه الأراضى التى لا يفصل بينها إلا خط وهمى يمر من ساى- بارُو- فحاولوا نسيان منازعتهم القديمة لمواجهة عدوهم المشترك»[(٣)].

وهكذا توحدت جهود فرنسا وبريطانيا وعملاء المنطقة على محاربة المجاهدين، وعلى رأسهم كاوصن[(٤)]. ولقد اندلعت معارك ضارية بين القوات الأوروبية، وقوات المجاهدين وكانت الغلبة للقوة التى ملكها الأوروبيون.

وقد فصل الدكتور محمد القشاط تلك المعارك:[(٥)] «لقد أتعب كاوصن الفرنسيين، وقد أبلى بلاءً حسنًا، وكانت وفاته فى ليبيا حيث تعرض لكمين من بعض القبائل التى كانت تكن له الكراهية والبغض، نتيجة لسوء تفاهم بينهم. فعندما مر بحيطة أم العظام فى جنوب ليبيا بمنطقة فزان هاجمته مجموعة من الرجال، فأمر مجموعته بعدم إطلاق النار قائلا: «هؤلاء لابد مسلمون جهلونا، فالفرنسيون بعيدون من هنا وكذلك الطليان». وتقدم ليوضح لهم فقبضوا عليه، وضربه

(١) انظر: الثورة السنوسية، (ص٩١).
(٢) انظر: الثورة السنوسية، (ص ٩١).
(٣) انظر: الثورة السنوسية، (ص٩٢).
(٤) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص١٦٥).
(٥) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (من ص١٦٥ إلى ١٨٠).

رجل اسمه العياط بالسوط، فقال كاوصن مخاطبًا العياط: «أنا كاوصن لا أُضرب بالسوط اضربني بالرصاص» فأخذوه حيث أمروه بحفر قبره بيده وقتلوه بعد أن صلى ركعتين في (٥ من يناير ١٩١٩م).

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد العظيم على يد أحمد العياط الذي قُتل عام (١٩٢٤م) على يد أحد المجاهدين بالحمادة الحمراء وهو يقاتل مع الطليان»[١].

أما بقية المجموعة من مجاهدي الصحراء فإنهم حين سمعوا بخبر كاوصن وظهرت لهم الحقيقة رجعوا إلى النيجر، حيث انسحبوا ليلا، وأخذوا معهم زنادات المدافع، وتابعتهم قوات خليفة الزاوي التابعة للأتراك الذين رغبوا ما بين عامي (١٩١٦م- ١٩١٨م) في القضاء على نفوذ السنوسية في فزان، الذي كان يقوده محمد عابد السنوسي.

ووجدت قوات الزاوي اثنين منهم مغميًا عليهما من العطش فأسعفاهما وأرجعاهما إلى حيث دفنوا زنادات المدافع وقتلوهما، ومع الأسف الشديد والحزن العميق كان أحد أولئك القتلى السلطان المجاهد الخورير – سلطان الليمدان الذي لم يستطع مواصلة السير من العطش، وسلم ولده الصغير محمد لأحد رفاقه وسقط هناك.

واستمر عبد الرحمن تاقامة يقود المجموعة المنهكة، وقليلة الزاد والذخيرة، راجعًا إلى الصحراء متخذًا من جبالها درعًا له[٢].

إن تلك الفتنة التي حدثت بين خليفة الزاوي ومحمد عابد السنوسي ساهمت في إجهاض حركة الجهاد في الصحراء الكبرى[٣]، وإني أعرضت صفحًا عن تفصيلها. أما عبد الرحمن تاقامة، فقد كان على علاقة وثيقة بالحركة السنوسية، ولذلك استجاب لنداء الجهاد المقدس ضد فرنسا، عندما وصله من زعامة الحركة، وساند حركة محمد كاوصن، وكان يمون ويمول المجاهدين طوال حصار أقدز في النيجر، والذي استمر قرابة الثلاثة أشهر، وعندما فك الحصار المجاهدون، انسحب معهم وقاتل فرنسا بضراوة، إلى أن وصل فزّان حيث استقبلهم خليفة الزاوي حاكم مرزق محاربًا. ولما قُتل كاوصن، انسحب عبد الرحمن تاقامة عائدًا إلى الصحراء.

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص١٧٦).
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (١٧٧).
(٣) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص١٧٥).

كان الفرنسيون يتابعون الأحداث:

يقول ساليفو: «كان الفرنسيون يتابعون تطورات الوضع السياسى فى فزّان عن كثب، وكانوا يعلمون أن كاوصن قد قُتل، ولكن تاقامة مازال حيًا مما سبب لهم نوعًا من القلق. وفى الحقيقة كانت شعبية سلطان آيير الأسبق مازالت عميقة، وكان الفرنسيون يعلمون أيضًا أن تاقامة يستطيع أن يجمع حوله من جديد عددًا من الأتباع ويهدد بوجه خاص تخوم المناطق الصحراوية فى النيجر»[١].

ولذلك شرع الفرنسيون بالتصدى له محاولين ألا يسترد أنفاسه؛ لأن مجموعات من مشايخ القبائل فى النيجر بدأت تعلن العصيان بعد أن علمت بوصول المجاهد عبد الرحمن تاقامة، بل بعضهم قام بإرسال جمال لإنقاذ مجموعة عبد الرحمن من العطش الذى أنهكهم»[٢].

يقول ساليفو: «وكان الفرنسيون قد أخذوا على عاتقهم وبكل ثمن منع تاقامة من التوجه إلى الكفرة. أى إلى ذلك المركز الروحى «التخريبى» الذى لعب دورًا كبيرًا، مهمًا فى النضال من أجل زعزعة استقرار المسيحيين فى إفريقيا»[٣].

وقد أرسل الفرنسيون فرقة لمصادمة تاقامة الذى وصل إلى جبال تيبستى، وشرع الفرنسيون فى سجن المواطنين وتعذيبهم وأخذ أولادهم ونسائهم رهائن، واتخذوا منهم مرشدين للطرقات لمتابعة مجموعات تاقامة الجهادية التى توزعت فى الجبال وانقسمت إلى مجموعات صغيرة لنقص الجمال والتموين. وفى يوم (٨ من مايو ١٩١٩م) استطاع الفرنسيون بواسطة المرشدين أن يطوقوا المجموعة الصغيرة، وفاجأوا المجاهدين بإطلاق النار من قريب، فسقطت تلك المجموعة شهداء فى ساحة الجهاد، وكان عددهم عشرة، وأُسر عبد الرحمن تاقامة وزوجته بعد أن نفدت ذخيرته، ثم أُودع السجن فى زندر، ومنها إلى أقدز «النيجر» حيث شُهر به، وكان مكبلاً بالحديد فى رجليه ويديه وعنقه ويحرسه ستة من الجنود. وفى ليلة (٢٩- ٣٠ من أبريل ١٩٢٠م) اقتحم آمر أقدز النقيب الفرنسى (فيتانى) وخنق ذلك الأسد المكبل فى قيوده لتصعد روحه مع الشهداء وأصحاب الجنان بإذن ربها، وادعت السلطات الفرنسية بأن عبد الرحمن انتحر، ليغطوا بذلك على فعلتهم الشنيعة، وبذلك أُسدل الستار على حياة هذا المسلم

(١) انظر: الثورة السنوسية، (ص ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨).
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ١٧٧).
(٣) انظر: الثورة السنوسية، (ص ١٥٧).

المجاهد الذى خاض حروبًا طاحنة، ومعارك ضارية، وجهادًا مريرًا، ضد النفوذ المسيحى الفرنسى فى الصحراء الكبرى، فعليه من الله المغفرة والرحمة والرضوان، وأعلى الله ذكره فى المصلحين(١).

ونرجع إلى القائد العظيم محمد كاوصن لنلقى الأضواء على بعض رسائله التى كان يحرّض بها الزعماء فى منطقة الصحراء الكبرى لينضووا تحت راية الجهاد التى كانت تحملها الحركة السنوسية.

رسالة من كاوصن إلى أعمامه:

أقدز فى (١٠ من مارس ١٩١٦م):

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى سيادة العزيز الكريم الكامل، إلى عمنا الحاج موسى، وعمنا «أدمير» وإلى جميع قبيلة «إيكزكزن» وكل من فى حمايتهم: السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وعلى كلٍّ أحبابكم وأصدقائكم سلامًا تامًا يعمكم جميعًا أنتم وبلادكم.

إن سألتم عنا فنحن على خير، ولا ينقصنا ولا نهتم إلا بكم، ونرجو من الله أن نلتقى معكم قريبًا، والله سميع مجيب الدعوات، ونطلب من الله تعالى أن يجمع شملنا بجاه النبى الحبيب ﷺ. ونحيطكم علمًا بأن ما يجرى فى الوقت الحاضر ليس إلا خيرًا، وأن الله سبحانه ثم تعالى والزعماء قد طردوا الفرنسيين فى بلاد «أزقير» وأن المجاهدين قد استولوا على مراكزهم.

إن المسلمين جميعًا قد قاموا إلى الجهاد، وإن الشعانبة(٢) الذين كانوا من أعداء الله قد انقسموا، فهرب بعضهم وذهب إلى المناطق الرملية قرب «غدامس»، وكذلك الذى يسترونه فى رسالة أخينا المختار بن محمد بأن قوات كبيرة تتوجه الآن إلى الإقليم الذى يحتله الفرنسيون أعداء الله ورسوله، واعلموا أن الحكومة التركية والألمان ينتظروننا فى «كانو» حيث سبقونا، ولا تشكوا فى ذلك، وكونوا رجالاً وانتظروا.

إن كل البلاد التى ستُفتح بين البحر ومصر ستُسلم إلى الحكومة السنوسية، وتلك هى النصيحة التى أوجهها لكم، تمسكوا بها إن الله العلى القدير قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ١٧٨).

(٢) من القبائل الجزائرية الكبيرة.

والسلام، إنها رسالة قادمة ممن يدعون الله من أجلكم، وعنهم كاوصن بن محمد(١).

كُتبت فى (٦ من ذى الحجة ١٣٣٤ هـ أكتوبر ١٩١٦)

ومختومة بختم يحمل العبارة التالية:

خادم الحكومة السنوسية

حاكم وادى فزّان

كاوصن (١٣٣٤هـ)

ومن رسائل محمد كاوصن إلى قبيلته يخبرهم بقوله:

«وإننا نخبركم بأننا قد أُرسلنا من طرف سيدنا الأكبر السيد محمد العابد الشريف بارك الله فيه وباركم، فأمرنا بإنهاض الناس وتحريضهم على القتال فى سبيل الله والطريق المستقيم وعلى كلمة الدين...»(٢).

ويقول فى فقرة أخرى من الرسالة:

«وكل ما نريده هو أن يتبع الناس جميعًا الطريق المستقيم؛ لأننا نعمل وفقًا لإرادة الله، ونطيع أوامر السيد العابد؛ لأن عهده قد بدأ بدون أدنى شك، وبكل يقين، وليس هناك سلطة أخرى غير سلطته؛ لأن العالم قد قُسم فأخذ كل واحد نصيبه -وذلك بمشيئة الله- وأنتم من الجزء الذى يقع فى نصيب السيد محمد العابد. يا أيها الناس: فكروا جيدًا، إننا مبعوثون من عنده لنهديكم إلى الصراط المستقيم، ونقوم بإدارة بلادكم، فلتبق هذه الكلمات فى ذهنكم، وتقبلوا تحيات خادم الطريقة المجيدة الشريفة الصحيحة الطريقة السنوسية...»(٣).

ثانيًا: المجاهد محمد عبد الله السنى:

من قيادات الحركة السنوسية التى قادت حركة الجهاد ضد فرنسا فى تشاد، وُلد بمزدة سنة (١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥١م)، من أسرة تنتمى للعباس بن عبد المطلب، جاء جدها الأول من المدينة المنورة، ونزل بواد قرب بلدة سنار بالسودان، فسمى الوادى باسمه «وادى مدنى».

انتقل والده إلى مكة حيث درس الفقه وعلوم الدين على يد الشيخ أحمد بن إدريس؛ حيث التقى هناك الشيخ محمد بن علىّ السنوسى، والذى عاد برفقته إلى ليبيا واشتركا فى تأسيس

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٤٤).

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٤٧).

(٣) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٤٨).

الزوايا لتعليم القرآن وعلوم الدين؛ حيث شرع الشيخ السنوسي في تكوين زواياه بالجبل الأخضر، وفي المناطق الشرقية من ليبيا. وبدأ الشيخ عبد الله السني في تأسيس زواياه في غرب ليبيا؛ حيث أسس زوايا في غدامس، ومزدة، والحرابة، ومصراتة، وغيرها.

ولما توفي الشيخ عبد الله سنة (١٢٩٦هـ) تولى ابنه إدارة الزوايا وتأسيس زوايا أخرى حيث أسس زاوية غريان، والقلعة، والعمامرة، والرحيبات. وكان رجلاً مباركًا، سعى إلى إخماد الكثير من الفتن بين القبائل. وفي عام (١٣١٣هـ) عاد أخوه عبد السلام من الكفرة بعد أن أنهى تحصيله العلمي، فترك له أمر الزوايا وذهب إلى الكفرة لملاقاة الشيخ محمد المهدي السنوسي، الذي تولى أمر الدعوة بعد وفاة والده.

وعند وصوله إلى هناك أمره شيخه بالتوجه لنشر الدين الإسلامي، وصد التغلغل التبشيري المسيحي في بلاد السودان «تشاد الحالية والنيجر».

سافر إلى هناك عام (١٨٩٦م)، وأسس زاوية (قرو) وعدة زوايا أخرى واستقر بـ(كانم) حيث تتواجد القبائل العربية الليبية: أولاد سليمان وغيرها، وأرسل في إحضار جزء من أسرته حيث لحق به ابناه عبد الله وعبد العالي، وبقيت الأسرة في مزدة، واستمر في جهاده في الصحراء أكثر من عشر سنوات. لقد شارك في الجهاد ضد فرنسا واصطدم بقواتها، وساهم بنفسه وماله في حركة الجهاد في زمن المهدي السنوسي، وأحمد الشريف[(١)].

ثم ينتقل بعد هذه الإشادة بالمجاهدين، إلى تقريع الفرنسيين الذين نعتهم بـ« الشياطين» لأنهم ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء، وأصلوا أهل البلاء الأُصَلاء نارًا حامية.

وشارك هذا الجيل في الجهاد ضد إيطاليا، استطاع ابنه المهدي تفجير ثورة (١٩١٤م- ١٩١٥م) في فزّان ضد إيطاليا، واستولى على قلعة «القاهرة بسبها».

واستمر ابنا محمد بن عبد الله السني يقودان الجهاد ضد إيطاليا؛ حيث تولى المهدي قيادة الجهاد في فزّان، وأحمد قيادته في منطقة الجبل الغربي إلى أن ضعفت المقاومة، وانتقل المجاهدون إلى فزّان، وفي أوباري قَدم الشيخ محمد بن عبد الله السني إلى الأسرة؛ حيث التقى بها بعد غياب دام ثلاثين سنة، ولكن الإيطاليين طوقوهم في أوباري حوالي عام (١٩٣٠م) وحكم على الشيخ وأبنائه بالإعدام، ولكن عفوًا عامًا شملهم فوُضعوا جميعًا تحت الإقامة الجبرية بمزدة بعد أن صُودرت ممتلكاتهم وأُحرقت مكتبة مزدة[(٢)]. وفي عام (١٩٣٢م) توفي محمد عبد الله السني

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢١٨، ٢١٩).

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢١٩).

-رحمه الله- ويُعتبر هذا العالم المجاهد الكبير من شعراء الحركة السنوسية، وقد تعرض الأستاذ محمد مسعود جبران لهذا الجانب على قلة ما وصل إليه من شعره، وقال: «في الحق إن شعره -على قلته- استطاع أن يرسم لنا إلى حد ما شخصيته، ويصوِّر لنا جوانب من أخلاقه ومثله التي كان يؤمن بها، في الاعتزاز بالدين، والذود عن العرين، وفي شوقه وحنينه للمدارج التي تربى بها، والبوادي التي كبر بين أحضانها، ويبين عن العهود التي وثقت صلاته بالعلماء والمجاهدين...»[١].

إن هذا العلم الشامخ، والبحر الزاخر، والشاعر الموهوب، والداعية المتفاني، والمجاهد الشجاع، كان من القادة التابعين لقيادة الحركة السنوسية، ومن الذين أفنوا حياتهم وجهادهم في هذا الطريق المبارك. ساهمت الحركة السنوسية في تربية بعض القيادات الميدانية التي شاركت في دفع حركة الجهاد ضد فرنسا، ومن أشهرهم:

ثالثًا: عبد الله فضيل الطوير الزوي:

تولى قيادة الزوايا السنوسية في شمال تشاد، وكان على رأس المجاهدين الذين تصدوا للغزو الاستعماري للمنطقة، وخاض عدة معارك موفقة، وسقط من زملائه العشرات من المجاهدين، وسقط في معركة العلالي (٥/ ١٢/ ١٩٠٢م) وحدها مائة شهيد من الليبيين كان من بينهم ستون من قبيلة زوية وحدها، قبيلة عبد الله الطوير. وفي معركة أم العظام شمال تشاد سقط عبد الله شهيدًا -عليه رحمه الله- في عام (١٩٠٦م) مع مجموعة من المجاهدين -عليهم رحمة الله جميعًا-.

رابعًا: البراني الساعدي:

هو من كبار العلماء المتفقهين في الشريعة من قبيلة زوية، أسس زاوية شرقي السلوم بأرض مصر عرفت باسمه إلى الآن «سيدي البراني»، ثم انتقل إلى الجنوب، حيث قاد الجهاد في الصحراء الكبرى ضد الغزو الفرنسي، ومن كبار قادة المجاهدين في مناطق كانم وشمال تشاد، دخل إلى الصحراء الكبرى من الكفرة في عام (١٣١٨هـ) واستطاع أن يقود دورًا جهاديًا في المنطقة باسمه «دور البراني»، وألحق بالفرنسيين عدة هزائم منكرة في بئر العلالي. وقد اعترف الفرنسيون له بالبراعة وإجادة التنظيم، واستطاع أن يصدهم في «عين كلكا» التي تولى تنظيم المجاهدين بها، واستُشهد عام (١٩٠٧م) في معاركه ضد فرنسا[٢].

(١) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير (١٩٨٤م)، (ص ٧١ إلى ١٠١).
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٢٢، ٢٢٣).

خامسًا: غيث عبد الجليل سيف النصر:

هو شيخ قبيلة أولاد سليمان الليبية المتواجدة فى منطقة كانم، اصطدم مع الفرنسيين ساعة وصولهم للمنطقة (١٨٩٩م)، ونشبت بينه وبينهم معارك طاحنة. قاد غيث الجهاد ضد الفرنسيين، وحطم التقدم الفرسى فى بئر العلالى فى معركة (٢٢/ ١١/ ١٨٩٩م) وسحق القوة الزاحفة، كما نشبت معركة أخرى يوم (٤ / ١/ ١٩٠٠م) بقيادة غيث ضد الفرنسيين، قُتِلَ فيها حليفه حاجى(١).

يقول سعيد الحنديرى: «كما سعى الفرنسيون إلى الوصول مع غيث إلى اتفاق لإنهاء المقاومة فى كانم، خاصة وأن الوضع أصبح مشجعًا للفرنسيين بعد مقتل حاجى حليف غيث، لكن الأخير رفض اللقاء بالفرنسيين، وكوّن دورًا من قبائل القذاذفة، وورفلة، والمغاربة، مع بعض القرعان، والطوارق، تقدّرها المصادر الفرنسية بخمسة آلاف رجل. لقد استشهد غيث عبد الجليل فى معركة بئر العلالى فى يوم (٩/ ١١/ ١٩٠١م)(٢).

سادسًا: محمد بو عقيلة الزوى:

من أفراد قبيلة زوية التى لعبت دورًا مهمًا فى الحرب الصحراوية ضد القوات الفرنسية. ونظرًا لنشاطه وشجاعته وحُسن تدبيره، عيَّنه أحمد الشريف قائدًا لحصن علالى بدلاً من البرانى الساعدى الذى عُيِّن فى الشمال(٣).

«لقد كان بو عقيلة ذكيًا بارعًا فى فنون القتال والحرب، فشهد له أعداؤه بذلك. يقول فرندى على سبيل المثال: «كان بو عقيلة جنديًا عظيمًا قادرًا على تدارك المواقف فى الوقت المناسب»(٤).

لقد قاد هذا القائد قبائل الطوارق، وأولاد سليمان، والقذاذفة، والمغاربة، وورفلة، وزوية فى جهاده ضد فرنسا، واستُشهد فى معاركه ضد فرنسا فى (٥/ ١٢/ ١٩٠٢م)(٥).

سابعًا: صالح بو كريم الزوى:

تولى تنظيم حركة الجهاد بشمال تشاد، وكانت معه قبائل: المجابرة، وورفلة، وأولاد سليمان، والقرعان، والقذاذفة.

---

(١) انظر: جهاد الليبين ضد فرنسا، (ص ٢٢٧).

(٢) انظر: العلاقات الليبية التشادية (ص ٨١، ٨٤).

(٣، ٤) انظر: جهاد الليبين ضد فرنسا، (ص ٢٣٣).

(٥) انظر: جهاد الليبين ضد فرنسا، (ص ٢٣٤).

وكان أحمد الشريف قد نجح فى إقناع سلطان واداى بسحب اعترافه بفرنسا واحتلالها لمنطقتى كانم وباقرمى، وأعلن الجهاد ضد فرنسا فى مناطق تيبستى (١٩٠٣- ١٩٠٩م)، وساند صالح بو كريم سلطان تيبستى داود ضد قائد الفلاتة ميتونة حليف فرنسا، واستطاعوا الانتصار عليه والقبض عليه وإعدامه بتهمة الخيانة العظمى ومناصرة العدو الكافر ضد المسلمين، وكان ذلك فى معركة ألتكو. وقاد معركة بسكرة ضد الفرنسيين، وقد سقط فيها عدة شهداء، وساهم صالح فى قيادة معارك (١٩١٠م- ١٩١١م- ١٩١٢م- ١٩١٣م) ضد الفرنسيين(١).

ولما أعلن أحمد الشريف الجهاد ضد إيطاليا ورجوع قوات المجاهدين إلى الشمال، كان صالح بو كريم من ضمنهم.

ثامنًا: كيلانى الأطيوشى المغربى:

هو شيخ قبائل المغاربة، ساهم فى تمويل الجهاد ضد فرنسا فى المناطق الشمالية من تشاد، وكانت قبيلته من القبائل المتميزة فى حركة الجهاد ضد فرنسا، عيَّنه الأتراك قائم مقام على الكفرة عند انسحابهم من منطقة الجنوب، وأصبح المشرف الإدارى على امتداد الصحراء الكبرى الشرقية، وتمويل حركة الجهاد الليبى فيها، وتوفى الكيلانى بالعطش عندما رحل باتجاه إجدابية ليشارك فى صد الطليان(٢).

تاسعًا: عابدين الكنتى:

هو عابدين بن محمد الكنتى، أحد شيوخ قبيلة كنتة فى منطقة تينبكتو، والذى ورث المشيخة عن والده الذى ينحدر من أسرة عربية يصل نسبها إلى عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقيا ومؤسس القيروان، وقد تلقى عن الشيخ محمد المهدى الانتساب إلى الطريقة السنوسية، ولهذا أعلن الجهاد ضد فرنسا فى صحراء مالى، وشمال موريتانيا، والساقية الحمراء، إلى جنوب المغرب بوادى نون عند أخواله قبيلة «تكنة» وجنوب الجزائر لدى طوارق الهقار الذى يقدرونه لنسبه الشريف، ولعلمه وتضلعه فى الدين. واستمر فى جهاده ما بين (١٨٩٢م إلى ١٩١٧م)، يهاجم القوات الفرنسية فى مناطق صحراء مالى، وجنوب الجزائر متحالفًا مع الخليفة ولد محمد، ومتصلاً بالليبيين فى جنوب الجزائر وبمركز الحركة السنوسية فى الكفرة. واستمر عابدين يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا فى جنوب المغرب، وشمال موريتانيا، وجنوب الجزائر. وشمال مالى،

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٣٥).
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٣٦).

وشمال النيجر، لقد قال العقيد الفرنسى كلوب عند مغادرته تينبكتو فى عام (١٨٩٩م): «الموت وحده الذى سينقذنا من عابدين»[١].

توفى عابدين مجاهداً فى جنوب المغرب فى أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد استمر يجاهد فى الصحراء الكبرى قرابة نصف قرن دون أن يهادن، أو يرمى السلاح. لقد كان هذا المجاهد من مالى، وينتسب للحركة السنوسية[٢].

هؤلاء من أشهر القادة السنوسيين الذين قادوا حركة الجهاد ضد فرنسا.

إن الغزو الإيطالى جعل القيادة السنوسية تنقل ثقلها نحو الشمال، وإن كانت حركة الجهاد ضد فرنسا قد استمرت بقيادة القادة السنوسيين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وفى فترة زعامة أحمد الشريف كان يشرف بنفسه على حركة الجهاد ضد فرنسا، وكان يحث التجار على السفر إلى السودان بتجارتهم سيما الأسلحة، ويقول لهم: إنها من أربح التجارة. وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وفى مكاتبته عام (١٣٢٨هـ) طلب منهم أن يبعثوا بألف وخمسمائة بندقية ثمنها من جيبه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين فى السودان، وقد وردت عنه هذه الكلمة: «ليس عندى صديق أعز ممن يساعدنى بالسلاح»[٣].



(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٣٩ إلى ٢٤١).

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، (ص ٢٤٢).

(٣) انظر: برقة العربية، (ص ٢٤٥).

المبحث الثالث

الغزو الإيطالى

تمهيد:

فى خلال فترة (١٨٨٢م -١٨٩٦م) تزايدت النشاطات التبشيرية الإيطالية فى ولاية طرابلس، وخاصة فى مجال التعليم، وأقبل بعض الضباط العثمانيين على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، فأصدر الوالى كمال باشا (١٨٩٣م -١٩٠٨م) قراراً فى (٢١ يوليو ١٨٩٨م) منع بموجبه أبناء ضباط الجيش العثمانى من الانتساب إلى هذه المدارس وضرورة تحويل أبنائهم إلى المدارس الحكومية العثمانية. ومما جاء فى القرار على لسان السلطان قوله: «لقد علمت أن الضباط يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية. وحيث إن الحكومة قد فتحت العديد من المدارس التى تسير على المنهج السليم؛ لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لإرسال أبناء الضباط إلى المدارس الأجنبية، ويُمنع هذا رسمياً[1].

استمرت إيطاليا بمحاولاتها الرامية لتأكيد مظاهر نفوذها فى ولاية طرابلس، وساهمت صحافتها فى ذلك عن طريق مجاهرتها بالدعوة إلى احتلال الولاية، والتقليل من شأن العثمانيين والطرابلسيين، بزعم عدم أهليتهم لحكم الولاية وإدارتها[2]. فاجتمع من أهل الولاية جمع غفير، وأرسل نحو خمسين من أعيانهم رسالة بالتلغراف إلى إستانبول يظهرون فيها استياءهم من لهجة الصحف الإيطالية، ويبدون فيها استعدادهم للدفاع عن وطنهم تحت راية الخلافة العثمانية. ومما جاء فى الرسالة: «أن أهالى طرابلس الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية الذى هو أعظم من حياتهم وأنهم لاينثنون عن الدفاع فى هذا السبيل، ولو انثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها... وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا -وبكل سرور- آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس وطنهم أعداء السلطة العثمانية»[3].

وهذا الخطاب يدل على مدى ارتباط المسلمين فى ليبيا بالخلافة الإسلامية، وعلى أصالتهم فى مكافحة وجهاد عدوهم، وعلى حبهم للموت فى سبيل الله، وصد كل عدو يفكر فى الاعتداء

(١) انظر: التعليم فى ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل (ص٣٠١).
(٢) انظر: جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب، (ص١٤).
(٣) جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب، (ص١٤، ١٥).

على أراضيهم والنيل من مقدساتهم، وما زالت هذه المعانى تجرى فى دماء الأحفاد الذين ورثوها من الأجداد من أصالة وديانة وشرف، قال الله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤]. عينت الدولة العثمانية رجب باشا (١٩٠٤-١٩٠٨م) واليًا على طرابلس، وكان من أشد الناس وطأة على سياسة إيطاليا، وعهده كان متميزًا بالنشاط والصلاح، «ووقف للسياسة الإيطالية فى كل طريق، وما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفًا لها بالمرصاد»[1].

ومع هذا لم تتوقف المساعى الإيطالية للتغلغل فى طرابلس وبرقة، وكانت معظم البعثات الإيطالية التى قَدمت إليها فى تلك الفترة، قد قامت بزيارتها بناء على مبادرة من الجمعية الإيطالية للاستكشاف الجَغرافى والتجارى التى كانت مدينة ميلانو مركزًا لها، وبإيعاز من رئيسها «كامبيريو» مدير بعثات كثيرة منها بعثة «مانفريد كامبيريو»، و«جوزيتبى هايمان» فى سنة (١٨٨١م) و«بيترو» عام (١٨٨٢م-١٨٨٣م) «بنيشة» فى عام (١٨٩٥م) «فينا بيادى دينى»، و«بيدويتى» فى سنة (١٩٠١م)، و«هانبهير» و«دى سانكتيس» فى سنة (١٩١٠م) وغيرهم كثير، وبعض هذه البعثات أحدثت ضجة واسعة؛ إذ أن أعضاءها قد سُجنوا من قبل الأتراك الذين لم يطلقوا سراحهم إلا فى نوفمبر (١٩١٢م)[2].

قام أول هؤلاء المبعوثين «كامبيريو» فى سنة (١٨٨٠م) برحلة إلى طرابلس وزار خلالها الخمس ومسلاتة، وعند عودته إلى ميلانو طلب من جمعية الاستكشاف الإيطالية إرسال جواسيس إلى برقة لإقامة مراكز تجارية فى بنغازى ودرنة كنقط انطلاق، وقامت البعثات الإيطالية بالتجسس على أوضاع ليبيا الاقتصادية والزراعية، وقامت بدراسة قرى بنغازى وتوكرة، والمرج، ودرنة، وشحات، وطلميثة، وطبرق. وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على أحوال ليبيا وعادات الشعب، وطريقة حياتهم، ثم عادوا إلى إيطاليا وقد رفعوا أبحاثهم إلى السلطات الحاكمة، وألقوا المحاضرات والخطب الرنانة لتشجيع حكوماتهم وشعبهم على احتلال ليبيا[3].

لقد تمكنت إيطاليا من فتح بنك روما فى طرابلس وأنشأت فروعه فى ليبيا، وبنت المصانع والمدارس، ودرست الأوضاع بعناية، وأرصدت الأموال لذلك.

---

(١) انظر: ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى، أحمد الدجانى (ص١٦٥).
(٢) انظر: الحوليات الليبية، شارم فيرو، (ص٧٩٢).
(٣) انظر: العدوان: الحرب بين إيطاليا وتركيا، محمد بازمة (ص٨٠).

يرى الباحث أنهم استمروا أكثر من ثلاثين سنة وهم يجمعون المعلومات ويرسلون الجواسيس ويخططون لغزو البلاد، ويتوغلون فى المجتمع بالمؤسسات التجارية والمدارس العلمية. . . إلخ، لغزو ديار المسلمين وهتك أعراضهم وتدمير بلادهم، وقتل أشرافهم، وسبى نسائهم، قال تعالى ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وفى سنة (١٩٠٠م) قامت شركة «روباتينو» للملاحة بمد خط بحرى منتظم مع مدينة طرابلس، وفى ديسمبر من نفس السنة أُبرم بين فرنسا وإيطاليا اتفاق، تم تأكيده مجددًا فى مايو سنة (١٩٠٢م) -وهو عبارة عن بروتوكول يقضى بعدم تدخل متبادل بين الدولتين، وبموجبه أعلنت إيطاليا أنها لن تكون لها أى مطامع استعمارية فى مراكش، وأعلنت فرنسا فى مقابل ذلك أنه لن تكون لها هى الأخرى أية مطامع استعمارية فى طرابلس. وفى سنة (١٩٠٧م) فتح مصرف روما فروعًا له فى طرابلس، فاستُثمرت بها رءوس أموال، وأنشئت مصالح إيطالية، كما تم تطوير الخطوط المحلية معها، والمدارس الإيطالية فيها، وأخذت الحكومة تشجع وتدعم مشاريع مواطنيها الذين كانوا يصطدمون باستمرار بالعقبات التى تواجههم فى طريقهم[(١)].

كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت فى سبيل ذلك جهدًا كبيرًا على مستوى الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولى بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك. إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية فى زمن السلطان عبد الحميد الثانى، وقوة نفوذ الحركة السنوسية فى داخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعمارى العدوانى الغاشم عام (١٩١١م).

أولاً: الهجوم الإيطالى على ليبيا:

كانت الدولة العثمانية تعانى اضطرابًا خطيرًا فى أوضاعها الداخلية والخارجية، بسبب الانقلاب الذى قادته جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد سنة (١٩٠٨م)، وكان ذلك الانقلاب المشئوم مدفوعًا من قبل اليهود، والماسونية، والدول الأوروبية، وكان السلطان محمد رشاد ألعوبة فى يد جمعية الاتحاد والترقى، ولم يكن السلطان محمد رشاد بأوفر حظًا من سابقيه؛ لأن النظم التقدمية الخيالية التى تبنتها جمعية الاتحاد والترقى قيدته، كذلك فإن قادة الانقلاب غالوا فى نزعتهم القومية، وأفرطوا فى سياسة التتريك التى نادوا بها[(٢)]، وساهموا فى ضياع ليبيا.

(١) انظر: الحوليات الليبية، شارم فيرو، (ص٧٩٣).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، (ص٤٨).

يقول الأستاذ محمود الشاذلى: «لعب «قره صو» -أحد قادة جمعية الاتحاد والترقى فى أيامها الأخيرة (١٩٠٩- ١٩١٨م) -دورًا رئيسيًا فى احتلال إيطاليا لليبيا، وكان يشغل وظيفة مفتش إعاشة، واضطر نتيجة لخيانته أن يهرب إلى إيطاليا، ويحصل على حق المواطنة الإيطالية، واستقر فى تريستا حيث مات عام (١٩٣٤م)»(١).

وأما متر سالم اليهودى الماسونى فيتحدث عن دوره الخبيث الجنرال جواد رفعت أتلخان فى كتابه «أسرار الماسونية»، ترجمة: نور الدين رضا الواعظ، سليمان أمين القابلى قائلاً: «إن طرابلس الغرب -ليبيا حاليًا- التى تعتبر موطن أخلص أبناء الدولة العثمانية، قد وقعت فى مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة، دبرها اليهودى الماسونى «متر سالم» الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين فى الماسونية، ورسم الخطط اللازمة، ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودى «متر سالم» لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى إستانبول بحجة التغيير والإصلاح. وبمساعى الماسونيين أيضًا سيقت قطاعات الجيش إلى اليمن، وهكذا سُلمت البلاد الطرابلسية «ليبيا» لقمة سائغة للطليان...»(٢).

وكانت وزارة إبراهيم حقى الاتحادية متواطئة مع إيطاليا، فضاع كل أمل أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئًا من عناية الدولة واهتمامها بها. لقد قامت حكومة السلطان عبد الحميد الثانى باتخاذ الأهبة لرد أى اعتداء على الولاية، وأرسل إليها السلطان قائدًا من خيرة قواده، هو رجب باشا الذى: «أُطلقت يده فى شئون الولاية الإدارية والعسكرية، فمرن أهلها على الأصول الحربية، ووزع على شبابها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر، حتى أصبح عدد الجيش المرابط فى طرابلس حوالى خمسة عشر ألفًا، وهذا عدا الفرق النظامية «قول أوغلى» من الأهلين العرب، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفًا، ومهمتهم معاونة الجيش النظامى. فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينتزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين قد يقومون فى وجه الحكومة إذا طُلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية. وانتهزت وزارة حقى باشا فرصة استفحال أمر الثورة فى اليمن، فسحبت معظم جيشها النظامى من طرابلس الغرب لاستخدامه فى إخماد هذه الثورة. على أنها لم تكتف بذلك، بل أهملت كل الإهمال الفرق الأهلية، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من خمسة آلاف مقاتل فقط. ومع أن أهالى البلاد طلبوا الانتظام فى سلك الجندية بعد إعلان الدستور العثمانى، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ما طلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الإيطالى

(١) انظر: المسألة الشرقية، (ص٢٠٢).

(٢) انظر: المسألة الشرقية، (٢٠١).

بفترة قصيرة، ولم تبدأ الإجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها. وزيادة على ذلك، فقد نقلت الحكومة العثمانية حوالى أربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهلون عند الطوارئ، ثم لم تفعل شيئًا من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها(١)، واستغلت إيطاليا نشوب الأزمة المراكشية وعمدت إلى توقيت البدء بالعمل العسكرى ضد ليبيا، فوجهت إنذارًا إلى الحكومة العثمانية تضمن التالى:

١- تذكير إيطاليا المستمر للباب العالى بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والإهمال، اللذين تركت فيهما طرابلس وبرقة من قبل الحكم العثمانى، وهو وضع ترى إيطاليا ضرورة تعديله وفقًا لمقتضيات المدنية والمصلحة الحيوية لإيطاليا بحكم قرب سواحلها من أراضى الولاية.

٢- إن مساندة الحكومة الإيطالية الدائمة للإمبراطورية العثمانية فى كثير من المسائل السياسية حتى فى الفترة الأخيرة قوبلت بتجاهل رغبات إيطاليا فى ولاية طرابلس وبمعارضة أنشطة الإيطاليين فيها.

٣- رفض الحكومة الإيطالية اقتراح إستانبول بإجراء مفاوضات تُمنح بمقتضاها إيطاليا امتيازات اقتصادية فى الولاية «وتحفظ لإستانبول شرفها ومصالحها العليا» لأنها تعتقد بأن تجارب الماضى أوضحت عدم جدوى مثل هذه المفاوضات التى قد تطرح أمورًا تصبح محل نزاع أو احتكاك جديد.

٤- الادعاء بأن قناصل فى طرابلس وبرقة تصور «خطورة الحركة السائدة ضد الإيطاليين والتى خلفها فيما بعد ضباط وهيئات أخرى من السلطات المحلية»، وهى خطورة ليست مقصورة على الإيطاليين وحدهم، بل على جميع الأجانب، مما دفعهم لمغادرة البلاد.

٥- إن الحكومة العثمانية ترسل الناقلات العسكرية لتزيد من تأزم الموقف فى البلاد، الأمر الذى يدفع إيطاليا لاتخاذ التدابير اللازمة ضد هذا العمل.

٦- قررت الحكومة الإيطالية الإقدام على احتلال طرابلس عسكريًا؛ لأن ذلك هو الحل الوحيد الذى يمكن أن تقبله إيطاليا.

٧- تطلب الحكومة الإيطالية إصدار الأوامر للممثلين والسلطات العثمانية فى الولاية بعدم مقاومة الغزو، ومن الممكن الاتفاق على تنفيذه دون أية عراقيل، وستتخذ بعده القرارات اللازمة لتسوية الحالة التى ستنتج عنه(٢).

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١١٥).

(٢) انظر: الغزو الإيطالى فى ليبيا، للبورى (ص٢٨٢، ٢٨٣).

قام السفير الإيطالى بتسليم مذكرة لرئيس الحكومة العثمانية حقى باشا الذى دعا وزارته للانعقاد وبحث الأمر معها، ثم عرض الموقف على السلطات، وتضمن الرد العثمانى إلقاء مسئولية التخلف الذى شهدته الولاية على حكومات العهد السابق، ونفى وجود أى عراقيل تحول دون الفعاليات الإيطالية فى الولاية، وحرصت الحكومة العثمانية على تلبية الطلبات بصورة دائمة، وأن الاحتجاجات المقدمة إليها من قبل سفارة دولة إيطاليا نُفذت بالكامل، وأُعطيت تعليمات مشددة لولاتها العاملين فى الولاية، وبينت الحكومة التركية أنه لا مانع لديها من العمل على تقديم امتيازات اقتصادية واسعة لدولة إيطاليا فى ولاية طرابلس الغرب(١). ومع هذا كله فقد ادعت الحكومة الإيطالية أن رد الحكومة العثمانية تأخر، فأعلنت الحرب على ليبيا، علمًا بأن بوارجها الحربية تحاصر الشواطئ الطرابلسية منذ منتصف شهر أيلول «سبتمبر»؛ أى قبل إرسال الإنذار إلى الحكومة العثمانية بثلاثة عشر يومًا، ولهذا كلفت بارجاتها بقصف السراى الحمراء الكائنة فى مدينة طرابلس(٢)، وكانت الأساطيل البحرية تقصف فى مدينة طرابلس.

ثانيًا: الجهاد فى طرابلس وفزان:

رغم ضآلة وضعف الإمكانات العسكرية للولاية، فقد تبنت مدفعيتا القلعتين «السلطنة والحميدية» الرد على القصف لتغطية انسحاب الحامية العثمانية والمجاهدين إلى الداخل، وبصعوبة بالغة استمرت مدفعية الولاية تناوش الإيطاليين حتى الثالث من شهر تشرين الأول. وخوفًا من تعريض الجاليات الإيطالية للأذى وعدم تعرض قواتهم لأى خطر مفاجئ، تأخر الإيطاليون فى عملية الإنزال البرى حتى الخامس من الشهر نفسه.

وأصدر قائد الحملة الجنرال «كارلو كانيفا» بيانًا باللغة العربية يخاطب سكان طرابلس جاء فيه: «ماذا يصدكم عن القدوم إلينا؟، أما يهمكم رعى مواشيكم وتعاطى تجارتكم آمنين؟، نحن أصحاب دين من أهل الكتاب وأحرار، واعلموا أن دولة إيطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهى طرابلس الغرب، فأقدموا إلينا بلا خوف، وبكمال الأمان، ونحن نؤكد أنه ليس من يؤذيكم وما من يسىء إليكم أو يضركم بأدنى شىء، فإن المال لا يذكر، واعلموا أن كل من يأتى إلينا ببارودته مع المهمات نحسن إليه بعشرين فرنكًا مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء، أما رؤساؤكم الدينيون والسياسيون فإن الحكومة الإيطالية تقبلهم وتؤيدهم بالصفة التى كانوا عليها قبلاً، بل يعين لهم رواتب ومعاشات، وناهيكم عن الكلام واحد والله

---

(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر (ص٥٠).

(٣) انظر: الحوليات الليبية، شارل فيرو، (ص٥١).

سبحانه وتعالى كريم، فاطلبوا إليه عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو يخلصكم»[1].

ولم يكتف الجنرال «كارل كانيفا» به، بل أصدر عدة بيانات، منها:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء، وصلى الله عليهم سلم أجمعين.

بأمر ملك إيطاليا المعظم فكتور عمونيل الثالث -نصره الله وزاد مجده- أنا الجنرال كارلوس كانيفا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليه محو الحكومة التركية من طرابلس وبرقة والمقاطعات التابعة لها، بناءً عليه أعلن للشعوب بأجمعهم القاطنين فى المقاطعات المنوه بها، من شاطئ البحر إلى آخره والحدود الداخلية الذين يملكون بيوتًا فى المدن وبساتين وحقولاً ومراعى حول المدن نفسها أو بعيدًا عنها ما يلى: إن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا حماه الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس، وبرقة، وفزان، والبلاد الأخرى التابعة لها التى لا تقع الآن تحت سيادة الأتراك، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعدتين عليهم، وتجعلهم أحرارًا يحكمون أنفسهم، وتحميهم من كل من يعتدى عليهم سواء كان من الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم، وعليه فأنتم يا سكان طرابلس وبرقة وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها، من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[النساء: ٥٨]، وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامى حرسه الله، واعلموا أنه ستبقى الشرائع الدينية والمدنية محترمة وتحترم الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر؛ لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهى تحسين حالتكم والعمل على استتباب راحتكم، ويجب أن يكون مطابقًا للشريعة الغراء والسنة المحمدية السمحاء، وسيقضى بينكم بالعدل طبقًا للشريعة الغراء وحسب أوامرها بواسطة قضاة اشتهروا بثقافتهم فى الشرع ذوى استقامة وسيرة حميدة، كما أنا لا نغض الطرف عمن يظلم من الرؤساء، ولا نغفر غشًا ولا خداعًا من أحد القضاة، فالكتاب والسنة فقط تقضى عليكم، واعلموا جيدًا أنه لا تؤخذ منكم ضرائب لتصرف خارجًا عن بلادكم، والضرائب المفروضة عليكم الآن ننظر فيها فإما أن تنقضى أو تلغى كما يقتضى العدل. واعلموا جيدًا أنه لا يُدعى أحد منكم للخدمة العسكرية، بالرغم عن إرادته، وفقط يقبل لها أولئك الذين يرغبون فى الانضمام تحت اللواء الإيطالى، باختيارهم لأجل حماية النفوس والأملاك، ولكى يكفلوا للبلاد السلم والنجاح، وأما الآخرون فيبقون فى بيوتهم

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر (ص٥٢).

منعكفين على العمل في الحقول ورعاية المواشي أو ممارسة التجارة والصناعة، والحرف الضرورية لقيام الحياة. وعلى هذا فكل امرئ يمكنه الصلاة في معبده حسب تعاليم دينه، يلزمكم أن تتضرعوا لله عز وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالي، ومجد ملكه لأنه أخذكم تحت ظل حمايته، والإيطاليون يرمون أن يكون اسمهم مهابًا من جميع أعدائكم. وأما منكم فقط، فيكون محبوبًا ومباركًا.

وبناء عليه وحسبما خولني جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته أعلنتكم بما تقدم، وسيجري مفعوله من هذا اليوم من شهر شوال سنة (١٣٢٩هـ)، ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلية التي ستوجه بين الحامية والمجتمعين، وبين الإيطاليين وسكان هذه البلاد، وإنني واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبي، لأنه سيكون قانونًا يجب أن يُحفظ بأمانة واستقامة ضمير، وشهامة من كلا الطرفين، وإذا وُجد من لا يحترم الشرائع ولا يعتبر الأشخاص أو يمس حرمة النساء، أو يخترق حرمة الملك أو يقاوم، أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى هذه البلاد، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر، قبلها ممن يمتلك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيمًا، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي لنبراس العدل والحق، فيا سكان طرابلس وبرقة والمقاطعات التابعة لها: اذكروا الله وقد قال في كتابه العزيز: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: ٨].

وقد جاء أيضًا: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[الأنفال: ٦١].

وجاء أيضًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، أي: الذين يصلحون الأرض، ويمنعون منها الفساد، وينشرون فيها العدل والعمران.

وجاء أيضًا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٨][(١)]، أي: لا تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس وتقاتلوا بعضكم بعضًا، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمّهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم.

وجاء أيضًا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦].

(١) انظر: مجلة المنار، محمد رشيد رضا، (جـ١٢، م١٤)، (ص٦٣٦)، وكذلك جهاد الأبطال، (ص٥٢).

وجاء أيضًا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنه لا يجرى فى ملكه إلا ما يرى، فهو مالك الملك وهو على كل شيء قدير. فمن أراد أن يظهر فى الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته فى ملكه لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناءً عليه يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية، وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء، فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم، ويخفق فوقها العلم المثلث «أبيض وأحمر وأخضر» إشارة إلى المحبة والإيمان(١).

وللأسف الشديد كان كاتب هذا المقال شيخًا من العلماء المحسوبين على الأزهر الشريف، وكتب ذلك مقابل عرض من الدنيا زائل، ولقد تأثر بهذا المنشور من لا رسوخ لعقيدته، ومن لا يعرف ضروريات ديننا الإسلامى العظيم، وغاب عنه حقيقة الصراع بين عقيدة التوحيد الصافية النقية، وبين عقائد النصرانية الفاسدة، بأنواعها المتعددة.

لقد لجأت إيطاليا إلى المكر والخداع، وبث الفرقة بين أهالى ليبيا والأتراك المساندين لهم، ودعت إلى الانفصال عن العثمانيين عن طريق المنشورات، وكانت الطائرات الإيطالية تلقيها على المعسكرات العربية، سارع أهالى ليبيا لإثبات ولائهم للدولة وأرسلوا برقية للحكومة فى الأستانة نقلتها بالنص جريدة «صباح» التركية، جاء فيها: «نحن العرب أبناء هذا الوطن العثمانى المقدس نفديه بالمهج ولا ننفصل عنه، ولو أراد هو الانفصال عنا. وإنا لمدينون فى حياتنا القومية واتحادنا للجنود العثمانيين وضباطهم البواسل، على أن ما نبذله وما سنبذله أيضًا من المهج والمال فى الذب عن حوضنا لم نبذله طوعًا لأوامر إخواننا الجنود، بل رغبة فى الاحتفاظ بكياننا، وإننا نجل هذه الرغبة؛ لأنها كانت سببًا فى شد أواصر الأخوة بيننا وبين إخواننا العثمانيين، فلهذا نعلن حكومة الأستانة وسائر إخواننا العثمانيين أننا مستعدون لبيع أرواحنا وأرواح أبنائنا على بساط هذه السهول والرمال المحرقة، دفاعًا عن بلادكم التى هى بلادنا؛ لأننا متأهبون للموت حتى لا يبقى منا فرد، والله لا يهدى كيد الخائنين»(٢).

ولقد فاخرت جريدة «طنين» التركية بهذه البطولات التى تنفجر من العرب فى حرب طرابلس، مشيرة إلى أن: «إخواننا العرب فعلوا المعجزات، فبيضوا صفحة تاريخنا، وعجزُ

(١) انظر: مجلة المنار، محمد رشيد رضا، (جـ١٢)، (ص٣٦٧).
(٢) انظر: جريدة المقطم، عدد (٦٩٤١)، فى (٩ من صفر ١٣٣٠هـ).

إيطاليا في الحال وفي الاستقبال بات أمرًا محققًا، . . . وبعد ما حالف النصر العرب الذين أبلوا بلاءً حسنًا . . . فلتعلم أوروبا هذا والسلام»[١].

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يدرك مدى الولاء الذي يحمله العرب في طرابلس للدولة العثمانية، وفي مقدمتهم السيد أحمد الشريف السنوسي، لهذا كان متفائلاً جدًا في تصريحه الصحفي الذي أدلى به لمجلة «نور إندسون» الألمانية، وأكد فيه أن الإيطاليين سيجدون مقاومة عنيفة من قبل السنوسيين وأتباعهم، وستكون خسائرهم فادحة وحساباتهم خاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قد أمّنت لهم ما يكفيهم من البنادق والمدافع لكي يقووا على المقاومة والدفاع عن وطنهم[٢]. وهذا القول هو ما أكده السفير البريطاني في الأستانة السير جيرارد لوثر في التقرير السنوي لسنة (١٩١٢م) الذي بعثه لوزير خارجيته في (١٧من أبريل ١٩١٣م)[٣].

ثالثًا: العنف الإيطالي والمقاومة:

كانت بيانات الجنرال كارلو كانيفا تدعو الشعب الليبي إلى التزام الهدوء، وكانت مليئة بالكذب والنفاق والتضليل. والمجزرة التي ارتكبها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بحق سكان المنشية في مدينة طرابلس والتي ذبح فيها من (٤-٧ آلاف نسمة) من بينهم الطفل والعجوز، ونفي تسعمائة شاب ليبي، وهتك الأعراض بدون سبب، لخير دليل على ممارسات الطليان المختلفة اللاأخلاقية. وإزاء تلك الوحشية البغيضة، فقد قاوم الشعب الليبي المسلم تلك الوحشية بصمود سُجل في صفحات التاريخ بماء الذهب الصافي.

ومما فجر الروح الجهادية لدى أهالي ليبيا، عجز إيطاليا عن احترام شعور الأهالي ومعتقداتهم، وأعطوا لهذه الحرب صبغة دينية واضحة؛ فقد بارك القسيس والبابا الحملة قبل سفرها من إيطاليا، وكان من أول ما قامت به بعد نزولها في مدينة طرابلس أن أقامت صلوات الشكر لله على احتلال المدينة، وعلى وضع الصليب في مكان الهلال، وكان العمل في حد ذاته كافيًا لإثارة كل مسلم في البلاد[٤]، وكان النشيد الذي يردده الجنود الغزاة: «أماه صلي ولا تبكي، بل اضحكي وتأملي، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية. . . سأقاتل

(١) انظر: جريدة المقطم، عدد (٦٩٨٠)، في (٢٥ من ربيع الأول ١٣٣٠هـ).
(٢) انظر: جريدة الأهرام، عدد (١٠٦١٣)، في (٢١ من صفر ١٣٣١هـ).
(٣) انظر: حروب البلقان، عايض الروقي، (ص١٠٢).
(٤) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٧٦٧).

بكل قوتى لمحو القرآن، ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا، وتحمسى أيتها الوالدة، وإن سألك أحد عن عدم حدادك علىّ، فأجيبيه: مات فى محاربة الإسلام»[١].

وصدق الله العظيم القائل ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد تحرك نواب البلاد وزعماؤها من ضواحى طرابلس نحو معسكرات الجهاد واشتركوا فى العمليات ونادوا على الأهالى بضرورة الخروج معهم، وقد قام بأهم دور فى هذه الحشود والاستعدادات فرحات باشا نائب طرابلس، وسليمان البارونى نائب الجبل، وسيف النصر من زعماء سرت.

كان فرحات بك له نفوذ كبير فى موطنه «الزاوية» وكان يقضى عطلته فى الواحة وقت نشوب الحرب، فعرض خدماته على القائد العثمانى، وكتب فى الوقت نفسه إلى المشايخ فى الواحات محرضًا إياهم على القيام والالتفاف حول راية السلطان والدفاع عن البلاد. وعلى الرغم من الدعاية المضادة التى كان يقوم بها بعض الشيوخ الموالين للإيطاليين فى العاصمة، فإن نداءات فرحات بك قد نجحت وارتفع العلم العثمانى فى كل مكان، وكان فرحات بك أول متطوع انضم إلى العثمانيين مع عدد من المتطوعين من الزاوية، وزوارة، والعجيلات، وكان وصوله سببًا فى تقوية الروح المعنوية لدعم الحامية العثمانية، التى كان يقودها نشأت بك[٢]، وتمركزت قوات المجاهدين فى العزيزية للقيام بمهمة الدفاع[٣].

أما سليمان بك البارونى -نائب الجبل- فقد كان يتمتع بعصبية أهل الجبل الغربى القوية مع حب الأهالى له، وكان يقضى عطلته فى فساطو وقت نزول إيطاليا فى طرابلس وانسحاب الحامية العثمانية إلى الداخل. وقد اتصل كذلك بالقائد العثمانى، ووصل بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين من مشايخ الجبل، وتفاهم مع نشأت بك ووعده بأن يواصل المتطوعون الحرب. وقد عاد إلى الجبل ودعا المشايخ المحليين واستنفرهم للحرب من أجل الإسلام ودولة الخلافة، ووجد نفسه على رأس ألف من رجال القبائل، ونتيجة لهذه المجهودات التى قام بها هذان الزعيمان فى طرابلس أخذت جماعات الليبيين تصل إلى معسكرات الجهاد من نالوت وغريان وغيرهما... وصلت إلى عشرات الآلاف من المجاهدين[٤].

رابعًا: أحمد الشريف يوجه أتباع الحركة للجهاد:

بعد وصول خبر احتلال إيطاليا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة والشيوخ والعلماء والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، (ص٤٧).
(٢) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٧٦٩).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٢٣).
(٤) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٧٧٠).

الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين فى جميع ساحات الوغى. وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدى بعصاتى هذه»[١]، وكانت القوة الإيمانية الدافعة تحرك أحمد الشريف نحو الجهاد، ولذلك رفض الخنوع والاستسلام للمحتل النصرانى مهما كانت قوته وجبروته، ووصلت أوامر أحمد الشريف إلى رؤساء الزوايا والشيوخ والأعيان والتابعين للحركة فى طرابلس وما حولها، يأمرهم بألا يتهاونوا وأن يستميتوا فى قتال العدو المهاجم، ومن هؤلاء الشيوخ:

* مصطفى أحمد الهونى رئيس زاوية هون.
* حامد بركات الشريف رئيس زاوية سوكنة.
* محمد على الأشهب رئيس زاوية «واو» فزان.
* السنى رئيس زاوية مزدة.
* عبد الوهاب العيساوى رئيس زاوية طرابلس.
* محمد على بن الشفيع رئيس زاوية سرت.

وكتب إلى زعماء القبائل المبرزين كالشيخ سيف النصر -زعيم قبائل أولاد سليمان وورفلة- وغيرهم.

وقام الشيخ محمد الأشهب بتنظيم معسكر من القبائل الفزانية، والطوارق، ورياح، والعرب المقيمين بإقليم فزان، وانضم آمود وكوسا من زعماء الطوارق إلى معسكر محمد الأشهب، وقام المغاربة بتأسيس معسكر بالنوفلية وكان زعيمه عبد الله بن إدريس، وساعده صالح الأطيوش، وقام أولاد سليمان وورفلة والقذاذفة بتأسيس معسكر تزعمه فى بداية الأمر سيف النصر نفسه، ثم ابنه أحمد بك، ومعسكر من قبائل أولاد أبى سيف يتولى قيادته الشيخ السنى، وأبو بكر قرزة[٢].

وبذلك أصبحت المعسكرات بالمنطقة الغربية أربعة تابعة للنسوسية قامت بدعم إخوانهم، والمشاركة معهم فى الجهاد ضد إيطاليا، وقام الليبيون عمومًا بتنظيم المعسكرات بضواحى طرابلس وغريان والخمس ومصراتة. وكان صدور الدعوة إلى الجهاد من زعيم الحركة السنوسية أحمد الشريف بمثابة الشرارة التى أوقدت النار فى طول البلاد وعرضها، فخفّ المجاهدون من أقاصى

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (١/ ٢٣).

(٢) انظر: برقة العربية، (ص٢٩٢).

طرابلس وفزّان، ثم من النيجر وتشاد لمؤازرة إخوانهم المجاهدين فى الجبل والغرب، وهى الجهات التى ظل زعماؤها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور الحركة السنوسية الانضواء تحت لوائها؛ ومع هذا فقد كان أحمد الشريف صاحب نفس عظيمة، وهمة فى الجهاد والتغلب على العوائق التى تحول دون وحدة الصف الإسلامى فى بلادنا[١].

يقول الشيخ الطاهر الزاوى عن أحمد الشريف: «فالسيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفّت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله، فتولى توفيقه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه»[٢].

لقد تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال فى طرابلس، وفى منتصف يناير (١٩١٢م) قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب، فأصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين وأهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدى، ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة، وقد نُقش نداء أحمد الشريف على راية من الحرير حملها المجاهدون فى طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة فى الجنوب خصوصًا، فكان من أثر هذا «النداء» أن تدفقت جموع المجاهدين على المعسكرات العثمانية فى العزيزية وغربان، وعلى مراكز العرب فى «سنيات بنى آدم»، فكان المعسكر فى «السنيات» بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات، وزنزور، ومصراتة، وصرمان، وأولاد يوسف، وورفلة، وغريان، والجبل، والعزيزية، وأولاد سليمان، ومجاهدى فزّان، والطوارق. ولم يكتف أحمد الشريف بذلك، بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات المجاهدين فى العزيزية. وفى (٢٥ من مارس ١٩١٢) وصلت نجدات أحمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف، وتحمل معها نبأ تحرك نجدات أخرى، لا تزال تجدُّ السير فى طريقها إلى معسكر المجاهدين، وكان يوم وصولها يومًا مشهودًا فى تاريخ الجهاد فى طرابلس.

وقد اعترف السلطان العثمانى نفسه بهذه الجهود التى قام بها أحمد الشريف السنوسى، فأهداه فى هذا الشهر (مارس ١٩١٢م) سيفًا ونيشانًا مرصعًا بالجواهر مكافأة وتقديرًا لجهوده.

بيد أن جهود الحركة السنوسية كانت أكثر وضوحًا وأعمق أثرًا فى سير الجهاد ضد إيطاليا فى برقة، وهذا ما سنأتى على بيانه بإذن الله تعالى[٣].

لقد أصبح العدو فى حيص بيص، ولم يتمكن من احتلال الدواخل بعد الثغور التى احتلها الأسطول، واضطرت إيطاليا إلى إعادة حساباتها. ولكيلا تظهر إيطاليا أمام المجتمع الأوروبى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٢٦). (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص ١٨٧).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٢٦، ١٢٧).

السياسى منهكة، وأن قواتها غير قادرة على إخضاع ليبيا لسيطرتها، ولإخفاء فشلها لجأت إلى إصدار بيان تعلن فيه ضم ليبيا إليها، وهدفت من ذلك البيان إلى عدة أمور، منها:

* إقناع الدول الأوروبية بأن إيطاليا قد ملكت زمام الأمر فى ولاية طرابلس.

* وضع الإمبراطورية العثمانية أمام الأمر الواقع، وإجبارها على الاعتراف بسيادتها على ليبيا.

* إيقاف المعارك الحربية؛ لأنها ستصبح غير قانونية أو شرعية فى مواجهة الدولة الإيطالية صاحبة السيادة الجديدة[١].

إن قرار الضم الذى أعلنته إيطاليا، جعل الدولة العثمانية تعلن احتجاجها عليه، وعدت ذلك خرقًا صريحًا للقانون الدولى، وقد استندت الدولة العثمانية إلى نجاح المقاومة الجهادية وعجز القوات الإيطالية عن تحقيق أى نصر[٢].

وأبرق السلطان فى (٢ من أكتوبر) إلى ملك إنجلتر وإمبراطور ألمانيا وحكومات أوروبا ورئيس الجمهورية الفرنسية وبقية الملوك والقياصرة يطلب منهم فض النزاع القائم وحقن دماء البشر، ولكن بدون جدوى؛ فقد اعتذرت كل هذه الحكومات عن عدم التدخل[٣]، وبذلك تكون الحملة الدبلوماسية المكثفة التى قامت بها الدولة العثمانية قد فشلت.

فقد تخلت الدول الأوروبية كلها عن الدولة العثمانية، بدءًا بفرنسا التى أصدرت بيانًا أعلنت فيه حيادها وعدم قدرتها على التوسط لإنهاء الحرب فى الوقت الراهن، وسارت روسيا على نفس النهج. أما بريطانيا فرغم حساسية موقفها -لا سيما أمام رعاياها فى العالم الإسلامى- فإنه لم يطل ترددها لتعلن هى الأخرى ما أسمته بالحياد، ولكنه ليس حيادًا بالمعنى الصحيح، إذ أنها أرغمت مصر على الحياد، وهذا فيه مساعدة لحكومة إيطاليا المعتدية[٤].

لم يتمكن الإيطاليون من التقدم شبرًا إلا بدفع ثمن باهظ؛ فبعد جهد جهيد، وتحمل الخسائر الفادحة، والضربات القاسية، ومعاناة الشدائد والأهوال، تمكنوا - بفضل قواتهم العديدة والأسلحة الفتاكة، ومعاونة الأذناب- من الاستيلاء على بعض أماكن فى دواخل البلاد، كالخمس ومصراتة وزليطن ورفلة، وترهونة، وزوارة، ثم تمكنت القوات الإيطالية من الوصول إلى هون ثم فزّان، واستسلم بهذه المحلات المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وأما الباقون فقد انسحبوا إلى أماكن أخرى أمامية لمواصلة

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، (ص ٥٣).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، (ص ٥٣، ٥٤).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ١١٨).
(٤) انظر: حروب البلقان، (ص٧٥).

القتال، وقد استعمل الإيطاليون كل الأساليب الوحشية في المواقع التي احتلوها خصوصًا في مدينة طرابلس[(١)].

ولقد خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي خاضها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا ومن أهمها؛ معركة طرابلس بتاريخ (٨, ٩, ١٠/ ١٩١١م)، وكذلك في تاريخ (٢١ و٢٢/ ١٩١٢م)، معارك الخمس بتاريخ (١٧- ٢١- ١ أبريل ١٩١٢م)، معركة الهاني شارع الشط، ومعركة الهاني أو مليانة، معركة الهاني سيدي المصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء[(٢)]. . . إلخ، وكانت ما بين عام (١٩١١م إلى عام ١٩١٢م)، ولا شك أن هذه المعارك تحتاج إلى دراسة تفصيلية، ولعل أحد أبناء هذا البلد الطيب يقوم بذلك.

خامسًا: جهاد قبائل المغاربة البطولي:

استمر العدو الإيطالي في زحفه حتى وصل سرت وهناك توقف سيره وأرسل دعاته لاستعمال الحيل والدسائس كي يستميل بها قبائل المغاربة التابعة لزاوية النوفلية السنوسية مستغلاً فرصة حاجة تلك القبائل للمئونة والملابس، فكاتب القائد الإيطالي الذي احتل سرت شيوخ قبائل الرعيضات «المغاربة» واعدًا إياهم أن قواته لن تخرج من سرت، وعليهم أن يأتوا السوق لشراء ما يحتاجون إليه على شرط لا يعتدي أحد الطرفين على الآخر، فاغتنم الأهالي هذه الفرصة في شيء من الحذر واليقظة، وأرسلوا إلى إخوانهم بإجدابية أن يأتوا بقوافلهم إلى هذه السوق، فيشترون المأكولات والملابس، وأراد المغاربة بذلك أن يحققوا هدفين:

١- إخراج الزعيم سيف النصر وأبنائه؛ عبد الجليل ومحمد وسليمان وإخوانهم جميعًا، وقد وقعوا في الأسر بعد احتلال الطليان لواحات هون، وتم اعتقالهم بزوارة، فكان أحد شروط المغاربة الإتيان بهم، وقد جاء بهم الطليان إلى سرت استغلالاً لنفوذهم، وربما يتمكن بواسطتهم من أي عمل كان، ولكنهم خلصوا منه والتحقوا معسكر المجاهدين المغاربة.

٢- استفاد المغاربة من السوق في سرت، واشتروا كميات ضخمة من المؤن استفادت منها قبائل برقة الغربية.

وأراد الطليان الغدر والخيانة والوثوب على غرة، وهاجم العدو زاوية النوفلية، واشتبك مع المغاربة في قتال عنيف أسفر عن احتلالها بعد خسارة عظيمة، وكان من بين الشهداء يومئذ:

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، (ص ٥٩، ٦٠)، ويمكن الرجوع إلى جهاد الأبطال؛ ففيه تفصيل لبعض المعارك.

الشيخ السنوسى الأطيوش، ومن بين الجرحى: عبد الله بن إدرس، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسنًا، ثم التحمت المعركة الثانية بين الفريقين بموقع الخدة، وتلتها معركة العويجة، وتوالت المعارك ليلاً ونهاراً، وكل فريق من المتحاربين نال نصيبه من الكر والفر والربح والخسارة، فكانت هذه المعارك مدعاة لإثارة روح الهمة والنشاط والأمل بين المجاهدين فى الجهات الأخرى، وجعلت أولئك الذين قُدر لهم أن يكونوا تحت الطليان يتأهبون للقيام من جديد، سيما قبائل أولاد أبو سيف. فى هذه الأثناء كتبت هذه القبائل ومن حولها إلى أحمد الشريف يطلبون منه إيفاد نائبًا عنه -يلتفون حوله وينظم صفوفهم- فعيّن أحمد الشريف أخاه صفى الدين السنوسى نائبًا عنه لربط المعسكرات السنوسية بطرابلس والإشراف عليها، كما عين أخاه محمد عابد السنوسى نائبًا عنه بمنطقة فزّان(١).

سادساً: المجاهد الكبير القائد الشهير صفى الدين السنوسى:

توجه صفى الدين فى يوم (١٣ من جمادى الأول عام ١٣٣٣هـ)، وترك إجدابية ليتولى القيادة فى الجهات الغربية، فكان لتعيينه فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وهى ترى زعماءها يقودون الجيش بأنفسهم ويتولون الأعمال، ويخوضون ميادين القتال. واستقبلت القبائل فى المنطقة الغربية صفى الدين لتشد من أزره وتقوى عزمه، وكان على رأس المستقبلين: عبد الله بن إدريس، ثم توجه إلى معسكر المجاهدين، وكان فى استقباله صالح باشا الأطيوش، وتولى الإشراف على أمور المعسكر والمجاهدين، ورتب الأعمال، ثم غادر معسكر المغاربة متجهًا إلى معسكر حمد بك سيف النصر، وفى معيته كل من الشيوخ: صالح البسكرى، ومصطفى منينه، ورويفع بن إديس، وعبد العزيز صهد. وبعد وصول صفى الدين علمت إيطاليا بوصول نائب أحمد الشريف إلى جهات سرت من طرابلس، فاستعدت بحملة عظيمة لملاقاته وصده عن مواصلة سيره، إن لم تتمكن من القبض عليه. فعملت كل ما تستطيع عمله من تجهيز هذه الحملة وتزويدها بأقوى الأسلحة، فاندلعت معركة عظيمة بين القوات السنوسية والإيطالية بموقع «أبى هادى»، وكان صفى الدين فى مقدمة المجاهدين مصحوبًا بأبطال الجهاد، منهم؛ حمد بك سيف النصر، وعبد الله بن إدريس، وصالح باشا الأطيوش، وأحمد التواتى، وغيرهم من البواسل. واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة الإيطاليين خسارة فادحة فى الأرواح والعتاد، ولم يبق من جيش إيطاليا إلا النزر اليسير.

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٩٤).

كانت تلك الانتصارات التى حققها السنوسيون محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفى الدين، وكان رمضان السويحلى على رأس أولئك الأبطال المغاوير، ولذلك اتصل بصفى الدين السنوسى، واتفق معه على أن يعمل جهد المستطاع للاتصال بهم دائمًا، وعمل على دعم المجاهدين السنوسيين بالمؤن والبضائع من سوق «مصراتة»، وشارك مع صفى الدين السنوسى سرًا فى معركة «أبى هادى» وأبلى هو ورفقاؤه بلاء حسنًا، وأصيب أخوه حمد بجراح(١).

اشتدت الضربات القوية على القوات الإيطالية، وخشيت على سمعتها العسكرية، وأخذت تعد العدة من جديد للقضاء على المعسكر السنوسى.

وقام الشيخ صالح الأطيوش بتجنيد أهالى «الخشة» من المغاربة وأتباعهم، كما قام عمر سيف النصر بتجنيد قبائل أولاد سليمان وأتباعهم، وقام عبد الجليل سيف النصر بتجنيد قبائل القذاذفة، وقام محمد علىّ الشفيع بتجنيد قبائل الفرجان، والهماملة، ومعدان استعدادًا لمعركة أخرى عُرفت فى التاريخ باسم معركة القرضابية.

سابعًا: معركة القرضابية:

جمع الطليان قوات أرغموا سكان السواحل التى يحتلونها على الانضمام إلى قواتهم، وكان على رأسهم: رمضان السّويحلى زعيم مصراتة، ، فالتقوا المجاهدين عند القرضابية، أو قصر بوهادى، وكان رمضان السويحلى -على ما يبدو- قد اتفق مع السنوسيين على أن يندس بقواته مع الجيش الإيطالى الذى كان يقوده الكولونيل «ميانى». يقول الشيخ الطاهر الزاوى: «وقد تواترت الأخبار عمن لهم صلة برمضان بأنه كان يعتزم الانقلاب على الجيش الإيطالى، إن لم يوافق المجاهدون على الصلح، وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له -والجيش على أهبة الخروج من مصراتة-: وكيف تحارب إخوانك المسلمين؟ فقال له رمضان: أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح، فإن امتنعوا فسأنقلب معهم على الطليان، واعتزام رمضان الانقلاب على الطليان لا يشك فيه إلا مكابر»(٢).

وبدأت المفاوضات بين الجيش الإيطالى والسنوسى من أجل الصلح، وقام العقيد ميانى بإرسال وفد من زعماء العرب يتكون من أربعين فارسًا، ولما وصل الوفد إلى الجيش السنوسى رفض الرجوع، وكان ذلك فى (١١ من جمادى الثانية ١٣٣٣هـ) ورجع بعض الأفراد إلى القوات الإيطالية.

---

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٩٧).

(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص ١٥٣).

خدعة حربية من المجاهد الكبير صفى الدين:

أمر «صفى الدين» حمد بك سيف النصر بأن يعلن جهاراً بأنه سيغزو ورفلة، وسرعان ما وصل الخبر إلى العدو بواسطة الأشخاص الذين عادوا من المعسكر وبعض الجواسيس، فاتفق رأى القائد الإيطالى وأركان حربه على أن يرجع عبد النبى بلخير بقواته للدفاع عن ورفلة قبل أن يصلها سيف النصر، وبذلك خسر القائد الإيطالى هذا القسم من قواته وقائده عبد النبى، وقبل اندلاع المعركة أعلن صفى الدين أن الليبيين الذين مع الجيش الإيطالى هم المجاهدون وسوف ينقلبون على القوات المعتدية، وارتفعت الروح المعنوية لدى المجاهدين السنوسيين، وعندما سمع «ميانى» الخبر جرد الليبيين من السلاح وكلفهم بنقل المؤن فقط، ووضع الأعيان بسيارات خاصة، وبذلك خسرت القوات العربية، إضافة إلى جيش ورفلة. وتقدمت قوات أحمد سيف النصر يقتفى أثرها خلسة، فكان يختفى بالنهار، ويقتفى أثرها ليلاً، وكان من المؤكد عند الطليان أن أحمد سيف النصر ذهب بقواته ليغزو ورفلة، وقدر الله تعالى وصول قوات جهادية إلى المعسكر السنوسى بعث بها صالح الأطيوش باشا من جهة الخشة، كما وصل عبد الجليل سيف النصر وأخوه عمر بنجدات أخرى، واشتبك الفريقان فى معركة طاحنة يوم (١٤ من جمادى الثانية ١٣٣٣هـ)، وقد سيطر بادئ الأمر الطليان حتى كادوا يحوزوا الراية السنوسية، وعندها باغتهم أحمد سيف النصر من الخلف واشتدت المعركة حول العلم السنوسى، فأُنقذ بعد أن استُشهد الكثير من المجاهدين حول البيرق السنوسى[(١)]، واستطاع رمضان السويحلى فى تلك اللحظات الحرجة أن يصل إلى جنوده من مصراتة، وأصدر أوامره بإطلاق النار على الطليان، فأطلقوها عليهم من الخلف، فكانت بداية النهاية، فحاص الجيش فى بعضه حيصة الحمر، ورجعت أُولاه على أُخراه، واختلط خيله برجله، وارتكس بعضه فى ذلك الجيش، ولم ينج منه إلا (٥٠٠ جندى)[(٢)]، ونجا العقيد ميانى إلى سرت مجروحًا مع من بقى من جيشه، وبقى فى مكان المعركة كل ما كان مع الجيش من معدات الحرب وعتادها، من إبل وخيل وبنادق ومدافع ورشاشات[(٣)]. ومن بين ما غنمه المجاهدون صحيحًا اثنا عشر مدفعًا من مدافع الميدان، وعشرون مدفعًا رشاشًا، وسبع سيارات، وعشرون ألف بندقية، وقسم عظيم من الذخيرة، وقسم المستشفى العسكرى بجميع معداته وجميع المؤن[(٤)].

وكان أفظع ما يقع عليه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البشرية، وبمجرد أن وصل ميانى إلى سرت جرد جميع العرب من الأسلحة وعقد مجلسًا عسكريًا، وحكم بالإعدام على كثير من

---

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٠).

(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص ١٥٥).

(٣) انظر: جهاد الأبطال، (ص ١٥٥).

(٤) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٠).

السكان ومن أبناء العرب الذى التجأوا إلى سرت، وفى مقدمتهم من الأعيان والرؤساء؛ الحاج محمد القاضى من مسلاتة، والحاج محمد بن مسعود من قماطة، وحسونة بن سلطان وأبو بكر النعاس، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة وأصدر أمرًا بالقتل العام، فصار الجند يقتلون الناس فى الشوارع وعلى أبواب البيوت، وبربط العشرة والعشرين فى حبل واحد ثم يقتلونهم، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسير أكثرهم من السكان والحالين الذين استأجروا جمالهم[١]. وبدأت قوات المجاهدين فى تطهير البلاد من الأنجاس المعدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة وحررت مزدة والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير على بعد (١٥) ميلاً من طرابلس، وصدرت الأوامر للإيطاليين بالانسحاب الكامل إلى الساحل وقضى على حامية ترهونة كلها أثناء هروبها إلى البحر، واستسلم ألف إيطالى فى بنى وليد بدون مقاومة، وانسحبت حامية غريان إلى العزيزية، ثم أُجبرت على الانسحاب بسرعة إلى طرابلس، وأُخليت مصراتة وزوارة[٢].

لقد كانت القيادة الفعلية لمعرفة القرضابية للسيد المجاهد الشهير صفى الدين السنوسى، والقادة السنوسيين الذين معه، وقد ساندهم مساندة فعالة المجاهد رمضان السويحلى بجنوده وانضم معهم فى الوقت المناسب.

لقد حقق المجاهدون انتصارًا عظيمًا على إيطاليا، ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذى وقع بين رمضان السويحلى وصفى الدين السنوسى لأصبح للجهاد شأن آخر، ولهُزم الإيطاليون عن بكرة أبيهم. وأسباب الصراع المذكور تحتاج إلى تقصٍ وبحث يصعب على مثلى الوصول إليه، ولهذا أعرضت عنه صفحًا؛ لأن الخوض فى هذه النزاعات يخالف النهج الذى سرت عليه «من توسيع النقاط البيضاء فى تاريخنا وتضييق النقاط السوداء»، ولقد تعرض بعض المؤرخين لهذا الخلاف منهم: الطاهر الزاوى، محمد مسعود فشيكة، ومحمد الطيب الأشهب. وبعد اشتداد الخلاف والنزاع بين رمضان وصفى الدين أصدر الوكيل العام للسيد أحمد الشريف «سمو الأمير» إدريس السنوسى أمرًا إلى صفى الدين بالعودة من طرابلس إلى برقة، وأن يترك الأمر بعد تطهير أكثر البلاد من الطليان إطفاءً للفتن وحقنًا للدماء[٣].

(١) انظر: جهاد الأبطال، (١٥٦).
(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص ١٥٧ إلى ١٧١).
(٣) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٢).

وأما بالنسبة لجهاد الجنوب في فزّان والجفرة والنواحي الغربية من فزّان، فقد تولى قيادتها محمد عابد السنوسي نائب أحمد الشريف، وقد اتخذ مركزه بزاوية «واو»، ويتبع هذه القيادة ثلاثة معسكرات أحدها يرأسه وكيل محمد عابد وكبير مستشاريه الشيخ محمد الأشهب، أما المعسكر الثالث بالجهات الغربية الشمالية من فزّان فيرأسه الشيخ السنى، ويشرف على الإدارة العامة محمد عليّ الأشهب، فاشتركت هذه المعسكرات في المعارك الدموية مع الطليان بالجفرة وفزّان، وقد كانت هذه الجهات بيد العدو[1]. واهتم أحمد الشريف بأمر فزّان واتخذ من «زلة» قاعدة للإغارة على إمدادات الإيطاليين بفزّان، وحدث أول هجوم في (٢٦ من أغسطس) عندما أبيد طابور كان يسير عبر حمادة، وكانت تلك الحادثة بداية النهاية لاحتلال فزّان الذي دام قليلاً. وبانقطاع الإمدادات عن القوات الإيطالية في فزّان، أحاطت بها القوات الإسلامية الليبية المجاهدة، وشاركت في تلك المعارك قوات المجاهدين في قبائل التبو والطوارق، واستطاعت قوات المجاهدين أن تقضي على حامية «أدرى» و«أبارى» وفتحت قلعة سبها، وسقطت مرزق، ولجأت قوات الإيطاليين إلى غات في جنوب الجزائر، وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات في غات إلى جنوب الجزائر، وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات الإيطالية إلى سوكنة ثم مصراتة، وتخلوا عن غدامس، وغريان، وأعلن في طرابلس حالة الطوارئ[2]، وكان من أعيان فزّان الذين قادوا الجهاد المقدس ضد إيطاليا: المجاهد الكبير محمد بن عبد الله البوسيفي، ونازل أهل فزّان القوات الإيطالية في ثلاث معارك مشهورة في «الشبب» و«أشكدة» و«المحروقة» واستُشهد فيها محمد بن عبد الله البوسيفي رحمه الله تعالى[3].

وقاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزّان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة، وهي ربوة عالية في سبها يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة، وأصبحت تلك القلعة منيعة جدًا، واستطاع سالم عبد النبي فتحها بقواته عام (١٩١٤م). لقد أبلى أهل الجنوب من مسلمي ليبيا بلاءً حسنًا في جهادهم البطولي ضد إيطاليا، مما يدل على أصالتهم وحبهم وبغضهم لكل محتل عنيد.

ونتيجة للفتنة التي ذكرتها أمر السيد محمد إدريس «محمد عابد» أن ينتقل بقواته نحو الكفرة[4].

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٣).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، (ص ١٢٧، ١٢٨).
(٣) انظر: قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب، (ص ٢/ ٢٩٠).
(٤) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٣).

المبحث الرابع

الجهاد فى برقة

فى (١٤ من شهر شوال ١٣٢٩هـ/ الموافق ١٩ من أكتوبر ١٩١١م) وقف الأسطول الإيطالى بميناء بنغازى الآمنة العزلاء وقذفها بوابل من قنابله فى غير شفقة ولا رحمة، وفى ٢٢ من الشهر وقف بميدان درنة، وبعد التمهيد بقذف القنابل أنزل بها قوة عسكرية وسرعان ما طُير الخبر إلى الشيخ المجاهد أحمد الشريف بالكفرة، فأمر بالوقوف فى وجه المعتدى، والاستعداد لقتاله والتضحية فى سبيل الوطن بالنفس والنفيس، وكتب إلى رؤساء الزوايا فى برقة وطرابلس وإلى شيوخ وأعيان القبائل يأمرهم بالدفاع ويحثهم على الجهاد، وكاتب الملوك والأمراء وزعماء العالم الإسلامى طالبًا منهم الوقوف مع إخوانهم المسلمين فى ليبيا ضد العدوان الصليبى الغاشم، وفى شهر رجب (١٣٣٠ هـ - ١٩١٣م) تحول من الكفرة إلى الجغبوب ليكون قريبًا من ساحة الوغى.

استطاع الإيطاليون احتلال كبريات مدن ليبيا الساحلية كطرابلس ودرنة وطبرق، وكانت الحامية العثمانية فى بنغازى تحت قيادة القمندان شكرى بك فى منتهى الضعف، فلا تستطيع أن تحمى نفسها فضلا عن كونها تدافع عن البلاد التى كان احتلالها فى رأى المحتلين والأوساط السياسية فى أوروبا أمرًا مفروغًا منه.

أخذ متصرف بنغازى فؤاد مراد بك يعقد اجتماعات مجلس الإدارة ويتشاور معهم، وكان وقتذاك رئيس الزاوية السنوسية ببنغازى هو أحمد العيساوى، فطلب منه المتصرف أن يحضر جميع الاجتماعات التى تعقد.

لقد جاهد أسود مدينة بنغازى شيبًا وشبابًا عن مدينتهم دفاعًا مجيدًا، فأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة بماء الذهب فى سجل التاريخ، وقد ساهمت القبائل القريبة من مدينة بنغازى فى الجهاد، وأول من وصل منها: قبيلة العواقير ومن معهم، وقام أهل بنغازى بإكرام المجاهدين، رغم وجود الأمتعة والزاد الكافى، فأكرموهم غاية الإكرام، وفتحت الحكومة العثمانية مخازن الأسلحة، وكانت جُلها بنادق لا تزيد على أربعة آلاف بندقية، وشرع المجاهدون فى مهاجمة العدو الغاشم وكلفوه خسائر فى الأرواح، واستُشهد الكثير من أبناء المسلمين، وتعرف هذه المعركة بواقعة «جليانة». ثم بعد يومين من ذلك انقض المجاهدون على الإيطاليين بموقع الصابرى وقاتلوهم قتالاً عنيفًا،

وغنموا منهم أسلحة كثيرة. وبعد ذلك بيومين كانت واقعة السلاوى الشهيرة، وكان يقود المجاهدين الشيخ عبد الله الأشهب، فأظهر شجاعة فائقة، وقدرة نادرة ورأيًا سديدًا فى توجيه قوات المجاهدين، وتحميسهم للجهاد، وحقق المجاهدون انتصارًا رائعًا، وغنموا جميع ما كان مع الإيطاليين فى الميدان من المؤن والعتاد الحربى، وكان عدد الشهداء كثيرًا. وبعد واقعة السلاوى التحم المجاهدون في معركة حامية الوطيس مع العدو بقرب البركة بالموقع المعروف بـ «هوى الزردة» فاستُشهد فيها الكثير من المجاهدين، ومن بين الشهداء مائة وخمسون شهيدًا من قبيلة واحدة هى عائلة إبراهيم العواقير، عدا شهداء أهل مدينة بنغازى وبقية القبائل الأخرى، ولقد أظهر سكان مدينة بنغازى من أصناف البطولة والكرم الفياض والصبر العجيب والثبات النادر والشجاعة العظيمة ما أثار إعجاب إخوانهم من القبائل[(١)].

وبدأت النجدات العسكرية تتوافد إلى مدينة بنغازى بتحريك شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة قبيلة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكورى، وتلتها بقية النجدات التى جاء بها زعماء القبائل وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب:

* الشيخ عبد الله الأشهب وكيل رئيس زاوية مسوس، ورؤساء قبائل العواقير.
* الشيخ محمد على عبد المولى رئيس زاوية أم شخنب، ورؤساء قبائل إبراهيم العواقير.
* الشيخ حسن الغمارى رئيس زاوية دريانة، وقومه من العواقير.
* الشيخ التواتى الكليلى رئيس زاوية طلميثة، وقومه من الدرسا.
* الشيخ محمد على المحجوب رئيس زاوية الطيلمون مع مطاوع العواقير.
* الشيخ محمد الزروالى رئيس زاوية القطفية، ومعه قومه من شوامخ المغاربة.
* الشيخ محمد على الغمارى رئيس زاوية أشقفة، وقومه من البراعصة والدرسا.
* الشيخ محمد أبو نجوى رئيس زاوية ميراد مسعود وقومه من الدرسا.
* الشيخ عمر المختار رئيس زاوية القصور، وقومه من العبيد.

كانت النجدات مؤلفة من قبائل العرفا، والدرسا، والبراعصة، والعواقير، والمغاربة، والعربيات، وزوية، والقبايل، والمسامير، والجرارة، والفواخر.

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٥٧، ٢٥٨).

ومن هذه القبائل أو منتمًا لها أو مجاور أو مرتبط بها قد وصلت فى أسرع ما يمكن بقيادة زعماء وشيوخ القبائل، وشيوخ الزوايا. وهؤلاء السادة جمعوا الجموع تلبية لنداء القائد الأعلى للحركة السنوسية، وتقرر أن يكون موقع معسكرهم ومقر قيادتهم فى بنينه شرق بنغازى أكثر من عشرين كيلو مترًا.

وشرع المجاهدون فى مهاجمة معاقل الإيطاليين بشدة وعنف، يقول الأمير شكيب أرسلان: «وفى ١٢ من مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة، وكان سببها أن (٢٠٠ عربى) دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة، فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالمائتى مجاهد من العرب، فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظلام، وعند ذلك نجا بعض منهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار، ويقال إنه نجا (٨٠ رجلا) من المائتين.

وأما الطليان فقُتل وجُرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم (٢٨ ضابطًا) برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك المعركة، وكانت هذه المعركة قد شقت كثيرًا على العرب، وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم. وبينما العرب فى مأتم على قتلاهم، وردت برقية من أنور باشا القائد العام فى درنة إلى عزيز على المصرى قائد المجاهدين فى بنغازى عن برقية من الأستانة عن برقية من برلين عن برقية من روما تفيدُ أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفًا وخمسمائة مقاتل، ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى، ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم»(١).

وفى شهر أبريل سنة (١٩١٢م) خرجت حملة إيطالية بعدتها وعتادها مزودة بجميع أنواع السلاح، وهاجمت معسكر بنينه، فاندلعت بين الفريقين معركة عظيمة، استمرت ساعات متتالية، تمكن العدو فيها من احتلال موقع المعسكر، وانسحب المجاهدون، ثم باكر هذه المعركة التحم المجاهدون مع القوات الإيطالية فى معركة بموقع حلق الريح، ولم يكن الفوز لأحد الفريقين، رغم كثرة الأموات من الطرفين، ومن شهداء تلك المعركة: الشيخ موسى قرق عمدة قبيلة العمارنة، والشيخ جبريل العبيدى. ثم عقب ذلك التحم الفريقان فى معركة بموقع «حوش العكب» وذلك يوم (١٧ من رمضان ١٣٣٠ هـ) وكانت القوات الإيطالية زاحفة نحو سلوق، ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها، ومن بين شهداء هذه المعركة؛ أبو زيد بن محمد الكزة، ومن بين الجرحى: الشيخ عبد الحميد العبار، والشيخ يونس بن مصطفى أبى شنيف(٢).

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤٠). (٢) انظر: برقة العربية، (ص ٢٦٦).

واستمر القتال فى جميع أنحاء برقة من بنغازى إلى طبرق، وقد تمكن الطليان من احتلال بعض المراكز فى الدواخل. وبعد حصول معارك كثيرة وفى مواقع مختلفة أرسل الجنرال أميليو قائد القوات الإيطالية إلى شيوخ القبائل يطلب منهم إرسال مندوبين للدخول معهم فى المفاوضات. وعندما وصل الوفد الإيطالى الذى يحمل الكتاب إلى المشايخ، وصل السيد أحمد الشريف إلى موقع رويفع بن ثابت الأنصارى المعروف بسيدى رافع، فكان رد شيوخ القبائل على الجنرال الإيطالى، كالآتى:

حضرة...:

وبعد، نخبر حضرتكم أننا اتصلنا بأعيان بنغازى واطلعنا على شروطكم المسطورة الواردة معهم من حضرتكم، وقد أخبروا براحتهم مع دولتكم. وقبل وصول الأعيان، جاءنا رسول من طرف الأستاذ الفاضل سيدنا أحمد الشريف يخبرنا أنه وصل إلى الجبل الأخضر بموقع سيدى رافع ويأمرنا بالحضور عنده. وبناءً عليه لا يمكن الآن حضور أحد منا صحبة أعيان بنغازى حتى نتصل بشيخنا وأستاذنا. إن شيخنا المومأ إليه نزل بساحتنا وطلب منا الحضور فلا يمكن التأخر عنه، وبعد الاجتماع به سيصدر من طرفه العالى كل ما يلزم، وبه يكون العمل، وهانحن أخذنا كتابكم لعرضه عليه، (١٥ من جمادى الثانية سنة ١٣٣١هـ).

وكان الموقعون على هذا الكتاب الشيوخ الآتية أسماؤهم: عبد السلام الكزة، إبراهيم المصراتى، عمر الأوجلى، على الأوجلى، محمد الكاسح، خليل مصطفى، مفتاح أبو خزيم، على محجوب، مصطفى خليل، أبو بكر القذافى، مفتاح حسين، جاد الله أبو زيد، حبيب الله اللواطى، رويله أبو لطيف، مطرود أبو شنيف اللواطى، المبروك اللواطى، المبروك عمر (١).

أما جبهة الجبل الأخضر فقد كانت الكتائب السنوسية يقودها كل من:

* الشيخ محمد الدردفى رئيس زاوية شحات مع رؤساء ومشايخ وقبائل الحاسة.
* الشيخ محمد الحسين الحلافى رئيس زاوية المخيلى.
* الشيخ صالح بن إسماعيل رئيس زاوية الفائدية مع رؤساء ومشايخ عائلة فايد.
* الشيخ محمد العربى رئيس زاوية القصرين مع رؤساء ومشايخ قبائل البراعصة.
* الشيخ عبد القادر فركاش رئيس زاوية بشارة مع رؤساء قبائل العبيدات.

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٦٧، ٢٦٨).

* الشيخ عبد الله أبو سيف رئيس زاوية مارة مع روساء قبيلة العبيدات.

* الشيخ الغمارى رئيس الزاوية البيضاء مع رؤساء قبيلة البراعصة.

* الشيخ محمد الغزالى رئيس زاوية ترت مع رؤساء قبيلة العبيدات.

* الشيخ الحبيب بن جلول رئيس زاوية المرازيق مع رؤساء قبيلة العبيدات.

* الشيخ المرتضى فركاش رئيس زاوية أم الرزم مع رؤساء قبيلة العبيدات.

* الشيخ محمد العيساوى رئيس زاوية الحنية مع رؤساء الدرسا.

* الشيخ السنوسى الغمارى رئيس الزاوية الحمامة مع رؤساء قبيلة البراعصة والدرسا.

* الشيخ جاد الله الجبالى رئيس زاوية العرقوب مع رؤساء قبيلة البراعصة والدرسا.

* الشيخ محمد أبو فارس رئيس زاوية أم حفين مع رؤساء قبيلة العبيدات.

* الشيخ محمد بن عمور رئيس زاوية قفنطة مع رؤساء قبيلة البراعصة.

* الشيخ عبد الله سعد فركاش رئيس زاوية مرتوبة مع رؤساء قبيلة العبيدات.

لبت هذه القبائل مع السعادى والمرابطين نداء شيخ المجاهدين أحمد الشريف، وحضرت لقتال العدو تحت قيادة رؤساء زواياها وزعمائها وشيوخها الأسود.

وبالنسبة لمنطقة طبرق، جمع شيوخ الزوايا وزعماء العشائر القوات التى تأسس بها معسكر طبرق:

* الشيخ محمد الشارف رئيس زاوية أم الجرفات مع رؤساء قبائل حبون.

* الشيخ محمد عبد الله رئيس زاوية أم ركبة مع روساء قبائل القطعان والشواعر.

* الشيخ مرتضى الغريانى رئيس زاوية جنزور مع رؤساء قبائل العبيدات.

فتم تأسيس أربعة معسكرات هى: معسكر بنغازى، ومعسكر الجبل، ومعسكر درنة، ومعسكر طبرق فى وقت قياسى[(١)].

صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفظًا لماء الوجه أمام الرأى العام الإسلامى، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين لتقوية روح المقاومة والدفاع وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات، وبدأت المساعدات المادية والمعنوية تتوافد على

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٢٦١).

المجاهدين، وكان من أبرز القادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية: الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، فؤاد بوجاقاش باشى، سليمان العسكرى، وعزيز على المصرى، أدهم باشا الحلبى(١).

أولا: القائد التركى أنور باشا:

أرسلت تركيا أنور بك «باشا بعد» قائدا عامًا، ببرقة فوصل إليها من تركيا عن طريق مصر، ونزل بمنطقة درنة فاتخذ منها مركزًا لقيادته، واتصل برؤساء الزوايا وزعماء القبائل، وشرع فى ترتيب المعسكرات إداريًا وعسكريًا، تحت إشراف قادة المناطق ومجالس شيوخ الحركة السنوسية، وشيوخ القبائل الليبية، ووزعت القبائل نفسها على معسكرات الجهاد، وتكفلت كل قبيلة بالمؤن والخيل والسلاح والرجال، ويتناوب رجال كل قبيلة على المعسكرات كل خمسة أو ستة أشهر، ونزل أحمد الشريف إلى الجغبوب مواصلا دعمه الكبير لحركة الجهاد بكل ما يستطيع.

يقول أمين سعيد فى كتابه «الاستعمار الفرنسى والإيطالى فى بلاد العرب» تحت عنوان «السنوسيون فى الميدان»: «وأسرع السنوسيون فى مقاطعة برقة عاصمتهم وسكانها من أتباعها ومريديهم لتأييد الدولة وشد أزرها، يتقدمهم شيخهم الأكبر السيد أحمد الشريف وجاء شيوخ الزوايا للجهاد يقودون رجالهم فأبلوا البلاء الحسن فى الكر والفر، وجددوا عهد المفاخر العربية، وأدهشوا العالم بما أبدوه من بسالة وشجاعة، فقد أصلى السنوسيون نار هذه الحرب فى برقة من الأول إلى الآخر، فكانوا جميعًا وقودها، وكانوا آخر من جلا بعد أن فقدوا الجانب الأكبر من أقطابهم وشيوخهم(٢).

ومع مجيء أنور باشا لقيادة عمليات المجاهدين ضد إيطاليا فى شرق ليبيا، أصبحت الجبهة الشرقية البرقاوية تشن هجمات مكثفة على الإيطاليين، وكانت علاقة أحمد الشريف بأنور بك علاقة قوية ومحترمة، وكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، ففى شهر أبريل سنة (١٩١٢م) بعث أحمد الشريف برسالة إلى أنور بك، يُظهر فيها تأييده للدولة العثمانية، ويشكر أنور كثيرًا لجهاده وقتاله للطليان ويعد بالنصر المبين من عند الله تعالى(٣). ويذكر أنور بك فى مذكراته أن رسالة وصلته فى أوائل شهر يوليو من السيد أحمد الشريف يشكره فيها على جهوده وجهاده، ويحثه على المزيد، ويدعو الله لنصرة الإسلام، وقهر أعدائه الإيطاليين(٤).

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، (٦٩، ٧٠، ٧١). (٢) انظر: برقة العربية، (ص ٦٢).
(٣)، (٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٣٣).

لقد بذل أنور باشا مجهودًا عسكريًا، وأخلص في حربه ضد إيطاليا، وأحبه الشعب الليبي لنشاطه وشجاعته النادرة، فكان محل تقدير الشيوخ وإعجابهم، وأحب أنور باشا المجاهدين الليبيين وأظهر إعجابًا بهم في مذكراته حيث يقول: «القبائل العربية ترسل لي مقاتليها، ويأتون على شكل جماعات صغيرة، كل واحد يحمل سلاحًا قديمًا على كتفه، رابطًا رصاصاته في حزامه، وفي يديه يضع كيلوات من الدقيق، وبين القادمين مسنون بيض اللحى، وصبيان لم يبلغوا سن الخامسة عشرة، إن أعمارهم لا تمنعهم من مواجهة الموت مع رفاقهم جنبًا إلى جنب، لهم إيمان راسخ بأن أقدارهم مرسومة بإرادة الله فمهما يكن لن تتغير، فإذا حان الأجل لن يتخلص منه أي مخلوق، ولهم قول مأثور رائع: «إذا أراد الرب فلا مناص من الشهادة، فالشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت كل يوم مائة مرة»[١].

ويتحدث عن تشكيلات المجاهدين ودور المرأة في الجهاد فيقول: «. . . وعلى الأغلب يكون هناك جمل واحد من نصيب كل عشرة مقاتلين، وعليه يحملون الخيمة التي يشتركون فيها، وترافقهم امرأتان من العشيرة تعملان على إعداد الخبز وخياطة الملابس وتنظيف السلاح[٢]».

ويتحدث عن اشتباك وقع بينهم وبين الإيطاليين استمر لمدة تسع ساعات، حقق المجاهدون فيه نصرًا عظيمًا، وكان من بين الجرحى مجاهدة أصيبت بقذيفة في صدرها، ورغم ذلك رفضت البقاء بالمستشفى وعادت إلى الجبهة لتلهب معنويات المجاهدين[٣].

وقد تأثر أنور باشا بالمجاهدين وقال عنهم: مثال رائع وفريد للتفاني بدون قيد أو شرط[٤]. وقال: تلاشت ذكرياتي عن حياتي الماضية، وأصبحت في طي النسيان، وأشعر كأنني لم أعاشر أحدًا غير العرب، ولم أشاهد مكانًا غير الصحراء، رغم ما أقضيه من أيام محرومًا من كل شيء؛ فإن هذه الحياة تولد لديّ أحاسيس غريبة، هذه الحياة تتخللها حوادث تسعدني كسعادة الطفل في العيد[٥].

ولقد اعترف أنور باشا بتأثير أحمد الشريف على سير الحرب ضد إيطاليا فقال: «. . . رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصداقة؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب. . .»[٦].

ويتحدث بإعجاب عن شجاعة قبيلة الحسا وموقفها الصلب من الإيطاليين فيقول: «تسلمت اليوم الأنباء الأولية من درنة، خسارة الإيطاليين تفوق توقعاتي، بلغت (٨٠٠ قتيل وجريح) عشر

---

(١) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص٦٠، ٦١).
(٢) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٦١).
(٣) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٦٣).
(٤) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٧٥).
(٥) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٧٧).
(٦) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٨١).

الإيطاليون على الجرحى الذين تخلينا عنهم والبالغ عددهم (٢١) أكثريتهم من رجال قبيلة الحسا، من أبناء جبل برقة، فقد أرسل الإيطاليون رسولاً ليبلغهم الموافقة على إطلاق سراح الجرحى إذا تخلى أبناء حسا عن الاشتراك فى القتال، وكان رد القبيلة كالآتى: إنكم أتيتم لتدمير بلادنا، سنبقى أمناء لأوامر الله والسلطان، اتحدنا لنحاربكم، واعتبرنا الأسرى موتى منذ فترة وبكيناهم، ولكن كل ذلك مضى، وسواء أطلقتم سراحهم أم لا، فسنحاربكم حتى آخر رجل، نوصيكم بمعاملة الأسرى بالحسنى، ولا تنسوا ما فى أيدينا من رجالكم، أشعر بالفخر لكونى قائداً لمثل هؤلاء الرجال، ولأننى أحارب معهم فى صف واحد...»[1].

ويتحدث بفخر عن المجاهدين فيقول: «جنودى شجعان مستمرون فى تأدية واجباتهم، هناك عائلة لم يبق من أفرادها غير الأب، قُتل أولاده الأحد عشر وصهره، عندما قدمت له التعازى قال لى: إننى فخور وسعيد؛ لأنهم استُشهدوا فى المعركة من أجل الوطن والدين»[2].

لقد تأثر الضباط الأتراك لما رأوا من شجاعة أجدادنا، فهذا الضابط العثمانى أمين بك الذى يبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين عامًا يتحدث فى رسائله إلى زوجته عما رآه فى ليبيا، نقتطف منها حديثه عن الشيخ لطيف بن طويلة فيقول: كان خطيبًا بارعًا ومجاهدًا، قُتل أولاده فى طبرق، وذكر فى رسائله بعض خطبه التى كان يلقيها على المجاهدين فبيّن أن الشيخ أكد بإلحاح أن الحرب ليست سياسية بقدر ما هى دينية، وفى هذه الحرب لا تجابه أمم بعضها البعض، وإنما هى أديان تجابه أديانًا، وأن العرب يجب ألا يدافعوا عن أرضهم فحسب، وإنما أيضًا عن عقيدتهم وتقاليدهم. وأقسم على القتال حتى لا يبقى فى ليبيا إيطالى أو أوروبى، وقال: «يا إلهى، إننا نتعرض للغزو من جانب أهل الظلم والبغى، فلنشرب كأس الانتقام ببطء حتى نطفئ غليل ظمئنا...»[3].

«... أيها المسكين، أيها المسكين، إنه لمن الأفضل لك أن تسكن خيمة ممزقة حيث يسود الإيمان، من أن تقطن قصراً تحرسه أسلحة الشيطان. إن حيل الشيطان ضعيفة، هذا ما يعلمنا إياه القرآن الكريم...»[4].

(١) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص ٩٤).
(٢) انظر: مذكرات الضباط الأتراك (ص٩٨).
(٣) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص ١٩٦).
(٤) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص١٩٦).

«. . . إننى أريد شهداء وليس جنودًا، إن الخطر والموت فى انتظارنا، إننى أريد مذنبين ولا أريد أحياء، فالرجل النقى نقاؤه رمل البحر لن يكون محبوبًا، وإذا ما كنتم مذنبين فلتذهبوا معى وتقاتلوا، ولتخلصوا أنفسكم من الذنوب. إننا ثوار ويجب أن نكون كذلك، إذا ما قام العدو على العبث بما أوصانا الله به. إننا ندين بالولاء لله وليس للدولة، ولا تقعدوا طويلا مع القاعدين، ولتأتوا إلىّ. إن الله سريع الحساب، وأكرر قولى لكم: إن عشرة من المؤمنين سيغلبون مائة من الكفار»(١).

وفى رسالة مؤرخة فى (٢٢ من سبتمبر ١٩١١م) يتحدث أمين بك عن أخبار طبرق، وعن صديقه حبيب الذى أخبره كيف جرى اجتياح المواقع الإيطالية وتخريب عدد من الرشاشات، وكيف أن حبيبًا حمل رشاشًا إلى المعسكر العثمانى ثم يمضى قائلا: «ومما يؤسفنى أن الشيخ لطيف بن طويلة وثلاثة من أبنائه المتمرسين فى حمل السلاح قد لقوا الشهادة على مقربة من طبرق. لقد فقدنا فيه واعظًا ميدانيًا. ما من أحد كان يستطيع أن يتقاعس عن الحرب عندما يسمع كلماته النارية، حتى أولئك الذين أعيتهم الحرب. وأريد أن أبلغك هنا إحدى خطبه النارية الأخيرة التى حضرتها متخفيًا بالزى العربى، وقد نقلتها بالكتابة المختزلة، وربما «يا جولدانا» نحتاج يومًا من الأيام أن نثير حماس أبنائنا بمثل هذه الكلمات. . وقد تحدث الشيخ لطيف واعظًا وهو يلبس رداء الخطيب، ولقد كان مثل أسد تلحف بجلد جمل وقال: أيها المقاتلون فى سبيل الرحمن الواحد الأحد، لا تحتاجون الآن إلى سلاح، وإذا ما اعتقدتم أنكم تحققون الفتح فلتبقوا حيث أنتم؛ فإن هذه الحرب ليست حربكم. وإذا ما كنتم تبغون طرد الإيطاليين فقط فلتذهبوا إلى بيوتكم، إنما الذى يتوجب عليكم هو طرد الشيطان ودولته من بلادنا، وأن تعيدوها إلى رحمة الواحد القهار. . ولكن يجدر بكم ألا تتوقعوا ليالى ملاحًا وأيامًا لطيفة. إنكم الآن خدم عقيدتنا، إنها نار حامية فى النهار، ومسيرات طويلة فى الليل. إنه الجوع والعطش، كل هذا ينتظركم على أن المجد والشرف ينتظرانكم أيضًا، فتودعوا خيمتكم، وإذا ما أراد الله فلن تروا ذويكم ثانية، ولا تخافوا شيئًا.

إن المعركة حسب مشيئة الله، إنها ستغسل ذنوبكم بالدماء، وإذا ما وُضعت الشهادة يوم الحساب سيُنظر إلى ما قمتم به من أعمال، عندئذ ستكون الجنة بانتظاركم. . فلتأتوا معى باسم الله»(٢).

---

(١) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص١٩٦).

(٢) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص ١٩٧، ١٩٨).

يقول الضابط التركى أمين بك : إن وقع صوت الشيخ فى نهاية الخطبة كان مثل وقع البوق، لقد كانت عيون ألف من العرب «المجاهدين» تتوقد حماسًا وهى تنظر إليه وقد وقفوا جميعًا فى صف الجهاد(١) .

ويقول عن المجاهدين: إن جرأة هؤلاء الناس لا يعلى عليها، وأما دوافعهم إلى الاستهانة بالموت فهى ذات أساس فلسفى: «أرغب أن أموت فى الحرب شابًا على أن أموت على فراشى شيخًا؛ فما من مجد فى الموت الناجم عن الشيخوخة»(٢) .

هكذا كان تأثر الضباط الأتراك بالمجاهدين الليبيين الذين حركتهم عقيدتهم وحبهم لدينهم وحرصهم على الشهادة فى سبيل الله تعالى .

ثانيًا: تفاعل العالم الإسلامى:

أبلى الشعب الليبى بلاءً حسنًا فى جهاده ضد القوات الإيطالية الصليبية الغازية، وبدد أحلام القادة العسكريين السياسيين، الذين زعموا أن مدة الاحتلال لا تتجاوز خمسة عشر يومًا، وقد قدرها القائد السياسى الكبير البريطانى «كتشنر» بثلاثة أشهر . لقد طارت أخبار المعارك فى بنغازى وطرابلس ودرنة إلى العالم أجمع، ورأت حكومة الأتراك أن الشعب الليبى جدير بالمساعدة وجاد فى جهاده وكفاحه ضد العدو، ولذلك قامت بإرسال مجموعة من القادة العسكريين، ليجسوا النبض، ويرسلوا التقارير، فوصلت بحوث ودراسات أنور باشا مع زملائه «بإيمانهم بأن هذا الشعب يُعتمد عليه فى الحروب، ورُفعت التقارير إلى الأستانة، فأخذت الإمدادات ترد منها، وبدأت وفود المتطوعين من مصر والعالم الإسلامى تترى لمساعدة إخوانهم المسلمين فى ليبيا، ووصلت البعثات الطبية من تركيا ومصر، فقامت بدورها خير قيام، وجاء مراسلون من الصحف الإسلامية والعالمية، وكان الأمير عمر طوسون فى مصر، ووالدة الخديوى «أم المحسنين» وخلفهما مسلمو مصر قد وقفوا بما يملكون لدعم الشعبى الليبى ماديًا ومعنويًا، ووصل الأمير شكيب أرسلان على رأس بعثة طبية كان عدد جمالها التى تحمل الأثقال من المؤن والأدوية (٦٥٠ جملا) يصحبه خمسة أشخاص من أخص رجاله، قد تطوعوا للجهاد ببرقة، وهم: شبلى عبد الصمد، عجاج عبد الصمد، عباس عبد الخالق، شاهين عبد الخالق، يوسف أحمد فياض .

وقام أنور باشا باختيار مجموعات من الشباب الليبى وأرسلهم إلى استانبول لتعليمهم النظم السياسية والعسكرية الجديدة، وقد أحسن بما صنع، ليشرفوا على قيادة الجيش الوطنى الذى نهض

(١) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص ١٩٨).
(٢) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص ٢٠٠).

فى إعداده؛ وتدافع المجاهدون المسلمون من كل مكان إلى ميدان القتال عن طيب خاطر، وجاد المسلمون الخيرون بأموالهم، أعز ما ملكت أيديهم، وفاضت قرائح الشعراء وأقلام الكتاب بما أوحته ضمائرهم، وقامت الصحف -وفى طليعتها «المؤيد» الغراء- بدورها، وكانت حلقة الاتصال بين جهاد الليبيين والعالم الخارجى، وكانت المساعدات تأتى من العالم الإسلامى إلى اللجان المختصة بمصر التى أشرف عليها على يوسف وعمر طوسون، ثم ترسَل إلى المجاهدين، وكانت والدة الخديوى «أم المحسنين» تنفق الأموال والمؤن والملابس والأدوية والقوافل المحملة للمجاهدين، وعندما قابلت الوفد الذى تسلم هذه الأشياء قالت: «إننى لم أفعل شيئا يذكر فى جانب ما يقوم به أولئك المجاهدون فى سبيل الله والوطن، وإننى قلقة لأننى لم أسمع منذ أيام خبرًا عن ميدان القتال»[١].

وكانت المساعدات تأتى من أهل الشام إلى بلاد مصر ثم تدخل إلى ليبيا، وكان الليبيون الذين هاجروا إلى مصر من عشرات السنين قد وقفوا وقفة رجل واحد بالمال[٢] والرجال، وكان أحمد الباسل -من وجهاء مصر- سندًا قويًا لحركة الجهاد فى ليبيا، قد كتب للسيد السنوسى الأشهب ردًا على رسالة وصلت إليه: «إنى وما أملك تحت تصرفكم ولمساعدتكم، وإنكم قمتم بما يرفع شأن العروبة فى جميع أنحاء الدنيا، وإنكم لن تُغلبوا وفيكم الغازى العظيم سيد مجاهدى القرن الرابع عشر: السيد أحمد الشريف، فقفوا موقف البطولة؛ لأن العالم العربى يتطلع لأعمالكم ويرقبها على البعد...».

لقد كانت قبائل الفوائد والجوازى فى مصر نعم العون لحركة الجهاد فى برقة.

وتفاعل العالم الإسلامى كله: فقد اجتمع أعيان ووجهاء وشباب مسلمى جزيرة موريس الواقعة شرق مدغشقر، ورفعوا احتجاجهم إلى نظارة الخارجية البريطانية ضد الاعتداء الإيطالى على طرابلس الغرب «ليبيا» ونظموا مظاهرة عظيمة، ثم أرسلوا إلى رئيس اللجنة العليا بخمسة عشر ألف روبية لمساعدة المجاهدين. وفى يوم (٢٠ من ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ) دعا جلالة ملك أفغانستان حبيب الله خان، جميع وجوه مملكته ورجال حكومته وأعيانها وتجارها، دعاهم لاجتماع عظيم وعرض عليهم القضية الطرابلسية وما يعانيه المسلمون فى طرابلس الغرب من الظلم والعدوان ودعاهم إلى الإنفاق لجمع أموال لهم وفتح كتابًا أسماه كتاب «إغاثة يتامى وشهداء ومجروحى مجاهدى طرابلس الغرب»، وقال لهم: افتحوا كيس همتكم وبلوغ قلوبكم بماء الشفقة الأخوية. أعينوا يتامى وأيامى أولئك المجاهدين الذين جادوا بأرواحهم لأجل حفظ

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٣٤٨).
(٢) انظر: نفس المصدر السابق، (ص٣٤٨) وتجد تفصيلا عن المساعدات.

وطنهم وشرف ملتهم. أعينوهم على الأقل بلفائف يشدون بها جروحهم، لا تنظروا إلى قلة ما تعطونه من المال وكثرته، أعطوا ما تتمكنون من إعطائه، واثبتوا أسماءكم فى هذا الكتاب. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وقد تبرع سيادته بمبلغ عشرين ألف روبية، وكان يقول وكله حماس: ألا ليتنى قريب منهم أمدهم بالفعل لا بالقول، ألا ليتنى طائر أطير لمساعدة إخوانى المسلمين(١)، ومن بين المتبرعين مسلمو إندونيسيا، ومسلمو الهند، وحاكم قطر الشيخ قاسم محمد الذى تبرع للمجاهدين بعشرين ألف روبية، وأهل البحرين، وجاء إلى ميدان القتال كل من محمد حلمى، وعبد المعطى صالح (ضابط مصرى)، عارف بك (والى البصرة سابقًا)، نشأت بك (أحد كبار رجالات تركيا المشهورين)، محمد طاهر أفندى (مصرى)، وغيرهم كثير(٢).

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرة ساهمت فى دعم حركة الجهاد فى تونس، وتشاد، والنيجر، ومالى، والسودان، ومصر، والجزائر، والشام، وتركيا، وغيرها، ويمكن الرجوع إلى المقال الذى كتبه محمد الأسطى بعنوان: «صدى حركة الجهاد الليبى فى العالم الإسلامى» وهو من منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى فيه معلومات جيدة عن أسماء من ساهم فى الدعم الجهادى(٣).

إن الذين كتبوا عن الجهاد قالوا: إن الليبيين جاهدوا الإيطاليين وحدهم دون أن يتلقوا أى عون أو مساعدة، افتروا على الواقع الذى حدث وزيّفوا الحقائق وهضموا حقوق إخوانهم، فهذا الجنرال الإيطالى جرسيانى يعترف بذلك ويقول: إن مساعدة مصر للمجاهدين أجبرته على أن يأخذ الاحتياطات اللازمة فى مراقبة الحدود الشرقية(٤).

ثالثا: معاهدة أوشى وانسحاب الأتراك:

واجهت القوات الإيطالية فى ليبيا مقاومة عنيفة، والتحم المجاهدون بالأتراك، وشكلوا قوة عسكرية ضاربة، وأدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية الولاية. ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية فى مراكزها الضعيفة، وتوجهت لهذا السبب نحو الجزر الاثنتى عشرة

(١) انظر: مجلة المنار، (جـ١٢)، (ص ٩٤٠، ٩٤٣) لمحمد رشيد رضا.
(٢) انظر: برقة العربية، (ص٣٤٩).
(٣) انظر: الشهيد، العدد الخامس (١٩٨٤م) مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى (ص ١٠٣).
(٤) انظر: حروب البلقان، (ص ٨٠).

التى كانت تؤلف الولاية المعروفة باسم «مجموعة جزر بحر إيجة- الدردنيل». ففى الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ (الموافق ٤ من مايو سنة ١٩١٢م) احتلت أساطيل إيطاليا الجزر، ثم قامت بتهديد مدخل الدردنيل، وقصفت ميناء بيروت على ساحل الشام، وكأنها بذلك تدعو إلى توسيع رقعة الحرب، وهذا ما أثار الدول الأوربية خاصة بريطانيا العظمى صاحبة الإشراف المباشر على الحركة البحرية المتوجهة إلى البحر الأسود وقناة السويس(١).

وقد أقامت إيطاليا إدارة لهذه الجزر، وأصدرت بها طوابع بريد إيطالية، واستبدلت بالبحارة الذين قاموا بعملية الاحتلال حاميات إيطالية من الجنود وحملة البنادق الصغيرة، كما استبدلت بالأعلام العثمانية أعلامًا إيطالية. حينذاك سارعت الحكومة العثمانية إلى إجراء بعض التحصينات لسواحل آسيا الصغرى خوفًا من هجوم إيطالى جديد على تلك السواحل(٢).

فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية استقالت وزارة الاتحاديين فى أواخر شهر رجب (١٣٣٠هـ)، المصادف لشهر يوليو (١٩١٢م) لتتولى الحكم وزارة أُطلق عليها اسم «الوزارة الكبرى» وقد ألفها أحمد مختار باشا الغازى(٣)، وقد تسلمت هذه الوزارة الحكم فى وقت كانت فيه الحالة السياسية فى الدولة العثمانية قد بلغت من الحرج حدًا لا يمكن لهذه الوزارة أن تخرج منه دون تضحية كبيرة عليها، وهو ما تحقق فى معاهدة الصلح مع إيطاليا. بعد ذلك ببضعة أشهر حاولت الوزارة الاتحادية -التى كان يرأسها سعيد باشا- أن تفتح أبواب المفاوضات مع إيطاليا عن طريق بعض الدول الأوروبية. وقد لعب بعض رجال الأعمال اليهود المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقى دورًا بارزًا فى بدء هذه المفاوضات(٤). وكانت محاولات الصلح تجرى فى طى الكتمان، بينما تعلن الحكومة شديد تمسكها بوحدة الدولة العثمانية، وعدم التفريط فى ولاية طرابلس وبنغازى.

ولقد بيّن وزير خارجية بريطانيا لسفير دولته فى الأستانة مدى معارضة الحكومة الإيطالية للمقترحات التى طرحها وزير الخارجية العثمانى فى حكومة الاتحاديين، واقترح الوزير البريطانى

(١) انظر: حروب البلقان، (ص ٨٠).

(٢) انظر: حروب البلقان، (ص٨١)

(٣) انظر: حروب البلقان، (ص٨١).

(٤) جريدة المقدم عدد (٦٩٧٥) فى (١٩) من ربيع الأول عام (١٣٣٠ هـ).

بدوره مشروع سلام يحول دون إراقة ماء الوجه للسياسة التركية كما قال، ويتلخص مشروعه هذا فى أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة إيطاليا على الأمور المدنية مقابل اعتراف إيطاليا بالسيادة الروحية للسلطان، والسماح للمسلمين بممارسة عباداتهم الدينية بحرية تامة، والبقاء على قوانينهم وعاداتهم، وعلى أن تدفع إيطاليا مبالغ سنوية عن طريق شيخ الإسلام اعترافًا بالخلافة الروحية[١].

وقد حاولت كل من حكومة النمسا -المجر، والحكومة الفرنسية أن تقوما بدور الوساطة لإيقاف الحرب بين كل من الدولة العثمانية وإيطاليا، غير أن مساعيهما لم تلق نجاحًا يذكر فى كلتا الدولتين[٢]. وأمام الأزمات الخانقة التى تمر بها الدولة العثمانية رأت حكومة مختار باشا الغازى أن تصل بالمفاوضات مع إيطاليا إلى نتيجة حاسمة، فأوفدت وزير الزراعة العثمانى وزودته بصلاحيات واسعة، وقد وصل المسئول العثمانى إلى لوزان فى (١٦ من شوال سنة ١٣٣٠- الموافق ٢٧ من سبتمبر ١٩١٢م)، ومع وصوله أخذت المباحثات تدخل فى دور حاسم ويتفق الطرفان على الخطوط العريضة لتوقيع الصلح بينهما[٣].

كانت العقبة التى لا تلتقى فيها آراء الطرفين المتفاوضين هى الاعتراف العثمانى بإلحاق طرابلس بإيطاليا، وانتقال جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا؛ فالعثمانيون لا يستطيعون الإعلان صراحة عن إلحاق طرابلس بإيطاليا، لأن ذلك يؤثر على مكانتهم فى العالم الإسلامى والعربى، أما جزر الدوديكانيز فهى أمر عسير إلا أن نذر الحرب فى البلقان جعلت الدولة العثمانية تعقد هدنة للحرب الدائرة فى طرابلس[٤]، وتُتبعها بعقد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة لوزان - أوشى مع إيطاليا والتى منحت الدولة بموجبها الاستقلال لولايتى طرابلس وبنغازى، ومن ثم أبدت استعدادها لسحب قواتها من هناك.

لقد تم توقيع معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية والحكومة الإيطالية فى (٨ من ذى القعدة ١٣٣٠م) وحررت موادها الإحدى عشرة فى لوزان -سويسرا، ووقعها عن الدولة العثمانية كل من: محمد نابى بك، وروميوجلو فخر الدين، وعن الحكومة الإيطالية كل من: لبترو بروتولينى، وقويدو فوزيناتو، وجوسبى فولبى[٥].

---

(١) انظر: حروب البلقان، (ص ٨٣). (٢) انظر: حروب البلقان، (ص٨٣).
(٣) انظر: جهاد طرابلس الغرب، (ص٩٨، ٩٩).
(٤) انظر: جريدة المقتبس، عدد (١٠١٤)، (٥ من ذى القعدة ١٣٣٠هـ).
(٥) انظر: حروب البلقان، (ص ٨٦).

ومن المفيد هنا أن نشير بصورة موجزة إلى مضمون مواد المعاهدة كما وردت فى النسخة الأصلية المحفوظة فى الأرشيف العثمانى فى إستانبول تحت رقم (٣٣٥):

المادة الأولى: تعهدت الحكومتان فيها بإيقاف حالة الحرب بينهما وإرسال مفوضين من الجانبين لتنفيذ ذلك حال توقيع هذه المعاهدة.

المادةالثانية: تعهدت الحكومتان بإصدار أمر بسحب القوات الحربية والضباط من جبهات القتال، فالدولة العثمانية تسحب قواتها من طرابلس وبرقة، والحكومة الإيطالية تسحب قواتها من الجزر التى احتلتها فى بحر إيجة.

المادة الثالثة: يتم تبادل أسرى الحرب بين الدولتين فى أسرع وقت ممكن.

المادة الرابعة: تتعهد الحكومتان بمنح عفو شامل لكل من ساهم بأعمال عدائية أو حامت حوله الشبهات أثناء الحرب لصالح أىٍّ من الدولتين.

المادة الخامسة: التزام الحكومتين بجميع المعاهدات والاتفاقات التى كانت بينهما قبل الحرب، والعودة بعلاقاتهما إلى وضعها السابق.

المادة السادسة: تلتزم حكومة إيطاليا بما تفرضه الدولة العثمانية من زيادة فى الجمارك، وما تقيمه من امتيازات فى إطار القانون التجارى الذى تلتزم به جميع الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية.

المادة السابعة: تتعهد الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية فى الدولة العثمانية إذا علمت الدول الأوروبية ذلك.

المادة الثامنة: تؤيد الحكومة الإيطالية الدولة العثمانية فى مطالبتها بإلغاء نظام الامتيازات واستبدال نظام القانون الدولى به.

المادة التاسعة: استعداد الدولة العثمانية لإعادة الموظفين الإيطاليين الذين يعملون فى الدولة، وفُصلوا من عملهم أثناء الحرب على أن تدفع لهم رواتب الفترة التى أوقفوا فيها عن العمل.

المادة العاشرة: تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع قسط سنوى للدولة العثمانية يعادل المبلغ المستوجب عن إيرادات الولايتين -طرابلس الغرب وبنغازى- لكل سنة من السنوات الثلاث التى سبقت الحرب، والذى لا يقل عن (٢ مليون) ليرة إيطالية لكل سنة.

المادة الحادية عشرة: تدخل هذه المعاهدة حيز التنفيذ وسريان المفعول فى نفس يوم توقيعها. وإثباتًا لذلك، وقع المفوضون ذوو الصلاحية المطلقة هذه الاتفاقية، وختموها بأختامهم(١).

وقد ألحقت بالمعاهدة الرسمية المشار إليها بعاليه أربعة ملاحق اعتبرها الموقعون على المعاهدة جزءًا مكملاً لها، وأهم هذه الملاحق هو المنشور الموقع من السلطان العثمانى الذى تم بموجبه منح الاستقلال الإدارى التام لولايتى طرابلس وبنغازى(٢)، على أن تدار بقوانين جديدة من قبل الأهالى الذين يجب أن يساهموا بتقديم الوصايا والإرشادات، وأنه سيعين نائبًا للسلطان لمدة خمس سنوات للمحافظة على المنافع العثمانية، كما يعين قاضٍ للولايتين من قبل السلطان ليقوم بتنفيذ أحكام الشرع الشريف، على أن يعين هذا القاضى بدوره من العلماء المحليين نوابًا شرعيين له وفقًا للأحكام الشرعية، أما رواتب نائب السلطان والموظفين الشرعيين غير القاضى فتُصرف من مداخيل الولاية المحلية(٣).

كما أن الملحق الثانى لا يقل عن الملحق الأول أهمية؛ لأنه عبارة عن منشور من ملك إيطاليا على غرار منشور السلطان العثمانى، إلا أنه يؤكد فيه خضوع ولايتى طرابلس وبنغازى لإيطاليا، وفيه منح ملك إيطاليا العفو العام لمن ساهم فى الحرب إلى جانب جيوش الدولة العثمانية من أهل الولايتين، وترك لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية. وذكر اسم السلطان العثمانى فى خطبة الصلوات باعتباره خليفة المسلمين، وذكر أن هناك لجنة سيتم تشكيلها تضم فى عضويتها بعض الأهالى تقوم بوضع الأنظمة المدنية والإدارية على النمط الإيطالى(٤).

إن موافقة الدولة العثمانية على عقد معاهدة الصلح مع إيطاليا على تلك الصورة سالفة الذكر، دليل قاطع على أن الدولة العثمانية كانت تعيش أسوأ مراحل تاريخها، وأن الأزمات العنيفة كانت تهدد كيانها(٥)، وهو ما عبر عنه السفير البريطانى فى الأستانة الذى اعتبر شروط الصلح التى تم التوصل إليها بين الدولة العثمانية وإيطاليا من «أفضل ما يمكن أن تحصل عليه الحكومة العثمانية فى ظل الظروف القائمة»(٦)، وصدر الأمر من الأستانة إلى القائد العام التركى أنور بك بأن يغادر برقة، فوقع هذا النبأ على نفس أنور وقوع الصاعقة وتوجه إلى الجغبوب لمقابلة أحمد الشريف السنوسى والتفاهم معه.

---

(١) انظر: حروب البلقان، (ص٨٧).
(٢) انظر: الطريق إلى لوزان، محمد الوافى، (ص ٢١٣، ٢١٤).
(٣) انظر: حروب البلقان، (ص ٨٩).
(٤) انظر: ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد (ص ٤٣٥، ٤٣٦).
(٥) انظر: حروب البلقان، (ص٨٩).
(٦) انظر: الحملة الإيطالية على ليبيا، محمود حسن، (ص ١٦٦).

كان موقف أحمد الشريف واضحًا قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا؛ فقد بعث كتابًا إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه[١]، إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو». وزيادة على ذلك فقد حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية، وحمل الكتاب أربعون شخصًا من كبار السنوسية المجاهدين إلى القائد العثماني[٢].

استقبل أحمد الشريف أنور بك بسيارته، وكانت هذه أول سيارة تدخل صحراء برقة، وقوبل بحفاوة بالغة، وأقام في ضيافة السيد أحمد الشريف ثلاثة أيام، وأبلغ أنور مضيفه أوامر السلطان وأدلى إليه بتوجيهاته «إسناد أمر الأمة الطرابلسية إلى سيادته وإخباره بأن السلطان قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركًا لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها»[٣].

وفي هذا اللقاء تم التصديق بين الرجلين على تأسيس الحكومة السنوسية لتسد الفراغ الذي ترتب على انسحاب تركيا من ولاية طرابلس وملحقاتها[٤]، ولم يطلب أحمد الشريف من أنور بك غير شيء واحد وهو مساعدته بالأسلحة والعتاد الحربي[٥]. ولم يكن المجاهدون في برقة وحدهم الذين قرروا المضي في القتال ورفض الصلح مع إيطاليا على أساس غير الجلاء من بلادهم؛ فقد أرسل سليمان الباروني برقية إلى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم المجاهدين عقد أي صلح مع إيطاليا لا يكفل انسحابها الكلي من أراضي ليبيا العزيزة[٦].

انسحب أنور باشا إلى بلاده واستطاع أن يحقق انتصارات للحكومة التركية، وللأسف الشديد استطاعت الصهيونية العالمية والمحافل الماسونية أن تستخدم هذا الرجل في إفساد الخلافة، وإسقاط الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، ولم ينتبه إلى أنه ألعوبة في يد أعداء الإسلام إلا بعد أن سبق السيف العذل، وقد مدح صاحب كتب «الفوائد» وصاحب كتاب «برقة العربية» أنور باشا كثيرًا.

لقد اعترف أنور باشا بأنه استُغل من قبل أعداء دينه وأمته وشعبه ووطنه، ولم يكن يدري. لقد قال بعد فوات الأوان: إن مصيبتنا أننا قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري. كنا أغبياء[٧].

---

(١)، (٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤٢).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤٦).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ٤٢).
(٥) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ٤١، ٤٢).
(٦) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٤٢).
(٧) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، لمحمد حرب (ص٦).

إنهم لعبرة للضباط والزعماء الذين يريدون خدمة شعوبهم الإسلامية أن يعرفوا أين يضعون أقدامهم، وبمن يثقون، وكيف يتصرفون، حتى لا يندموا حين لا ينفع الندم.

رابعا: نزول أحمد الشريف إلى ساحات الوغى:

جمع أنور باشا بعد رجوعه إلى الجغبوب الضباط العثمانيين وأبلغهم حقيقة الأمر، وسرّهم بأن السيد أحمد سيحل بينهم في القريب العاجل، ثم غادر أنور درنة متوجهًا بسيارته إلى السلوم، ومنها إلى الإسكندرية متنكرًا ووصل إلى الأستانة للمشاركة في حرب البلقان(١).

توجه عزيز المصري الذي تم تعيينه قائدًا للجيش أخيرًا إلى الجغبوب لاستصدار ما يلزم من صاحب القيادة الشرعية، فأكرم أحمد الشريف وفادته وأمره بالرجوع فورًا إلى الميدان الجهادي، وكتب إلى رؤساء وشيوخ القبائل وضباط الجيش يأمرهم بامتثال أوامر وكيله القائد الجديد عزيز المصري، وترك أحمد الشريف الجغبوب متجهًا نحو مدينة درنة، ووصل إلى موضع يدعى «الظهر الأحمر» يقع جنوبها، فاستُقبل استقبالاً عظيمًا، وبعد استقباله للشيوخ والزعماء طلب منهم أن يعودوا إلى معسكراتهم، ثم أصبح بين المجاهدين، وبذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد إثر الانسحاب العثماني، وكتب منشورًا إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية ومواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشرة حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزودًا بمئونته وسلاحه(٢)، ويتفقد المعسكرات، وأبدى نصائحه وآراءه حول الاستعداد لمواصلة الجهاد بدون الأتراك، وأصدر أوامره التنظيمية للمعسكرات والمجاهدين.

عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحًا حديثًا لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة. وفي اليوم السادس عشر من مايو سنة (١٩١٣م) -أي في نفس اليوم الذي وصل فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر- جرت معركة مهولة عُرفت باسم سيدي القرباع، واشتُهرت باسم «يوم الجمعة»، وقد تمكن المجاهدون -بفضل الله- من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة، وقد أصيب الكثير من ضباط القوات الإيطالية بالجنون، وجيء على تلك القوة بأجمعها فكُسي أديم الأرض بأشلاء الموتى والجرحى والعتاد المبعثر هنا وهناك، وكانت

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ٤٢).
(٢) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، جامعة الكويت، الكلية الأولى، محمد عيسى صالحية، (ص ٧).

أول معركة يخوضها أحمد الشريف[١]، وكان لهذا الانتصار العظيم أثره فى جذب الناس إلى حركة الجهاد وانتسابهم للأدوار[٢].

خامساً: الجولة التفتيشية فى الجبل الأخضر:

وبعد أن اجتمع برؤساء الزوايا وشيوخ القبائل شرع أحمد الشريف فى جولات تفتيشية ابتدأت من العزيات وانتهت بجدابية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية بالمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك فى الكثير منها، وقد لقى فى هذه الجولة من المتاعب والمشاق والسهر، وقد أمضّه الجوع، وأضناه العطش فى كثير من الأيام، وكان لا يبالى بما يلاقى ولا ينظر إلى التعب إلا بعين الازدراء ما دام ينظر إلى ما عند الله من الثواب والجزاء، وقد وصفه الكثير من رفاقه بأنه فى تلك الحالة كان باسم الثغر، مبتهج الخاطر، مرتاح الضمير، ساطع المحيا، صبيح المنظر، لا يركن للراحة، ولا يفكر فى رغد العيش[٣].

يقول شكيب أرسلان عن أحمد الشريف: «. . . اشتُهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقمه أحد، ولولاه لما تمكن أنور ولا غيره من أبطال الدفاع عن طرابلس أن يعملوا شيئًا. . .»[٤].

«. . . وقد لحظت منه صبرًا قل أن يوجد فى غيره من الرجال وعزمًا شديدًا تلوح سيماؤه على وجهه، وقد بلغنى أنه كان فى حرب طرابلس يشهد كثيرًا من الوقائع بنفسه، ولا يقتدى بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية، ألا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة. وفى إحدى المرات أوشك أن يقع فى أيدى الطليان، وشاع أنهم أخذوه أسيرًا، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لى خبرها بتفصيله، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد فى قلة من المجاهدين وغير بعيد عن جيش الطليان، فسرّحوا إليه قوة عدة آلاف ومعها سيارة كهربائية، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة، فبلغه خبر زحفهم، وكان يمكنه أن يغيب عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للمجاهدين فلم يفعل، وقال لى: «خفت إن أنا طلبت النجاة بنفسى، أن يصيب المجاهدين الوهن، فدارت عليهم الدائرة، فثبتُّ للطليان -وهم بضعة آلاف- بثلاثمائة مقاتل واستمات العرب ومدوا للعدو. فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى ارتدوا

(١) انظر: الفوائد الجلية، (ص ٢/ ٢٦).
(٢) انظر: الفوائد الجلية، (ص ٢/ ٣٠، ٣١).
(٣) انظر: برقة العربية، (ص ٢٧٠).
(٤) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٤٤).

على أعقابهم، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين». وقال لى: «وفى هذه الوقعة جُرح الضابط نجيب الحورانى، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية، كان قائدًا شجاعًا، ولكنه كان يغامر بنفسه فى كل وقعة، فجُرح مرتين واستُشهد فى الثالثة -رحمه الله-»(١).

لقد كان فى جولاته يشارك الناس فى شرابهم وأكلهم، ويصلى معهم، ويجاهد بنفسه بينهم، فقد كان قمة فى الصبر والحلم والتواضع والبساطة والشجاعة والإقدام، ولا يعرف الخوف إلا من الله وحده سبحانه وتعالى، فقد قوى الله به عزم المجاهدين، وشحذ به هممهم، ووحد به صفهم وكلمتهم فى برقة كلها.

لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه فى المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التى كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى(٢).

سادسا: مجلس شورى أحمد الشريف:

انتخب أحمد الشريف -رحمه الله تعالى- بعض أعيان الحركة السنوسية ممن اشتُهروا بنفاذ الرأى وجودة العقل وحُسن الخُلق وقوة التدين والمكانة العالية بين الناس، لرفقته وليكونوا معه فى رحلاته لاستشارتهم فى الأمور المهمة، وكان منهم كل من الشيوخ الآتية أسماؤهم: محمد علىّ ابن عبد المولى، ومحمد الدرقى، ومحمد بن عمور، وأحمد بن إدريس الأشهب، ومرتضى فركاش(٣).

مساعى إيطاليا لإغراء أحمد الشريف:

أراد عزيز المصرى أن يضعف الصف الجهادى ضد إيطاليا، فسولت له نفسه أن يذهب إلى أحمد الشريف ويصور له استحالة المقاومة وضررها، ونفاد الميرة والذخيرة والأموال، واقترح عليه الصلح مع إيطاليا، وسوف تدفع له لندن وروما وباريس مبلغًا يليق بمقامه وشرفه وكرامته، وأن تكف فرنسا عن محاربته فى الصحراء والسودان، وكان عزيز المصرى قد طلب من أحمد الشريف أن يتنازل عن قطعة الأرض الواقعة بين «بومبا» والجغبوب وبين الحدود المصرية، وترك برقة للطليان، فقال له أحمد الشريف: اسمع يا ولدى، إنى كنت أقبل عن طيب خاطر التنازل

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٦٠، ١٦١).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، (ص ٩١).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢٥: ٢٩).

عن القطعة المذكور وضمها إلى مصر لو كانت حكومة إسلامية حرة، أتركها وأنتقل أنا ورجالى إلى الغرب لمحاربة الطليان على بقية برقة حتى أزيل ظلهم الثقيل عنها دفاعًا عن بقية الإسلام. أما ومصر فى قبضه إنجلترا فلا معنى لهذا العمل، وإنى سأقاوم حتى النهاية[١].

ولقد اطلع المؤرخ محمد الطيب الأشهب على وثيقة تاريخية موقعة من أحمد الشريف بعث بها إلى أنور باشا الذى أصبح وزير الحربية بتاريخ (٢٩ من صفر ١٣٣٥هـ) عند إبراهيم بن أحمد الشريف، وكان فيها: «أتى الطليان للوطن وراسلنى وأرسل إلىّ الأموال الهائلة فرجعتها كلها تعففًا وطلبًا لرضاء الله ورسوله، وقمت بمعاضدة الدولة العلية ولله الحمد، وأمرت جميع أهل الوطن، وقمت بجهدى، ثم بعد ذلك قَدمتُ بنفسى للجهاد»[٢].

حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوى عباس باشا -بعد أن فشلت جميع وفودها التى كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف- وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو أميرها، تحت حمايتها أو انتدابها، وتكون له منطقة نفوذ تحت سلطانه، وتحتفظ هى بالموانئ والثغور الساحلية. فضرب بقولها عرض الحائط وقال: «إننى أقسم أمام جميع المجاهدين على هذا المصحف والبخارى إنى لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير مادام معى نفر واحد من المجاهدين، وإذا خاننى الجميع وسلّموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدى الأعلى شاكيًا إلى الله من خيانة الخونة مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين»[٣].

وقال: «إننى لا أتفاوض مع إيطاليا فى بلادى، ولا أتفق معها على تنازلى عن شبر واحد من البلاد، ولا أحيد عن أحد أمرين: إما تحرير الوطن، وإما الموت فى سبيل ذلك»[٤].

وقال: «إننى أعاهد الله على ألا أتساهل مع إيطاليا فى حق من حقوق أهل البلاد، ولا أتنازل عن مقدار حافر حصانى»[٥]. وكان جوابه للوفد الذى أرسله الخديوى عباس -وكان يتكون من أنجال محمد عبد المتعال الإدريسى، كل من السنوسى ومصطفى وعبد الحميد بك- شديدًا، بأن شروطه للاتفاق مع إيطاليا هى أن تجلو عن البلاد، وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم[٦].

سابعًا: خيانة عزيز المصرى للمجاهدين:

عزيز المصرى رجل عصبى المزاج حاد الطبع كثير المطامع حقود، جاء إلى برقة من اليمن، وكان أول عمله فى درنة أن خطب العرب فقال: «أيها الناس، إن كنتم مسلمين حقيقة ولديكم ذرة من

---

(١)، (٢)، (٣) انظر: برقة العربية، (ص٣٠٥).
(٤) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٦).
(٥)، (٦) انظر: برقة العربية، (ص ٣٠٦).

الشهامة والشرف، فحاربوا العدو إلى آخر قطرة من دمائكم»، فتكدر العرب منه وقالوا: «ما له يشك في ديننا وشهامتنا! ألم يرنا نهزأ بالموت ونذود عن بيضة الإسلام من قبله؟ وها نحن نبلى فى الطليان خير بلاء رغم نيران مدافعهم المتهاطلة كوابل المطر»[(١)]، وأراد أنور باشا أن يترك درنة ويذهب إلى بنغازى، فرفض الشيوخ والزعماء ذلك، وطلبوا منه أن يبقى ويرسل عزيز المصرى أين شاء، وأبوا الخضوع لعزيز المصرى، فأرسل أنور عزيزاً إلى بنغازى، وبدأ عزيز منذ وصوله إلى بنغازى بالهجوم على أنور خصوصاً والأتراك عموماً[(٢)]. وكان المجاهدون بادئ الأمر لا يحصون عليه خطواته، ولا يتعقبونه فى حركاته لظنهم به خيراً، وعندما وصلت أخبار مطاعنه إلى أنور قال: إننا فى مصلحة عامة تذيب الأضغان الشخصية، فليستمر فى دفاعه عن البلاد، ولو أصبح رئيسها لكنت عن طيب خاطر من أتباعه مادام ذلك فى مصلحة الإسلام وأهله[(٣)].

بعد سفر أنور باشا تولى القيادة العامة عزيز المصرى، واستطاع العميل الإيطالى حسن حمادة أن يقنع عزيز المصرى بالتفاوض والتعامل مع إيطاليا سراً مقابل حطام من الدنيا زائل، وعمل عزيز المصرى على خدمة المصالح الإيطالية، وقبل جميع شروطهم وانكشف أمره للمجاهدين، فأحرق الأوراق الخاصة للمجاهدين وقرر ترك ليبيا وقطع الأسلاك البرقية والتليفون حتى لا يجد المجاهدون وسيلة للمخابرة، وجردهم من وسائل الدفاع، وأخذ سلاح المجاهدين وجعله فى أماكن مطمورة، وأوعز إلى الإيطاليين إلى محلها. فدمروها بقنابلهم وغادر درنة، ولما وصل طبرق اشتبك مع المجاهدين وقتل منهم خمسة وجرح أكثر من ثمانية عشر، وأخذ أسلاب الموتى وحرق ستة من الأسرى المجاهدين، وذبح اثنين منهم كالأغنام، وفى طريقه إلى السلوم التقى ألماظ أفندى يحمل مساعدات للمجاهدين، وكان المبلغ الذى معه تسعة آلاف جنيه، فأخذها منه وباح بجميع الأسرار الحربية لأعداء الإسلام[(٤)].

وكان عزيز المصرى قد واعد أحمد الشريف بتسليم السلاح والذخائر للمجاهدين قبل رحيله، إلا أنه رفض وتذرع بأنه لا يركن إلى القبائل البدوية ويخشى أن تهاجمه وقواته عزلاء من سلاحها. لقد أثبتت الوثائق البريطانية التى نُشرت مؤخراً صلات عزيز المصرى بالمخابرات الإنجليزية[(٥)] والإيطالية، ولقد قام بحرق الأسلحة التى معه عندما صعد ظهر الباخرة الألمانية التى كانت فى انتظاره هناك. ولم يكتف بذلك، فقد أشاع لدى وصوله إستانبول بأن السيد أحمد الشريف قد خان وتنكر للسلطان العثمانى ومساعداته، مما جعل أحمد الشريف يوفد سفيره

(١)، (٢) انظر: برقة العربية، (ص ٢٧٣). (٣) انظر: برقة العربية، (ص ٢٧٤).
(٤) انظر: برقة العربية، (ص ٢٧٩).
(٥) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ٤٥).

عبد العزيز العيساوى إلى إستانبول ليوضح الحقيقة للمسئولين العثمانيين الذين يعرفون صدق أحمد الشريف(١).

ثامنًا: استمرار العلميات الجهادية:

ورغم كل الظروف الصعبة التى مرت بها البلاد عام (١٩١٣هـ) إلا أنها شهدت عددًا من المعاوك ضد الإيطاليين فى معظم جهات برقة، ومن أشهر المعارك: معركة ستوان بينغازى (١٠ من مارس)، معركة قاريونس يوم (٢٦ من مارس)، معركة بنينه يوم (١٤ من أبريل)، معركة الرجمة يوم (٢٢ من أبريل)، معركة الأبيار يوم (٢٦ من أبريل)، معركة البويرات يوم (١٨ من يوليو) بالجبل الأخضر، معركة زاوية ترث يوم (٢٤ من مايو) غرب القبة بالجبل الأخضر، معركة الصفصاف (أول يونيه) قرب سيدى حميدة، معركة (١٥ من يوليو) شمال الأبيار، معركة تاكنسى يوم (١٦ من سبتمبر) بالجبل الأخضر، معركة سيدى رافع (٢٧ من سبتمبر) بالبيضاء، معركة المرج (١٩ من أغسطس)(٢).

ومع بداية عام (١٩١٤) أحاطت بالمجاهدين صعوبات شديدة منها:

انقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن، واستدعاء تركيا لبقية قواتها العاملة فى برقة بكامل معداتها، وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة للهجوم(٣)، واستجاب الخديوى عباس لضغوط وترغيب إيطاليا، وحاول شكيب أرسلان أن يقنع الخديوى عباس بدعم المجاهدين، وخصوصًا بعد الصلح الذى تم بين تركيا وإيطاليا، يقول شكيب أرسلان فى رسالة بعثها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوى من جنيف فى (١٨ من سبتمير ١٩١٦م) يشرح فيها ما وقع له عندما قابل الخديوى فى أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر فى طريقه إلى الأستانة للبحث فى مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة: «وعندما جئت من طرابلس إلى مصر فى شهر أغسطس (١٩١٢)، وذهبت من مصر إلى الأستانة مسرعًا كان السبب فى ذلك أنى علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطاليا فخفت أن تهمل طرابلس تمامًا، فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفية عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد، ولا تذهب طرابلس، ولما وصلت إلى السلوم قال رجال الحكومة المصرية هناك: إن سمو الخديوى أرسل يسأل عنى...»(٤).

ويتحدث الأمير شكيب كيف كانت مقابلة الخديوى له، وكيف سأله عن كل شيء ما عدا الجهاد فى ليبيا، وينقل لنا الذى تم على مائدة الإفطار، وكان بجانب الخديوى حسين باشا

(١)، (٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ٤٦). (٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٥٦).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٥٢).

رشدى ثم قاضى مصر -وكان تركيًا- والشيخ علىّ يوسف: إن الدولة قررت عدم إقراض مال لتركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا، فقال شكيب أرسلان: إن تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظًا لشرفها، فقال الشيخ علىّ: ومن أين تأتى بالمال؟ فقال شكيب: كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو (٧٠ ألف جنيه كل شهر)، والحال أن إيطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه، فقال الشيخ علىّ: إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا كالمليون جنيه بالنسبة إلى إيطاليا، فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب، فقلت له: إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامى يقدر على مساعدة طرابلس، فقال: أما نحن أهالى مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين؛ إذ يكونون حينئذ رعية ثائرة على إيطاليا.

قال شكيب: هذا كله يقوله الشيخ علىّ يوسف لا الخديوى، بل الخديوى كان ساكتًا وقد علت وجهه الحمرة، فلما سمعت جدال الشيخ علىّ هذا غضبت وقلت له بحدة: لا تساعدوا أهل طرابلس، فالله يغنيهم عنكم، فانقطع الكلام على إثر هذه الحدة ووجم الخديوى، وصار قاضى مصر يبتسم وقمنا عن السفرة إلى الصلاة، فأخذنى الخديوى بيدى؛ لأنه شعر بكونى متأثرًا جدًا، ومازال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتنحى قليلاً إلى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعنى، وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى، وأنا لا أعى من التأثر، فلما بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن حاضرًا مجلسنا ولا سمع شيئًا مما دار بينى وبين الشيخ علىّ، ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة[١] قوله تعالى: ﴿ولا يحزُنكَ قولُهم إنَّ العِزَّةَ للهِ جميعا﴾ [يونس: ٦٥].

وبالرغم من كل الظروف وبقاء المجاهدين وحدهم فى القتال، وأمام تعدد احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، وضغط الإيطاليين عليهم بالتركيز فى شن حملات قوية وكبيرة.. إلا أن المجاهدين استمروا بنفس الروح الجهادية الأولى[٢]، وكان المجاهدون التزموا الدفاع والتربص بالعدو، حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقضوا عليهم، فأوقعوا بهم شر مقتلة، وغنموا منهم أسلابًا كثيرة أمدتهم فى الحقيقة بأكثر ما كانوا فى حاجة ملحة إليه من الأسلحة والعتاد ودواب التنقل، وظل الحال على هذا المنوال[٣].

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٥٢).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص ٤٧).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (١٥٦).

تاسعًا: تمركز قوات أحمد الشريف قرب السلوم:

بعد أن سحبت تركيا قواتها وتركت البلاد تخوض جهادًا شعبيًا، معتمدة فيه على طاقتها الكامنة ومقوماتها الذاتية، عقد أحمد الشريف السنوسى اجتماعًا عامًا لشيوخ الزوايا، ورؤساء الجند، وزعماء القبائل، تدارسوا خلاله الأوضاع العامة فى برقة، واحتمالات الحرب، ومدى استعدادهم لمحاربة القوات الإيطالية الصليبية، واستقر رأيهم على الانتقال بجميع القوات الجهادية التى كان يبلغ عددها السبعة آلاف مقاتل، إلى منطقة إمساعد -تلك القرية القرية الحدودية المتاخمة للحدود الشرقية مع مصر؛ لأن مصر تشكل عمقًا استراتيجيًا لقوات المجاهدين، وكانت تأتيها المساعدات من قبل المسلمين بالتهريب عبر الحدود، وكانت بريطانيا مضطرة لغض البصر عن المساعدات التى كانت تصل المجاهدين خوفًا من الرأى العام الإسلامى ضدها وخاصة مستعمراتها، إذا ما ظهرت متآمرة على جهاد الليبيين. ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى ذهبت بريطانيا للتقرب من أحمد الشريف وحاولت أن تمد جسورها معه، كى تستعمله ورقة ضغط على إيطاليا، لاسيما أن ملامح الحرب العالمية الأولى كانت قد بدأت تلوح فى الآفاق، وكان أحمد الشريف يقظًا لما يجرى حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع وحماية الشعب والاستعداد للجهاد، وشرع أحمد الشريف فى تشكيل جيش نظامى مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبى الإيطالى، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة، كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هى: تركيا وألمانيا بالدرجة الأولى، وبريطانيا ومصر بعد ذلك[1].



(١) انظر: حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت (ص١٢).

المبحث الخامس

الحرب العالمية الأولى

في أول عام (١٣٣٣هـ) قامت الحرب العالمية الأولى ما بين ألمانيا وحليفاتها النمسا وبلغاريا وإيطاليا، وما بين بريطانيا وفرنسا وتبعتهما دول أوروبا الصغيرة ما عدا سويسرا، كما انضمت إليهما روسيا وأمريكا، وكانت تركيا مترددة في الدخول مع هذا أو ذاك حتى أول عام (١٣٣٤هـ) فدخلت الحرب إلى جانب ألمانيا حليفاتها، وفي نفس الوقت قامت إيطاليا وخانت حليفتها ألمانيا، وانضمت إلى صف الحلفاء فرنسا وبريطانيا وحليفاتهما روسيا وأمريكا، وبدخول تركيا الحرب ضد الحلفاء الذين كانوا يتوقعون منها ذلك تكالبوا عليها، وفتحوا عليها عدة جبهات، فكانت روسيا تحاربهم بالقفقاس وفي عموم شواطئ البحر الأوسط، والانجليز في عموم شواطئ البحر الأحمر، واستطاعت بريطانيا أن تفتن أمير مكة الحسين بن علي وتحرضه على الدولة العثمانية، وحدثت معارك أضعفت الدولة العثمانية بسبب تلك الأمور[(١)]. لقد خدعت بريطانيا الحسين ابن علي وأعطته وعودًا وأملاً ومنّته بإقامة دولة عربية تشمل كامل جزيرة العرب، تحت تاجه، وبذلك أعلن ثورته على الحكومة العثمانية وتابعته قبائل العرب في الحجاز، وشرق الأردن، وأطراف نجد، وبادية العراق، وسوريا وفلسطين، وثاروا على تركيا لثورته، فعمت البلوى. ولم يكتف الحلفاء بهذا كله، فجمعوا قواتهم الجوية وأساطيلهم الحربية في البحر الأبيض، وفتحوا جبهة الدردنيل وكانت هذه الجبهة هي أشد الجبهات على تركيا وأخطرها، ولذلك كرست ما لديها من المجهود لدفع هذه الجبهة، واستمرت معركة الاستماتة زهاء ستة أشهر، استشهد خلالها ما ينوف عن مائتي ألف جندي للأتراك لكنهم دفعوا العدو إلى البحر[(٢)].

وكانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنجليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف، فهذه رسالة أرسلها اللورد كتشنر بواسطة بعض عملائهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى اللورد كتشنر -المعتمد السياسي لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصري- إلى مهبط أسرار الحضرة الربانية، ومصدر صفوة

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٣٦-٣٧).

الإرشادات اللدنية، صاحب التجليات الأسنية، والنفحات القدسية، قطب دائرة أهل الفضل والكمال، وخلاصة أرباب الحجا والجلال، المتحلى بروحانية أسلافه الطيبين الطاهرين، والمتجمل بصفات أهل الجمال واليقين، والمتخلى عن أوضار الأغيار فى مهيعة عبادة رب العالمين، دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية، خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وأيده بروح منه.

أما بعد:

فإن الفرصة التى دعتنى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص، وإن كانت القصة الداعية إليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الإمام المهدى العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع إليه الظلامات ليحقق آمال رافعيها، وأن تصل إليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها، ولهذا يسرنى أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم، ولم تستأصل إرشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم، ولذلك أكتب لمقامكم الكريم ما يلى:

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبابيش التابعين لحكومة السودان -ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلاً- قصدوا بير النظرون التابع لمديرية دنقلا، وبينما كانوا عند البئر إذ انقض عليهم عدد عظيم من العربان، بينهم نحو مائة من أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة، والباقون من أهل زغاوة والبديات، واعتدوا عليهم شر اعتداء، وكان دافعهم إلى هذا الشر وداعيهم إليه قبل كل أحد زعيم الفزانين، واسمه الشيخ محمد أبو دوشى الفزانى أحد الخاضعين لسلطانكم، والمستظلين بظل حمايتكم وإحسانكم؛ إذ ذهب برجاله إلى عربان زغاوة والبديات، وطلب منهم الانضمام إليه لمقاتلة الكبابيش وحرضهم على ذلك حتى انصاع إليه جمع منهم، فبلغ ذلك عدد عصابته التى أغار بها على ذلك النفر القلائل، ولم يخف سطوة الله عز وجل، ولم يذكر أن عمله المنكر فضلاً عن دونه يغضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذى هو من سخط الله وغضبه، وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار، بإزاء جماعة الكبابيش الذين كانوا عند البئر، بل أخذهم غدراً وفاجأهم على غرة منهم، فبينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً إذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حامية كادت تحصدهم حصداً، فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم، فطعنوا فى صدورهم أنكى الطعنات، وقتلوا بذلك ثمانية، وجرحوا ثلاثة وأسروا اثنين، وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع، ثم استاقوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من

الأحمال، غير مبالين بأن يعدوا فى شريعة الإسلام من العاثين في الأرض فساداً، وأن جزاءهم فيها إذا وجدوا قضاة عدولاً ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ [المائدة: ٣٣].

فيرى السيد -حفظه الله ووفقه لإجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين- أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة، ويعتزون بطول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء، وخانوا عهد طريقتكم السمحاء، ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم، ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه، وبطش الله وعقابه، وهذا غريب جدًا أيها السيد الكريم، مع ما يعلم القاصى والدانى من خضوع هؤلاء الأقوام لسطوتكم واتمارهم بأوامركم، ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور، وشدة بأسكم على أهل البغى والعناد، وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى انتهت إليكم تراثًا عن أسلافكم العظماء الأكابر ذوى البأس الشديد، والتاريخ المجيد، فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثيرو العدد من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلى النفر فيقتلون منهم الأنفس، ويسلبون الأموال والمتاع، وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم؟ لقد كان فى وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ فى مثل هذا الحادث إجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة، وتضرب بهم الأمثال للناس، وهى لا تعدم الوسيلة لذلك، ولكن بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والإنصاف، والغيرة على إقامة معالم الشريعة الغراء فى البلاد والجهات التى يصل لها نفوذكم، وتمتد إليها سطوتكم، قد فضلت أن أراجع مقامكم السامى فى هذه النازلة، لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الإسلامى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فإذا شاء السيد -حفظه الله- تحقيق آمالى فى عدله وإنصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الأذى عن جيرانهم وإخوانهم فى الدين، وأن يكلف أولئك المعتدين برد الجمال والأحمال التى سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق: الدية للمقتول، والتعويض للمجروح ظلمًا وعدوانًا، ولست أظن أنه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد، ولكن إذا كان هناك مانعٌ لا أعرفه، فإننى أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفنى بإفادتى عن الطريقة التى يحسن اتباعها للوصول إلى تلك الغاية من غير أن يمس كرامتكم التى أود أن أحافظ عليها دائمًا وأطلب من الله المزيد فيها، وقد أرفقت بكتابى هذا

بيانًا مشتملاً على أسماء الأشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبابيش، ومن قُتل ومن جُرح منهم، لتكونوا على بينة من الأمر، ولتجروا العدل فيهم، كما أمر الله، جعلكم الله ملاذًا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه، وأمدكم بروح منه ما دامت إحساناته إليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة، ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام، آمين[١].

(اللورد كتشنر باشا)

بغض النظر عن حقيقة هذه القصة التى فيها الرسالة، إلا أننا نجد فيهاز أمورًا مهمة، منها: اهتمام الإنجليز بشخصية أحمد الشريف واحترامها، ومحاولة كسبها واستمالتها، ونجد أيضًا استعانة الإنجليز بالعرب الأدباء ليكتبوا لهم ما أرادوا توجيهه لسيادة أحمد الشريف -رحمه الله- وهذا أسلوب إنجليزى معروف، فيحاولون إيجاد ثغرات ومنافذ فى كيان الأمة والسعى الدءوب فى تضعيفها وتمزيقها، فقد نجحوا مع أمير مكة الحسين بن على، وهم الآن يحاولون مع أحمد الشريف، وكانت بريطانيا حريصة على جذب السيد أحمد الشريف إلى معسكرها، أو تحييده، وكانت حريصة على أن تكسب الشعوب الإسلامية بزعم أنها تعمل على مساندة حركة المجاهدين المسلمين فى ليبيا، فتخدر بذلك مشاعر المسلمين فى مصر والهند وغيرها، وأظهرت تعاطفها مع أحمد الشريف للضغط على إيطاليا وتضعيف تحالفها مع ألمانيا فى حربها المنتظرة.

أولاً: إقحام أحمد الشريف فى الحرب:

بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومتان التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزى. ولتحقيق هذه الغاية، بعث أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه أن السلطان العثمانى قرر منحه النيابة عنه فى إفريقيا، ويخوله ما له من نفوذ مطلق مدنيًا وعسكريًا، مثل: حق إعطاء الرتب والنياشين والعفو عن المحكومين والتولية والعزل دون الرجوع إلى الباب العالى بإستانبول. ثم وصل إلى برقة الضابط العثمانى أخو أنور باشا «نورى باشا» ومعه الأوسمة الرفيعة والنياشين، وقابل أحمد الشريف قرب السلوم وسلمه رسالة أخيه أنور التى كانت تحمل نبأ إعلان الحرب وتعيين السلطان له نائبًا عنه فى إفريقيا الشمالية[٢]. وفى الفترة نفسها وصل برقة الضابط الألمانى مانسمان[٣]، الذى كان معه كتاب خاص من إمبراطور ألمانيا

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٢٩ إلى ١٣١).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص٥٠).
(٣) مسئول المخابرات الألمانية فى المغرب العربى.

إلى أحمد الشريف، ويحمل نيشانًا رفيعًا منحه الإمبراطور إليه. كما وصلها أيضًا جعفر العسكري [(١)].

وكان هؤلاء الضباط مستائين من سياسة أحمد الشريف تجاه الإنجليز؛ لأن ذلك يخالف أغراضهم التي جاءوا من أجلها، وبذل نوري باشا ورفقاؤه جهودًا مضنية للتأثير على أحمد الشريف كي يهاجم الإنجليز، فأخفقوا أمام إصرار أحمد الشريف على الامتناع، ووصلت عدة كتابات من أنور باشا يبين فيها للسيد أحمد الشريف فوائد الصدام مع الإنجليز، والاصطدام بهم. ورد عليه أحمد الشريف بتقرير بتاريخ (٢٩ من صفر سنة ١٣٣٥هـ) جاء فيه: «. . . حرب يأتيك -يقصد به حرب الطليان- وحرب تأتيه -يقصد بها حرب الإنجليز- فالحرب الذى يأتيك يجب عليك مدافعته بأى حالة كانت، والحرب الذى تأتيه يجب عليك الاستعداد له»[(٢)].

ويوضح تقرير أحمد الشريف أنه مهتم بأمر حرب الطليان الذين جاءوا إلى أرضه، وأنه يجب عليه أن يركز جهوده عليها من أجل تحرير بلاده، وفى الوقت نفسه فهو غير مستعد لإعلان حرب جديدة لا قدرة له عليها، ولا تسمح له ظروفه الحربية والسياسية والاقتصادية بالقيام بها.

وهناك سؤال يطرح نفسه فى نص تقرير أحمد الشريف وهو: ماذا يقصد بعبارة «يجب عليك الاستعداد له»؟ إن أحمد الشريف يؤكد لأنور باشا وزير الحربية من خلال هذا التقرير أنه يجب الاستعداد لهذه الحرب. إن أحمد الشريف كان لا يريد الدخول فى حرب إلا مع أعدائه الإيطاليين المحتلين للأراضى الليبية، وخصوصًا أنه يريد أن يحافظ على علاقته الجيدة مع الإنجليز الذين كانوا قد تركوا السنوسيين وشأنهم ولم يعتدوا عليهم، «وكان حيادهم على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لحركة الجهاد؛ لأن جميع ذخائر المجاهدين فى الجبهة الشرقية كانت تأتى من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله»[(٣)]، وقد ترك الإنجليز المجاهدين يبيعون الأسلاب التى غنموها من الطليان فى ميناء السلوم، وحرصوا على أن تكون العلاقة بينهم وبين السنوسيين جيدة، فكانوا يبعثون الهدايا والكتب ومعها رسائل الاحترام والتقدير لشخصه وبلاده، كما أن أحمد الشريف نفسه كان يجامل المسئولين الإنجليز لتأمين حدود بلاده وسلامتها أولاً، ثم لقضاء حاجياته من مصر، فقد كانت تصنع فيها ألبسة رجال جيشه وكان بعض العتاد والذخائر يصل إليه منها[(٤)].

(١) قائد تركى أصله عراقى أُسر فى هذه الحرب عام (١٩١٦م).
(٢) انظر: برقة العربية، (ص٣١٤).
(٣) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد (ص٣٣٦).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٥٧).

كان أحمد الشريف مشفقًا من التورط فى أمور هو فى غنى عنها فى ذلك الوقت بالذات، ولذلك فقد طلب من الشيخ محمد سوف المحمودى الذى وصل من تركيا أن يسافر برجاله إلى طرابلس، وأن يقيم معسكرًا بمجرد وصوله إلى هناك لمواصلة حرب الإيطاليين، وقد منحه أحمد الشريف رتبة بكباشى شرف تقديرًا لشخصه وجهاده، وأطاع الشيخ سوف الأمر، وسافر برجاله إلى طرابلس، وذلك فى أوائل شهر يناير سنة (١٩١٥م).

إلا أن منظمة تشكيلات مخصوصة وهى تابعة للمخابرات العسكرية العثمانية يعرفها البعض: «بأنها منظمة عثمانية سرية غامضة مهمتها الأساسية الأمن الخارجى للإمبراطورية العثمانية، ومكافحة التجسس الأجنبى عليها، وكان لمعظم المنتسبين إليها الصفة العسكرية[1]»، وحاولت هذه المنظمة أن تجعل من أحمد الشريف أداة طيعة تستغلها حسبما تمليه مصالح الإمبراطورية العثمانية، وليس حسبما تقتضيه مصالح ليبيا المتمثلة فى تحريرها من الاستعمار الإيطالى. وكانت الحكومة التركية قد أرسلت بعض أنصارها الذين هم من ولاية طرابلس الغرب، وكانوا قد هاجروا إلى تركيا بعد فشل المجاهدين فى معركة جندوبة سنة (١٩١٣م)، وكان من هؤلاء: الشيخ سليمان البارونى عضو مجلس المبعوثين، وزعيم الجهاد الطرابلسى فى الفترة الأولى (١١/ ١٩١٣م) وكان الشيخ البارونى: «عثمانى الميول، وهو على علم بالمخطط التركى لغزو مصر، وإعداد حملتين لها شرقية وغربية وإخراج الإنجليز منها، ثم تحرير طرابلس بعد إخراج الطليان منها...».

عزمت المنظمة العثمانية على الزج بقوات أحمد الشريف فى حرب لم يكن فى حاجة إليها، خاصة فى ذلك الوقت. ولما يئست هذه المنظمة من إقناع أحمد الشريف بتلك الحرب، اتجهت نية ضباط تشكيلات مخصوصة إلى الخلاص من أحمد الشريف، وأعدت انقلابًا ضده، وتفجير خيمته، ووضع بديل له من العائلة السنوسية، يكون أسهل انقيادًا وانصياعًا لمخططات هذه المنظمة. وتم إعداد المؤامرة إلا أنه اكتُشف أمرها، وألقى القبض على المتهمين، وأمر أحمد الشريف البقية من مهاجرى طرابلس بأن يسافروا إلى بلادهم بسرعة للانضمام إلى الشيخ محمد سوف، وأنذر أحمد الشريف من يخالف أوامره بالإعدام، فنُفذت كاملة، وهدأت الحالة، وكان ذلك فى شهر فبراير عام (١٩١٥م)[2]، ووصل الأمر بأن اتُهم أحمد الشريف بأنه ممالئ للإنجليز سرًا، وفى مقابلة مع أحمد الشريف قام بها الضابط المصرى محمد صالح حرب قبل نشوب الحرب، سأل الأخير أحمد الشريف عن حقيقة موقفه فأجابه: «... إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه فى حرب مع الإنجليز قبل أن يستعد لها، وأنه لا يمالئ الإنجليز محبة فيهم أو تقربًا منهم،

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٥٣).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٥٩).

ولكن مصر هى الباب الوحيد المفتوح الذى تأتيه منه الأرزاق التى يستطيع بسببها متابعة القتال ضد الطليان، فإذا قُفل هذا الباب تحرّج موقفه، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية التى يكون فيها الغناء عن ذلك المفتوح، ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال، ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة يلحون فى هذا الطلب، مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يحين الوقت الملائم يعود بالشر والوبال على الجميع».

وختم السيد أحمد قوله: «وإنى أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة، ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا، وأنا ليس فى نيتى أن أحارب الإنجليز[١]».

استمر ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة فى مهمتهم الرئيسية لإقحام أحمد الشريف فى حرب ضد الإنجليز، وقد اعترف نورى باشا بأنه صار مرغمًا بسبب سكوت أحمد الشريف على تدبير المخطط لفصم عُرى العلاقات القائمة بينه وبين الإنجليز، وبادر الأتراك سرًا بمهاجمة المراكز البريطانية، وزوّروا أوامر أحمد الشريف إلى ضباط العرب وعساكرهم ووقع ما وقع[٢]، وأرسل الأتراك سعاة إلى مصر يقولون: إن أحمد الشريف يأبى الزحف إلى مصر مداراة للإنجليز، مع أنه حضر من الأستانة لأجل إعداد حملة على مصر وإنقاذها من أيدى الإنجليز، فصارت تتوارد من مصر الرسل إلى أحمد الشريف تعاتبه على موقفه هذا[٣].

وعلى العموم فإن الأمور تلاحقت، وتتابعت الحوادث على الحدود بفعل التأثيرات الشديدة للحرب وضغوطها على الجانبين، فلم يكن بمقدور أحمد الشريف صد تيار الانجراف، فحدث ما حدث دون أن تكون له سيطرة على زمام الأمور، وحاول الإنجليز تدارك الموقف بالطرق الدبلوماسية، تجنبًا للعنف والصدام مع السنوسيين وتقليلاً لعدد خصومهم وأعدائهم، فى وقت كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها، فاتصلوا بالسلطان حسين كامل «سلطان مصر» وأطلعوه على ما جرى وراء الحدود، ورجوه أن يعمل للإصلاح والتوفيق ولإقناع أحمد الشريف بالتزام الحياد، والتنبيه إلى خطورة الاستماع إلى الأتراك والألمان، فأرسل السلطان حسين كامل وفدًا برئاسة محمد الشريف الإدريسى نجل عبد المتعال بن أحمد بن إدريس، وكانت معهم رسائل من السلطان حسين كامل، ومن السير ماكمهون نائب ملك الإنجليز فى مصر، ومن الجنرال ماكسويل قائد الجيش البريطانى فى مصر، وتدور الرسائل حول فكرة النصح للسيد أحمد الشريف بالتزام الحياد[٤].

(١) انظر: السنوسة دين ودولة، (ص١٦٧).
(٢) انظر: برقة العربية، (ص٣١٥).
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٣).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٥).

وهذا نص الرسالة التى أرسلها الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر فى (٣ من ديسمبر سنة ١٩١٥/ ٢٥ من المحرم سنة ١٣٣٤هـ):

حضرة الأستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطابى الإدريسى . . دام وجوده الكريم:

تحية وسلامًا وبعد: فقد أدهشنى ما وجدته بعد عودتى إلى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة فى غليبولى. إن العلاقات بيننا قد حدث فيها تغير، وإن أتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية.

وقد سمعت بارتياح أنكم أرسلتم كبيرًا من مستشاريكم إلى البرانى ليسعى فى إرجاع بعض أتباعكم الذين عصوا أوامركم، ولكنى تعجبت إذ سمعت أن هؤلاء الأتباع قد تمادوا فى العصيان حتى أنهم لم يطيعوا الأوامر فقط، بل أطلقوا فعلاً على جعفر أفندى، هذا وقد بلغنى أيضًا ما أهمّنى وهو أن سبعين رجلاً من رعايا الدولة الذين نجوا من مركب غرّقته العدو قد حُجزوا غرب حدودنا، فأسألكم برهانًا على العواطف الودية التى أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال منكوبى الحظ حالاً بدون أذى إلى مرسى مطروح. هذا ويظهر أن نفوذ نورى بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا، وهذا النفوذ الضار هو الذى زج تركيا فى الحرب المهلكة والتى ستنتهى حتمًا بزوال دولة الأتراك من الوجود. إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام، وأما الآن فقد اضطررت بسبب المقاصد السيئة التى تحيط بسيادتكم أن أستدعى رجالى من نقطة السلوم، واتخذ لهم مركزًا فى مرسى مطروح، وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون بقاء العلائق الودية أم لا.

ومن الآن وصاعدًا كل رجل من أتباعكم يتعدى الحدود حاملاً سلاحه سأضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعماله كذلك. لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا، وأنا أتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا إلى الآن من إبعادهم. إنى لا أشك أن السيد محمد الشريف الإدريسى قد سلمكم كتابى، وفاوضكم فى جميع الشئون التى ولج إليه مفاوضتكم فيها، ولا أشك فى أنه بيّن لكم أن مقاصدنا نحوكم ودية محصنة، وأن ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو أعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا، ولا يسعنى إلا الظن بأن الدساسين قد نقلوا أخبارًا كاذبة عن الحرب الأوروبية، والحقيقة هى أن خسارة إمبراطور الألمان وحلفائه بطيئة، ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال، والمستقبل يريكم ما أراد الله.

وإنى أسألكم أن تمعنوا النظر فى الأمر وتعتبروا أنه إذا اتخذتم بسوء الحظ خطة عدائية فإنكم لا تجلبون عليكم إيطاليا بل فرنسا، وإنجلترا، ومصر، وتتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضيع فى هذا السبيل، وتعرّضون بلادكم للجوع، إذ تسد عليكم طريق الزاد والمئونة برًا، وتحصر الشطوط البحرية، وإذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شيء، وإن ذلك كله ليس بقصد التهديد، بل بقصد «النصيحة» كصديق، والأتراك يقضون بكم مأربهم، ثم ينبذونكم نبذ النواة وراء ظهورهم.

إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن، ولذلك فإنى أسألكم أن تبرهنوا على حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال، وأن ترسلوا حالاً إلى مرسى مطروح الرجال الإنجليز الذين نجوا من مركبهم، وهو الآن غرب حدودنا، وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا، وأن تخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان، أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك فى أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيمًا، ولى الرجاء أنكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر ولا يمكن تلافيه[1].

وقد كلف الجنرال ماكسويل رئيس الوفد بأن يبلغ أحمد الشريف باسم حكومته بأنها إذا انتهت الحرب العظمى الأولى، ولم يشترك فيها أحمد الشريف وحافظ على الحياد، فإن إنجلترا تتعهد بأن تساعده فى الحصول على استقلال بلاده وتوفق بينه وبين إيطاليا، كما أنه سيكون أعظم شخصية عربية فى البلاد العربية ومرجعًا لأمراء العرب وكبرائهم[2].

واستمرت جهود ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة لإشعال نار الحرب على الحدود، واستمالوا بعض العناصر بالوعود والمال والذهب، ومن هؤلاء الذين تأثروا بدعاية الأتراك: «أحمد مختار الطرابلسى وأبو القاسم وآخرون»[3].

وكان هؤلاء الضباط قد هاجموا القوات الإنجليزية قرب السلوم، وكان كل هذا يجرى دون علم أحمد الشريف، وفعلاً هاجم المسلحون نقطة حراسة القوات الإنجليزية فى السلوم، وعلم أحمد الشريف بالحادثة فى صباح اليوم التالى، فتأثر لذلك كثيرًا، واضطرب اضطرابًا شديدًا، وحاول إصلاح الموقف، إلا أن الأمور سارت بما لا تشتهى، وانفرط زمام الموقف من يده فوجد نفسه هدفًا لهجوم مضاد من قبل الإنجليز، فما كان منه إلا أن يقبل الأمر الواقع الذى أوقعه فيه ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة[4].

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤).
(٢) انظر: جهاد الأبطال (ص٢٦٤).
(٣)، (٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٦).

وكانت الأحداث تتجاذب أحمد الشريف بشدة، وتضعه فى جملة من المواقف الحرجة، منها:

١- أن تركيا مسلمة وهى تمثل الخلافة الإسلامية فى نظره، وكان طبيعيًا أن يميل إلى الإسلام والمسلمين ومساعدتهم.

٢- أن قوة الألمان العسكرية وانتصاراتهم الباهرة مع بداية الحرب العالمية الأولى أقنعت بصورة أو أخرى أحمد الشريف بقوة ألمانيا العسكرية، وبأنها ستحقق النصر النهائى على قوات الحلفاء «فرنسا وبريطانيا وإيطاليا».

٣- أن وعود بريطانيا للسيد أحمد الشريف بالتنازل له عن بعض الواحات هى وعود شفوية، أو كتابية فقط، ولن ترى النور، ولن تخرج إلى حيز التطبيق العملى مطلقًا، وهذه هى عادة بريطانيا التى كانت تطلق وعودًا غامضة متكررة ومتناقضة تصدر تحت ضغط الحرب.

٤- كان أحمد الشريف مدينًا بالولاء الودى والجميل للأتراك؛ فهم الذين قاتلوا وجاهدوا مع الليبيين فى برقة وطرابلس، وله ارتباطات متينة مع كبار الضباط الأتراك، وعلى سبيل المثال علاقته مع أنور باشا وزير الحربية، كما أنه أصبح نائب السلطان «بحكم فرمان سلطانى» فى شمال إفريقيا.

٥- أن وعود الأتراك «الباب العالى- السلطان- وزارة الحربية- كبار الضباط- منظمة تشكيلات مخصوصة. . .» للسيد أحمد الشريف بتزويده بالسلاح والعتاد والمال، وكل مستلزمات الحرب، كانت وعودًا صادقة فى البداية، وكان فى تصور أحمد الشريف أن ذلك العون سيستمر حتى تحرير البلاد، وخصوصًا أنهم بعثوا له بعض العون عن طريق الغواصات الألمانية قبل قيامه بإعلان الحرب ضد الإنجليز فى مصر.

٦- التقت مصلحة أحمد الشريف ومصلحة الأتراك والألمان فى شىء واحد، ينتفعون جميعًا من فعله، والقيام به، ألا وهو محاربة إيطاليا؛ لأنها عدوة لهم جميعًا فى تلك الفترة[1].

ورغم كل ذلك ومهما كانت الظروف فإن قراره بمهاجمة الإنجليز عبر الحدود المصرية، كان قرارًا متسرعًا رغم أن السيد أحمد قد رفضه وبشدة فى البداية؛ لأنه كان على يقين أن ذلك الهجوم لا يتماشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب فى شكلها المتكامل، والتى لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية فى تلك الاستراتيجية اتخذوا من أحمد الشريف

(١) الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٠، ٦١).

مطية لتحقيق أغراضهم. ونحن نستغرب موافقة السيد أحمد على الدخول فى تلك الحرب؛ فهى خارج بلاده، وتنقصه العدة، والأسلحة، كما أنها ليست ضد إيطاليا المحتلة لوطنه. لقد كانت خطأ فى الحكم والتقدير من رجل محنك صقلته التجارب، وابتلته الأحداث، وكان له فى ميادين السياسة والحرب صولات وجولات.

كان يجب عليه أن يتعاون مع الأتراك والألمان ضد إيطاليا، لتحرير بلاده أولا[١]. ومهما يكن من أمر فإن الظروف لعبت دورها واشترك أحمد الشريف بقواته وسار بجيشه وعدده أربعة آلاف مسلح، وكان معه نورى باشا قائدًا أول وجعفر العسكرى قائدًا ثانيًا، وغرضهم الهجوم على السلوم، وجهز الإنجليز جيشًا بلغ تعداده ثلاثين ألفًا من مشاة وفرسان.

وقامت الحرب بالفعل فى نوفمبر سنة (١٩١٥م)، وأخذت الفرق العسكرية النظامية والمتطوعة تنحدر إلى الأراضى المصرية، وبدأت القيادة فى إعلان وجوب اشتراك رجال القبائل المصرية فى الحرب ضد الإنجليز المحتلين لمصر، والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية[٢].

وكان الضابط المصرى محمد صالح حرب تابعًا للقوات الإنجليزية، فجمع الرؤساء والمشايخ وخاطبهم قائلاً: «نقف اليوم بين معسكرين: الإنجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا، وقد أقنعنى ضميرى وواجبى الدينى بعدم البقاء مع الإنجليز، وقد خرجت فى سبيل الجهاد ضدهم، فمن كان منكم يحرص على حياته أو تلزمه أية مسئولية عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح، فإننى لا أحول بينه وبين العودة، إنما شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومئونة...»[٣].

فلم يرغب أحد منهم فى العودة، بل أبدوا جميعًا التصميم على البقاء إلى جانب رئيسهم، وعاهدوه على الجهاد والثورة التى بدأت بصورة علنية، واستجاب لها بعض عرب قبائل أولاد على. وبغض النظر عن عدد هذه القوة التى انضمت لقوات السيد أحمد الشريف -وغالبًا ما كانت تقدر بحوالى مائة وخمسين جنديًا[٤]- فإن هذه القوة المنظمة للمجاهدين أعطتهم دفعًا جديدًا وأججت فى نفوسهم الرغبة لمنازلة الإنجليز وتحرير الديار من نير المستعمرين.

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٠، ٦١). (٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٦٩).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٧٣).
(٤) انظر: منظمة تشكيلات مخصوصة، عبد المولى الحريرى، مركز الدراسات العربية، (عام ١٩٧٩م)، (ص٣٦).

بدأ هجوم المجاهدين والأتراك على القوات الإنجليزية عند حدود مصر، ودارت معارك طاحنة من أشهرها: معركة وادى ماجد فى أواخر شهر ديسمبر عام (١٩١٥م) ومعركة بوتونس التى قال عنها ضابط بريطانى شارك فى هذه المعارك: «. . . لقد قام العدو بعزم شديد ومقاومة عنيفة، ودام القتال من أجل إحراز قصب السبق أربع ساعات تحت نيران البنادق التى كان العدو يستخدمها بنجاح ودقة، بقيادة ضباط أتراك وألمان، وعلى حين كنا نحاول بشق الأنفس أن نصمد دبت الفوضى فى صف الفرسان على الميسرة، عندها قويت شوكة العرب الذين كانوا يجابهون هذا الجانب من صف الفرسان. . .»(١).

إلا أن المجاهدين كان ينقصهم الدواء واللباس والذخيرة والسلاح، ولذلك تأثرت بقية المعارك ونتائجها تبعًا لذلك، فأخذ المجاهدون فى الانسحاب والتقهقر اضطرارًا، وبذلك النقص والانسحاب تأزم الموقف، ودب الخلاف بين أحمد الشريف ونورى باشا، لتفاقم واشتداد الضرر الاقتصادى فى معسكر المجاهدين وما حوله بشكل تجاوز حد الاحتمال(٢). ولذلك عقد أحمد الشريف اجتماعًا عاجلاً لوضع حد معين لهذه الاحتياجات والنواقص ولدراسة الأحداث من كل جوانبها، وعُقد الاجتماع فى أواخر يناير (١٩١٦م) فى خيمة أحمد الشريف وحضره نورى باشا وجعفر العسكرى عن الجانب التركى، ومحمد صالح حرب عن الضباط المصريين، وثلاثة من كبار رجال السيد أحمد الشريف الذى ترأس ذلك الاجتماع، وكانت تبدو على أحمد الشريف علامات الانفعال والغضب، وألقى نقده على الضباط الأتراك الذين تسرعوا فى بدء العمليات العسكرية بالرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها، وكان مما قاله موجهًا حديثه لنورى وجعفر: «لقد قفلتم فمن أين نتنفس؟»(٣)، وقد ختم أحمد الشريف حديثه مخاطبًا «نورى وجعفر»: «فما رأيكم وقد أوصلتموها إلى هذا الحال. . . وظهر أنى كنت على هدى وكنتم على ضلال؟»(٤).

وتناول الحديث محمد حرب بعدما تكلم الضباط الأتراك وانتقد الخطة الحربية العامة للضباط الأتراك، وكان رأيه مناقضًا لما ذكره «نورى وجعفر»؛ ذلك أن التقدم من جهة الساحل «قرب البحر» وعلى أرض تكاد تكون مكشوفة بالكامل يمكّن -حسب رأيه- القوات الإنجليزية على قوات المجاهدين، وتسليط نيرانهم فى أن يستخدموا عرباتهم وسياراتهم ونقلياتهم بسهولة. وكذلك فإن نشوب المعارك قرب البحر يمكّن الإنجليز من استغلال البحر سواء بسفنهم الحربية

(١) انظر: كفاح الشعب الليبى فى سبيل الحرية، عبد الرحمن عزام، (ص٣٨، ٣٩).
(٢)، (٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٧٨).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٧٦).

المزودة بالمدافع أو بنجدة سريعة للقوات الإنجليزية إذا ما حقق المجاهدون انتصاراً عليها. وبناءً على ذلك فقد كان رأى الضابط المصرى «محمد حرب» هو أن يتحرك المجاهدون فى ناحية الجنوب فى محاولة منهم لاحتلال الواحات المصرية على التابع، ويمكنهم بذلك الاتصال بمشايخ العرب ومسلمى الصعيد فى المدن والقرى، الذين يرغبون فى التخلص من الاستعمار الإنجليزى، لعل حركة الجهاد تشعل ثورة تعصف بالحكم الإنجليزى فى مصر، بالإضافة إلى توفر الماء والتمور، وبالإضافة إلى ذلك فإن القوات الإنجليزية تضطر إلى نشر قواتها على طول وادى النيل، وبشكل يستهلك جزءًا من هذه القوات[1].

ورأى أحمد الشريف -بصفته رئيس الاجتماع ونائب السلطان العثمانى- أن تنقسم قوات المجاهدين إلى قسمين: قسم يتوجه إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات المصرية، وكان هذا القسم يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجاهد تقريبًا، يقوده محمد صالح حرب تحت إشراف السيد أحمد، والقسم الآخر يبقى فى الشمال «الساحل» ويقوده جعفر العسكرى ويشرف عليه القائد العام نورى باشا، وعدد رجاله ستة آلاف مجاهد[2]، وانتهى ذلك الاجتماع على هذه المقررات.

واتضح من خلال هذا الاجتماع بعض الأمور المهمة، وفى مقدمتها ما يلى:

١- سيطرة أحمد الشريف الكاملة على جميع القوات الزاحفة ضد الإنجليز عبر حدود مصر الغربية.

٢- خطأ القادة الأتراك سواء فى عدم الاستعداد لهذه الحملة «عسكريًا، وماليًا، وبشريًا»، أو فى رسم الخطط الحربية، ووضع استراتيجية مهمة وتنسيق كامل لتحطيم النفوذ الإنجليزى فى مصر.

٣- أن وعود الأتراك للسيد أحمد الشريف بأن المدد متواصل ومستمر، ولن ينقطع ولن يكون هناك نقص فى السلاح والذخيرة والعتاد والمؤن والأموال واللباس والدواء... كانت وعوداً غير عملية ولم ينفذ منها شيء، بل كانت نوعًا من الدعاية لخدمة مصلحة الأتراك وأعوانهم.

٤- اتضح وبجلاء أنه ليس بمقدور المجاهدين هزيمة الإنجليز والانتصار عليهم؛ لتفوقهم فى الإمكانات والقدرات المتباينة.

(١) انظر: المغرب الكبير، يحيى جلال (٣/ ٨٦٠، ٨٦١).
(٢) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطى (ص٦٨).

٥- اتضح الآن أن برقة يهددها شبح المجاعة؛ ذلك أن جميع الطرق التجارية أُقفلت «مع الإنجليز شرقًا، والفرنسيين جنوبًا، والإيطاليين شمالاً».

٦- أن الحال الذى عليه المجاهدون يبدو من خلال ما دار فى هذا الاجتماع متسمًا بالصعوبة والضيق.

٧- صواب رأى أحمد الشريف فى عدم الرغبة فى دخول الحرب مع الإنجليز.

دخلت القوات الشمالية بقيادة نورى باشا فى معارك طاحنة مع الإنجليز فى معركة وادى مقلتة، ومعركة العقاقير، وكانت النتيجة هزيمة المجاهدين الذين أخذوا فى الانسحاب نحو الغرب، ولحقت بهم السيارات المدرعة الإنجليزية بعد أن حلّقت فوقهم الطائرات الإنجليزية تنذرهم بالتسليم خلال الأربع والعشرين ساعة، وإلا هاجمتهم حتى الإبادة[١]، واستمرت مطاردة المنسحبين إلى الحدود، بل وأكثر من ذلك داخل أراضى برقة نفسها. واستولى الإنجليز على سيدى براني يوم (٢٨من فبراير ١٩١٦م)، وكان من أثر معركة العقاقير التى أُسر فيها القائد التركى جعفر باشا أن تشتت شمل القوات الشمالية للحملة، واستطاع الإنجليز مطاردة فلول قوات المجاهدين، وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة فى برقة إلى ما وراء بئر واعر. لقد كانت معركة العقاقير تمثل نتيجة حملة أحمد الشريف على مصر، واستمرت القوات الإنجليزية تطارد فلول المجاهدين، فوقعت معركة بقبق شرق السلوم انتصر فيها الإنجليز الذين احتلوا بعد ذلك السلوم[٢]، ودخل الإنجليز الأراضى الليبية ووصلوا بئر حكيم فى جنوب غرب طبرق واستطاعوا تخليص الأسرى الإنجليز، وكان عددهم (٩٢) بحارًا بعد أن أبادوا قوات الحراسة[٣]. أما قوات المجاهدين فى الجنوب -التى كان يقودها اللواء محمد صالح حرب تحت إشراف أحمد الشريف- فقد زحفت جنوبًا وتمكنت من احتلال الواحات البحرية والفرافرة والداخلة، وانضم إليها كل من كان بهذه الواحات من الموظفين المصريين، وكذلك الضباط والجنود، واتصل محمد صالح حرب بشيوخ العرب فى المنيا وأسيوط والفيوم، ولم تعط هذه الاتصالات نتائج مشجعة، وبدأت قوات الإنجليز تتزايد وتتكاثف بعد أن صدت الحملة العثمانية الشرقية على قناة السويس، وفشلت ثورة السلطان علىّ دينار فى منطقة دارفور، واضطر المجاهدون للانسحاب من الواحات الداخلة إلى الغرب جنوب سيوة والجغبوب. وكان لاعتماد الانجليز على الطائرات العسكرية فى عمليات

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٨٦).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٨٦، ٨٧).
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٠).

الكشف والإغارة، واستخدام قواتهم العسكرية للسيارات المصفحة والمدرعة والمزودة بالمدافع سريعة الطلقات أثر كبير فى قلب ميزان القوى لصالحهم(١).

وتمكنت قوات المجاهدين من الوصول إلى واحة سيوة فى أمان تام، وكان أول ما عنى به قائد المجاهدين محمد صالح حرب فى سيوة هو إرسال التمور إلى الجغبوب ليتزود بها المجاهدون هناك(٢).

وفى سيوة لحقت القوات الإنجليزية بالمجاهدين وحصلت بينهم معركة كبيرة بتاريخ (٨ من فبراير ١٩١٧م) دامت نحو يوم كامل، وكانت معركة فاصلة جهز لها الإنجليز كل إمكانياتهم لقتال وهزيمة وإفناء المجاهدين الذين دافعوا دفاعًا مستميتًا وانسحبوا من سيوة إلى الجنوب مسيرة ثلاثة أيام(٣)، وكان وصولهم إليهم فى شهر (فبراير ١٩١٧م) وحاول الإنجليز مطاردة قوات المجاهدين المنسحبة إلى الغرب نحو الجغبوب، وبالقرب منها دارت بينهما آخر معركة فى تلك الحرب وهى معركة «قرب» إحدى ضواحى الجغبوب(٤)، ولم يستطع الإنجليز مواصلة السير، والتجئوا بعد ذلك إلى الوسائل السياسية، وكانوا قبل وصول أحمد الشريف إلى الجغبوب قد أرسلوا إليه رسالة مطولة.

وهذا نص رسالة الجنرال السيرجون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر فى (٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٤هـ الموافق ٨ من مارس سنة ١٩١٦م):

حضرة صاحب السيادة الأستاذ أحمد السنوسى الكبير: تحية وسلامًا وبعد، فقد وصلنى كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى، وليس لى ردٌّ إلا ما قلته فى كتبى السابقة، إنى كنت دائمًا أحذركم من خطر الإصغاء إلى نصائح نورى بك، وجعفر وغيرهما، لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم، فإنكم بالإصغاء إلى نصائحهم قد أثرتم حربًا على مصر ونسيتم جميل بيت محمد علىّ باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين كامل سلطان مصر الحالى.

إنكم تعديتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسلحين ومدافع، وقد أطلقتم نيرانكم على العساكر المصرية والإنجليزية، وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية.

تقولون إنى صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتموه أنتم، فما هو الصحيح؟

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٧٩).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٨٠).
(٣) انظر: جهاد الأبطال (ص٢٦٦).
(٤) انظر: برقة العربية، (ص٣١٧).

إن جماعات من المحافظية المسلحين كانت على الدوام تأتى إلى الأراضى المصرية، إما بعلم أو بغير علم منكم، وتسيء معاملة الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة، وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الإنجليزية لغير ما سبب، وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديه، وأطلقت نيرانها على طراد لخفر السواحل وأغرقته وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية، بل استقبلوها بالترحاب، ثم إنكم حفظتم فى الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرق وابورهم ولجئوا إلى سواحلكم وقد هاجم أتباعكم نقطتنا فى البرانى والسبيل، وأسروا عساكر الحرس وسرقوا بنادقهم وقطعوا خطوطنا التلغرافية، وهددوا نقطتنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأوامر إلى سنوبك بالرجوع إلى مرسى مطروح. وفى الوقت الذى كنتم فيه تصرحون بأن علاقتكم معنا على غاية الوداد، كنتم تكتبون وترسلون مع رسلكم كتبًا كالتى أرفقها بكتابى هذا، وإنى مرسلها إليكم لتعلموا الحقيقة، أرى أنكم ما زلتم تذكرون أن معاهدة عُقدت مع الطليان ووُجدت بين أوراق سنوبك، وأنا أعود فأكرر القول إن ذلك غير صحيح لسببين: الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط، والثانى لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه.

إن جعفر هو الآن أسير حرب يقول: إن الإنجليز الذين نجوا من الوابور والآن فى الأسر عندكم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزمهم من الثياب والطعام، وأنتم تقولون إنهم على أتم الراحة والأمان، فأى القولين أصدق؟، إنكم تشكون من أنى حجزت رسلكم هنا، وأنا لم أفعل ذلك إلا بعد أن بدأتمونى بالعداء، إن الله وحده يعلم بالخفايا وما هو فى ضميركم، وكل ما يمكننى أن أقوله لكم: إن أعمالكم كلها دلت على عدم تأنٍ وروية، ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه.

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو، ومادام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فإنى أعتبركم عدواً، وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم، وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى (٢٨ من صفر سنة ١٣٣٤هـ الموافق ٤ من يناير ١٩١٦)، وهى كما يأتى:

١- أن تردوا بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوروبيين الذين فى أيديكم.

٢- يجب أن تبعدوا كل الأتراك أو الألمان الذين عندكم، وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لى أسرى حرب.

٣- يجب أن تخرجوا جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين إلى الأراضى المصرية، وإذا دخلوا عوملوا معاملة أعداء حيثما وُجدوا.

٤- يجب أن تجلوا جلاءً تامًا عن سيوة والسلوم، وعن جميع البلاد التى إلى الشرق منها، وتقيموا بسلام فى الجغبوب، فإن كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتُظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فإنى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون(١).

الجنرال السير جون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

كانت تلك الرسالة قد كتبها ماكسويل قائد الجيش البريطانى فى مصر بعد الاستيلاء على معسكر السنوسى، واحتلال السلوم.

كان إدريس المهدى السنوسى أثناء تلك الحوادث ببرقة وكيلاً عامًا عن أحمد الشريف، وقد عُرف سياد ببعد النظر والتضلع فى معرفة الأمور، وكان قد نبه أكثر من مرة أحمد الشريف وأوضح له رأيه، وكان يرى عدم الدخول مع الأتراك ضد بريطانيا فى الحدود المصرية، وقد أصبحت البلاد فى حال يُرثى لها، فقد تفشت فيها المجاعة، كما تسرب إليها مرض الطاعون، وسُدت السبل فى وجوه الليبيين بعدما كانت السوق المصرية مفتوحة الأبواب، وأصيبت الحيوانات بالجدب، وهى أهم موارد البلاد وقد أمسكت السماء، ودخلت البلاد فى حروب مع إيطاليا من جهة، ومع الإنجليز من جهة أخرى، والتفت القبائل وشيوخها حول زعامة إدريس المهدى السنوسى(٢). وكتبت إلى إدريس السنوسى بمقره فى إجدابية بصفته صاحب الحق الشرعى فى إمامة السنوسيين، ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف الوصى على الإمارة بمحاربته الإنجليز جريًا وراء الأتراك، خصوصًا أنهم لم يوفوا بوعودهم التى قطعوها له، فلم يرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد فى نكبة الحرب ضد بريطانيا، وتركوا شعبها الأبى يموت جوعًا(٣)، وكتب الأمير إدريس السنوسى إلى ابن عمه أحمد الشريف شارحًا له ما كان يجرى فى برقة، فرد الأخير برسالة مماثلة فى أواخر سنة (١٩١٦م) جاء فيها: «... اعمل ما تراه مناسبًا، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث إن لهم حقًا فى ذلك...»(٤).

كان فشل الحملتين الشرقية والغربية على مصر، وتدهور الحالة الاقتصادية فى برقة من الأسباب التى ساعدت على ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث بعد أن أصبحت حاجة

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٣٤، ١٣٥). (٢) انظر: برقة العربية، (ص٣١٧).
(٣) انظر: تاريخ حرب طرابلس، محمد إبراهيم لطفى (ص٥٧)، رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار، لمحمد العيساوى، (ص١٩).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص١٠٨).

البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة، وسوف نرى -بإذن الله تعالى- الخطوات السياسية التى اتخذها الأمير إدريس، بعد أن نكمل مسيرة أحمد الشريف إلى وفاته.

ثانيًا: أسباب هزيمة أحمد الشريف:

إن حملة أحمد الشريف فشلت فى تحقيق أهدافها لعدة أسباب، منها:

١- لم تكمل الحملة استعداداتها العسكرية والاقتصادية، واتصفت بالسرعة وعدم التخطيط الاستراتيجى.

٢- لم يكن جيش أحمد الشريف على مستوى من القدرة القتالية والاستعداد الكامل بحيث يستطيع أن يخوض حربًا مع عدو قوى مزود بأحدث الأسلحة وأشدها فاعلية.

٣- ذهبت وعود الأتراك والألمان أدراج الرياح، ولم تستطع الغواصات الألمانية أن تقوم بالدور المنوط بها لتزويد المجاهدين بأدوات الحرب ومعداتها.

٤- أن التوقعات التى كانت محتملة عن قيام الشعب المصرى بثورة عارمة ضد الوجود البريطانى فى مصر ذهبت أدراج الرياح؛ حيث استطاعت بريطانيا تفريغ شحنات الغضب الشعبى بوعودها وأموالها الطائلة، وبمنحها الجاه والسلطان للعديد من كبار المصريين، كما أن ثورة علىّ دينار فى دارفور بالسودان جاءت متأخرة (أكتوبر- نوفمبر ١٩١٦م) فسهل القضاء عليها، وبعد فشل حملة جمال باشا الشرقية على قناة السويس وفشل حملة أحمد الشريف الغربية عبر حدود مصر. ومن ناحية أخرى فإن الكثير من مشايخ وأعيان الجهات الجنوبية والغربية من مصر «أسيوط، الفيوم، مثلاً. . .» لم يناصروا حركة الجهاد ضد الإنجليز.

٥- اختيار نورى باشا لمكان العمليات قرب البحر مكن للإنجليز من استغلاله وبعث المزيد من الحملات بسرعة عاجلة، كما أتاح الفرصة لبحريتهم، فشاركت فى المعارك. لقد كان ميدان المعارك فى الجبهة الشمالية محصوراً بين البحر وعقبة السلوم بما يتجاوز الثمانى كيلو مترات عرضًا، فوجدت بذلك قوات المجاهدين نفسها مقيدة الحركة(١).

٦- كان لفشل جمال باشا قائد الجيش التركى فى الشام فى حملته على قناة السويس أثر كبير فى هزيمة قوات أحمد الشريف؛ لأن الإنجليز قد انتهوا من الحرب على حدود مصر الشرقية، فتفرغوا للحرب على حدودها الغربية، وجندوا جميع إمكاناتهم لها.

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٥).

٧- أن ميزان القوى كان منذ البداية لصالح الإنجليز، فالقوات المجاهدة كانت منهكة نتيجة صراعها مع إيطاليا الذى دام فترة طويلة من سنة (١٨٩١م) إلى آخر سنة (١٩١٥م)(١).

ثالثًا: الخلافات بين إدريس وأحمد الشريف:

كان رأى الأمير إدريس السنوسى أن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هى المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر. أما أحمد الشريف فيرى أن حميته الدينية وغيرته الإسلامية تمنعانه من الوقوف مع الإنجليز ضد تركيا.

لقد كانت علاقات الإنجليز بالسيد إدريس ودية منذ البداية، واستمرت العلاقات بين الطرفين تزدهر طول عام (١٩١٣م)، وفى بداية عام (١٩١٤م) تجددت عندما توجه إدريس السنوسى إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر فى طريقه بمصر وقوبل بالاحترام والتبجيل من قبل حسين كامل، والسلطان النائب عن الإنجليز فى مصر، وحملته باخرة وبالتبجيل الزائد، عن المرة الأولى، واجتمع مع اللورد كتشنر -قائد القوات الإنجليزية فى مصر- ومن ثم نقل بطرد بريطانى إلى السلوم، حين جرى له وداع رسمى على الحدود. وكان أحمد الشريف قد كلف إدريس السنوسى تبليغ قبائل حرب -البالغ عدد مقاتليها ثمانون ألفًا والتابعة للحركة السنوسية- أن تعمل ضد الإنجليز وأعوانهم فى مصر والحجاز، وكان جواب إدريس بعد رجوعه من الحج إلى السيد أحمد الشريف بأن القبيلة أجابته: «لم يصبنا أى أذى من الإنجليز، فهم عدول وكرام وأغنياء، بينما نجد الترك متصفين بالظلم والقهر والترفع»، وعليه فلا داعى للدخول معهم فى أية معارك.

وقد كشفت الوثائق البريطانية أرقام (٢١٣٩، ٢١٤٧، ٢٤٧٨) التى نُشرت عن أن إدريس قد أبلغ القبيلة بأنه يؤيد وجهة نظرهم، وأنه يحب الإنجليز ولا يود أن يرفع سيفه ضدهم.

وقد انعكست نتائج تلك الزيارة على علاقة إدريس بابن عمه السيد أحمد؛ إذ ما لبث السيد إدريس أن أعلن أنه لا يوافق على بقاء الأتراك فى القوات الوطنية، وطلب من أحمد الشريف ضرورة الحفاظ على العلاقات الإنجليزية السنوسية. ولما قوبل طلبه بالرفض الشديد من قبل أحمد الشريف، ترك معسكره فى مساعد، وتوجه إلى الجبل الأخضر وأشاع بين الناس بأن المَنفذ الوحيد لسكانه مع مصر سيُغلق إن استمر أحمد الشريف فى سياسته المعادية لبريطانيا، وبالتالى فإنهم سيجدون أنفسهم وقد أُحكم الطوق عليهم من الشرق والغرب.

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٦).

لقد تلاقت أهداف الإنجليز مع تمنيات السيد إدريس حين عرضوا على هذا الأخير الصلح والاعتراف بإمارته، وهو على برقة والجبل الأخضر نظير طرد نورى ومن معه من الضباط الأتراك، وإقناع ابن عمه بمغادرة المنطقة فى المرحلة الأولى(١).

وقد وضحت أهداف إدريس فى رسالته التى أرسلها إلى أحمد الشريف فى (٢٥ من صفر ١٣٣٥هـ- الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩١٦م) وجاء فيها:

«ألم تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة، الذى عينه الأتراك، ثم وجد تحقيقًا لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم، ثم أُرغم على الوقوف خصمًا، فأعلن استقلال البلاد، ووافقت الدول المتحالفة على ذلك، ونودى به ملكًا على العرب، وهو الآن يبذل قصارى جهده فى إدارة شئون بلاده، فيؤسس المجالس وينشئ الإدارات والمصالح؟، ولو أنه قبل أن يدخل الحرب إلى جانب الأتراك لكان الحلفاء الآن يحتلون مملكته، كما احتلوا البصرة ومناطق أخرى.

فالملك حسين كوَّن جيشًا كبيرًا الآن، ويريد احتلال الشام، وأُرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر، ووصله كل ما يحتاج إليه للقيام بحركة واسعة، وأذاع فى العالم الإسلامى أنه لا يريد بالإسلام شرًا، وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقى، ويذكر فى خطبه اسم الخليفة العثمانى، وهو الخليفة المعتاد، الذى فقد كل سلطة بفضل القيود التى فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والذود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضًا فأقاموه ملكًا.

ثم حدثنى بالله يا سيدى، كيف يستطيع الأتراك غزو مصر ودخولها، وهم الذين أخفقوا فى محاولة استرجاع الحجاز؟ وألا تنظر يا سيدى إلى السيد إدريس فى بلاد اليمن، فهو يحتفظ دائمًا باستقلاله، ويتمسك بحياده وهذا على الرغم مما يفعله الإنجليز الذين يحاولون إقناعه بمحاربة الأتراك، وبالرغم كذلك مما يفعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الإنجليز، ولكنه لا يريد أن يورط نفسه فى شىء من هذا كله؟

وكان فى إمكانكم أن تفعلوا مثل هذا، قبل حادث السلوم، وكان فى أيديكم الترك والإنجليز معًا، ولكن ما فائدة الحسرة على الماضى، والندم على ما فات؟! إن الذى أريد أن أسترعى نظركم إليه هو العالم الإسلام، لأن الإسلام يريد أن يعرف -ومن حقه أن يدرك ويفهم فهمًا صحيحًا- ما تفعلون، وما تريدون. ويجب علينا قبل كل شىء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا، وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لانذهب ضحية لغيرنا»(٢).

---

(١) انظر: كلية الآداب جامعة الكويت، (١٩٨٠م- ١٣٩٩هـ)، الرسالة الثانية فى التاريخ، (ص١٨).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٩١).

رابعًا: آثار حملة أحمد الشريف ضد الإنجليز على حركة الجهاد:

كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية، نذكر منها:

١- ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد الإيطاليين، في فترة انشغالهم بمعارك الحرب العالمية الأولى في أوروبا، وقواتهم في ليبيا محاصرة في المدن الساحلية، وغير قادرة على الحركة وتقديم المساعدة.

٢- تزعزعت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين وسقوط القتلى من كل جانب؛ لأن الجيش البريطاني كان يضم رجالاً من أبناء تلك القبائل، وضعف تعاطف المصريين مع القضية الليبية، وتضررت الزوايا السنوسية في صحراء مصر، وتحطم نفوذها السياسي والديني، وتشجع الإنجليز على اتخاذ موقف مناوئ ومعادٍ لهم(١).

٣- انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد في ليبيا، وكان لهذا الانقطاع أثر كبير على المجاهدين وحركتهم.

٤- تأثرت نفوس المجاهدين وشعروا بالندم بمن في ذلك السيد أحمد الشريف نفسه -ونستدل على ذلك من رسالة له إلى سليمان الباروني بمناسبة قدوم الأخير إلى طرابلس معينًا من قبل السلطان العثماني واليًا على طرابلس، ومما جاء فيها:

«... إني لو استطعت لقضيت عليهم -الطليان- وطهرت الأرض منهم اليوم قبل باكر، وتعرف أيضًا أنه ما تمكن الذي تمكن منه إلا بعد حركتنا نحو مصر ولولاها كنا قذفنا به اليوم في البحر، وما كان له أثر ولا خبر. ولكن تلك الحركة -الحملة- ولو أنها أفادت الدولة والملة من وجوه كثيرة، وشغلنا بها أكبر عدو لقيام الخلافة ناوأها العديد من السنين، إلا أنها كانت سببًا لنفوذ الطليان الذي لا يتألم منه أحد أكثر مما أتألم منه، ولو أن لي به قوة ما تأخرت يومًا عن مناوأته...»(٢).

لقد اعترف السيد أحمد بخطئه، وقال: «يُخيل إليّ أنني أخطأت عندما باليت بنداء إستانبول ذاك...»(٣).

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٧).
(٢) حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني، (ص٨٠).
(٣) انظر: الطريق إلى الإسلام، لمحمد أسد، (ص٣٧٠).

٥- تغير الوضع السياسى للمجاهدين، ولم يعد المجاهدون من القوة والاستعداد بالقدر الذى يمكنهم من الصمود والإصرار على تحقيق مطالبهم، بل اضطروا تحت الحاجة إلى المهادنة والتفاوض والتنازل، بعدما كانت قيادة المجاهدين صلبة قوية لا تلين، تطالب بشىء واحد فقط هو تحرير الأرض والوطن وإجلاء الغاصبين، ولا تقبل فى ذلك مهادنة أو مصالحة أو تفاوضًا إلا على هذا الأساس؛ تحرير البلاد من الغاصبين(١).

٦- لقد كانت حملة أحمد الشريف ضد الإنجليز فى مصر كسبًا ونفعًا كبيرين للإيطاليين؛ لأنها زعزعت قيادة أحمد الشريف، وأشعرتها بضعف إمكاناتها الحربية وقدرتها القتالية، ومهدت السبيل لطريق الصلح والتفاوض الذى قاده إدريس السنوسى فيما بعد(٢).

خامسًا: هجرة أحمد الشريف إلى تركيا:

وصلت قوات المجاهدين إلى الجغبوب، منهكة، متعبة لطول الحروب، فأذن أحمد الشريف للجنود وقال لهم: من يرغب منكم فى الذهاب إلى أهله ببرقة أو الجبل الأخضر، فمعه الإذن، ولم يرخص لبعض المجاهدين، وذهب بعض المجاهدين وقال الباقون: والله ما نتركك ما دمت حيًا سواء نحيا أو نموت(٣).

وبادر الإنجليز بتهديد أحمد الشريف بواسطة ابن عمه إدريس، وطلبوا منه ترك الجغبوب وإلا ضُرب قبر جده بالطائرات، واحتُلت المدينة واستباحها الجنود.

غادر أحمد الشريف الجغبوب عن طريق الصحراء الكبرى إلى جالو، وأوجلة، وزلة، والجفوة، وسوكنة، وهون، ومن هناك عرج على موقع سلطان بقرب سرت، وذلك عامى(١٣٣٥هـ و١٣٣٦هـ) وكان معه جيشٌ جرارٌ وكانت المجاعة قد ضربت أطنابها فى جميع أنحاء برقة وبالرغم من ذلك كان أحمد الشريف الضيف الكريم أينما حل، ويقابَل فى كل موقع بالإكرام والتقدير والتبجيل، وتقدم له جميع المساعدات من الأهالى، وكانوا يقدمون له الجزر والأغنام، وكل ما تصل إليه أيدى الأهالى من التمور والحبوب، وكان يطلب أشياء من الأهالى ليبتاعها منهم مقابل سندات يقدمها على نفسه، فكانوا يجيبونه بكل ذلك، وقد اتصل كل انسان بحقه عندما وصل أحمد الشريف إلى الأستانة؛ إذ أرسل من هناك مندوبًا يحمل المبالغ الكبيرة لتسديد تلك السندات وإيفاء كل ذى حق حقه(٤). ومن بين من تقدموا لخدمته بصدق وإخلاص

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٨).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص٩٩).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٥).
(٤) انظر: البرقة العربية (ص٣١٨).

والحالة هذه، سيف النصر شيخ مشايخ أولاد سليمان وأولاده «أحمد، وعبد الجليل، وعمر، ومحمد، وقاسم الذين قاموا بكل لوازم أحمد الشريف وأتباعه من المصاريف والأرزاق لمدة ستة أشهر(١)، وقالوا: إن جميع ما نملكه وتملكه قبيلتنا هو لكم وتحت تصرفكم(٢). وكان أحمد الشريف لا ينساها لهم ويشيد بها بين الخاص والعام فى كل مناسبة، ويقول: وجدناهم صادقين عند الحاجة(٣)، والشيخ السنوسى البرانى، والشيخ عبد المجيد سليم القبائلى، والشيخ ابن شرادة(٤).

ولما وصل أحمد الشريف إلى العقيلة تقدم إليه أحمد بن إدريس الأشهب بواجب الضيافة وأعطاه سبعة جمال هى كل ما فى وسعه ليذبحها للجند، ويقتاتوا بها كضيافة لهم، وكان تهيئة مئونة أحمد الشريف الخاصة من قبل أحمد بن إدريس وهى مؤلفة من البيض المسلوق، واللحم، وشىء قليل من خبز الشعير. وكلما يأتى هذا الطعام الخاص بالسيد أحمد ورجال مائدته، وهم: محمد صالح حرب، ووصفى باشا الخازمى، والأستاذ مصطفى الهونى، وعبد السلام باشا أبو قشاطة، وطبيب السيد الخاص عبد السلام أفندى المسلاتى.. كان وعندما يأتى الطعام المذكور يبادر أحمد الشريف بتوزيعه على بعض الجنود فى حين أنه لا يكفى السيد ورفاقه الخاصين، وأحيانًا لا يمسك منه شيئًا بالمرة، فقاسى -رحمه الله- ما قاسى من أنواع الشدائد ما لا تتحمله الجبال بصدر رحب وجلد عظيم، وكثيرًا ما كانت تمر الأيام عليه بدون أن يتناول شيئًا يسد به رمقه، ومع كل هذا لا يعرف عنه أنه شكا أو تألم(٥)، وقد تساقط عشرات الموتى بسبب المجاعة والحصار المفروض عليهم(٦).

سادسًا: القافلة ورمضان السويحلى:

راسل محمد صالح حرب «نورى باشا» فى مصراتة، ووضح له الحالة التى يمرون بها وطلب منه مدهم بالسلاح والذخيرة والملابس والمال، حتى يتمكنوا من مواصلة جهاد الإيطاليين. وكان أحمد الشريف قد راسل رمضان السويحلى، وناشده باسم الأخوة الإسلامية وطلب منه المساعدة والوقوف معه، فوافق السويحلى وأرسل أحمد الشريف قافلة يرافقها الطبيب عبد القادر المصرى، وما يزيد على خمسة وعشرين رجلاً من خيار رجاله، يصحبهم الشيخ محمد بو طريف، ومعه كتاب وهدية إلى رمضان السويحلى، واشترت القافلة لوازمها من بعض الأمتعة

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٦).
(٢) انظر: برقة العربية (ص٣١٨).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٦).
(٤) انظر: برقة العربية (ص٣١٨).
(٥) انظر: برقة العربية (ص٣١٩).
(٦) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٦).

والملابس[١]، وقام نوري باشا بتزويد القافلة بالسلاح والذخيرة والمؤن، حتى يؤكد لزعماء طرابلس أن الدولة العثمانية لا يمكن أن تتخلى عن أصدقائها ومناصريها[٢].

وعند رجوع القافلة إلى أحمد الشريف تعرضت لهجوم غادر نتج عنه قتل جميع أفراد القافلة، وسُرقت الأموال والمئونة والسلاح. ويؤكد معظم المؤرخين أن رمضان السويحلي دبر أمر القضاء على هذه القافلة واغتصاب أرزاقها، وقتل أفرادها. ويذكر العيساوي: «إن السويحلي جهز قوة خفية عن نوري باشا قدرها مائة نفر مسلح، وجعل عليها رئيسين أحدهما يدعى محمد سليمان الجطلاوي والثاني عبد العزيز الذنيخ، وأمر تلك القوة أن تجدّ في السير لتكمن في وادي زمزم، وقد نفذت هذه الخطة بدقة»[٣]، وفاجأت قوة السويحلي القافلة في منطقة تمادح سان قرب تاجوراء[٤].

ويرى المؤرخ المتعاطف مع رمضان السويحلي «محمد مسعود فوشيكة» أن المعركة التي انتهت بانتصار جماعة الحداد والعودة إلى رمضان بصناديق النقود، إنما تمت بعلم رمضان نفسه، مما يجعل بعض المخلصين له يلومونه كثيرًا بسبب تجاهله ماضي السيد أحمد الشريف في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، والغزو الإيطالي لبرقة، وفي عدم مبالاته بالظروف الصعبة التي يمر بها وحاجته الماسة إلى المساعدة[٥].

أما الشيخ محمد بن حسن عبد الملك المصراتي قاضي مصراتة عام (١٩١٥م) فقد أشار إليها بقوله: «كنت أنا ومن معي وقت وقوع هذه النازلة الشنيعة بمعية السيد أحمد الشريف السنوسي، وقد بلغتنا قبل بلوغها بخمسة أيام وكتمنا أمرها حيث إن من حاشيته من يزين له أعمال رمضان، فلو سارعنا بإبلاغها وقتها لقيل لنا: إننا مفتنون، فوكلنا أمرها للأيام والليالي...»[٦].

أما الشيخ طاهر الزاوي فيرى: «.... أن سياسة الترك مجمعة على كراهية السنوسية، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادي بقطع الصلة بهم، وفريقًا يكتم هذه الكراهية في صدره ويريد أن يسلط بعضهم على بعض لينتقم لنفسه منهم بأيديهم، وقد أراد نوري -بما له من النفوذ في مصراتة- أن يمد السيد أحمد الشريف بإعانة فأرسل إليه إعانة مالية، وبعض البنادق. ولكن الأتراك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبروا مكيدة ضد هذه المعونة، وأرسلوا من تربص لمن

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٦). (٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص١٦٢).
(٣) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، (ص٥٣).
(٤) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٦).
(٥) انظر: رمضان السويحلي، البطل الليبي الشهيد، (ص١٢٨).
(٦) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، (ص٥٤).

أرسلت معهم فقتلوهم عن آخر، وأخذوا ما معهم من المال، ولم يعلم رمضان بشيء من أمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها. . .»[١].

ويبدو للباحث أن الفعلة الشنيعة كانت مؤامرة ضد مساعى الصلح التى حرص أحمد الشريف على نجاحها بينه وبين رمضان السويحلى، وأحمد المريض وغيرهم، ولذلك خاف الأعداء من حصول الصلح بين أحمد الشريف ورمضان السويحلى، فدبروا تلك المكيدة. والقرائن الكثيرة تدل على أن رمضان السويحلى أُلصقت به التهمة، حيث إن رمضان السويحلى كان فى تلك الفترة يتلقى الدعم من تركيا وألمانيا بواسطة الغواصات، وأحمد الشريف -نائب الخليفة فى إفريقيا- قام بتضحية عظيمة وجهاد جليل، خدم به المصالح التركية، كما أن سيرة رمضان السويحلى تدل على أنه من المجاهدين الذين ذادوا عن هذه البلاد، إلا أن له أعداء كثيرين عملوا على تشويه سيرته الجهادية التى تحتاج إلى من يتفرغ لدراستها وتحليلها وإلقاء الضوء عليها، ولا ننسى أن إيطاليا عملت بواسطة عملائها على إيجاد الفرقة بين رمضان والحركة السنوسية وقادة الجهاد فى غرب ليبيا، ويبدو أنها نجحت بواسطة مكائدها ومؤامراتها المتوالية فى تحقيق هذا الهدف الحقير.

أما رأى أحمد الشريف فى رمضان السويحلى فيظهر فى الرسالة التى أرسلها إلى وصفى بك فى المحرم سنة (١٣٤٠هـ) قال رحمه الله مخاطبًا وصفى بك:

«نعم أيها الوالد الكريم المحترم، فإنى والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل. . .» إلى أن قال: «فبالله الذى لا إله إلا هو إنى كنت عازمًا على إكرام رمضان بك السويحلى وإنزاله المنزلة التى ما كان يظنها، والناس الذين سعوا فى الفساد مثل أمين وغيره فهؤلاء لا حاجة لهم فى صلاح الوطن، بل حاجتهم فى امتلاء جيوبهم. . .» إلى أن قال: «وقد بلغنى ما أساءنى جدًا وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلى فإنى والله تأسفت غاية الأسف، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد، ومنفعة عمومية لأهلها، وإن من سعى فى المصالح العمومية بقوة فهو حبيبنا. . .»[٢].

لقد اشتد الأمر بأحمد الشريف وأتباعه، وزادت الظروف قسوة عليهم، وأراد المجاهدون أن يهجموا على مصراتة انتقامًا ممن قضى على القافلة، إلا أن أحمد الشريف استطاع -بفضل مكانته بين المجاهدين- تهدئة النفوس الثائرة[٣].

بعث أحمد الشريف قائده محمد صالح حرب إلى الأمير عثمان فؤاد المتواجد فى مصراتة وحمّله رسالة مهمة إليه، يطلب من الأمير العثمانى أن تقوم إحدى الغواصات الألمانية بنقله إلى

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص١٩٨). (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٠٠).
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص١٦٤).

الأستانة ليقابل صديقه القديم أنور باشا وزير الحربية، وليبحث معه تطورات الموقف فى ليبيا، وعلى ضوء ذلك يمكن أن يرجع السيد أحمد مزودًا بكل ما يساعده على الاستقرار فى الجهاد فى ليبيا، أو أن يبقى فى الأستانة مؤقتًا حتى يتسنى له الذهاب إلى الحجاز «الأراضى المقدسة بمكة والمدينة» حيث يخلص العبادة إلى الله بعد أن عمل ما فى وسعه من أجل قضية بلاده، ولكن الظروف المحلية فى ليبيا والعالمية منعته من تحقيق أهدافه الإسلامية.

وقد اجتمع محمد صالح حرب مع الأمير عثمان فؤاد، وأوضح له حالة وظروف السيد أحمد الشريف، وبيّن له معظم آرائه ومطالبه، كما اجتمع برمضان السويحلى ومعه الكثير من أعيان مصراتة ووجهائها وعاد مندوب أحمد الشريف بسلام، وكانت نتيجة هذه الرحلة العمل على نقل أحمد الشريف إلى العاصمة العثمانية بواسطة إحدى الغواصات الألمانية، وبالفعل وضعت وزارة الحربية الألمانية تحت تصرف أحمد الشريف غواصة لنقله مع بعض أتباعه إلى النمسا، واتُفق على أن تبقى قواته فى منطقة العقيلة فى انتظار عودته، على أن تتلقى من القيادة العثمانية فى مصراتة ما يمكن أن تجود به عليها مما كانت تحضره إليها الغواصات الألمانية[1].

ووصلت الغواصة الألمانية إلى برقة وكان بها: يوسف باشا شتوان، وحسام الدين بك، وهما عضوان مهمان فى منظمة تشكيلات مخصوصة[2]، ويحملان رسالة من السلطان محمد محيى الدين إلى السيد أحمد الشريف، يدعوه فيها لزيارة إستانبول «والسبب الحقيقى لهذه الدعوة هو أن الحالة فى تركيا أصبحت تنذر بالخطر العظيم بسبب ثورة أمير مكة الشريف حسين ضدها، ومتابعة القبائل والجيوش العربية له، وانحلال جبهات القتال فى فلسطين وسوريا والعراق، وكانت الحكومة العثمانية تثق كامل الثقة فى إخلاص السيد أحمد الشريف للإسلام والخلافة، فأرادت أن تقنعه بالدخول فى مفاوضات بينها وبين الشريف الحسين بن علىّ، على أن تعطى الشريف حسين مطالبه، هذه هى الحقيقة التى طُلب من أجلها، أما فى الظاهر فهو كما ذكر فى وقته لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه على العرش، والتفاهم معه فى خصوص ليبيا»[3].

لبى سيادة أحمد الشريف طلب السلطان محمد وحيد الدين، وأناب على المجاهدين أحمد بن محمد بن أحمد الريفى، وأمره بالانضمام إلى الأمير محمد إدريس بعد سفره، وسافر من البريقة، وركب معه: الشيخ محمد عبد الله الموهوب، محمد صالح حرب، وعثمان

(١)، (٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص١٧٢).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٤٩).

الشائقي، وعبد السلام أبو قشاطة، والدكتور عبد السلام المسلاتي، وصالح بن محمد أبو عرقوب البرعصي، وركب الغواصة في (شهر سبتمبر سنة ١٩١٨م، الموافق ذي القعدة ١٣٣٦هـ)[١].

وجاء على لسان الأمير شكيب أرسلان قوله: «قال لي السيد أحمد الشريف: قبل ركوبي الغواصة تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيها، وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لي: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكني ما باليت بذلك لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الريفي في المنام فقال لي: الشيء الفلاني ستأخذه من بولا، ففي اليوم التالي سألت الضابط: هل يوجد محل اسمه بولا؟، فقال لي: نعم إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه بولا، فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان بحول الله وقوته»[٢].

اضطرت الغواصة أن تبتعد عن الجزر التابعة لإيطاليا خوفًا من الديناميت المزروع في المدخل، وصادف أن اصطدمت بقمة صخرة كبيرة في قاع البحر وتعطلت محركاتها، وخاف قبطانها والبحارة خوفًا شديدًا، وكان أحمد الشريف أثناء ذلك منهمكًا في صلاته وعبادته التي كانت شبيهة بتسبيح نبي الله يونس عليه السلام عندما كان في بطن الحوت وفي قعر البحر. فلما أخبروه بالواقع وأتم صلاته التي كان فيها، ثم قام معهم ببساطة ورباطة جأش وبقدرة الله العلي القدير وسبب دعاء أحمد الشريف إذا بالمحركات تعمل فجأة، وسر الجميع وعادت لهم الطمأنينة وحمدوا الله على النجاة[٣]، ولا شك عندي أن أحمد الشريف قد تلا قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وقد عُرف عن أحمد الشريف صلته القوية بالله، وكان دائمًا يرشد أتباعه إلى الالتجاء إلى الله القوي العزيز؛ ففي معاركه مع الإنجليز، وبعد معركة وادي ماجد الثانية انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر الصريحات، ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر يونس على أمل العثور على ماء، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك، أشار أحمد الشريف باستسقاء الماء، ففُتحت أبواب السماء وانهمر المطر مدرارًا حتى رويت قوات المجاهدين، وظل المطر ينهمر يومين[٤].

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٠).
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٥٣).
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥١، ٥٢).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة.

إن صلاة الاستسقاء سُنَّة مؤكدة بإجماع علماء المسلمين، والاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند حدوث القحط والجدب والتضرر من ذلك، ولا شك أن التقرب إلى الله وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير[1].

وكان أحمد الشريف لصدقه وإخلاصه يقيض الله له من يدافع عنه في غيبته، فعندما كان أحمد الشريف مخالفًا لرأي نوري باشا وجعفر العسكري في شن الهجوم على الإنجليز في مصر ولم يوافق على ذلك، كانت حركة منظمة تشكيلات مخصوصة تشن حربًا إعلامية على أحمد الشريف في إستانبول، فقيض الله شكيب أرسلان للدفاع عنه حيث قال: كنت أشم من معية أنور باشا رائحة الوحشة من سيدي أحمد الشريف، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة «تشكيلات» التابعة للحربية يلمزون السيد ويعزون إليه أمورًا، كنت على يقين أنها بهتان محض، مثل كونه يريد الخلافة لنفسه، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك، وكان أنور دعاني مرة للإفطار معه في رمضان، فقلت له: «إن بعض بطانتك بدءوا يغمزون السيد أحمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها، وهذا الأمر يمس جانبك أنت، ولا ينحصر في السنوسية؛ لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة، فإن ظهر بعد ذلك أنهم خائنون، لا يسمح الله، فتكون أنت الملوم، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأي، وإن كان عندك شيء راهن بحقهم، فصرح لي به لنعلم درجة الخبر من الصحة. قال لي أنور رحمه الله: «حاشا، ما يقدر أحد أن يتهم سيدي أحمد الشريف بالخيانة، ولكن الإنجليز كانوا يخدعونه أحيانًا»، قلت له: «إن سيدي أحمد الشريف لم ينخدع للإنجليز، وإنما كان يصانعهم كما يصانعونه، وما تلكأ عن محاربتهم إلا خشية الفشل؛ إذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية للدخول إلى مصر، أفلا ترى كيف أن الإنجليز بمجرد زحف الأربعة آلاف مجاهد إلى مرسى مطروح، رموهم بثلاثين ألف مقاتل وبالمدافع والطيارات والدبابات، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعًا أسرى وأخوك من الجملة...»، قال لي أنور: «أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة»، فقلت له: «سبحان الله: أنت عسكري صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الأمور، أفإذا هاجم الإنسان من هو أقوى منه مرارًا، أفيبقى له الاختيار في الكر والفر؟، وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور وتركه مؤاخذة السيد[2].

❁❁❁

(١) انظر: توضيح الأحكام، للبسام، (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).
(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٥٢، ١٥٣).

المبحث السادس

وصول أحمد الشريف إلى تركيا

وصل أحمد الشريف إلى بولا «الساحل النمساوى» بعد أسبوع تقريبًا من ارتحاله، وواصل سفره إلى فيينا عاصمة النمسا برفقة حاشيته، وهناك أرسل إليه الإمبراطور النمساوى يريد مقابلته، ودون علم السيد أحمد، أجاب يوسف شتوان الإمبراطور بالرفض، ولما علم السيد أحمد الشريف بذلك أبدى استياءه، وذكر أنه كان من اللائق مقابلته لا سيما أنه هو الذى طلب المقابلة(١).

وتابع السيد أحمد رحلته إلى إستانبول، وهناك استقبله كبار رجال الحكومة العثمانية، استقبالاً حافلاً ورسميًا فى محطة «سركه جى» حضره بعض المسئولين العثمانيين، يتقدمهم أنور باشا وزير الحربية العثمانية، كما حضره أيضًا إبراهيم بك، وإحسان بك كاتب الديوان السلطانى، وفؤاد بك مدير التشريفات، وعلىّ رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى.

وأُنزل بسراى طوب كوبر، التى كانت مقر الخلفاء من آل عثمان(٢)، وفى اليوم التالى خُصصت له مقابلة رسمية مع السلطان وحيد الدين الذى منحه وسام النيشان المجيدى من الرتبة الخامسة(٣).

ورغم بعد السيد أحمد الشريف عن ميادين الجهاد فى ليبيا، إلا أنه واصل جهوده من أجل تحرير ليبيا، وكان له نشاطات على ذلك الطريق الطويل، منها: اتفق مع أنور والسلطان العثمانى على الرجوع، لتقوى به عزائم المجاهدين، وقرر الأتراك مده بالمال والعتاد والسلاح، وتقرر إعطاؤه (١٢,٠٠٠ بندقية مع عدتها)، وعشرة مدافع وثلاثين رشاشًا و(٢٠٠,٠٠٠ جنيه) فسأله السيد قائلاً: بلغنى من بعض الضباط الطرابلسيين الذين فى خدمة الدولة، أنكم تبغوننى أقاتل ابن عمى سيدى إدريس، لكونه اتفق مع الإنجليز والطليان»، فقال له أنور: «معاذ الله أن نبغى منك ذلك، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام فى إفريقيا حصن أحصن من هذا البيت السنوسى الكريم، وإنه إن وقع لا سمح الله الشقاق فى هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التى عليها معول الإسلام فى إفريقيا، فكن على ثقة بأننا نبغى اتحادكم قبل كل شىء نصحًا

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٥٤).
(٢) سراى طوب كبو تقع على ضفة البسفور الغربية، أجمل بقعة فى إستانبول.
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٢).

للإسلام وضنًا باستقلاله، وإن معاونتنا لكم إنما هى محض حمية على الإسلام؛ لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس؛ ولأننا لا نحب إخواننا مسلمى إفريقيا تبعة للأجانب»[١].

وتتابعت الحوادث بسرعة البرق، فتغيرت الوزارة فى تركيا وسقط أنور، وندم أحمد الشريف على تأخره عن السفر، وحاول الانسلال من الأستانة إلى النمسا، حتى يركب منها الغواصة راجعًا إلى ليبيا، واضطر مع دخول الحلفاء إلى الذهاب إلى بروسة، وكان الأتراك أينما حل يكرمونه غاية الإكرام، وكان فى نيتهم الوقوف مع مجاهدى ليبيا ولكنه سبق السيف العذل، وحصل ما لم يخطر ببال، والأمر بيد الله وهو الفعال فى ملكه ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون.

لقد دخلت جيوش الحلفاء إلى إستانبول واستولت على عموم الولايات والموانئ، وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنجليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدءوا فى تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية بواسطة الأتراك أنفسهم المتصلين بالنوادى الصهيونية والماسونية والدول الغربية، وحرصوا على أن يجعلوا منهم أبطالاً ضد الحلفاء ثم يقومون بتدمير الخلافة الإسلامية كليًا، وكان من المؤهلين لتنفيذ هذا المخطط الرهيب: مصطفى كمال، الذى لبسْ فى بداية أمره ثوب الإسلام ورفع شعار الجهاد لحين من الزمن، وقاد حرب التحرير ضد اليونان التى احتلت أزمير فى (١٦من مايو ١٩١٩م)، وكان يلقى الخطب الحماسية ويقول: «موتنا أعزاء شرفاء خير من حياتنا أرقاء أذلاء تحت اليهود والنصارى يلعبون بمقدراتنا ويمتصون دماءنا وأموالنا، ويعتدون على أعراضنا وديننا وكرامتنا»[٢]، واستطاع أن يقود المقاومة الشعبية الضارية التى فضلت أن تموت فى سبيل عقيدتها بدلاً من الرضوخ للأعداء.

هكذا ظهر مصطفى كمال فى ثوب المسلم الوطنى المتدين الثائر، وأصبح السلطان تحت قيود الحلفاء، وأصبحت تركيا تحت زعامتى مصطفى كمال والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه بما له من المكانة الروحية العالية فى قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتدأ حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور وتكسير أدواتها ومعاملها، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وإصدار أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات فى أوقاتها، وجعل يوم الجمعة يوم عبادة للعموم، وأمر بإغلاق المتاجر

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٥٥).
(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٣، ٥٤).

والمقاهى والمنتزهات فى كل يوم جمعة اعتباراً من الضحى إلى بعد صلاة الجمعة، وهكذا تظاهر بهذه الأمور حتى أغرى المسلمين وقالوا: هذا مجدد الدين ومنقذه.

ولذلك قرر أحمد الشريف -بعد تفكير طويل- الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال، رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة، وادعاءاته الكاذبة ويقولون لسيادته: هذه كلها حيل لكسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، وإذا تمكن فسوف يقلب ظهر المجن، ويكون حربًا على الإسلام.

وإليك ما كتبه الداماد خالد دروس باشا: «يا مولانا يا خادم الإسلام يا فرع الدوحة النبوية المباركة، إياك أن تغتر بمظاهر الدين التى يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته، فإننى ربيته فى بيتى وبين عائلتى، وعرفت ظاهر أمره وباطنه، فما فى قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله ودينه هواه، ولو تمكن لأضر فى الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التى ملكت علىّ جميع جوارحى ما قلته لكم، وربما سيكون قولى هذا فى يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها، ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا فى الدارين، آمين».

المحب المخلص الداماد خالد دروس، (جمادى الأولى ١٣٣٨هـ)[١].

كل ذلك لم يغير عزمه، فسافر أحمد الشريف إلى الأناضول ونزل فى «اسكى شهر» وكان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيمًا لمصطفى كمال؛ لما له من المنزلة الروحية الكبيرة فى قلوب مختلف الشعوب الإسلامية، وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التى على الحق، واحتفل به قائد الجبهة فى «اسكى شهر» المدعو عصمت باشا ودعا إلى الاحتفال قادة الجيش، وأعيان البلاد ووجهاءها، وألقى كلمة فى ذلك الاحتفال الكبير، فقال: إنكم اليوم فى ميدان الشرف، وإنكم الآن بعملكم هذا تعيدون للإسلام عزه ومجده وتنفضون عنه الغبار الذى علق به وتخلدون بطولتكم وتكتبون فى صحائف التاريخ الإسلامى أسماءكم بحروف من نور، وعليكم أن تتموا هذه الرسالة العظيمة التى كُلفتم بها، وأن تغتنموا هذه المكرمة، وفقكم الله وأعانكم»[٢].

وتأثر بتلك الكلمة الحاضرون وقالوا: يا مولانا، لقد أيقظتم فينا الهمم، وبعثتم فينا روح القوة والمقاومة والاستماتة فى سبيل إعادة عزتنا ومجدنا، ولكم علينا عهد الله وميثاقه أن نمضى فى

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٧، ٥٨).

(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٩، ٦٠).

هدفنا حتى النصر أو الشهادة. ثم توجه أحمد الشريف بعد مقامه فى «اسكى شهر» إلى أنقرة بالسكة الحديدية، وفى محطة أنقرة قابله مصطفى كمال وجميع رجاله، وكان يومًا حافلاً بأنواع المظاهر والزينات، ونزل فى منزل مصطفى كمال الخاص به، وبدأت اتصالات مصطفى كمال مع السيد الشريف فى أمور كثيرة(١).

أولاً: عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:

عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف منصب نيابة الخليفة وقال لسيادته: إن جميع الوزارات أصبح لها عندنا وكلاء يقومون باختصاصها بصفة مؤقتة حتى تمام النصر إن شاء الله، غير أن مقام نيابة الخليفة لم نجد له من يليق به إلا سيادتكم، ونرجو أن تتموا لنا هذا النقص فى جهازنا، ولكم علينا ميثاق الله وعهده أننا سنقوم بكل ما يترتب علينا نحو هذا المقام، ونرجو أن تتموا لنا نقصنا هذا.

فقال له السيد أحمد الشريف: أنتم الآن مشغولون بما هو أهم، مشغولون بصد العدو المهاجم لكم، والمحيط بكم من كل ناحية، وتحتاجون إلى من يؤازركم فعليًا فى ميادين الجهاد لا من يجلس على الكرسى، ثم أنتم فيكم البركة وإجراءاتكم حكيمة وصائبة، وأنا أحب أن أساهم معكم فعليًا فى جهادكم هذا بقدر استطاعتى فى أى جهة كانت، وأرجو أن تعذرونى، وسوف يأتى الوقت الذى لا تحتاجون فيه إلى غيركم، وأنا معكم فى السراء والضراء حتى يتم النصر إن شاء الله.

فقال له مصطفى كمال: أنا مطمئن وواثق من ذلك، وهذا ظنى وظن كل من يشاركنى فى هذه الثورة، وفى الحقيقة ما تعلمت هذه الدروس المفيدة ولا تشربت فى جسمى هذه الروح الأبية إلا فى مدرستكم التى أسستموها فى برقة المجاهدة، وها أنتم اليوم تؤسسونها عندنا من جديد، وبذلك سننتصر بحول الله وقوته وسنجنى ثمرة جهادنا هذه ببركة مشاركتكم لنا ووجودكم بيننا، فأنت الأب وأنا الابن، وكل ما تراه صالحًا مُرنا به ونحن على أتم الاستعداد للتنفيذ وفى اتباعنا لكم شرف لنا(٢).

لقد أتقن مصطفى كمال دور النفاق والتدليس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٥٩، ٦٠).

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٦٠).

انخدع أحمد الشريف بكلام مصطفى كمال، الذى مرد على النفاق وتفنن فيه؛ لأنه اكتفى بالظاهر، وترك الباطن لعالمه سبحانه وتعالى؛ ولأن مصطفى كمال ظهر بثوب الجهاد وصد المعتدين فالوقوف بجانبه واجب شرعى، وهذا رأى أحمد الشريف حسب ظنى.

ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال فى إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى شيوخهم ودعاهم إلى الوحدة والوقوف صفًا واحدًا ضد أعداء الدين، وطلب شيوخ الأكراد من أحمد الشريف أن يقيم بوسطهم ويتولى أمرهم، فامتنع عن ذلك وقال: إنما أنا مجمع ولست مفرقًا، ومصلح ولست بمفسد. وسمع الأكراد وأطاعوا، وأخذ عليهم مواثيق غليظة لوقوفهم مع مصطفى كمال وبقى فى ديار بكر ونصيبين وماردين، مدة ستة أشهر حتى تحقق تمامًا من تهدئة الثورة.

وفى مدة إقامته فى ديار بكر كانت القوات اليونانية تتقدم، والقوات الكمالية تدافع، غير أن القوات اليونانية انتصرت فى عدة مواقع، وقامت بهجمات خاطفة وجعلت هدفها أنقرة، فاندحرت القوات الكمالية أمام الجيوش اليونانية، واحتلت الجبهة تمامًا، وتحققت حكومة مصطفى كمال من الفشل، وأخلت بلدة أنقرة من كل شىء إلا الجنود[(١)].

وكانت القوات اليونانية قد استولت على ولاية أزمير وبروسة ومدانية، وكوتاهية وإسبارطة وأفيون قره حصار، وإسكيشهر، وأخيرًا قصدت العاصمة أنقرة، حتى لم يبق بينها وبين أنقرة إلا عدة كيلو مترات، واضطربت الأحوال وارتبكت حكومة أنقرة، وبدأ مصطفى كمال يوالى برقياته المطولة المثيرة إلى سيادة أحمد الشريف ويقول لسيادته: تغلب علينا العدو، فاضرعوا إلى الله ليدركنا بعنايته، وكانت برقياته مثيرة تأثر منها أحمد الشريف تأثرًا بالغًا، ورد أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال وقال له: ثق بالنصر من الله، ويأتيك الغوث إن شاء الله تعالى، ثم انتدب إليه رفيقه فى جهاده الشيخ محمد عبد الله الراوى، وأعطاه مصحفًا شريفًا وسيفًا وبرنسًا من ملابسه الخاصة، وقال له فى كتابه الخاص: «بعثت إليك بمصحف الله تعالى وسيف النصرة، وكسوة العز، والفوز إن شاء الله تعالى». فلما وصل مندوبه إلى مصطفى كمال وهو فى الجبهة على رأس الجيش المستميت على نهر «سقاريا» سلمه الرسالة وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة والهجوم المعاكس على العدو، ورتب الجبهة، وفى صباح اليوم الذى قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربه فوزى باشا، وعصمت باشا، ورأفت باشا وغيرهم، ثم لبس البرنس المرسل له من السيد أحمد الشريف، وتقلد السيف وعلق المصحف

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٦٤، ٦٥).

الشريف، ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الراوى، وتضرعوا إلى الله وطلبوا العون والنصر، ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم وبدأت معركة الاستماتة، ودامت ثلاثة أيام بلياليها، فنى خلالها ما ينوف على العشرين ألفًا من الأتراك، وما يزيد على الثلاثين ألفًا من اليونان، واحتلت فى نهايتها مقدمة جيش اليونان، وولت فلوله على أعقابها وتعقبتها الجيوش الكمالية، وكان ذلك بداية الانتصار النهائى على اليونان(١).

وبعد ذلك الانتصار الحاسم ورجوع الحكومة الكمالية إلى أنقرة زار أحمد الشريف «مصطفى كمال» مهنئًا بالنصر واحتفلت به الحكومة التركية، ثم ذهب إلى طرسوس، وفى أثناء إقامته بها قام مصطفى كمال بجولة تفقدية فى أنحاء الأناضول، وعرج على ولاية أطنة، وأتى خصيصًا لزيارة أحمد الشريف، فأقام أحمد الشريف لمصطفى كمال حفلة غداء فخمة حضرها كل من معه من القادة، كما حضرها عموم أعيان البلاد ووجهاؤها والموظفون، وفى أثناء جلوس الجميع على المائدة وقف مصطفى كمال وقال مخاطبًا قادته الحاضرين باللغة التركية: «أيها الإخوان، اسمحوا لى أن أعرفكم بمن نحن فى حضرته، وعلى مائدته، نحن الآن فى حضرة فخر المسلمين، وحفيد سيد المرسلين، المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسى، معلمنا الأول، ومؤسس أول مدرسة فى برقة، كنا وفدنا إليها وتلقينا دروس الجهاد والمقاومة والدفاع عن النفس والدين والوطن بها، وهذا يشير إلى سيادة أحمد الشريف، هو الذى غرس فى نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة، وهو الذى آزرنا فى محنتنا القاسية، وشجعنا بأفكاره وآرائه الصائبة، حتى نلنا شرفنا وعزتنا وأُنقذنا من براثن أعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركى كمال الشكر والتقدير». ثم اختتم كلامه وجلس فقابله سيادته بكلمات شكر، وقال: الشكر لله وحده هو الذى أيدكم ونصركم، ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم، ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق.

وبعد إقامته فى طرسوس لمدة سنة تقريبًا انتقل أحمد الشريف إلى مرفأ مرسين، وفى أثناء إقامته وفد إليه صديقه الحميم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وأتت بعض وجوه الناس من ليبيا، وأرسل الرسائل إلى ابن عمه محمد إدريس، وإلى قائد حركة الجهاد الغر الميمون عمر المختار يحثه على مواصلة الجهاد(٢).

ثانيًا: شكيب أرسلان يصف أحمد الشريف:

«فلما جئت إلى مرسين ذهبت توًا لزيارته، فأبى إلا أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً فى البلدة، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع.

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٦٥، ٦٦، ٦٧).

(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٦٨، ٦٩).

رأيت في السيد حبرًا جليلاً، وسيدًا غطريفًا، وأستاذًا كبيرًا، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالة القدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاحة خُلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رئاء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد من الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة والتلاوة والتهجد، ورأيته مرارًا تنضج بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً، وهكذا هي عادته، وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة، فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية، ويتناول كل منهم ثلاثة أقداح من شاي ممزوج بالعنبر، أما هو فيتحاشى شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته، وقد يتناول قدحًا من النعناع، ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالبًا الطيب، وينبسط السيد إلى الحديث، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي، والسيد المهدي وغيرهما من الأولياء والصالحين. . . »[(١)].

«والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر، سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً، وله عدة كُتب. . . »[(٢)].

«وقد ذرف السيد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن، لندرة الشيب في شعره، وهو رائع المنظر، بهي الطلعة، عبل الجسم، قوي البنية، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه»[(٣)].

ثالثًا: القضاء على سلطنة آل عثمان:

بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء تم الاتفاق على إخلاء إستانبول من قوات الاحتلال، وبذلك تحقق السلطان محمد وحيد الدين من عدم قدرته على مقابلة القوات الكمالية، فقرر هو وحكومته الجلاء عن إستانبول والالتجاء إلى بعض دول أوروبا، وبذلك انطوى ملك آل عثمان بعد حكمهم للمالك الإسلامية مدة تزيد على السبعمائة سنة، فسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يُذل سُلطانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٥٦). (٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٦١).
(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقد تحدثت عن الدولة العثمانية فى عوامل نهوضها وأسباب سقوطها منذ النشأة.

بعد أن دخلت القوات الكمالية بلدة إستانبول نصبت ولى العهد الأمير عبد المجيد ولقبته بخليفة المسلمين لمدة ستة أشهر تقريبًا دون أن يكون له أى حل أو ربط، أو أى مظهر رسمى، أو صفة رسمية، وإنما هو ذر للرماد فى عيون المسلمين، وتسكين للحالة حتى لا يثور المسلمون ويطالبوا ببقاء الخلافة العثمانية. ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصورى عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء لآل عثمان، وفى ذلك اليوم قال أحمد الشريف كلمته المشهورة: مازال أحمد الشريف، يعنى: «لم يبق أمام مصطفى كمال إلا أحمد الشريف».

بدأت نوايا مصطفى كمال الشريرة تظهر رويداً رويداً، فتدخل فى الأحكام وغيَّر القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامى، والتمس منه إعادة النظر سريعًا فى الموضوع، كما حضه على التمسك بعرى الإسلام الذى به انتصر، واكتسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، فلم يرق هذا الكلام لمصطفى كمال، وعَدَّهُ تدخلاً فى سياسته الشيطانية.

لقد كان مصطفى كمال أفعى يهودية بحق، وماسونيًا متضلعًا، وحاقدًا على الإسلام والمسلمين، أتقن فنون الكيد والمكر والخداع، ولما تمكن من تركيا وشعبها قام بإلغاء الخلافة الإسلامية، وفصل تركيا عن باقى أجزاء الدولة العثمانية: دولة الإسلام، وأعلن بكل وقاحة العلمانية فى دار الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلق جُثثهم على أعواد المشانق، وأغلق كثيراً من المساجد، وحرَّم الأذان والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على تغيير زِيِّه الوطنى، وألزم الناس بلبس الزى الأوروبى، وألغى وزارة الأوقاف، ومنع الصلاة فى جامع آيا صوفيا، وفرض العطلة الأسبوعية الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وألغى استخدام التقويم الهجرى، واستبدل به التقويم الميلادى، وألغى قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية، وحرَّم تعدد الزوجات والطلاق، وساوى بين الذكر والأنثى فى الميراث، وشجع المرأة التركية والفتيات على الدعارة والفجور، وأباح المنكرات، وضرب من نفسه المثل الأعلى على انحطاط الخُلق والإدمان

على الخمر والنساء والانحلال، ومارس عن طريق حزب الشعب الإرهاب والبطش بالشعب التركي المسلم(١).

وأصبح مصطفى كمال مثلاً أعلى لكل طاغية مفسد في بلاد المسلمين، يقتدي به في جميع أموره بداية من لباس ثوب الدين حتى يتمكن، ثم خلعه وكشف الفجور والفسوق، وعلى العلماء والدعاة أن ينتبهوا لهؤلاء المجرمين الذين يستغلون الشيوخ والعلماء والدعاة لحين، ثم يضربون بهم عرض الحائط، ويعلقونهم على المشانق أو يفتحون لهم أبواب السجون على مصاريعها، وكم من طاغية متكبر لا يؤمن بيوم الحساب مكَّن نفسه بواسطة الدين وعلمائه، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن مصطفى كمال يعتبر مرتداً ملحداً زنديقًا خارجًا عن الإسلام، وهو أول من جاهر بالعلمانية كنظام دولة نظرية وتطبيقًا، وما قام به مصطفى كمال في حقيقته تنفيذ لمخططات قديمة أشرف على تنفيذها اليهود والماسون والنصارى، ومارس الإنجليز ضغوطهم بالقوة بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) وقال وزير خارجية بريطانيا يومئذ «كرزون» بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا تركيا مستقلة حتى لا يجتمع المسلمون حولها مرة أخرى، وعندئذ طمأنهم مصطفى كمال بأن استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم في المستقبل، فأملى الإنجليزُ شروطهم المعروفة بشروط «كرزون» الأربعة:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

٢- أن تلغي الخلافة.

٣- أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٤- أن تختار لنفسها دستوراً مدنيًا بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية على ضوئها(٢).

وفرضت معاهدة «لوزان» التي ذكر فيها الشروط السالفة سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٣م) على تركيا.

لقد اتفق الغرب الحاقد، والصهيونية الماكرة، والماسونية الخادعة، على تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية.

(١) انظر: الأفعى في معاقل الإسلام، عبد الله التل، (ص ٩٤، ٩٥).
(٢) انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، جمعة الخولي (ص ١٠٠).

رابعًا: طرد أحمد الشريف من تركيا وهجرته إلى الحجاز:

ومن طرف خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد أو يزوره، وعلى المكاتبات الواردة إليه والصادرة منه، ثم سحب بعض الجنود والضباط الذين كانوا مرافقين للسيد بالقيام بحراسته وخدمته ومرافقته، وأخيرًا توقفت المصاريف التي كانت تعطى لسيادته لمدة أربعة أشهر، واشتدت الضائقة في بلاد الغرب، وقام الأتراك المحبون للسيد للقيام بواجب الضيافة، وخشيت الحكومة حدوث ما لا تحمد عقباه، فقلبت المجن وعدلت عن خطتها وسارعت بحوالة الصرف، وبدأت تكيد في الخفاء لإيجاد أمر تدين به سيادة أحمد الشريف، فأرسلوا إليه شخصًا ادعى أنه طالب علم، وطلب منه أن يعطيه تزكية لحفيد السلطان عبد الحميد «الشهزادة سليم» الذي كان مقيمًا في بيروت ليعينه على مهمته، وهي وصوله لطلب العلم بالجامع الأزهر، وبالغ الطالب الذي يدعى ضياء الدين جودت في الترجي والاستعطاف والتردد حتى أخجل أحمد الشريف، فكتب إليه: إن حامل هذا الكتاب إليكم هو أحد طلبة العلم المحتاجين للمساعدة، ويأمل أن تمدوا له يد العون بقدر المستطاع لإتمام مهمته. وإذا بالكتاب يصل إلى مصطفى كمال الذي طلب من مجلس الحكومة الاجتماع وقرأ عليهم الرسالة، فقالوا: هذه خيانة عظمى للدولة، وقرروا حالاً إبعاد سيادة أحمد الشريف عن تركيا في مدة لا تتجاوز العشرة أيام، أو إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية «أطنة» مدة حياته دون اتصال بأحد ما. وبذلك أبلغت حكومة أنقرة أمرها هذا لسيادة أحمد الشريف بواسطة والي ولاية «أطنة» فقال أحمد الشريف عندما سمع القرار: كنت أتوقع ذلك منذ خلع عبد المجيد؛ لأن بقائي في تركيا لا يروق لمن يريد أن يتلاعب بأمر الشرع الشريف، ويطمس معالم الدين الحنيف. وإنني أختار الخروج من تركيا، وهذا جزاء معاضدتي ومناصرتي لها، وسوف تخسر تركيا ميزتها بين عموم الشعوب العربية والأمم الإسلامية. فرفع الوالي اختياره، وبذلك حُددت لسيادته إقامة عشرة أيام، وتحصل على تأشيرة لدخول سوريا لمدة محدودة، ونزل في دمشق ضيفًا على سعيد على سعيد الجزائري حفيد المجاهد عبد القادر الجزائري، وفرح به أهل الشام فرحًا عظيمًا، وتوافد الأعيان والشيوخ والزعماء لزيارته، ونشطت الحمية الإسلامية، وزار القدس ونزل ضيفًا عزيزًا على أمين الحسيني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وضايقه البريطانيون من أجل خروجه من القدس ورجوعه إلى دمشق، وعاملته فرنسا معاملة حذرة، وطلبت منه الخروج، وأرادت إيطاليا أن تستغل الموقف وعرضت عليه مساعدات والرجوع إلى ليبيا للتفاوض مع الحكومة الإيطالية من أجل مصلحة البلاد والعباد، فأجاب السيد الجليل، والجبل الشامخ -رحمه الله-: أما وأنا خارج حدود الوطن، فلن أساوم أو أصالح على شبر منه، كما لا حق لي في ذلك، وإذا كانت الحكومة الإيطالية صادقة في قولها فعندها الأمير السيد محمد

إدريس المهدى السنوسى فى مصر، وعندها رؤساء الوطن فتتفاهم معهم وهم أسهل لها وأخف شروطًا منى»، وبهذا قفل باب المفاوضات(١)، ولقد قال لمندوب الحكومة الإيطالية فى تركيا من قبل: «. . . لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكى لأجود به على الطليان، بل هما ملك أهلهما»(٢).

واشتد ضغط الحكومة الفرنسية على سيادة السيد أحمد الشريف للخروج من سوريا، فطلب مقابلة القنصل الإنجليزى بدمشق فقدم إلى سيادته وبعد مقابلة المجاملة قال له: إنى أريد الخروج من سوريا إلى الحجاز عن طريق شرق الأردن، فقال القنصل: الحكومة الإنجليزية لا توافق، فقال له: إذًا إلى العراق، فقال له: أيضًا لا توافق، فقال له: إلى مصر، فقال له: ملك مصر لا يوافق، فقال له: إلى اليمن، أو الهند أو السودان، فقال له: لا نوافق، وكل بلد يعتليه العلم البريطانى لا يمكن أن تدخلوه، فغضب أحمد الشريف واشتاط غضبًا، وقال للقنصل: «إذًا مفاتيح الدنيا كلها بيد الإنجليز، أليس الأرض كلها لله وأن الأمر بيده؟» ثم قال له: «أما أنا فسيجعل الله لى فرجًا ومخرجًا، وأما الحكومة البريطانية، والله، ثم والله سيأتى يوم تندم فيه على هذا التصرف(٣)، وستخسر كل ما تحت يدها من الممالك، وستندم ولا ينفعها الندم». فقال القنصل كالمستهزئ: عندكم طريق نجد، فقال له: نعرفها ولا حاجة لدلالتكم، فغضب القنصل وخرج محمر الوجه(٤).

يقول عبد القادر بن علىّ بعد فترة من الزمن: وها هو اليوم تحقق ما أقسم عليه سيادته، فقد خرج العراق، وشرق الأردن، والهند، ومصر، والسودان، وغيرها من يد الإنجليز(٥).

واتصل سعيد الجزائرى بمندوب الملك عبد العزيز فى دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحى، وعرض عليه رغبة السيد أحمد الشريف للحجاز، واتصل مندوب الملك وجاء الرد بالموافقة، وبدأت الرحلة إلى الحجاز عن طريق أراضى نجد تأخذ وضعها للاستعداد، وأعدوا ثلاث سيارات مع ثلاثة خبراء بمبلغ (٢٧٠ جنيه ذهب)، ولم يكن هذا المبلغ متوافرًا، وضايقته السلطات الفرنسية وهددته بإرجاعه إلى تركيا، وعندما ضاق الأمر واشتدت الكربة جاء فرج الله، وكان السبب الأمير شكيب أرسلان الذى أرسل للسيد أحمد الشريف (٤٠٠ جنيه إسترلينى) أهداها الشيخ جاسم بن إبراهيم أحد تجار اللؤلؤ ببومباى ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، فعندما جاء الخبر لأحمد الشريف خر ساجدًا لله تعالى يحمده ويشكره على هذا الغوث الربانى، والمدد الإلهى ثم رفع رأسه ورفع يده إلى السماء، وقال: فرّجت علينا يا شكيب، فرّج الله عنك كرب الدنيا والآخرة، وساعدتنا فى محنتنا ساعدك الله فى كل أمور دينك ودنياك، ودعوات كثيرة نالها شكيب أرسلان بسبب إرسال ذلك المبلغ ووصوله فى الوقت الحرج.

(١) الفوائد الجلية (٢/ ٧٣، ٨١). (٢) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ١٥٨).
(٣، ٤، ٥) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٨١).

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وتحركت الرحلة إلى الحجاز عن طريق نجد، وكانت عناية الله وحفظه ورعايته محيطة به، ووصل إلى منطقة الجوف «دومة الجندل»، وظن أهل المنطقة أنهم أعداء، فألقوا القبض عليهم، وبعد أن عرف أميرهم عبد الله بن عقيل أن الذى أمامه أحمد الشريف السنوسى صاحب الجهاد فى برقة وطرابلس، وأنه يقصد حج بيت الله الحرام، ثم زيارة الملك عبد العزيز بن سعود، ارتمى عليه الرجل وعانقه ورحب به، واعتذر لسيادته، وأحسن نزله، وأرسل إلى الملك عبد العزيز فرد عليهم بإكرامه واحترامه وإرجاع السيارات إلى محلها؛ لأن هذا من إكرام أحمد الشريف؛ لأن الأمير عبد الله بن عقيل فكر فى إحراقها، وكانت هذه السيارات هى أول سيارات تشق هذا الطريق وتقطع هذه الصحراء العظيمة، وكان قد أشيع أن أحمد الشريف مات فى الصحراء هو ومن معه، ونهبتهم الأعراب، ولم ينف هذه الإشاعات إلا رجوع السيارات إلى دمشق، واستمر فى رحلته حتى وصل مكة واعتمر ثم جاءه وفد الملك عبد العزيز، ثم سافر إلى جدة والتقى الملك عبد العزيز فأكرمه وأحسن نزله، وأصبح فى ضيافته، وقدم خدمات عظيمة للإصلاح بين القبائل وتوحيدها تحت زعامة الملك عبد العزيز الذى كان يحارب الحسين بن علىّ فى جدة، وأصبح أحمد الشريف يتردد بين مكة والمدينة فى ضيافة الملك عبد العزيز(١).

خامساً: نصيحة الملك عبد العزيز لأحمد الشريف:

فى عام (١٣٤٦هـ) أراد أحمد الشريف أن يحج بيت الله الحرام فى ذلك العام، فأهَلّ من ذى الحليفة وعند وصوله إلى جدة وجد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بها نازلاً فى بيت أحد وجهاء جدة المسمى الشيخ محمد حسين نصيف، وزار أحمد الشريف الملك عبد العزيز، وطلب الملك منه البقاء فى جدة لمدة يومين لأمر خاص، وتم اللقاء بين الملك عبد العزيز وأحمد الشريف، وكان المقصود من هذا الاجتماع هو التفاهم والمباحثة لإيجاد طريق لحل مسألة الحرب القائمة فى برقة، وعرض عليه فتح باب المفاوضات مع الحكومة الإيطالية، وعقد هدنة على شروط تعودون بموجبها إلى وطنكم وتتداركون البقية الباقية من أهله المتعبين، وقال الملك عبد العزيز -رحمه الله-: إن أهل وطنكم فى ذمتكم ويحتاجون إلى تفكيركم فى راحتهم، وتداركهم قبل القضاء عليهم، وهم مهما يقاومون فلابد أن يكلّوا لأن هذه الحكومة قوية قائمة ولديها ما يحتاجون من لوازم الحرب، وعقد الهدنة معها يجعل لكم فرصة تجتمعون خلالها بأهل

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ٨٨ إلى ١٢٠).

وطنكم وتلمون شتاتهم، وترتبون أموركم على حسب ما تستطيعون من مصالحة أو محاربة فيما بعد، وهذا الذى دعانى إلى طلبكم.

فأجاب أحمد الشريف: صدقتم فى كل ما قلتم، ولكن يا حضرة الملك؛ الحكومة الإيطالية غادرة وماكرة ولا عهد لها ولا ذمة، وإذا كانت صادقة فى رغبتها فعندها أهل الوطن، وهم المحاربون لها، وأمامها الأمير السيد محمد إدريس المهدى السنوسى عرفته وعرفها، وهو ينوب عنى وعن أهل الوطن فتتفاهم معه، وهو أهون لها منى وألين، أما أنا مادمت خارجًا عن الوطن بعيدًا عنه فلن نساوم فيه، وحكومة إيطاليا تريد أن تحكم الوطن باسمى نظير إغرائنا بأموالها ووعودها الخلابة، وأنا أريد تخليص الوطن منها كليًا، كما سيكون إن شاء الله عاجلاً أو آجلاً، ولذلك أرجو أن تتموا إحسانكم لى، وتساعدونى على هجرتى، وإعفائى من ألاعيب إيطاليا، وعدم انشغالكم وانشغالى بما لا يأتى بنتيجة.

فقال الملك عبد العزيز -رحمه الله-: أما مساعدتكم على هجرتكم فهذا حاصل إن شاء الله، ولا لنا فيه جميل، وأما موضوع الوطن وأهله، فأنتم أدرى به، ولن نشغلكم ثانيًا إن شاء الله، نرجو الله أن يقدر للجميع ما فيه الخير والنصر والتوفيق[1].

ثم توجه أحمد الشريف إلى مكة وأدى مناسك العمرة، ثم أدى مناسك الحج، ثم رجع إلى المدينة، وكان يتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قام.

سادسًا: وفاته:

أخذ أحمد الشريف بعد وصوله للحجاز يتنقل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، وإذا بداعى الموت يناديه فى تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة (١٣ من ذى القعدة سنة ١٣٥١هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة ١٩٣٣م) فى الزاوية السنوسية فى المدينة المنورة[2]، إثر مرض عضال لم يمهله، ودُفن فى مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة[3]، بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها فى خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاصبين فى شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين، وأعلى الله ذكره فى المصلحين.

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢/ ١٢٢، ١٢٣).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٧٩).
(٣) انظر: برقة العربية، (ص ٣٢٣).

سابعًا: صدى وفاة أحمد الشريف فى العالم الإسلامى:

نشر بمجلة «اللطائف» المصورة بعدد (٩٤٥)، (٢٠ من مارس سنة ١٩٣٣م) ما يلى:

يوم (١١) الجارى نعت برقيات الحجاز السيد أحمد الشريف السنوسى الكبير فكان لنعيه رنة حزن مرير أعادت إلى الأذهان تلك الجهود الجبارة والتضحيات الغالية التى بذلها هذا الفقيد العظيم فى نشر الإسلام، وتثقيف أهل البيد، ومكافحة الاستعمار الإيطالى سنوات عديدة، قضاها أرسخ ما يكون ثباتًا وإيمانًا، فقد كان للفقيد نفوذ روحى عجيب استطاع به أن يعمم دعوته فى أحشاء الصحراء وشمال إفريقيا وأعمال السودان، ولما أغارت إيطاليا على طرابلس منذ ربع قرن ثارت نخوته الوطنية، ووقف يدافع عن وطنه ودينه مثيرًا روح العزم والقوة فى أنفس العربان، ثم انضم إلى الأتراك ضد الإيطاليين. إلا أن تركيا اشتغلت بالحرب البلقانية الثانية سنة (١٩١١م) فظل الفقيد يناضل وحده فى الميدان، وصمد به ما يزيد على ثلاث سنوات استطاع خلالها بجلده، وماء عزمه، ويقينه مع قواته القليلة أن يقهر القوات الإيطالية المنظمة الكبيرة، ويلحق بها الهزائم والخسائر حتى أرغم إيطاليا على طلب الصلح معه على يد الخديوى السابق عباس حلمى، فرفضه قائلاً: إنى لا أصالح أبدًا دولة مسيحية على شبر من أرض المسلمين، واستمر فى جهاده المستميت إلى آخر سنى الحرب العالمية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها التجأ إلى بلاد الحجاز، وظل فيها أربعة عشر عامًا بعيدًا عن وطنه محتفظًا بإيمانه وتقشفه ووطنيته، إلى أن لبى نداء ربه، وله فى القلوب أفعم الذكريات...»[(١)].

فرح أيطاليا بموته:

أعلنت إيطاليا وفاة السيد أحمد الشريف على لسان وزير مستعمراتها وقتذاك الجنرال دى بونو داخل قاعة المجلس الفاشيستى المنعقد حينذاك، فقال: مات السيد أحمد الشريف السنوسى بالحجاز متأثرًا بالشلل، وبموته ماتت جميع مخاوفنا فى إفريقيا. وقال أيضًا ما معناه: إن موت هذا الرجل العدو اللدود لنا يجعلنا نطمئن لجميع أعمالنا، ومقاصدنا الدينية فى شمال إفريقيا. وقد كتبت أكثر الصحف الإيطالية يومية كانت أو أسبوعية، فى فصول عقدتها حول تصدع ذلكم الصرح العظيم[(٢)].

---

(١) انظر: برقة العربية (ص ٣٢٤).

(٢) انظر: برقة العربية (ص ٣٢٥).

شكيب أرسلان يؤبن أحمد الشريف فى عنوان كبير:

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين

لم يشعر بالخوف قلبى- فيما عدا المصائب التى رُزئت بها فى أفراد عائلتى- ما أشعره النبأ الصادع، والخبر الفاجع الذى نقل إلى الآفاق نعى الأستاذ الأكبر، والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين، ومثال الغزاة المرابطين، السيف الباتر على هدى الصحابة الكرام فى العصر الحاضر، محيى مآثر الأوائل فى أيام الأواخر سيدى أحمد الشريف بن سيدى الشريف بن سيدى محمد بن على السنوسى ﷺ وعن سلفه وأرضاهم وجعل فى جوار قدسه مأواهم.

إن فجيعة العالم الإسلام بهذا الرجل الكبير من رجاله، بل بهذا الجبل الراسى من جباله هى من الحوادث التى تشغل مكانًا خاصًا فى تاريخ مصائب الإسلام الذى أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب، وإن هذا الفقيد العظيم لو عاش فى زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية والفتوحات العمرية لما كان مكانه فى ذلك الوقت ليقصر عن مكانة أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام فى الخافقين، ورفعوا لواءه من نهر الرون إلى جدار الصين، فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله، ووقف مدة عشرين سنة فى وجه دولة من الدول العظام فى عصر اندثرت فيه معالم الجهاد، وانطفأت جذوة الإسلام حتى لم يبق منها إلا الرماد، واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوروبية ضربًا من ضروب الحماقة، وعم ذلك جموعهم الحاضر منهم والباد، وانتشر فى الربى والوهاد، ومع هذا فإن سيدى أحمد الشريف السنوسى قد أتى ببرهان ساطع، ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين فى قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها -بقوة الإرادة، وثبات العزم، ومضاء العزيمة، وإباء الضيم، وترجيح المعنى على المادة، وإيثار الشرف على الترف، وامتلاء القلوب بالإيمان، ووقف النفوس على اعتزام عزائم الإسلام- أن تثبت مدة (٢٤٠ شهرًا)، بإزاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليونًا مجهزة بجميع ما هى مجهزة به عظيمات دول العالم المتمدن، لها من فيالق البر وأساطيل البحر وسيارات الكهرباء والملحقات فى الفضاء ما لا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة فى الصف الأول فى ممالك الأرض.

وقد يقول المتعنتون الذين فى قلوبهم مرض والذين لا يروقهم إلا أن يروا الإسلام ذليلاً مهينًا: وماذا أفادنا قيام السيد السنوسى فى وجه إيطاليا؟ وهل كان ذلك إلا سببًا فى زيادة قهر المسلمين، وإرهاقهم بأفانين الظلم وأساليب الاستئصال فى طرابلس الغرب؟، فلو كان هؤلاء الأهالى قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التى قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتهم عليهم لربما كانوا قد

نجوا من العذاب المقيم الذى هم فيه، والخطوب التى أبادت خضراءهم، وما أشبه ذلك من الأعاليل التى تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبى أيًا كان.

وجوابنا على ذلك بسيط وهو:

إننا ما رأينا أمة أوروبية -مهما قل عددها وانقطع مددها- قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوروبية عظيمة مهما علا سلطانها، وغلظت ملكتها فى الأرض، بل القاعدة عند الأوروبيين - الذى هم قدوة الشرقيين الآن فى جميع المآخذ والمتارك- هى أن الأمة المحتلة لابد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع بكل ما تملك؛ فالموت أولى بها من الحياة بلا نزاع، وأن بقية السيف مهما قلت هى أشرف مقامًا وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة إلى الذل، ولو كانوا كالجراد المنتشر، وقد حققت الحوادث وأيدت التجارة أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التى تعالج بها عداوة الأعداء.

لا تزال هذه هى الحقيقة السياسية التى تدين بها دول العالم الحديث، كما دانت بها دول العالم القديم. ولعمرى لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لإيطاليا لما كانت لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان فى معاملتهم واستخفافهم بملتهم، وامتداد أيدى الأوروبيين دون أدنى تردد إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية قياسًا على قضية طرابلس، واعتقادًا بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهى لا تبدى ولا تعيد، ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام، لأنه ما لجرح بميت إيلام.

قد استشهدنا على صحة المقاومة ولو كان المعتدى قويًا، والمعتدى عليه ضعيفًا بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التى يسير عليها الأوروبيون حربًا وسلمًا وعملاً وعلمًا، ولم نتعرض إلى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاهم كتابهم عن الخضوع للأجنبيين عنهم، ويقول لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولم يكن تقديمنا الحجة الأولى لكوننا أشد اقتناعًا بها من الحجة الثانية، ولكن لمعرفتنا أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الأوروبية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهى القرآنية، وإنك إن لم تستظهر عليهم بكتاب أوروبى أو سُنَّة غربية لم يفدك الأخذ والرد معهم شيئًا.

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا (١٧ سنة)، وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفي، الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وإسبانيا معًا وجهًا لوجه، وزلزلتا في حربه زلزالاً شديدًا، ولولا السيد أحمد الشريف -رحمه الله تعالى- لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول من الغارة عليهما، وإننا لا نزال نذكر كلام القواد ورجال السياسية الأوروبية عن الحملة الإيطالية يوم جردتها ذينك القطرين إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر، وتستكمل هذا الفتح في مدة (١٥ يومًا)، وقال أشدهم تشاؤمًا وأقلهم تخيلاً وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور: إن هذا الفتح الذي يستقله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل . . . فليتأمل أولو الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عامًا ورُزئت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الخالص، هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند.

نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئًا ولم تشرب هنيئًا، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حسك لا يزول في الأحقاب ولا في القرون، وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قد كان يفهم الإسلام حق الفهم، ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة، ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم الفاني لا يوازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئًا، ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهرًا واحدًا، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف وقائدًا من قواده.

قلت: إن السيد السنوسي لو كان في عصر السلف لكان في صف أعاظم أبطال المسلمين، فكيف وهو في عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب؟، وإن هذه المقابلة تذكرني بما قاله أحمد العلماء عن أحمد بن حنبل -رحمه الله-: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل، فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المديني المحدث المشهور: ولا أبو بكر الصديق؟

فأجاب: ولا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان له رجال وأعوان، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان، وإنما كان يناضل بقوة نفسه وحدها.

ونحن نقول: لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحيانًا بتوالى الهزائم عليه لما كان فى ذلك ما يقضى بالعجب، ولكن الذى قام هذا المقام الشريف، ووقف هذا الموقف التاريخى النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته، ومتانة إيمانه، وإيمان رجاله، وعزة أنفسهم بالإسلام، وصبرهم فى البأساء وحين البأس، وبينهم وبين عدوهم فى العُدد والأسلحة والمال والعدد، من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير فى قليل ولا كثير، ففضله إذن أعظم جدًا من فضل الدولة العثمانية فى جهادها، وإن كان فضلها عظيمًا، وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التى أنشأت بإذن الله هذا الجهاد الطويل العريض، وحفظت شرف الإسلام المعتدى عليه فى طرابلس، وغير طرابلس؛ لأنه مما يجب ألا نتمارى فيه، أن أوروبا لا تعرف فى ذات نفسها إلا إسلامًا واحدًا. إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هى بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه، وزهده فى الدنيا، وحبه لمعالى الأمور، وعزوفه عن سفسافها، ومواساته للفقراء، وحنانه عن الضعفاء، وشدته مع ذلك فى الدين، وانحصار كل همومه فى استتباب أمر المسلمين، ومحافظة على الفرائض والسُّنن، وغير ذلك من الأخلاق العالية، والهمم الشماء والمنازل القعساء... ما يذكِّر بأخلاق الصحابة الكرام، بل يُشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام.

ولا أقول هذا فى مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة، وأن يحملهم الموت على طى الهنات وتناسى السيئات، بل أقول إنه كان هذا لسان جميع من خالطوه، والفقيد رحمه الله ملآن حياة، وكل ما خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها، وطالما كان يقول الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم: إن الأمة الإسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره... وإنى لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان فى مرسين وذلك سنة (١٣٤٢هـ) فكنت أفطر فى منزل بالبلدة ثم أذهب إلى خرستيان كوى حيث صلاة العشاء، ونصلى وراءه ساعتين، فعجزت عن ذلك، وصرت أقصر على صلاة العشاء، وكانوا هم يصلون التراويح، وبعد الصلاة نجلس إلى السحور، وكان فى القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف، ولا يتردد ولا يتلعثم، وكنت أقضى من ذلك العجب العجاب، وأقول: كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين

والستين من العمر، وتحمل من الهموم والأثقال ما تنوء به الجبال، وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرؤه عن ظهر قلب كقراءته للفاتحة؟ ولم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله إلى آخره، وفى الختمات الست التى ختمها لكتاب الله توقف فى القراءة أكثر من ثلاث أو ربع مرات، كان يقف قليلاً ليتذكر الآية، وكان وراءه شاب تونسى حافظ، فيسرع بإلقائه إياها، فيمضى فى القراءة مضاء السهم، وهذا غريب، فيمن بلغ تلك السن، وانطوى على ذلك الهمّ العظيم، من فراق الأوطان وتنوع الأشجان وجور الحدثان.

ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابنى: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر فى أمرهم، وإنما يهمنى أمر هذه الأمة المعذبة فى طرابلس، وكان فى قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه الله، ولكنه كان فى إيمانه فى ثبات الجبال، وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام. . اللهم إنه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق، وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق، وإنه كان القدوة المثلى بين خلائقك، والحجة الوثقى بحقائقك، والرجل الذى أدى إلى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب الذى عليه لدينه ولقومه وللإنسانية التى كان لها مثالاً، فأعلِ درجته يارب فى جوار قدسك ونوِّر وحشة قبره بأنسك، وبوئه فى عقباه المقام الكريم الذى يليق بكرمك العميم، وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم، واستحقوا النعيم المقيم، إنك أنت الرحمن الرحيم»[1].

لقد نعت أحمد الشريف -رحمه الله- أغلب الصحف فى المشرق الإسلامى بأقلام الشعراء والكتّاب، وقد كتب السيد عبد الرحمن عزام فصلاً عن حياة السيد أحمد الشريف نشرته جريدة «البلاغ» الغراء الصادرة بمصر[2]، وقد صلى عليه المسلمون صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة الأولى من المحرم فاتحة سنة (١٣٥٢هـ)، وقالت مجلة «المنار»: تقام صلاة الغائب على الزعيم الإسلامى المجاهد العظيم والمرشد الشهير السيد أحمد الشريف السنوسى فى جميع المساجد الجامعة فى القطر المصرى، وسائر الأقطار التى بلغتها الدعوة إلى هذه الصلاة من مكتب المؤتمر الإسلامى العام فى القدس الشريف، ستكون هذه الصلاة ممتازة بمعنى لم يسبق لها نظير فى مثيلاتها من صلاة الغائب التى يقيمها المسلمون فى بعض الأقطار عندما يموت عظيم من عظماء

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى، (٢/ ٣٩٦ إلى ٤٠٥).
٢) انظر: برقة العربية (ص ٣٢٥).

الإسلام فى علمه الواسع وعمله النافع، لا باتصاف السيد السنوسى بشرف الحسب ولا باشتهاره بالصلاح والتقوى، ولا بمكانه المعروف فى العلم والعمل والإرشاد والإصلاح والبر والإحسان، ولا بالجاه العريض الذى ناله بتقليده سيف البيعة للسلطان محمد الخامس، وإنعام السلطان عليه بلقب الوزارة والنيشان المرصع، فكان أول عالم مرشد معهم تحلى بها، كما تقدم آنفًا. بل تمتاز هذه الصلاة على هذا الرجل العظيم بعمل له هو الذى تم به كماله وهو الجهاد بماله ونفسه فى سبيل الله دفاعًا عن دينه وقومه ووطنه، وبما آل إليه أمره من جراء هذا الجهاد من هجرته الأولى إلى بلاد الترك، ثم إخراجه منها وتعذر رجوعه إلى وطنه، وتعذر إقامته فى سوريا ومصر، وفى كل قطر إسلامى خاضع لنفوذ الدول الاستعمارية الثلاث المحاربة للإسلام المستذلة للمسلمين، وقد قاتلها كلها فى سبيل الله، حتى لجأ أخيرًا إلى مهد الإسلام فى حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، ومات بجوار جده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فبهذا كله صار للصلاة عليه معنى لم يسبق لغيره من عظماء الإسلام المعاصرين(١).

هذه قصة أحمد الشريف السنوسى، ، السيد الصنديد، والعالم الجليل، والعابد الخاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين، حاولت جاهدًا أن أوضح للقارئ الكريم ملامحها الإيمانية، وروائحها الزكية، وروحها الأبية، وحياتها المليئة بالدعوة والجهاد والعبادة والعطاء لهذا الدين العظيم.

إن هذه السيرة العطرة تبين لمسلمى ليبيا أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال، وعاشوا للذود عن الإسلام ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال، وتقيم الحجة الدامغة بالبراهين الساطعة، والحجج الواضحة على أن الشعب المسلم فى ليبيا خرج منه قادة وأبطال ورجال عظام، ندر الزمان أن يأتى بمثلهم، وأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها فى شعبنا منذ زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وأن ما نحن فيه من عثرة وكبوة وذلة، وبلاء «لا شك أنه من ذنوبنا»، كما أنها فترة تمر بها الشعوب قبل تمكينها، فإلى الغد المشرق مع فجر الإسلام النير، فلتكن الهمم متجهة ولتتوحد الضغوط للعمل والتضحية والعطاء والبذل من أجل أن تصبح بلادنا قلعة من قلاع المسلمين الحصينة منها تخرج جيوش المجاهدين، والدعاة العاملين، وتستقبل وفود طلاب العلم من العالم أجمع، ونسأل الله تعالى أن تعود بلادنا كما كانت فى دعوتها للإسلام وجهادها فى

(١) انظر: مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا (٢/ ١٣٧) لعام (١٩٢٣م).

سبيله على أسس صحيحة من كتاب الله وسُنَّة رسوله الكريم ﷺ، وهدى الصحابة الميامين ومن تابعهم إلى يوم الدين.

وعلى أحمد الشريف السنوسي وإخوانه الميامين الذين سطّروا لنا هذا التاريخ العظيم عليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الجزء الثالث

سيرة الزعيمين إدريس السنوسي وعمر المختار




مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده وسروله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد:

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

فهذا الكتاب يتحدث عن سيرة الزعيمين (**محمد إدريس السنوسى، وعمر المختار**)، فالسيد محمد إدريس السنوسى تولى زعامة الحركة السنوسية فى ظروف دولية وإقليمية ومحلية شديدة الصعوبة، واستطاع أن يقود قبائل برقة بحكمة وسياسة وحزم، ودخل فى مفاوضات مع بريطانيا وإيطاليا؛ لكى يحقق بعض المصالح لشعبه وبلاده، فيتحدث هذا الكتاب عن تلك المفاوضات بشىء من التفصيل، وعن الأسباب التى جعلته يضطر للمباحثات مع الدولتين البريطانية والإيطالية، وعن حكومة برقة التى تزعمها الأمير إدريس، وعاصمتها، ومجالسها، والأعمال التى حققتها، ويتطرق الكتاب للأسباب التى جعلت السنوسيين يصطدمون بالأتراك، ويشير الكتاب للأسباب التى جعلت ليبيا فى الحرب العالمية الأولى تنقسم إلى شطرين شرقى وغربى، ولماذا تحالف الطرابلسيون مع تركيا وألمانيا ضد الحلفاء، ولماذا تحالف البرقاويون مع بريطاينا ضد

المحور، وما أثر ذلك الانقسام الخطير على ليبيا، وما موقف الطرابلسيين من الأحداث بعد هزيمة تركيا وألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، وكيف ظهرت الجمهورية الطرابلسية إلى حيز الوجود، ومن أصحاب هذه الفكرة، وما العوامل التى ساعدت على ظهورها وما حقيقة مجالسها الشورية والشرعية والرئاسية والاستشارية، وهل استجابت الدول الكبرى لبلاغاتها وما هو القانون الأساسى الذى اتفق عليه الإيطاليون والطرابلسيون وما أول حزب سياسى أقامه الطرابلسيون، وما أول جريدة فى طرابلس تؤيد الجمهورية الطرابلسية، وما قرارات مؤتمر غريان، ولماذا كان اجتماع سرت بين زعماء طرابلس وبرقة، وما القرارات التى توصل إليها المجتمعون، ولماذا بايع أهل طرابلس الأمير إدريس السنوسى، وهل وافق الأمير على تلك البيعة، وما هى الأسباب التى دفعت الأمير محمد إدريس لمغادرة البلاد إلى مصر، ولماذا عاد القتال بين إيطاليا والليبيين، وما العوامل التى ساعدت إيطاليا على إخماد حركة الجهاد فى غرب ليبيا.

ويتحدث الكتاب عن المقاومة التى قادها أحمد السويحلى وسعدون وصفى الدين السنوسى، وبشير السعداوى فى غرب ليبيا حتى سكنت حركة الجهاد فى غربها، واستمرت جذوتها فى برقة، وكيف قاد كتائب المجاهدين الشيخ الجليل عمر المختار.

فيترجم الكتاب سيرة الشيخ عمر المختار منذ مولده حتى استشهاده، وعبادته وتلاوته للقرآن الكريم، وشجاعته وكرمه، ودعوته وجهاده قبل الاحتلال الإيطالى، ومعاركه الأولى ضدها، وسفره إلى مصر للتنسيق مع الأمير إدريس فى أمور البلاد والقبائل واستمرارية الجهاد، ويعيش القارئ الكريم مع عمر المختار فى معاركه التى خاضها كمعركة بئر الغبى، وعقيرة الدم، وعن وسائله فى تموين المجاهدين، وعن تشكيلاته وخططه وقيادته لحرب العصابات التى أصبحت معلمًا لمن جاء بعده من قيادات حركة التحرير.

ويتحدث الكتاب عن فقد عمر المختار لكبار المجاهدين، وآثار ذلك على مشاعره وأحاسيسه، وموقفه من تلك الصدمات المتكررة، كاستشهاد أخيه فى الدين حسين الجويفى البرعصى، وابن أخيه المختار بن محمد، وعن حرصه على الشهادة وإخلاصه لقضية الجهاد، وعزيمته النافذة، وصبره العظيم، وحكمته فى القيادة، وفهمه ببصيرته النافذة ونظره البعيد.

ويوضح الكتاب حرص إيطاليا على دخول المفاوضات مع عمر المختار؛ لكسب الوقت، وتفريق المجاهدين، وكيف كان عمر المختار متنبهًا لأغراضهم الخبيثة، فكان فى تلك المفاوضات واسع الأفق بعيد النظر، فاتخذ مواقف صحيحة وقوية فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه.

ويبين الكتاب حقيقة الجنرال جراسيانى الذى كان عند قومه عظيما ومقدمًا، والذى أسندت إليه الحكومة الإيطالية بزعامة الدوتشى (موسولينى) مهمة القضاء المبرم على حركة الجهاد مهما كلف

ذلك بكل الطرق وجميع الوسائل، ولذلك أنشأ المحكمة الطائرة التى كانت تحكم على الأهالى بالموت، وتصادر الأملاك لأقل شبهة وتمنحها للمرتزقة الفاشيست، فكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة وتصدر أحكامها، وتنفذ فى دقائق بحضور المحكمة نفسها؛ لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذى انعقدت فيه لتنعقد فى نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبواب السجون فى كل مدينة وقرية ببرقة، ونصبت أعواد المشانق فى كل من العقيلة وإجدابية، وبنغازى، وسلوق، والمرج، وشحات، ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق ولأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام وينفذ شنقًا أو رميًا بالرصاص، وقام الجنرال جراسيانى بعزل الأهالى الخاضعين لهم عن المجاهدين وأدخلهم المعتقلات الرهيبة، فيجد القارئ فى هذا الكتاب حقيقة تلك المعتقلات.

وتحدث الكتاب عن عمر المختار كقائد عسكرى له القدرة على تغيير خططه وتطوير أساليبه القتالية بما يتماشى مع المراحل التى يخوضها حتى إن عدوه جراسيانى اعترف بذلك، فقال: «بالرغم من إبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا، يستمر عمر المختار فى المقاومة بشدة ويلاحق قواتنا فى كل مكان».

وقال أيضًا: «عمر المختار قبل كل شىء لن يسلم أبدًا؛ لأن طريقته فى القتال ليست كالقادة الآخرين، فهو بطل فى إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يمكن تحديد موقعه لتسديد الضربات له ولجنوده... عمر المختار يكافح... إلى أبعد حد لدرجة العجز، ثم يغير خطته ويسعى دائمًا للحصول على أى تقدم مهما كان ضئيلاً بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًا ومعنويًا حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً، وهنا يسلم أمره لله كمسلم مخلص لدينه».

ويتعرض الكتاب للأسلاك الشائكة التى مدها الإيطاليون على طول الحدود الليبية المصرية بما يزيد على (٣٠٠) كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب؛ بغية القضاء على حركة الجهاد التى كان يقودها عمر المختار، ويجد القارئ الكريم فى هذا الكتاب تفصيلاً دقيقًا موثقًا عن الأعمال الشنيعة القبيحة والمزرية والحاقدة التى قام بها الإيطاليون ضد الليبيين عندما احتلوا العاصمة السنوسية الشهيرة، وكيف اهتز العالم الإسلامى لتلك الأحداث، وكيف كان دور الصحافة الإسلامية، ويبين للقارئ الكريم وثائق تاريخية مهمة بقلم شكيب أرسلان، وجمعية الشبان المسلمين بمصر، وقد وقع عليها محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» الإسلامية، وتقى الدين الهلالى الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند وغيرهم.

ويمضى الكتاب مع عمر المختار حتى الأيام الأخيرة من حياته، فيصف اللقاء الشهير الذى تم بين محمد أسد وعمر المختار، وكيف وقع المختار فى الأسر، ويتحدث عن مواقفه فى داخل السجن التى تدل على سلامة العقيدة ورسوخ مفهوم القضاء والقدر فى نفس ذلك الشيخ الجليل،

وعن عزة الإيمان التى كان يتحدث بها فى لقائه مع الجنرال جراسيانى وأثناء المحكمة، كيف كان يقاد إلى المشنقة وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

إن هذا الكتاب: (يثبت بالحقائق التاريخية أن حياة عمر المختار مدرسة تستحق الدراسة والبحث فى جوانب متعددة، فى شخصيته العلمية والدعوية والجهادية وصفاته الخلقية الرفيعة).

ويوضح الكتاب أحوال ليبيا بعد استشهاد عمر المختار، وعن مصير حركة الجهاد التى قادها يوسف بورحيل والمجاهدين، وعن اضطهاد واستبعاد الإيطاليين لمسلمى ليبيا بعد القضاء على الحركة.

ويصف الكتاب أحوال المهاجرين الليبيين فى مصر والشام وتونس ويبين جهود المهاجرين فى ديار المهجر حتى ضاقت بهم إيطاليا، ويجد القارئ وثيقة تاريخية مهمة قامت بإعدادها الجمعية الطرابلسية البرقاوية وقدمتها كورقة عمل للمؤتمر الإسلامى فى القدس عام (١٩٣١م).

ويقف الباحث عند الحرب العالمية الثانية ويتحدث عن كونها آية من آيات الله فى تصريف أمر الدول والشعوب والأمم وفق سننه وقوانينه فى المجتمعات البشرية، ومن السنن التى وقف عندها الكاتب أنه عندما تتجبر أمة من الأمم وتعلو فى الأرض ويصيبها البطر والكبرياء يهيئ الله لها أسباب الانهيار والزوال، كما يكون الزوال والانهيار بفشو الظلم، وعدم إقامة العدل.

ويتحدث الكتاب عن الأمير إدريس فى مصر وعن دوره فى جمع زعماء ليبيا والتشاور معهم ودراسة احتمالات الموقف ووضع الخطط التى يجب أن يسيروا عليها، وعن جهوده العظيمة فى تكوين الجيش السنوسى الذى كان له أثر فعال فى الحرب العالمية الثانية فى شرق ليبيا، وكيف ساهم ذلك الجيش فى إخراج الطليان من بلادنا، ويتكلم الكتاب عن اعتراض الليبيين على موقف الدول الكبرى -وخصوصًا بريطانيا- من قضيتهم العادلة بعد الحرب العالمية الثانية، ويأتى بوثيقة تاريخية كتبها عمر فائق شنب عام (١٩٤٥م)، وكان عنوان المقالة «ليبيا مهد البطولة» وجاء فيها: «وبصفتى أحد قادة الحركة الوطنية وعضو الجمعية الوطنية التى ارتبطت مع بريطانيا (يوم ٩ من أغسطس ١٩٤٠م) أصرح بأن الوضع الحالى فى ليبيا شاذ لا يتناسب فى شىء مع العدل والإنصاف، ولا مع وعود الحلفاء بأى وجه كان. بل إن ما يعانيه الشعب الليبى اليوم لا يختلف عن الاستعمار البغيض وأن الشعب الليبى يتمنى إقامة حكومة وطنية شرعية تحت إدارة أميره المطاع إدريس السنوسى بأسرع ما يمكن؛ ليحقق لها اختيار الجهة التى ترغب فى الارتباط معها.

أقول هذا لدول الحلفاء عامة ولدولة بريطانيا العظمى خاصة قبل أن يعم الاستياء الذى أخذ يتسرب إلى النفوس وتتبدل وجهات النظر من الإخلاص والمحبة والتعاون النزيه إلى المقت والبغض والمشاكسة ويطغى اليأس؛ فتنعكس الآية ولا ينفع الندم، وإن ليبيا رغم قلة عددها وفقدان عدادها ومعرفتها بأنها لا تقوى على مقاومة الدول العظمى، مع أنها جربت فى حرب إيطاليا، تفضل أن تضرب يوميًا بألف، بل بمليون قنبلة ذرية، حتى ينقطع فيها النسل والذرية على أن يطأ أرضها إيطالى، أو أن تُمس كرامتها أو ينتقص شيء من حريتها واستقلالها وحقها فى الحياة أو يقرر مصيرها الغير بدون إرادتها، وهى علمت الشعوب معنى التضحية فى سبيل الحرية والاستقلال من سنة (١٩١١م) إلى يومنا هذا والتاريخ شاهد عدل. . .».

ويتحدث الكتاب عن الجمعيات التى أُسست خارج ليبيا، وعن حل الأحزاب وإنشاء المؤتمر الوطنى فى برقة واضطراب الأحزاب فى طرابلس، ويأتى بنص قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا، وبأسماء اللجنة التحضيرية المختصة بالإعداد للجمعية الوطنية، وبأسماء الجمعية الوطنية التأسيسية التى عُرفت بلجنة الستين، ويجد القارئ نص مبايعة الجمعية الوطنية التأسيسية للأمير إدريس السنوسى ملكًا دستوريًا للمملكة الليبية المتحدة عام (١٩٥٠م)، ونص الخطاب التاريخى الذى ألقاه الملك بمناسبة إعلان استقلال ليبيا (يوم ٢٤ من ديسمبر ١٩٥١م)، وتعرض الكاتب فى هذا الكتاب لاهتمامات الملك، فتحدث عن اهتمامه بالدين والعلم والأخلاق، وحبه للشعب وحب الشعب له، ونصحه لزعماء العرب، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وعن أدب العبارة فى خطاباته وسمو معانيها وتواضعها الجم والدعوة إلى الخير والتقوى، واهتمامه بالثورة الجزائرية، وحديثه عن الوحدة العربية وحالة العرب، وعن مفهوم الأخوة الإسلامية والعروبة عند الملك، وعن نظرته للعمل الإصلاحى، وعن الزعيم الأساسى الذى يُؤسس حكومة راسخة البنيان، وعن مكانة الصَّحافة فى زمن الملك، وحرية الكلمة فى محل النواب، وعن استقالته الأولى عام (١٩٦٥م)، ونقل الكاتب استقالته الثانية قبل انقلاب عام (١٩٦٩م) التى جاء فيها «. . . والذى أختتم به قولى أن أوصى الجميع من أبناء وطنى بتقوى الله فى السّر والعلن، وإنكم جميعًا فى أرغد عيش وأنعم النعم من الله تبارك وتعالى، فاحذروا من أن يصدق عليكم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فالله الله مما يغضب الله، وتعاونوا على البر والتَّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ولا تفرقوا، قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم»

عند حدوث الانقلاب، وكيف اعتذر للمسئول المالي المرافق له عن أخذ ما تبقى من المال، وقال له: «يا بني، أنا بالأمس كنت ملك ليبيا، ولكني لم أعد كذلك اليوم، وبالتالي فإن هذا المال لم يعد من حقي، ويجب أن يُسلم إلى حزينة الشعب».

ويتحدث الكتاب عن أقوال المؤرخين في الملك السابق وعن وفاته بمصر ودفنه بالبقيع بالمدينة المنورة في مايو عام (١٩٨٣م).

هذا وقد تركت ما يتعلق بالمملكة الليبية بسبب قلة المصادر وندرة الوثائق التي بحوزتي واقتصرت الحديث على الملك إدريس كزعيم وقائد، وإني أشعر بضعف المادة التي أمامي فيما يتعلق بتلك الأحداث؛ لأن قضايا ذلك العهد على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لملابساتها وآثارها الممتدة إلى زمننا الحاضر، وخصوصًا وإني قد بحثت في أسباب سقوط المملكة بحثًا دقيقًا وطلبت من رجال عاشوا تلك المرحلة المساهمة في دراسة وتتبع الأسباب التي أدت إلى سقوط المملكة الليبية، ولكن التفاعل كان ضعيفًا واعتذر البعض لأسباب أمنية، وقد علمت أن بعض الذين عاصروا تلك الأحداث قد كتبوا مذكرات مهمة في تلك المرحلة وينتظرون الوقت المناسب لنشرها؛ لذلك رأيت من الحكمة والتعقل التريث حتى يأذن الله في نشرها؛ لأنها سوف تُساهم بإذن الله تعالى في توفير معلومات تُساعد الباحثين على تقصي الحقائق والوصول إلى نتائج صحيحة مبنية على معلومات يقينية. فإن كان للعمر بقية وأذن الله في مواصلة هذه الرحلة الطويلة التي بدأتها من الفتح الإسلامي إلى هذا الكتاب، فإنني بإذن الله تعالى سوف أواصل المسيرة، وإلا فأقلام الليبيين لم تجف ولن تجف بإذن الله تعالى في تدوين تاريخها؛ لأن شعبنا ليس بعقيم، بل يملك الطاقات الكامنة في جميع مجالات الحياة، السياسية، والتاريخية، والأدبية، والتربوية، والاقتصادية. وكم أتمنى أن يهيئ الله الأسباب لجمع المادة عن المملكة لأحد من أبناء بلادي، فيواصل المسيرة المهمة في بناء الشعوب، فيكون البناء تراكميًا، ونكون تابعين لمن سبقنا في الكتابة عن تاريخ بلادنا الحبيبة.

إن فترة المملكة الليبية من عام (١٩٥١م) إلى (١٩٦٩م) غنية بالأحداث على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، وتحتاج إلى دراسة واعية وباحث مدقق يتوخى العدل والإنصاف، ويشمر عن سواعد الجد والاجتهاد ويعتمد على القوي العزيز الوهاب، ثم على الوثائق والحجج والبراهين.

هذا وإني أشيد بالمجهودات القيمة التي قام بها كل من الوزيرين السابقين: مصطفى بن حليم، ومحمد بن عثمان الصيد في كتابة مذكراتهما ثم نشرها بغية استفادة الأجيال منها. إن الجهود التي قام بها الوزيران السابقان تستحق الثناء والتقدير؛ لأنها أصبحت مرجعًا مهمًا من

مراجع تلك المرحلة وتعتبر من المبادرات الرائعة والرائدة؛ لأن أصحابها عاشوا تلك الأحداث وساهموا فى صناعة بعضها، كما أنهم حطموا جدار الصمت، وكتبوا تاريخهم السياسى الذى فى حقيقته أصبح ملكًا للأجيال الصاعدة بغض النظر عن اختلاف الآراء حول تلك المذكرات.

إن الاعتناء بتاريخ بلادنا وبلاد المسلمين تظهر أهميته فى هذا العصر الذى استخدم فيه التاريخ كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها، كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة فى فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأمم المتقدمة فى مكانة سامية لا يعلوها علم آخر.

إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا تبغى فى دراسته تحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العليا ألا وهى إحياء الأمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالشعوب، واجتناب سنن السقوط والهبوط.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢].

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول وهى كالآتى:

المقدمة.

الفصل الأول: محمد إدريس.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وولادته وشيوخه وحجه.

المبحث الثانى: موقف الإسلام من المعاهدات مع العدو

المبحث الثالث: الجمهورية الطرابلسية.

الفصل الثانى: عمر المختار -رحمه الله- نشأته وأعماله واستشهاده.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأته وأعماله.

المبحث الثانى: استمرار العمليات والدخول فى المفاوضة.

المبحث الثالث: الأيام الأخيرة من حياته ووقوعه فى الأسر ثم إعدامه.

الفصل الثالث: الليبيون بين المهجر والاستقلال ويشتمل على خمسة مباحث.

المبحث الأول: الليبيون في المهجر.

المبحث الثاني: الحرب العالمية الثانية.

المبحث الثالث: قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا.

المبحث الرابع: الملك إدريس -رحمه الله- وشيء من سيرته.

المبحث الخامس: نظرة في كتاب الملك إدريس - رحمه الله- في اتحاد العرب وائتلاف الموحدين وبعض المقابلات الصحفية.

هذا وقد انتهيت من كتابة هذه السلسلة التاريخية (يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول ١٤٢٠هـ الموافق ١٥ يونية ١٩٩٩) والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولا حسنًا، وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وبهذا الكتاب أضع سلسلة [صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي] بين يدي قارئها، ولا أدعي الكمالَ فيها.

فلله الحمد على ما منَّ به عليَّ أولاً وآخرًا، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل هذه السلسلة التاريخية لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يُثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الأمير محمد إدريس السنوسى

المبحث الأول

اسمه ونسبه وولادته وشيوخه ورحلته إلى الحجاز

أولا: اسمه ونسبه وولادته:

هو: محمد إدريس بن محمد المهدى بن على السنوسى، ولد يوم (الجمعة فى العشرين من شهر رجب ١٣٠٧ هـ الموافق ١٢ من مارس ١٨٩٠م) بزاوية الجغبوب[١]، وتوفى بمدينة القاهرة عام (١٩٨٣م)، تزوج والده محمد المهدى وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره من والدته فاطمة ابنة عمران بن بركة، وذلك سنة (١٢٧٥ هـ الموافق ١٨٥٨م)، وقد أنجبت له عدة أولاد فى حياته وتوفيت سنة (١٨٩١م)[٢].

كان مولده يوم فرح وسرور لأتباع الحركة السنوسية، وخصوصًا أهالى الجغبوب، فعُطل معهد الجغبوب، والكتاتيب القرآنية، ودور الأعمال، ونُحرت الجزر، ومُدت الموائد، وقُدمت الصدقات شكرًا لله تعالى، وكانت زوايا الحركة تحتفل بقدوم هذا المولود بمجرد وصول الخبر إليها، وجادت قرائح شعراء الحركة بالقصائد الشعرية التى أُهديت إلى محمد المهدى بمناسبة مولد ابنه[٣].

ثانيا: شيوخه وطلبه للعلم وبعض صفاته:

نشأ محمد إدريس فى رعاية أبويه، وبعد وفاة أمه احتضنته جدته لوالدته، واهتم والده بتربيته تربية صالحة، وبدأ بتحفيظه القرآن الكريم بنفسه مع دخوله فى سن السابعة من عمره، وظل محمد إدريس يحفظ القرآن الكريم على أبيه. وبعد فترة من الزمن أرسله والده لتلقى العلم على يدى شيخ عُرف بالصَّلاح والتقوى وبصحبته أخوه محمد الرضا، وأبناء عمه محمد الشريف. وبعد وفاة والده كفله ابن عمه أحمد الشريف، وتفرغ محمد إدريس لطلب العلم بعدما حفظ القرآن الكريم، وتتلمذ على مجموعة من أفاضل العلماء، اشتهر من بينهم: العلامة العربى

(١) انظر: المغرب الكبير، جلال يحيى، (٤/ ٣٥).
(٢) انظر: الحركة الوطنية فى شرق ليبيا، مصطفى هويدى (ص ١٠١).
(٣) انظر: برقة العربية أمس واليوم، للأشهب، (ص ٣٥٠).

الفاسى، وأحمد أبو سيف، والعربى الغمارى، وحسين السنوسى، وأحمد الريفى، وأحمد الشريف السنوسى[١]، فأتقن القراءات وعلوم الحديث، كما أتقن البخارى، ومسلم، ومسند أبى داود والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وموطأ مالك، ومسند أبى حنيفة، ومسند الإمام أحمد، وكتاب الأم للشافعى، وغير ذلك من كتب الفقه والحديث والتفسير واللغة، وعلوم التاريخ، وتقويم البلدان، وتحصل على إجازات عدة[٢].

ولما تقدم فى السن أصبح من أعضاء مجلس شورى الحركة السنوسية، ونظم لنفسه حياة خاصة، ورسم خطة سار عليها فى حياته، فشيد منزلا بزاوية التاج فى الكفرة مؤثثًا بأبدع الأثاث والفرش، وعكف على الدراسة بهمة ونشاط، واهتم بتكوين مكتبة خاصة أصبحت فى طليعة المكاتب العربية، واتخذ حاشية مؤلفة من خيار الإخوان وكبارهم، وأقام منازل جميلة فى مزارع السنوسية التى تقع فى ضواحى التاج بواحة الكفرة أعدها بجميع ما تحتاجه من الضروريات والكماليات، فإذا اشتاقت نفسه للتريض والنزهة والترفيه خرج بحاشيته يقضى بعض الأيام فى تلك البساتين.

وكان مجلسه عامرًا بالعلماء والأدباء، وكان يحب العلماء ويجلّهم ويكبر ما فى نفوسهم من العلم، وينُزلهم منه منزلة خاصة، ويحيطهم بعطفه، وكانت أحب العلوم إليه: الحديث الشريف، وعلم التاريخ والأدب والسياسة، ولا يتحدث فى موضوع إلا ويعلل رأيه فيه بعد تدقيق وتمحيص، ثم يأتى بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، تارة من كتاب الله، ومرة من الحديث الشريف، وحينًا من أقوال السلف الصالح وأئمة المسلمين. وكان قوى الذاكرة، سريع الخاطر، متين الحجة، وله اهتمام خاص بالفقراء والمساكين، وكان جميل المشعر، رحيمًا بأتباعه وخدمه، فيعود مرضاهم بنفس متواضعة ويصفح عن المذنبين منهم ما لم يكن الذنب مغضبًا لله ولرسوله ﷺ، وكان يميل إلى اقتناء جياد الخيل، وله شغف بجمع أنواع الأسلحة، وبجمع الكتب خصوصًا ما كانت حديثة، وكان كثير المطالعة، وله قلم سيال إذا كتب، كما كان خطيبًا بارعًا يرتجل الخطبة، ويسترسل فى المواضيع يتدفق كالسيل الجارف، فلا يتلعثم، ولا يتردد حتى ينتهى من موضوعه مع قوة فى اللهجة، وحدة فى المنطق. وقد تغير صوته القوى إلى هدوء بعد المرض الذى أصابه عام (١٩٢٣م)[٣]. وكان حريصًا غاية الحرص على وحدة الصف السنوسى أمام أعداء الإسلام، فعندما كان أحمد الشريف يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا فى السودان الغربى لم يشأ أن يطلب منه أن يتخلى عن الزعامة لصاحبها الشرعى فى نظره وفاءً منه للسيد أحمد

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٠٢). (٢) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ١٨٣، ١٨٤).
(٣) انظر: برقة العربية (ص ٣٥٤).

الشريف الذى كفله بعد وفاة أبيه. ويتجلى حرص محمد إدريس على جمع كلمة المسلمين ولمّ شملهم، وعدم التفرقة عندما اشتدت المحنة وقت أن بدأ الطليان هجومهم الغادر على الأراضى الليبية ورأى بعض الإخوان أن يسندوا الزعامة إلى إدريس السنوسى كحق موروث بدلا من أحمد الشريف، فرفض إدريس السنوسى ذلك العرض، وبذلك اجتمعت كلمة المجاهدين على أحمد الشريف(١).

لقد رأى محمد إدريس -ببعد نظره، وثاقب فكره- أن تغيير القيادة فى أثناء المعركة ليس من مصلحة حركة الجهاد، ودفع ابن عمه لمواصلة قيادة كتائب الحركة نحو الواجب المقدس.

ثالثاً: رحلة الحج:

وقد ذكر محمد إدريس قصة رحلته إلى الحج بنفسه، فقال: «فى عام (١٣٣٠ هـ الموافق ١٩١٢م) بلغت سن الرشد فى الكفرة، فطلب منى بعض الإخوان السنوسيين بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن غيرهم أن أتسلم مسئوليات المرحوم والدى من السيد أحمد الشريف الذى كان يومها يتأهب للرحيل إلى الجغبوب بناء على طلب أنور باشا حتى يكون على مقربة من المجاهدين، وكان ردى على طلب الإخوان هو أن السيد أحمد مشغول بالاستعداد للسفر، وإننا على حافة الحرب مع إيطاليا، فلا أرى من المناسب أن أتسلم منه فى وقت كهذا، ثم إننى أقدر خبرته الطويلة المجربة فى إدارة شئون الطريقة، ولكن متى استقرت الأحوال، فسوف نُلبى رغبتهم، ولاشك أن السيد أحمد سوف يوافق على ذلك.

وسافر السيد أحمد إلى الجغبوب، بينما بقيت أنا فى الكفرة عامًا كاملاً تدربت خلاله على تسيير الأمور المتعلقة بمسئولياتى المقبلة، وفى تلك الأثناء تخلت تركيا عن البلاد لإيطاليا. وبينما كان السيد أحمد يحارب الإيطاليين، قررت أن أذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ثم أعود لمساعدته، وبتاريخ (الرابع من شوال الموافق أغسطس ١٩١٣م) غادرت الكفرة برفقة ثلاثة من الإخوان هم: الحاج محمد التواتى، والحاج فرج، والحاج على العابدية(٢)، وكان معنا أيضًا شيخ إحدى الزوايا، وثلاثة من الخدم، منهم واحد سودانى، بالإضافة إلى حداة الإبل، وكنت أركب فرسى، وتحمل أمتعتنا الجمال، وسرنا بطريق القوافل الذى يمر بمناطق طلاب وربيانة وبوزيمة وزيغن، وأبو عكشة، وبوطفل مؤديًا إلى جالو فاستغرقت الرحلة إلى هناك واحد وعشرين يومًا منها ستة عشر يومًا من السفر الفعلى؛ إذ كنا نسير ليلا ونستريح نهارًا كالمعتاد فى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص١٨٤).
(٢) زعيم سنوسى معروف، ولد سنة (١٨٧٠م)، وهو من قبائل الزوية.

أثناء الصيف، وقضينا تسعة أيام فى جالو التى كانت مركزًا تجاريًا مهمًا، ثم أخذت مكانتها فى التدهور على إثر إغلاق طريق القوافل من الساحل إلى واداى، وبعدئذ واصلنا السير نحو الجغبوب مرورًا بخربة وقطمر، وترفاوى، وعبد السلام، واستمرت الرحلة كلها ستة عشر يومًا، منها ثلاثة عشر يومًا فى المسير.

ومكثت بالجغبوب سبعة أشهر من بيت أبى، وكان المعهد الذى أسسه جدى هناك لايزال مزدهرًا، وفى شهر جمادى الثانى الموافق (أبريل ١٩١٤م) غادرتُ الجغبوب متجهًا إلى مصر مع نفس الجماعة، وكذلك الحاج يونس العابدية الذى انضم إلينا فى الجغبوب. وبعد مسيرة سبعة أيام وصلنا إلى الساحل عند مكان يسمى بقبق (بالقرب من السلوم) حيث شاهدت البحر للمرة الأولى فى حياتى.

ثم سافرنا إلى الضبعة (التى كانت فى ذلك الوقت آخر محطة للسكة الحديدية المصرية من ناحية الغرب)، ومررنا فى طريقنا بمرسى مطروح حيث رحبت بى السلطات المصرية، كما زرنا الزوايا السنوسية فى كل من سيدى برانى وشماس ونجيلة وأم الرخم وأبو هارون، ولدى وصولنا إلى الضبعة استقبلنا صالح حرب، وهو ضابط مصرى جاء مندوبًا عن الخديوى عباس الثانى. ثم سافرنا إلى الإسكندرية بقطار خصوصى، ونزلت ضيفًا على الخديوى فى قصر رأس التين، ولقيت ترحيبًا حارًا من المصريين؛ فهم على الرغم من حيادهم رسميًا فى الحرب مع إيطاليا كانوا يؤيدون إخوانهم المسلمين، ويبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة السنوسيين بإمدادات السلاح والمعدات الطبية، وفى ذلك الوقت كان اللورد كتشنر يشغل منصب المندوب البريطانى فى مصر.

وبقينا فى الإسكندرية تسعة أيام بانتظار باخرة بريد الخديوى إلى حيفا، ثم سمعنا أنها سوف تعرج على ميناء بورسعيد، فاستقللنا قطارًا خاصًا تفضل به الخديوى أيضًا لنقلنا إلى هناك حيث ركبنا الباخرة وأبحرت بنا عند الظهر فى نفس اليوم، وكانت الرحلة مريحة وصلت بعدها إلى حيفا يوم (٢٤ من رجب) فاستقبلنى الوالى التركى استقبالا رسميًا، وبعدها مباشرة سافرنا بقطار سكة الحجاز، وقد وُضعت تحت تصرفى المقصورة الملكية الخاصة، وكان القطار إلى المدينة يقوم بثلاث رحلات أسبوعيًا تستغرق رحلته ثلاثة أيام يمر فيها بعدة محطات رئيسية، وهى: درعا وعمان وتبوك ومدائن صالح؛ وهو كان مريحًا رغم بطئه، ويضم ثلاث عربات للنوم وواحدة للأكل، كما وجدت به زريبة لفرسى وبقيت فى المدينة خمسة عشر يومًا كان الجو فى أثنائها قائظ الحر، فداهمتنى الحمى، ولذا نُصحت بالانتقال إلى مكة لأن جوها ألطف قليلا. ومع أن موسم الحج لم يكن قد حل بعد، إلا أننى امتطيت فرسى وانطلقت فى رحلة المائتى ميل من المدينة إلى

مكة، فقطعتها خلال أحد عشر يومًا من السفر الوئيد أثناء الليل والراحة فى ظل خيمة بالنهار، وبعد إقامة ثلاثة أيام بمكة نصحنى البعض بالذهاب إلى مدينة الطائف الواقعة وسط التلال فى جنوبى مكة، وكان الشريف حسين يمضى بها فصل الصيف مع ولديه عبد الله وفيصل.

وقضيت فى الطائف (٧٥) يومًا، بما فيها رمضان وشوال، وكان جوها لطيفًا بالفعل، فاستعدت صحتى تمامًا، وفى تلك الأثناء حدث اغتيال أرشيدوق النمسا فى سراييفو، واندلعت الحرب العالمية الأولى، وبعدئذ توجهنا إلى مكة لأداء مناسك الحج فى (أكتوبر ١٩١٤م)، ونزلت بالزاوية السنوسية فى أبو قبيس، ثم انتقلنا إلى المدينة، فاضطررنا إلى البقاء فيها مدة شهرين لانقطاع المواصلات لسبب الحرب، وكان قد انضم إلينا فى مكة اثنان من عرب برقة المعروفين، وهما رشيد الكخيا وعلى العبيدى.

وفيما كنا ننتظر بالمدينة أثناء شهر نوفمبر قامت الحرب بين بريطانيا وتركيا، فحاول الأتراك المسيطرون على الحجاز أن يحملوا العرب على الوقوف فى صفهم، كما أخذ البريطانيون فى التَّقرب إلى العرب على نحو مماثل، غير أن الشريف حسين التزم موقف الحياد، متجنبًا إعطاء أى رد مباشر على الدعوة التركية إلى إعلان الجهاد. وفى ديسمبر عندما استأنفت القطارات رحلاتها العادية، سافرنا إلى حيفا واستضافنا الوالى التركى أبو شاهين، وهناك اكتشفنا أن الاتصالات مع مصر شبه مقطوعة تمامًا؛ لأن البريطانيين والأتراك كانوا يتقاتلون قرب قناة السويس، وكان البريطانيون قد أعلنوا الحماية على مصر بعد خلع الخديوى عباس الثانى، وإحلال عمه حسين كامل الذى مُنح لقب السلطان محله. ولما كانت هناك باخرة إيطالية تقوم برحلات منتظمة بين حيفا ونابولى عبر ميناء بورسعيد، فقد أرسلنا واحدًا من جماعتنا لاستطلاع إمكانية السفر بهذا الطريق، وجاء رده مشجعًا، فحجزنا أماكن على الباخرة، غير أن القبطان قال إنه لا يضمن السماح لنا بالنزول فى بورسعيد؛ نظرًا لأن السنوسيين كانوا حلفاء للأتراك، وبالتالى فإننا نعد نظريًا من رعايا دولة معادية.

ولكن العلاقات فى ذلك الوقت كانت قد تحسنت نوعًا بين السنوسيين والإيطاليين الذين أخذوا يسعون إلى التفاهم مع السيد أحمد الشريف، فاتفقنا على دفع عربون لقبطان الباخرة بحيث يحملنا إلى نابولى فى حالة ما إذا رفض البريطانيون أن يسمحوا لنا بالنزول فى بورسعيد، ومن نابولى يدبر الإيطاليون أمر ترحيلنا إلى برقة متى حانت الفرصة.

وهكذا غادرنا حيفا فى (فبراير ١٩١٥م)، وقد اضطررت للأسف إلى ترك فرستى هناك؛ لأن القبطان لم يجد لها مكانًا على الباخرة، وهى كانت من سلالة برقاوية تربت فى أرياف الجبل

الأخضر، وكان أهداها إلىّ خليل البنانى، وقد حملتنى طول الطريق من «الكفرة» إلى مكة، ثم فى طريق العودة كذلك، فتأسفت كثيرًا لتركها فى حيفا حيث ماتت بعدها بمدة قصيرة.

ولدى وصولنا إلى بورسعيد طلبنا من رفيقنا على العيبدى أن يسبقنا فى النزول إلى البر حتى رأيناه مر بسلام، فتبعناه كلنا فى زحمة الحجاج متظاهرين بأننا مصريون، وفور وصولنا إلى الشاطئ بعثنا برقيات إلى كل من السلطان حسين والجنرال ماكماهون الذى خلف اللورد كتشنر فى منصب المندوب السامى البريطانى بمصر، وتلقينا منهما استجابة ودية، فتوجَّهنا إلى القاهرة فى ضيافة السلطان حسين، وفى أثناء ذلك قمنا بزيارة لكل من الجنرال ماكسويل، قائد القوات البريطانيَّة فى مصر، والكولونيل كلينتون، مندوب حكومة السودان المقيم بالقاهرة، وأعرب الاثنان عن رغبتهما الأكيدة فى أن نقطع علاقتنا مع الأتراك ونُؤيِّد البريطانيين فى الحرب أو نبقى محايدين على الأقل، وكان ذلك أول لقاء بينى وبين البريطانيين، وخرجت منه بانطباع جيد عن سلوكهم الودِّى وقوَّتهم العسكريَّة، ولم يكن بوسعى أن ألتزم بأى تعهد نيابة عن السنوسيين قبل استشارة السيد أحمد الشريف أولاً، ولكننى وافقت على متابعة الاتصال من خلال علاقتنا بعائلة الإدريسى فى مصر، ووافقوا من جانبهم على تسهيل عودتى إلى برقة.

وبعد فترة إقامة قصيرة فى القاهرة، ركبنا القطار إلى الإسكندرية، وفى نفس اليوم استقللنا باخرة لخفر السواحل وضعها البريطانيون تحت تصرفنا حتى أنزلتنا فى السلوم، ومن ثم توجَّهنا إلى مساعد للالتحاق بمعسكر السيد أحمد الشريف، وكانت غيبتى عن برقة قد استغرقت عامًا كاملا تقريبًا»[1].

إن رحلة محمد إدريس إلى الأراضى المقدَّسة كان لها أثر عميق فى تفكيره حيث احتك بالحكومة المصريَّة، وبزعيم الثورة العربية الكبرى الشريف حسين، وقادة الإنجليز فى مصر، ولا شك أنه ناقش وحاور واستمع إلى الأطراف المذكورة وتبلورت لديه قناعات مهمَّة فيما يتعلَّق بمجريات السياسة الدولية، وبطبيعة الصراع بين الأتراك والإنجليز، ورسم لنفسه تصورًا واضحًا يخدم به شعبه ووطنه ومصالح بلاده. ولذلك رأى أنه ليس من مصلحة الحركة السنوسية الدخول مع الأتراك فى حربهم ضد الإنجليز، وبعد رجوعه من الحج نصح أحمد الشريف بعدم الدخول فى الحرب مع الأتراك ضد الإنجليز، وأعلن رأيه ذلك بصراحة.

رابعًا: محمد إدريس السنوسى فى برقة:

بعدما قرر أحمد الشريف الاشتراك مع الأتراك والألمان ضد بريطانيا على الحدود المصريَّة العربية، رأى أن يُرتب شئون الإدارة فى برقة حتى يتفرغ هو للجهاد، فقسَّم القطر البرقاوى إلى

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره، (ص١٩ إلى ٢٢).

مناطق، وجعل إدريس على منطقة برقة، ومركزه فى إجدابية على أن يكون تحت إشرافه، وفى دفنا محمد هلال، وفى الجبل الأخضر محمد الرضا، وأرسل محمد صفى الدين لمنطقة طرابلس، أما أحمد الشريف فقد ذكرت ما قام به فى الحدود المصرية فى الجزء الثانى من كتابى عن الحركة السنوسية.

انتقل محمد إدريس من السلوم شرقًا حتى إجدابية غربًا فى أواخر سنة (١٩١٥م)، وكان معه حوالى سبعين مجاهدًا من بينهم: جمعة أبو شناك، وسعيد الشامى، والشَّارف الغربانى، وإبراهيم الشلحى، ومحمد أحمد أبو بكر...(١).

وأخذ ينتقل بين القبائل وكتائب الجهاد، فمرَّ بكتائب البراعصة، والعبيدات وغيرهم، وشرع فى إدارة دفَّة الحكم فى برقة بكل حزم ومهارة، فأظهر مواهبه كرجل إدارة محنَّك، وحاكم حازم، وكانت برقة تشكو فى هذه الفترة المضطربة اختلال الأمن، وتعرض الأهالى لشرور المفسدين، فضرب محمد إدريس على أيدى المفسدين، واستصدر من علماء البلاد «فتوى» لإعدام بعض السودانيين الذين وجدهم يعيثون فى الأرض فسادًا ينهبون الأموال ويفتكون بالأرواح(٢)، فقام بشنق هؤلاء وكانوا سبعة رجال(٣).

وقام محمد إدريس بتنظيم شئون البلاد وتوطيد الأمن، وضرب على أيدى العابثين، وقطع دابر المفسدين(٤). كانت مهمَّة إدريس فى برقة شاقة وعسيرة، وبخاصة بعد الفشل الذى أصاب المجاهدين بزعامة أحمد الشريف على أيدى الإنجليز، فإن برقة كانت تُعانى الأمرَّين فى الحقيقة من جراء انتشار المجاعة بها وقتذاك (١٩١٥م) بسبب احتباس الأمطار، وفضلاً عن ذلك فقد غزت حملات الجراد البلاد فى العام التالى، فأتت على الزرع، وتفشى فيها مرض الطاعون، خصوصًا عام (١٩١٧م)، وظل المطر محتبسًا طول هذه المدَّة تقريبًا، فكان أعظم بلاء شهدته برقة فى تلك الفترة هو بلاء المجاعة(٥).

وأمام هذه الظروف السيئة «اجتمع بعض أعيان أهل برقة وتدارسوا وتشاوروا فى تلك الحالة المخيفة التى حلت بالوطن وأهله، وأرسلوا وفودهم وكتبهم إلى إدريس بمقره فى إجدابية، وبصفته صاحب الحق الشرعى فى إمارة السنوسيين؛ ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف

---

(١) مكتبة دراسة الجهاد الصوتية، شريط رقم (١٤/ ٣٤) محمد أحمد أبو بكر الدرس، من كتاب الحركة الوطنية شرق ليبيا.

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٨٦).

(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص١٠٧).

(٤) انظر: برقة العربية، (ص٣٦٠).

(٥) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٨٧).

الوصى على الإمارة بمحاربته الإنجليز جريًا وراء الأتراك، خصوصًا أنهم لم يوفوا بوعودهم التى قطعوها له، فلم يُرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد فى نكبة الحرب ضد بريطانيا، وتركوا شعبها المخلص لهم يموت جوعًا»(١).

ويلخص عبد الرحمن عزام حالة الانتظار تلك فى قوله: «. . . كنا نترقب السواحل باستمرار مؤملين أن ترى الغواصات الألمانية إشارتنا بالرايات فى النهار، أو نيراننا التى كنا نشعلها فى الليل، وتركزت آمالنا فى أن تمدنا الغواصات بشىء من السلاح والمال والمئونة، وقد بقينا نحو أربعة شهور وصلنا فيها إلى حالة مروعة من الفقر. . .»(٢).

كان السيد محمد إدريس متأدبًا مع ابن عمه أحمد الشريف غاية التأدب ولذلك لم يتخذ أى قرار لمعالجة الموقف الحرج الذى تمر به البلاد إلا بعد ما كتب إلى أحمد الشريف، وشرح له ما كان يجرى فى برقة، فرد عليه الأخير برسالة فى أواخر عام (١٩١٦م)، جاء فيها: «. . . اعمل ما تراه مناسبًا، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن، حيث إن لهم حقًا فى ذلك. .»(٣).

كان ظهور محمد إدريس على مسرح العمل السياسى الليبى فى تلك الفترة الحرجة مهمًا للغاية؛ لما تمتع به من صفات أهّلته لزعامة البلاد، وآلت الأمور إلى أن بايعه أهل برقة بالإمارة، ثم أهل طرابلس بعد فشل الجمهورية الطرابلسية، وهذا ما سوف نراه بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب.

كان من رأى إدريس أن يدخل فى مفاوضات مع الإنجليز، والوصول على الأقل إلى اتفاق مؤقت من أجل فتح الطرق مع مصر، حتى يتمكن من القضاء على خطر المجاعة، ولم يكن زعماء برقة يُمانعون من دخول محمد إدريس فى التفاوض مع إيطاليا أو إنجلترا ما دامت تلك المفاوضات تُساعدهم فى القضاء على شبح المجاعة الذى هدد البلاد، ولم تكن هناك عوائق أمام تحقيق تلك المطالب وخصوصًا أن محمد إدريس تعرف أثناء زيارته للحج على الكثير من رجالات العرب، مثل شريف مكة حسين، ودرس معه القضية العربية التى كانت آنذاك فى دور اليقظة(٤)، كما أنه أصبح بعد تلك الزيارة رجلاً مهمًا بالنسبة لبريطانيا وحلفائها. وشرع محمد إدريس فى دفع البلاد نحو دهاليز السياسة، فأرسل رسالة إلى ممثل الملك جورج الخامس فى مصر، وهو الجنرال ماكماهون فى ذلك الوقت مقترحًا عقد مفاوضات للصلح، فأجاب بالموافقة

(١) انظر: تاريخ حرب طرابلس، إبراهيم لطفى، (ص٥٧).
(٢) ذكريات عزام، الحلقة (٨)، مجلة المصور، (١٣٣٢هـ- ١٩٥٠م)، القاهرة (ص١٩).
(٣) انظر: ليبيا اليوم، محمد الأشهب (ص٧).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا.

على فكرة إجراء المفاوضات من حيث المبدأ بشرط أن يُشارك فيها الإيطاليون أيضًا، ولم يجد محمد إدريس مفرًا من قبول ذلك الشرط، وخصوصًا أن موقفه كان صعبًا حيث إن هزيمة جيش السيد أحمد الشريف فى مصر جردت السنوسيين من عنصر القوة العسكرية، فأصبح محمد إدريس مضطرًا إلى التَّفاوض من موقع ضعف عسكرى، بينما كان رصيده الوحيد فى ولاء قبائل برقة، وحرص الإنجليز على كسبه لصفهم وإضعاف الزعامة السنوسية الموالية للأتراك، كما أن من العوامل التى ساعدت فى دفع محمد إدريس نحو التقارب مع السياسة البريطانية: ثورة الأتراك ضد السنوسية.

خامسًا: ثورة الأتراك ضد السنوسية:

بدأت تلك الثورة من أواخر سنة (١٩١٦م)، وانتشرت فى جهات عديدة حتى تُوجت بالنصر على السنوسية فى فزان خلال شهر سبتمبر سنة (١٩١٧م)، وطردوا منها محمد عابد السنوسى الذى التجأ إلى «الكفرة» وترك واحة واو، وأصبحت فزان منذ ذلك الحين بيد الأتراك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[١].

وفى إجدابية بدأ تحرك الضباط الأتراك منتهزين فرصة انشغال إدريس بالمفاوضات بعكرمة، فبدأوا بتأليب المجاهدين ضد السنوسيين هناك، فلما علم إدريس بذلك جاء بقوات كبيرة يقودها كل من عمر المختار -الذى كان سندًا قويًا لمحمد إدريس- ويقودها قجة عبد الله، وعسكر إدريس بقواته خارج مدينة إجدابية، وضربَ حول معسكر الأتراك بالمدينة حصارًا، وخيّرهم بين أمرين: التسليم أو مغادرة إجدابية إلى أراضى طرابلس، وقبلوا الأمر الثانى، فغادر الكثير منهم برقة إلى طرابلس، واعتقل جماعة منهم، وأرسل بعضهم إلى الجغبوب والبعض الآخر إلى «الكفرة»[٢]، وبعد إخماد تلك الحركة عاد مُسرعًا إلى عكرمة، لإكمال مفاوضاته[٣].

واستمر الأتراك فى مضايقة محمد إدريس، وتضييق الحصار عليه وعملوا على الإطاحة به، وأرسل نورى باشا بعثته الأولى الصغيرة إلى «الكفرة»؛ لضرب النفوذ السنوسى هناك، إلا أن تلك البعثة فشلت، وانتهت بوقوع أعضائها فى أيدى صفى الدين السنوسى الذى استطاع أن يكشف أمرهم بسرعة، وأودعهم السجن[٤]. أما بالنسبة لفزان فقد استطاع نورى أن يُشعل الثورة هناك ضد السنوسية وسيطر الأتراك عليها كما ذكرنا، وقد ودع نورى باشا أحد زعماء الحملة واسمه الملازم محمد الأرناؤوطى فقال له: «اذهب وافعل ما تستطيع عمله، واكتب لى بما تحقق

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص١١٦).
(٢) انظر: جهاد الأبطال (ص١٣٣).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١١٧).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص١١٨).

من نجاح فى «مصراتة». إننى أثق فى شخصكم ولا أستطيع أن أعطيك مالا أكثر مما أعطيتك؛ لأننى لا أملكه. إنك ستجد فى فزان ذهبًا وسلاحًا بكميات كثيرة؛ لأن الإيطاليين قد تركوا منهما الكثير هناك، ولا تنس أنك محارب وأنك ذاهب إلى حرب مقدَّسة للجهاد فى سبيل الله»[١].

وقام الأتراك بمهاجمة الجفرة التى كان بها عبد الجليل سيف النصر، وكان يتولى قيادة هذه الحملة الضابط التركى برتو توفيق، وعبد النبى بالخير، وتكونت الحملة من قسم كبير من مسلحى مصراته وزليطن برئاسة شرف الدين العمامى الزليطنى والحاج محمد الروياتى المصراتى، وكان غرض القيادة التركية: توسيع نفوذها فى تلك الجهات والقضاء على شوكة السنوسية وتأمين المواصلات بين طرابلس وفزان، ووصلت الحملة إلى الجفرة، وتمكنت من طرد الأهالى (أولاد سليمان، والقذاذفة، بعض المغاربة)[٢] واضطر السنوسيون لجمع قوة مسلَّحة كبيرة من أنصارهم فى النوفلية، وذلك فى منتصف شهر نوفمبر من سنة (١٩١٧م)، وشنوا هجومًا معاكسًا ضد الأتراك وأعوانهم فى سوكنة، واستطاعوا تحقيق نصر كبير عليهم، وطردوا القوات التركية الطرابلسية فى الجفرة بعد أن خسرت الكثير، وأسرت القوات السنوسية القائمام التركى برتو توفيق، وقامت بشنقه[٣].

لقد كانت مواقف الأتراك من الحركة السنوسية مشجعة لمحمد إدريس على ضرورة المفاوضة مع الإنجليز لا لتدارك المجاعة المهلكة فحسب، بل للقضاء على الأتراك الذين سعوا للقضاء على نفوذ السنوسية وإقصائهم من ليبيا وتمكين القيادات الطرابلسية الموالية لهم فى البلاد.

إن محمد إدريس فقد الثقة فى الأتراك وعمل على إفشال أهدافهم وأرسل إلى ابن عمه أحمد الشريف رسالة يبين له غدر الأتراك به على حد زعمه، كانت الرسالة بتاريخ (٢٦ من ربيع الأول عام ١٣٣٥هـ الموافق ٢ من يناير ١٩١٧م) تساءل فيها إدريس عن ثمرة وعود الأتراك المتكررة عندما أرسل هؤلاء البارونى ممثلاً لجلالة السلطان فى طرابلس، وأعطوه أسلحة وذخيرة، وزودوه بمنشورات كثيرة مقدار ما يملأ الدنيا منها، بينما أنتم -مخاطبًا السيد أحمد- تُجاهدون من أجلهم، وهم لا يكتفون بعدم الاهتمام بكم، بل يغدرونكم بإرسال خائن إلى بلادكم ويبذلون له كل مساعدة فى الوقت الذى يتحدث فيه -فقط وقبل كل شىء- عن طرابلس ولا يذكر السنوسية بكلمة واحدة. وفضلاً عن ذلك فإن السيد أحمد -على حد ما جاء فى الرسالة- كان يقول دائمًا: إن أنور أخبره بأن السلطان أصدر فرمانًا بتعيينه نائبًا عن الخليفة فى أفريقيا، ولكن ما قيمة هذا

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص١١٨).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (١٢٠).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٢٣).

الكلام إذا كانت الأقوال تختلف عن الأفعال؟ فإلى متى يجب علينا نحن وأتباعنا أن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه الوعود الباطلة الكثيرة التى سوف تنتهى من غير شك بنتيجة واحدة هى القضاء علينا وعلى أوطاننا؟ ويا لها من كوارث عظيمة تلك التى نزلت بأهل هذا الوطن[١].

ومن الأسباب التى جعلت محمد إدريس يتقارب مع الإنجليز: قناعته بأن نهوضه ببرقة لابد له من دعم خارجى؛ مادى ومعنوى، ورأى -ببعد نظره السياسى- أن الحرب العالمية سينتصر فيها الحلفاء، ولذلك حرص على التَّقرب من بريطانيا، صاحبة التَّفوق فى منطقة الشرق، ولذلك سعى إليها لتقليل الخسائر، والمحافظة على كيان السنوسية الذى تعمل تركيا على تحطيمه فى البلاد فى تلك المرحلة.

لقد حرص محمد إدريس على التَّقليل من الخسائر إلى أقصى حد، واتخذ قراراً بالانسحاب من الحرب ضد إيطاليا وبريطانيا، ووافقه زعماء القبائل التَّابعون للحركة السنوسية على ذلك.



(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص١٩١).

المبحث الثاني

موقف الإسلام من المعاهدات مع العدو

قال الإمام الشافعي، في هذا الصَّدد ما يلي: «إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين، أو طائفة منهم لبعد دارهم، أو كثرة عددهم، أو خلة بالمسلمين، أو بمن يليهم منهم.. جاز لهم الكف عنهم، ومهادنتهم على غير شيء يأخذونه من المشركين. ثم يقول: فأحب الإمام، إذا نزلت بالمسلمين نازلة -وأرجو ألا ينزلها الله عزَّ وجل بهم، إن شاء الله تعالى- مهادنة يكون النظر لهم فيها، ولا يُهادنون إلاَّ إلى مدَّة، ولا يُجاوز بالمدّة أهل الحديبية، كانت النَّازلة ما كانت. فإن كانت بالمسلمين قوَّة قاتلوا المشركين بعد انقضاء المدة، فإن لم يَقوَ الإمام فلا بأس أن يُجدد مدَّة مثلها أو دونها...»[1].

وقال في «المهذب» -بصدد ما نحن فيه-: «لا يجوز عقد الهدنة لإقليم أو صقع عظيم إلا للإمام، أو لمن فوَّض إليه الإمام، فإن كان الإمام مستظهرًا[2] نظرت: فإن لم يكن في الهدنة مصلحة لم يجز عقدها لقوله عزَّ وجل: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتُمُ الأعلَونَ واللهُ معكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وإن كان فيها مصلحة بأن يرجو إسلامهم، أو بذل الجزية، أو معاونتهم على قتال غيرهم جاز أن يهادن. ثم يقول: وإن كان الإمام غير مستظهر بأن كان في المسلمين ضعف وقلَّة، وفي المشركين قوَّة وكثرة، أو كان الإمام مستظهرًا بأن كان في المسلمين ضعف وقلَّة، وفي المشركين قوَّة وكثرة، أو كان الإمام مستظهرًا لكن العدو على بعد ويحتاج في قصدهم إلى مئونة مجحفة، جاز عقد الهدنة إلى مدة تدعو إليها الحاجة، وأكثرها عشر سنوات، لأن رسول الله ﷺ هادن قريشًا في الحديبية عشر سنين...»[3].

يُفهم مما تقدَّم أن مصلحة الإسلام والمسلمين هي المحور الذي ينبغي أن يدور عليه عقد المعاهدات مع العدو، وهذه المصلحة يرجع تقديرها إلى خليفة المسلمين، أو من يفوَّض في هذه المسألة.

(١) انظر: المغني، لابن قدامة (١٠/ ٢٥٩).
(٢) مستظهرًا: غالبًا.
(٣) المهذب للشيرازي (٢/ ٢٥٩- ٢٦٠)، هذا والجمهور على عدم تقييد المعاهدة بعشر سنوات، بل يرجع تقييدها إلى المصلحة سواء زادت على عشر سنين أو نقصت عنها.

ففى عصرنا اليوم، وقد تخلَّف المسلمون عن غيرهم من الشعوب والدول المتقدمة فى مجالات العلم والصناعات والأجهزة والمعدات العسكرية . . . وما إلى ذلك، قد يكون من المصلحة عقد المعاهدات مع بعض تلك الدول، بحيث تُؤدى إلى نقل ما تمتلكه فى هذه المجالات إلى بلاد المسلمين، مما تتحقق معه المنفعة التى تربو على ما يُمكن أن ينشأ عن تلك المعاهدات من بعض المفاسد.

كما أننا فى هذا العصر، حين نجد الدول الاستعمارية، وهى تبحث عن أية ذريعة تُسوِّغ لها -فى نظر العالم- أعمالها العدوانية ضد المسلمين، وتتحيَّن أيَّة فرصة مناسبة للسيطرة على ثرواتهم، وتمزيق شملهم، وتدمير منشآتهم الحيويَّة . . . حين نجد الدول الاستعمارية على هذه الحال، فإنَّ مصلحة الإسلام والمسلمين تحتم على المسئولين أن يتجنبوا كل ما من شأنه أن يجعل تلك الدول الظَّالمة تكشف لهم عن مخالبها، أو تكشر عن أنيابها، وعليهم فى مثل هذه الأحوال أن يعقدوا مع العدو من المعاهدات المشروعة ما يكون نفعه أكبر من ضرره بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين، ومن أجل قطع الطَّريق على مخاطر أكبر ومفاسد أعظم. هذا، مع وجوب السَّعى -فى الوقت نفسه- إلى المعالجة الجادَّة لواقع الوهن والهوان والخزى الذى يعيشه المسلمون بسبب ما هم عليه من عداوات وتمزق، وتجزئة، وتخلف(١).

إن هذا المدخل يُساعدنا على الإنصاف والحكم بالعدل عندما ندخل فى دراسة المفاوضات التى مارسها محمد إدريس مع بريطانيا وإيطاليا، أو التى قام بها زعماء طرابلس بعد إعلان الجمهورية الطرابلسية مع إيطاليا، ويعطى الأجيال نوعًا من الفقه المتعلق بالعلاقات الدوليَّة فى الإسلام، ويجعلها تهتم بقضية المعادلة الدولية وعدم إغفالها أثناء سعيها الدءوب لتحكيم الإسلام فى دنيا الناس، وواقع الحياة.

أولاً: الدخول فى المفاوضات بين محمد إدريس وبريطانيا وإيطاليا:

كانت السياسة الإنجليزية فى مصر ترى أن محمد إدريس أقرب إليها من أحمد الشريف، ووصف الوفد الإدريسى الذى بعث به الإنجليز إلى برقة قبيل نشوب الحرب الليبيَّة- الإنجليزيَّة على حدود مصر الغربية إدريس: «بأنه أكثر اعتدالاً وأشد حزمًا، وأنه من أشد المعارضين لغزو حدود مصر الغربية والاشتباك فى حرب مع الإنجليز؛ لما تنطوى عليه من أخطار، وأنه غادر المسيعيد إلى جهة الجبل الأخضر احتجاجًا على سياسة السيد أحمد الشريف المائلة إلى الترك والألمان والتَّساهل معهم. . .»، وعلى ضوء تلك المعلومات أذن الحكام فى مصر للوفد بأن

(١) انظر: الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية، محمد خير هيكل (٣/ ١٤٨١ و١٤٨٣).

يُكاتب إدريس بغية الوصول إلى اتفاق معه(١)، والاستفادة من العلاقات القائمة التى كانت تربط الأسرة الإدريسية بمصر بالبيت السنوسى؛ لكونها من أبناء وأحفاد أحمد بن إدريس الذى كان شيخًا ومعلمًا للسيد السنوسى الكبير فى مكة(٢).

واستمرت المراسلات بين أبناء البيت الإدريسى، ومحمد إدريس السنوسى، وانتهت إلى الوصول لاتفاق يقضى بسفر وفد إنجليزى وإيطالى إلى إجدابية لعقد صلح بين الأطراف الثلاثة ينهى الخلافات بينهم(٣).

وقد أبلغ الإنجليز إدريس بصفة رسميَّة أنهم لن يشرعوا فى دخول مفاوضات معه؛ لأجل الصلح إلا شريطة قبوله فتح باب المفاوضة مع حليفتها إيطاليا، وقد وصل فى أواخر (١٩١٦م) إلى الزويتينة وفد من لإنجليز والإيطاليين، ومعهم من المصريين: أحمد محمد حسنين أفندى، ومحمد الشريف الإدريسى وابنه محمد المرغنى، وكانوا جميعًا ضمن الوفد الإنجليزى، إضافة إلى الكولونيل تالبوت الذى له دراية كبيرة بشئون الشمال الأفريقى، والضَّابط اللفتنت هسلم.

كان الوفد الإنجليزى قد جاء بطريق البحر من القاهرة إلى بنغازى للاجتماع بالوفد الإيطالى الذى كان مكونًا من الكولونيل بيلا، والكوماندانور بياجتنينى ومترجمهم. ولم يطل الوفد الإقامة فى بنغازى، بل سافر إلى الزويتينة بيخت خاص، فوافاهم إليها إدريس من إجدابية، وكان من بين من معه: على باشا العابدية(٤).

بدأت المفاوضات بين الأطراف الثلاثة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر سنة (١٩١٦م)(٥)، وكان الوفاق والتفاهم فيما بين الجانبين الإنجليزى والسنوسى، أما العلاقات الإيطالية فقد كانت مُغايرة لذلك تمامًا.

وكان أول طلب للإيطاليين هو موضوع الأسرى الإيطاليين، يقول برتشارد: «... لكن إدريس لم يكن ينوى تسليمهم بدون واحدة بواحدة، فاتبع تكتيكه المعتاد فى المماطلة، لقد توسَّل بأن عليه أن ينال موافقة أحمد الشريف أولاً؛ لأن الأخير هو الذى أسرهم. أمَّا من جهته فليس بوسعه أن يصدر أوامره فيما يصدر ابن عمه أوامر مناقضة لها...»(٦).

(١) انظر: الدولة العربية المتحدة، أمين السعيد (ص ٣١، ٣٢).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٢٦).
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٣٠).
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٣٢).
(٥) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٣٣).
(٦) السنوسيون فى برقة، ترجمة عمر الديراوى أبو حجلة، (ص ٢٣٢).

وقد أجِّل بحث هذه النقطة إلى فترة أخرى قريبة، ثم قدَّم الوفد الإيطالى بقية شروطه للوصول للصلح مع السنوسيين، وقد تمثَّلت الشروط فى الآتى:

١- أن يعترف إدريس بالسيادة الإيطالية على كل برقة من منطقة «بنغازى» إلى «الكفرة».

٢- أن يسلم المجاهدون أسلحتهم فلا يبقى لديهم سوى ما يكفى للمحافظة على أنفسهم.

٣- إحلال السلام مع وقف العمليات الحربية بين الجانبين.

٤- اعتراف إيطاليا بالسنوسية زعامة وطريقة.

٥- منح «الكفرة» -مقر السنوسيين- استقلالاً إداريًا.

٦- تتعهد إيطاليا بقيام المحاكم الإسلاميَّة الشَّرعية.

٧- تتعهد إيطاليا بالعمل على تحسين الأحوال الصحية فى البلاد، وإنشاء المستشفيات والمدارس.

إنَّ شرط الإيطاليين الخاص بمسألة اعتراف السنويين بالسيادة الإيطالية فى برقة كان مهددًا بفشل المفاوضات بصفة عامة، لذا فقد تأجَّل النَّظر فى هذه المسألة من الجانب السنوسى، إلا أن الإيطاليين قد تمسَّكوا بهذا البند كثيرًا، وكأن المفاوضات كانت من أجله فقط.

وتقدم محمد إدريس بوجهة نظره فى هذه المفاوضات، وتتلخَّص أهم شروطه فى الآتى:

١- وجوب الاعتراف من قِبل إيطاليا باستقلال السنوسيين.

٢- الاعتراف بشخص إدريس السنوسى أميرًا على برقة.

٣- وضع حدود بين الأراضى الخاضعة لكل من الطَّرفين (السنوسى والإيطالى) فكل طرف يحتفظ بما تحت يديه من أراضٍ تُحدد بخرائط واضحة مع عدم التَّعدى على أراضى الطَّرف الآخر.

٤- الإسراع بفتح الطرق التجارية وضمان سلامتها.

لقد كان محمد إدريس يُدرك جيدًا أنَّ الاتفاق مع إيطاليا كان بالنسبة له ضرورة ملحَّة لا مفرَّ منها، لكنه اتَّضح بدون شك أن الاتفاق فى صالح الإيطاليين أكثر مما هو فى صالحه[1].

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (ص ١٣٦).

يقول الكاتب الإيطالى فبريتر بوسيرا: «. . . لقد ساد جو المفاوضات بعض التَّذمر نتيجة لأسباب نشأت بالمناسبة أثارت اشمئزاز إدريس ونفوره، خاصة أنَّ الظروف التى نشأت كانت تتعارض مع الأهداف التى كان إدريس يسعى إلى تحقيقها . . . ويُضيف قائلاً: إنَّ المفاوضين الإيطاليين رأوا أنَّه ليس هناك لزوم لاتباع محادثات الخطوة خطوة وذلك بالنَّظر إلى عدم التَّأكد من إحراز أية نتيجة تُذكر، كما أنَّ طريقة التصرف فى الأمور وما لازمها من حنق وغيظ، إلى جانب مجاراة الزَّمن دون فائدة، كل ذلك كان له أثره الفعَّال لدرجة انعدمت معها تلك الآمال فى الوصول إلى النتيجة التى كان يحبذها، ويرغبها إدريس. . .»[(١)].

واستمرت هذه المفاوضات قرابة شهرين أو يزيد وانتهت بالاتفاق على بعض الأمور بين الطرفين تقوم على الأسس الآتية:

١- تنتهى حالة الحرب بين السنوسيين والإيطاليين ويُنادى بالسلام.

٢- يعترف الإيطاليون باستقلال السنوسيين داخل برقة.

٣- يبقى الإيطاليون فى الساحل ويحتفظون بما فى حوزتهم من الأراضى الساحلية.

٤- تحديد مناطق النفوذ بين أراضى الطرفين.

٥- تفتح الطرق التجارية وتعود البلاد إلى حالة السلم، ويكون الدخول والخروج بتصاريح.

٦- يعترف الإيطاليون بإدريس زعيمًا للطريقة السنوسية فى برقة.

وقبل أن تتفرق الوفود جرى تحديد أراضى الفريقين على الورق (خريطة) واحتفظ كل وفد بخريطة للاعتماد عليها عند الحاجة[(٢)].

إلا أنَّ الحكومة فى روما نقضت هذا الاتفاق، واعتبرت شروطه مذلَّة فنقضتها على أساس أن مفاوضيها لم يكونوا يملكون الصلاحيات لتوقيعها[(٣)].

وأصدر والى برقة (چيوفانى أميليد)[(٤)] أمرًا بقطع المفاوضات، وتم له ما أراد وأخفقت مفاوضات الزويتينة.

---

(١) انظر: إيطاليا والسنوسية، ترجمة محمد السيد أبو مدين (ص ٩٠)، وما بعدها.
(٢) انظر: إيطاليا والسنوسية، ترجمة محمد السيد أبو مدين، (ص ٩٠)، وما بعدها.
(٣) انظر: الدولة العربية المتحدة، (ص ٣٨).
(٤) انظر: السنوسية فى برقة، إيفانز برتشارد، (ص ٢٣٢).

أما الوفد الإنجليزى فقد كانت مهمته يسيرة؛ فلم تكن هناك أية صعوبة فى الوصول إلى اتفاق مع السنوسيين، ولكن الصعوبة تكمن فى إصرار الكولونيل تالبوت -رئيس الوفد- على عدم التَّوقيع على أى اتفاق مع السنوسيين قبل أن ينتهى إدريس من الاتفاق مع الإيطاليين، ويتم التَّوقيع من الطرفين على هذا الاتفاق(١).

ويذكر عزَّام: «... إنَّ الوفد الإنجليزى كان قد طلب إلى إدريس السنوسى المبادرة بالقبض على المتطوعين المصريين، والعمل على تسليمهم إلى السلطات الإنجليزية فى السلوم، ولكن إدريس رفض ذلك...»(٢).

كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت محمَّد إدريس وقوَّت موقفه فى المفاوضات، فمن أهمها:

١- عدم وجود منافس قوى له فى برقة، فالغالبية تنضوى تحت زعامته وخاصة بعد فشل حملة أحمد الشريف ضد الإنجليز فى مصر، بما فى ذلك قادة المجاهدين وضباطهم وشيوخ ورؤساء الزوايا الدينية، مثل: إبراهيم المصراتى، خالد الحمرى، عمر المختار، موسى بولامين الحمرى، الفالح محمد الدرسى، الشَّارف الغريانى، محمد بو مليحة العبيدى، السنوسى الغزالى، محمد أبو الشويخ، عيَّاد بالقاسم البرعصى، شعيب الخدة، حمد أبو جالى العبيدى، عمر منصور الكخيا، وغيرهم كثيرون.

٢- استمرار الحرب العالمية الأولى وانشغال الجميع بها ورغبة الجميع فى عدم فتح جبهات قتالية جديدة تكلفهم المزيد، أفاد إدريس وعزَّز مركزه فى المساومة.

٣- وجود ضباط أتراك وألمان فى برقة يدعم موقف إدريس وهذا ما يُخيف بريطانيا وإيطاليا ويجعلهما تعملان على إنجاح التَّفاوض وإنهاء المشكلة بسرعة خوفًا من تغير موقفه.

٤- شجَّعت سياسة بريطانيا فى الشَّرق -المتمثلة فى تشجيع العرب وحصولهم على استقلالهم، وتكوين دول وإمارات مستقلَّة- محمد إدريس على المطالبة بتكوين إمارة مستقلَّة فى برقة لا تخضع للإيطاليين، وهو بهذا يكون مطالبًا بحقوق إمارة له مثلما حدث فى الحجاز (ثورة الشريف حسين)، وفى عسير (إمارة الأدارسة) وخصوصًا أن بريطانيا كانت قد شجعت كل المناهضين والثَّائرين ضد الحكم العثمانى واعدة إيَّاهم بالحصول على استقلالهم وسيادتهم.

وفى أوائل سنة (١٩١٧م) تمت اتصالا جديدة بين الإنجليز والإيطاليين والسنوسيين، وقد لعب محمد الشريف الإدريسى وابنه المرغنى دورًا مهمًا فى إنجاح هذه الاتصالات وموافقه جميع الأطراف على تجديد المفاوضات.

(١) أحد القادة العسكريين الإيطاليين الكبار.
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (١٣٨).

وتألَّف الوفد الإنجليزى هذه المرة من: الكولونيل تالبوت رئيسًا، والضابط رود ابن السفير الإنجليزى بروما[١]، وأحمد محمد حسنين. أما الوفد الإيطالى فكان مكونًا من الكولونيل أرتورى برنتو رئيسًا للوفد[٢]، والكولونيل دى فيا وتراجمهما، وكان الوفدان الإنجليزى والإيطالى يُقيمان فى مدينة طبرق. أما إدريس ومستشاروه[٣] وأعوانه فقد أقاموا فى منطقة عكرمة، وبدأت المفاوضات مع بداية العام الجديد، ورغم أنها اتَّسمت بطابع الحذر والحيطة إلا أن جهودًا ومساعىَ قد بُذلت فيما يبدو لإنجاحها والوصول إلى حلول يقبلها الجميع، وتقدَّم الوفد الإيطالى بمذكرة رقم (١) توضح وجهة نظره متمثلة فى النقاط التالية:

١- حل المعسكرات السنوسية وتسريح حامياتها.

٢- يتم نزع السلاح من رجال القبائل بصورة تدريجية فى فترة زمنية قُدرت بسنة واحدة.

٣- للحكومة الإيطالية تعيين شيوخ الزوايا الدينية التى تقع فى مناطقها وذلك بمشورة إدريس.

إلا أن الوفد السنوسى لم يقبل كل ما جاء فى المذكرة الإيطالية، وتقدم باقتراحاته فى المذكرة رقم (٢) وقد جاء فيها ما يلى:

١- يقوم الإيطاليون بتنفيذ جميع طلبات الوفد السنوسى التى قدمها أثناء مفاوضات الزويتينة العام الماضى (١٩١٦م).

٢- يُرجأ البحث فى نقاط المذكرة الإيطالية رقم (٢) إلى مباحثات تتم فى المستقبل[٤].

إلا أن الإيطاليين تقدموا بحلول جديدة قدموها فى مذكرة جديدة رقم (٣) وتنازل الوفد الإيطالى فيها عن بعض شروطه وتساهل فى قبول بعض شروط إدريس حتَّى أن ريتشارد يقول: «... إنَّ الحل رقم (٣) أعطى إدريس جميع مطالبه تقريبًا»[٥]، وتقدم إدريس بمذكرة جديدة رقم (٤).

لقد طالت مدة المفاوضات، فاستغرقت الفترة ما بين شهر يناير إلى منتصف أبريل تقريبًا، والجلسات معقودة والحوار مستمر، وكان لضغوط الإنجليز أثر على الطرفين الإيطالى والسنوسى حتَّى تمَّ التوصل إلى اتفاق ارتضاه الجميع، وكانت بنوده تتمثل فى الآتى:

١- إيقاف العلميات الحربية بين الطرفين ابتداء من تاريخ هذه المعاهدة.

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ١٩٦).
(٢)، (٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص ١٤٣).
(٤)، (٥) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص ١٤٥).

٢- يقف الإيطاليون عند النقط التى كانوا يحتلونها فى شهر أبريل سنة (١٩١٧م) ويتعهدون بألا يعملوا على إقامة وتجديد مراكز عسكرية مستقبلاً، على أن يكون هذا الشرط مقيداً للسنوسيين أيضاً(١).

٣- لا يحق لأى من الطرفين نهب أو اغتصاب أو أخذ ممتلكات الطرف الآخر.

٤- يعتبر كل من الطرفين مسئولاً عن الأمن والسلام فى المنطقة التى تخضع لنفوذه.

٥- يُسمح لجميع التجار والعاملين بالتجارة بحريّة الارتحال والمتاجرة مع الدواخل فى (طبرق- درنة- بنغازى) على أن تشمل حريّة التجارة بقيَّة الموانئ مستقبلاً.

٦- بقاء جميع الزوايا السنوسية التى سيطر عليها الإيطاليون سابقًا تحت النفوذ السنوسى.

٧- تعفى جميع الزوايا السنوسية وممتلكاتها من الرسوم والضرائب.

٨- تدفع الحكومة الإيطالية مرتبات لمشايخ الزوايا الواقعة ضمن مناطق نفوذها على أن يقوم هؤلاء بدور الوسيط بين السلطات الإيطالية وأهل البلاد حين الحاجة(٢).

٩- يطبق على السكان الليبيين القاطنين فى مناطق النفوذ الإيطالى قانون الأحوال الشخصية الإسلامى(٣).

١٠- تدريس القرآن الكريم وأصول الدين فى المدارس والمساجد الليبية الواقعة ضمن مناطق النفوذ السنوسى.

١١- تعفى البضائع المستوردة للسنوسيين وطلابهم من الجمارك عدا تجارة السلاح.

١٢- تقدم إيطاليا المعونة المالية وتسمح بتوصيل الأدوار بأقرب المراكز الإيطالية بالهاتف لتسهيل الاتصال وتبادل الرأى(٤).

١٣- يقوم محمد إدريس بإبعاد كل من يكدر العلاقات بينه وبين الإيطاليين.

١٤- يؤجل النظر فى مرتبات العائلة السنوسية.

١٥- يلزم الاتفاق استعجالاً ويتفق على الإصلاح وإطفاء الفتن(٥).

(١) انظر: ليبيا فى العصور الحديثة، نقولا زيادة (ص ٩٠).
(٢) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، نقولا زيادة، (ص ٩٢).
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص ١٤٦).
(٤) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطى (ص ٨٣).
(٥) انظر: قضية ليبيا، (ص ٨٣).

وإضافة إلى هذه البنود، فقد تم مسبقًا الاتفاق على نقطتين هما: تبادل الأسرى، وإعادة فتح الأسواق.

أمَّا الاتفاق السنوسى الإنجليزى فقد تم التوصل فيه إلى النقاط الآتية:

١- فتح طرق التجارة عند السلوم واتخاذ ميناء السلوم مركزًا للتبادل التجارى، على أن يكون طريق الإسكندرية -السلوم الطريق الوحيد الذى تمر منه السلع إلى برقة.

٢- تسليم الضباط الأتراك وغيرهم من أعداء بريطانيا إذا وقعوا تحت قبضة إدريس مستقبلاً إلى الإنجليز.

٣- خروج جميع المسلحين التابعين للسنوسية وأعوانها من كل الأراضى المصرية.

٤- عدم قيام أية تجمعات عسكرية أو مدنية مسلحة قرب الحدود المصرية الليبية.

٥- صيانة أموال السنوسية فى مصر.

٦- تسمح السلطات البريطانية فى مصر بجمع المعلومات المادية من أنصار الطريقة السنوسية ومؤيديها.

٧- تخضع واحة الجغبوب إلى إدارة وإشراف السنوسيين.

٨- يكف السنوسيون عن إنشاء زوايا دينية لهم داخل الأراضى المصرية.

٩- إبعاد المفسدين والعابثين بالأمن ومحدثى الشغب والقلاقل من مناطق الحدود بين البلدين.

١٠- إطلاق سراح المعتقلين فى مصر من أتباع السيد أحمد الشريف[(١)].

١١- تسليم جميع المعتقلين الرعايا البريطانيين والمصريين التابعين لدول الحلفاء إلى الحكومة البريطانية فى مصر.

وقبل أن تنتهى المفاوضات بين الأطراف المذكورة فى عكرمة طلب اللواء تالبوت -رئيس الوفد الإنجليزى- ومحافظ الصحراء الغربية من إدريس السنوسى ألا يُبقى رجالاً مسلحين فى واحة الجغبوب، وقد رد محمد إدريس على هذا الطلب ردًا سياسًا دبلوماسيًا بكتاب مؤرخ فى يوم (١٠ من أبريل ١٩١٧م) جاء فيه ما يلى:

---

(١) انظر: قضية ليبيا: (ص ٨١).

« . . . إن الجغبوب واقعة فى مكان سحيق فى الصحراء وهى موصلة لعدَّة طرق مع مصر ومع الجهات الغربية، والآن بما أن مهمتى حفظ النظام ومنع الدسائس فى مصر، وقطع دابر السرقات والتهريب، فلا بد أن يكون لدىّ لهذا الغرض قوَّة يخشى النَّاس بأسها . . . »[١].

واستطرد إدريس واصفًا حالة العرب فى الصحراء ووجوب المحافظة على الأمن فيها إلى أن قال: « . . . هذه هى الأسباب التى تضطرنى لطلب السماح لوجود رجال مسلحين فى الجغبوب»[٢].

يرى بعض المؤرخين[٣] أن معاهدة عكرمة فى طبرق كانت خير وسيلة لتحقيق السلم وصون العرب المجاهدين فى برقة، كما أنه أتيحت فرصة لمحمد إدريس لتنظيم القبائل تنظيمًا من شأنه أن يجمع الكلمة ويقضى على بذور الفتن والاضطراب. كما ساعد ذلك الاتفاق على تأييد نفوذ محمد إدريس حتَّى بدأ الأهالى من ذلك الحين يلقبون محمد إدريس (بالمنقذ). وكان من أهداف الطليان من إبرام اتفاق عكرمة. تمكينهم من أن يتَّصلوا مباشرة بالأهلين، وأن يمدوا نفوذهم فى داخل البلاد عن طريق هذا الاتصال المباشر، وهذا ما كان السيد إدريس يدركه حق الإدراك ويعمل من جانبه على تعطيله ومقاومته. وتركَّزت جهود محمد إدريس فى أمرين مهمين بعد تلك المعاهدة:

أولاً: إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة التى تحفظ مصالح البلاد، وتتولى زعامة القبائل فى برقة، وتطالب بكل حقوقهم.

ثانيًا: مقاومة نفوذ الطليان، ومنع اتصالهم بالعرب بكل الوسائل فى داخل البلاد[٤].

واستطاع محمد إدريس أن يقيم حكومة وطنية فعلية عاصمتها إجدابية عام (١٩١٧م).

ثانيًا: إجدابية عاصمة الحكومة الوطنية:

اتَّخذ محمد إدريس إجدابية مركزًا لقيادته، وذلك لعدَّة أسباب نُجملها فيما يلى:

١ - تتمتع إجدابية بموقع استراتيجى مهم؛ لأنها تملك حماية محدودة من البحر وابتعادها عنه نسبيًا، ثم إنَّ لها ميناءً صغيرًا تصلها به عن طريق «الزويتينة» كل الاحتياجات. كما أنها كانت قريبة من مرسى البريقة البحرى الذى كانت تصل إليه بعض الأحيان الغواصات الألمانية قادمة من تركيا باحتياجات المجاهدين.

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، (١٤٩).
(٢) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة (ص ١٨٦).
(٣) منهم: دكتور/ محمد فؤاد شكرى.
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٠٥).

٢- وقوعها فى منتصف قاعدة مثلث رأسه فى«الكفرة» وقاعدته النوفلية والجبل الأخضر، كما أنَّها تمثل الامتداد الطبيعى لواحات جالو وأوجلة، جخرة، و«الكفرة»، وهذا يعطيها بعداً استراتيجيًا مهمًا.

٣- كونها من أهم المناطق فى تجارة القوافل سواء بين طرابلس وبرقة، أو بين الواحات الجنوبية والساحل، أو بين تشاد وبرقة وغير ذلك من الخطوط التجارية.

٤- قربها من طرابلس زاد من أهميتها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، فكان لها دور مهم فى مختلف الأنشطة التجارية والحربية.

٥- كانت موطنًا لمعظم القبائل التى كانت تؤيد الحركة السنوسية.

٦- كان الترتيب الإدارى الذى وضعه أحمد الشريف أثناء غيابه عن برقة خلال الهجوم على مصر، يقضى بأن يكون إدريس مسئولاً فى برقة البيضاء، ويكون مركزه فى إجدابية.

لهذه الأسباب وغيرها اتخذها محمد إدريس عاصمة لإمارته الجديدة، ومقر رئاسة حكومته، ونظم بها دواوين الحكومة السنوسية، وقسّم الإدارات ونظّم ورتّب الجيش، وشمل نفوذ هذه الحكومة جميع أراضى برقة من الحدود المصرية الليبية شرقًا إلى قصر سرت غربًا، ما عدا المنطقة الساحلية التى كانت خاضعة للسيادة الإيطالية(١).

إنَّ الاتفاق الذى أجراه السيد محمد إدريس سواء مع الطليان أو الإنجليز لا يحمل بأى شكل من الأشكال استسلامًا أو قبولاً بالأمر الواقع، وإنما هى مرحلة مؤقتة هدفها البلاد وتوحيد الصفوف وتقويتها، فأثبت بعمله ذلك حرص الحركة السنوسية على صيانة البلاد وحمايتها، وما اتفاق عكرمة بطبرق الذى عقد فى السادس من أبريل سنة (١٩١٧م)، إلا حل قصد منه تهدئة خواطر الأهالى وتبعه اتفاق الرجمة الذى اعترفت فيه إيطاليا بإمارة محمد إدريس، وقد قصدت إيطاليا من ذلك تجزئة البلاد . إلا أنَّ زعماء ليبيا فى غربها بددوا آمالها وأفشلوا مساعيها حينما عقدوا مؤتمر غريان فى (نوفمبر ١٩٢١م)، وأقروا تعيين محمد إدريس أميرًا على البلاد، فأرسلوا البيعة له فى (سبتمبر سنة ١٩٢٢م)، فحققوا بذلك الوحدة الوطنية للبلاد، ووضعوا محمد إدريس أمام مسئولية عظيمة تتطلب منه تولى زمام الأمور والسير بالبلاد إلى حريتها واستقلالها. لقد أصبحت مسئولية محمد إدريس بعد تلك البيعة التاريخية ليست برقة فقط-كما أرادت إيطاليا- وإنما ليبيا بقطريها الطرابلسى، والبرقاوى. وإن إمارته ليست منحة إيطالية، وإنما هى رغبة شعبية وإرادة جماهيرية، وضرورة شرعيَّة.

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (١١١).

وقد جاء فى رده على كتاب البيعة ما يلى: «. . . وبعدُ فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التى أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة فى تحقيق غايتكم التى أجمعتم عليها فى مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهاداً صادقًا بالأنفس والثمرات فى شخصى، فأخذتها داعيًا الله أن يحقق آمال هذه الأمة، ويكلل مساعيها كلها بنجاح. ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التى طالما سعيت إليها، وجدت من واجبى أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن أتحمل المسئولية العظمى التى رأت الأمة تكليفى بها. فعلىَّ إذن أن أعمل بجد معكم، ولكن لا تنسوا أننى بغير إقدامكم لا قدرة لى على شىء. إنى أعلم أن الحياة الخالدة هى للأمم لا للأفراد، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هى التى تنصرف إلى صالح الجميع، فلذلك أدعو سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمَّة.

إنَّ من حقِّ كل شعب أن يُسيطر على شئونه، والناس -منذ نشأوا- أحرار، وقد أظهر شعبنا فى كل أدواره مقدار محبَّته للحرية، فدفع مهوراً غالية، فلا يصح لأحد أن يطمع فى استبعاده والاستبداد بشئونه. لقد اشترطتم علىَّ الشورى، وهى أساس ديننا، وسأعمل على قاعدتها. . .»[1].

لقد تأثَّرت البلاد فى بداية الحرب العالمية الأولى وانقسمت إلى معسكرين؛ زعماء الغرب (سلمان البارونى، رمضان السويحلى، و. . .) وكذلك أحمد الشريف السنوسى وقفوا مع تركيا وألمانيا، وأما محمد إدريس فهادن الإنجليز، وبعد هزيمة تركيا وألمانيا، تغيّرت موازين القوى، وآل أمر طرابلس الغرب إلى فكرة الجمهورية الطرابلسية، ثم انتهى بها المطاف إلى مبايعة محمد إدريس، وهذا ما سوف نتعرَّف عليه عندما نشرع فى دراسة الجمهورية الطرابليسية بإذن الله تعالى.

قام محمد إدريس بوضع نواة لجيش نظامى، واجتهد فى تسوية الخلافات بين بعض القبائل، وتمكَّن من القضاء على عناصر السلب والنَّهب والقتل من أفراد العصابات الذين أطلقوا على أنفسهم حكومة الصلب، وكانت تتواجد بين الأبيار وتاكنس، وذلك باتباع سياسة حازمة ورادعة، وقام ببعض التنقلات، والإجراءات الإدارية، ففرَّغ ابن عمه صفى الدين بعد رجوعه من الجهات الغربية (سرت) لفض النزاعات القبلية فى برقة، وكلَّف وكيله الشارف الغريان لتسلم الأسلحة والذخائر من الإيطاليين، وذلك لإنشاء مراكز أمنية فى الحدود مع سلامة تأمين هذه المراكز[2].

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٦٢، ٢٧١).
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا (ص ١١٢).

وقسّم برقة إلى منطقتين مقاطعتين، فكانت المنطقة الغربية يرأس إدارتها نائب مقر إجدابية ويُقال عنه «نائب المنطقة الغربية»، وكانت المنطقة الشرقيَّة يرأسها آخر بنفس اللقب ومقره (الأبيار»، وقد تولَّى منصب هاتين المنطقتين خيرة رجال السنوسية(١) .

وقام محمد إدريس بتشكيل مجلسين : أحدهما يضم كبار العلماء والإخوان، ويُقال عنه : المجلس الخاص، وله السلطة التشريعية والتنفيذية . وأما المجلس الثانى فكان أعضاؤه من شيوخ وأعيان القبائل، ويُقال له : مجلس الأعيان، والمجلسان بمثابة البرلمان فى بادئ الأمر . وقبل أن يكون مجلس النواب فى بنغازى وإجدابية وأصفى قسمًا من الجيش النظامى يُقال عنه جيش المعية وهذا مهمته حراسة القصر الأميرى ومنه قسم لا يُفارق الأمير محمد إدريس فى تجولاته الداخلية، وقد أصبحت منطق العقيلة والبريقة للمعسكرات الاحتياطية وللتدريب، وتضم هذه المعسكرات الكثير من خيرة الضباط، وكان من تولَّى رئاسة هذه المعسكرات : الشارف باشا الغريانى، ثم أُسندت إلى خسين الجويفى، وكان عدد المعسكرات السنوسية كما يلى :

١- معسكرات التدريب والاحتياطى بمنطقتى العقيلة والبريقة، ويقال عنهما «خط النار» .

٢- المعية بإجدابية .

٣- بضم قدماء المحاربين بإجدابية .

٤- بالزويتينة .

٥- بالآبار .

٦- بجردس .

٧- مراوه .

٨- معسكر خولان .

٩- عكرمة .

وفى إجدابية معسكر منفصل عن المعسكرات المذكورة، ولكنه مرتبط بالقيادة، وهو مؤلف من الذين يُحسنون القراءة والكتابة، ويُقال عنه : «طابور الطلبة» .

وأقام مراكز حكومية تابعة للمنطقتين المذكورتين، وجعل لكل مركز قائم مقام أو ماموراً أو وكيلاً، وجعل فى كل مركز قاضيًا أو نائب قاض للنظر فيما يتعلَّق بالأحكام الشرعيَّة، ومجلسًا

(١) انظر : برقة العربية (ص ٣٦٢) .

من المشايخ يرجع إليه حاكم المركز فى كثير من الشئون حسب التعليمات الحكوميَّة، وفى كل مركز قسمًا من البوليس للنظام والأمن وسلامة الناس (١).

أمّا التعليم:

فكان بعاصمة الحكومة الوطنية «إجدابية» مدرسة قرآنية كبرى نهجت منهج معهد الجغبوب، وكان شيخها الأكبر الحاج طاهر المراكشى ومعه سعد المنفى وأحمد بن موسى السيوى -وشرع الأمير محمد إدريس فى بناء مدرسة على الطراز الحديث أرادها أن تكون كلية، ووضع الحجر الأساسى لها فى حفل كبير ضم الكثير من رجال السلطة والأعيان والوجهاء، وألقيت يوم ذاك الخطب والقصائد، وتم بناؤها وتنسيقها، وجُلبت الأدوات المدرسية وما يلزم من الكتب، وبدأ تسجيل أسماء التلاميذ الذين ينتسبون إليها، وجُلهم من تلاميذ المدرسة القرآنية. إلا أن الإيطاليين -بعد احتلالهم إجدابية عام (١٩٢٣م)- اتخذوها مركزًا لضباط الطيران، وفى عام (١٩٢٧م) اتُّخذت ناديًا للضباط، وفى سنة (١٩٣٠م) جُعلت مستوصفًا مدنيًا، وبقيت هكذا إلى عام (١٩٤٢م) حيث نسفها الألمان، ولم يبقَ منها إلا الأثر (٢).

وكان مسجد إجدابية الكبير يجلس به فطاحل العلماء الذين تخرجوا فى معهد الجغبوب لتدريس الفقه، واللغة، والتفسير، والحديث، والرياضيات وعلم الفلك. وكان من هؤلاء الشيوخ: أحمد ابن إدريس، وسليمان الحوتى، والمختار الغدامسى، وحامد بركان الشريف، وعبد العزيز الهونى، وعبد العزيز العيساوى، وعلىّ المحجوب، ومحفوظ الورفلى، وكان الأخير قاضيًا بمعسكرات الجبل، وقُتل شهيدًا فى ساحات الفداء، وكان الناس مقبلين على حلقات العلم، فتبدأ حلقات العلم بعد الساعة التاسعة صباحًا، وبعد صلاة العصر، وكان الطلبة يلتفون حول الشيوخ، وخلف هؤلاء طبقات الأعيان والوجهاء والكثير من ضباط الجيش يستمعون إلى الوعظ والإرشاد والعلم، وانتشرت مدارس قرآنية أخرى بدواخل البلاد وبجميع المراكز عدا مدارس الزوايا المعروفة (٣).

وتقدَّمت الحياة الاقتصادية، وشرع التجار فى مزاولة أعمالهم، واستتب الأمن فى جميع أنحاء برقة. لقد استطاع إدريس أن يبحر بالسفينة بمهارة ويصل بشعبه إلى شط الأمان بعد أن أمضّه الجوع، حتَّى اضطر بعض الناس إلى أكل لحوم الخيل والبغال والحمير.

وكان يعمل مع إخوانه فى حكومته بكل جد ونشاط؛ لتطوير الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية.

---

(١) انظر: برقة العربية (ص ٣٦٣، ٣٦٤).
(٢) انظر: برقة العربية (ص ٣٦٥).
(٣) انظر: برقة العربية (ص ٣٦٥).

لقد أوجد الأمير محمد إدريس حكومة فى برقة أحبتها القبائل وهابتها، عملت على نشر العدل، وأزالت الظلم، ووحَّدت الصف، ونبذت الخلاف، وأقرت السلام.

كان الأمير محمد إدريس يُدير دفَّة العلاقات مع إيطاليا بمنتهى الحذر واللباقة والكياسة والدبلوماسية والسياسة، وحرص على توثيق علاقته مع الوالى الإيطالى الكونت جاكومو دى مارتينو، وعيَّن عمر باشا منصور الكخيا ممثلاً فى بنغازى، وكان لعمر باشا خبرة نادرة، حيث كان نائبًا فى مجلس المبعوثان العثمانى فى إستانبول[1].

ثالثًا: اتفاق الرجمة:

كان الإيطاليون غير راضين على الاتفاقات السابقة؛ لأنهم كانوا يُطالبون بالسيادة التَّامة على ليبيا، وإنهم قبلوا بالأمر الواقع مؤقَّتًا؛ لذلك حاولوا أن يتقربوا من السكان، أملاً فى أن ينتهى الأمر إلى القبول بالسيادة الإيطالية، ولعلَّ هذا ما حدا بإيطاليا أن تمنح برقة «دستورًا أساسيًا»، وقد تمَّ ذلك فى (أكتوبر ١٩١٩م)، وينص الدستور على أن يعين ملك أيطاليا واليًا يُشرف على الشئون المدنية والعسكرية لبرقة، ويكون لبرقة مجلس نواب محلى يتألَّف من نواب عن القبائل والحضر، بحيث يُضاف إليهم عدد من الأعضاء المعينين يجلسون فيه بحق وظائفهم. أمَّا إدارة البلاد، فتتم على أساس تنظيم إدارات مدنية وعسكرية يُعيَّن رؤساؤها بأمر ملكى[2].

وكفل القانون الأساسى: حريَّة العبادة والدين، وحق الملكية الفردية، وحرية النشر، وإنشاء المدارس، واحترام لغة البلاد، هذا إلى تفصيل أمور كثيرة.

وقد أدرك مشايخ القبائل ما تنطوى عليه هذه المبادرة من خطر، فعقد نحو مائة من كبارهم اجتماعًا فى إجدابية قرروا فيه: «أنهم لا يقبلون بالإيطاليين إلا فى المدن السَّاحلية، على أن يقتصر عملهم هناك على التجارة»[3].

واتَّضح من إعلان الدستور من جهة، وقرار المشايخ من جهة أخرى، أنَّه من الضرورى المبادرة إلى مفاوضات جديدة، لعلَّها تؤدى إلى وضع الأمور فى نصابها. وبدأت المفاوضات فعلاً، وفى (٢٥ من أكتوبر ١٩٢٠م) وقع الاتفاق المعروف باتفاق الرجمة.

وبموجب اتفاق الرجمة تقسَّمت برقة إلى قسمين:

١- الشمالى، وفيه السواحل وبعض الجبل الأخضر يخضع للسيادة الإيطالية، والجنوبى وهو

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٠٧).
(٢) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، نقولا زيادة (ص ٩١).
(٣) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، نقولا زيادة (ص ٩٢).

داخل ويشمل : الجغبوب، وأوجلة وجالو، و«الكفرة»، يكوّن إدارة مستقلة هى الإمارة السنوسية ويتمتَّع السيد إدريس بلقب «أمير»، على أن يكون اللقب وراثيًا. ومع أن عاصمة الإمارة هى إجدابية، فقد اشترط فى الاتفاق على أنَّ للأمير أن يتجوَّل ويُقيم فى جميع أنحاء برقة، ويتدخَّل فى إدارة المنطقة الإيطالية متى شعر أن مصلحة العرب تتطلب ذلك، والحد الفاصل بين المنطقتين هو خط يمتد جنوبى خميس والرجمة إلى شمال الأبيار ثم يمر بغوط ساس وشمالى القصور وجنوبى سيدى رافع (الزاوية البيضاء) الصفصاف، ومرتوبة، وتميمى إلى طبرق.

وأُدخل القانون الأساسى فى صلب اتفاق الرجمة، وأعلنت إيطاليا أنها لا تنوى بحال من الأحوال نزع الأرض من أصحابها سواء فى ذلك الأراضى التى يملكها الأفراد، أو أراضى الزوايا.

وتعهَّد سمو الأمير من جانبه بأن تحل الأدوار العسكرية، وتسرح الوحدات العسكرية فى مدة ثمانية أشهر، على أن يُحتفظ بألف جندى فقط يستخدمهم فى شئون الإدارة وحفظ النظام. ورضيت إيطاليا بأن تُقدَّم مساعدات ماليّة للإمارة السنوسية تُمكنها من تنظيم أعمالها، على أن يُشجع الأمير التجارة ويضمن المواصلات والأمن.

وقد تمَّ فى الواقع انتخاب محلس نيابى فى (أبريل عام ١٩٢١م)، واختير رئيسًا له السيد صفى الدين.

لقد كان ذلك المجلس الأول من نوعيه فى دنيا العرب، وقد عقد المجلس خمس جلسات إلى (مارس ١٩٢٣م)[١].

لقد كان اتفاق الرجمة يتكون من مقدمة وعشرين مادة إلى جانب ملحقين، فمن أراد التوسع فى هذا الموضوع فليراجع «السنوسية دين ودولة»[٢].

مرت المدَّة المتفق عليها مع الأمير محمد إدريس لحل الأدوار، وهى ثمانية شهور، ولم تحل هذه الأدوار التى كانت تعمرها فلول من أفراد المقاومة السنوسية منذ سنة (١٩١٧م). وهذه الأدوار فى (إجدابية والشليظيمة، ومروة وخولان والأبيار، وتكنيس، وعكرمة)[٣].

كان يُشرف على كل منها قائم مقام، وقائد جند، وقاض، وجامع ضرائب يجمع حاجاتها من العرب. ومن هنا كان كل دور وحدة عسكريَّة إدارية قضائيَّة، لا لنفسه فحسب، ولكن للمنطقة

(١) انظر : ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، نقولا زيادة (ص ٩٢، ٩٣).
(٢) انظر : السنوسية دين ودولة (ص ٢٠٨).
(٣) انظر : ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال (ص ٩٣).

المحيطة به، وكانت الأدوار واسطة لنشر النفوذ السنوسى، ومن هنا كان اهتمام إيطاليا بحلها، وتعلل الأمير بأنَّ حل هذه الأدوار قد يُثير العرب على غير فائدة، ولذلك بدأ أمر بحثها من جديد، وانتهى البحث بالأمير والإيطاليين إلى اتفاق جديد بشأنها يُعرف باسم «اتفاق بو مريم» الذى تمَّ فى (١١ من نوفمبر ١٩٢١م)، ومع أنَّ الفريقين جددا الاتفاق الماضى بشأن حلها، فقد رأى أن يؤجل ذلك؛ ليتسنى للإدارة الإيطالية توطيد أركانها فى منطقتها، وإلى أن يتم ذلك رُئى من المناسب إنشاء «الأدوار المختلطة» على أن يكون ثمة أربعة منها فى عكرمة وسلطنة والأبيار وتكنس، فيكون الجنود فيها إيطاليين وسنوسيين، بنسبة خمسة إلى أربعة، ويقوم ضباط إيطاليون بالإشراف على الإيطاليين وضباط سنوسيون بقيادة الجند السنوسى.

والذى يبدو من هذا كله -بحسب رأى الإيطاليين أنفسهم- هو أنَّ النفوذ الإيطالى كان فى سبيل التُقدم من الناحية السياسية.

لكن هذا كان فى الظاهر فقط، فهؤلاء الإيطاليون يعترفون بأنَّ إدارة برقة -باستثناء المدن- كانت فى الواقع فى أيدى السنوسيين، إما مباشرة أو بالوساطة، وهذه حالة ما كان ليرضى عنها الإيطاليون أبدًا، وإن كانوا قد قبلوا بها مؤقتًا، وكان من الطبيعى أن يعود القتال إلى البلاد يومًا ما[١].



(١) انظر: ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، نقولا زيادة (ص ٩٣).

المبحث الثالث

الجمهورية الطرابلسية

إنَّ تاريخ الجهاد الليبى ملىء بالمحطَّات المهمة التى ينبغى الوقوف عندها درسًا للوقائع واستجلاءً للحقائق واستفادة من العبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧].

لقد كان إعلان الجمهورية الطرابلسية محاولة مبكرة لإقامة دولة مستقلة لها دستورها، ومؤسساتها، وهياكلها. وبذلك أصبح لهذه الحادثة سبق تاريخى فى عالمنا الإسلامى والعربى، ولذلك لابد من تسليط الأضواء عليها والتعريف بها، ونستطيع القول إنَّ بداية الفكرة ظهرت مع ظهور ورجوع سليمان البارونى فى ساحة الجهاد الليبى مرسلاً من قِبَل الخلافة العثمانية التى خولته الولاية على طرابلس والقيادة، ونقصد بظهوره بعد غيابه المفاجئ من ساحة الجهاد وذهابه إلى الأستانة عاصمة دار الخلافة، حيث نزل عن طريق غواصة ألمانية بقصر «حمد» بمصراتة فى (١٦ من أبريل ١٩١٦م)(١). كان رجوع سليمان البارونى بعد أن مهد الأتراك لهذا الإلحاق فاستصدروا (فرمانًا) مرسومًا سلطانيًا من جلالة السلطان بإلحاق طرابلس بتركيا.

وقد جاء هذا القرار فى وقت كان الطرابلسيون محتاجين فيه إلى المساعدة، ففرحوا به. وكانت سياسة الترك والألمان تستهدف من إذكاء نار الثورة فى طرابلس واستئنافها فى برقة إن أمكن عن طريق وجودهم فى طرابلس، شغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الإنجليزية والإيطالية(٢).

وقام الشيخ سليمان البارونى بمجموعة من الإجراءات الإداريَّة والمالية للإشراف على قيادة وتنظيم المجاهدين لمواجهة تحركات الجيوش الإيطالية. وفى إطار التنظيمات الإدارية للولاية قام بتشكيل المجلس العرفى الشرعى -وكان يتكون من مجموعة من العلماء؛ ليتمكَّنوا من حل القضايا الجنائية والشرعية المعلقة بسبب الحرب- وقد ضمَّ ذلك المجلس كلاً من:

١- الشيخ عمر المنصورى مفتيًا للولاية.

٢- الشيخ على الهمالى قاضيًا لمصراتة.

٣- الشيخ محمد سعيد المسعودى قاضيًا للجبل.

(١) انظر: مجلة الإنقاذ عدد (٢٩)، بقلم سالم نوح (ص٤٤، ٤٥).
(٢) انظر: جهاد الأبطال، للزاوى (ص٢٠٣).

٤- الشيخ الزروق أبو رخيص قاضيًا للمنطقة الغربية.

٥- الشيخ الشكشوكي قاضيًا للنواحي الأربع.

٦- الشيخ عبد الرحمن زبيدة قاضيًا لورفلة[١].

وفي تلك المرحلة كانت الأوضاع العسكرية تميل إلى صالح المجاهدين؛ فقد تصاعدت حركة الجهاد ضد إيطاليا، وقام سليمان الباروني بالاتصال بقادة البلاد وزعمائها، وعمل على نبذ الخلاف وتوحيد الصف. ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل التي أرسلها سليمان الباروني من مصراتة إلى الأعيان والمشايخ يُخبرهم فيها بقدومه، ومن هؤلاء المشايخ: الشيخ سوف رئيس المجاهدين في العزيزية:

«إنه من سليمان، وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

عدنا ولله الحمد -والعود أحمد- إلى وطننا العزيز من دار الخلافة العظمى تحملنا عفاريت البحر السابحة فوق جبال الأمواج تارة، وتحت عمق خمسين ذراعًا في لجج اليمِّ أحيانًا.. إلى أن قال: عدنا ولله الحمد، ومعنا كل ما يلزم، واستقبلنا أهل مصراتة الكرام بكل سرور وابتهاج، هذا وقد تفضَّل أمير المؤمنين -أيده الله- فأمر حكومته بإلحاق طرابلس الغرب بلادنا بالولايات العثمانية، واقتضت إرادته السنية إرسالي؛ لأجل إجراء الترتيبات اللازمة ملكية وعسكرية، وتعهد أن يوالي المدد إلى النهاية كما تطلعون على ذلك في منشوره عالي الشأن.

وسنعرفكم من مركز مسلاتة بعد المذاكرة مع البطل الغيور رمضان بك ومن معه من الأبطال عن المكان واليوم الذي يصير فيه الاجتماع العمومي إن شاء الله، فانتظروا جوابنا والسلام الأسنى على العلماء الأفاضل والمشايخ ورجالكم الكرام»[٢].

(١٩ من ذي الحجة سنة ١٣٣٤هـ)

من أخيكم سليمان الباروني

وقبل سفره إلى مسلاتة أرسل كتابًا إلى محمد إدريس السنوسي يطلب منه الانسحاب من سرت؛ قطعًا للفتنة والنزاع، وهذا نصه بعد الديباجة:

---

(١) انظر: مجلة الإنقاذ عدد (٢٩)، بقلم سالم نوح، (ص٤٤، ٤٥).

(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٠٥).

« هذا وقد وصلت مصراتة مرسلاً من لدن حكومتنا السنية بطلب من الأهالى بعنوان والى قومندان طرابلس، ولدى وصولى المركز وصل الخبر بأنَّ قوة قدمت من جهة برقة تحت قيادة القائمقام موسى بك، واحتلَّت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الزاندرمة التى هناك من طرف رمضان بك السويحلى باسم الدولة العثمانية، فبادرت بإرسال جواب إلى موسى بك والشيخ صالح الأطيوش؛ لأنه بلغنى أنَّه مع القوَّة المذكورة، فجاء الجواب من الشيخ صالح مبينًا فيه أنه ما قدم إلا بأمر من سيادتكم ومن نورى باشا بعنوان «متصرف سرف» فتأسفت لأنه كان أول أمر أصدرته متعلقًا بتجهيز قوة لمقابلة تلك القوة المنسوبة إليكم. إلا أننى أمرت قومندان القوة أن يتحاشى -ما أمكن- الدخول فيما يكدر الخواطر بين بنى وطن واحد ودين واحد، رجاء أن تتخلَّى عن القصر بعد أن يبلغها المنشور السلطانى الذى أرسلناه إليكم.

بناء عليه أرجو المبادرة إلى تسوية هذه المسألة إن كان أمر حركتها صادرًا منكم»(١).

(٢٧. ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٣٣٤هـ)

فرد عليه السيد محمد إدريس برسالة قال فيها:

«. . . وذكرتم نزول عساكرنا بسرت، فصحيح وذلك قبل قدومكم؛ إذ كانت الفتن مشتعلة بين السويحلى وترهونة، فأجبرنا الحال على أن نطفئها بأى طريق كان، قال تعالى: ﴿وإن طائفتان. . ﴾ [الحجرات: ٩] وذكر الآية، فأرسلنا الجيش، ونزل بسرت من دون إذن أحد. . . وها نحن أمرناهم بأن يقفوا بالقصر.

ونحن لا غرض لنا إلا اتحاد الإسلام، وتخليص رقاب المسلمين فقط. كما أننا نأمل من جانبكم معاونتنا على إطفاء الفتن. . . ونحن وأنتم لا فرق بيننا، كلنا قصدنا شريف، ونحارب تحت الراية الإسلامية العثمانية»(٢).

(٨ من المحرم سنة ١٣٣٥هـ)

محمد إدريس بن السيد المهدى

كانت تركيا حريصة على دعم ثورة ليبيا فى تلك الأيام؛ ولذلك أرسلت الأمير عثمان فؤاد قائدًا عامًا بدل البارونى فى (مارس ١٩١٨م)، وكان فى صحبته البارون فريد فون تورندروف الألمانى الذى جاء معه فريق فنى لتسيير التلغراف اللاسلكى، وكان الأمير عثمان يحمل لقب «القائد الأعلى للقوات الإفريقية»(٣).

---

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٠٥). (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٠٦).

(٣) انظر عبد النبى بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، محمد المرزوقى (ص١٠٢).

جاء الأمير عثمان فؤاد إلى مصراتة فى (مارس سنة ١٩١٨م)؛ لتنفيذ سياسة متفق عليها بين الترك والألمان؛ لتغذية الثورة فى طرابلس ضد الطليان، حتى إذا ما وافقوا حاولوا أن تمتد الثورة إلى برقة للإغارة على الإنجليز فى مصر مرة ثانية.

وكان مما تنطوى عليه هذه السياسة إحياء فكرة جمهورية شمال إفريقيا التى قامت من أجلها ثورة الحامة بتونس عام ١٩١٥م)، وقد وجدوا من نشاط الطرابلسيين ما شجعهم على المضى فى العمل من أجلها.

كان الاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا مضرب المثل فى الاستبداد بالمسلمين والإساءة إليهم، وكان الأحرار من التونسيين والجزائريين والمراكشيين يُفكرون دائمًا فى التخلص من هذا الكابوس الذى جثم على صدورهم وسلب حقوقهم. وقد انتهزوا فرصة نشوب الحرب فى عام (١٩١٤م)، فألَّف جماعة منهم فى الأستانة وفدًا أخذ يعمل لإنشاء «جمهورية شمال إفريقيا» ينضوى تحت لوائها من حدود مصر إلى حدود بحر الظلمات، وكان فى مقدمة هؤلاء السَّادة المجاهدين: السيد على باشا حنبه، والشيخ صالح الشريف، والشيخ إسماعيل الصفايجى، وهؤلاء الثلاثة من تونس، ومعهم جماعة من الجزائريين والمراكشيين، وزار الوفد ناظر الخارجية العثمانية، وأبلغه رغبة سكان شمال إفريقيا فى الاستقلال، وإنشاء جمهورية إفريقية متحدة، وطلبوا منه إبلاغ ذلك إلى ألمانيا والنمسا رسميًا، وأن يسمح لهم بالسفر إلى برلين وفيينا؛ لبسط مطالبهم والحصول على الوعود والمساعدات اللازمة.

وعُرض اقتراح الوفد على سفير ألمانيا فى تركيا، فأبلغه بأن حكومته لا تتعهد لأبناء شمال إفريقيا بالاستقلال إلا إذا ثاروا على الفرنساويين الذين يحتلون بلادهم. وغادر الوفد الأستانة عقب ذلك إلى برلين، وزار وزارة الخارجية الألمانية، وقدم طلباته، فقبلتها وسجلتها رسميًا، كما اعترفت بها النمسا وتركيا أيضًا، فكان ذلك أول اعتراف دولى بالجمهورية الإفريقية المتحدة فى شمال إفريقيا، وقصد الوفد بعد ذلك لاهاى (مقر المحكمة الدولية)، فسجل هذا الاعتراف فى سجلاتها؛ لأن عصبة الأمم لم تكن أُنشئت إذ ذاك.

وتنفيذًا لرغبة الألمان فى الثورة على الفرنساويين، ورجاء الوفاء بما وعدوا به الوفد من المساعدة، وإمداد الثورة بما يلزمها من المال وآلات الحرب وإنشاء جمهورية شمال إفريقية، قامت ثورة الحامة سنة (١٩١٥م)، فاضطرت فرنسا أن تُرسل من جيشها ثلاثين ألفًا لإخماد الثورة، وقد اختيرت الحامة مكانًا للثورة لقربها من الحدود الطرابلسية، وليسهل الاتصال بها والاستناد إليها، وكانت إذ ذاك على أشدها، وقد قام بهذه الثورة الشيخ سعيد دبان -من أعيان جنوب تونس

وممثلها فى الجمعية الشورية -فأغار على مراكز الفرنساويين فى الحامة وقد تداركها الفرنساويين بجيوشهم فأخمدوها فى مدة خمسة أيام، وأسفرت عن قتل الشيخ سعيد وابنه وخادمه، وجماعة من رجاله، وعن نحو مائة قتيل من الفرنساويين، وانتقم الفرنساويين ممن وقعوا فى أيديهم من أنصار الشيخ سعيد بالقتل والشنق والسجن، والتجأ كثير منهم إلى الحدود الطرابلسية، وجاهدوا مع الطرابلسيين، وكانوا يسمونهم المهاجرين، وكان كبيرهم الشيخ الوحيشى رحمه الله[١].

إن هذه الثورة وهذه الدعوة لقيام جمهورية شمال إفريقيا تحتاج إلى دراسة واعية متأنية عميقة، لعلَّ الأجيال تستلهم دروسًا من الماضى وتجعلها نبراسًا لها فى المستقبل.

كانت الحرب إذ ذاك قائمة فى جزيرة العرب بين الإنجليز والعرب من ناحية، وبين الترك من ناحية أخرى، ولم يطل الأمر حتى رجحت كفة الإنجليز على الترك، ثم اشتد الضغط عليهم من الجيوش العربية والإنجليزية فى الشام وتلاحقت عليهم الهزائم، وتحطمت جيوشهم، وضعفت عزائمهم، واضطروا للاستسلام. وعقد الترك والحلفاء معاهدة جزيرة موندروس فى (٣١ من أكتوبر ١٩١٨م)، تعهدت فيها بسحب جيوشها من جميع البلاد، ومما جاء فى هذه المعاهدة فيما يتعلق بطرابلس فى المادة (١٧): «يجب على جميع الضباط فى طرابلس الغرب أن يُسلموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالى، ويجب على تركيا أن تقطع الأرزاق والمساعدات، وكل صلة مع هؤلاء إذا لم يذعنوا ويُسلموا».

وجاء فى المادة (١٩): «تسلم جميع الموانئ فى طرابلس ومصراتة إلى أقرب قائد لجيوش الحلفاء».

وكانت هذه المعاهدة آخر سلاح استعمله الحلفاء لقطع صلة الترك بالعرب، كما كانت آخر عهد العرب بدولة آل عثمان التى تفككت أوصالها، وتراخت بها الحياة، وزال ظلها بعد أن حكمتها (٤١٦) سنة، من عام (٩٢٢هـ) إلى (١٣٣٨هـ) لم تنقطع صلتها بها، حتى وصلت فى آخر عهدها إلى أحط الدركات، وطوى التاريخ صفحاته على ما لها وما عليها[٢]، ولقد تعرضت للدولة العثمانية فى كتابى «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط».

إن لله سبحانه وتعالى سننًا ثابتة فى حركة الإنسان فى هذا الكون، وهذه السنن -كما عرفنا عليها القرآن الكريم- ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والعدل والظلم وقضايا السلوك الاجتماعى والأخلاقى للمجتمعات البشرية، والذى يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢١٨، ٢١٩).
(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٣١٩، ٣٢٠).

الكريم؛ فهو الذى عرفنا بالخير والشر وبالحق والباطل والعدل والظلم[١]، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا فى ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدى بالأمة إلى مدارك الهلاك وضنك الحياة المادية والنفسية، ويرفع التمكين والنصر، وتنزل الهزيمة والخذلان بسبب المعاصى والذنوب والكبائر والابتعاد عن صراط الله المستقيم وحبله المتين.

لقد كان لسقوط تركيا فى الحرب العالمية الأولى أثر سيئ على حركة الجهاد بطرابلس، وساهم خبر سقوطها فى إخماد جذوة الحماس، وبث فى قلوب الطرابلسيين الوهن، وأفزعهم كثيرًا على مصيرهم المظلم.

وسرعان ما انتشر خبر هزيمة تركيا فى مصراتة وامتد منها إلى غيرها، فاضطربت أحوال الناس، وهاجت نفوسهم، وتشوشت أفكارهم.

كان لسقوط تركيا سبب رئيسى فى ظهور فكرة الجمهورية الطرابلسية، وطُرحت على بساط البحث، واشترك فيها: رمضان بك، وعزام بك، والبارونى باشا، والأمير عثمان، ومختار بك كعبار. وانتهت نتائج المباحثات بالموافقة على فكرة تأسيس الجمهورية، وأُرسلت الدعوة إلى رؤساء القبائل وزعمائها وشيوخها باسم الأمير عثمان؛ لعقد اجتماع عام فى مسلاتة؛ لإعلان الجمهورية. وفى (يوم السبت الثالث عشر من صفر سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨م) اجتمعت الوفود الطرابلسية فى جامع المجابرة بمسلاتة، وهو أكبر جامع فيها، وحضر الأمير عثمان فؤاد، وأخبر المؤتمرين أن الأستاذ عبد الرحمن عزام بك سيخطب فيهم بالنيابة عنه، وأنه سيتحدث نيابة عنه، وطلب منهم الموافقة على ما سيطلبه منهم.

وخطب الأستاذ عزام خطبة مؤثرة حث فيها الناس على وحدة الصف ونبذ الخلاف، وعلى العمل الجاد للوصول إلى استقلال البلاد وطرد الغزاة. ثم طرح عليهم فكرة إنشاء حكومة وطنية تتوحد فيها الكلمة وتتولى أمور البلاد، وتنظر فى شئون الأمة. فلقيت الفكرة استجابة من الجميع، وإجماعًا بدون خلاف، وسميت الجمهورية الطرابلسية[٢]، وأجريت الانتخابات فى الحال لاختيار أعضاء الجمهورية، فأسفرت الانتخابات عن الآتى:

---

(١) انظر: صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى، للمؤلف (ص٨٣).
(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٤).

أولا: تشكيل مجلس إدارة الجمهورية:

وكان من أعضاء هذا المجلس أربعة من أقوى الزعماء نفوذًا على سكان منطقتهم، وهم: سليمان البارونى، وأحمد بك المريض، ورمضان بك السويحلى، وعبد النبى بك بالخير. وكانت جميع القرارات والأوامر الصادرة من هذا المجلس، توقع بأسماء الأعضاء الأربعة، إظهارًا لاتحاد أصحابها وتقوية لاعتمادها بين الناس. وانتُخب إلى جانب الأربعة مراقب ومدير مالى لمالية الجمهورية، هو زعيم غريان مختار بك كعبار، وكان ذا ثقافة عصرية عالية درسها بالمعاهد التركية، وكان أحد نواب طرابلس فى البرلمان العثمانى بإستانبول، وجعل الأستاذ عبد الرحمن عزام مستشارًا لشئون الجمهورية، وارتبط بمجلس الإدارة جميع الموظفين، وشئون الجهاد، والأمور الاجتماعية.

ثانيا: مجلس شورى الجمهورية:

وشكلت الهيئة الثانية وهى مجلس شورى الجمهورية، والغاية من إيجاده: مساندة مجلس الإدارة الحكومية فى قيامها بأعمال وواجبات تشبه إلى حد ما وظائف مجلس النواب والشيوخ فى البلدان الأخرى ذات الأنظمة الدستورية. وقد تألف هذا المجلس من أربعة وعشرين (٢٤) عضوًا، ضم جميع أعيان الجهات من فزان جنوبًا إلى العجيلات شمالاً، ومن سرت شرقًا إلى نالوت وغدامس غربًا.

واختاروا المجاهد الكبير، الشيخ محمد بك سوف زعيم قبيلة المحاميد وحفيد غومة المحمودى صاحب الثورة الكبيرة ضد الترك رئيسًا لمجلس الشورى ونائبه يحيى بك البارونى، شقيق سليمان البارونى[١].

وأما باقى الأعضاء فهم:

١- الشيخ عبد الصمد النعاس، عضوًا، ترهونة.

٢- الشيخ مفتاح التريكى، عضوًا، مسلاتة.

٣- الشيخ على بن رحاب، عضوًا، قماطة.

٤- الحاج محمد بن خليفة، عضوًا، الساحل.

٥- عبد السلام الجدايمى، عضوًا، زليتن.

---

(١) انظر: رمضان السويحلى، محمد فشيكة، (ص١٩٥، ١٩٦).

٦- الحاج على المنقوش، عضواً، مصراتة.

٧- محمد المنتصر، عضواً، سرت.

٨- مفتاح التايب، عضواً، ورفلة.

٩- السيد محمد بن بشير، عضواً، أولاد أبي سيف.

١٠- عبد الرحمن بن بركان، عضواً، من مرزق -فزان.

١١- محمد بن أحمد الفايدى، عضواً، الشاطئ.

١٢- الشيخ الحبيب عز الدين، عضواً، غدامس.

١٣- إبراهيم أبى الأحباس، عضواً، الجبل.

١٤- الحاج محمد فكينى، عضواً، الرجبان.

١٥- الشيخ أحمد البدوى، عضواً، الزنتان.

١٦- سالم البرشوشى، عضواً، الجبل -يفرن.

١٧- على بن عبد الرحيم، عضواً، ككّلة.

١٨- الشيخ شطيبة، عضواً، غريان.

١٩- على بن تنتوش، عضواً، ورشفانة.

٢٠- عبد الرحمن شلابى، عضواً، الزاوية.

٢١- على شلابى، عضواً، النواحى الأربع.

٢٢- عبيدة المحجوبى، عضواً، عن صرمان والعجيلات[١].

ثالثاً: مجلس الجمهورية الشرعى:

وعرفت الهيئة باسم «مجلس الجمهورية الشرعى»، وكانت أعماله وأحكامه القضائية وفقًا لأحكام الفقه الإسلامى، على مذهب الإمام مالك، وعرف وتقاليد البلاد، وأسندت عضويته إلى أربعة من كبار العلماء هم: الشيخ الزروق بو خريص (من غريان، الشيخ محمد الإمام (من الزنتان)، الشيخ عمر المساوى (من الزاوية)، الشيخ مختار الشكشوكى (من مدينة طرابلس)[٢].

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٥، ٢٢٦).

(٢) انظر: رمضان السويحلى، محمد فشيكة، (ص١٩٩).

مؤشرات ودلائل:

كان لاختيار اسم الجمهورية دلالة واضحة على اطلاع الليبيين في ذلك الوقت على أنواع الأنظمة السائدة في العالم ومنها النظام الجمهوري، ولإطلاق لفظ الشورى دلالته الخاصة التي توحي بالتأصيل والتمسك بالمصطلح، وما يضيفه ذلك المصطلح من أبعاد إسلامية وتاريخية، كما يدلنا على معرفة الأجداد لأهمية الشورى، وأنها من قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

لقد قرنت الآية الكريمة الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة واجبة شرعًا، فكذلك الشورى واجبة شرعًا[(١)].

إن هذه الآية قد نزلت في سورة سميت سورة الشورى، وهي مكية، ولقد جاءت مؤكدة أن تكون الشورى صفة ملازمة للجماعة الإسلامية، وسلوكًا اجتماعيًا لا يغادرهم قبل قيام الدولة الإسلامية وبعد قيامها، فإن كلمة ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ من ألفاظ العموم، تشمل جميع شئونهم في الحياة العامة، والمشتركة[(٢)].

كما أن اعتماد طريقة الترشيح والانتخاب كوسيلة مثلى لتولي المسئولية والوصول إلى المناصب السياسية المهمة في الدولة إشارة ودلالة على اهتمام الأجداد بهذا المبدأ رغم أن الفترة كانت فترة جهاد وحرب واستنفار.

كما أن اختيار المسجد «جامع المجابرة» للاجتماع وإجراءات الترشيح والانتخابات والاتفاق على إقامة الجمهورية والتعهد بإقامة العدل، يؤكد أن نظرة المجاهدين للجامع لا تقتصر على اعتباره مكانًا للعبادة فقط، وإنما هو محل للعمل السياسي والنشاط الاجتماعي والحكم القضائي.
كانت مساجد بلادنا عامرة بالنشاطات الشاملة، ونرجو من الله تعالى أن يوفق المسلمين للعمل الدءوب حتى ترجع المساجد شعلة نور، ومحضن تربية، ومنبرًا للدعوة إلى الله.

إن المساجد في بلادنا أصبحت في أحسن أحوالها مقتصرة على أداء الصلوات وجُردت مهامها الأخرى.

---

(١) انظر: النظام السياسي في الإسلام، لأبي فارس (ص٩٠).
(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للمؤلف (ص٤٤٧).

إن ما قام به الأجداد من التقاء واجتماع فى مسجد المجابرة فى مسلاتة دليل على معرفتهم لوظائف المسجد فى الأمة.

لقد كان المسجد فى عهد رسول الله ﷺ مكان الاجتماع العام، الذى كانت جلسات الشورى تعقد فيه، وكان يتم توزيع العطايا، كما كانت التبرعات تُجمع فيه للمحتاجين... إلى آخره.

ومن الأدلة على ذلك:

استشارة النبى ﷺ أصحابه فى غزوة أحد، فقد استشارهم فى المسجد بعد صلاة الجمعة، وكان رأيه ﷺ أن يبقى المسلمون متحصنين داخل المدينة، لكن الأغلبية من الشباب كانت تفضل ملاقاة المشركين خارج المدينة حتى لا يفوتهم أجر الشهادة فى سبيل الله الذى فاتهم يوم بدر، وقد فضل النبى ﷺ النزول على رغبتهم أخيرًا، فخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة(١).

إن الأدلة فى هذا المعنى كثيرة، ومن أراد التوسع فعليه مراجعة كتاب الدكتور محمد أحمد «كيف نعيد للمسجد مكانته؟».

كما أن تشكيل المجلس الشرعى للنظر فى قضايا الجمهورية الوليدة والمخالفات والجنايات بين المواطنين وتحديد العلماء الذين يشرفون على هذه المهمة ليدل دلالة قاطعة على احترام الأجداد للعلماء والفقهاء، وعلى حرصهم على جعل الشريعة الإسلامية هى الدستور للجمهورية. مما يؤكد اجتهاد الليبيين الأصيل وعدم نجاح الغزو الفكرى فى ذلك الوقت فى التأثير على اختيارات المواطنين النابعة من عقيدتهم ودينهم وتراثهم الإسلامى العظيم.

إن من أخطر عوائق النهوص بالأمم: غياب القيادة الربانية؛ وذلك أن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة. ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة فى حياة الأمة الإسلامية، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكّنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصى الأمور وأزمة الحكم فى الأمة الإسلامية. ففى خطة لويس التاسع أوصى بـ«عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح»، كما أوصى بـ«العمل على إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء؛ حتى تنفصل القاعدة عن القمة»(٢).

إن العمل السياسى عندما يكون خاليًا من العلماء الربانيين لا تتحقق ثماره المرجوة. إن العلماء الربانين هم الذين جعل الله عز وجل عماد الناس عليهم فى الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا،

(١) انظر: صحيح البخارى، كتاب الاعتصام (٨/ ١٦٢).
(٢) قادة الغرب يقولون، جلال العالم، (ص٦٣).

والعلماء هم: أئمة الدين، ونالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصبر واليقين ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤].

إن العمل السياسى فى بلادنا خالٍ من العلماء الربانيين، وكأن العالم الربانى والعمل السياسى طرفا نقيض، وهذا فهم خاطئ. بل إن تاريخ الأمة فى صراعها بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام، لخير دليل على دور العلماء الربانيين فى حركة النهوض.

ولا بد من التفريق بين العلماء والمفكرين والمثقفين. إن مفكرى الأمة لهم مكانتهم، وقد نفع الله بهم نفعًا كبيرًا، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شيئًا إلا فى حدود علمهم وقدراتهم. كما أن المثقفين -وهم فئة من الأخيار الصالحين -ذوو تخصصات علمية برزوا فيها، سواء فى العلوم التجريبية مثل: الطب والهندسة والكيمياء، أو فى العلوم المسماة بـ«العلوم الإنسانية» مثل علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع، فهؤلاء -وإن حُمد لهم تخصصهم فى مثل هذه العلوم، فصاروا مرجعًا فيها- غير متخصصين فى العلوم الشرعية، وهم فى الاصطلاح العلمى الشرعى جمهور المسلمين وعوامهم الذين يجب عليهم أن يكونوا وراء العلماء، ويجب عليهم أن يرجعوا للعلماء فى أمور الشريعة، ويكونوا عونًا لهم فى شرح واقع تخصصاتهم، فالطبيب يشرح الأمور الطبية، والاقتصادى يشرح الجوانب الاقتصادية العصرية، وهكذا ليفهم العلماء والفقهاء الأمور على حقيقتها، ويستخرجوا الحكم الشرعى وفق دراسة واعية ومتفتحة. إن كلام (المفكرين) والمثقفين يجب أن يكون محكومًا بالشرع، وأما إذا بنى هؤلاء المثقفون والمفكرون كلامهم فى أمور الشريعة وأحوال الأمة العامة على أساس من العقول والأهواء وإطلاق القول بالمصالح دون نظر فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال العلماء الراسخين، فإنهم بذلك يكونون أشبه بأهل الكلام[1].

ولا بد من التفريق بين القارئ للعلوم الشرعية والفقيه فيها. إن القارئ لديه نتف وجزئيات أمسك بها من خلال قراءاته لبعض الكتب واطلاعه على أقوال أهل العلم، فهو لم يعاين العلم، ولم يشافه العلماء، ولم يزاحمهم بالركب فى الخلق.

أما العالم الفقيه فليس كأولئك، بل هو ذو فهم شمولى عام للإسلام، واطلاع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفًا، بل درس العلوم الشرعية دراسة شاملة عامة، فمر على مسائل العلم واستطاع تخريجها على أصولها، وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة وأهدافها العامة.

---

(١) انظر: فقه النصر والتمكين فى القرآن الكريم، للمؤلف (ص٢٣٢).

إن علمه لم يأت من قراءة ليلة، بل من سهر الليالى، ومعاناة الأيام، فشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حد فى التعليم، بل هم دائمو الطلب، دائبو التعلم(١).

ولا بد من التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ. إن العالم قد يكون بطبعه قليل الكلام غير قادر على الخطابة، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يقلب الألفاظ كيف شاء.

هذا التفريق مهم جداً فيما بين العلماء الراسخين، وممن يتشبه بهم، ولذلك لا بد أن يقود العمل الإسلامى القادة الربانيون وعلى رأسهم العلماء الراسخون.

إن الشريعة الإسلامية أعطت اعتباراً للعلماء، وبنته على أمرين مهمين:

١- طاعتهم طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، فالتزام أمرهم واجب.

٢- أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها، بل هى تابعة لطاعة الله ورسوله ﷺ، والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء فى الشريعة غير منحصرة، فمنها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد اختلف المفسرون فى أولى الأمر منكم على أقوال:

فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون فى المعروف وما أوجبه العلم. فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة رسول الله ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتى العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما»(٢).

إن وضع الثقة فى العلماء الربانيين لخطوة مباركة فى ترشيد الأمة التى تسعى نحو تحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

إن القيادة الربانية -والتى على رأسها العلماء الذين وصلوا إلى درجة النظر فى فقه الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ- هم الذين يجب أن يقودوا الأمة نحو مرضاة الله.

---

(١) انظر: قواعد التعامل مع العلماء، (ص٣٣).
(٢) انظر: أعلام الموقعين، (١/ ١٠).

إن أعداءنا من اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين أيقنوا أن من أسباب قوة المسلمين التفافهم حول علمائهم وقادتهم، ولذلك شنوا هجومًا عنيفًا من أجل زعزعة ثقة الأمة فى علمائها وقادتها واستعملوا أساليب متنوعة للتشويه والطعن فيهم؛ لأن العلماء هم الوصلة الحقيقية بين الأمة وقرآنها وسنة نبيها ﷺ.

وقد لاحظ الاستعمار الأوروبى الحديث ذلك، وما الثورات التى فُجرت ضد الاستعمار إلا بقيادة العلماء والقادة الربانيين، من المغرب إلى المشرق، وفى كل ديار المسلمين. ولذلك قام اليهود والنصارى والملاحدة بتشويه صورة القادة والعلماء بواسطة المسرح والتلفاز والمجلة والجريدة والنوادى والغناء وكل وسائل الإعلام. وإذا أردت أن تعرف هجومهم الإعلامى ابتداء من العقود الماضية، فلتراجع كتاب «المشايخ والاستعمار»، للأستاذ حسنى عثمان، فإنه أجاد.

إن القيادة الحكيمة وهى تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، وإقامة دولة الإسلام توقن يقينًا جازمًا أن المجتمع لن يكون إسلاميًا بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس أو مجلس قيادة أو برلمان. إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج والإعداد، والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وإقامة البدائل الإسلامية للأوضاع الجاهلية التى تأسست عليها مؤسسات عدة لأزمنة مديدة.

فهى تعين الهدف، وتوضح الخطة، وتحدد المراحل بوعى وصدق، بحيث تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتخطيط وتنظيم وإرادة قوية، معتمدة على الله تعالى حتى تصل المسيرة إلى مرحلة النهوض الشامل لدولة الإسلام المنشودة.

إن القيادة الربانية الحكيمة التى تسعى لتحكيم شرع الله تعطى للعلوم بأنواعها أهمية، وخصوصًا فى علوم الشرع، وتركز على علم المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه الخلاف، وفقه الأولويات، وفقه السنن الربانية، لأهميتها فى زماننا هذا، بل هى من أفضل العدة بعد تقوى الله تعالى للعاملين من أجل تحكيم شرع الله(١).

إن القيادة الربانية الحكيمة هى التى تفجر طاقات الأمة، وهى التى تحتضن الإسلام وتنتهجه قلبًا وقالبًا، عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وهى التى تصبح وتمسى وهمها عقيدتها وأمتها، وهى التى تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التى تواجهها، وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق النهوض الداخلية والخارجية.

---

(١) انظر: فقه النصر والتمكين فى القرآن الكريم (ص٢٤٠).

إن العمل لبناء الأمة، وإحياء الشعوب يحتاج لمعرفة بالسياسة الشرعية وأمور الجهاد والهدنة والمصالح والمفاسد، وغير ذلك من الأحكام التى تتناول مظاهر الحياة، وهذه العلوم من لها إن لم يكن العلماء الربانيون لها؟

رابعًا: قسم الجمهورية والبلاغات:

لم يستطع بعض أعضاء مجلس الشورى الاجتماع، بل كان بعضهم غائبًا، وإنما انتُخب توزيعًا للمسئولية وتحقيقًا للمساواة والوحدة بين جميع القبائل.

وقبل الانصراف من المسجد أقسم الحاضرون جميعًا يمين الولاء والإخلاص للجمهورية، وتوكيدًا لليمين أحضروا مصحفًا، وكمل من أراد اليمين وضع يده عليه، وهذا نص اليمين:

«أقسم بالله العظيم قابضًا بيدى على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسى ومالى فداء لوطنى، وحكومتى الجمهورية الطرابلسية، وأن أكون لعدوها عدوًا ولصديقها صديقًا، ولقانونها الشرعى مطيعًا»(١).

ثم وزع الأمير عثمان بعض النياشين والرتب على أعضاء الجمهورية وكثير من الأعيان والوجهاء، ومن هذا التاريخ أصبحت الحكومة الجمهورية الطرابلسية قائمة وأصبح لها عهد فى عنق كل طرابلسى يحميها مما يحمى منه نفسه وماله، وأصبح واجبًا عليه الالتزام بما أقسم عليه من الولاء والإخلاص(٢).

(أ) بلاغات الجمهورية:

وكان أول ما قام به مجلس الإدارة من الأعمال أنه أذاع بلاغه الأول -على أبناء الشعب الطرابلسى، عن قيام الجمهورية الطرابلسية، وذُيّل بتوقيعات الأعضاء الأربعة بمجلس الإدارة، وكان هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

فى الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك (الثالث عشر من شهر رمضان سنة ١٣٣٧ هـ) قررت الأمة تتويج استقلالها بإعلان حكومة الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء وأشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين، الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد، وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الجمهورية. وإن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها، حائزة لاستقلالها، الذى اكتسبته

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٦). (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٧).

بدماء أبنائها وقوتها، منذ سبع سنين، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التى هى أشرف ما تصل إليه الأمم، وتهنئ أبناءها بتمام نجاحهم واتحادهم، على الثبات فى الدفاع عن وطنهم وحكومة الجمهورية الجديدة والتوفيق من الله تعالى وحده.

(١٢ من صفر سنة ١٣٣٧هـ)

سليمان البارونى، أحمد المريض، رمضان الشتيوى، عبد النبى بالخير»[١].

وفى أثناء إعلانات البلاغات السياسية عن الجمهورية، كانوا قد اختاروا المتصرفين والقائمقامين، ونُقل بعضهم، وعُين موظفو المناطق، وعُين الموفون للعمل بمجالس الجمهورية، كما عُين لقيادة الجيش الجمهورى اللواء الفخرى عبد القادر الغناى، وهو من بنغازى، ولكنه لم يكن على المقدرة القتالية المطلوبة، وبلغ من ضعفه أنه سلم الزاوية الغربية للطليان فى (أول يناير ١٩١٩م)[٢].

(ب) البلاغ الثانى:

كان البلاغ الثانى إلى الضباط الوطنيين:

«إلى حضرة................ الوطنى

بما أن جنابك وطنى صادق، ومجاهد فى سبيل الدين والوطن، منذ ابتداء الحرب الطرابلسية، فإننا ندعوك إلى تقديم طاعتك لحكومتك الجمهورية الجديدة والقيام بما نقلدك إياه من الخدمة والدفاع عن شرف الوطن؛ حتى تنال منها شرف الاحترام والترفيع، وتبرهن للعالم أنك ابن الوطن العزيز وأحد رجاله الذين سيحفظ لهم التاريخ ذكرهم المجيد»[٣].

(جـ) البلاغ الثالث إلى رئيس الحكومة الإيطالية:

«تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهورى، وانتخاب نواب عنها من جميع أنحاء القطر لمجلسى الحكومة والشورى، ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة، ولا تقصد إلا أن تعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الأمم التى لا تحاول غصب حقوقها؛ لذلك فالحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها، وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع»[٤].

(١٢ من صفر سنة ١٣٣٧هـ)

(١) انظر: رمضان السويحلى، محمد مسعود، (ص١٩٩، ٢٠٠).
(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٨). (٣)، (٤) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٢٨).

ملحق:

إذا قُبلت المواد الآتية ووضعت موضع الإجراء فالحكومة الجمهورية الطرابلسية مستعدة للبحث مع الحكومة الإيطالية فى عقد صلح طبقًا للقواعد الآتية :

١- فى حالة دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة .

٢- لا تقرب السفن الحربية السواحل غير المحتلة بالعساكر الإيطالية .

٣- لا تتجاوز الطائرات حدود الاستحكامات .

٤- لا تقع مخابرة خصوصية مع أى أحد كان ، لا من جهة المناطق الحربية ولا من غيرها .

٥- يُقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالأهالى من طرف الحكومة الإيطالية كأخذ وإعطاء البضاعة وتوزيع الإعلانات على أى صورة ، وبأى طريقة كانت .

٦- المخابرات الرسمية والدخول والخروج لا يكون إلا من الموقع الذى يصير تعيينه فى منطقة الخُمس من طرف الحكومة الطرابلسية .

٧- الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة فى شئونها وحركاتها تمام الاستقلال ، وغير مقيدة بأى شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به لحكومة إيطاليا فى طرابلس .

٨- ضباط الترك والألمان الموجودون فى داخل طرابلس هم بمنزلة ضيوف عند الحكومة الطرابلسية ، ولا تسمح بسفرهم إلا بصورة تكفل منفعة وشرف الأمة الطرابلسية وحكومتها الجمهورية .

٩- بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق فى إظهار حقوقها للعالم الإنسانى وبالخصوص الحكومات الموجود قناصلها فى مدينة طرابلس مثل إنجلترا ، وفرنسا ، وأمريكا . . فعلى الحكومة الإيطالية قبول وتوصيل ما يُرسل من الحكومة الطرابلسية إليها بدون اطلاع عليه ، وأخذ سندات من القناصل المذكورين ، وإرسالها إلى الحكومة الطرابلسية ؛ حتى لا تضطر إلى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة .

١٠- المخابرة مع الحكومة الإيطالية لا تجوز إلا تحريرًا ولا يعتبر أى كلام شفهى[١] .

(١٢ من صفر سنة ١٣٣٧هـ).

الإمضاءات

(١) انظر : جهاد الأبطال ، (ص٢٢٩) .

(د) البلاغ الرابع: إلى الرئيس ولسن:

«نتشرف بأن نعرض على فخامتكم أن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها حكومة جمهورية، وفى (١٦ نوفمبر ١٩١٨م) تم انتخاب مجلس شوراها، ومجلس جمهوريتها.

إن قواعدكم المشهورة بالنسبة لمقدرات جميع الأمم سواء كانت فى أوربا أو خارجها قد شجعتنا كثيرًا على أن نضع آمالنا فى مقاصدكم العظيمة ونواياكم العالمية الإنسانية.

إنه ليس هناك حد للحقوق والواجبات البشرية؛ لذلك فإننا متأكدون من أنه لا يمكنكم أن تنظروا بعدم الاكثرات إلى استعباد أمة صغيرة بقوة السلاح مثل أمة طرابلس، وهى تقاتل لثامن سنة ضد الغاصب المعتدى بكل متانة، وهى متأكدة من أن بسالة أبنائها قادرة على أن ترد قوات عنها فى كل زمان.

وإننا نؤمل أن عواطفكم السامية نحو الحكومات والأمم الصغيرة الحية ستحثكم على أن تمنعوا تكرار سفك الدماء بيننا وبين الطليان بتكليفهم بالاعتراف بحكومتنا.

وفى الختام نرجو قبول احترامنا ووضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومى».

(هـ) البلاغ الخامس: إلى رئيس الوزراء الإنجليزى:

«نتشرف بأن نحيط فخامتكم علمًا بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها الحكومة الجمهورية، وفى (١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨م) أعلنت نتيجة انتخابات مجلسى شوراها ومجلس جمهوريتها.

ليس بين الأمم من هو جدير بحريته واستقلاله أكثر من الأمة الطرابلسية التى تقاتل إلى الآن ثمانى سنوات ضد غاصب أرضها وحريتها. وإننا لا شك فى أن إحساساتكم العالية نحو حرية الأمم والحكومات الصغيرة، كما أن غيرتكم على حماية العرب تجبركم على العطف على جمهوريتنا الجديدة الحرة. وإننا نؤكد لكم أيضًا أن قومنا وضعوا جُل آمالهم فى انجلترا حامية حقوق الأمم الصغيرة، فرجاؤنا أن تتفضلوا بوضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومية حتى تنال جمهوريتنا ما يضمن لها مستقبلها، والمرجو قبول عظيم احترامنا»[(١)].

(و) البلاغ السادس: إلى رئيس الجمهورية الفرنسية:

«نتشرف بأن نحيط فخامتكم علمًا بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلان الحكم الجمهورى، وفى (١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨م) أعلنت نتيجة انتخاب مجلسى الجمهورية والشورى.

(١) انظر: جهاد الأبطال، (٢٣٠).

إن ما قامت به فرنسا الحرة من نشر إعلان الحرية فى العالم وتكبدها كل الصعوبات فى سبيل حمايتها لا يجهله أحد، وإنه لمكتوب على صفحات القلوب بمداد الحياة تتغذى به أرواح الأحرار فى كل الأقطار لا ينسخه توالى الدهور ولا تمحوه زلازل الحروب.

إن من قام فى هذا العصر يطلب حريته سواء كان بسيفه أو قلمه، فإنما هو مستمد من منبع الحرية الزلال، ومقتبس من سناها الساطع، ومغترف من بحرها الطافى، ومستخرج من معدنها الصافى (قاعدة فرنسا الحرة) فلا عجب إذا قامت الآن فرنسا لحماية الأمم الصغيرة، كأمة طرابلس الغرب التى ما برحت تريق دماء أبنائها منذ سبع سنين وزيادة فى سبيل نيل حريتها واستقلالها ورد جيوش إيطاليا الغاصبة لأرضها المعتدية على شرفها.

إن الأمة الطرابلسية التى لا تجهل تاريخ فخرها القديم لم ترض أن تُساق الآن بعصا الذل والهوان، وأن تُستبعد فى زمن مادت فيه الأرض شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً بالحروب الهائلة لأجل تحرير بنى الإنسان.

إن كل من يتتبع التاريخ بإنصاف يجد أن الأمة الطرابلسية لم تملكها دولة من الدول، كما تملك البلاد ملكًا مطلقًا، بل لم تزل منذ خُلقت أو عُرفت بين الأمم فى مناضلة كل من يقصد استعبادها سواء كان من الدول الإسلامية أو المسيحية، وكانت ولا تزال تفضل الجلاء وسكنى القفار على تحمل الضيم والاحتقار.

وها هى أطلال بلادهم الخالية بادية، وأنسابها المنتشرة شرقًا وغربًا شاهدة؛ فسعى الأمة الإيطالية وراء استعبادها الآن هو ضرب من طلب المستحيل، ولو راجعت تاريخ أجدادها القدماء لرأت فيه ما يصدها الآن عن سفك الدماء.

لذلك تؤمل حكومة طرابلس الجديدة من جارتها الجمهورية الفرنسية أن تنظر إلى المسألة الطرابلسية بنظرة الاهتمام والاعتبار، وأن تعنى بوضعها على بساط مذكرات الصلح العمومى، وأن تقنع حليفة ألمانيا القديمة وحليفتها هى الآن حكومة إيطاليا بالاعتراف بحقنا المشروع حتى يقف تيار إراقة الدماء بين الأمتين، وتستريح البلاد والعباد، وتنال البلاد الطرابلسية نصيبها من هذه الراحة أيضًا، فإن منفعة البلدين ومضرتهما واحدة»(١).

وقد أُرسلت هذه البلاغات إلى الحكومة الموجهة إليها ممضاة كلها بإمضاءات أعضاء الجمهورية، وعُين موظفو الإدارة فى جميع أنحاء القطر، وانصرف الأعضاء والموظفون كل إلى عمله(٢).

---

(١)، (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٣٢).

وهذه البلاغات تدل على اهتمام زعامة الجمهورية بالدول الكبرى، وحرصها على استمالتها والوقوف معها ومحاولة انتزاع الاعتراف بها. ولكن يبدو أن تلك البلاغات لم تجد تجاوبًا من أمريكا وفرنسا وبريطانيا، وذهبت فى أدراج الرياح، واستنكرت إيطاليا إعلان الجمهورية الطرابلسية. وعندما تلقى الإيطاليون بلاغ الجمهورية، أعلنوا فورًا أن دولتهم ترفض بكل تصميم الاعتراف بقيام واستقلال الجمهورية الطرابلسية، ولا تسلم لها بشىء مما جاء فى البلاغ الموجه إليها والمواد الملحقة به، بل ليس لها من جواب على ذلك سوى استئناف الحرب الضارية معها إلى أن تخضع البلاد لحكمها بالقوة[1].

ومارست إيطاليا القوة ضد الطرابلسيين، ولكن بدون جدوى، واضطرت لدخول مفاوضات تم تتويجها بانعقاد صلح «سوانى بنيادم» وعُقد ذلك الصلح فى ليلة (١٧ من أبريل ١٩١٩م) فى قرية سوانى بنيادم»، غرب مدينة طرابلس نحو (١٢) كم، واعتبر الطرابلسيون ذلك الصلح انتصارًا سياسيًا وحربيًا على خصمهم المتعجرف العنيد، وأصدرت إيطاليا القانون الأساسى الذى جعل الفرد الطرابلسى فى مصاف الفرد الإيطالى فى الحقوق السياسية والاجتماعية[2].

وعلق جراسيانى على فوز العرب بهذا القانون فقال: «تلاشى به كل أمل لسيادتنا الفعلية على طرابلس، وأصبح السبيل ممهدًا للطمات شديدة نتلقاها... وقد كان من جانبنا تسليمًا حقيقيًا، وهذا الدستور يمنح عرب طرابلس تفوقًا وامتيازات مدنية وسياسية واسعة، دون أن يحملوا -كما هو الحال فى البلاد المتمدن - أعباء وواجبات ثقيلة، فى مقابل ممارسة الحرية بمفهومها الحديث»[3].

خامسا: القواعد الأساسية للقانون:

والقانون الأساسى، أو الدستور اشتمل على أربعين فصلاً، ولكن قواعده الأساسية ارتكزت فى (١٦) مادة منه، ونصها حرفيًا كما يأتى:

١- تسمى الحكومة «حكومة طرابلس الغرب».

٢- يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة، مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسى من بين أعضائه، ومن عضوين إيطاليين ينتخبهم النائب العام.

٣- يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطات الملكية والعسكرية، معين من جانب ملك إيطاليا «لم يحدد القانون جنسية الحاكم فقد يكون عربيًا وقد يكون إيطاليًا».

---

(١) انظر: رمضان السويحلى، (ص٢٠٢).
(٢) انظر: رمضان السويحلى، (ص٢٠٧).
(٣) انظر: نحو فزان، (ص٢٦).

٤- يسن قوانين البلاد مجلس ينتخبه الأهالى، يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتمدنة من سلطات وحقوق، وتكون مدته أربع سنوات، كلما جُدد انتخابه، جُدد مجلس الحكومة من بين أعضائه.

٥- لا تنفق ضرائب البلاد إلا فيها، حسبما يقرره مجلس نوابها فى وصفها وتوزيعها وجبايتها.

٦- لا يطبق من القوانين الإيطالية فى طرابلس إلا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسى، ويوافق عليه لمصلحة البلاد.

٧- ينظم من أبناء البلاد جند وطنى بالتطوع، حسبما تقتضيه الحاجة، وقائده هو الحاكم العام.

٨- للوطنيين حق التوظف فى الوظائف ملكية وعسكرية وقضائية وصحية وغيرها بالامتحان.

٩- التعليم الأهلى حر تحت إشراف الحكومة.

١٠- اللغة العربية رسمية كاللغة الإيطالية.

١١- ينتخب الأهالى رؤساء البلديات فى العاصمة والملحقات.

١٢- يؤلف مجلس شرعى تستأنف إليه الأحكام الشرعية، وهو يعين القضاة.

١٣- للطرابلسيين الحائزين على شهادات عالية، الحق فى مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها فى إيطاليا، كما هو فى طرابلس.

١٤- الطرابلسى والإيطالى متساويان فى الحقوق.

١٥- الأوقاف تدار بمعرفة هيئة إسلامية.

١٦- تراعى حرية الدين والتقاليد الوطنية الحسنة كما فى السابق.

وخُتمت مواد الدستور أو القانون الأساسى البالغ نيفًا وأربعين فصلاً بتوقيعات الآتية أسماؤهم:

عن الطرابلسيين: سليمان البارونى- أحمد المريض- رمضان الشتيوى- أحمد الصويعى نيابة عن عبد النبى بالخير.

وعن الطليان: الجنرال ماجور تارديني، رئيس الدائرة السياسية، الجنرال باسكانو رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيطالى[١].

كانت إيطاليا تُريد تخدير الرأى العام فى إيطاليا الذى سئم من الحروب وويلاتها وأصبح الشعب بعد خروجه من الحرب العالمية الأولى محطم القوى، مهيض الجناح؛ لما تكبَّده من خسائر فادحة فى إمكاناته الحربية والعسكرية والاقتصادية، مما جعل الرأى العام ينادى بنبذ الحروب والاستعمار، وتزعم الحزب الاشتراكى الإيطالى هذه الدعوة، وعارض الحكومة فى البرلمان.

وكانت الحكومة الإيطالية موطدة العزم سرًا على نقض العمل بالقانون الأساسى، ببث الدسائس والفتن بين الزعماء فى الظروف المناسبة لذلك، ثم إخضاع البلاد لحكمها والقضاء على الجمهورية[٢].

كان مما جاء فى القانون الأساسى: الاعتراف بحكومة وطنية مقرها مدينة طرابلس، وقد شكلت من ثمانية أعضاء، وصدر أمر من الوالى الإيطالى بتعيينهم، وهذا نصه:

«إن والى طرابلس بعد اطلاعه على فصل (٢٣، ٢٤) من قانون أساسى القطر الطرابلسى الصادر بتاريخ (أول يونية سنة ١٩١٩م) عدد (٩٣١)، وأنه فى التحرير المؤرخ (٣ من سبتمبر) الجارى المتقدم من أحمد بك المريض إلى الحكومة قد صار عرض الثمانية الوطنيين المتخبين أعضاء فى مجلس الحكومة، وأن هؤلاء الثمانية قد صار تقديمهم علنًا بمراسم احتفالية إلى الوالى، من طرف رمضان بك شتيوى الذى كان برفقته جمع كثير من رؤساء وأعيان القطر الطرابلسى، وحيث إنه من التحرير والمبحوث ومن الاحتفال الواقع تحقق أن العرض المذكور حصل باتفاق من رؤساء جهات طرابلس المختلفة يأمر بما يأتى:

إن الذوات الآتى ذكرهم قد صار تعيينهم أعضاء لمجلس حكومة القطر الطرابلسى:

* عمر بك أبو دبوس.
* أحمد بك شتيوى.
* على بك الشنطة.
* أحمد بك الفسّاطوى.
* محمد الصويعى بك.
* الحاج محمد فكينى بك.
* محمد بك بن الفقيه حسن.

وسيصير تعيين مخصصاتهم بأمر آخر[٣].

(١) انظر: رمضان السويحلى، (ص٢٠٩).
(٢) انظر: رمضان السويحلى، (ص٢١٠).
(٣) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٦٤).

حُرر بطرابلس فى (٤ من ديسمبر سنة ١٩١٩م).

صورة مطابقة للأصل الوالى

صار الاطلاع عليه كاتب الوالى الوالى

الوالى طابع الحكومة الإمضاء: متير نيجر

طابع الحكومة

واجتمع مجلس الحكومة فى مدينة طرابلس وصارت مراكز القطر كلها مربوطة به، وحاولت هيئة الحكومة أن تُباشر أعمالها فى دائرة سلطاتها، ولكن الطليان سرعان ما شرعوا فى الدسائس، وظهرت بوادر تُشير إلى عزمهم على عدم الوفاء للطرابلسيين بالحقوق التى اعترفت لهم بها فى القانون الأساسى، ودليل ذلك:

١- أنه على الرغم من مطالبة الزعماء لهم بأن يُخصصوا مكانًا للمجلس النيابى، وآخر لمحل الحكومة الوطنية، فإنهم صاروا يسوفون لاستجابته بأقوال وأعذار كاذبة.

٢- بينما أصرَّ الأعضاء العرب فى مقابلة الوالى، على أن تكون أصوات نوابهم فى المجلس النيابى قرارية حسب المادة (١٥) من القانون الأساسى، إذ الوالى يرفض التَّسليم لهم بهذا الرأى، ويعتبر أصواتهم فيه استشارية، ومعنى هذا أنه غير ملزم بتنفيذها. ولما استقال أربعة أعضاء من الحكومة الوطنية وهم: مختار كعبار، وأحمد الشتيوى، وعمر أبو دبوس، ومحمد الفقيه حسن، احتجاجًا على اعتبار أصوات النواب استشارية لا قرارية، وجد الطليان استقالتهم فرصة ذهبية؛ لإلغاء عضوية الأربعة الآخرين رغم رضاء هؤلاء بأن تكون أصواتهم استشارية.

٣- لما رأوا الجيش الوطنى قد تمركز مع رمضان فى سوانى المشاشطة، لكى يتخلصوا من مقاومته لهم فى المستقبل، بذلوا كل مساعيهم وجهودهم بواسطة عملائهم؛ لإغرائه بالانضمام إلى الجيش الإيطالى، ونزوله مع ثكناته فى المدينة، بزعم أن القانون الأساسى وحَّد بين الطرفين العربى والإيطالى فى كل الأمور[1].

سادساً: حزب الإصلاح وجريدة اللواء:

فى (٣٠ من سبتمبر سنة ١٩١٩م) أعلن الطرابلسيون رسميًا عن تأسيس حزب الإصلاح لأجل الدفاع عن مكاسب البلاد، وإيقاظ الوعى الجماهيرى السياسى، وأسندوا رياسته إلى أحمد

(١) انظر: رمضان السويحلى، (ص٢١٩).

بك المريض، ورياسة شرفه إلى رمضان بك، وكان من أعضاء هذا الحزب النشيطين: عبدالرحمن عزام، وخالد القرقني، وعثمان الغرياني مدير جريدة «اللواء الطرابلسي»، وكانت أهم مبادي الحزب:

١- المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة في القانون الأساسي كاملة.

٢- التَّعجيل بتنفيذ القانون الأساسي، خصوصًا ما يتعلق بالإصلاح، وما ينص على تدريب الطرابلسيين على حكم أنفسهم حتى يصلوا إلى حريتهم في أقرب وقت.

٣- تحقيق التَّضامن بين العرب والإيطاليين على أساس المساواة التَّامة واتحاد المصالح.

٤- نشر التعليم بكل الوسائل، مع المحافظة على العادات الإسلامية، لتدعيم الأخلاق العربية.

٥- بذل العناية لإصلاح الحالة الاقتصادية وتوزيع الثروة الوطنية على أساس عادل.

وأنشأوا جريدة اللواء الطرابلسي؛ لتكون لسان حاله، وكان الحزب يستمد قوَّته من الشَّعب، واستندت الحكومة الوطنية إلى الحزب في تأييدها وإقناع الطليان بمطالبها، وأبدى الطليان مراوغة في انتخاب مجلس النواب الذي ينص عليه القانون الأساسي، فكان حزب الإصلاح الوطني يُطالب بتنفيذه، وكانت جريدة اللواء الطرابلسي تُشير إلى هذا المعنى في جرأة وشجاعة فائقة، فكانت الحكومة الوطنية والحزب الوطني والجيش الوطني يؤيد بعضها بعضًا في المطالبة بحقوق الأمة وإلزام الطليان بتنفيذ القانون الأساسي. ورأى الطليان خطورة الموقف، فعملوا على إفساد هذا الصلح(١)، وشرع الوالي الإيطالي وأعوانه يبذرون بذور الشقاق بين الزعماء ويديرون حملة عدائية ضد القادة ويُحركون كوامن الحقد والعداء(٢).

يقول الأستاذ التليسي عن تلك الفترة: «ففي مجال العمل السياسي عملت إيطاليا على إثارة الفتنة والانشقاق والانقسام بين صفوف الزعماء، وسعت إلى استمالة بعض الفئات وتأليبها على الفئات الأخرى، وكان أهم ما توختة في هذه الفترة: العمل على إحداث انقسام بين مصراتة وورفلة، وبين ترهونة ومصراتة، ثم بين زعماء الجبل الغربي، ولا مناص من الاعتراف بأن السياسة الإيطالية -التي فشلت عسكريًا في هذه المرحلة التي أعقبت القرضابية- قد نجحت نجاحًا

(١) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٢).

كبيرًا فى إحداث الصدع بين الصفوف، بحيث لم تستأنف العمليات فى عهد فولبى إلا بعد أن أوجدت من ذلك الانقسام قاعدة كبيرة تعتمد عليها عملياتها(١).

لقد انتهز الإيطاليون فرصة المهادنة ليلقوا بذور الفتنة بين العرب والبربر من جهة، وبين البدو والحضر من جهة أخرى، وبين سكان البلدان المتجاورة أيضًا، واشتغل بعض الزعماء المخلصين بإخماد نار الفتن، ومحاولة رتق الفتوق فى كل جهة. ولكن الخروق اتَّسعت على الراقع، وكلما حاول دعاة الإصلاح إطفاء نار الفتنة من جهة أوقد الإيطاليون نارًا أخرى، ونفخوا فى جمرها من جديد(٢).

وكان من أكبر الفتن: الحرب الطاحنة بين الزنتان والبربر، فقدت بها طرابلس من أبنائها ما لا يعلم عدده إلا الله، وقعت الحرب الأولى بينهما (١٩١٦م) وخلّفت من الضَّغائن بين الفريقين ما كان سببًا من أكبر الأسباب فى الحرب الثانية التى دارت رحاها فى سنتى (١٩٢٠م، ١٩٢١م)(٣).

استغل الإيطاليون ذلك الصراع وتلك الفتن، وتحركت جيوشهم للقضاء على الطرابلسيين، فاحتَّلوا يفرن فى (٣١ من أكتوبر سنة ١٩٢٢م)، وكان معهم من الليبيين العملاء الذين انضموا إلى الجيش الإيطالى عدد كبير، وفى (١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م) احتلت غريان وبدأت المدن تتساقط أمام الجيوش الإيطالية، وانتهى الصراع بين مصراتة وورفلة بمقتل رمضان السويحلى فى عام (١٩٢٠م). لقد كانت فترة ما بعد صلح بنيادم (١٩١٩م) من أتعس الفترات التى مرَّ بها التاريخ الليبى المعاصر، فترة سواد يتحاشى المؤرخ الحديث عنها.

لم تستطع الحكومة الوطنية التى تكوَّنت بعد الصلح، أن تصنع شيئًا، وكل ما تُقرره لا ينفذ؛ لأن الزعامات كانت تتناحر داخلها، وذلك لا يُستغرب من حكومة فى جمهورية لها أربعة رؤساء.

وهكذا ولدت الجمهورية وفى جسمها جراثيم هلاكها؛ إذ أن جمهورية يحكمها أربعة، لابد أن تغرق سفينتها بمجرد إقلاعها من الشاطئ، فتعدد الربابنة مدعاة لإغراق السَّفينة(٤).

(١) انظر: معجم المعارك، (ص٥٨، ٥٩).
(٢) انظر: عبد النبى بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، (ص١١٢، ١١٣).
(٣) انظر: جهاد الأبطال (ص٢٨٥).
(٤) انظر: عبد النبى بالخير، (ص١٠٣).

وقد صور الأستاذ خليفة التليسى تلك الفترة المظلمة. فقال: «يُلاحظ أن هيئة الإصلاح المركزية لم تكن حكومة بالمعنى المفهوم للحكومة، وأن كثيرًا من المناطق قد ظلَّت غير خاضعة لحكمها ونفوذها، كما أن بعض الزعامات قد ظلت محافظة على موقفها الفردى، وكانت تستقل فى كثير من الحالات بتقدير الوضع السياسى على أساس جهوى، وبما تقتضيه مصلحة منطقتها، أو مقاطعتها، وأحيانًا قبيلتها وعشيرتها، مما انعدم معه عنصر الوحدة الوطنية الملزمة بالموقف الموحد، خاصة فى هذا الظرف العسير، بحيث يعد الخروج عليه، أو التخاذل عنه خيانة تُحسب على الخارج أو المتخاذل، وكانت هذه هى الثغرات التى نفذ منها الإيطاليون واستطاعوا استغلالها أحسن استغلال. وقد فطن الوطنيون إلى الخطر الكامن وراء انعدام توحد القيادة، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، وقد نتج عن ذلك تعدد فى المواقف، واختلاف فى وجهات النظر، وترك الأمر للاجتهاد الخاص، يُحدد الموقف ويرسم الطريق. فرأينا بعض الزعماء يُعارضون -عن اجتهاد خاص- المقاومة المسلحة لإيطاليا عقب نزولها بقصر أحمد، ورأينا آخرين يقفون على الحياد، كأن الأمر لا يتصل بهم من قريب أو بعيد، ورأينا بعضهم يتشبث بأن يكون صاحب الكلمة النهائية فى إبرام الهدنة، نظرًا لأن الاعتداء واقع على أرضه (بالمعنى الجهوى). وهكذا تحدَّدت مواقف الزعماء فى تاريخنا فى كثير من الحالات على أساس جهوى، وكان لكل جهة صاحب يتولى أمرها ويُقرر مصيرها ويُحدد موقفها، وانعدام القاعدة السياسية قد عرَّض مواقف الزعماء وشخصياتهم لكثير من الخلخلة والاهتزازات»[1].

سابعًا: مؤتمر غريان:

بعد التطورات الخطيرة والانشقاقات العظيمة التى وقعت بين الزعماء، رأى عقلاء طرابلس ضرورة الاجتماع فى مؤتمر عام ليتدارسوا الأوضاع الراهنة، ويتخذوا حيالها موقفًا مشتركًا.

اجتمع المؤتمر فى شهر (ربيع الأول سنة ١٣٣٩هـ الموافق نوفمبر سنة ١٩٢٠م) بعد أن اختار كل بلد من يمثله ما عدا بلاد البربر، وأسفرت النتيجة عن انتخاب:

* أحمد بك المريض، رئيسًا.
* الأستاذ عبد الرحمن بك عزام، مستشارًا.
* محمد بك فرحان، عضوًا.
* الصادق بك الحاج، عضوًا.

(١) انظر: عبد النبى بالخير، (ص١٢١).

* عمر أبو دبوس، عضواً.
* صالح بن يسلطان، عضواً.
* التهامى قليصة، عضواً.
* الشيخ أحمد الرحيبى، عضواً.
* العيساوى بو خنجر، عضواً.
* محمد التايب، عضواً.
* عثمان القيزانى، عضواً.
* على بن تنتوش، عضواً.
* مختار كعبار، عضواً.
* عبد الرحمن زبيدة، عضواً.
* الحاج محمد بن عمر، عضواً.
* عبد السلام الجدايمى، عضواً.
* نورى السعداوى، عضواً.
* بشير السعداوى، عضواً.
* حسين بن جابر، عضواً.
* سالم البحباح، عضواً.
* الصويعى الخيتونى، عضواً.

وقد اختار المؤتمرون أحمد بك رئيساً للمؤتمر، وكانت الظروف إذ ذاك تتطلب ذلك؛ فرمضان السويحلى قُتل، وسليمان البارونى امتنع عن الحضور؛ لأنه كان متأثراً بالحرب التى وقعت بين الزنتان والبربر، وأرسل إليه أحمد بك المريض بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر بأنه مستعد للتنازل له عن الرياسة فأبى وحاول المؤتمر إقناعه فامتنع واستمر المؤتمر فى أعماله الوطنية، وامتنع عبد النبى بالخير عن الحضور بسبب مقتل رمضان السويحلى، ومثّل ورفلة عبد الرحمن زبيدة ومحمد العيساوى[1]، وأصدر المؤتمر بعد انتهاء جلساته قراراً هذا نصه:

(١) انظر: جهاد الأبطال (ص٢٩٩، ٣٠٠).

«إن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يُمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يُحقق الشرع الإسلامى بزعامة مسلم يُنتخب من الأمة ولا يُعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية، بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها، وأن يشمل حكمه جميع البلاد المعروفة»(١).

وانفض المؤتمر، وأبلغ قراراته إلى الحاكم الإيطالى فى طرابلس، وقرر إرسال وفد إلى روما؛ ليطالب بتنفيذ قراراته.

وكان الوفد يتكون من: محمد بك فرحات الزاوى رئيسًا، ومحمد نورى السعداوى، والصادق بن الحاج، وخالد القرقنى، وعبد السلام البوصيرى.

واستطاع هذا الوفد أن يتصل برؤساء الأحزاب فى إيطاليا ومحررى الجرائد، وتمكن من إعلان قضيته فى بعض الجرائد، وامتنعت الحكومة وأصحاب القرار عن الاجتماع بهم، وقام والى طرابلس بإرسال وفد ليبى مناهض لوفد غريان، وأسفرت نتيجة الوفد الوطنى عن الرجوع بخفى حنين، وتأزم الموقف بعد رجوع الوفد، وقام الطليان بنشاط عسكرى؛ لمقاومة الروح الوطنية، واعتقلوا أناسًا من حزب الإصلاح الوطنى(٢).

كانت الفتنة بين طرابلس وبرقة قد اشتدت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحصل فتور بين البرقاويين والطرابلسيين، استمر لمدة خمس سنوات، وترتب على ذلك تعدٍّ على الأموال والأشخاص(٣).

وكان عقلاء طرابلس وبرقة لا ترضيهم تلك الحالة المزرية التى لا يرضى عنها عقل ولا شرع ولا عرف، وبادر السيد أحمد المريض بإرسال رسالة لأخيه الأمير محمد إدريس السنوسى، وكانت مليئة بالمعانى الرفيعة والعبارات السامية، ورد على تلك الرسالة الأمير محمد إدريس وترتب بعد ذلك اجتماع سرت العظيم(٤).

ثامنًا: اجتماع سرت:

اجتمع الوفدان الطرابلسى والبرقاوى فى سرت، وكان يُمثل الوفد الطرابلسى كل من أحمد بك السويحلى، وعبد الرحمن بك عزَّام، وعمر بو دبوس، ومحمد نورى السعداوى، والشتيوى بن سالم، والصويعى الخيتونى، والحاج صالح بن سلطان. ويُمثل

(١) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٠١).
(٢) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٠٣).
(٣) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٠٤).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٦).

برقة كل من: الشيخ صالح الأطيوش، والشيخ نصر الأعمى، والشيخ خالد القيصة، والشيخ صالح السنوسى بن عبد الهادى البرانى. وشرع المجتمعون فى استعراض الحال التى وصلت إليها البلاد، ومعالجة أسباب الخلاف وخرجوا بهذه القرارات التى اتفق عليها ممثلو طرابلس وبرقة:

«الحمد لله المبدئ الفعال لما يُريد، ألّف قلوب المسلمين وجعلهم خير أمة للعالمين، والصلاة والسلام على رسول الهدى والرحمة الذى جاء يدعونا إلى العزة والإباء، ويُعلمنا كيف نُقاتل الأعداء وبعد:

فقد اجتمعنا نحن الموقعين على هذه المعاهدة، المفوضون من قِبل طرابلس وبرقة، وقررنا بعد مداولة الفكر المواد الآتية المتضمنة اتفاق القطر الطرابلسى البرقاوى على الاتحاد والتعاون فى السراء والضراء:

١- يجب أن نُوحِّد كلمتنا ضد عدونا الغاصب لبلادنا وضد المفسدين.

٢- يجب أن يكون عدونا واحدًا وصديقنا واحدًا.

٣- إن جميع ما وقع بين الطرفين من التَّجاوز لا يُطالب به أحد الآخر إلى أن تستقر الحالة فى الوطن، وتتعين وضعية البلاد العمومية. ومع ذلك يجب أن يسعى الطرفان فى المسامحة بين العربان، ومن يتعدَّىٰ بعد الآن فعلى الحكومة التابع لها أن تُعاقبه بما يستحق.

٤- كل من يُخالف الجماعة ويدس الدسائس الأجنبية، على الحكومة المنسوب إليها إعدامه ومُصادرة أمواله حسب الشريعة الإسلامية.

٥- يرى الطرفان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضى بتوحيد الزعامة على البلاد، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمَّة.

٦- يتَّخذ الطرفان الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الغاية المذكورة فى المادة الخامسة وأن تكون تولية الأمير بإرادة الأمة.

٧- متى تحققت الغاية المذكورة فى المادة الخامسة يجب انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد. وقبل ذلك، وتمهيدًا لهذه الأعمال، يجب على الفريقين أن يُرسل كل منهما مندوبًا للبلدين لأجل أن يشتركا فى سياسة البلاد والتدابير المقتضاة للدفاع عن الوطن.

٨- يتعهَّد الطرفان بألا يعترفوا للعدو بسلطة، وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الأماكن المتحصن بها الآن، وفي حالة وقوع حرب يتضافر الفريقان على حرب العدو، وألا يعقد صلحًا أو هدنة إلا بموافقة الفريقين.

٩- إذا خرج العدو من حصونه مهاجمًا جهة من الجهات وجب على الجهة الأخرى أن تمد المهاجم بالمهمَّات الحربية والمال والرجال، وأن تُنذر العدو بالكف عن التَّجاوز، وإذا لم يكف تهاجمه هي بدورها.

١٠- تجتمع هيئة منتخبة من أهالي طرابلس وبرقة مرتين في كل سنة في شهر المحرم ورجب للنَّظر في مصالح البلاد.

١١- يشترط أن توافق على هذه المعاهدة كل من حكومة برقة والهيئة المركزية في جهة طرابلس.

١٢- مهمة الهيئة المذكورة تأييد العلائق الودية بين الطرفين، وتأييد الاتفاقية[١].

قصر سرت في يوم (السبت ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠هـ، الموافق ٢١ من يناير سنة ١٩٢٢م).

كانت الحكومة الإيطالية تتابع الأخبار وما يدور بين برقة وطرابلس، وخافوا أن يترتب على اتفاق طرابلس وبرقة ما لا تحمد عقباه، فقرر وولبي احتلال مصراتة، قبل أن يصل الليبيون إلى نتيجة في مؤتمر سرت، واستطاع الطليان أن يحتلوا قصر حمد، وبدأ الجهاد من جديد، وأراد الطليان أن يخدعوا المجاهدين ودعوا إلى عقد المفاوضات في فندق الشريف؛ لكسب الوقت وإعداد العدة، وانتظار المدد من إيطاليا، واستمرت المفاوضات واتضح للمجاهدين أن الطليان عازمون على الحرب، وانقطعت المفاوضات في (يوم ١٠ من أبريل سنة ١٩٢٢م) واستعد كل من الطرفين لما تتمخض عنه الأيام المقبلة.

وكان من أقوى العوامل التي جعلت والي طرابلس وولبي يتشدد مع المجاهدين ويرفض مطالبهم: ظهور الفاشستية في إيطاليا، وأصبحت وشيكة أن تستولي على مقدرات إيطاليا[٢].

وكان من مبادئهم المنحرفة: الوصول إلى أغراضهم بكل وسيلة ولا يجدون في نفوسهم غضاضة إذا كانت أعمالهم مخالفة للإنسانية أو للحقوق العامة متى كان فيها مصلحة لهم أو لبلادهم، ولا يستحون من أن يعلنوا صراحة أنهم لا يعرفون الحرية، ولا يقدسون الحقوق العامة، ولا يحترمون العهود متى كان ذلك ضروريًا لمصلحة إيطاليا[٣].

(١) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٠٤). (٢) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٠٨، ٣١٦).
(٣) انظر: جهاد الأبطال (ص ٣١٦).

يقول شكيب أرسلان: «الموسولينى خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون إشكال، فلهذا لم تبق فى إيطاليا لا حرية قول، ولا حرية كتابة، وكل شىء يصادم إرادة الفاشست فهو ممنوع»(١).

بعد انقطاع مفاوضات فندق الشريف فى (١٠ من أبريل سنة ١٩٢٢م) استؤنفت الحرب من جديد، وأصبح الطليان يتوغلون فى طرابلس، والمجاهدون يتراجعون أمام هجماتهم الشرسة.

فرأى الطرابلسيون إرسال وفد إلى الأمير محمد إدريس ليبايعوه بالإمارة تنفيذًا لما قررته هيئة الإصلاح المركزية فى فندق الشريف، وكان ذلك الوفد يتألف من: الشيخ محمد بن حسن، والشيخ محمود المسلاتى، والشيخ طاهر الزاوى. ووصل الوفد إجدابية فى (شوال عام ١٣٤٠هـ)، وقابل الأمير محمد إدريس، وأبلغه الوفد هدفه الذى جاء من أجله، فاعتذر عن عدم الذهاب إلى طرابلس لشدة الحر، وانحراف صحته، ووعد بالسفر عندما تتحسن صحته(٢).

وحرصت إيطاليا على أن تستشف ما وصل إليه زعماء برقة وطرابلس، فأرسلت أمندولا وزير المستعمرات الإيطالية للدخول فى مباحثات مع الأمير إدريس، واشترط الإيطاليون قبل الدخول فى المباحثات أن يغادر بشير السعداوى ممثل الحكومة الوطنية الطرابلسية إجدابية، وكان الأمير إدريس يأمل أن يصل إلى إيقاف الحرب بين إيطاليا والطرابلسيين؛ ولذلك طلب من بشير السعداوى أن يخرجوا إلى الطبيل(٣).

وبعد ذلك حضر وزير المستعمرات الإيطالى إلى غوط الساس بالقرب من المرج، والتقى الأمير محمد إدريس فى (٢٢ من يونية ١٩٢٢م)، وعمل على إقناع أمندولا بضرورة تهدئة الأحوال فى طرابلس. وبعد انتهاء المباحثات أرسل الأمير إدريس إلى بشير السعداوى وزملائه كلا من صالح الأطيوش، والفضيل المهشهش، أحد أبناء الكزة، وسلم هؤلاء كتابًا لبشير السعداوى من سمو الأمير أخبره فيه بمقابلته مع وزير المستعمرات فى غوط الساس، وبحث القضية الطرابلسية معه؛ وبأن المباحثات قد أسفرت عن إظهار إيطاليا استعدادها للصلح معها. وفضلاً عن ذلك فقد جاء الجماعة بكتاب آخر من الأمير موجهًا إلى رئيس هيئة الإصلاح المركزية بهذا المعنى، فبادر بشير السعداوى بأنه يعتزم العودة فورًا إلى طرابلس لإتمام البيعة ووعد بالعودة سريعًا إلى إجدابية يحمل معه البيعة(٤).

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى.

(٢) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٢٣).

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٨).

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٨).

وغادر بشير السعداوى برقة إلى طرابلس، وبمجرد وصوله إلى مصراتة اجتمع بالزعماء الطرابلسيين ونادى بالبيعة لسمو الأمير محمد إدريس مستندًا فى ذلك إلى أنه لا سبيل إلى الخلاص البتة إلا بالاتفاق والتعاون ضد العدو الإيطالى، وكتب بشير السعداوى نص البيعة بنفسه، ثم ذهب بها من مصراتة إلى مسلاتة، ثم إلى غريان، وهناك كانت هيئة الإصلاح المركزية مجتمعة برئاسة أحمد المريض، فقرأ عليهم البيعة ووافق هؤلاء عليها بالإجماع ودون مناقشة(١).

وما أن علم الطليان بتلك التطورات ومجىء الوفد الطرابلسى إلى إجدابية حتى ثارت ثائرتهم، وأعلمت الحكومة الإيطالية الأمير محمد إدريس بأنها لن تتوانى عن مهاجمة إجدابية ذاتها، ولما أدرك الأمير إدريس خطورة الموقف بدأ يبذل قصارى جهده لإقناع الحكومة الإيطالية بأن الطرابلسيين ما قصدوا بما فعلوه سوى حقن الدماء وفض خلافهم مع إخوانهم أهل برقة، وأن واجب الحكومة الإيطالية يحتم عليها أن توقف اعتداءاتها على الطرابلسيين، فضلاً عن أنه كان للأمير -على حسب اتفاق الرجمة -الحق فى أن يعرض ما يراه فى مصلحة البلاد على الحكومة الإيطالية، كما أن معاهدة الرجمة قد ألزمت الطليان كذلك بأن يضعوا موضع الاعتبار كل ما يبديه الأمير من آراء فى ذلك(٢).

تاسعًا: نص البيعة:

تقرر أن يذهب السيد بشير السعداوى بوصفه مندوبًا من هيئة الإصلاح على رأس وفد لتسليم كتاب البيعة إلى الأمير محمد إدريس، وكان ضمن هذا الوفد كل من: عبد الرحمن عزام، ومحمد الصادق بالحاج، ونورى السعداوى، والشيخ محمد عبد الملك، ووقع على كتاب البيعة أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية وعبد الرحمن عزام مستشارها، ثم أعضاء الهيئة: محمد بن عمر، وبشير السعداوى، وحسين بن جابر، ومحمد فرحات، وعبد الرحمن زبيدة، ومحمد التائب، وسالم البحباح، وعثمان القيزانى، وعمر بو دبوس، ومحمد صادق بن الحاج، ومحمد مختار كعبار، ومحمد فكينى، والصويعى الخيتونى. كما وقع على البيعة من الأعيان: محمد الديب، ومحمد سوف، وعمر ضياء، وعلى أبو حبيل، وأحمد القاضى، ومحمد الرقنى، وأحمد السنى، والبغدادى بن معيوف، ومحمد الصغير، وهذا نص البيعة:

«سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس -حفظه الله ورعاه- إنه لا يخفى على سموه أن الخلاف لايزال قائمًا بينهم وبين الحكومة الإيطالية؛ وذلك لأن الحكومة الإيطالية وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعيها، وسياسيها، وإداريها، وجعلت من قوتها مبررًا للتصرف فى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٩).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٥٩، ٢٦٠).

مصيرنا وحقوقنا الطبيعية، ونحن خير أمة أُخرجت للناس لا نتحمل ضيمًا، ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كائنًا ما كان، الأمر الذى حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب المتوالية، معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية ألا وهى تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاثة: الدينية والسياسية والعسكرية، مع مجلس نيابى تنتخب الأمة أعضاءه، وبهذا يسلم وطننا ويتم أمر ديننا وتصلح أحكام قضايانا، ونحفظ شرعنا، وعنعنة تاريخنا الباهر، وهذا لا ينافى ما تدعية إيطاليا، وما دأبت عليه من خطب رجالها من أنها تحتل ديارنا بنية الاستعمار، وإنها ساقتها دواعى السياسة الدولية فى البحر المتوسط، ولو كانت صادقة فى دعواها هذه لما عرضت بلادنا للخراب بتوالى الهجمات، واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى، وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفا حول أمير واحد يرضيانه. وحيث كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجتمع فى ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن «هيئة الإصلاح المركزية» الحائزة للوكالة المطلقة من مؤتمر غريان الذى يمثل الأمة الطرابلسية، بانتخاب واقع منها قد وجدت فى سموكم أميرًا حازمًا قادرًا على جمع الأمة للثقة العامة محبوبًا، فهى لذلك تبايع سموكم أميرًا للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوه بها، على أن مبايعتكم كانت مضمرة فى كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبى القطرين فى «سرت»، وكان السبب فى تأخير تحقيقها طوارئ الحرب التى طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة، ورجال القطر فى منطقة شاسعة من المناطق الحربية. وبهذه البيعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين، ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم إيانا حسب رغبة الأمة تقام لكم مظاهر هذه البيعة فى موكب لائق بسموكم، والله سبحانه وتعالى يمدكم بروح من عنده ويجعل البركة فى البيت السنوسى المؤسس على التقوى والصلاح»[1].

وبادر الأمير محمد إدريس بمصافحة تلك اليد الممدودة وقبل البيعة دون تردد وأجاب على كتاب البيعة فى (٢٢ من ربيع الأول ١٣٤١ هـ الموافق ٢٢ من نوفمبر ١٩٢٢م)، فقال: «وبعد.. فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التى أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة فى تحقيق غايتكم التى أجمعتم عليها فى مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهادًا صادقًا بالأنفس والثمرات فى شخصى فأخذتها داعيًا الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكلل مساعيها كلها بالنجاح. ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التى طالما سعيت إليها، وجدت من واجبى أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٦٢).

أتحمل المسئولية العظمى التى رأت الأمة تكليفى بها، فعلىّ إذن أن أعمل بجد معكم، ولكن لا تنسوا أننى بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لى على شىء، إنى أعلم أن الحياة الخالدة هى للأمم لا للأفراد، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هى التى تنصرف إلى صالح الجميع، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة، إذ من حق كل شعب أن يسيطر على شئونه، والناس منذ نشأوا أحرار.

وقد أظهر شعبنا فى كل أدواره مقدار محبته للحرية، فدفع مهورًا غالية، فلا يصح لأحد أن يطمع فى استعباده والاستبداد بشئونه.

لقد اشترطتم علىّ الشورى وهى أساس ديننا، وسأعمل على قاعدتها، هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ما هى عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد، فلذلك أكلُ إلى الهيئة المركزية -لما أبدت من الحمية، والعدل، والدراية- أن تستمر على إدارة شئون القطر الطرابلسى، ولى الثقة العظيمة فى حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيدوا مساعى الهيئة الملية أن يتحملوا مشاق المسئولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطنى الذى شيدوه وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ويثبت الأقدام، ويقهر الأعداء، ويمن بالنصر الموعود إنه على ما يشاء قدير»(١).

حاول مستشار الأمير محمد إدريس عمر منصور الكيخيا أن يوفق بين سياسة الأمير إدريس مع الطليان، وحرصه على وحدة الصف واجتماع الكلمة تحت زعامته، وانعقدت اجتماعات ومناقشات، واستمر هذا الميدان مفتوحًا نحو أربعين يومًا، ولم يهتد الباحثون إلى الحل المطلوب إلا بمغادرة الأمير محمد إدريس إجدابية إلى مصر فى اليوم الثانى من جمادى الأولى سنة (١٣٤١هـ - ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٢م) (٢)، وكان ذلك السفر بسبب مرض ألم به ونصحه الأطباء بالذهاب إلى مصر للعلاج، وكان قبل سفره قد تعكرت وتغيرت العلاقات السنوسية مع إيطاليا، وحدثت بعض الاشتباكات بين الطليان والعربان بسبب حرص الطليان على نزع السلاح منهم، وتم اعتقال الشيخ العوامى ظلمًا وزورًا، وكانت هناك محاولة أخرى للقبض على صفى الدين، ولكنها باءت بالفشل بسبب الخبر الثمين الذى سربه عثمان العنيزى إلى صفى الدين محذرًا إياه من غدر الطليان به.

إن الأمير محمد إدريس اتخذ قرار الهجرة إلى مصر بعد دراسة وافية للمرحلة التى مرت بها البلاد، وللتطورات السياسية والعسكرية التى حدثت على الساحة، فالحل العسكرى كان يعرف

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٦٢). (٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٣٣١).

باستحالته منذ البداية وكان يعمل ما فى وسعه لإقناع الآخرين بذلك للمحافظة على دماء المواطنين التى كانت تهدر بدون نتيجة، مما كان سيتسبب فى إحباط الروح المعنوية وتمكين العدو، فقد كان يرى أن المقاومة الليبية المسلحة لن يمكنها بأى حال من الأحوال دحر القوات الإيطالية.

ثم إن المجهودات الدبلوماسية التى كان يقوم بها قد أعطت كل ما يمكنها إعطاؤه فى تلك المرحلة، فرحل عن البلاد؛ ليحتفظ بحريته ويراقب الوضع الدولى ويتحين الفرص(١).

لقد تعرض الأمير إدريس للانتقاد بدعوى أنه ترك شعبه أثناء منعطف تاريخى مهم فى (١٩٢٢م). لقد حاول الإيطاليون قتله بالسم(٢)، وتنامت الخلافات والمشاكل بينه وبين الحكومة الإيطالية حتى لم يجد فى مقدوره التغلب عليها، فمعاهدة الرجمة لا تعدو كونها محاولة عقيمة لإقامة نوع من الحكم الثنائى يشارك فيه الإيطاليون والسنوسيون معًا، ولم يقدر لها النجاح أبدًا من الناحية العملية، ثم انقطع الرجاء فى استمرارها نهائيًا عقب استيلاء الفاشست على مقاليد السلطة فى إيطاليا، ولم يعد من المصلحة البقاء فى وجود نظام فاشى، فلو أن الأمير محمد إدريس أصر على البقاء داخل ليبيا فى ذلك الوقت لكانوا قبضوا عليه حتمًا، وكانت أهميته القصوى بالنسبة لليبيين تكمن فى سعة نفوذه وهيبته فى العالم الإسلامى كزعيم للحركة السنوسية، وحنكته فى أساليب التفاوض السياسى، وخبرته بالقضايا الدولية، وقد ظهر أثره فى الحرب العالمية الثانية، واستفاد من الفرص التى أتيحت، وشكل الجيش السنوسى الذى خاض معارك ضارية ضد إيطاليا وألمانيا، وساعد ذلك الجيش الحلفاء مما اضطرهم للاعتراف بالجهود التى بذلها الليبيون واستفاد الأمير محمد إدريس من تلك الأعمال الجليلة فى مباحثاته ومفاوضته مع الإنجليز(٣).

إن فترة المهجر التى عاشها الأمير محمد إدريس فى مصر كانت من أصعب أيام حياته فقد قال عنها: «وكانت تلك الفترة تعيسة للغاية، فقدت أثناءها الكثيرين من أخلص أصدقائى وأنصارى الذين استُشهدوا فى معارك الجهاد ضد الإيطاليين، كما غمرنى الحزن والأسى الشديد لمعاناة أهل برقة، وعقب احتلال الكفرة دُمر المسجد الذى كان يضم رفات والدى، ونُهبت وبُعثرت محتويات المكتبة التى كان فيها الكثير من كتبنا ومخطوطاتنا، وما كا يشد من أزرى عبر تلك الظروف العصيبة سوى ثقتى بالله وتعاطف أصدقائنا فى العالم العربى»(٤).

---

(١) انظر: تعليق محمد عبد بن غلبون على كتاب الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره (ص٤٣).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٦٢). (٣) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا (ص٤٤).
(٤) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا (ص٤٧).

إن الأمير محمد إدريس قبل أن يغادر البلاد حاول تنظيم أمور المقاومة ضد الاحتلال الإيطالى، وبحث الأمر مع زعماء ورؤساء برقة من جانب، ومع بشير السعداوى والوفود الطرابلسية من جانب آخر.

واستقر رأى الأمير على أن يعهد بالأعمال السياسية والعسكرية فى برقة إلى عمر المختار نائبًا عنه فى تنظيم معسكرات المجاهدين، وعهد بالمسائل الدينية وما يتعلق بالسنوسية وشئون الأسرة الكريمة إلى أخيه السيد محمد الرضا، وكان السيد محمد الرضا فى جالو نائبًا عن سموه فى إدارة شئونها، وزود الأمير رجاله بالتعليمات اللازمة وأوصاهم باتخاذ الحيطة دائمًا من غدر الطليان، واتفق مع الشيخ عمر المختار ومع بعض القادة ليكونوا رؤساء على معسكرات المجاهدين فى برقة، ومن هؤلاء القادة: السيد محمد الصديق بن محمد رضا وأخوه الحسن، وقجة عبد الله السودانى، والفضيل بو عمر، ويوسف بورحيل، وحسين الجويفى، وعبد الله سوم. على أن يتولى قيادة هذه الجيوش جميعًا الشيخ عمر المختار[(١)].

وبحث الأمير مع بشير السعداوى مسألة استمرار الجهاد فى طرابلس ضد الطليان، وقبل ذلك تقدم بشير السعداوى بمشروع إنشاء هيئة مركزية فى برقة من رؤساء القبائل تضطلع بأعباء الإدارة، واختار الأمير لرئاستها الشيخ مختار الغدامسى وهو من القضاة الشرعيين، ومن أكابر علماء البلاد، وبعد مغادرة الأمير إجدابية عقدت الهيئة المركزية البرقاوية جلسات عدة للبحث فى شئون البلاد وتهيئة وسائل الجهاد ضد العدو الإيطالى النصرانى الحاقد، وحضر بشير السعداوى جلسات الهيئة، وعرض على الحاضرين تشكيل جبهة متحدة من برقة وطرابلس لمتابعة الجهاد ضد إيطاليا دون أى إبطاء، وبعد تبادل الرأى وافق الحاضرون على رأى السعداوى.

وتأهب السعداوى للسفر إلى طرابلس، وكان معه صفى الدين السنوسى فى (٢١ من رجب ١٣٤١هـ -٩ من مارس ١٩٢٣م)، وكان فى رفقتهم مجموعة من خيار المجاهدين من أمثال: أحمد باشا سيف النصر، وعمر سيف. يقول صفى الدين: «وعندما وصلنا إلى النوفلية وجدنا بها خالد بك القرقنى وعثمان بك الجيزانى، فارتحلنا جميعًا إلى سرت. وفى أثناء الطريق وصلنا خبر مشئوم مفاده أن محمد سعدون السويحلى أخا رمضان السويحلى قد استُشهد فى القتال، وكان محمد سعدون من خيرة القواد الذين تولوا قيادة العمليات العسكرية فى الحركة الأخيرة. على أننا تابعنا السير بعد ذلك حتى بلغنا سرت، وهناك قابلنا أحمد بك المريض، ثم ذهبنا إلى

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٦٧).

وادى نفد بين مصراتة وورفلة فوجدنا أحمد شتيوى وهو من إخوة رمضان السويحلى، وكان شتيوى متصرفًا على مصراتة، ثم وجدنا معسكر المجاهدين العام»[١].

وقد بذل بشير السعداوى جهودًا عظيمة لحشد جموع المجاهدين حول السيد صفى الدين وتحت زعامة السنوسية، وكان قائد معسكر المجاهدين الطرابلسيين فى وادى نفد حوالى ثمانية شهور من (شعبان ١٣٤١هـ) إلى شهر (جمادى الأولى من عام ١٣٤٢هـ الموافق أبريل -ديسمبر ١٩٢٣م).

وبعد فترة من الزمن بدأ زعماء المجاهدين فى ترك معسكر نفد ولم يبق إلا أحمد السويحلى، وكانت القوات الإيطالية تتقدم وتحتل المدن فى منطقة طرابلس. وقد ذكر الشيخ طاهر الزاوى كيف احتل الطليان منطقة طرابلس ومدنها بنوع من التفصيل[٢]، واضطر صفى الدين- أمام انحلال المقاومة، وضعف حركة الجهاد- أن يذهب إلى جالو وبعث إلى الأمير محمد أدريس بمصر يخبره بكل ما وقع، فأجابه الأمير بأن له أن يختار إما البقاء فى جالو وإما الذهاب إلى جغبوب، وارتحل صفى الدين إلى الجغبوب فى (صفر ١٣٤٣هـ -سبتمبر ١٩٢٣م).

وكان بشير السعداوى يواصل جهاده المرير بجمع كلمة المجاهدين، وعقد الاجتماعات لتحقيق هذه الغاية فى القرضابية، ثم فى قصر بو هادى. واستطاع أن يؤسس مركزًا للجهاد فى المكان الأخير، وتسلم القيادة فى سرت وجمع شتات المنهزمين اللاجئين إلى سرت، وكانوا حوالى خمسين أو ستين ألفًا، وثبت المجاهدون فى مصراتة وترهونة أقدامهم نتيجة لهذا العمل، ولكن الطليان -بقواتهم الجرارة وطائراتهم- استطاعوا القضاء على حركة المقاومة رويدًا رويدًا، ثم هاجموا فى آخر الأمر ورفلة، وعندئذ انحلت المقاومة تمامًا.

قال محمد فؤاد شكرى: إن خروج بشير السعداوى كان مؤذنًا بأن الثورة قد انتهت فعلاً وأن الأمر قد استتب للطليان فى طرابلس أخيرًا، وأن برقة وحدها هى التى أصبحت تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو، وكان والى برقة الجديد بونجيو فانى قد بدأ يحل الأدوار المختلفة فى برقة عنوة واقتدارًا، وتم له ما أراد فى الأسبوع الأول من شهر (مارس ١٩٢٣م) فحلت

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٦٨).

(٢) انظر: جهاد الأبطال، (ص٢٣٥ إلى ٢٦٢).

الحكومة فى (٦ مارس) معسكرات الأبيار وتكنس وسلنطة والمخيلى وعكرمة، وانتهز بونجيو فانى فرصة افتتاح الدورة البرلمانية فى اليوم نفسه وهجم فى البرلمان على السنوسية.

وقال: إن السنوسيين كانوا غير مخلصين للحكومة الإيطالية، ثم أبلغ سامعيه التدابير التى اتخذها للقضاء على السنوسية، وكانت أولى التدابير: احتلال إجدابية ذاتها فى (٢١ من أبريل ١٩٢٣م) وهى مقر الإمارة السنوسية وفى (٢٤ من أبريل) أعلن الوالى «أن كل الاتفاقيات التى أبرمتها إيطاليا مع السنوسية قد أصبحت لاغية ولا أثر لها»(١).

وفى أول مايو من السنة نفسها عاد بونجيو فانى، فأكد إلغاء هذه الاتفاقات فى منشور أعلن فيه «أن السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة تشبه غيرها من الطرق الإسلامية، وأن نشاطها يجب أن يظل نشاطًا دينيًا محدودًا فحسب، وفى (يوم ٣ من مايو) ذهب ألدرو فاندى الوزير الإيطالى فى مصر لمقابلة الأمير محمد إدريس وأبلغه أن الاتفاقات التى عقدتها إيطاليا معه قد أصبحت لاغية، ولا وجود لها.

يقول الأمير محمد إدريس: «بعد بضعة أشهر من قدومى إلى مصر أبلغنى الوزير الإيطالى المفوض فى القاهرة بأن حكومة موسولينى ألغت جميع العهود والمواثيق المعقودة مع السنوسيين، وكان ذلك فى (مايو ١٩٢٣م)، وكان الإيطاليون قد ألقوا القبض على عمر باشا الكخيا بتهمة التواطؤ فى هروبى، فحبسوه أولاً فى بنغازى ثم نقلوه إلى معتقل فى إيطاليا، وبعدها بشهور قلائل علمت أن الحكومة الإيطالية قد طلبت من الحكومة المصرية تسليمى إليها ووعدت بعدم تعرضى لأى أذى.

وشعرت بالخطر المحقق نظرًا لأن الملك فؤاد كانت أمه إيطالية، وقد تربى فى إيطاليا وتربطه بالإيطاليين علاقة حميمة ربما تدفعه إلى تلبية طلبهم...»(٢).

ومن ذلك الحين بدأ الجهاد بقيادة عمر المختار فى برقة ضد إيطاليا من غير هوادة أو لين أو ضعف أو خور. وقبل الدخول فى سيرة الشيخ عمر المختار العطرة، نحاول أن نقف مع الأحداث السابقة لنتأمل فى العبر والدروس لتسترشد بها الأجيال فى مستقبلها.

إن من الأمور الخطيرة التى مرت بها البلاد فيما بين (١٩١٦م) و (١٩٢٣م) أن انقسم زعماء ليبيا إلى قسمين بالنسبة للأوضاع الدولية فى بداية الحرب العالمية الأولى، مما ضاعف م توسيع

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٧٠). (٢) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، (ص٤٥).

هوة الخلاف؛ فأهل برقة عقدوا مصالحة مع الإنجليز وإيطاليا، وأهل طرابلس وقفوا مع الأتراك قلبًا وقالبًا، وحدث تنازع على النفوذ ووصل إلى حد القتال بين الأشقاء. وبعد هزيمة الأتراك والألمان وخروجهم من ليبيا، جاءت فكرة الجمهورية الطرابلسية، ولم يستطع الزعماء أن يتغلبوا على أهوائهم الشخصية، فانتهى بهم الأمر إلى مقتل رمضان السويحلي -رحمه الله تعالى-، وهاجر سليمان الباروني -رحمه الله- من البلاد، وأصبح مستشارًا لحكومة مسقط بدولة عمان، وتوفى إثر مرضه ببومباى بالهند عام (١٩٤١م)[١]، وعبد النبي بالخير -رحمه الله- توفى فى الصحراء الكبرى أثناء هجرته إلى تونس بسبب العطش[٢]، وأحمد المريض -رحمه الله- توفى فى الفيوم بمصر عام (١٩٤١م)[٣]، ومحمد إدريس السنوسى -رحمه الله- أصبح لاجئًا سياسيًا.

أقول: لو اتفق زعماء طرابلس فى بداية أمرهم على قلب رجل واحد، لكانت النتائج لصالح الإسلام والمسلمين. لقد كانت البلاد فى تلك الفترة فى أشد الحاجة إلى توحيد الكلمة تحت قيادة رجل له مدارك الباروني، وهدوئه وحياده، وذكاء عبد النبي ودهائه، وصلابة رمضان وشجاعته، وحلم أحمد المريض وسعة صدره، وكان كل من يحاول من الزعماء أن يتطلع إلى الانفراد بالحكم فى تلك الفترة المظلمة إنما يحاول المستحيل، فكان من اللازم التضحية بنصيب من الأنانية، والنعرة القبلية، ومحاربة الأهواء، ونبذ التعصب لتوحيد الشعب نحو مقصد الجهاد ضد المحتل الحاقد وأن يختاروا زعيمًا من بينهم، ويقف الجميع لدعمه، ويقفلوا الأبواب على كل مخططات الأعداء التى تريد تمزيق الصف، وتعميق الخلاف، وضرب الزعماء ببعضهم. كما أن ما وصل إليه الطرابلسيون من وجوب توحيد جهودهم مع البرقاويين جاء متأخرًا، وبعد فوات الأوان، ولو كان قبل ذلك بسنين، أو فى زمن قيادة أحمد الشريف، لكان ذلك الاتحاد من عوامل النهوض وأسباب النصر، ولقامت إمارة قوية تستطيع أن تتغلب على العدو المحتل، وتبنى دولة عصرية قوية، ولوجدت فيها الأجيال امتدادًا حضاريًا وبعدًا سياسيًا وانتماءً حقيقيًا لمفهوم العقيدة والدين والأمة والشعب والوطن. لقد شبه أحد المؤرخين تلك المرحلة بفترة ملوك الطوائف فى الأندلس، فالنزعة القبلية لا تزال فى عنفوانها ودكتاتورية زعيم القبيلة لا يمكن محوها والتغلب عليها، وإن كانت المنطقة الشرقية تغلبت عليها بالدعوة الشاملة، والتربية العميقة وبتوفيق الله تعالى، ثم بسبب جهود الحركة السنوسية فى قبائل برقة.

---

(١) انظر: الأعلام للزركلى (٣/ ١٢٩).

(٢) انظر: عبد النبي بالخير، داهية السياسة (ص٢٥١).

(٣) انظر: جهاد الأبطال (ص٣٣٣).

إن الدرس المهم هو أن يتغلب الزعماء على أهوائهم من أجل المصالح العليا للبلاد والعباد، وإلا أصبحت بلادنا فوضى يسهل عندئذ لأعدائنا اختراقها، ومص خيراتها، وتشتيت رجالها. إن الخطاب لوحدة الصف، وتوحيد الجهود، نقصد به كل مسلم من أبناء ليبيا حريص على بلده وشعبه وأمته.

إن الابتعاد عن الهوى ومحاربته في النفوس من أسباب النهوض ومن الأمور التي أرشد الله تعالى لها زعماء الأمة وقادتها، قال تعالى ﴿ يا داوود إنَا جعلْناك خليفةً في الأرض فاحْكُم بيْن النَاس بالْحق ولا تتبع الْهوىٰ فيُضلَك عن سبيل الله إن الَذين يضلُون عن سبيل الله لهُمْ عذابٌ شديدٌ بما نسُوا يوْم الحساب ﴾[ص: ٢٦].

إن اتباع الهوى من أسباب الفرقة، والفرقة من أسباب تأخر النهوض، فإذن على المخلصين من أبناء شعبنا الحريصين على تحكيم شرع الله تعالى، ومحاربة الهوى، وقلع جذوره وأسبابه من النفوس، أن يدركوا أن محاربة الأهواء طريق نحو الاجتماع والائتلاف، ونحو الأخذ بأسباب النهوض والتمكين لهذا الدين. إن العلاج الناجع والبلسم الشافي لمن ابتُلي بشيء من الهوى هو إلزام النفس بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائمًا فيما يصدر منها، وعدم الاغترار بأهوائها وتزييناتها وخداعها، والإكثار من النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة، وإن كانت مخالفة لما في النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام، وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الفعل التي قد يكون فيها إفراط أو تفريط، وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن، ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق في الغضب والرضا، ويكثر من الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لأمته: «وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب»[(١)]، ومن قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»[(٢)].

إن سنة الله ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم والشعوب: الاختلاف، قال ﷺ: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» وفي رواية «فأُهلكوا»[(٣)].

---

(١) انظر: النسائي، كتاب: السهو، باب: الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٥)، صححه الشيخ الألباني رحمه الله.
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني رحمه الله، كما في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٣٨).
(٣) انظر: صحيح البخاري، بشرح العسقلاني (٩/ ١٠١، ١٠٢).

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه : «فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»[(١)]، قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث الذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[(٢)].

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف»[(٣)].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفريقها وتشتتها، وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يئول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[(٤)].

وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه، يجعل الأمة فرقًا شتى، مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيها، ويحتل أرضها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها، وفي ذلك انقراضها وهلاكها[(٥)].

إن من الدروس المهمّة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم؛ لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب في ضياع بلادنا وتسلط الطليان عليها. وإن أخطر ما نعانيه الآن هو الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم تتخذ سبيل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها. ولهذا كان شر ما تُبتلى به الجماعة المسلمة: وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقًا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة، أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق. ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين

(١)، (٢) انظر: صحيح البخاري، بشرح العسقلاني (٩/ ١٠٢).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٦).
(٤)، (٥) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان (ص١٣٩).

المختلفين، فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم فى مصلحة الدعوة. والاختلاف فى الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة، وإنما يضعف تأثيرها فى الناس، ويجعل المغرضين ينفثون باطلهم فى الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام. والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع، وينهى عن الاختلاف، وهى تخالفه إذ هى متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعى أنها وحدها على الحق، ثم يئول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة فى المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هى فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول»[1].



(١) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان (ص١٤٠، ١٤١).

الفصل الثاني:

الشيخ الجليل عمر المختار -رحمه الله-
نشأته، وأعماله، واستشهاده

المبحث الأول
نشأته وأعماله

أولا: مولده ونسبه ونشأته وشيوخه:

ولد الشيخ الجليل عمر المختار من أبوين صالحين عام (١٨٦٢م)[١]، وقيل (١٨٥٨م)، وكان والده مختار بن عمر من قبيلة المنفة من بيت فرحات، وكان مولده بالبطنان في الجبل الأخضر، ونشأ وترعرع في بيت عزٍّ وكرم، تحيط به شهامة المسلمين وأخلاقهم الرفيعة، وصفاتهم الحميدة التي استمدوها من تعاليم الحركة السنوسية القائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

توفي والده في رحلته إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعهد -وهو في حالة المرض- إلى رفيقه السيد أحمد الغرياني (شقيق شيخ زاوية جنزور الواقعة شرق طبرق) بأن يبلغ شقيقه بأنه عهد إليه بتربية ولديه عمر ومحمد، وتولى الشيخ حسين الغرياني رعايتهما مُحققًا رغبة والدهما، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي؛ لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى[٢].

لقد ذاق عمر المختار -رحمه الله- مرارة اليتم في صغره، فكان هذا من الخير الذي أصاب قلبه المليء بالإيمان وحب الله ورسوله ﷺ، حيث التجأ إلى الله القوي العزيز في أموره كلها، وظهر منه نبوغ منذ صباه مما جعل شيوخه يهتمون به في معهد الجغبوب الذي كان منارة للعلم، وملتقى للعلماء والفقهاء والأدباء والمربين الذين كانوا يُشرفون على تربية وتعليم وإعداد المتفوقين من أبناء المسلمين؛ ليعدوهم لحمل رسالة الإسلام الخالدة، ثم يرسلوهم بعد سنين عديدة من العلم والتلقي والتربية إلى مواطن القبائل في ليبيا وإفريقيا؛ لتعليم الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وتعاليمه الرفيعة، ومكث في معهد الجغبوب ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة كالفقه والحديث والتفسير، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم: السيد الزروالي المغربي،

(١) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، د. إدريس الحريري (ص٦٥).
(٢) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص٢٦).

والسيد الجوانى، والعلامة فالح بن محمد بن عبد الله الظاهرى المدنى وغيرهم كثير، وشهدوا له بالنباهة ورجاحة العقل، ومتانة الخلق، وحب الدعوة، وكان يقوم بما عليه من واجبات عملية أسوة بزملائه الذين يُؤدون أعمالاً مماثلة فى ساعات معينة إلى جانب طلب العلم، وكان مخلصًا فى عمله متفانيًا فى أداء ما عليه، ولم يعرف عنه زملاؤه أنه أجل عمل يومه إلى غده، وهكذا اشتهر بالجدية والحزم والاستقامة والصبر، ولفتت شمائله أنظار أساتذته وزملائه وهو لم يزل يافعًا، وكان الأساتذة يبلغون الإمام محمد المهدى أخبار الطلبة وأخلاق كل واحد منهم، فأكبر السيد محمد المهدى فى عمر المختار صفاته، وما يتحلى به من خلال[1]، وأصبح على إلمام واسع بشئون البيئة التى تُحيط به وعلى جانب كبير من الإدراك بأحوال الوسط الذى يعيش فيه، وعلى معرفة واسعة بالأحداث القبلية وتاريخ وقائعها، وتوسع فى معرفة الأنساب والارتباطات التى تصل هذه القبائل بعضها ببعض، وبتقاليدها، وعاداتها، ومواقعها، وتعلم من بيئته التى نشأ فيها وسائل فض الخصومات البدوية وما يتطلبه الموقف من آراء ونظريات، كما أنه أصبح خبيرًا بمسالك الصحراء، وبالطرق التى كان يختارها من برقة إلى مصر والسودان فى الخارج وإلى الجغبوب والكفرة من الداخل، وكان يعرف أنواع النباتات وخصائصها على مختلف أنواعها فى برقة، وكان على دراية بالأدواء التى تُصيب الماشية ببرقة ومعرفة بطرق علاجها، نتيجة للتجارب المتوارثة عند البدو وهى خبرات مكتسبة عن طريق التجربة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، وكان يعرف سمة كل قبيلة، وهى السمات التى توضع على الإبل والأغنام والأبقار؛ لوضوح ملكيتها لأصحابها، فهذه المعلومات تدل على ذكاء عمر المختار وفطنته منذ شبابه[2].

ثانيا: وصف عمر المختار:

كان عمر المختار متوسط القامة يميل إلى الطول قليلاً، ولم يكن بالبدين الممتلئ أو النحيف الفارغ، أجش الصوت، بدوى اللهجة، رصين المنطق، صريح العبارة، لا يمل حديثه، مُتَّزنا فى كلامه، تفتر ثناياه أثناء الحديث عن ابتسامة بريئة، أو ضحكة هادئة إذا ما اقتضاها الموقف، كثيف اللحية، وقد أرسلها منذ صغره، تبدو عليه صفات الوقار والجدية فى العمل، والتعقل فى الكلام والثبات عند المبدأ، وقد أخذت هذه الصفات تتقدم معه بتقدم السن[3].

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص٢٦).
(٢) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص٢٧).
(٣) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص٢٨).

ثالثًا: تلاوته للقرآن الكريم وعبادته:

كان عمر المختار شديد الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها، وكان يقرأ القرآن يوميًا، فيختم المصحف الشريف كل سبعة أيام منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي: «يا عمر، وردك القرآن»، وقصَّة ذلك كما ذكرها محمد الطيب الأشهب، أنه استأذن في الدخول على الإمام محمد المهدي من حاجبه محمد حسن البسكري في موقع بئر السارة الواقع في الطريق الصحراوي بين الكفرة والسودان، وعندما دخل على المهدي تناول مصحفًا كان بجانبه وناوله للمختار، وقال: هل لك شيء آخر تُريده، فقلت له: يا سيدي إن الكثيرين من الإخوان يقرءون أورادًا معينة من الأدعية والتضرعات أجزتموهم قراءتها وأنا لا أقرأ إلا الأوراد الخفيفة عقب الصلوات، فأطلب منكم إجازتي بما ترون، فأجابني -رحمه الله- بقوله: «يا عمر وردك القرآن»، فقبلت يده وخرجت أحمل هذه الهدية العظيمة (المصحف) ولم أزل بفضل الله أحتفظ بها في حلي وترحالي، ولم يُفارقني مصحف سيدي منذ ذلك اليوم، وصرت مُداومًا على القراءة فيه يوميًا لأختم السلكة كل سبعة أيام، وسمعت من شيخنا سيدي أحمد الريفي أن بعض كبار الأولياء يُداوم على طريقة قراءة القرآن مبتدئًا بـ«الفاتحة» إلى «سورة المائدة» ثم إلى «سورة يونس»، ثم إلى «سورة الإسراء»، ثم إلى «سورة الشعراء»، ثم إلى «سورة الصافات»، ثم إلى «سورة ق»، ثم إلى آخر السلكة، ومنذ ذلك الحين، وأنا أقرأ القرآن من المصحف الشريف بهذا الترتيب(١).

إن المحافظة على تلاوة القرآن والتَّعبد به تدل على قوّة الإيمان، وتعمقه في النفس، وبسبب الإيمان العظيم الذي تحلَّى به عمر المختار انبثق عنه صفات جميلة، كالأمانة والشجاعة، والصدق، ومحاربة الظلم، والقهر، والخنوع، وقد تجلَّى هذا الإيمان في حرصه على أداء الصلوات في أوقاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وكان يتعبَّد للمولى عز وجل بتنفيذ أوامره ويُسارع في تنفيذها، وكان كثير التَّنفل في أوقات الفراغ، وكان قد ألزم نفسه بسنَّة الضحى، وكان محافظًا على الوضوء حتى في غير أوقات الصلاة، وما يروى عنه أنه قال: لا أعرف أنني قابلت أحدًا من السادة السنوسية وأنا على غير وضوء منذ شرفني الله بالانتساب إليهم(٢).

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ٢٨، ٢٩).
(٢) انظر: مذكرات مجاهد، محمود الجهني، محمد مناع.

لقد كان هذا العبد الصالح يهتم بزاده الروحى اليومى بتلاوة القرآن الكريم، وقيام الليل، واستمر معه هذا الحال حتَّى استشهاده.

فهذا المجاهد محمود الجهمى الذى حارب تحت قيادة عمر المختار وصاحبه كثيرًا، يذكر فى مذكراته أن كان يأكل معه وينام معه فى مكان واحد، ويقول: «لم أشهد قط أنه نام لغاية الصباح، فكان ينام ساعتين أو ثلاثًا على أكثر تقدير، ويبقى صاحيًا يتلو القرآن الكريم، وغالبًا ما يتناول الإبريق ويسبغ الوضوء بعد منتصف الليل، ويعود إلى تلاوة القرآن، لقد كان على خلق عظيم يتميز بميزات التَّقوى والورع، ويتحلَّى بصفات المجاهدين الأبرار...»(١).

وأما الأستاذ محمد الطيب الأشهب، فقد قال: «وقد عرفته معرفة طيبة وقد مكنتنى هذه المصاحبة من الاحتكاك به مباشرة، فكنت أنام بخيمته وإلى جانبه وأما ما كنت أمقته منه -رحمه الله- وأنا وقت ذاك حديث السن هو أنه لا يتركنا أن ننام، يقضى كل ليلة يتلو القرآن مبكرًا فيأمرنا بالوضوء بالرغم عما نُلاقيه من شدَّة البرد ومتاعب السفر...»(٢).

وكأننى آراه من خلف السنين وهو قائم يُصلى لله رب العالمين فى وديان وجبال وكهوف الجبل الأخضر، وقد التف ببرده الأبيض بظلمة الليل البهيم وهو يتلو كتاب الله بصوت حزين، وتنحدر الدموع على خدوده من خشية العزيز الرحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

لقد وصَّى رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه بذلك فقال ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن، فإنه نور لك فى الأرض، وذُخر لك فى السماء»، وقد حذر الرسول الكريم من هجر القرآن، فقال ﷺ: «إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»(٣).

إن من أسباب الثبات التى تميز بها عمر المختار حتى اللحظات الأخيرة من حياته، إدمانه على تلاوة القرآن الكريم والتَّعبد به وتنفيذ أحكامه؛ لأن القرآن الكريم مصدر تثبيت وهداية، وذلك لما فيه من قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصَّالحين، ومصير الكافرين والجاحدين وأوليائه بأساليب متعددة(٤).

(١) انظر: مذكرات مجاهد، محمود الجهنى، محمد مناع.
(٢) انظر: برقة العربية (ص ٤٣٩).
(٣) رواه البخارى.
(٤) انظر: الثبات، د. محمد بن حسن عقيل، (ص١٢).

لقد كان عمر المختار يتلو القرآن الكريم بتدبر وإيمان عظيم، فرزقه الله الثبات وهداه طريق الرشاد، ولقد صاحبه حاله في التلاوة حتى النفس الأخير، وهو يُساق إلى حبل المشنقة وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧) ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

رابعًا: شجاعته وكرمه:

إن هذه الصفة الجميلة تظهر في سيرة عمر المختار منذ شبابه الباكر ففي عام (١٣١١هـ-١٨٩٤م) تقرر سفر عمر المختار على رأس وفد إلى السودان يضم كلا من السيد خالد بن موسى، والسيد محمد المسالوسي، وقرجيلة المجبري، وحليفة الدبار الزوي أحد أعضاء زاوية واو بفزان (وهو الذي روى القصة)، وفي الكفرة وجد الوفد قافلة من التجار من قبيلتي الزوية والمجابرة، وتجار آخرين من طرابلس وبنغازي تتأهب للسفر إلى السودان، فانضم الوفد إلى هؤلاء التجار الذين تعودوا السير في الطرق الصحراوية، ولهم خبرة جيدة بدروبها، وعندما وصل المسافرون إلى قلب الصحراء بالقرب من السودان قال بعض التجار الذين تعودوا المرور من هذا الطريق: إننا سنمر بعد وقت قصير بطريق وعر لا مسلك لنا غيره، ومن العادة -إلا في القليل النادر- يوجد فيه أسد ينتظر فريسته من القوافل التي تمر من هناك، وتعودت القوافل أن تترك له بعيراً، كما يترك الإنسان قطعة اللحم إلى الكلاب أو القطط، وتمر القوافل بسلام، واقترح المتحدث أن يشترك الجميع في ثمن بعير هزيل ويتركونه للأسد عند خروجه، فرفض عمر المختار بشدة قائلا: «إن الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا على الضعيف بدون حق أبطلت. فكيف يصح لنا أن نعيد إعطاءها للحيوان؟!، إنها علامة الهوان والمذلة، إننا سندافع بسلاحنا إذا ما اعترض طريقنا»، وقد حاول بعض المسافرين أن يثنيه عن عزمه، فرد عليهم قائلا: «إنني أخجل عندما أعود وأقول إنني تركت بعيراً لحيوان اعترض طريقي، وأنا على استعداد لحماية ما معي، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، إنها عادة سيئة يجب أن نبطلها»، وما كادت القافلة تدنو من الممر الضيق حتى خرج الأسد من مكانه الذي اتخذه على إحدى شرفات الممر، فقال أحد التجار- وقد خاف من هول المنظر وارتعشت فرائصه من ذلك- أنا مستعد أن أتنازل عن بعير من بعائري ولا تحاولوا مشاكسة الأسد، فانبرى عمر المختار ببندقيته، وكانت من النوع اليوناني، ورمى الأسد بالرصاصة الأولى، فأصابته، ولكن في غير مقتل، واندفع الأسد يتهادى نحو القافلة، فرماه بأخرى فصرعته، وأصرَّ عمر المختار على أن يسلخ جلده؛ ليراه أصحاب القوافل، فكان له ما أراد[١].

---

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ٣٩، ٤٠).

إنَّ هذه الحادثة تدلنا على شجاعة عمر المختار، وقد تناولتها المجالس يومذاك بمنتهى الإعجاب، وقد سأل الأستاذ محمد الطيب الأشهب عمر المختار نفسه عن هذه الحادثة فى معسكر المغاربة بخيمة السيد محمد الفائدى، فأجاب بقوله: تريدنى يا ولدى أن أفتخر بقتل صيد قال لى ما قاله قديمًا أحد الأعراب لمنافسه، وقد قتل أسدًا «أتفتخر علىَّ بأنك قتلت حشرة»، وامتنع عمر المختار بقول الله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنَّ جواب عمر المختار بهذه الآية الكريمة، يدل على تأثره العميق بالقرآن الكريم؛ لأنه تعلم أنَّ أهل الإيمان والتوحيد فى نظرهم العميق لحقيقة الوجود، وتطلعهم إلى الآخرة ينسبون الفضل إلى العزيز الوهَّاب سبحانه وتعالى، ويتخلصون من حظوظ نفوسهم، فهو الذى مرَّ كثيرًا على دعاء نبى الله يوسف عليه السلام. ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهو الذى تعلَّم من سيرة ذى القرنين هذا المعنى الرفيع والذى لابد من وجوده فى الشخصيَّة القياديَّة الربانيَّة فى قوله تعالى: ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾ [الكهف: ٩٨]، فعندما بنى السد، ورفع الظلم، وأعان المستضعفين نسب الفضل إلى ربه سبحانه وتعالى.

إنَّ عمر المختار -رحمه الله- كان صاحب قلب موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما تخلَّص من الأسد الأسطورة، وأزاح الظلم وقهر التعدى، بل نسب الفضل إلى خالقه، ولذلك أجاب سائله بقوله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنَّ صفة الشجاعة ظهرت فى شخصية عمر المختار المتميزة فى جهاده فى تشاد ضد فرنسا، وفى ليبيا ضد إيطاليا، ويحفظ لنا التاريخ هذه الرسالة التى أرسلها عمر المختار ردًا على رسالة من الشارف الغريانى الذى أكرهته إيطاليا ليتوسط لها فى الصلح مع عمر المختار وإيقاف الحرب.

قال: «بعد البسملة والصلاة على رسول الله القائل: "إن الجنة تحت ظلال السيوف"..

إلى أخينا سيدى الشارف بن أحمد الغريانى - حفظه الله - وهداه، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ومغفرته ومرضاته، نُعلمكم أن إيطاليا إذا أرادت أن تبحث معنا فى أى موضوع تعتقد أنه يهمها ويهمنا فما عليها إلا أن تتصل بصاحب الأمر ومولاه سيدى السيد محمد إدريس ابن السيد محمد المهدى ابن السيد محمد السنوسى، فهو الذى يستطيع قبول البحث معهم أو رفضه، وأنتم لا تجهلون هذا بل وتعرفون -إذا شئتم- أكثر من هذا ومكان سيدى إدريس فى مصر معروف عندكم،

وأما أنا وبقيَّة الإخوان المجاهدين فلا نزيد عن كوننا جنداً من جنوده لا نعصى له أمراً، ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن لا يقدر علينا مخالفته، فنقع فيما لا نريد الوقوع فيه، حفظنا الله وإيَّاكم من الزَّلل، نحن لا حاجة عندنا إلا مقاتلة أعداء الله والوطن وأعدائنا وليس لنا من الأمر شيء إذا ما أمرنا سيدنا وولى نعمتنا رضى الله عنه ونفعنا به بوقف القتال نوقفه، وإذا لم يأمرنا بذلك فنحن واقفون عند ما أمرنا به، ولا نخاف طيارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس المكسرين (هؤلاء الأخيرين هم المجندون من بعض الليبيين)، ولا نخاف حتَّى من السم الذى وضعـوه فى الآبار وبخـوا به الزرع النابتـة فى الأرض، نحن من جنود الله، وجنوده هم الغالبون، ونحن لا نريد لكم ما يدفعكم إليه النصارى، وظننا بكم خيراً، والله يوفقنا ويهدينا وإيَّاكم إلى سبل الرشاد وإلى خدمة المسلمين، ورضاء سيدنا، وسلام الإسلام على من تبع الإسلام».

(١٣ من ربيع الثانى ١٣٤٤ هـ)

نائب المنطقة الجبلية عمر المختار(١).

ومحل الشاهد من هذه الرسالة قوله: «ولا نخاف طيَّارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس، ولا نخاف حتَّى من السم الذى وضعوه فى الآبار وبخوا به الزرع النابتة فى الأرض، نحن من جنود الله، وجنوده هم الغالبون».

إن صفة الشجاعة ملازمة لصفة الكرم، كما أنَّ الجبن والبخل لا يفترقان، ولقد حفظ لنا التَّاريخ عبارة جميلة كان يُرددها عمر المختار بين ضيوفه: «إننا لا نبخل بالموجود ولا نأسف لمفقود».

لقد تصافرت نصوص الكتاب والسُّنَّة بمدح الكرم والإنفاق وذم البخل والإمساك، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

لم تكن همَّة عمر كالمختار منصرفة إلى جمع المال والثروة والغنى، وإن كان قد ورث عن والده بعض الماشية، إلا أنه تركها فى رعاية بعض أقاربه فى القبيلة، وترك أرضه وموطنه منذ أن كان عمره (١٦) عامًا، وكان طيلة إقامته فى معهد الجغبوب تتكفل إدارة المعهد بمصروفاته، وبعد أن تزوَّج وكوَّن أسرة أصبح مورد رزقه ما يتحصَّل عليه من نتاج الحيوانات القليلة، ولم يكن يومًا من الأيَّام متفرِّغًا لجمع المال، وإنما عاش للعلم والدَّعوة والجهاد، وانشغل عن جمع الأموال والثروات وقضى حياته فقيراً مقتنعًا بما رزقه الله من القناعة والرضا بالكفاف، وكان يبذل ما فى

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ٨٧).

وسعه لضيوفه وجنوده ويُنفق على أفراد جيشه إنفاق من لا يخشى الفقر، ويُقدم إخوانه على نفسه، وأصبح شعاره «إننا لا نبخل بالموجود ولا نأسف لمفقود»(١).

خامسا: الدعوة والجهاد قبل الاحتلال الإيطالى:

تفوَّق عمر المختار على أقرانه بصفات عدَّة منها، متانة الخلق ورجاحة العقل، وحب الدعوة، ووصل أمره إلى الزَّعيم الثانى للحركة السنوسية محمد المهدى السنوسى، فقدمه على غيره، واصطحبه معه فى رحلته الشهيرة من الجغبوب إلى الكفرة عام (١٨٩٥م)، وفى عام (١٨٩٧م) أصدر محمد المهدى قرارًا بتعيين عمر المختار شيخًا لزاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج، وقام عمر المختار بأعباء المهمَّة خير قيام، فعلَّم الناس أمور دينهم، وساهم فى فض النزاعات بين القبائل، وعمل على جمع كلمتهم وسعى فى مصالحهم، وسار فى النَّاس سيرة حميدة، فظهر فى شخصيته أخلاق الدعاة من حلم، وتأن، وصبر، وعلم، وزهد.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ وقوع الاختيار عليه للقيام بأمور هذه الزاوية كان مقصودًا من قبل قيادة الحركة السنوسية حيث إن هذه الزاوية كانت فى أرض قبيلة العبيد التى عرفت بقوَّة الشكيمة وشدَّة المراس، فوفقه الله فى سياسة هذه القبيلة ونجح فى قيادتها بفضل الله، وبما أودع الله فيه من صفات قيادية من حكمة وعلم وحلم وصبر وإخلاص.

إنَّ الفترة التى قضاها فى زاوية القصور تدلنا وتشهد لنا على أعماله الجليلة، كداعية ربَّانى يدعو إلى الإسلام ونشره بالفكرة والإقناع والإرشاد والتَّوجيه، فهو قمَّة شامخة فى هذا المجال، فهو لم يدخل مجال الدعوة والإرشاد إلا بعد أن تعلَّم من أمور دينه الكثير، فشقَّ طريق الدعوة بزاد علمى، وثقافة متميِّزة، وتفوق روحى، ورجاحة عقل، وقوة حجة، ورحابة صدر، وسماحة نفس، لقد كان حريصًا على تعلم العلم والعمل به وتعليمه، وعندما زحف الاستعمار الفرنسى على مراكز الحركة السنوسية فى تشاد، نظمت الحركة السنوسية نفسها وأعدَّت للجهاد عدَّتها، واختارت من القادة من هم أولى بهذا العمل الجليل، فكان عمر المختار من ضمنهم فقارع الاستعمار الفرنسى مع كتائب الحركة السنوسية المجاهدة فى تشاد وبذل ما فى وسعه حتَّى لفت الأنظار إلى حزمه وعزمه وفراسته، وبُعد نظره، وحسن قيادته، فقال عنه محمد المهدى السنوسى: «لو كان لدينا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا»(٢).

وبقى عمر المختار فى تشاد يعمل على نشر الإسلام ودعوة النَّاس وتربيتهم إلى جانب جهاده ضد فرنسا، فحمل الكتاب الذى يهدى بيد، والسيف الذى يحمى باليد الأخرى، وظهرت منه

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ٣٢).
(٢) انظر: مجلة المسلم.

شجاعة وبطولة وبسالة نادرة فى الدفاع عن ديار المسلمين، وكانت المناطق التى يتولَّى أمرها أمنع من عرين الأسد، ولا يخفى ما فى ذلك من إدراك القيادى المسلم لواجبه تجاه دينه وعقيدته وأمته(١).

وعندما أصيبت الإبل التى كانت تحمل الأثقال للمجاهدين بمرض الجرب، وكان عددها لا يقل عن أربعة آلاف بعير، وكانت تلك الإبل هى قوام الحياة بالنسبة للمجاهدين، واهتم السيد السنوسى بشأن علاجها، ووقع اختياره على عمر المختار؛ ليكون المسئول عن هذه المهمَّة التى شغلت بال المجاهدين، فأمر بأن يذهب بالإبل إلى موقع «عين كلك»؛ نظراً لوفرة مائه ولصلاحيته، وكان على عمر المختار مهمَّة أخرى وهى الاحتياط والحرص الشديد، واتخاذ التَّدابير اللازمة للدفاع، واختار عمر المختار من المجاهدين مجموعة خيرة، وذهب لتنفيذ أمر القيادة، وكان توفيق الله له عظيمًا فى مهمَّته العسيرة، فنال إعجاب السيد المهدى(٢).

وفى عام (١٩٠٦م) رجع عمر المختار بأمر من القيادة السنوسية إلى الجبل الأخضر؛ ليستأنف عمله فى زاوية القصور، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد بدأت المعارك الضارية بين الحركة السنوسية والبريطانيين فى منطقة البردى ومساعد والسلوم على الحدود الليبية المصرية.

ولقد شهد عام (١٩٠٨م) أشد المعارك ضراوة وانتهت بضم السلوم إلى الأراضى المصرية تحت ضغوط بريطانيا على الدولة العثمانية، وعاد الشيخ عمر المختار إلى زاوية القصور، وبرزت شخصيته بين زملائه مشايخ الزوايا، وبين شيوخ وأعيان القبائل، ولدى الدوائر الحكومية العثمانية، وظهرت مقدرته فى مهمَّته الجديدة بصورة تلفت النظر، وأصبح متميزاً فى حزمه فى إدارة الزاوية وفى تعاونه مع زملائه الآخرين وفى معالجته للمشاكل القبلية، وفى ميدان الإصلاح العام حتى صار مضربًا للأمثال.

وكانت تربطه صلات شخصية مع عدد كبير من زعماء وأعيان القبائل فى برقة، وكذلك زعماء المدن، وكان زعماء البراعصة يُحبون عمر المختار حبًا نابعًا من قلوبهم فى حين أنهم لم يكونوا من القبائل التابعة لزاويته، وارتبطت علاقاته الأخوية مع شيوخ الزوايا كالسادة السنوسى الأشهب شيخ زاوية مسوس، وعمران السكورى شيخ زاوية المرج، وعبد ربه بوشناف الشيخى، والحسن الغمارى شيخ زاوية دريانه(٣).

---

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ٢٧). (٢) انظر: عمر المختار، (ص ٣٧).
(٣) انظر: عمر المختار، (ص ٤٠، ٤١).

سادساً: الشيخ عمر المختار في معاركه الأولى ضد إيطاليا:

عندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية عام (١٩١١م) كان عمر المختار وقتها بواحة «جالو» خفَّ مسرعًا إلى زاوية «القصور»، وأمر بتجنيد كل من كان صالحًا للجهاد من قبيلة العبيد التابعة لزاوية «القصور»، فأجابوا نداءه، وأحضروا لوازمهم، وحضر أكثر من ألف مقاتل، وكان عيد الأضحى من نفس السنة الهجرية على الأبواب أي لم يبق عليه إلا ثلاثة أيَّام فقط، ولم ينتظر السيد عمر المختار عند أهله حتَّى يُشاركهم فرحة العيد، فتحرَّك بجنوده وقضوا يوم العيد في الطريق، وكانت الذبائح التي أكل المجاهدون من لحومها يوم العيد من السيد عمر المختار شخصيًا، ووصل المجاهدون وعلى رأسهم عمر المختار وبرفقته أحمد العيساوي إلى موقع بنينه حيث معسكر المجاهدين الذي فرح بقدوم نجدة عمر المختار ورفقائه ثم شرعوا يُهاجمون العدو ليلاً ونهاراً، وكانت غنائمهم من العدو تفوق الحصر[١]، وقد بينت دور الزوايا في جهادهم ضد إيطاليا في الجزء الثاني عن الحركة السنوسية والذي سميته «سيرة الزعيمين محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف».

ويذكر الشيخ حمد الأخضر العيساوي أنه كان قريبًا من عمر المختار في معركة السلاوي عام (١٩١١م)، فوصف لنا بعض أحداث تلك المعركة، فقال: «. . . وقد فاجأنا العدو فقابله من المجاهدين الخيَّالة، بينما كان العدو يضربنا بمدافعه الرَّشاشة، واضطررنا للنزول في مكان منخفض مزروع بالشعير، وكانت السنابل تتطاير بفعل الرصاص المنهمر، فكأنما تُحصد بالمناجل، وبينما نحن كذلك إذ رأينا مكانًا منخفضًا أكثر من المكان الذي نحن فيه، وأردنا أن يأوي إليه السيد عمر المختار بسبب خوفنا عليه، فرفض بشدَّة حتَّى جاءه أحد أتباعه يدعى السيد الأمين ودفعه بقوَّة إلى المكان الذي اخترناه لإيوائه، وحاول الخروج منه، فمنعناه بصورة جماعية. . .»[٢].

كما أشار الشيخ محمدالأخضر إلى إعجاب الضباط الأتراك به وبشجاعته وبالآراء السديدة التي تصدر عنه؛ فكأنما هي تصدر من قائد ممتاز تخرَّج من كليَّة عسكريَّة، وكان قدومه إلى معسكرات المجاهدين مُشجِّعًا وباعثًا للروح المعنوية في قوَّة خارقة، وقد تحدَّثت في سيرة أحمد الشريف في الجزء الثاني عن «الحركة السنوسية» عن حركة الجهاد في أيامها الأولى ضد إيطاليا، وكان عمر المختار من المقربين للشيخ أحمد الشريف السنوسي، وبعد هجرته لازم عمر المختار الأمير محمد إدريس، وقام بواجباته خير قيام، وبعد هجرة الأمير إلى مصر تولى أمر

(١)، (٢) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص ٦).

القيادة العسكريَّة بالجبل الأخضر، وأخذ فى تهيئة النفوس لمجابهة العدو، وبدأ جولاته فى أنحاء المنطقة للاتصال بالأهالى وزعمائهم، بل وبالأفراد كخطوة أولى للعمل الجديد الشاق فى نفس الوقت، وقام بفتح باب التَّطوع للجهاد، فأقبل الليبيون من أبناء قبائل الجبل بوجوه مستبشرة، وقلوب مطمئنة وتلهُّف على مجابهة العدو الغادر، وكانت ترافقه لجنة مكوَّنة من أعيان وشيوخ قبائل المنطقة (البراغيث، والحرابى، والمرابطين) لمساعدته فى عمله العظيم، وكان من بينهم بوشديق بو مازق حدوث، الصيفاط بوفروة، محمد بولقاسم جلغاف، حمد الصغير حدوث، دلاف بو عبد الله، محمد العلوانى، سويكر عبد الجليل، موسى بو غيضان، الغريانى عبد ربه بوشناف، عبد الخرسانى، عوض العبيدى، رجب بوسيحة، رواق بو درمان، كريم بوراقى، قطيط الحاسى، وغير هؤلاء من علية القوم، فزار أغلب مناطق الجبل والبطنان، وكان سمو الأمير قد وصل إلى مصر (يناير ١٩٢٣م)، وما كاد السيد عمر ينتهى من جولته هذه ويطمئن للنتائج حتى قرر اللحاق بسمو الأمير فى مصر؛ ليعرض عليه نتيجة عمله ويتلقى منه التوجيهات اللازمة[١].

سابعًا: سفره إلى مصر:

سافر فى (شهر مارس سنة ١٩٢٣م) إلى مصر بصحبة على باشا العبيدى وترك رفقاءه عند بئر الغبى حتَّى يعود إليهم، واستطاع اجتياز الحدود المصريَّة، وتمكَّن من مقابلة السيد إدريس بمصر الجديدة، وكان عمر المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها وظهر ذلك الولاء فى إقامته بمصر عندما حاول جماعة من قبيلة المنفة وهى قبيلة السيد عمر المختار، وكانوا قد أقاموا بمصر، أن يقابلوا السيد عمر المختار للترحيب به، فاستفسر المختار قبل أن يأذن لهم بذلك عمَّا إذا كانوا قد سعوا لمقابلة الأمير عند حضوره إلى مصر، فلمَّا أجاب هؤلاء بالنفى معتذرين بأنَّ أسبابًا عائليَّة قهريَّة منعتهم من تأدية هذا الواجب رفض المختار مقابلتهم قائلا: «وكيف تظهرون لى العناية وتحضرون لمقابلتى وأنتم الذين تركتم شيخى الذى هو ولى نعمتى وسبب خيرى، أما وقد فعلتم ذلك، فإنى لا أسمح لكم بمقابلتى ولا علاقة من الآن بينى وبينكم»[٢].

فما أن أبلغ السيد إدريس ما فعله عمر المختار مع من جاء إليه من أبناء قبيلته حتَّى أصدر أمره بمقابلتهم، فامتثل المختار لأمره[٣].

حاولت إيطاليا بواسطة عملائها بمصر الاتصال بالسيد عمر المختار، وعرضت عليه بأنها سوف تُقدم له مساعدة إذا ما تعهد باتّخاذ سكنه فى مدينة بنغازى أو المرج، وملازمة بيته تحت رعاية

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص ٥٦).
(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص ٨).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٧١).

وعطف إيطاليا، وأن حكومة روما مستعدة أن تجعل من عمر المختار الشخصيَّة الأولى في ليبيا كلها وتتلاشى أمامه جميع الشخصيَّات الكبيرة التي تتمتع بمكانتها عند إيطاليا في طرابلس وبنغازي، وإذا ما أراد البقاء في مصر، فما عليه ألا أن يتعهد بأن يكون لاجئًا ويقطع علاقته بإدريس السنوسي، وفي هذه الحالة تتعهد حكومة روما بأن توفر له راتبًا ضخمًا يمكّنه من حياة رغدة، وهي على استعداد أن يكون الاتفاق بصورة سرِّية وتوفير الضمانات لعمر المختار، ويتم كل شيء بدون ضجيج تطمينًا لعمر المختار، وقد طلبت منه نصح الأهالي بالإقلاع عن فكرة القيام في وجه إيطاليا[(١)]، وقد أكَّد عمر المختار هذا الاتصال وهو في مصر لما سُئل عن ذلك، وقال: ثقوا أنني لم أكن لقمة طائبة يسهل بلعها على من يُريد، ومهما حاول أحد أن يُغيِّر من عقيدتي ورأيي واتجاهي، فإن الله سيُخيِّبه ومن (طياح سعد) إيطاليا ورسلها هو جهلها بالحقيقة، وأنا لم أكن من الجاهلين والموتورين فأدعي أنني أقدر أعمل شيئا في برقة، ولستُ من المغرورين الذين يركبون رءوسهم ويدعون أنهم يستطيعون أن ينصحوا الأهالي بالاستسلام، إنني أُعيذ نفسي من أن أكون في يوم من الأيام مطيَّة لعدو وأذنابه، فأدعوا الأهالي بعدم الحرب ضد الطليان، وإذا - لا سمح الله - قدَّر عليَّ بأن أكون موتورًا، فإنَّ أهل برقة لا يُطيعون لي أمرًا يتعلَّق بإلقاء السلاح، إنني أعرف أنَّ قيمتي في بلادي إذا ما كانت لي قيمة أنا وأمثالي، فإنَّها مستمدَّة من السنوسية[(٢)].

لقد استمرت عروض الإيطاليين على عمر المختار حتَّى بعد رجوعه للبلاد وحاولوا استمالته بالمال الطائل، والمناصب الرفيعة، والجاه العريض في ظل حياة رغيدة ناعمة، ولكنهم لم يُفلحوا، لقد كان عمر المختار رجل عقيدة، وصاحب دعوة ومؤمنًا بفكرة استمدَّت أصولها وتصوراتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ويفهم جيدًا معني قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وعندما خرج السيد عمر المختار من مصر قاصداً برقة لمواصلة الجهاد اجتمع به مشايخ قبيلته الموجودون بمصر من المتقدمين في السن، وحاولوا أن يُثنوه عن عزمه بدعوى أنَّه قد بلغ من الكبر عتيًا، وأن الراحة والهدوء ألزم له من أي شيء آخر وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائدًا غيره لتزعم حركة الجهاد في برقة، فغضب عمر المختار غضبًا شديدًا وكان جوابه قاطعًا فاصلاً، فقال

(١) انظر: عمر المختار (ص ٥٦). (٢) انظر: عمر المختار (ص ٥٨).

لمحدثيه: «إنَّ كل من يقول لى هذا الكلام لا يُريد خيرًا لى؛ لأنَّ ما أسير فيه إنَّما هو طريق خير ولا ينبغى لأحد أن ينهانى عن سلوكها، وكل من يُحاول ذلك فهو عدو لى»[(١)].

لقد كان عمر المختار يعتقد اعتقادًا راسخًا أنَّ ما كان يقوم به من الجهاد إنَّما هو فرض يؤديه وواجب دينى لا مناص منه ولا محيد عنه ولذلك أخلص فى عمله وسكناته وأحواله وأقواله لقضية الجهاد فى ليبيا، وكان يكثر من الدعاء لله تعالى بأن يجعل موته فى سبيل هذه القضيَّة المباركة، فكان يقول: «اللهم اجعل موتى فى سبيل هذه القضيَّة المباركة»[(٢)]، وأصرَّ على البقاء فى أرض الوطن الحبيب، وقال: «لا أُغادر هذا الوطن حتَّى ألاقى ربى والموت أقرب إلىَّ من كل شىء، فإنى أترقبه بالدَّقيقة»[(٣)].

وعندما عرض عليه أن يترك ساحة الجهاد، ويُسافر إلى الحج قال: «لن أذهب ولن أبرح هذه البقعة حتَّى يأتى رسل ربى، وإن ثواب الحج لا يفوق ثواب دفاعنا عن الوطن والدين والعقيدة»[(٤)].

وقال: «كل مسلم الجهاد واجب عليه وليس منه مناص، وليس لغرض أشخاص، وإنَّما هو لله وحده»[(٥)].

إنَّ هذه الكلمات التى كتبت بماء الذهب على صفحات تاريخنا المجيد نابعة من فهم عمر المختار لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢].

ومن فهمه لأحاديث رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[(٦)].

ولقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[(٧)].

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٧١).
(٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده العسكرى، للحساوى (ص ٣٦).
(٣)، (٤)، (٥) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده العسكرى، للحساوى (ص٣٧).
(٦) رواه مسلم. (٧) انظر: صحيح سُنَن أبى داود، للشيخ الألبانى - رحمه الله - .



إنَّ هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، كانت المنهج العقدى والفكرى الذى تربت عليها كتائب المجاهدين وقادتها الكرام الذين تربوا فى أحضان الحركة السنوسية.

تم الاتفاق بين الأمير إدريس وعمر المختار على تفاصيل الخطَّة التى يجب أن يتبعها المجاهدون ضد العدو الغاشم المعتدى على أساس تشكيل المعسكرات، واختيار القيادة الصالحة لهذه الأدوار، وأن تظل القيادة العليا من نصيب عمر المختار نفسه، وزوَّده الأمير بكتاب إلى السيد الرضا بهذا المعنى، وتمَّ الاتفاق على بقاء الأمير فى مصر؛ ليقود العمل السياسى، ويهتم بأمر المهاجرين ويضغط على الحكومة المصرية والإنجليزية بالسماح للمجاهدين بالالتجاء إلى مصر، ويُشرف على إمداد المجاهدين بكل المساعدات الممكنة من مصر، ويُرسل الإرشادات والتَّعليمات اللازمة إلى عمر المختار فى الجبل، واتُّفق على أن يكون الحاج التواتى البرعصى حلقة الوصل بين الأمير وقائد الجهاد، وبعد ذلك الاتفاق غادر عمر المختار القاهرة، وعند وصوله إلى السلوم وجد بعض رفقائه فى انتظاره، فأخذ الجميع حاجتهم من المؤن الكافية لرحلتهم إلى الجبل الأخضر، وغادروا السلوم إلى برقة(١).

وقد حدث فى أثناء وجود عمر المختار أن اشتبك المجاهدون مع الطليان فى معركتين كبيرتين فى بير بلال والبريقة فى (ذى القعدة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)، فانتصر المجاهدون على الطليان فى معركة بير بلال بقيادة المجاهد قجة عبد الله السودانى، واستشهد كل من الهدى الحرنة، والشيخ نصر الأعمى وغيرهم، وقد ساهم فى هذه المعركة صالح الأطيوش، والفضيل المهشهش، وكانت نفقات المجاهدين فى هذه المعركة على حساب الفضيل المهشهش، ووقعت معركة البريقة بعد بير بلال بأربعة أيَّام، واستشهد فيها من أبطال الجهاد إبراهيم الفيل(٢).

ومع هذه الانتصارات إلا أنَّ الطليان استطاعوا احتلال أماكن للمجاهدين فى برقة، وزحفوا على معسكر العواقير بموقع البدين وبعد معركة شديدة كبدت الطرفين خسائر فادحة انسحب المعسكر إلى إجدابية، واستمر الزحف الإيطالى يُلاحق المجاهدين حتَّى اشتبك مع طلائع معسكر المغاربة فى الزويتينة، ولم يطل الدفاع عنها حتَّى احتلها الطليان وواصلوا زحفهم إلى إجدابية حيث احتلوها فى (إبريل ١٩٢٣م)(٣).

ثامنًا: معركة بئر الغبى:

كانت عيون إيطاليا ترصد حركة عمر المختار فى دعوته إلى برقة، ولكنها فشلت فى اللقاء به قبل أن يصل إلى رفاقه، وما كاد يصل إلى بئر الغبى حتَّى فوجئ بعدد من المصفحات الإيطالية.

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٧٣).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٢٧٣، ٢٧٤).
(٣) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص٦٣).

وإليك أحداث المعركة كما رواها عمر المختار بنفسه:

«كنَّا لا نتجاوز الخمسين شخصًا من المشايخ والعساكر، وبينما تجمع هؤلاء حولنا لسؤالنا عن صحة سمو الأمير، وكنَّا صائمين رمضان، وإذا بسبعة سيَّارات إيطالية قادمة صوبنا، فشعرنا بالقلق؛ لأن مجيئها كان محل استغرابنا ومفاجأة لم نتوقعها، وكنَّا لم نسمع عن هجوم الطليان على المعسكرات السنوسية، واحتلالهم إجدابية، فأخذنا نستعد فى هدوء والسيارات تدنو منَّا فى سير بطيء، فأراد على باشا العبيدى أن يُطلق الرصاص من بندقيته، ولكنى منعته قائلاً: لابد أن نتحقق قبلاً من الغرض ونعرف شيئًا عن مجيء هذه السيارات؛ كى لا نكون البادئين بمثل هذه الحوادث، وبينما نحن فى أخذ ورد، وإذا بالسيارات تفترق فى خطَّة منظمة المراد منها تطويقنا، وشاهدنا المدافع الرشاشة مصوَّبة نحونا، فلم يبق هنا أى شك فيما يُراد بنا فأمطرناهم وابلاً من رصاص بنادقنا، وإذا بالسيَّارات قد ولَّت الأدبار إلى منتجع قريب منَّا، وعادت بسرعة تحمل صوفًا، ولما دنت منا توزَّعت توزيعًا محكمًا، وأخذ الجنود ينزلون ويضعون الأصواف (الخام) أمامهم؛ ليتحصَّنوا بها من رصاصنا[1]، وبادرنا بطلق الأعيرة، فأخذ على باشا يولع سيجارة، وقلت له: رمضان يا على باشا، مُنبهًا إيَّاه للصوم، فأجابنى قائلاً: «مو يوم صيام المنشر زادم»[2].

وفى أسرع مدَّة انجلت المعركة عن خسارة الطليان، وأخذت النار تلتهم السيارات إلا واحدة فرَّت راجعة، وغنمنا جميع ما كان معهم من الأسلحة»[3].

ثم استمر المجاهدون فى سيرهم حتَّى بلغوا الجبل الأخضر، ووصلوا إلى زاوية القطوفيَّة (مكان معسكر المغاربة) وقابلهم صالح الأطيوش والفضيل المهشهش ووقف عمر المختار على تفاصيل معركة البريقة، وحال المجاهدين، ثم واصل سيره إلى جالو مقر السيد محمد الرضا؛ ليُبلِّغ التعليمات التى أخذها من سمو الأمير.

وبعد أن تمَّ اللقاء بين عمر المختار والسيد الرضا اتفقا على تنظيم حركة الجهاد، وإنشاء المعسكرات فى الجبل الأخضر، واقترح عمر المختار على الرضا أن يُرسل ابنه الصديق إلى معسكر المغاربة عند صالح الأطيوش، ومعسكر العواقير بقيادة قجة عبد الله السودانى، وهى معسكرات قريبة من بعضها، ثم غادر عمر جالو إلى الجبل الأخضر، وشرع فى تشكيل المعسكرات

(١) كان الصوف الخام الكثيف يستعمل ضد الرصاص.

(٢) هذا المثل باللهجة البدوية ومعناه: لم يكن اليوم من أيام الصيام، حيث إن صوت البنادق أخذ يدوى وكلمة المنشر هى اسم لنوع من البنادق. وكلمة زادم: دواء من الأدوية.

(٣) انظر: عمر المختار، (ص ٦٤).

للمجاهدين، وأُنشئت معسكرات البراعصة والعبيد والحاسة، فاختار الرضا حسين الجويفى البرعصي لقيادة البراعصة، ويوسف بو رحيل المسمارى لمعسكر البراغيث والفضيل بو عمر لمعسكر الحاسة، وأصبح عمر المختار القائد الأعلى لتلك المعسكرات.

وبدأ الجهاد الشاق والطويل واستمر متَّصلاً ومن غير هوادة حوالى ثمانية أعوام.

وكان عاما (١٩٢٤، ١٩٢٥) قد شهدا مناوشات عدَّة ومعارك دامية، ووسع المجاهدون نشاطهم العسكرى فى الجبل الأخضر، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يُتقن أساليب الكر والفر، ويتمتَّع بنفوذ عظيم بين القبائل، وأخذ العرب من أبناء القبائل ينضمون إلى صفوف المجاهدين، وبادرت القبائل بإمداد المجاهدين بما يحتاجون من مؤن وعتاد وأسلحة، وكان لقبائل العبيد، والبراعصة، والحاسة والدرسة والعواقير وأولاد الشيخ والعوامة، والشهيبات والمنفا والمسامير أكبر نصيب فى حركة الجهاد.

كان معسكر البراغيث هو مركز الرياسة العامة، ومقر القائد العام عمر المختار، وهو النواة الأولى، وحجر الأساس لمعسكرات الجبل الأخضر الثلاثة، وكان عمر المختار يُلقَّب بنائب الوكيل العام، وكان السيد يوسف بور حيل يعرف بوكيل النائب، وهكذا فقد تنظم الجهاز الحكومى فى هذه المنطقة الواسعة بتشكيل المحاكم الشرعيَّة والصلحية وإدارة المالية (المحاسبة، والأرزاق، جباية الزكاة الشرعيَّة، الخمس من الغنائم)، واستمر التعاون بين هذه المعسكرات الثلاثة وفروعها فى السراء والضراء وأخذت تقوم بحركات عظيمة ضد العدو وشن الغارة عليه فى معاقله؛ كما كانت تتصدَّى لزحفه عليها، فتهجم حينًا، وتنسحب حينًا آخر حسب ظروف الحرب[1].

أصبح تفكير إيطاليا محصوراً فى برقة التى لم يتمكن الطليان منذ زحفهم على إجدابية سنة (١٩٢٣م) من احتلال مواقع تذكر عدا مدينة إجدابية، ولذلك اهتمت إيطاليا ببرقة، وانحصرت مجهوداتها فى الفترة الواقعة بين سنة (١٩٢٣م)، وبين (١٩٢٧م) على معسكرات عمر المختار الذى لم يخرج يومًا من معركة إلا ليدخل فى معركة أخرى.

وفى عام (١٩٢٧م) وقع الوكيل العام السيد رضا المهدى السنوسى فى الأسر بطريق الخديعة والغدر، وسقطت مناطق برقة الحمراء والبيضاء تدريجياً.

كانت قيادة الجيش الإيطالى فى برقة قد بدلت وتولى أمرها؛ لتنفيذ الخطة الجديدة التى تستهدف ضرب الحصار على حركة الجهاد فى الجبل الأخضر «ميزتى» كما استبدل والى بنغازى

(١) انظر: عمر المختار، (ص ٧٠).

الإيطالى «مومبيلى» بخلفه الجنرال «تيروتس» وهو من زعماء الحزب الفاشيستيين، وزوَّد الجنرال ميزتى بعدد كبير من الجنرالات وكبار الضباط وأركان الحرب لمساعدته، وفى نفس السنة تقدَّمت القوات الإيطالية من طرابلس بقيادة الجنرال غرسيانى، فاحتَّلت واحة الجفرة والقسم الأكبر من فزَّان، واشتبكت قبائل المغاربة بزعامة صالح الأطيوش، وقبائل أولاد سليمان بزعامة عبد الجليل سيف النصر، ودور حمد بك سيف النصر، وبعض اللاجئين إلى تلك الجهات من قبائل العواقير بزعامتى عبد السلام باشا الكزة، والشيخ سليمان رقرق، ودخلت هذه القبائل فى معارك بجهات الخشة، وكانت الغلبة فيها للجيش الإيطالى الزاحف، فالتجأ المجاهدون إلى منطق الهاروج من الصحراء، ومن ثمَّ اشتركوا مع العدو فى معارك عنيفة منها معركة الهاروج، ومعركة جبل السوداء، ومعركة قارة عافية، وكان من بين من حضروا هذه المعركة الأخيرة السيد محمود بوقويطين أكير اللواء وقائد عام قوَّة دفاع برقة فى زمن المملكة الليبية المتحدة، والسيد السنوسى الأشهب[(١)] .

كانت القيادة الإيطالية حريصة على الاستيلاء على فزَّان، فخرجت فى (أواخر يناير ١٩٢٨م) قوَّتان.. إحداهما من غدامس والأخرى من الجبل الأخضر، وكان الجيش بقيادة غرسيانى، والتحم المجاهدون مع ذلك الجيش فى معركة دامية استمرت خمسة أيَّام، انهزم فيها الطليان شر هزيمة، فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر، ثم ما لبث أن خرجت قوة أخرى قصدت فزَّان مباشرة، فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثة أيام، وانسحبوا إلى الدَّاخل، حتَّى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بين جبلين يعرفان بالجبال السود، انقضَّ المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقَّهقر، فعمد قواد الحملة إلى الفرار بسيَّاراتهم تاركين وراءهم الجيش الذى وقع أكثره فى قبضة المجاهدين، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعندئذ لم يجد الطليان مناصًا من أن يُجددوا محاولتهم، فخرجت هذه المرة قوَّات عظيمة من جهات متعددة، غير أنَّ الطليان ما لبثوا أن انهزموا فى هذه المعارك، وتركوا وراءهم غنائم وأسلابًا كثيرة[(٢)]، وجدد الطليان المسعى وخرجوا من الجفرة فى (٣ فبراير ١٩٢٨م) بجيش كبير وزحفوا على زلة واحتلوها فى (٢٢ فبراير)، وواصلت القوات الإيطالية سيرها واحتَّلت آبار تتفرقت فى (٢٥ فبراير)، واستمرت العمليَّات وانتهت باحتلال مراده، وأصبحت زلة وجالو، وأوجلة ومراده تحت سيطرتهم، ومما ساعد الطليان على احتلالهم لتلك الوحدات سقوط الجغبوب قبل ذلك فى أيديهم، وسياستهم الرامية لتفتيت الصف بواسطة بعض عملائهم، وكان الطليان يبذلون الأموال والوعود لزعماء القبائل، لوقف القتال، وقد نجحوا فى ذلك نجاحًا كبيرًا.

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص ٧٣).
(٢) انظر: حياة عمر المختار لمحمود شلبى، (ص ١٤٤، ١١٥).

كان احتلال الجغبوب، وجالو، وأوجلوا، وفزان وغيرها من الواحات قد جعل عُمر المختار فى عزلة تامة فى الجبل الأخضر، ومع هذا ظلَّ عمر المختار يشن الغارات على درنة وما حولها حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم لمقابلته، فاشتبك معهم فى معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه وفرَّ الطليان تاركين عدداً من السيارات والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة والجمال، ودواب النقل(١).

وكانت القبائل تتعاون مع قائد حركة الجهاد، تمده بالرجال، والمؤن والمعلومات، وعلى سبيل المثال كان حامد عبد القادر المبروك من شيوخ قبيلة المسامير يمد المختار بالمعلومات المهمة دون تأخير، ويُشارك فى عمليات الجهاد مع أبناء قبيلته بدون علم الطليان، ويرجع من كُتبت له الحياة إلى موطنه، ويستشهد من يستشهد، وكان زعماء القبائل التَّابعة للحركة السنوسية يجمعون الأعشار والزكاة ويمدون بها حركة الجهاد بالرغم من وجود الكثير منهم تحت السلطات الإيطالية، وخصوصًا من كان فى المدن كبنغارى، والمرج، ودرنة، وطبرق وغيرها، وكانت وسائل مد المجاهدين بأموال الزكاة والأعشار تتم فى غاية السرية وعجزت المخابرات الإيطالية عن اكتشاف اللجان الخاصة بالدعم المالى للمجاهدين، ومن وقع فى أيدى السلطات الإيطالية كانت عقوبته الإعدام، وكانت الغنائم تمثل مصدراً مهماً لتمويل حركة الجهاد فى فترة عمر المختار، ومعظم الغنائم تم الحصول عليها فى المعارك التى تمكَّن فيها المجاهدون من هزيمة الإيطاليين؛ مثل معركة الرحيبة فى (مارس ١٩٢٧م)(٢).

وكانت كل عائلة قد أخذت على عاتقها تزويد مجاهديها بما يلزم من شئون ملابس، ترسله شهرياً إلى الدور (المعسكر).

وكان الأمير إدريس يتحيَّن الفرص لتزويد المجاهدين، فقد ذكر الأشهب بأنَّ قافلة وصلت المجاهدين قادمة من مصر، وكان فيها سليمان العميرى (من قبيلة أولاد على)، وبومنيقر المنفى (من رفاق عمر المختار) يحملان رسائل من سمو الأمير، وكانت القافلة محمَّلة بالأرز والدقيق والسكر والشاى وبعض الملابس، وكان الطيب الأشهب موجوداً فى معسكر المجاهدين وقت وصول القافلة(٣)، وقد ذكر صاحب كتاب «حياة عمر المختار» بأنَّ القافلة استطاعت أن تخرج من السلوم محمَّلة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة معسكر المجاهدين فى الجبل الأخضر، فعلم الطليان

---

(١) انظر: حياة عمر المختار لمحمود شلبى، (ص ١٤٤).
(٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، عقيل البربار (ص ٨٢، ٨٣).
(٣) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص ٧٩).

بذلك وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها، ولكن المجاهدين صمدوا لهم، وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات، فتعطلّت السيَّارات، وعندئذ انقضَّ المجاهدون على القوَّة الإيطالية فأبادوها عن آخرها، وكان ذلك فى عام (١٩٢٨م)(١).

وكان المجاهدون يستفيدون من تلك المصادر ويقومون بشراء حاجيات المجاهدين من الأسواق فى المدن والقرى، ويشترون ما يلزمهم من المؤن والأسلحة ويجمعون المعلومات عن تحركات العدو العسكرية، كل هذه الأعمال يقوم بها أتباع عمر وبمساعدة سكان المدن والقرى الذين يخفون المجاهدين فى بيوتهم ومخيَّماتهم، وكان المتطوعون يتدفَّقون على معسكرات الجهاد، وكانوا يعتمدون على أنفسهم فى توفير السلاح ووسيلة الركوب والتموين، وكان نظام الأدوار (المعسكرات) يتميَّز بالآتى :

١- يلتزم كل دور بتوفير التموين اللازم لأفراده، فهم بالإضافة إلى اشتراكهم فى عمل واحد، هم أبناء عشيرة واحدة مترابطة، ويوجد بالدور أشخاص، مُكلفون بجباية الزكاة وجمع الأعشار، وهؤلاء يقومون بعملهم بناء على تكليف كتابى من عمر المختار، وهم بدورهم يجرون اتصالات (كوشان) بقيمة المبالغ التى استلموها.

وقد عيَّن لكل دور رئيس إدارة يُشرف على تموين الدور من حيث التَّوزيع، والتخزين والتدبير وتسليم الأموال والتبرعات التى تصل لقيادة الدور، فقد عين عمران راشد القطعانى رئيسًا لإدارة البراعصة والدرسة، وعين التواتى العرابى رئيسًا لإدارة دور العبيدات والحاسة، وعين الصديق بوهزاوى مأمورًا للأعشار ويتبع عمر المختار مباشرة، وعين داود الفسى رئيسًا لإدارة دور العواقير(٢).

٢- يقوم كل دور بتعويض الشهداء من المقاتلين بآخرين من قبائلهم وهكذا لا يتأثَّر الدور كثيرًا لفقد الشهداء، فبعد كل معركة يتم حصر الشهداء وإلى أى القبائل ينتمون، ثم يُرسل إلى كل قبيلة العدد الذى يجب أن تُعوضه عن شهدائها، وإذا لم تجد العدد المطلوب تدفع لقيادة الجهاد (١٠٠٠) فرنك عن كل شهيد؛ لكى يجنِّد بها العدد اللازم.

٣- تتبارى مجموعات القبائل فى تقديم البطولات والتَّضحيات حتَّى لا تكون موضع سخرية واستهزاء أمام بقيَّة القبائل، وكان المجاهد الليبى يغضب غضبًا شديدًا، ويحزن إذا فاته الاشتراك فى إحدى المعارك أو تخلَّف عنها لسبب من الأسباب، وإبراهيم الفيل العريبى نموذج لهؤلاء، فقد فاته أن يُشارك فى معركة بلال فحزن حزنًا شديدًا، إلا أنَّ قادة الجهاد طمأنوه، وقالوا له : إنَّ أيام

(١) انظر : حياة عمر المختار لمحمود شلبى، (ص ١١٧، ١١٨).
(٢) انظر : عمر المختار، نشأته وجهاده (ص ١٠٥).

الجهاد كثيرة وفى اليوم التالى جرت معركة البريقة، فاشترك فيها وهجم بفرس على سيارات الأعداء وصار يُقاتل حتَّى أكرمه الله بالشهادة.

٤- يسهل على كل دور توفير الحماية اللازمة لذويه عن طريق الدوريَّات، والرباطات التى تُراقب تحركات القوات الإيطالية أو أية تحركات غير عادية لمعرفتهم بمسالك المنطقة ودروبها وأماكن المياه بها، فعندما يحل الدور بمنطقة ما يضع دورية فى كل اتجاه لتُراقب وضع القوات الإيطالية فى تلك المنطقة وتغطى أخبار تحركاتها للمجاهدين أولاً بأول حتَّى يكونوا على علم باتجاه وتحركات العدو، وحين يلتقى أفراد الدورية بالأعداء يُطلقون ثلاث طلقات، وعند سماع تلك الطلقات يستعد الجميع لملاقاة الأعداء فى الجهة التى سُمع منها إطلاق الرصاص.

كما تقوم دوريات أخرى تعرف باسم «الرباط» بمراقبة الإيطاليين فى مراكزهم التى يحتلونها للحصول على معلومات عن تحركاتهم عن طريق الأهالى الموجودين داخل تلك المدن، وكثيراً ما يتعرض بعض هؤلاء الأهالى بسبب تعاونهم مع المجاهدين لعقوبة الإعدام، كما حدث مع سليمان بن سعيد العرفى الذى أدانته المحاكم الإيطالية بالتعاون مع المجاهدين، وحكم عليه بالإعدام شنقًا[١].

كان نظام الأدوار يقوم على أساس قبلى، ويُعد الدور حدة عسكرية وإدارية، واجتماعية يرأسها قائم مقام، وتتمثل فيه السلطة الإدارية والعسكرية يساعده قومانداان (قائد) أو أكثر حسب حجم الدور والقبائل المنضوية تحته.

وقد استخدم عمر المختار النظام العسكرى العثمانى، فبالإضافة إلى القائم مقام والقومانداان هناك الرتب الآتية: بكباشى- يوزباشى- ملازم أول- ملازم ثان- كوچك ضابط (ضابط صغير)- باش شاوش- شاوش- أمباشى.

وكانت الترقيات تتم على أسس ميدانية بناء على ما يقدمه الشخص من أعمال وبطولات فى ميادين المعارك والمواقف الدقيقة، إذ يُرفع إلى عمر المختار تقرير من الرئيس المباشر بشرح الحالة التى استحقَّ عليها المعنيُّ التَّرقية، ويصدر بذلك أمر كتابى من عمر المختار على بقيَّة المجاهدين[٢].

وكان هناك مجلس أعلى يرأسه المختار يتكوَّن من: يوسف بورحيل، وحسين الجويفى، والفضيل بو عمر، ومحمد السركسى، وموسى غيضان، ومحمد مازق، ومحد العلوانى،

---

(١) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده (ص ١٠٦).

(٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده (ص ١٠٠).

وجربوع سويكر، وقطيط الحاسى، ورواق درمان، وفى حالة غياب المختار يرأس المجلس يوسف بو رحيل[١].

وكان لكل من الأدوار مجلس يتكوَّن من مشايخ القبائل وأعيانها من المعروفين بالحكمة وسداد الرأى. ومهمّة هذا المجلس استشارية، وهو فى حالة انعقاد دائم لمواجهة الطوارئ، والإسهام فى حل المشاكل التى قد تحدث بالدور[٢].

تاسعًا: معركة أم الشافتير (عقيرة الدم):

استمر المجاهدون فى الجبل الأخضر يشنون الهجمات على القوات الإيطالية وحققوا انتصارات رائعة من أشهرها موقعة يوم الرحيبة بتاريخ (٢٨ مارس ١٩٢٧م)[٣]، جنوب شرقى المرج وقرب جردس العبيد، ووقعت بعد معركة الرحيبة معارك ضارية فى بئر الزيتون (١٠ محرم ١٣٣٥هـ- ١٠ يوليو ١٩٢٧م)، ورأس الجلاز (١٣ محرم ١٣٣٥هـ- ١٣ يوليو ١٩٢٧م).

أراد الإيطاليون أن ينتقموا لقتلاهم فى معركة الرحيبة، فشرعوا يعدون العدة للانتقام لقتلاهم الضباط الستة وأعوانهم المرتزقة البالغ عددهم (٣١٢) فى محاولة لإعادة معنوياتهم المنهارة نتيجة لتلك الهزيمة الساحقة، تم إعداد الجيوش الجرَّارة؛ لتتخذ من الجبل الأخضر قاعدة لها على النحو التالى[٤]:

١- الجنرال مازيتى: القائد العام للقوات الإيطالية قائدًا لإحدى الفرق فوق الجبل الأخضر (٨ يوليو) من مراوة: أربع فرق أرترية- فرقة ليبية- أربع فرق- خيالة- بطارية أرترية.

٢- الكولونيل إسبيرا إنذائى: (٨ يوليو) من الجرارى (جردس الجرارى) أو جردوس البراعصة أربع فرق أرترية- فرق ليبية- بطارية ليبية- فرقة غير نظامية.

٣- الكولونيل منتارى: (٨ يوليو) من خولان- فرق أرتريا- فرق غير نظامية.

٤- الماجور بولى: (٩ يوليو) غوط الجمل- مهما ريستا- فرقة سيارات مصفحة- نصف فرقة ليبلير- فصيلان قنَّاصة على الدبَّابات.

(١) انظر: برقة العربية، للأشهاب، (ص ٤٢٥).
(٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده (ص ١٠٢).
(٣) انظر: معجم معارك الجهاد، خليفة التليسى، (ص ٧٩).
(٤) انظر: جذور النضال العربى، محمد عبد الرزاق مناع، (ص ١٣٠).

ويُضاف إلى تلك الاستعدادات سلاح الطيران الذى انطلق من قواعده بالمرج ومراوة وسلنطة.

وقد كانت قوات الإيطاليين ضخمة مما تدلنا على خوفهم ورهبتهم من قوات المجاهدين.

كان عدد المجاهدين ما بين (١٥٠٠) إلى (٢٠٠٠) مجاهد[١]، منه حوالى (٢٥٪) من سلاح الفرسان ويرافقهم حوالى (١٢) ألف جمل[٢]، بما يُثقل تحركاتهم من النساء والأطفال والشيوخ والأثاث. علمت إيطاليا بواسطة جواسيسها بموقع المجاهدين فى عقيرة أم الشفاتير، فأرادت أن تحكم الطوق على المجاهدين، فزحفت القوات الإيطالية نحو العقيرة بعد مسيرة دامت يومين كاملين واستطاعت أن تضرب حصاراً حول المجاهدين من ثلاث جهات، وبقوات جرارة تكوَّنت من حوالى (٢٠٠٠) بغل، و(٥٠٠٠) جندى، و(١٠٠٠) جمل بالإضافة إلى السيارات المصفحة والناقلة.

علم المجاهدون بذلك، وأخذوا يعدون العدَّة لملاقاة العدو، فأعدوا خطَّة حربية، وقاموا بحفر الخنادق حول أطراف المنخفض ليستتر بها المجاهدون وخنادق أخرى؛ لتحتمى بها الأسر من نساء وأطفال وشيوخ، وتم ترتيب المجاهدين على شكل مجموعات حسب انتمائهم القبلى، ووضعت أسر كل قبيلة خلف رجالها المقاتلين، وكان قائد المعركة التقى الزاهد الورع الشيخ حسين الجويفى البرعصى، وكان عمر المختار من ضمن الموجودين فى تلك المعركة.

كان الشيخ حسين الجويفى ممن تجرَّد للجهاد فى سبيل الله، وطلب رحمه الله تعالى وكان يقول: «أنا لا أُريد قيادة ولا منصباً، بل أُريد جهاداً؛ رغبة فى ثواب الله تعالى»[٣].

كان ذلك الصنديد محل تقدير من قبل إخوانه، قال فى حقه قائده الأعلى عمر المختار عقب استشهاده: أتذكر حسين الجويفى عند اللقاء مع العدو أو عند قراءة القرآن الكريم وقت الورد[٤].

كما عرف عنه أنه لم يبرح فرسه يوماً أثناء المعركة؛ لينال من أسلاب العدو، بل يتركها للمجاهدين لعفته وقناعته بما يملك من أموال ومواشٍ.

لقد أسندت إليه قيادة المعركة؛ لمعرفته بشعاب ودروب المنطقة التى كان يسكنها مع كونه أحد قادة الجهاد، وأحد المستشارين لعمر المختار، وقائم مقام البراعصة والدرسة فى فترة سابقة، فكان فى تلك المعركة فوق جواده يجوب الميمنة والميسرة والقلب وهو عارى الرأس لا يخشى الموت

(١) جذور النضال العربى، محمد عبد الرزاق مناع، (ص ١٣٧).
(٢) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة عام (١٩٨٤م)، (ص٩).
(٣) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة عام (١٩٨٤م)، (ص ١٠).
(٤) انظر: المصدر السابق نفسه (ص ١٠، ١١).

يوزع صناديق الذخيرة على المقاتلين تارة ويُطلق عبارات التَّشجيع مرَّة أخرى، ويقوم بتحريك جبهات القتال، وتنظيم هجمات المجاهدين، وترتيب صفوفهم.

وسقط الشهداء واشتدَّت المعركة، وارتفعت درجة حرارة البنادق بسبب استمرار إطلاق العيارات النارية واستعمل المجاهدون الخرق البالية لتقيهم حرارة مواسير البنادق التى لا تطيقها يد المجاهد، وكان بعض المجاهدين يملك بندقيتين يستعمل الواحدة مدَّة ثم يتركها حتَّى تبرد ويتناول الأخرى.

وخصَّص القائد حسين فرقة من المجاهدين للتَّصدى للمصفحات المهاجمة من الجنوب وعددها ثلاثون مصفحة، ولعب كومندار المعيَّة المجاهد سعد العبد السودانى دوراً بارزاً وأظهر شجاعة نادرة بأن قاد تلك الفرقة المواجهة للمصفحات الإيطالية، وتمكَّن من تدمير أغلبها مع رجاله، وانتزع المجاهد رمضان العبيدى العلم الإيطالى من على إحدى المصفَّحات، وبدأ الجيش الإيطالى فى التقهقر، ودخل الرعب نفوس ضباطه وجنوده الذين وجدوا فرصة الحياة فى الهروب، وبالرغم من قصف الطَّائرات إلا أنَّ الإيمان القوى، واحتساب الأجر عند الله كان دافعًا مهمّاً لدى المجاهدين.

كانت خسائر المجاهدين فى الأرواح (٢٠٠) شهيد من بينهم القائم مقام محمد بونجوى المسمارى الذى استشهد فى اليوم الثالث إثر إصابته بجرح مميت، وكان له مكانة عظيمة فى نفوس المجاهدين، ووالد زوجة عمر المختار الذى بكاه بكاءً حاراً وقال بعد أن سمع باستشهاده «راحوا الكل يا عين الجيران وأصحاب الغلا»(١).

واستشهد كل من جبريل العوامى، وستَّة من قبيلة العوامة، ومحمَّد بو معير الدرسى والشلحى الدرسى، ومحمَّد الصَّغير البرعصى، وفقد المجاهدون فى تلك المعركة عددًا كبيرًا من الإبل والمواشى، وتمَّ حرق بعض الخيام من جرَّاء الغارات الجويَّة.

ومكث المجاهدون طيلة الليل يدفنون الشهداء وينقلون الجرحى، وقبل بزوغ الفجر رحلوا عن ذلك الموقع، بهدف الإعداد والاستعداد للقاء العدو فى موقع جديد من مواقع القتال(٢)، وأصبحت القوات الإيطالية، كما يقول تيروتسى: «أصبحت الآن منهوكة القوى تخور إعياء من شدَّة المعارك المستمرة منذ فترة طويلة دون توقف...»(٣).

---

(١) انظر: برقة العربية، (ص ٤٤٠).

(٢) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة عام (١٩٨٤م)، (ص ١٦).

(٣) انظر: المصدر السابق نفسه (ص ١٦).

وكانت نتائج تلك المعركة فيما يلى:

١- كانت معركة أم الشفاتير بداية نقطة فاصلة فى اتباع استراتيجية جديدة عند عمر المختار، وهى ضرورة إعادة تنظيم المجاهدين على هيئة فرق صغيرة[١]، تلتحم مع العدو عند الضرورة، وتشغله فى أغلب الأوقات مما يُقلل فى عدد الشهداء أثناء المعارك ويلحق الخسائر الفادحة بالأعداء وفق التكتيك الجديد لحرب العصابات «اهجم فى الوقت المناسب، وانسحب عند الضرورة».

٢- لمح عمر المختار بنظره الثَّاقب ملامح السياسة الفاشستية الجديدة، وهى الإبادة والتَّدمير (للمصالح والرجال)، فاتَّخذ إجراءات ترحيل النساء والأطفال والشيوخ إلى السلوم؛ لحمايتهم من الغارات الجويَّة الإيطالية، وتيسيرًا لسهولة تحرك المجاهدين وفق ما يتطلبه الموقف الجديد.

٣- كما سُمح لأحد الأخوين بالهجرة للمحافظة على وريث لهما فيما بعد حتَّى يكون دائمًا هناك من يُطالب بحقوقه ويزعج المستعمرين الطليان، وللتعريف بالقضية بتلك البلدان، ونتج عنه فيما بعد تشكيل الجاليات الليبية فى الخارج[٢].

٤- أيقن الإيطاليون أنَّه لا جدوى من الاستمرار فى العمليات العسكريَّة ضد المجاهدين، مما كان سببًا فى توقفها طيلة سنة (١٩٢٨م)[٣]، لقد تحقَّق لموسولينى ما قاله من قبل: «إننا لا نُحارب ذئابًا كما يقول جرسيانى بل نُحارب أسودًا يُدافعون بشجاعة عن بلادهم... إنَّ أمد الحرب سيكون طويلاً»[٤].

عاشرًا: استشهاد حسين الجويفى والمختار بن محمد فى معركة أبيار الزوزات (١٣/٨/١٩٢٧م):

استشهد الشيخ حسين الجويفى رئيس دور البراعصة، وكان صاحب مكانة عظيمة عند المختار[٥]، كان حسين الجويفى سبَّاقًا للخيرات، حريصًا على الشهادة فى سبيل الله، وكان يحرص على الخروج للمعارك مع مرضه حتَّى أنَّ عمر المختار فى إحدى المعارك طلب منه أن يبقى حفاظًا على صحَّته، وقال له: «الجايات أكثر من الفايتات» والطليان لمحاربينا ونحن لا نُبطل الهجوم عليهم وستشبع من القتال فأيامه كثيرة[٦].

---

(١) انظر: تاريخ ليبيا، جون رابت، (ص ١٥٣).

(٢) انظر: كفاح الليبيين السياسى فى بلاد الشام (١٩٢- ١٩٥)، تيسير بن موسى.

(٣) انظر مجلة البحوث، السنة السادسة (١٩٨٤م)، العدد الأول (ص ١٧).

(٤) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده (ص ١٤).

(٥) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٢٨٤).

(٦) انظر: عمر المختار للأشهب، (٨١).

لقد فقد عمر المختار عدداً كبيراً من رفاقه الأبطال الذين وقعوا شهداء في ساحة الوغى، وكان من بينهم المختار ابن شقيقه محمد، فشقَّ عليه فقده، رغم أنه لا يزيد مكانة عند عمه السيد عمر المختار أكثر من إخوانه المجاهدين، لقد كان ابن أخيه عائلاً له يهتم بشئون أسرة عمر المختار، ويُشرف على شئونه الخاصة، وخدمته الشَّخصيَّة، وكان بمثابة الابن حيث لم يكن لعمر ابن يتولَّى شئون العائلة؛ لأن ابنه الوحيد محمد صالح كان لا يزال طفلاً، ثم إنَّ السيد عمر المختار تعوَّد مُصاحبة الفقيد منذ سنة (١٩١٦م)، وإلى جانب كل ذلك فإنه من أبطال الجهاد، ومن الأبناء البررة، لقد احتسب المختار وأظهر التَّجلد وصبر صبراً جميلاً، وكان يقول لكل من جاء لتعزيته:

إنَّ كل فرد من رفاقي المجاهدين هو عندي بمنزلة المختار، إنني فقدت مختاراً واحداً، ولكنني أعيش بين عدد من المختارين كل منهم يملأ مكان ابن أخي.



المبحث الثاني

استمرار العمليات والدخول في المفاوضة

في (سبتمبر عام ١٩٢٧م)، غزت جموع الزاوية الجفرة ومرسى بريقة وجالو وأوجلة، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة، واشتدت مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر على الرغم من احتلال الطليان للواحات ومراكز السنوسية المهمة، فلم يعد هناك مناصًا من أن يعيد الطليان النظر في خططهم، مما أدى إلى وقوع أزمة كبيرة في روما، وبدأت الحكومة الجديدة التي ترى ضرورة التقيد بها في كل من برقة وطرابلس وقد اضطر فيدرزوني وزير المستعمرات، وديبونو والي طرابلس وتيروتزي والي برقة للاستقالة في (ديسمبر ١٩٢٨م)، فعين ديبونو وزيرًا للمستعمرات، وأعلن موسوليني توحيد الإدارة في القطرين الليبيين، وعين المارشال بادوليو حاكمًا على طرابلس وبرقة.

كان مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة الجهاد الحاسمة بالنسبة للمجاهدين وكان تاريخ تعيينه في شهر (يناير من عام ١٩٢٩م)، وكان برنامجه الجديد يتلخص في تخفيض الجيش إلى القدر الذي يكفي للقيام (بحرب العصابات) والمحافظة على هيبة الحكومة مع إنفاق الأموال المتوفرة في مد الطرق في الجبل الأخضر مما يسهل عليه التنقلات العسكرية، فإذا ما تم له ذلك قام بهجوم شامل كاسح على المجاهدين، يقضي على المقاومة نهائيًا، ومن أجل ذلك سعت إيطاليا إلى مفاوضة السيد عمر المختار؛ لتهدئة الأحوال[1]، فكان برنامج بادوليو مبنيًا على كسب الوقت أولاً ثم العمل رويدًا رويدًا من أجل تقوية المراكز المحتلة.

واهتم بادوليو بكسب الرأي العام وتخويفه، فأعلن العفو عن الأفراد الذين يسلمون أنفسهم وسلاحهم مختارين للحكومة، ويتوعد كل معاند بالعقوبة الصارمة، وقد أسقطت الطائرات هذا المنشور من الجو على البلدان والقرى والنجوع في أنحاء ليبيا جميعها، وكان لهذا المنشور آثار مباشرة، فظن بعض زعماء ليبيا بمدينة طرابلس الضعف ووهن العزيمة في الحكومة، وقام أحمد سيف النصر، ومحمد بن الحاج حسن (من قبيلة المشاشة) بالزحف على منطقة القبلة لجمع البدو المحاربين وإرسالهم إلى الجبل الأخضر حتى يعززوا قوات المجاهدين في الجبل ويرغموا الحكومة على اتخاذ لهجة متواضعة عند بدء المفاوضات مع عمر المختار وصحبه، وشرع صالح الأطيوش ينظم في جبل الهروج جماعات من المحاربين للاشتباك مع الطليان في برقة أو في طرابلس، وفي منتصف (فبراير ١٩٢٩م) نزلت قوات المجاهدين من الهروج الأسود للانقضاض على النوفلية من

(١) انظر: حياة عمر المختار، (ص١١٩).

جانب وعلى إجدابية من جانب آخر، فاجتمعت من الجيفة ثم انقسمت ثلاث فرق التحمت إحداها مع الطليان فى معركة عند قارة سويد فى (٥ مارس)، واشتبكت الثانية معهم فى معركة كبيرة عند النوفلية فى (١٤ مارس) واتجهت الثالثة بقيادة عبد القادر الأطيوش من الجيفة صوب منطقة العقيلة فى (٢٣ مارس)، ثم استقر المجاهدون فى جبل سلطان، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب أمام قوات العدو العظيمة صوب وادى الفارغ(١).

كان لتلك الأعمال أكبر الأثر فى إقناع بادوليو بضرورة العمل فورًا من أجل استمالة المجاهدين إلى المفاوضة إذا أراد أن يضع برنامجه الواسع موضع التنفيذ، فبدأ من ثم متصرف المرج الكولونيل باريلا من أوائل (مارس ١٩٢٩م)، يطلب الاجتماع بالسيد عمر المختار للمفاوضة فى شروط الصلح، وحدد باريلا موعدًا للاجتماع غير أن باريلا لم ينتظر جواب المختار وأراد أن ينتهز فرصة اطمئنان المجاهدين؛ لقرب بداية المفاوضات، وانشغالهم بعيد الفطر المبارك، فانقض الطليان على المجاهدين، وهم يقومون بصلاة العيد (١٣٤٧هـ)، وردهم المجاهدون على أعقابهم، ولكن مناوشات صالح الأطيوش وجماعته ونشوب المعارك المستمرة اضطرت بادوليو إلى تجديد المسعى، فكلف متصرف درنة دودياشى لتمهيد المفاوضة مع عمر المختار وصحبه، فاتصل بالمجاهدين، واقترح على السيد عمر أن يكون الاجتماع يوم (٢ مارس) فى منزل على باشا العبيدى للبحث فى موضوع الصلح، وأصر عمر المختار على أن تظهر الحكومة الإيطالية حسن نواياها، ويكون ذلك بإطلاق السيد محمد الرضا، وإعادته إلى برقة واضطرت الحكومة الإيطالية للرضوخ، وأحضرت السيد محمد الرضا من جزيرة أوستيكا إلى بنغازى، واجتمع بعد ذلك عمر المختار مع مندوب الحكومة دودياشى فى منزل على العبيدى فى (٢٠ مارس)، وحضر الاجتماع عدد كبير من مشايخ البلاد وأعيانها، ثم أجلت المفاوضة إلى أسبوع، وانعقد اجتماع آخر فى سانية القبقب، ولم يستطع المتفاوضون الوصول إلى نتيجة مجدية، واجتمع المختار مع باريلا فى الشليونى فى الجبل الأخضر فى يوم (٦ إبريل)، ولم يصل المتفاوضون إلى نتيجة، وفى (٢٠ إبريل) عادت المباحثات فى بئر المغارة (فى وادى القصور)، وقد حضر هذا الاجتماع محمد الرضا والشارف غريانى، وخالد الحمرى، وعبد الله فركاش، ورويفع فركاش، وعلى باشا العبيدى، وعبد الله بلعون مدير المرج، وحضر كل هؤلاء اجتماع المختار بالسيد رضا، ثم خير مندوب الحكومة عمر بين ثلاثة أمور:

الذهاب إلى الحجاز، أو إلى مصر، أو البقاء فى برقة، فإذا رضى بالبقاء فى برقة أجرت عليه الحكومة مرتبًا ضخمًا، وعاملته بكل احترام، ولكن المختار رفض هذه الشروط، وكان السيد رضا يخضع لرقابة صارمة منعته من تبادل الرأى مع عمر المختار.

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص٣٢١).

واستؤنفت المفاوضات في هذه المرة في مكان يسمى قندولة بالقرب من سيدي رويفع، وحضر اجتماع قندولة باريلا، وكمباني وعدد من الضباط والأعيان، وكان سيشلياني قد بيت النية على الإيقاع بالمختار وأسره، ولكن عمر المختار احتاط للأمر، ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء.

وفي (٢٦ من مايو) بدأت المفاوضات من جديد، فحضر المختار إلى مكان قريب من القبقب، وفي هذا الاجتماع دارت المباحثات على أساس ما جاء في منشور بادوليو فعرض دودياشي شروط الحكومة وهي:

أولاً: عودة السيد إدريس وأحمد الشريف والسيد صفي الدين وسائر أعضاء الأسرة السنوسية إلى البلاد على أن يكونوا تحت إشراف الحكومة وأن يتم رجوعهم بترخيص من الحكومة بوصفهم مهاجرين يبغون العودة إلى أوطانهم وتعهدت الحكومة بمعاملتهم المعاملة اللائقة بهم على غرار ما تفعله مع السيد الرضا.

ثانيًا: احترام الزوايا وأوقافها ودفع المرتبات لشيوخها.

ثالثًا: إرجاع أملاك الأسرة السنوسية.

رابعًا: إعفاء الزوايا وأملاك السنوسية من الضرائب.

خامسًا: تسليم المجاهدين نصف ما معهم من أسلحة لقاء ألف ليرة إيطالية تدفع ثمنًا لكل بندقية يسلمونها، وعلى أن ينضم بقية المجاهدين المسلحين إلى المنظمات التي تنشئها الحكومة تحت إشرافها وإدارتها وذلك لمدة معينة تحددها الحكومة فيما بعد في نظير أن تعد أماكن لإقامتهم يسهل على الحكومة إمدادهم فيها بالمؤن فضلاً عن إحكام الرقابة عليهم.

سادسًا: إبعاد كل الإخوان السنوسيين من الأدوار وتتعهد الحكومة بإعطائهم المرتبات التي تناسب مراكزهم.

فاعترض المختار على تسليم الأسلحة وحل الأدوار، وأصر على بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا على أن يكون للحكومة نوع من الإشراف العام فحسب، وأيد رأي المختار عبد الحميد العبار، ورفض دودياشي عروض المختار من نائب الوالي في برقة حتى يفصل فيه سيشلياني بنفسه[1].

وبعد أربعة أيام فقط، طلب دودياشي مقابلة المختار في قندولة (٣٠ من مايو) فجاء المختار إلى نجع علي العبيدي شيخ العبيدات بالقرب من القبقب، وحضر معه السيد حسن الرضا والفضيل بوعمر وعبد الحميد العبار وحامد القماص وآخرون، ومعهم حرس يتألف من مئة وخمسين

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٩٢، ٢٩٦).

فارسًا، وجاء من طرف الحكومة دودياشى وباريلا كما حضر هذا الاجتماع على العبيدى وخالد الحمرى ورويفع فركاش، وأظهر فيها المختار استعداده للتفاهم طالما أنه يؤدى إلى المحافظة على كرامة السنوسية، وفضلاً عن ذلك فقد أصر المختار على عدم حدوث أى اتفاق بينه وبين الحكومة الإيطالية إلا إذا حضر مندوب عن الحكومة المصرية، وآخر عن الحكومة السنوسية كدليل على رغبة الطرفين الصادقة فى الاتفاق بصورة قاطعة، ولكن دودياشى اعترض على هذا الطلب، وقال إن الطليان معروفون بوفائهم للعهود وحفظهم للمواثيق، فرد عليه عمر المختار وذكر ما فعله الجنرال متأتى بقبيلة العبيدات، وهى من القبائل التى سالمت الطليان، عندما اغتصب هؤلاء كل ما تملكه هذه القبيلة حتى أنهم نزعوا حلى النساء من آذانهن، وذكر ما فعله لويللو مع أسرة إبراهيم من قبيلة العواقير، وقد سالم هؤلاء الطليان كذلك، فأخذ لويللو منهم أربعين رجلاً قتلهم رميًا بالرصاص، ثم جعل السيارات تمر على جثتهم، فما زالت السيارات تدهسهم ذهابًا وإيابًا حتى اختلطوا بالتراب.

وتدخل بعض الحاضرين لتهدئة الموقف وتمسك المختار بحقوق الحركة السنوسية وزعامتها وأصر على أن يكون للقطر البرقاوى الطرابلسى نفس الامتيازات التى تتمتع بها جارتاه مصر وتونس، وكانت عمر المختار وحده هو الذى يتحدث، وأما سائر المجاهدين فقد صمتوا، ثم قرر الذهاب إلى معسكره، وقال: إذا أراد المتصرف دودياشى الحديث، فإن موعد ذلك جلسة أخرى، وبعد أيام اتصل على العبيدى بالسيد عمر، وقبل عمر المختار استئناف المفاوضة، فعقد اجتماع آخر فى يوم (٧ يونية) حضره دودياشى وباريلا ثم سيشليانى الذى جاء الاجتماع موفدًا من قبل المارشال بادوليو بغية الوصول إلى اتفاق حاسم مع العرب، وجدد الطليان عروضهم القديمة وتمسك المختار بمطالبه، وأصر على حضور مندوبين من قبل الحكومتين المصرية والتونسية، ووعد سيشليانى بأن يحمل مطالب المختار إلى بادوليو.

وفى (١٣ يونية) اجتمع نائب الوالى سيشليانى بالسيد عمر فى قلعة شليوتى، وأظهر المختار رغبته الصادقة فى الاتفاق إذا أقرت الحكومة الإيطالية مطالبه، وهى نفس المطالب السابقة، وتأجل الاجتماع إلى يوم آخر حتى يتم الاتفاق النهائى بحضور والى طرابلس وبرقة نفسه، وفى (١٩ يونية) حضر الاجتماع سيدى رحومه المشهور بحضور بادويليو وسيشليانى، وعدد من الطليان والأعيان كالشارف الغريانى وعلى باشا العبيدى، وظل عمر المختار متمسكًا بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية، وعرض شروطه النهائية بحضور والى ليبيا، فقرأ الفضيل بو عمر هذه الشروط ووافق الطليان عليها، ثم تسلمها بادوليو ووعد بأن يعمل على

حضور مندوبى الحكومتين المصرية والتونسية فى اجتماع يحدد فيما بعد قريبًا، واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما مراسلة مرجعه[١].

وقال بادوليو إنه على استعداد تام لقبول عودة أمير البلاد السيد محمد إدريس إلى برقة ما دام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك.

وكانت الشروط التى عرضها المختار تكفل المحافظة على هوية الشعب وعقيدته ودينه ولغته، وتحفظ أوقاف الزوايا وتعطى عمر المختار الحق فى أخذ الزكاة الشرعية من القبائل، ومن أهم هذه الشروط:

١- أن لا تتدخل الحكومة فى أمور ديننا، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية معترفًا بها فى دواوين الحكومة الإيطالية.

٢- أن تفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، وسائر العلوم.

٣- وأن يلغى القانون الذى وضعته إيطاليا، والذى ينص على عدم المساواة فى الحقوق بين الوطنى والإيطالى، إلا إذا تجنس الأول بالجنسية الإيطالية[٢].

كما كانت شروط المجاهدين تنص على إرجاع جميع الممتلكات التى اغتصبتها الحكومة من الأهالى وإعطائهم مطلق الحرية فى حمل السلاح وجلبه من الخارج إذا امتنعت الحكومة عن بيع السلاح لهم، كما نصت هذه الشروط على أن يكون للأمة رئيس منها تختاره بنفسها ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على مصالحها، كما يكون للقاضى الإسلامى وحده الفصل بين المسلمين، وطالب عمر المختار بإعلان العفو الشامل عن جميع من عدتهم إيطاليا مجرمين سياسيين سواء كانوا داخل ليبيا أم خارجها، وإطلاق سراح المسجونين، وسحب كل المراكز التى استحدثها الطليان فى أثناء الحرب بما فى ذلك مراكزهم فى الجغبوب وجالو[٣]، كما اشترط بأن لزعماء المسلمين الحق فى تأديب من يخرج عن الدين أو يهزأ بتعاليمه أو يتهاون فى القيام بواجباته[٤].

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٩٨).
(٢) انظر: شروط عمر المختار فى قضية ليبيا، (ص١١١، ١١٤).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٩٨).
(٤) انظر: شروط عمر المختار، نشأته وجهاده (ص٦٢).

إن حرص عمر المختار على رفض الخضوع لأى إرادة أو سلطة غير سلطة الله واضح فى حياته، ويظهر ذلك جليًا فى شروطه، فقد كان دائمًا مصرًا على شرط تطبيق الشريعة الإسلامية بين المسلمين ورفض كل ما عداه من قوانين وضعية فى مفاوضاته(١).

أظهر بادوليو قبول الشروط، ولكنه نكث بوعوده، وأخذ يستعد للقضاء على المجاهدين، وشرع الطليان يبذرون بذور الشقاق فى صفوف المجاهدين على أمل أن يضعفوا من قوتهم، وفى اجتماع سيدى رويفع ادعى سيشليانى أنه لا يمكن إبرام الاتفاق النهائى إلا فى بنغازى(٢).

أراد المجاهدون أن يقطعوا حجة الطليان، فاتفقوا على أن يحضر اجتماع بنغازى السيد الحسن رضا السنوسى، وكان عمر المختار مقتنعًا بعدم جدوى الاجتماع، ولكنه اضطر مكرهًا، وعاد الحسن يحمل شروطًا إيطالية مجحفة فرفضها عمر المختار والمجاهدون، وكتب المختار إلى نائب الوالى يخبره برفض الشروط الإيطالية السابقة جملة وتفصيلاً، ويلفت فى هذه الرسالة نظر الحكومة الإيطالية إلى الشروط السابقة التى تسلمها المارشال بادوليو من السيد عمر نفسه، وقطع على نفسه عهدًا بالإجابة عنها بعد دراستها إذ لا يوجد سبيل لحل المشكلة بدونها، وطلب عمر فى نفس الرسالة تحديد موعد لمقابلة الجنرال سيشليانى نائب الوالى، وفى حالة الرفض أو عدم الإجابة يكون السيد عمر المختار فى حل مما قيدته به آداب المجاملة فى انتظار نتيجة المفاوضات، وسوف تعود الأمور لما كانت عليه، وكان جواب إيطاليا هو أنها على استعداد ولا داعى للإنذار بإعادة الحرب(٣).

لما ذهب الحسن بن الرضا إلى بنغازى تأثر ببعض أقوال الليبيين التابعين للحكومة الإيطالية، وقبل أن يوقع على شروط الصلح التى خالفت ما طلبه المجاهدون، فلما رفض عمر المختار تلك الشروط عز على الحسن أن ينقض المختار كلمته، وانفصل بجماعته من البراعصة والدرسة، وكانوا يبلغون حوالى الثلاثمائة، واتخذ مكانه فى غوط الجبل، وهو مكان قريب من مراكز الطليان فى مراوة(٤).

كان عمر المختار بجانب إيمانه الراسخ واسع الأفق عالمًا بواقعه مدركًا لما يجرى حوله متابعًا له، وقد كان ذلك أكبر عون له بعد الله على صحة مواقفه وقوتها التى فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه، وما أعظم أن يجتمع الإيمان والفقه بالواقع، وما أقبح أن يتفرقا، ولئن كان هذا واضحًا جليًا فى كل المواقف التى خاضها عمر المختار -رحمه الله- وآرائه التى قالها إلا أنه يتجلى كأوضح ما يكون فى إدراكه لعدم جدوى المفاوضات السياسية(٥).

---

(١) انظر: شروط عمر المختار، نشأته وجهاده (ص٦٢).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٢٩٨).
(٣) انظر: عمر المختار للأشهب (ص١١١، ١١٢).
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٠٠).
(٥) مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثانى (١٩٨٨م) (ص٨٧).

أولاً: النداء الأخير:

خاطب السيد عمر المختار المجاهدين وأبناء شعبة قائلاً: فليعلم إذًا كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما هو بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا؛ ليتم لهم الغلبة علينا، واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة، ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك، وليشهد العالم أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية، وأن مقاصد إيطاليا وأغراضها ترمى إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسى وتقدمه . . . فهيهات أن يصل الطليان إلى غرضهم ما دامت لنا قلوب تعرف أن فى سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال. ثم ختم المختار هذا النداء بقوله: «ولهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هى عليه حتى يتوب أولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع[1]، وقد نشرت بعض الصحف المصرية هذا النداء فى (٢ يناير ١٩٢٩م).

من كان عبدًا لله يستحيل أن يرضى بأن يكون عبدًا لحكومة ظالمة كافرة أو لدنيا أو مال أو لهوى، فأكثر الناس أحرار وتحقيقًا للحرية على مفهومها الصحيح، ذلك العبد الذى رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

ثانيا: غدر وخيانة:

لقد نقضت الحكومة عهودها وغدرت بالمجاهدين، وكان السيد حسن الرضا أول من ذاق مرارة غدرهم، فقد غادر المعسكر فى غوط الجبل جماعة من عائلة عريف، وانتهز الطليان هذه الفرصة فطلبوا من الحسن أن يتقدم بالدور إلى ناحية مراوة وأجاب الحسن رغبتهم، وعندئذ سيرت الحكومة قوة كبيرة على الدور لجمع الأسلحة من أتباعه بدعوى أن رجاله قد (غزوا) بعض الأهلين فى مراوة، وأبدى الحسن ورجاله معارضة شديدة، ولكن معارضتهم هذه سرعان ما أكدت للطليان -على حد قول هؤلاء- أن الدور كان مركزًا لدعاية سنوسية خطيرة، وأن حل الدور قد بات لذلك أمرًا لا مناص منه ولا محيد عنه، وكان مما جعل الطليان ينقلبون على الحسن أن امتنع فى المدة الأخيرة عن إجابة رغبتهم عندما طلبوا منه الانتقال إلى بنغازى، وعلى ذلك فقد اشتبكت القوات الإيطالية مع الدور فى قتال عنيف ذهب ضحيته كثير من المجاهدين ووقع الباقون فى أسر هذه القوات، وفى (١٠ يناير ١٩٣٠م) قبض الطليان على الحسن نفسه وساقوه أسيرًا إلى بنغازى ثم ما لبثوا حتى نفوه إلى جزيرة أوستيكا ثم إلى فلورنسا بعد ذلك، وقد بقى الحسن منفيًا

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٠٣).

بهذه المدينة الأخيرة حتى وفاته فى عام (١٩٣٦م)، وبعد ذلك اندلعت المعارك بين المجاهدين والطليان فى الجبل الأخضر، وكانت الطائرات الإيطالية تلقى قذائفها على معسكرات المجاهدين ونشطت عمليات الطليان العسكرية بعد أن غدروا بالحسن وهاجموا دور المجاهدين فى وادى مهجة (٢٨ يناير ١٩٣٠م) وألقت الطائرات قذائفها على العرب، وانتشرت المعارك فى منطقة الجبل حتى أقفلت جميع الطرق[1].

ثالثا: تعيين الجنرال غراسيانى حاكما لبرقة ونائبا للمرشال بادوليو الحاكم العام:

كان الجنرال غراسيانى عند قومه معظمًا ومقدمًا، وقد قام بأعمال عسكرية فى فزان شنيعة للغاية واستطاع أن يقضى على حركة الجهاد فى فزان بدخوله غات فى (٢٥ فبراير ١٩٣٠م)، وكان نصرانيًا حقودًا على الإسلام والمسلمين لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة.

بعد بقائه فى ليبيا لمدة تسع سنوات متتالية وبعد احتلاله الغاشم لفزان، دعى إلى إيطاليا لتشريفه وتكليفه.

ذكر فى مذكراته وداعه لطرابلس، فقال: «وداعًا طرابلس أرض آلامى وعذابى، غير أنه تبقى فى روحى، وداخل نفسى ذكريات كل حجر مرتفع فى جبالك، وفى صحرائك الواسعة، ولكن لن ينطفئ أبدًا ألمى وعذابى من أجل إفريقيا، وأنت يا طرابلس، وفى روما كانت تنتظرنى الاحتفالات التى يطمع كل جندى مخلص أمين يحظى برضا وتصفيق الزعيم الدوتشى «موسلينى». . وقد نلت هذا وصفق الزعيم ومجلس الأمة الإيطالى لى فى جلسة بتاريخ (٢١/ ٣/ ١٩٣٠م)، هذا الاحتفاء، وهذا الرضا، كان أعظم مكافأة فى حياتى، فلقد جددت فى نفسى حب العمل، والتضحية فى سبيل الواجب الكبير الذى ينتظرنى فى ليبيا بجسم متعب فى الأعمال التى تحملتها فى الماضى، ولكن بالروح والقلب الحريص والحاضر للعمل. . . وبعد أن استلمت التعليمات، سافرت على السفينة إلى برقة. . . ويوم (٢٧/ ٣/ ١٩٣٠م) وصلت بنغازى التى غادرتها سنة ١٩١٤ خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت رتبتى ملازم أول فى الجيش الإيطالى».

إن التعليمات التى صدرت عن رغبة الدوتشى، وقسمت ونظمت من قبل صاحب السيادة دى بونو، والفريق المارشال بادوليو، بيتوا فيها تصميم الحكومة الفاشستية القضاء المبرم على الحركة الوطنية (الثورة) مهما كلف ذلك، وبكل الطرق والوسائل؛ لإنهاء القضية البرقاوية[2].

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٠٤).

(٢) انظر: برقة الهادئة، للجنرال، غراسيانى، (ص٢٨، ٨٣، ٨٤).

والتعليمات هى:

١- تصفية حقيقية لكل العلاقات بين الخاضعين وغير الخاضعين من الثوار سواء فى قاعدة العلاقات الشخصية أو الأعمال والحركات التجارية.

٢- إعطاء الخاضعين أمنًا وحماية، ولكن مراقبة كل نشاطاتهم.

٣- عزل الخاضعين عن أى تأثير سنوسى، ومنع أى كائن منعًا باتًا من قبض أى مبالغ من الأعشار والزكاة.

٤- مراقبة مستمرة ودقيقة فى الأسواق، وقفل الحدود المصرية بكل صرامة بحيث تمنع أى محاولة تموين لقوافل العدو (أى المجاهدين).

٥- تنقية الأوساط المحلية التى توجد بها عناصر تدعى الوطنية ابتداءً بالمدن الكبيرة وخاصة بنغازى.

٦- تعيين عناصر غير نظامية من الطرابلسيين؛ لكى يكونوا قوة مضادة للمجاهدين وتعنى بتطهير الإقليم من أى تمرد أو ثورة.

٧- حركة دقيقة وخفية لكل قواتنا (الطليان) المسلحة فى المنطقة لخلق جو مذبذب ضد كل (الأدوار)، والمعسكرات، والضغط عليها حتى تتكبد الخسائر، وتشعر بأن قواتنا موجودة دائمًا وفى كل مكان مستعدة للهجوم.

٨- الاتجاه السريع للاحتلال الكامل لكل أراضى مستعمرة الكفرة[(١)].

هذا هو جزار ليبيا جراسيانى الذى جاء محملاً لتنفيذ الأوامر السالفة الذكر من أسياده فى روما الكاثوليكية الفاشستية الميكيافيلية.

ومنذ عودة جراسيانى إلى بنغازى، بدأ نائب الوالى الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء معلنًا أنه سوف: «يتبع بكل إخلاص تعاليم الدولة الفاشستية، ويسير على مبادئها؛ لأنه وإن كان قائدًا من قواد الجيش وأحد الرجال العسكريين إلا أنه يدين بمبادئ فاشستية محضة، ويعلن هذه الحقيقة بكل وضوح وصراحة تامة»[(٢)].

كان الجنرال جراسيانى معروفًا بالعجرفة والطيش وبالجبروت الوهمى، وكان أول عمل قام به فى الدوائر المدنية بعد وصوله هو استبدال الموظفين الإيطاليين بآخرين ممن يتمتعون بثقته عندما

(١) انظر: برقة الهادئة، للجنرال غراسيانى، (٨٤، ٨٥).

(٢) انظر: عمر المختار، محمود شلبى، (ص١٢٦).

كان يعمل فى طرابلس، كما جاء بقائد جديد للكربنير (الظابطية) هو الكولونيل كاستريوتا، وبالجنرال نازى؛ ليكون مساعده الأول فى القيادة العسكرية، واستعان بعصابة من المدنيين قد أخذوا ينفذون أهدافه الشريرة، وأفكاره الشاذة بكل الوسائل، ومن هذه العصابة الكمندتور موريتى (السكرتير العام) الكمندتور أجيدى متصرف لواء بنغازى، ثم بدأ زيارته للمناطق الخاضعة لنفوذ إيطاليا، وكانت السلطات تجمع لاستقباله جميع الأهالى بما فى ذلك النساء والأطفال والعجزة، فيخطب فيهم متوعداً ومهدداً[1]، وكان يستفتح خطاباته الطائشة بقوله: «صموا أفواهكم، وافتحوا آذانكم» ليلقى الرعب فى نفوس المستضعفين الذين استسلموا وخضعوا لإيطاليا، وكان قد ألقى كلمة تهديدية فى جموع حشدتها السلطات فى موضع (البريقة) استهلها بقوله:

«ما أنت إلا مثل سيجارة موقودة من الجانبين تلتهمها النار من هنا ومن هناك حتى تصبح رماداً، وها هو ذا أنا أولع السيجارة من جانبى ويوقدها عمر المختار من جانبه حتى يؤتى عليكم»[2].

وقال فى خطاب ألقاه من شرفة قصره فى بنغازى: «تحت يدى وتصرفى باخرة تقف فى الميناء، وبأقل إشارة منى تنقل كل من أرى من الصواب نقله إلى إيطاليا، وهذا أخف ما نعاقب به»[3]، وفى خطاب تهديدى آخر، قال: «عندى لكم ثلاث حالات: الباخرة الموجودة فى الميناء، وأربعة أمتار فوق الأرض -مشيراً إلى أعمدة المشنقة-، ورصاص بنادق جندنا -مشيراً إلى القتل رمياً بالرصاص-»[4] لقد قام جراسيانى وحكومته بحشد المجهودات الضخمة للقضاء على عمر المختار بالصورة التى كلفت الخزانة الإيطالية فى سنة واحدة ما لا يقل عن النفقات التى تتكبدها دولة عظيمة لمجابهة دولة تماثلها فى عدة سنوات.

فقد قال السنيور فيتيتى وكيل وزارة الخارجية فى حديث له مع سماحة مفتى فلسطين الأكبر الأستاذ محمد أمين الحسنى رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين، وقد أورد سماحته هذا الحديث فى مذكراته التى أخذت تنشرها جريدة أخبار اليوم، قال وكيل وزارة الخارجية المذكور: «حقاً إن ما وقع فى ليبيا سبب لنا متاعب كثيرة، فعندما كانت السياسة الإيطالية تتأثر فى الماضى كثيراً بالسياسة البريطانية قبل عهد الفاشيست خدعتنا إنجلترا وفرنسا، فاستولت على أغنى وأغلى أقطار إفريقيا، وأغرتنا باقتحام ليبيا عام (١٩١١م)، فلم نجن فيها رغم الجهود المضنية والخسائر الفادحة فى الأنفس والأموال غير الرصاص والرمال، ولم نجن من ذلك إلا بغض العرب، ومقت المسلمين لنا[5].

(١)، (٢)، (٣) انظر: عمر المختار، للأشهب، (ص١٢٤).
(٤) انظر: عمر المختار، للأشهب، (ص١٢٥). (٥) انظر: عمر المختار، للأشهب، (ص١٢٦).

رابعًا: المحكمة الطائرة:

لم يمض على وصول غراسيانى سوى أيام قلائل حتى أنشأ ما عرف فى تاريخ الاستعمار الإيطالى الأسود باسم المحكمة الطائرة (إبريل ١٩٣٠م)، وكانت تلك المحكمة تقطع البلاد على متون الطيارات، وتحكم على الأهالى بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة وتمنحها للمرتزقة الفاشست، وكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة وتصدر أحكامها، وتنفذ فى دقائق وبحضور المحكمة نفسها؛ لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذى انعقدت فيه لتنعقد فى نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبواب السجون فى كل مدينة وقرية ببرقة، وانتزعت الأموال من المسلمين بدون مبرر، ونصبت أعواد المشانق فى كل من العقيلة، وإجدابية، وبنغازى، وسلوق، والمرج، وشحات، ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق، لأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام، وينفذ فى حينه شنقًا أو رميًا بالرصاص، وكان ممن قتل شنقًا أو رميًا بالرصاص فى مدة لا تزيد عن شهرين من استلام غراسيانى مقاليد الحكم فى برقة: المشايخ بحيح الصبحى، على بويس العربى، وابنه عبد ربه بوموصاخ، خير الله هليل، ومحمد يونس بوقادم، وعلى حميد أبو ضفيرة، واثنان من قبيلة سعيد أشقاء حمد الرقيق، وهؤلاء من منطقة إجدابية، ثم محمد الحداد وابنه بنغازى، وعبد السلام محبوب من الإخوان السنوسيين، وسليمان سعيد العرفى (المرج)، وخمسة عشر شخصًا بينهم الشيخ سعيد الرفادى (عين الغزالة، وغيرهم كثير)[1].

خامسًا: عزل المجاهدين ووضع القبائل فى معسكرات الاعتقال الجماعية:

بدأ غراسيانى يُنفذ سياسة عزل الأهالى الخاضعين عن المجاهدين، وشرع فى جمع الإخوان السنوسيين من شيوخ الزوايا وأئمة المساجد ومُعلمى القرآن بها مع ذويهم جميعًا، وكل من تربطه بأحد هؤلاء صلة، وكذلك بمشايخ وأعيان القبائل، وبكل من يربطه أى نوع من أنواع الصلات بأحد المجاهدين أو المهاجرين، جئ بهذه المجموعات يُساقون إلى مراكز التعذيب، ثم إلى السجون، ولم يشفع فى أحدهم سن الشيخوخة الطاعنة، أو الطفولة البريئة أو المرض المقعد، أو الضرر الملازم، وأُنشئت معتقلات جديدة فى بنينة والرجمة، وبرج توبليك، وخصص جراسيانى مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء، والمقرون وسلوق فى أواسط برقة الحمراء؛ لتكون مواقع الاعتقال والنفى والتَّشريد والتَّعذيب لجميع سكان منطقتى الجبل الأخضر، والبطنان بصورة جماعية، وبغير سكان هاتين المنطقتين ممن تحوم حولهم أية شبهة، أو تلفق ضدهم أقل فرية، وأمر بنقل هاتين المنطقتين المذكورتين إلى هذه المعتقلات الخاصة بهم ثمانين ألفًا، وما هى

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب، (ص ١٢٦، ١٢٧).

فى الحقيقة إلا مقابر يُدفن فيها الأحياء وأدًا، فخصَّص معتقل العقيلة والبريقة لقبائل العبيدات والمنفا، والقطعان، والشواعر والمسامير . . . ولبعض عائلات الإخوان السنوسيين بما فى ذلك سكان الجغبوب، ولبعض من سكان مدينتى بنغازى ودرنه، وأسند حكم هذين المعتقلين لممثلى الظلم والجبروت والوحشيَّة الفظيعة لكل من كسونى، باريلا (غير باريلا متصرف المرج).

وخصص معتقلى المقرون وسلوق لكل من قبائل البراعصة والدرسا والعرفا والعبيد وأباعهم وشطر كبير من عائلات الإخوان السنوسيين الذين سبق أن أبعد غراسيانى رجالاتهم إلى إيطاليا أو فرقهم بين السجون المختلفة، جئ بهذه القبائل التى بلغ تعدادها الثمانين ألف نسمة يُساقون زمرًا إلى المعتقلات المذكورة، فمنهم من جاء عن طريق البحر حيث حُشروا بالمراكب حشرًا، ومنهم من جاءها عن طريق البر بعد أن أتت إيطاليا على جميع المنقولات حرقًا بالنَّار، كما أحرقت الزراعة ومحصولاتها، وأهلكت الحيوانات فيما عد ما استعملته للنقل، وأُحيط القسم المساق عن طريق البر بجنود من الصوماليين والإريتريين؛ ليتعقَّبوا كل من يتخلَّف عن المساقين إلى حتفهم، ويرمى المتخلف بالرصاص، وكان الرامى غير مسئول عن عمله هذا، وأصبحت جميع مناطق الجبل والبطنان هلاكًا تلعب فيه الرياح[1].

لقد أراد غراسيانى الانتقام من القبائل التى أثبتت الأيام أنها نعم العون للمجاهدين بعد الله، فجمع النواجع المتشرة فى منطقة الجبل الأخضر فى أماكن أحاطها بالأسلاك، وحدث فى تلك المعتقلات الجماعية ما لا يصدقه بشر ولا خطر على بال إنسان يعقل، لقد اشتدَّت المحنة، واعتدى الإيطاليون على الأبدان والأموال والأعراض فى تلك المعتقلات، ولقد قام الباحث يوسف سالم البرغثى بدراسة متميِّزة سماها «المعتقلات والأضرار الناجمة عن الغزو الإيطالى»، وذكر فيها تفصيلاً محزنًا ووثائق تاريخيَّة من أفواه من عاش تلك المرحلة العصيبة التى مرَّ بها شعبنا المظلوم[2].

لقد وصف مراسل جريدة ألمانية زار معسكرات الموت التى جمع فيها غراسيانى أكثر من (٨٠) ألف نسمة فقال: «إنَّ الانتقادات التى يوجهها الآن الفرنسيون والإنجليز إلى خطَّة الفاشيست فى برقة، موجَّهة بالدرجة الأولى إلى التدابير التى اتَّخذها الجنرال غراسيانى لإجلاء (٨٠) ألف بدوى عن أراضيهم، دون أن يراعوا حالة هؤلاء البدو الروحية، أو يُلاحظوا تأثير مثل هذا القيد والحصار فيهم، ولا يجوز لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا فى النهار، بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل أن يُخيِّم الظلام، وكل واحد من رؤساء القبائل مسئول عن أتباعه فردًا فردًا.

(١، ٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، (ص ١١٣- ١٤٩).

يجب أن نقول: إن الحالة السيئة للغاية تفوق كل تصور، فإنَّ معدل الأموات من الأطفال يبلغ (٩٠٪) وأمراض العيون التى ينتهى أكثرها بالعمى كثيرة جدًا ومنتشرة، ويكاد لا ينجو أحد من الأمراض، أما غذاء هولاء المساكين، فالأحسن أن لا نتكلم عنه بالمرة، ومن الطبيعى أن نرى هؤلاء يتألمون أشد الألم، وفى الدرجة الأولى من هذه الأسلاك الشائكة، رمز الأسر، ورغم تلاصق الخيام، وشدَّة تقاربها ببعضها، فإنَّ حصرها ضمن أسلاك شائكة، يجب أن نعتبره من المتناقضات الغريبة التى لا يتصورها العقل(١).

إنَّ ما ارتكب فى العقيلة والبريقة وغيرها من المعتقلات من جرائم جعل المناضلين فى العالم يصرخون ويُنددون بالاستعمار الفاشيستى فى ليبيا، فقال عبد الرحمن عزَّام يصف حالة المعتقلين، ويُلفت الأنظار إليهم: «يبحثون عن أخبار الأندلس، وكيف أجرى الأسبانيون بالمسلمين هناك، وما لهم والأندلس والأمور جرت فى القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب، فليذهبوا ويُشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيَّام فضائح لا تقل عما جرى بالأندلس»(٢).

وعبَّر غراسيانى نفسه عن المأساة التى كانت أكبر من قلبه القاسى، فقال: «لقد نتج عن هذا كله أنَّ أكثر الناس هاجرت ونزحت إلى مصر وتونس والسودان تاركة وراءها أهلها وذويها... فإنى حاسبت نفسى وضميرى... الأمر الذى جعلنى لم أنم هادئًا أكثر الليالى»(٣) ويقول -مبررًا جرائمه البشعة-: «لا نستطيع إنشاء حاضر جديد إذا لم نقض على الماضى القديم»(٤).

سادسا: عمر المختار يغيّر استراتيجية الحرب:

كانت معسكرات المجاهدين قريبة من نواجع الأهالى حتَّى يسهل على المختار وصحبه أخذ العشور والحصول على الذخائر والأسلحة والمؤن، ولكن بعد حشر القبائل فى المعتقلات الجماعية تغيَّرت خطَّة عمر المختار، وطوَّر أساليبه القتالية بما يتماشى مع المرحلة، واعتمد على عنصر المباغتة، وركن إلى مفاجأة القوات الإيطالية بعد كشفها والاستطلاع عليها فى أماكن متفرقة(٥).

يقول غراسيانى: «بالرغم من إبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا يستمر عمر المختار فى المقاومة بشدَّة ويُلاحق قواتنا فى كل مكان»(٦).

وقال عنه أيضًا: «عمر المختار قبل كل شىء لم يسلم أبدًا؛ لأن طريقته فى القتال ليست كالقادة الآخرين، فهو بطل فى إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يُمكن تحديد موقعه لتسديد

(١) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، (ص ١١٣- ١٤٩).
(٢) انظر: عمر المختار، شلبى، (ص ١١٨). (٣) انظر: السنوسية دين ودولة، (ص ٣٤٦).
(٤، ٥) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، (ص ١١٣- ١٤٩).
(٦) انظر: عمر المختار، لمحمود شلبى، (ص ١٢٧، ١٢٨).

الضربات له ولجنوده، أما غيره من الرؤساء. . . . فإنهم أسرع من البرق عند الخطر، فيهربون إلى القطر المصرى تاركين جنودهم على كفة القدر، مُعرضين لخطر الفناء، عمر المختار عكس هذا، فهو يُكافح إلى أبعد حد لدرجة العجز، ثم يُغيِّر خطته ويسعى دائمًا للحصول على أى تقدم مهما كان ضئيلاً بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًا ومعنويًا، حتَّى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً وهنا يسلم أمره لله كمسلم مُخلص لدينه»(١).

كان عمر المختار قطبًا تدور عليه رحى الأعمال، والتف المجاهدون حوله التفاف السوار بالمعصم، واستمرَّ العمل بقيادته ومساعدة معاونيه كيوسف بورحيل، والفضيل بو عمر، وعصمان الشامى، وعوض العبيدى، وعيسى الوكواك العرفى، وعبد الله بو سلوم، وعبد الحميد العبار، وكانت مواقف عمر المختار تدل على شخصيته القيادية البارعة فى أحلك الظروف وأثناء المحن، ففى أحد الأيام وعقب انتقام الإيطاليين من أحد المنتجات التى كانت تُقدم مساعدات للمجاهدين تقدَّم بعض زعماء القبائل باحتجاج إلى عمر المختار وطلبوا منه؛ إمَّا أن يسلم إلى الإيطاليين، أو أن يرحل عن مواطنهم، أو أنهم سوف يُحاربونه لكى يتجنَّبوا انتقام الإيطاليين، وعلى إثر تسلم هذا الإنذار دعا عمر المختار إلى عقد اجتماع فى منطقة قصر المجاهير، وقد ساد هذا اللقاء حالة من التوتر وشدة فى النقاش فى محاولة لتجنب حرب أهلية بين المجاهدين والليبيين الواقعين فى المناطق الخاضعة للاحتلال، فرأى بعض المجاهدين تجنبًا لهذا الوضع الحرج أن يُهاجروا إلى مصر؛ لكى لا يتعرَّض الأهالى إلى الانتقام، وبعد حوار طويل، أظهر المختار مصحفه وأقسم عليه بأنَّه لن يتوقف عن مُجاهدة الإيطاليين، وأنه لن يترك الجبل الأخضر حتَّى يتحقق النصر أو الشهادة، وفى نفس الوقت أعلن للمجاهدين أنه من يُريد الهجرة إلى مصر فله مطلق الحرية فى السفر، أو التَّسليم للإيطاليين وعندما رأى المجاهدون موقف قائدهم عدلوا عن رأيهم وأطاعوه، وانفضَّ الاجتماع على وحدة صف المجاهدين(٢).

استمر غراسيانى فى تدابيره العسكرية، فلم يأت يوم (١٤ يونيو) حتَّى كان الطليان قد استولوا على منطقة الفايدية، بأجمعها واحتلوها ونزعوا من الأهالى الخاضعين لهم (٣١٧٥) بندقيَّة (٦٠٠٠٠) خرطوش.

نقل عمر المختار دائرة عمليَّاته إلى الناحية الشرقيَّة فى الدفنا؛ نظرًا لقربها من الحدود المصرية،

---

(١) انظر: برقة الهادئة (ص ٢٢٧).
(٢) انظر: عمر المختار، نشأته وجهاده، (ص ٧١).

وذلك حتَّى يتمكن من إرسال المواشي التي يأتيه بها الأهالي إلى الأسواق المصرية في نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق، مما جعل غراسياني يُقرر إقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية.

قال: «. . . إن اطمأن على خطوط تموينه البعيدة أصدر أمره إلى قواته الموزَّعة في كل مكان ألا تزعج بعد الآن الليبيين الخاضعين لسلطاتنا؛ حتَّى لا يكونوا سلاحًا آخر ضده، وألا يغضبوا من حركته، وهكذا يصبح أمام ضميره بأنه مسلم حقيقي، ونضيف أنَّ مد الأسلاك الشائكة المكهربة على حدود مصر كادت أن تنتهي وستُضيق الخناق عليه تدريجيًا حتَّى يقع في الفخ الذي سننصبه له، إنَّ مصر هي المأوى الآمن لعدد كبير من الآلاف المؤلفة من البرقاويين الذين ينتمون إلى القبائل العمامة والتي لها إمكاناتها البشريَّة والماديَّة، وكذلك لها التأثير الكبير على النفوس التي يسهل تجنيدها وتوجيهها نحو القتال مقتنعين بأنهم يُدافعون عن الدين الإسلامي وعن كيانهم معتبرين أننا مغتصبون ومعتدون على حقوقهم. . . هؤلاء الخارجون عن القانون -ومن بينهم أعداؤنا- يكونون المخازن الثانية لتمويل الثورة بالأسلحة والمؤن والرجال لكل الأدوار رغم كل الاحتياطات التي اتخذتها سلطاتنا الحاكمة، زد على ذلك الأموال التي تُجمع من لجان التبرعات من الأقطار العربية لمساعدة الثوار القائمين بالحرب المقدَّسة فوق الجبل الأخضر في برقة، وحتَّى إن اتخذنا كل الاحتياطات ضد الخاضعين لسلطاتنا وإبعادهم، فالثوار لا يزالون أقوياء يُهاجموننا في كل مكان[(١)].

عزم غراسياني على مدّ الأسلاك الشائكة في الحدود الليبية المصرية المصطنعة من قبل الاستعمار ما يزيد على (٣٠٠) كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب وقد كلَّف الدولة الإيطالية عشرين مليون فرنكًا إيطاليًا.

وقد حقق لهم ذلك العمل أمورًا عدَّة ذكرها غراسياني في كتابه منها:

١- قضى على الثوار.

٢- قضى على التهريب وأصبح دخل الدولة الإيطالية في ازدياد من ناحية الضرائب الجمركية.

٣- قضى على حركة الإمدادات التي كانت تأتي للثوار المجاهدين من مصر عن طريق المهاجرين[(٢)].

---

(١) انظر: برقة الهادئة (ص ٢٢٩).

(٢) انظر: برقة الهادئة (ص ٢٣٢، ٢٣٣).

سابعا: استشهاد الفضيل بو عمر:

استمرت المعارك بين الإيطاليين والمجاهدين، ومن أشهر تلك المعارك (كرسة) التى وقعت فى (يوم ٢٠ ديسمبر)، وقد استشهد فى هذه المعركة الساعد الأيمن لعمر المختار الشيخ الجليل والمجاهد الفذ الفضيل بو عمر الذى شارك فى مسيرة الجهاد منذ دخول الغزو الإيطالى فى (١٩١١م)، وشهد له بالشجاعة والإخلاص فى جهاده، وقد ذكر عمر المختار تفاصيل هذه المعركة فى رسالة له جاء فيها: أن العدو هاجم المعسكر، وكان رئيسه السيد فضيل بو عمر، وقد استشهد فى هذه المعركة إلى جانب الفضيل أربعون شهيدًا، وقد وجدنا فى ميدان القتال ما يزيد عن (٥٠٠) من العدو، وبينهم ماجور وثلاثة ضباط، وشدد الطليان عمليًّاتهم العسكرية فى منطقة الجبل الأخضر بعد هذه الواقعة، واستمرت جموعهم تناوش المجاهدين مدَّة أسبوعين، ولكن دون الوصول إلى نتيجة.

وفى (أكتوبر ١٩٣٠م) تمكَّن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين فى معركة كبيرة عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد المختار، كما عثروا على جواده المعروف مجندلاً فى ميدان المعركة، فثبت لهم أنَّ المختار مازال على قيد الحياة، وأصدر غراسيانى منشوراً ضمنه هذا الحادث حاول فيه أن يقضى على «أسطورة المختار الذى لا يُقهر أبدًا»، وقال متوعِّدًا: «لقد أخذنا اليوم نظارات المختار وغدًا نأتى برأسه»[(١)].

ومع شدة قبضة الاستعمار الإيطالى على المدن إلا أن ذلك لم يمنع الأهالى من القيام بواجبهم المقدَّس، واستطاعت المخابرات الإيطالية أن تقبض على عدد من الليبيين الذين يزودون حركة الجهاد بالمؤن والمعلومات، وتم إعدامهم، وقد ذكر غراسيانى بعض الأشخاص فى كتابه، فقال: «وهنا أعرض بعض الأحوال المهمة لبعض الأشخاص الليبيين الذين نفذت فيهم المحكمة الخاصة حكم الإعدام فى (١٤ يونيو ١٩٣٠م) عقدت المحكمة الخاصة فى شحات لمحاكمة المواطن حمد بو عبد ربه الدرسى فى الميدان العام، باعتباره خائنًا للدولة الإيطالية؛ لأنه كان شيخًا لبيت من بيوت قبيلته الدرسة، وكان محترمًا من سلطاتنا، ولكن اتَّضح لدى قسم المخابرات أنه يتعاون مع الثوار فى إمدادهم بالمؤن والسلاح، وكانت مخيماته تعتبر شبه استراحة لجنود الثوار (المجاهدين)، وعدد هذه الخيام يزيد عن عشرين خيمة بمنطقة (قصر بن قدين) المكان الذى يتزوَّد منه الثوار بالمؤن والسلاح، وقد حكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص فى الميدان بشحات وأمام الجماهير، وبعد أسبوع من هذا الحادث حصلت حركة انتقامية من الثوار (المجاهدين)، هجموا على نفس الميدان، وفى وضح النهار قتل فيه عدد كبير من جنودنا . . . وكذلك تاجر من تجار المنطقة.

(١) انظر: حياة عمر المختار، (ص ١٣٠- ١٣٣).

وفى (شهر سبتمبر ١٩٣٠م) اكتشفت قوة الأمن بمنطقة البركة ببنغازى أنَّ المواطن محمد الحداد أحد أعيان بنغازى ومن تجارها يتعاون مع الثوار، وعن طريقه تتم حركة الإمدادات من المؤن والأسلحة، وكان يستضيف فى بيته الثوار ويمدهم بما يلزمهم وفى الوقت والحين حضرت المحكمة الخاصة، وحكمت على الأب والابن بالإعدام شنقًا أمام الجماهير التى أرادت السلطات الإيطالية إحضارهم خصيصًا لمشاهدة تنفيذ الحكم، وهذا مثال آخر سليمان سيد شيخ قبيلة الطرش، وكان عضواً فى مجلس النواب، حاملاً لوسام النجمة الإيطالية للمستعمرات برتبة ضابط، وكان يرتدى برنوس الشرف الخاص بالنواب الليبيين كنا نعتمد على آرائه، ولم نفكر فى يوم من الأيام أن يكون ضدنا، حكمت عليه المحكمة بالإعدام؛ لأنه كان يستغل نفوذه ويتعاون مع الثوار . . . ومن هذا النوع الكثير من المشاهد التى لا يُمكن حصرها، وقد نفذً مع مجىء المحكمة الطَّائرة (٢٥٠) حكمًا بالإعدام، ونفذ فيهم الحكم فى مدَّة وجيزة، ورغم ذلك لازال الشعب الليبى يتعاون مع الثوار إلى درجة الضياع التام(١).

إنَّ هذه الحقائق والمواقف التَّاريخيَّة تُشير إلى فاعلية أهل المدن فى جمع المعلومات والأموال والمؤن والأسلحة، وتهريبها إلى قادة حركة الجهاد المبارك، وحرصهم على استمرارية جذوة الجهاد.

لقد وجد الإيطاليون أنفسهم فى حرب مع شعب دفع بكافة طاقاته نحو ساحات الوغى والفداء، وشارك معظم أبنائه بكافة ما يملكون فى حركة الجهاد المقدَّس.

ثامنًا: احتلال الكفرة:

بعد أن استطاعت القوات الإيطالية أن تعتقل قبائل برقة فى معسكرات واسعة، وأخذ غراسيانى فى مد الأسلاك الشائكة على طول الطريق على البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب؛ ليفصل برقة عن مصر، وكان قد شرع فى جمع قواته الضَّخمة من مختلف وحدات الجيش الإيطالى، والجيوش الملونة من المرتزقة، ومن المعدّات الحربية لاحتلال الكفرة.

كانت نقاط الاحتشاد هى العقيلة، ومرادة، وإجدابية، وجالو، وحشدات إيطاليا عددًا كبيرًا من الإبل استعدادًا لنقل المؤن إلى جانب سيارات النقل الكثيرة، هذا ما كان عن استعداد القيادة الإيطالية ببرقة، أما عن القيادة الإيطالية بطرابلس فقد جهَّزت هى الأخرى حملة مماثلة بقيادة الكولونيل قالينا، وكانت نقطة ارتكاز هذه الحملة واحة زلة، وكانت القيادة العامة للحملة الموحَّدة

(١) انظر: برقة الهادئة (ص ١٥٣، ١٥٤).

تتمثَّل فى شخص الجنرال رونكيتى تحت إشراف الجنرال غراسيانى مباشرة، وتحرَّكت الجيوش الإيطالية من طرابلس وبرقة فى وقت واحد وبنظام موحَّد تسلك طريق الصحراء إلى الكفرة، وتجمَّعت (يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٩هـ) بموقع الهوارى، وهناك اشتبكت قواتهم مع المجاهدين فى أولى المعارك، وكانت معركة غير متكافئة، وقد اشترك قسم من الطائرات الإيطالية مكوَّن من عشرين طائرة، واستمرت المعركة ثلاث ساعات، قتل أثناءها العدد الكثير من الإيطاليين ومن المدافعين الذين ما كانوا يُفكرون فى صدِّ العدوان طويلاً، ولكنهم يُحاولون إيقافه بعض الوقت ريثما يتمكَّن من يستطيع الفرار، ليأخذ طريقه إلى السودان أو مصر[١]، لقد قاتل المجاهدون جميعًا بشجاعة وبسالة نادرة، فلم يكفوا عن القتال، واستُشهد العشرات ووقع فى أسر الطليان ثلاثة عشر فقط، وغنم الطليان مئة بندقية، واحتلوا الكفرة، وهتكوا الأعراض، وفعلوا ما لم يفعله إنسان.

لقد كتب جراسيانى عن اهتمامه باحتلال الكفرة، وعن الاستعدادات التى اتخذتها الحكومة الإيطالية أكثر من خمسة وأربعين صفحة، لقد اعترف غراسيانى بقوَّة وشجاعة المجاهدين، الذين تعرضوا لقتال الإيطاليين عبر الصحراء الكبرى.

قال جراسيانى: «لقد حملتنا خسائر فادحة، وكنا حريصين على تحقيق النصر بأى ثمن لكون قوات المجاهدين غير متكافئة، رغم هذا كله كانوا أشداء أقوياء صامدين، صابرين لا يتقهقرون أبدًا، حتَّى ولو أدَّى ذلك لفنائهم جميعًا مؤمنين بأنَّهم أصحاب حق وشجاعة[٢].

لقد اعترف العدو بهم، وكان زادهم التمر والشعير، ومع ذلك دوخوا إيطاليا، وكان من بين القادة الذين أثخنوا فى الأعداء عبد الحميد بومطارى الذى تزعَّم قيادة الزوية والمغاربة فى تلك المرحلة فى جهادها ضد إيطاليا، وصالح الأطيوش وسيف النصر الذين قال فيهم غراسيانى: «لقد وصل سيف النصر، وصالح الأطيوش إلى المنطقة، وبصحبتهم الذين هاجروا من القطر الطرابلسى، فأصبح الموضوع دقيقًا وبالأخص صالح الأطيوش فهو مكابر وشديد المراس»[٣].

إنَّ المجاهد صالح الأطيوش من المجاهدين العظام الذين ساهموا فى الذود عن حياض المسلمين، لقد شهد له عدوه غراسيانى بشدَّة مراسه، فله منَّا الدعاء بالمغفرة والرحمة والرضوان وله ولجميع إخوانه الذين سطروا لنا صفحات من البطولة والرجولة للذود عن ديننا العظيم.

إنَّ عائلة آل الأطيوش تعرَّضت لبلاء عظيم، ولقد أعطى السنوسى الأطيوش صورة حيَّة عن ذلك البلاء الذى كابده الفارون من جحيم الكفرة فى ذلك الوقت.

---

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب (ص ١٢٩، ١٣٠).
(٢) انظر: برقة الهادئة (ص ٢١١). (٣) انظر: برقة الهادئة (ص ١٩٨).

إنَّ أسرة عائلة الأطيوش أسرة مشيخة أصيلة فى قبيلة المغاربة، تُعد نموذجًا لما قاسته مختلف العائلات الليبية البارزة عبر الكفاح الطويل ضد الإيطاليين، فمن المعلوم أنَّ الكيلانى الأطيوش، الذى عيَّنه الوالى التركى فى منصب قائمقام الكفرة (سنة ١٩١٠م) توفى فى العام التالى مباشرة وهو فى طريقه إلى جالو للالتحاق بقوات المقاومة التركية ضد الغزو الإيطالى، وأخوه سعيد قضى نحبه خلف أسوار معتقل إيطالى فى العقيلة، ومن بنى أخيه واحد شنقه الطليان فى سرت، وعبد الله استُشهد فى معركة النوفلية، كما قُتل فى البريقة اثنان آخران هما على وأحمد عبد القادر الذى قتل فى سرت (سنة ١٩١٨م) والآخر استُشهد فى معركة سرت بالقرب من إجدابية، وكذلك فقدت هذه العائلة ما لا يقل عن أربعة آخرين ماتوا فى أثناء محاولة النجاة بأرواحهم من الكفرة.

فعندما هاجم الإيطاليون الكفرة رحل صالح باشا الأطيوش بأهل بيته، وكان من بينهم السنوسى ابن أخيه، وبضعة أشخاص آخرين، فى قافلة من الإبل اتَّجهوا بها أولاً صوب العوينات على حدود السودان، فبلغوها بعد ستة أيَّام، وهناك ملئوا قربهم بالماء، وانقسموا إلى فريقين، توجَّه أحدهما إلى الشمال نحو وادى النيل، بينما عمد الفريق الآخر إلى مرقة، وهى واحة صغيرة غير مأهولة تقع فى ناحية الجنوب الشرقى بالسودان، ويبلغ طول هاتين المسافتين (٥٠٠) ميل، و(٣٠٠) ميل على التوالى، أى مسيرة (٢٥) يومًا، و(١٥) يومًا بمعدَّل سير الإبل العادى، ولم يكن ثمة أى أثر يُمكن للمسافر اقتفاؤه، ولا مورد ماء فى الطريق، ولا أحد يستطيع أن يتصورَّ مدى خطورة رحلة كهذه ما لم يكن قد جرَّب اجتياز تلك الصحارى على ظهر جمل، وقد حكى السنوسى الأطيوش قصَّة تلك الرحلة، فقال: «بعد مسيرة عدة أيَّام أخفقنا فى الوصول إلى مرقة وعرفنا أننا تائهون فى الصحراء، فرجعنا أدراجنا نقصد العوينات، لما كنَّا استنفدنا مؤنتنا من المياه، أصبحنا مضطرين إلى نحر ناقة أو جمل كل يوم لشرب الماء المخزون فى بطون الإبل، وكان كل منَّا يحمل فى مخلاته بعض لحم الذَّبيحة ويأكل أثناء السير، ومع أنَّ المسافة التى قطعناها منذ خروجنا من العوينات كانت قد استغرقت منَّا ثمانية أيَّام كاملة، فقد بلغت بنا شدَّة المحنة أننا فى طريق العودة قطعنا نفس المسافة خلال أربعة أيَّام فقط، راكبين أو ماشين ليلاً ونهارًا، وفى العوينات ملأنا قرب الماء من جديد، وبعد استراحة قصيرة واصلنا السفر عامدين نهر النيل رأسًا، باقتفاء آثار الفريق الآخر من جماعتنا، عثرنا فى الطريق على جثث البعض، ومن بينهم أمى وأختى، واثنين من إخوتى قصفتهم طائرات الطليان، أو ماتوا عطشًا.

وكنَّا نواصل السير ليل نهار حتَّى وصلنا آبار كريم بعد تسعة أيَّام ونحن أقرب إلى الموت منَّا إلى الحياة، وهناك أسعفنا الحظ بلقاء بعثة استكشافية كان قد نظمها الأمير عمر طوسون بقيادة ضابط بريطاني، فحملتنا معها إلى واحة الخارجة ثم إلى الداخلة، ومنها انتقلنا إلى المنيا حيث استقرّ بنا المقام مع ناس من قبيلة الجوازى التى تربطنا بها صلة القرابة، ومكثنا هناك حتَّى (عام ١٩٤٠م)، وعندها التحقنا بالقوات الليبية تلبية لنداء الأمير»[١].

إنَّ هذه القصَّة الحزينة تعطينا صورة واضحة عن ما كابده الليبيون الذين استطاعوا الهروب من هجمة غراسيانى الوحشية على الكفرة، وتلك الغارة الهمجية، ولقد تأثَّر العالم الإسلامى من الأخبار التى سمعوها من العوائل الليبية التى كتب الله لها النجاة، وقد قام الأمير شكيب أرسلان بدور مشكور فى توضيح تلك الأعمال، وكتب مقالات صادقة أصبحت وثائق مهمَّة للمؤرخ لتلك المحنة العظيمة التى مرَّ بها الشعب الليبى المسلم، فقد قال: «... إنهم لما احتلوا واحة الكفرة فى (١٣ يناير) من (سنة ١٩٣١م) استباحوا قراها ثلاثة أيَّام فقتلوا من صادفوه من الأهالى، وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل محمد عمر الفضيل، والسيد حميد الفضيل، والشيخ فضيل الديفار، وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل فى ذلك من قتلوا من المعركة التى جرت بين الأهالى، وجيش الحملة الطليانية، وهم (٢٠٠) شخص، ثم إن الطليان انتشروا فى القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع فى أيديهم، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء، وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى، وهو شيخ فان بلغ ثلاثًا وتسعين سنة، ومن جلَّة علماء السنوسية، فحملوه مقيَّدًا بالحبال على جمل، ونفوه من الكفرة، فمات فى الطريق، ثم اغتصبوا النساء فى أعراضهن، وقتلوا منهن كثيرًا ممن دافعن إلى الآخر عن أعراضهن، وكان نحو من (٢٠٠) امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالى، فأرسلوا قوَّة فى أثرهن حتَّى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حيث خلا بهن ضباط الجيش الإيطالى واغتصبوهن، وهكذا نزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبًا لا ترى وجههن من الصون والعفاف، وقد أشارت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة، وصرحت من باب الافتخار قائلة: «إنَّ الجيش قبض على (٢٠٠) امرأة من نساء الزعماء»، وقرأنا بأعيننا ولاحظنا أنَّ مقصود البلاغ العسكرى الإيطالى التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن إلى الضباط، إلا أننا انتظرنا جلاء الأخبار من الجهة الثانية حتَّى نعلم ماذا جرى بعد التَّثبت، فما مضى شهر حتَّى وردت الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأنَّ هؤلاء السيدات

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، (ص ٥٨، ٥٩).

المقصورات الناشئات فى أكرم بيوت الطهارة والصون قد قُبض عليهن فى الصحراء، وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى، ولا يُقيمون للشرف وزنًا.

وعلمنا أنَّ بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم، ثم هاج هائج العالم الإسلامى من جراء هذا الخبر وأشباهه، أذاعت الحكومة الإيطالية تمويهًا ظاهرًا زعمت فيه أن الجيش تأثَّر للنسوة المئتين المذكورات شفقة عليهن، ولأجل أن يرجعن إلى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأقاويل التى قصدت إيطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفضائح من هتك أعراض مخدرات المسلمين، ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة «التاج» وإراقة الخمور، ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام، هذا منظمًا إلى ما كان بلغهم من قبل من إجلاء (٨٠ ألفًا) من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وإماتتهم بالجوع والعطش، وأخذ أطفالهم قهرًا إلى إيطاليا لأجل تنصيرهم إلى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حمل الشيخ سعد شيخ قبيلة (الفوائد) وخمسة عشر شيخًا من رفاقه بالطَّائرات، وقذفهم من الجو على مشهد من أهلهم حتَّى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطَّع إربًا صفَّق الطليان طربًا، ونادوا العرب قائلين: «ليأت محمد هذا نبيكم البدوى الذى أمركم بالجهاد ويُنقذكم من أيدينا».

هذه حادثة وغيرها من الأمور فى هذا الشأن كثيرة جرحت قلوب المسلمين، فجرت مظاهرات بالشام وحلب وطرابلس الشام، وبيروت وفلسطين، وانعقدت اجتماعات فى كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا، وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بجنيف وإلى نفس موسلينى بالعبارات القاسية، وقامت قيامة الجرائد العربية، وحملت على توحش الفاشيست من كل جانب، وامتلأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن فى إيطاليا إلى أن عطَّلتها الحكومة المصريَّة إجابة لطلب الحكومة الإيطالية، ووصل الصريخ إلى الهند والجاوى، وأضج المسلمون لهذه الأخبار، وانعقد فى الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبًا شديدة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الإيطالية، وتدخَّلت الحكومة الهندية فى الأمر، وانتصرت لإيطاليا بمقتضى قاعدة التكامل الأوروبى بوجه المسلمين، وقاعدة التكافل الاستعمارى بوجه الأمم المقهورة، وأشاع قناصل إيطاليا أنَّ كل هذه الأخبار عمَّا حلَّ بمسلمى طرابلس ملفقة لا أصل لها، وبلغت بهم الوقاحة أنهم كانوا يُخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا إلى طرابلس بأنفسهم؛ ليشهدوا كذب هذه الأقاويل، وبلغ بهم البهتان أنهم أشاعوا أيضًا أنَّ إيطاليا اقترحت

على جمعية الأمم أن تُرسل إلى طرابلس لجنة من عندهم للتحقيق عمَّا يُنسب إلى رجالها من الأعمال الشنيعة التى هم أبرياء منها، وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التَّمويه وتخدير الأعصاب، وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها، وقد سكن كثير من المسلمين إلى هذه التكذيبات، وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك، وكل ما شاع من الأخبار عن أعمال الطليان لاسيما بعد مجيء دول الفاشيست هو دون الواقع.

ولو تأمَّل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست فى نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين، ومن حجر كل حريَّة، ومن منع تأليف كل حزب يُخالف حزبهم، وأمام هذا الانتقام الرهيب من المسلمين فى قتلهم وتغريبهم عن ديارهم، فلا تسأل، فقد أصبحت فى حكم المتواتر الذى لا يصح فيه المراء بالاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته، فقد نزح عن طرابلس وبرقة نحو مائتى ألف نسمة، وقيل (٣٠٠) ألف نسمة، منهم (٢٠) ألف دخلوا تونس والجزائر، و(٦٠) ألفًا دخلوا مصر، ومنهم من شردوا إلى السودان، ومنهم من تفرقوا فى الصحارى، وقد أطبقوا بأجمعهم على صحَّة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الأفعال بالعيان، وأنه ليستحيل اتفاق الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلاً عن كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الأهالى يترك وطنه، ويهيم على وجهه فى البرارى أو يلتمس الرزق عاملاً فى أرض غيره بعد أن كان سيدًا فى أرضه، ومن أغرب المتناقضات -والتناقض من عادة كل كاذب- أنه بينما ممثلو إيطاليا فى بلاد الإسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب إلى طرابلس بنفسه ليتحقق من كذب تلك الأخبار عن فظائع الطليان فيها، فإنَّ أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب إلى هناك، وبينما قنصلهم فى بيروت يشيع ذلك فى بيروت، وبينما الحكومة الإيطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندى إذ بقيت إيطاليا مدَّة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاويَّة لئلا يقف أهل مصر على الحقائق والأخبار فيزدادوا هياجًا، ولكن الحقائق لابد أن تظهر ولا يُمكن إيطاليا إخفاء كل ما تأتيه من الأعمال الوحشية فى طرابلس، وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان، وضجوا منها، بل ثمة كثير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها»(١).

لقد قام شكيب أرسلان بدور مشكور فى الدفاع عن الليبيين وإظهار وحشية الإيطاليين، ولقد كتب فى صحف ذلك الزمان مقالات حزينة، بيَّن فيها الأعمال الوحشية التى قام بها الإيطاليون

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢).

ضد الشعب الليبى المظلوم، وهذه وثيقة أخرى تاريخية لمقال كتبه الأمير شكيب فى مجلة الدولة العربية، ولقد انتشرت هذه المقالات شرقًا وغربًا، ونص هذا المقال:

تاسعًا: دور الصحافة الإسلامية:

التعذيب الإيطالى فى طرابلس

تحرير الأمير شكيب أرسلان

كانت الحركة الإسلامية تائهة عن كل ما يحدث فى طرابلس من تعذيب وهمجية من البرابرة الإيطاليين الذين ما أتوا إلى هذه الأرض إلا ليؤخروها عن التَّقدّم والمدنية، بعكس ما كانوا يقولون ويكتبون... نعم إن الناس علمت بأن الحكومة الإيطالية الفاشستية نقلت ما يزيد عن (٨٠) ألف عربى من الجبل الأخضر ووضعتهم فى الصحراء (سرت)... نزعت منهم أراضيهم بحجة التَّعمير وأن المعمرين الإيطاليين هم أحق من أى أحد آخر؛ لأنهم يُتقنون هذا العمل أكثر وأحسن من العرب.

إنَّ العالم علم بأن الجيش الإيطالى احتلَّ الكفرة وواحاتها بعد قتل السكان العزل والثوار الذين دافعوا عن وطنهم إلى النهاية، وأن الصَّحافة الإيطالية تتبجَّح وتنشر بأن جيشها أسر مئة امرأة وهنَّ زوجات الشيوخ هناك.

وفى مجلتنا «الدولة العربية» وجهنا سؤالنا إلى الإيطاليين الفاشستيين عن معنى هذا التَّبجح بأسر مئة امرأة.

مع العلم بأن التَّقاليد والعادات العالمية وبالأخص البيئة العربية التى تنفى اضطهاد المرأة أو النساء خصوصًا أثناء قيام الحرب.

ولكن ما كنَّا نعتقد أنَّ دولة تعتبر نفسها من دول البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة الأوروبية أن تصل إلى هذه الدرجة من الانحراف والخروج عن جادة التَّمدن والرقى.

لم يسبق فى تاريخ البشريَّة، بل فى تاريخ البربرية أنَّ معاملة الجيش الإيطالى الفاشيستى للنساء هى معاملة وحشية بدرجة تتقزز منها النفوس، فهى معاملة سيئة سواء فى طرابلس أو فى برقة.

إنَّ هذه الأخبار لم تكن نسيجًا من خيال أو فكرة طارئة وإنَّما هى حقائق يرويها من أسعده الحظ بالنَّجاة من المذابح التى قام بها الجيش الإيطالى الفاشيستى.

شرحوا لنا ما يلي:

١ - عندما اتَّجهت القوات الإيطالية لاحتلال الكفرة كانت معززة بالطائرات التى تلقى قنابلها على السكان العزل، من شيوخ ونساء وأطفال، وخلاف هذا سمحوا لجنودهم أن يعبثوا بالسكان لمدَّة ثلاثة أيام مطلقى الأيادى فى البيوت والأسواق والمساجد، وفى كل النواحى، تصرفات وحشية لم تخطر على بال أحد، نهبوا وقتلوا وأحرقوا كل ما مروا به، ولم يتركوا أى جريمة تخطر ببالهم إلا وارتكبوها، قتلوا العلماء والمشايخ، هتكوا حرمات البيوت، وبقروا بطون النساء، وأنَّ عدد العائلات التى قضى عليها عند احتلال الكفرة يزيد عن (٧٠) عائلة من علية القوم، وعلاوة على هذا فقد اتَّخذوا زاوية السنوسى (التاج) كحانة شربوا فيها الخمر حتَّى ثمالة الجنون، وشربوا نخب القضاء على المسلمين، واحتلال طرابلس وبرقة. . ألقوا بالمصاحف القرآنية فى الاصطبلات تحت سنابك الخيل وبالكتب العلمية أوقدوا بها النار تحت قدورهم لطهى طعامهم، وقد استشهد من الثوار فى احتلال الكفرة ما يزيد عن (٢٠٠) شهيد من بينهم المشايخ الآتى أسماؤهم:

الشيخ صالح العبادية، الحاج سليمان بومطاوى، الشيخ غيث بوقنديل، الشيخ سليمان الشريف، الشيخ محمد يونس، الشيخ أحمد بو أشناك وحفيده الشيخ عمر، الشيخ حمد الحامى، الشيخ عبد السلام بو سريويل، الشيخ محمد المسحوق وحفيده على بن حسين، الشيخ محمد العربى، الشيخ محمد بو سجادة، الشيخ محمد الفايدى الجلولى، الشيخ خليفة الدلال.

أما الرواية الثانية هى: كيف تم احتلال الكفرة من أولئك الغاشمين المتوحشين من مشاهدين حقيقيين لتلك الأحداث، قبل دخول الإيطاليين إلى الكفرة قامت طائراتهم بقصف واحات الكفرة بقنابلهم الفتَّاكة، فوق السكان العزل حيث قُتل عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال، وبعد أن دخلوا الكفرة أطلقوا أيدى جنودهم لمدَّة ثلاثة أيَّام للعبث والتَّخريب فى الكفرة، فقد أطلقوا بغالهم وخيولهم حيث دوت كل المزروعات، فاستولوا على كل المواد الغذائية، وقطعان الأغنام والبقر لتموين جنودهم المحتلين دون مقابل، وعلاوة على هذا نهبوا أثاث السكان وقسموها على إدارات الجيش الزاحف كذلك ملابس النساء وحليهن، هذا قليل من كثير زد على ذلك اعتداءاتهم على حرمات النَّاس العزل دون وازع من ضمير، وعندما اتَّجه بعض المشايخ إلى قائد الحملة راجين منه إصدار أمره إلى الجنود بالكف عن هذه الاعتداءات على الناس كان مصيرهم القتل رميًا بالرصاص باعتبارهم خونة، وبالاختصار إن الإيطاليين عندما احتلوا الكفرة قاموا بأعمال وحشيَّة لم يسبق أن حدثت فى التَّاريخ حتَّى فى القرون الوسطى عهد الهمجيَّة.

إنَّ قضيَّة الـ(٨٠٠٠٠) عربى الذين نقلتهم القوات الغاشمة من أراضيهم الخصبة فى الجبل الأخضر إلى مناطق جدبة صحراوية لا ماء فيها ولا كلأ، هى منطقة (سرت) كى تموت المواشى جوعًا، وعطشًا، أما البقيَّة فقد استولى عليها الجنود الإيطاليون، وأصبحوا فقراء تدفع لهم الحكومة الإيطالية فرنكين عن كل يوم لكل شخص مهما كان عدد عائلته، أما بالنسبة لحلى النساء وملابسهن، فقد نهبها الجنود الإيطاليون، وأصبحت العائلات فى سهوةَّ الفقر سواسية، وفى أثناء مرافقة هذا العدد الضخم من رجال ونساء وأطفال، كان الجنود يسومونهم سوء العذاب، وكل من يعجز عن المسير مصيره الموت فيقتلونه ويتركونه يتخبَّط فى دمه.

إنَّ الرجال والشبان الذين تترواح أعمارهم من (١٥) إلى (٤٠) سنة أجبروا على الانخراط فى قوات الجيش، وأما الصغار الذين تتراوح أعمارهم من (١٤) سنة، فقد أُخذوا من أهليهم وأُرسلوا إلى إيطاليا بحجة تعليمهم، ولكن فى الحقيقة من أجل تنصيرهم.

وهذا ما كان يتحدَّث به سكان روما وهو تنصير الليبيين بصورة عامة والطرابلسيين بصورة خاصة، ورغبة الإيطاليين الفاشستيين هى القضاء المبرم على العنصر الإسلامى فى ليبيا، فإذا ليبيا تصير إيطالية وبجوارها مصر، سوف تتعرض إلى أكبر خطر، وإن مصر لن تسكت عن هذا الإجراء؛ لأن الإيطاليين فى اعتقادهم المريض أنَّ مصر ليست دولة عربية، وإنَّما هى خليط من عدَّة أجناس. . الأمر الذى يجعل إيطاليا تحلم بأن تغزو مصر، وتتمكن من أرضها وشعبها، كما تمكَّنت من طرابلس، إنَّ الوعود المعسولة التى كانت تُصرح بها السلطات الإيطالية، وتمنياتها الطيبة التى كانت تعرضها على الشعب الليبى وإنها - يعنى إيطاليا- ما أتت إلا لتخلص الشعب الليبى من الاستبداد التركى، ولأجل أن تذر الرماد فى أعين الناس، أتت بإدريس وقلَّدته لقب الإمارة ووعدته بالحكم الذاتى، ولكن كانت دائمًا وعودًا فقط، وها هى إيطاليا تلغى كل شىء وتبدأ فى سفك الدماء وتطرد السكان من أراضيهم وأموالهم، وأخذت أولادهم وبناتهم إلى إيطاليا من أجل تعليمهم، وفى الواقع من أجل تنصيرهم. . .

إنى أُنبِّهُ على المسلمين أن يتذكَّروا هذا كله، وأن يتفهَّموا. . فإنَّ هناك من يتفلسف ويتشدَّق بالقول بأن فى أوروبا تسود العدالة والحرية، وأن الدول الأوروبية لا تتعرَّض للقضايا الدينية، وأن السبب فى سقوط المسلمين هو التعصب الأعمى، إنَّ هذه الألفاظ وهذه المغالطات تنذر المسلمين جميعًا بأنهم إذا لم يتَّحدوا ويذودوا عن حياضهم فسوف يتعرضون إلى القضاء ويفقدون قواتهم المسلحة وحرياتهم السياسية، سوف يحدث لهم كما حدث لطرابلس، إذا لم يُحافظوا على حريتهم واستقلالهم، إنَّ موقف إيطاليا من حضارة القرن العشرين موقف غير مشرف، فقد رجعت إلى معاملات القرون الوسطى.

إنَّ الإيطاليين المتوحشين لم يتحرَّجوا لا كبيراً ولا صغيراً، فقد اعتدوا على الحريات واغتصبوا النساء وهتكوا الأعراض، كل هذه الأعمال من أجل اضطهاد المسلمين وروحهم الانتقامية.

لقد زجَّ الإيطاليون في السجون بالكثير من الأهالي، ومشايخ القبائل، وقد عارضهم وندد بأعمالهم الشيخ سعد الفايدي شيخ قبيلة الفوايد، فما كان منهم إلا أن قتلوه ومعه (١٥) من أبناء قبيلته، البعض منهم ألقي من الطائرات من علو (٤٠٠) متر، وكلَّما كانت الطائرة تلقي بواحد منهم هناك كان الهتاف يعلو وصياح الجنود يزداد.

إنَّ الصحفي الدانماركي الشهير «كنود هولمبوى» الذي اعتنق الإسلام، وقام بجولة سياحية أثناء هذه الفترة في ليبيا، قد شاهد بنفسه وعينيه كل التَّعذيب والاضطهاد الذي يقوم به الجنود الإيطاليون الفاشيست يقول:

شاهدت (٢٠) عربيًا مسلسلين، . . شنقهم الجنود بأمر من ضابطهم دون محاكمة، ولم تكن هناك محكمة . . . هذا المنظر البشع أثر في نفسي، ولم يكنْ في اعتقاده أنَّ دولة مثل إيطاليا الفاشستية، وهي إحدى دول البحر الأبيض المتوسط تقوم بمثل هذه القسوة وهذه الوحشيَّة. إنَّها جرائم سيسجلها التاريخ في صفحة سوداء، وستبقى وصمة عار في جبين الدولة الإيطالية على مدى الدهر والأزمان.

إنَّ إيطاليا أرادت أن تحذو حذو فرنسا في تنصير المسلمين إبان حكمها في المغرب، فقد عملت ووزعت المبشرين في طول البلاد وعرضها وبَنت العديد من المعابد والكنائس في كل المدن والقرى؛ لتقضي على الدين الإسلامي، وهكذا عملت إيطاليا، فقد بنت المعابد في طرابلس وبنغازي، وكل القرى وأمرت المبشرين بأن يسعوا بكل الوسائل لتنصير العرب مهما كان الثمن، وقد فاقت على فرنسا بطريقة أخرى، فأخذت الأطفال من حجور أمهاتهم، وبعثت بهم إلى إيطاليا إلى تلك المعاهد المسيحيَّة؛ لتعليم هؤلاء الأطفال الدين المسيحي. . . وعزلهم عزلاً كليّاً عن وطنهم وبيئتهم. . . بحيث يشبون ويترعرعون في الجو الفاشيستي والكنيسة المسيحية.

إنَّ سياسة إيطاليا الفاشيستية هي القضاء على الدين والعقيدة وإبعاد المسلمين عن معابدهم ومساجدهم، وكم من مرَّة صرَّح موسوليني رئيس الحكومة والحزب الفاشيستي في خطاباته بعد احتلال الكفرة، بأنه عازم على تثبيت ثلاثة ملايين من السكان الإيطاليين في الأراضي الليبية الخصبة.

وقد أيَّد هذا الرأي الكثير من السياسيين وأبرزها الكثير من الصحفيين على صفحات جرائدهم ومجلاتهم.

منذ أيَّام قرأت بالجريدة الرَّسمية المرسوم الملكى القاضى بمصادرة أملاك المواطنين وأوقاف المسلمين والزوايا السنوسية وأوقافها، وبهذه الطريقة الجهنمية عملت إيطاليا الفاشستية على تملك الإيطاليين كل الممتلكات الليبية وبالتدريج، وإبعاد الليبيين عن كل المجالات حتَّى تصبح ليبيا خالية من كل العناصر، ولا يبقى بها إلا الإيطالى المسيحى الكاثوليكى.

إذًا كلام الصادر من الجنرال أو المارشال لم يكن إلا زورًا وبهتانًا وتضليلاً؛ لتهدئة المسلمين، حتَّى تستطيع السلطات الإيطالية الفاشستية تنفيذ أغراضها الاستعمارية، وهى إن استحوذت على الملايين من هكتارات الأراضى الزراعية وغيرها (من أين لها هذه الأراضى؟) فالجواب معروف، استحوذت عليها بطرد أهلها الحقيقيين ونقلهم إلى مناطق الهلاك هم ومواشيهم على السواء أمام أعين العالم المتمدن.

وأما عصبة الأمم، وبالاختصار تبجح الإيطاليون بقولهم: إنَّ طرابلس وبرقة كانتا رومانيتين.. فلابد أن ترجعا رومانيتين كما كانتا، هذا هو هدف الفاشيست بدون تردد.

إنَّنا لا نصدق ما يقولون فقد خالفوا القواعد الدولية والإنسانية، ولم يُنفذوا حرفًا واحدًا من تعهداتهم إلى الطرابلسيين والبرقاويين، حتَّى التعهدات الكتابية والاتفاقيات المبرمة بينهم وبين إدريس السنوسى، كانت عبارة عن أكاذيب وكسب للوقت، ونحن مقتنعون بأنَّ كل ما كتبناه وأعلنَّاه على الملأ أجمع ستكذبه السلطات الفاشستية، وستوجد لنا مضابط لكى تدحض أقوالنا، ولكن كل ما كتبناه ثابت وصحيح ومصدره من جهة عاصرت الأحداث، وهى هيئة التحرير الليبية فى دمشق، فقد أثبتت الحوادث والاعتداءات بالوثائق الرسمية، وبالأخص فى احتلال الكفرة، فقد ارتكب الجنود الإيطاليون الفاشيست أبشع الجرائم باعتداءاتهم على النساء وقتلهم الشيوخ والأطفال، واعتدوا على حرمات المساجد والمقدَّسات، وقد ادَّعت إيطاليا بأن كل الأعمال العسكرية التى قامت بها ما هى إلا تأديب لأناس أعلنوا العصيان على دولتهم، وهذه حجج واهية لا يقبلها العقل ولا تقوم بها دولة متمدنة كما تدعيه إيطاليا الفاشيستية، وأنَّ الثوار فى العرف الدولى لم يكونوا من العصاة على الدولة، وإنَّما هم أصحاب حق يُدافعون عنه، اغتصبه عدو دخيل.

بقى علىَّ أن أختتم مقالى هذا الذى كتبته لا أُريد منه تحريض المسلمين على أن ينتقموا من الإيطاليين الذين يعيشون معهم حاش لله نحن لسنا من الانتقاميين ولا فى الجهل مثل الإيطاليين الفاشيست، وليس من شيم أخلاقنا أن نستعمل القوَّة على من هو أضعف منا.

وأنَّ المسلمين لن يُغيِّروا أبدًا تراثهم الخلقى الذى ورثوه أبًا عن جد، ولكن أقترح ما هو آت:

١- جمعيَّة الشبَّان المسلمين فى كل بلد عليها أن تحتج على كل أساليب الاعتداء، والإجرام التى ارتكبتها إيطاليا الفاشيستية فى ليبيا، وأن تُرسل برقية احتجاج شديدة اللهجة إلى عصبة الأمم وتنشر على الصحف العالمية.

٢- كل المدن والمقاطعات الإسلامية التى تتقد حماسًا والدم الساخن الذى يجرى فى عروقهم، عليهم أن يقدموا احتجاجاتهم إلى عصبة الأمم بالبرق مستعجلاً ونشرها جميعًا على صفحات مجلاتهم وجرائدهم المحليَّة.

٣- أمَّا مجموعة الدول الشرقية بالقاهرة هى كذلك عليها أن تحتج وتُندد بأعمال القمع والعنف التى تقوم بها إيطاليا الفاشيستية وتقدمه إلى عصبة الأمم مثل الهيئات الأخرى.

٤- كل الهيئات الإسلامية والعربية والشرقية بالقاهرة وسوريا والعراق والعربية السعودية والهند وجاوا وغيرها لابد أن يقوموا بواجبهم نحو القضيَّة الليبيَّة.

٥- عقد اجتماعات شعبية فى المدن الإسلامية وإلقاء الخطب الحماسية لشرح ظلم واستبداد السلطات الإيطالية الفاشيستية وهتافات بسقوط العدو الغاصب.

٦- يجب على كل المسلمين أن يُقاطعوا كل البضائع الإيطالية والسفن، وكل الوسائل والأعمال، وكل شىء يحمل اسم إيطاليا، وقطع كل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك تكوين لجان شعبية خاصة بمراقبة البضائع الإيطالية.

٧- طبع المنشورات وكتيبات تبين فيها تصرفات إيطاليا الفاشيستية واضطهادها للشعب الليبى، ويكون طبعها كذلك باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، ويكون توزيعها بالآلاف فى أوروبا، وفى كل العالم، ومن واجب كل مسلم أن يقوم بإلصاق هذه المنشورات فى كل الشوارع والميادين، وتوزيع الكتيبات فى كل مكان من العالم، كذلك على كل مسلم أن يُعلق فى بيته بعضًا من هذه المنشورات حتَّى لا ينسى ما يُعانيه الشعب الليبى من اضطهاد وتعذيب.

أيها المسلمون:

لا تقولوا بأنَّ هذا الحديث فى طرابلس وليبيا فقط، وإنَّما الليبيون الشرفاء طُعنوا فى شرفهم.. فى دمائهم... فى دينهم وفى أموالهم وممتلكاتهم، وكذلك سيحدث لكم أنتم مثل هذه المأساة، وسيحل بكم العذاب، كما حلَّ بالليبيين الشرفاء إذا لم تُدافعوا عن أنفسكم، إذا لم تُبينوا أنفسكم أنكم أحياء.

أيها المسلمون:

فى الوقت الحالى لن تستطيعوا الدفاع عن أنفسكم وبسلاحكم فقط؛ بل سخّروا أقلامكم وكذلك باجتهادكم وبصبركم على المكائد؛ لتدافعوا عن كيانكم، وعن أرضكم وعن مقدّساتكم وتُثبتوا للعالم بأنّكم شعب يعرف كيف يقُاوم.

شكيب أرسلان

(لوزان ١٢ ذو القعدة

(٧ إبريل ١٩٣١م).

قال شكيب أرسلان: ولما حررت المقالة التى نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة (سنة ١٩٣١م) أثر دخول الطليان إلى الكفرة، وارتجف لها العالم الإسلامى غضبًا وعلا الصراخ من كل جهة، جاءنى من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتى:

عاشرا: رسالة من عمر المختار إلى شكيب أرسلان:

كانت تلك الجهود التى قام بها الأمير شكيب أرسلان، وصلت أخبارها للمجاهدين، فأرسل قائد حركة الجهاد رسالة شكر واحترام وتقدير لتلك الأعمال، وهذا نص الرسالة:

«من خادم المسلمين عمر المختار إلى المجاهد الأمير الخطير أخينا فى الله وزميلنا فى سبيل الله شكيب أرسلان، حفظه الله، بعد السلام الأتم والرضوان الشّامل الأعم ورحمة الله وبركاته، قد قرأنا ما دبجه قلمكم السيَّال عن فظائع الطليان، وما اقترفته الأيدى الأثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار، فإنى وعموم إخوانى المجاهدين نُقدم لسامى مقامكم خالص الشكر، وعظيم الممنونية، كل ما ذكرتموه عما اقترفته أيدى الإيطاليين هو قليل من كثير، وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرًا، ولو يذكر للعالم؛ كل ما يقع من الإيطاليين لا توجد أذن تصغى لما يروى من استحالة وقوعه، والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح، وأننا فى الدفاع عن ديننا صامدون، وعلى الله فى نصرنا متوكلون، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فى ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩هـ»[1].

وقد علّق شكيب أرسلان على تلك الرسالة فقال: وما لاحظه الشهيد المشار إليه هو عين الحقيقة، فإنَّ الناس يصعب عليهم أن يُصدقوا الشناعات والدناءات والنذالات التى أقدم عليها الطليان فى طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم[2].

(١)، (٢) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٢/ ٨٤).

إنَّ رسالة عمر المختار للأمير شكيب أرسلان نستخلص منها فوائد جمَّة، ففى قوله من «خادم المسلمين» دليل على تواضعه وافتخاره بكونه من خدَّام المسلمين، وهذا المعنى له مدلول عند الشيخ عمر المختار، فهو يتقرَّب إلى الله تعالى بخدمة المسلمين، وهى من أعظم القربات عند الله تعالى، وفى قوله: «إلى المجاهد الأمير الخطير» وصف الأمير شكيب بالمجاهد، وهو بالفعل جاهد مع الليبيين بجانب جنود الأتراك ضد الطليان، وفيه دلالة على اهتمام عمر المختار بالمصطلحات الشرعيَّة، فلم يقل: مناضل، أو مكافح، أو ثائر..

وإنَّما تقيَّد بوصفه مجاهدًا لدلالة هذه الكلمة وعمقها فى أوساط المسلمين، ووصفه بالخطير، كيف لا وقد كانت مقالاته أنفذ من الرصاص فى قلوب الإيطاليين وساهمت فى تشكيل تعاطف إسلامى وعربى كبير مع القضيَّة الليبية العادلة، وفى قوله: «أخينا فى الله» فيه دلالة رابطة العقيدة التى جعلت المسلمين أخوة، فهى فوق كل الروابط الأرضية، وفى قوله: «بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم» فيها قوَّة العبارة، وبلاغة الأسلوب، وروعة المدخل، وفى قوله: «قد قرأنا ما دبجه قلمكم السيَّال عن فظائع الطليان» دليل على متابعة المجاهدين لما يجرى خارج البلاد وله علاقة بقضيَّة شعبنا، وأما بقيَّة الرسالة ففيها تأكيد للأمير شكيب عن المعلومات التى وصلت إليه، وقام بنشرها، وفيها إصرار قوى على مواصلة الجهاد والدفاع عن الدين والوطن، وفيها توكل على الله العظيم، هذا وقد قامت جمعيَّة الشبان المسلمين بمصر بنشر بيان عن سياسة الإبادة والاستئصال التى اتبعتها إيطاليا فى طربلس الغرب وألقى ذلك البيان فى اجتماع عظيم فى نادى جمعية الشبان المسلمين ووقع عليه أهل الرأى والمكانة فى مصر؛ ليُرسل إلى جمعية الأمم، ويُذاع فى العالم الإسلامى، وجاء فى ذلك البيان الحديث عن:

١- سياسة التهجير:

لقد شهدت مصر مشهدًا لا تستطيع الإنسانية أن تعرض عنه متجاهلة ما انطوى عليه من الآلام، وذلك أنَّ مئات من بنى الإنسان بين رجال ونساء وأطفال وشيوخ اضطروا تحت ضغط الجور إلى أن يتركوا أوطانهم تخلصًا من الظلم، وأن يهيموا على وجوههم فى القفار، ولولا مروءة مأجور الواحات المصرى الذى خرج ورجاله للبحث عنهم حتَّى لقيهم وأنقذهم لهلكوا عطشًا وجوعًا، أولئك هم فريق من إخواننا الطرابلسيين الذين خرجوا من قسوة الحكم الإيطالى الذى لا يُطاق.

٢- سياسة القتل بالرمى فى البحر:

ولم تكد أعيننا تكفكف الدموع على هذا المشهد الذى شهدته على اليابس حتَّى حملت إلينا أمواج البحر فى السلوم مشهدًا آخر أفظع من هذا وأشنع، فرمى البحر إلى هذا الساحل المصرى أربع عشرة جثة من جثث هؤلاء الطرابلسيين مغلولة فى سلسلة واحدة.

٣- عمل الإيطاليين فى الكفرة:

ثم توالت الأخبار بأنَّ زاوية الكفرة المنقطع أهلها للعبادة قد أمطرتها طائرات الإيطاليين بالقنابل، وفتكت بأهلها فتكًا ذريعًا، وبعد ذلك هاجمها الجيش، وكاد يأتى على البقيَّة من أهلها، ولم يتعفف عن هتك الأعراض، وسلب الأموال وبقر بطون الحوامل.

٤- قتلهم لأهل العلم:

وقد قتل من أهل الكفرة فى هذه النازلة كثيرون منهم الشيخ أبو شنة، وابن أخيه الشيخ عمر والشيخ حامد الهامة، والشيخ عبد السلام أبو سريويل، والشيخ محمد المنشوف، وابن أخيه على ابن حسين، والشيخ محمد العربى، والشيخ محمد أبو سجادة، والشيخ أحمد الفاندى الجلولى، والشيخ خليفة الدلاية.

٥- قتلهم لكبار شيوخ الكفرة:

ولما ذهب كبار شيوخ زاوية الكفرة إلى القائد الكبير يرجونه وضع حد لهذه المذابح أمر بذبحهم كما تذبح الشياه.

٦- قتل الأبرياء برميهم من الطائرات:

ومن الفظائع التى ارتكبها الإيطاليون فى برقة، ونقلها الرواة الصَّادقون أنَّهم وضعوا أحد مشايخ عائلة الفوائد المدعو الشيخ سعيد، وخمسة عشر شخصًا من العرب فى الطائرات، وارتفعوا بهم عن سطح الأرض، ثم جعلوا يلقونهم واحدًا بعد الآخر؛ ليموتوا ميتة لم يسبق لها مثيل.

٧- انتزاع الأرضى من أهاليها وتجويعهم:

ومن الفظائع التى ارتكبوها فى الجبل الأخضر إخراج أهله منه، وهم لا يقل عددهم عن ثمانين ألف عربى إلى بادية سرت القاحلة، ثم أذاعوا بواسطة قنصليتهم فى بلاد الأرجنتين أن حكومة طرابلس وبرقة تعطى الأراضى الخصبة فيها لكل إيطالى يريد النقلة إليها، وبلغت مساحة الأراضى التى أخذت غصبًا نحوًا من مائتى ألف هتكار، ولا تزال الحكومة الإيطالية تحث الإيطاليين على استعمار هذه الأراضى، وقبل انتزاع أراضى الجبل الأخضر من أهله فى هذه السنة، انتزعت فى (سنة ١٩٢٤م) ما مساحته (٤٢٠) ألف هكتار بدون مقابل، وفى بعض الأحيان كان المقابل عن المئة ألف هكتار ستة آلاف فرنك إيطالى -أى خمسين جنيهًا تقريبًا- وقد خرج أهالى الجبل الأخضر عند إجلائهم منه وهم لا يملكون ما يقتاتون به فرتبوا لكل عائلة

فرنكين فى اليوم وهم الآن يعيشون بهذا المرتب عيشة بؤس تفتت الأكباد، وفى أثناء نقلهم إلى صحراء سرت، كان كلما عجز واحد منهم عن مواصلة المشى يرمى بالرصاص.

٨- ترحيل الأطفال إلى إيطاليا لتنصيرهم:

وفضلاً عن كل ذلك؛ فقد جمع الإيطاليون الأطفال الوطنيين من (٣) إلى (١٤) سنة وأخذوهم من أهلهم وأرسلوهم إلى إيطاليا بزعم تعليمهم فيها، وجمعوا الشبان من سن (١٥) إلى (٤٠) سنة وألحقوهم بالجيش واستخدموهم فى محاربة أهلهم وبلادهم.

٩- إرساليات التَّبشير بين الأهالى:

وبلغ الاستهتار بالشعور الإسلامى مبلغًا عظيمًا بين إرساليات التَّبشير المنبثة الآن بين الأهالى، ومن صدور الأوامر المشدَّدة على الخطباء فى الجوامع بالدعاء لملك إيطاليا على المنبر.

١٠- خداعها للأهالى(١):

وقد حدث مراراً أنَّ الحكومة تعلن عن العفو والأمان، فإذا وقع العفو عنهم وغدوا فى قبضتهم غدرت بهم، وممن ذهبوا ضحية هذا الغدر من رؤساء القبائل خليفة بن عسكر، والشيخ عبيدة الصرمانى، وأحمد الباشا، وإبراهيم بن عباد، والهادى كعبار وابنه محمد كعبار، والشيخ أحمد أحمد الحجاوى، والشيخ على الشويخ، والشيخ عبد السلام بن عامر، والشيخ محمد التريكى، والشيخ شرف الدين العمامى، والشيخ أحمد بن حسن بن المنتصر، والشيخ عمر العورانى والشيخ محمد عبد العال، ومن الضحايا الذين لا يُعرف لهم ذنب، الشيخ صالح العوامى وهو شيخ يبلغ التسعين عامًا من أهل العلم والصلاح، قبضت عليه إيطاليا (سنة ١٩٢٣م) وزجته فى سجن بنغازى، إلى أن مات فدفن بمحل مجهول، فأرواح هؤلاء الضحايا تصيح بالإنسانية جميعها، وبجمعية الأمم بنوع خاص أن هلمى إلى إنقاذ البقية من أبناء الإنسانية المعذبة فى هذه الربوع من سياسة الفتك والاستئصال والإبادة التى تتبعها إيطاليا فى طرابلس المنكوبة وأن العالم الإسلامى يعتبر ما وقع ويقع فى طرابلس الغرب عدوانًا مباشراً على كل مسلم مهما كانت جنسيته ووطنه، وسيبقى عار هذه الأعمال لاصقًا لإجراء تحقيق دولى حر دقيق فى نفس بلاد برقة وطرابلس عن كل ما جرى فيها وإعلان نتيجته كما تقتضيه العدالة والحق، والموقعون على هذا يطلبون من جمعية الأمم إجراء هذا التحقيق تنزيهًا للإنسانية عن لحوق هذا العار بها إلى الأبد، ويرجون بإلحاح أن يكون لها مندوب يختارونه مع لجنة التحقيق، وهم ينتظرون ما تقرره العصبة فى هذا الشأن بفارغ الصبر.

---

(١) انظر: مجلة المنار جـ٩، م٣، ص ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦.

التوقيعات:

١- محمد الشرقاوى.

٢- خليل الخالدى -رئيس الاستئناف الشرعى بفلسطين.

٣- محمد رشيد رضا -منشئ مجلة المنار الإسلامية.

٤- محمد عبد اللطيف دراز - من العلماء وعضو مجلس إدارة جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

٥- محمد عبد الرحمن قراعة -من العلماء ومدرس بالأزهر الشريف.

٦- عبد الوهاب النجار -وكيل جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

٧- محمد كامل القصاب.

٨- محمد تقى الدين الهلالى -الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند.

٩- على سرور الزنكلونى -المدرس بقسم التخصص بالأزهر.

لقد عبث الجنود الإيطاليون بالمكتبة السنوسية، التى كانت ثروة علمية ضخمة، فأخذت أيدى الجنود تبددها ذات اليمين وذات الشمال، وتوقد بها النيران للطعام، وأخيرًا صدرت الأوامر بجمع ما تبقى منها ونقله إلى بنغازى، فنقلته أربعون سيارة شحن كبيرة، وعدد كبير من الإبل، ولم تنج هذه المكتبة بعد وصولها إلى بنغازى من العبث، فقد تسرب الكثير منها إلى أيدى الأفراد، ونقل قسم كبير منه إلى إيطاليا، وهكذا وصلت يد الفساد الإيطالية إلى كل شىء فى ليبيا(١).

عندما تم اعتقال جميع أهالى برقة وحصرهم، وتم احتلال واحة الكفرة لم يعد إذًا أمام سفاح برقة إلا شىء واحد، هو إتمام وضعية مد الأسلاك الشائكة التى ستفصل بين برقة ومصر فصلاً نهائيًا، فأخذ فى سرعة تتميمها مجندًا لذلك كل ما لديه من إمكانات، وكان قد استدعى شركات المقاولات الخاصة من إيطاليا فتعهدت كل شركة منها بإتمام الجزء المخصص لها تحت إشراف القيادة العسكرية التى وضعت مهندسيها تحت تصرف هذه الشركات، وقد استوردت الحكومة الإيطالية معدات خاصة من ألمانيا فضلاً عما جاءت به من إيطاليا لهذا الغرض المطلوب، ووضعت تحت تصرف هذه الشركات عشرات الآلاف من العمال الذين جندتهم من المعتقلات تلهب ظهورهم

(١) انظر: عمر المختار (ص١٣٤).

السياط، وهكذا امتد خط الأسلاك الشائكة من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب، فكان طوله حوالى ثلاثمائة كيلو متر، ثم وضع غراسيانى نقاطًا عسكرية مزودة بجميع المعدات الحربية، وربط بعضها ببعض من حيث الاتصال فيما إذا احتاجت نقطة لمساعدة الأخرى تهب بسرعة، ومن هذه النقاط: مساعد، والشقة، وبئر الغبى، وقبر صالح، وسيدى عمر، وبئر حكيم، ثم زود جراسيانى هذا السياج المحكم بمولدات كهربائية لمده بالنور حتى لا يستطاع الإفلات منه مهما تكن الأحوال، وإذا ما قدر لأى إنسان أن يصل إليه فسيواجه معركتين عسيرتين لا سبيل لإفلاته من إحداهما إذا ما تيسر له الإفلات من الأخرى، وتتمثل المعركتان فى محاولة تقطيع الأسلاك، وفى الدفاع عن النفس، وتقطيع الأسلاك يحتاج إلى معدات فنية وإلى وقت من الزمن، فكيف إذًا لمن يتمكن من الوصول إلى هذا السياج إجراء عملية التقطيع وعملية الدفاع فى آن واحد(١).

كان المجاهدون مستمرين فى جهادهم والقوات الإيطالية تشتبك معهم وهى مجهزة بالمصفحات والطائرات والمدفعية، وكان القتال لا يتوقف، وقد أورد الجنرال غراسيانى فى كتابه أنه التقى مع عمر المختار فى مائتين وستين معركة خلال الثمانية عشر شهرًا ابتداء من حكمه فى برقة إلى أن وقع عمر المختار أسيرًا، وقد ثبت المجاهدون فى حالتى الدفاع والهجوم.

كان المجاهدون يقضون معظم أوقاتهم فى حالة استعداد قصوى ويوجهون الضربات المحكمة للطليان، وحار سفاح برقة فى أمر المجاهدين، ورغم الإجراءات التى اتخذها والتى كان يثق فى فائدتها إلا أنه أصيب بالقنوط واليأس وأصبح كل أمله فى موت عمر المختار الطبيعى قائلاً لكبار مرؤسيه فى أكثر من مناسبة: إن عمر المختار شيخ كبير ولا بد من موته عاجلاً أو آجلاً، فعلينا أن ننتظر تلك الساعة، ولعلها لا تكون بعيدة، وفكر غراسيانى ذات مرة تفكيرًا غريبًا، وإن كان لا يستغرب على تفكيره أى شىء، فكر فى إحراق جميع غابات الجبل الأخضر، ودرس هذا الموضوع جديًا مع مستشاريه السياسيين والعسكريين(٢).

إلا أن السيد صالح بك المهدوى أحد زعماء بنغازى استطاع أن يثنى جراسيانى عن هدفه بعد أن اجتمع به، وشرع غراسيانى يتكلم مع عمر المختار محملاً مسئولية ذلك إلى جميع أهل البلاد، وقال عنهم لو أنهم صدقوا معنا لما استمر عمر المختار فى موقفه اليائس يقاتل جنودنا، ثم انتقل فجأة ليتحدث عن موضوع حرق غابات الجبل الأخضر وقال: إن الحكومة الإيطالية يهمها أن تنهض بهذه البلاد، وإن عمر المختار وقف عقبة فى سبيل النهوض، وحاولت الحكومة أكثر من

(١) انظر: عمر المختار (ص١٣٥). (٢) انظر: عمر المختار (ص١٣٧).

مرة أن تنصحه للإقلاع عن محاربتنا، ولكنه رفض الانصياع إلى نصائح الحكومة معتمدًا على اختفائه فى مغارات الجبل وغاباته، ولقد صممت أن أزيل هذه الغابة التى يحتمى وراءها ساخرًا بقوة الحكومة، وسكت الجنرال قليلاً، ثم طلب من صالح بك المهدوى أن يشاركه البحث فى هذا الموضوع، فأجابه بقوله: إن عمر المختار سينتهى بلا شك، فقاطعنى عند كلمتى هذه بقوله: «إكو إكو... كويستا لفيريتا... يانوتا يا نوتا... سينتا... سينتا... ديرى... ديرى... أوانتى... أوانتى...» ومعنى هذه الكلمات الإيطالية هو: هكذا.. هكذا.. هذه هى الحقيقة.. اسمع يا يانونا (الترجمان) اسمع... اسمع.. قل... قل... استمر... استمر»، إنكم يا دولة الوالى اتخذتم بحزم جميع الاحتياطات التى من شأنها القضاء عليه، والمسألة وقت لا أقل ولا أكثر، وهنا تحمس الجنرال لكلماتى هذه كأنها صادفت هوى فى نفسه، أو كأننى قلت له شيئًا كان يريد أن يسمعه.

وقلت له مواصلاً الحديث: إن الدولة الإيطالية فى حاجة لاستثمار كل شجرة فى هذه البلاد، وسوف يكون فضل هذا الاستثمار المنتظر على أيديكم، فإذا ما أقدمتم على حرق الغابات - والكلمة الأخيرة لدولتكم -فسوف يمر زمن طويل وطويل جدًا دون إعادتها من جديد لما كانت عليه، هذا إذا لم يكن إعادتها مستحيلاً، وإليكم يا دولة الوالى، نذكر مسألة لها وجه الشبه برأيكم هذا، فى عهد الدولة العثمانية قامت قبيلة البراعصة بعصيان ضد الحكومة وتعذر على الحكومة إنهاء العصيان، واعتبرت أن غابات الجبل الأخضر كانت أكبر مشجع للقبائل على العصيان، فتتخذ منه مخابئ لا يقوى الجنود العثمانيون على اكتشافها، فأرادت الحكومة أن تقوم بحرق جميع الغابات، وسمع السلطان بذلك، فاعترض على هذه الفكرة قائلاً: إذا كان الموجب لعصيان الأهالى هو منعهم عن دفع العشور والعوائد الحكومية، فإننى أدفعها عنهم من جيبى الخاص حماية للغابات فى الجبل الأخضر، ولا أوافق على حرقها، وعندما انتهيت من الحديث معه ودعنى شاكرًا»[١].

لقد حرص صالح بك المهدوى على حماية الجبل الأخضر من عبث غراسيانى الذى كانت فى يده إمكانات إيطاليا للقضاء على حركة الجهاد، ولذلك جادل وناقش وحاول أن يقنع غراسيانى بالإقلاع عن تلك الفكرة الجهنمية، لقد قال صالح بك عندما سئل عن صحة ما إذا كانت الحكومة العثمانية، فكرت فى إحراق غابات الجبل الأخضر، فأجاب بقوله: إن المسألة التى ضربت بها المثل للجنرال جراسيانى كان لها أثر فى عهد قديم، والحديث عنها يطول، والطليان لا يريدون

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص١٣٩).

ذكرها من وجهة سياسية محضة، وعلى كل حال كنت أرمى بذكرها للجنرال غراسيانى إلى حماية جبلنا من عبث هذا المجنون الذى وضعوا فى يده سيفًا حادًا.

كان جراسيانى يملك القوات الضخمة فى البر والبحر والجو، والسلطة الغاشمة المستبدة ففى برقة، والخزائن المرصوفة بالأموال، والسجون والمعتقلات والمشانق، ومع هذا يضعف ويسيطر عليه العجز أمام المجاهدين وقائدهم العظيم حتى دفعه تفكيره إلى حرق الغابات بعد أن تمكن من حرق الأكباد والأفئدة والأجسام، لقد وقع تحت تأثير عصبى حاد من جراء ما أصابه من الفشل الذريع، وكان فى طريقه إلى الاستقالة أو الإقالة لولا تقدير الله بوقوع عمر المختار فى الأسر[(١)].



(١) انظر: عمر المختار للأشهب، (ص١٤١).

المبحث الثالث

الأيام الأخيرة من حياة المختار
ووقوعه فى الأسر ثم إعدامه

أولاً: أحمد الشريف يحترق على بلاده ويرسل محمد أسد لمعرفة أخبار المجاهدين:

كان محمد أسد صاحب كتاب «الطريق إلى الإسلام» قد تعرف على أحمد الشريف أثناء إقامته فى الحجاز وقد تأثر به غاية التأثر، وأحبه حبًا عظيمًا.

يقول محمد أسد: «ليس فى الجزيرة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد؛ ذلك أنه ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة عن كل غاية فى سبيل مثل أعلى، كما فعل هو، لقد وقف حياته كلها، عالمًا ومحاربًا، على بعث المجتمع الإسلامى بعثًا روحيًا، وعلى نضاله فى سبيل الاستقلال السياسى، ذلك أنه كان يعرف جيدًا أن الواحد لا يمكن أن يتحقق من دون الآخر»[1].

لقد تعرف محمد أسد على أحمد الشريف بواسطة المجاهد الإندونيسى حاجى آغوس سالم الذى كان يمثل مركز القيادة فى جهاد إندونيسيا ضد أعدائها، وكان قد جاء معه بقصد الحج وعندما عرف السيد أحمد الشريف أن محمد أسد حديث عهد بالإسلام مد إليه يده وقال: «مرحبًا بك بين إخوانك، يا أخى الشاب. . .»[2]، لقد أحب محمد أسد أحمد الشريف وتفاعل مع قضية ليبيا وكان يمضى معه وبصحبة السيد محمد الزاوى الساعات الطوال للبحث فى وضع المجاهدين فى ليبيا واستمرت الاجتماعات فى مساء كل يوم طيلة أسبوع تقريبًا لبحث ما كان بالإمكان صنعه، وقد رأى الشيخ محمد الزاوى أن إمداد المجاهدين بين الفينة والأخرى لم يكن من شأنه أن يحل المشكلة، فقد كان يعتقد أن واحة الكفرة، فى الجنوب من صحراء ليبيا يجب أن تكون ثانى محور لكل العمليات الحربية فى المستقبل وكان يظن أن الكفرة ماتزال بعيدة عن تناول الجيوش الإيطالية، وفق ذلك فقد كانت تقع على طريق القوافل «ولو كان طويلاً وشاقًا» إلى واحتى بحرية وفرافرة المصريتين، ولذا كان يمكن تموينها بصورة جادة أكثر من أى موقع آخر فى ليبيا، كما كان يمكن أن يتحول كثير من المهاجرين إلى مصر لتكون مستودعًا دائمًا لإمداد عمر

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٣١).
(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٤٤٦).

المختار فى الشمال، وكان أحمد الشريف مستعداً للذهاب بنفسه، لو أمكن إعادة تنظيم القتال على تلك الصورة، للإشراف على العمليات الجهادية بنفسه[١].

لقد تحدث محمد أسد عن سبب اهتمامه بالقضية السنوسية فقال: لم يكن اهتمامى البالغ بمصير السنوسيين ناشئًا عن إعجابى ببطولتهم المتناهية فى قضية عادلة مقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمنى أكثر من ذلك هو ما كان يمكن أن يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربى بأكمله إذ إننى لم أستطع أن أرى فى العالم الإسلامى كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامى المثالى: الحركة السنوسية، التى كانت تحارب الآن معركتها الأخيرة فى سبيل الحياة وبسبب أن السيد أحمد كان يعرف مبلغ عطفى الشديد على القضية السنوسية، فقد التفت إلىَّ وسدد نظره إلى عينى وسألنى قائلاً: «هل تذهب يا محمد إلى برقة بالنيابة عنا، فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين؟، لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأجلى مما يراها بنو قومى. . .»[٢].

وبعد أن وافق محمد أسد على تلك المهمة الصعبة تناول أحمد الشريف من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم ملفوفة بغلاف من الحرير، وبعد أن وضعها على ركبته أمسك بيدى اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب:

«أقسم يا محمد بالله الذى يعلم ما فى القلوب، على أنك ستبقى أمينًا للمجاهدين. . .».

قال محمد أسد: فأقسمت ولم أشعر فى حياتى يومًا أننى كنت أكثر وثوقًا بوعدى مما كنت فى تلك اللحظة[٣].

قام أحمد الشريف بترتيب أمور هذه الرحلة واتصل بأتباع الحركة فى مصر ووصل الخبر إلى عمر المختار واستعد محمد أسد لهذه الرحلة المثيرة مع رفيقه زيد من قبيلة شمر، وشرع فى تنفيذ خطواته وكان رجال الحركة السنوسية يقودونه بمهارة بارعة حتى وجد نفسه أمام عمر المختار فى الجبل الأخضر، وقد فصل الأستاذ محمد أسد تلك الرحلة فى كتابه المشهور[٤].

لقاؤه بعمر المختار:

بعد دخول محمد أسد الجبل الأخضر من جهة الصحراء الغربية المصرية بواسطة المجاهدين

---

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٤٤٦).
(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٤٧).
(٣) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٤٨).
(٤) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٤٨ – ٣٦٠).

الذين أرسلهم عمر المختار لاستقباله وجد محمد أسد نفسه أمام قائد حركة الجهاد، ويصف لنا محمد أسد ذلك اللقاء فيقول: كان يحيط به رجل من كل جانب، ويتبعه كذلك عدد آخر، وعندما وصل إلى الصخور التى كنا ننتظر عندها، ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيت أنه كان يمشى بصعوبة «عرفت بعدئذ أنه قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام»، وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح: كان رجلاً معتدل القامة قوى البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج، تحيط بوجهه الكئيب ذى الخطوط العميقة، وكانت عيناه عميقتين، ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين براقتين فى غير هذه الظروف، إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شىء غير الظلمة والألم والشجاعة.

واقتربت منه لأحييه، وشعرت بالقوة التى ضغطت بها يده على يدى «مرحبًا بك يا بنى» قال ذلك وأخذ يجيل عينيه فىَّ متحفصًا: لقد كانت عينى رجل كان الخطر خبزه اليومى.

وفرش أحد رجاله حرامًا على الأرض فجلس سيدى عمر عليه متثاقلاً وانحنى عبد الرحمن[1]، ليقبِّل يده ثم شرع بعد استئذانه، يوقد نارًا خفيفة تحت الصخرة التى كنا محتمين بها، وعلى ضوء النار الخافت، قرأ سيدى عمر الكتاب الذى حملنيه السيد أحمد إليه، لقد قرأه باهتمام وعناية، ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه -وهى أمارة الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها فى جزيرة العرب ولكنه كثيرًا ما يراها فى شمالى إفريقيا- ثم التفت إلىَّ مبتسمًا وقال: «لقد أطراك السيد أحمد -أطال الله عمره- فى كتابه، أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكنى لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة، إلا من الله العلى الكريم، إننا حقًا على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا...».

فقلت: «ولكن... هذه الخطة التى وضعها السيد أحمد، ألا يمكن أن تكون بداية جديدة؟، وإذا أمكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من الكفرة بصورة ثابتة، أفلا يمكن صد الإيطاليين؟»[2].

لم أر فى حياتى ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس، كتلك الابتسامة التى رافقت جواب سيدى عمر: «الكفرة...؟ لقد خسرنا الكفرة، فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسبوعين تقريبًا...»[3].

---

(١) هذا من المجاهدين الذين استلموا محمد أسد ورفيقه عند الحدود المصرية.

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦٠، ٣٦١).

(٣) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦١).

وأذهلني الخبر، ذلك إنني والسيد أحمد طوال تلك الأشهر الماضية، كنا نبني خططنا على افتراض أن الكفرة يمكن أن تكون نقطة تجمع لتقوية المقاومة، أما وقد ضاعت الكفرة فإنه لم يبق للسنوسيين سوى نجد الجبل الأخضر لا شيء سوى كماشة الإيطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار . . . وخسارة نقطة بعد نقطة . . . واختناق بطيء».

كيف سقطت الكفرة؟:

فأومأ سيدي عمر إيماءة متعبة إلى أحد رجاله أن يقترب: «دع هذا الرجل يقص عليك الخبر . . . إنه واحد من أولئك القلائل الذين هربوا من الكفرة، ولم يصل عندي إلا بالأمس».

وجلس الكفري على ردفيه أمامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلم ببطء دون أن يبدو في صوته أي أثر للانفعال، ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الأهوال التي شهدها.

«لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق من ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة، أما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل، لم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح، أما الباقون فقد كانوا نساءً وأطفالاً وشيوخًا، لقد دافعنا عن أنفسنا بيتًا بيتًا، ولكنهم كانوا أقوى كثيرًا منا، وفي النهاية لم يبق إلا قرية الهواري، لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا، وتمكن عدد قليل جدًا من الهرب، أما أنا فقد اختبأت في حدائق النخيل، مترقبًا الفرصة لشق طريقي خلال الخطوط الإيطالية، وكنت طوال الليل أسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الإيطاليون والعساكر الإريتريون يغتصبونهن، وفي اليوم التالي أحضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز، وأخبرتني أن الجنرال الإيطالي قد حشد كل من تبقى على قيد الحياة أمام قبر السيد محمد المهدي، وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن الكريم ثم رماها إلى الأرض وداس عليها بحذائه صائحًا: «دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن إذا استطاع!!»، ثم أمر بقطع أشجار النخيل في الواحة وهدم آبارها، وأحرق كل ما كان في مكتبة السيد أحمد البدوي من كتب، وفي اليوم التالي أصدر أمره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق، وطوال الليلة التالية كنت أسمع من مخبئ صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بنادقهم . . . وأخيرًا زحفت إلى الصحراء في ظلام الليل فوجدت جملاً شاردًا امتطيته ووليت فرارًا . . .»(١).

وعندما أنهى الرجل قصته المروعة قربني سيدي إليه بلطف وكرر قوله: «إنك تستطيع أن ترى، يا بني أننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا» ثم أضاف: «إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل في

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦٢).

سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت وليس لنا أن نختار غير ذلك -إنا لله وإنا إليه راجعون- لقد أرسلنا نساءنا وأولادنا إلى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا أن نموت».

قلت: «ولكن يا سيدى عمر أليس من الأفضل لك وللمجاهدين أن تنسحبوا إلى مصر بينما لايزال هناك طريق مفتوح أمامكم؟، فلقد يكون من الممكن فى مصر جمع المهاجرين الكثيرين من برقة وتنظيم قوة أكثر فعالية وجدوى، إن القتال هناك يجب أن يتوقف بعض الوقت حتى يستعيد الرجال شيئًا من قوتهم. . . أنا أعرف أن البريطانيين فى مصر لا ينظرون بعين الرضى إلى وجود قوات إيطالية راسخة الأقدام على خاصرتهم، فقد يغضون الطرف، والله أعلم عن استعداداتكم فيما إذا أقنعتموهم بأنكم لا تعتبرونهم أعداء. . .».

فأجاب: «كلا يا بنى، لم يعد هذا يجدى الآن، إن ما تقوله كان ممكنًا منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة، قبل أن يقوم السيد أحمد -أطال الله عمره- بمهاجمة البريطانيين كى يساعد الأتراك- الذين لم يساعدوننا، أما الآن فلم يعد فى الأمر ما يجدى. . . إن البريطانيين لم يحركوا إصبعًا لكى يسهلوا علينا أمرنا والإيطاليون مصممون على أن يقاتلونا حتى النهاية، وعلى سحق كل إمكانية للمقاومة فى المستقبل، فإذا ذهبت وأتباعى الآن إلى مصر، فإننا لن نتمكن مطلقًا من العودة ثانية، وكيف نستطيع أن نتخلى عن قومنا ونتركهم ولا زعيم لهم، لأعداء الله يفترسونهم؟».

وما قول السيد إدريس؟، هل يشارك الرأى يا سيد عمر؟.

«إن السيد إدريس رجل طيب، إنه ولد طيب لوالد عظيم، ولكن الله لم يعطه قلبًا يمكنه من تحمل مثل هذا الصراع. . .»[1].

كان زيد الشمرى رفيق محمد أسد فى رحلته بصحبة خليل أحد المجاهدين لإحضار قرب الماء، وبعدما رجع وقع بصر خليل على سيدى عمر هجم لتقبيل يده، وبعد ذلك قدم محمد أسد زيدًا إلى عمر المختار، فوضع المختار يده على كتفه وقال:

«مرحبًا بك يا أخى، من أرض أجدادى، من أى العرب أنت؟ وعندما أخبره زيد أنه من قبيلة شمر، أومأ عمر برأسه مبتسمًا: «آه، إذن أنت من قبيلة حاتم الطائى، أكرم الناس يدًا. . .».

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦٣).

وقدم لهم رجال عمر المختار بعض التمر، ودعاهم المختار إلى ذلك الطعام البسيط فأكلوا، ونهض قائد المجاهدين، وقال: «آن لنا أن نتحرك من هنا، إننا على مقربة من المركز الإيطالى فى بوصفية، ولذا لا نستطيع أن نتأخر حتى الفجر...».

وتحرك محمد أسد مع قائد حركة الجهاد ووصل إلى معسكر المجاهدين، ووقعت عيناه على امرأتين إحداهما مسنة والأخرى شابة -فى المعسكر كانتا جالستين بالقرب من أحد النيران، مستغرقتين فى إصلاح سرج ممزق بمخرز غليظ- وعندما لحظ الشيخ عمر المختار دهشة محمد أسد قال: «إن أختينا هاتين تذهبان معنا حيثما نذهب، ولقد رفضتا أن تسعيا إلى أمن مصر مع سائر نسائنا وأولادنا، إنهما أم وابنتاها، وقد فقدتا جميع رجالهما فى الحرب»[1].

اتفق عمر المختار مع محمد أسد على طريقة إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح عن طريق الطريق التى جاء منها محمد أسد، مع إنشاء مستودعات سرية فى واحات بحرية وفرافرة وسيوة، وكان عمر المختار يشك فى إمكانية الإفلات من مراقبة الإيطاليين بهذه الطريقة مدة طويلة.

وقد تبين بعد ذلك أن ظنونه ومخاوفه كانت فى محلها، ذلك أنه بعد بضعة أشهر تمكنت قافلة تحمل المؤن والذخائر من الوصول فعلاً إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين اكتشفوها بينما كانت تجتاز الفجوة بين الجغبوب وجالوا، وسريعًا ما أنشأوا بعد ذلك مركزًا محصنًا فى بير طرفاوى على نصف المسافة تقريبًا بين الواحتين، مما جعل -بالإضافة إلى الدوريات الجوية المستمرة- كل مسعى آخر من هذا النوع خطرًا إلى أبعد الحدود[2].

وكان قد تقرر رجوع محمد أسد وزيد الشمرى إلى الحجاز وبالفعل رجعوا من حيث أتوا بواسطة المجاهدين البواسل الذين رتبوا الأمور، وأخذوا بالأسباب وحافظوا على ضيوفهم الكرام.

يقول محمد أسد: «وودعت وزيد عمر المختار، ولم نره بعد ذلك إطلاقًا، ذلك أنه بعد ثمانية أشهر، قبض عليه الإيطاليون وأعدموه».

وقد وصف لنا محمد أسد آخر لقاء مع السيد أحمد الشريف فقال: ومرة أخرى وقفت أمام إمام السنوسية ونظرت إلى وجه ذلك المحارب القديم المرهق، ومرة أخرى قبّلت اليد التى حملت السيف طويلاً جدًا، حتى أنها لم تعد تستطيع بعد أن تحمله.

---

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦٣).

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص٣٦٥).

«بارك الله فيك يا بنى . . لقد مضت سنة منذ أن التقينا أول مرة، وهذه السنة قد شهدت نهاية آمالنا، ولكن الحمد لله على كل حال. . .».

والحق أنها كانت سنة مفعمة بالهموم والأكدار بالنسبة إلى أحمد: لقد أصبحت الأخاديد حول فمه أكثر عمقًا، وأصبح صوته أكثر انخفاضًا من أى وقت مضى.

لقد هوى النسر، إنه يجلس منكمشًا على السجادة، وقد لف نفسه ببرنسه الأبيض كأنما يطلب الدف، ويحدق بصمت فى الفراغ وهمس: «ولو أننا استطعنا فقط أن ننقذ عمر المختار، ولو أننا تمكنا من إقناعه بالهرب إلى مصر بينما كان هناك متسع من الوقت. .»

فقلت له: «لم يكن باستطاعة أحد أن ينقذ سيدى عمر، إنه لم يرد أن ينقذ لقد فضل أن يموت إذا لم يستطع أن ينتصر، لقد عرفت ذلك عندما فارقته يا سيدى أحمد. . .»(١).

إن أحمد الشريف اهتم ببلاده بمجرد هجرته منها، وكان على اتصال بالمجاهدين، وقد حدثنى عبد القادر بن على أن أحمد الشريف قام بكتابة رسائل إلى قبائل برقة يحثهم فيها على السمع والطاعة للشيخ عمر المختار- رحمهم الله.

ثانيًا: الأسد يقع أسيرًا:

ظل المختار فى الجبل الأخضر يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التى كانت تحيط به وبرجاله، وكانت من عادة عمر المختار الانتقال فى كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التى يقيم فيها إخوانه المجاهدين لتفقد أحوالهم، وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارئ، ويأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذى يتربص به الدوائر فى كل زمان ومكان، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب فى هذه السنة كعادته فى نفر قليل يقدر بمائة فارس، ولكنه عاد فردًّ من هذا العدد ستين فارسًا وذهب فى أربعين فقط، ويوجد فى الجبل الأخضر واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادى الجريب «بالتصغير» وهو صعب المسالك كثير الغابات، كان لابد من اجتيازه، فمر به عمر المختار ومن معه، وباتوا فيه ليلتين، وعلمت بهذا إيطاليا بواسطة جواسيسها فى كل مكان، فأمرت بتطويق الوادى على عجل من جميع الجهات بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة، فما شعر عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو(٢)، وقرر منازلة الأعداء وجهًا لوجه فإما أن يشق طريقًا يمكنه من النجاة وإما أن يلقى ربه شهيدًا فى الميدان الذى ألف فيه مصارعة الأعداء، والتحمت المعركة داخل الوادى، وحصد رصاص المجاهدين عددًا كبيرًا من الأعداء، وسقط الشهداء وأصيب عمر المختار بجراح فى يده،

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، (ص ٣٦٦).

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣١٣).

وأصيب فرسه بضربة قاتلة، وجاءت يده السليمة تحت الفرس فلم يتمكن من سحبها، ولم تسعفه يده الجريحة.

والتفت المجاهد ابن قويرش فرأى الموقف المحزن وصاح في إخوانه الذين شقوا الطريق للخروج من الحصار قائلاً: «الحاجة التي تنفع عقبت أي تخلفت»، فعادوا لتخليص قائدهم ولكن رصاص الطليان حصد أغلبهم، وكان ابن قويرش أول من قُتِلَ وهو يحاول إنقاذ الشيخ الجليل، وهجم جنود الطليان على الأسد الجريح دون أن يعرفوا شخصيته في البداية، وتم القبض عليه وتعرف عليه أحد الخونة، وجاء الكمندتور داود ياتشي متصرف درنة ليتعرف على الأسير وبمثل سرعة البرق نُقل عمر المختار إلى ميناء سوسة محاطًا بعدد كبير من الضباط والجنود الإيطاليين، وأخذت كافة الاحتياطات لحراسة جميع الطرق والمواقع القريبة لتأمين وصول المجاهد العظيم إلى سوسة، ومن ثم نقل فورًا إلى بنغازي عن طريق البحر[١].

يقول جراسياني في مذكراته، في صباح يوم (١١ سبتمبر ١٩٣١م) وصل الخبر برقيًا إلى الحكومة من متصرف الجبل هذا نصه: «بالقرب من (سلطنة) فرقة الفرسان (الصواري) قبضت على وطني وقع من على جواده أثناء المعركة وقد تعرف عليه عساكرنا بأنه عمر المختار، ونظرًا للخبر المهم ومن أجل التأكد والتحقق أمرت الحكومة متصرف الجبل الكومندتور (الوجيه داود ياتشي) فجهزت طائرة خاصة لنقله إلى (سلطنة) على الفور للتعرف على شخصية الأسير وتثبت هويته إن كان هو زعيم المجاهدين عمر المختار وتأكد متصرف الجبل من أنه عمر المختار، وسرى الخبر سريان البرق، وصدرت الأوامر بنقله إلى سلطنة ومنها إلى سوسة تحت حراسة شديدة حيث وصلها عند السابعة عشر من مساء نفس اليوم سبتمبر (١٩٣١م) دون أي عائق، أو حادث أثناء الطريق من سلطنة إلى سوسة مكث هناك في انتظار الطراد الحربي (أورسيني) الذي تحرك من بنغازي خصيصًا ليعود بالأسير إلى بنغازي، وفي أثناء الرحلة تحدث معه بعض السياسيين التابعين لإدراتنا ووجهوا إليه الأسئلة، فكان يجيب بكل هدوء وبصوت ثابت وقوي دون أي تأثر بالموقف الذي هو فيه وفي (يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١م) عند الساعة السابعة عشر وصل الطراد أورسيني إلى ميناء بنغازي حاملاً معه الأسير عمر المختار...»[٢].

وقال أيضًا: هذا الرجل أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر، واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام؛ لأنه الرأس المفكر والقلب النابض للثورة العربية «الإسلامية» في برقة، وذلك كان المنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة والآن وقع أسيرًا في أيدينا[٣].

(١) انظر: عمر المختار، للأشهب، (ص ١٤٦). (٢) انظر: برقة الهادئة (ص ٢٧٤).
(٣) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٦٦، ٢٦٧).

وهذا الاعتراف من جراسياني الخسيس في كتابه بأن عمر المختار قاد المعارك سنين طويلة واعترف بأنه محترم من أتباعه إلى مكانة عالية جداً، ثم بأنه الرأس المفكر والقلب النابض للجهاد الإسلامي المقدس في برقة، ثم الصبر والمهارة التي لا مثيل لها فهذا اعتراف من الجنرال غراسياني خريج الكليات الحربية والأكاديمية العسكرية وله تجارب طويلة في حرب الاحتلال إلى الحرب العالمية الأولى وحروبه الصحراوية حتى لقبه بنو قومه بلقب أسد الصحراء، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ويقول الجنرال غراسياني عن عمر المختار أيضًا:

«كان عمر المختار كرئيس عربي مؤمن بقضية وطنه وله تأثير كبير على أتباعه مثل الرؤساء الطرابلسيين يحاربون بكل صدق وإخلاص، أقول ذلك عن تجارب مرت بي أثناء الحروب الليبية، وكان عمر المختار من المجاهدين الكبار، لما له من مكانة مقدسة بين أتباعه ومحبيه، إن عمر المختار يختلف عن الآخرين فهو شيخ متدين بدون شك، قاس وشديد التعصب للدين، ورحيم عند المقدرة، ذنبه الوحيد أنه يكرهنا كثيراً، وفي بعض الأوقات يسلط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة مثل الجبليين، كان دائمًا مضاداً لنا ولسياستنا في كل الأحوال لا يلين أبداً، ولا يهادن إلا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخن أبداً مبادئه فهو دائم موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا، إن خيانة موقعة «قصر بندقين» ضيعت على عمر المختار كل الفرص التي يمكن للدولة الإيطالية أن ترحمه فيها»(١).

وقال غراسياني في مذكراته:

«أما وصف عمر المختار فهو معتدل الجسم عريض المنكبين شعر رأسه ولحيته وشواربه بيضاء ناصعة، يتمتع بذكاء حاضر وحاد، كان مثقفًا علميًا ودينيًا، وله طبعٌ مندفع، يتمتع بنزاهة خارقة لم يحسب للمادة أي حساب متصلب ومتعصب لدينه، وأخيراً كان فقيراً لا يملك شيئًا من حطام الدنيا إلا حبه لدينه ووطنه رغم أنه وصل إلى أعلى الدرجات حتى أصبح ممثلاً كبيراً للسنوسية كلها»(٢)، وهذا وصف دقيق يدل بوضوح على عظمة المختار وإمكاناته الذاتية التي وهبه الله فتقلد بسببها أكبر المناصب وخاض أكثر المعارك وصفه عدوه بصفات الورع والتدين ومثقف ثقافة دينية

(١) انظر: برقة الهادئة: (ص ٢٦٨).
(٢) انظر: برقة الهادئة: (ص ٢٧١).

وعلمية، وصفه بشدة المراس والصبر على الشدائد، وهكذا يا أخى المسلم الكريم يصنع الإسلام أتباعه.

ثالثاً: دخول المختار فى سجن بنغازى:

وعندما وصل الأسير إلى بنغازى لم يسمح لأى مراسل جريدة أو مجلة بنشر أخبار أو مقابلات وكان على الرصيف مئات من المشاهدين عند نزوله فى الميناء ولم يتمكن أى شخص مهما كان مركزه أن يقترب من الموكب المحاط بالجنود المدججين بالسلاح ونقل فوق سيارة السجن تصحبه قوة مسلحة بالمدافع الرشاشة حيث أودع فى زنزانة صغيرة خاصة منعزلة عن كافة السجناء السياسيين وتحت حراسة شديدة وجديدة ويقول مترجم كتاب «برقة الهادئة» الأستاذ إبرهيم سالم عامر: كنت من الذين أسعدهم الحظ على أن يتكلموا مع بطل الجهاد عمر المختار أثناء قيامه فى السجن فقد أوقفوا كل الأهالى المعتبرين فى مراكز الأمن والسجون وكان نصيبى فى سجن بنغازى المركزى وعندما أتى بعمر المختار غيروا الحراس المحليين بحراس إريتريين والموظفين بالإيطاليين من الحزب الفاشيستى، وبعد أن أودعوه فى الزنزانة كان هناك سرير من خشب وقماش وعلى الأرض قطعة من السجاد البالى لأجل وضع الرجلين عليه فسحبها الشهيد بقرب الجدران وجلس عليها واستند على الجدران ومد رجليه إلى الإمام، وعندما كان مدير السجن يتجول على زنزانات السجناء رأى الشهيد جالسًا على الأرض ولم يستطع أن يسأله لماذا هو جالس على الأرض، لأن المدير لايعرف العربية فنادانى من بين السجناء السياسيين وطلب منى أن أترجم سؤاله فسألت الشهيد، فأجاب بصوت هادر كالأسد الهصور: قل له أنا أعرف أين أجلس لايحمل هما فهذا ليس من شأنه، فترجمت الكلام فانصعق المدير واصفر وجهه وقال: هيا ارجع إلى مكانك بلهجة الآمر غير أن قلبى كاد يطير من صدرى فرحًا عندما سمعت هذه الإجابة القاطعة. رحم الله عمر المختار كما كان عظيمًا وهو قائم وأعظم وهو أسير(١).

ويقول جراسيانى الجنرال الإيطالى السفاك الجلاد:

«وأثناء الرحلة من سوسة إلى بنغازى أعطى لنا معلومات هامة عن كيفية سقوطه فى الأسر والقبض عليه قائلاً: عندما ضرب جواده وسقط على الأرض فجرحت يده اليمنى مما سببت له بعض التشقق فى عظام ذراعه ورغم هذا الألم حاول جر نفسه ليبتعد ويختفى فى أحد الشجرات التى فى الغابة، ولكن فرقة الفرسان حالت بينه وبين غرضه، وقد تعرف عليه أحد

(١) انظر: برقة الهادئة (ص ٢٧٤، ٢٧٥).

الصوارى من فرقة الفرسان وسرعان ما أحاطت به قوتنا، وقد تأسف كثيرًا أثناء حديثه بأن رفاقه حاولوا إنقاذه بكل وسيلة، وقد ضاع منهم بعض الرفاق ولكن الكثرة حالت دون بغيتهم كذلك قلة الذخيرة لها عاملها الأصلى فى عدم إنقاذى وأثبت كذلك أن وقوعه فى الأسر لايعنى توقف الثورة والجهاد، بل هناك أربعة من القادة يحلون محلى: وهم الشيخ حمد بوموسى، عثمان الشامى، وعبد الحميد العبار، ويوسف بورحيل المسمارى، وهذا الأخير هو أقربهم إليه لأنه كان دائمًا بجانبه، ولقد بالغ كثيرًا بالنسبة لعدد الجنود فقد قال: إن دوره يتكون من (٥٠٠ مقاتل عادى، ٤٠٠ فارس)، واستطرد قائلاً شارحًا إن وقوعه فى الأسر لايؤثر ولا يغير سير القتال أو وضع الدور، بل سيزداد قساوة، ثم أضاف: إنى أحارب الإيطاليين الفاشيستيين لا لأنى أكره الشعب الإيطالى، ولكن دينى أمرنى بالجهاد فيكم لأنكم أعداء الوطن(١).

قلت: ما أعلم أحدًا من المسلمين الصادقين يجد فى نفسه ودًا للنصارى على العموم، فكيف بالذين يقولون الله ثالث ثلاثة، ويقولون عيسى ابن الله، لكن قول غراسيانى أن عمر المختار لايبغض الشعب الإيطالى فهذا ادعاء منه، وأما قول عمر المختار دينى أمرنى بقتالكم فهذا الذى يليق بحاله وبغض المسلم للنصارى الكفرة يتدينون بها لخالقهم ورازقهم، ومالكهم ومتولى أمورهم سبحانه وتعالى عمًا يقولون علوًا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

فالآيات السابقة الواضحة البينة تمنع العالم الربانى والشيخ الجليل أن يقول بأنه لا يُبغض أعداء الله حماة الصليب.

واستطرد غراسيانى فى كتابه «برقة الهادئة» قال: «لقد قال عمر المختار كلمات تاريخية: إن وقوعى فى الأسر تأكيد بأمر الله وسابق فى علمه سبحانه وتعالى، والآن أنا بين يدى

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٧٦).

الحكومة الإيطالية الفاشيستية وأصبحت أسيرًا عندها والله يفعل بى ما يشاء، أخذتمونى أسيرًا ولكم القدرة أن تفعلوا بى ما تشاءون، والذى أريد أن أقول بكل تأكيد لم أفكر فى يوم من الأيام أن أسلم نفسى لكم مهما كان الضغط شديدًا، ولكن مشيئة الله أرادت هذا فلا راد لقضاء الله»(١).

وهذه بعينها عقيدة القضاء والقدر هى من أركان الإيمان التى جاء بها الإسلام، وقد تجسدت فى حياة عمر المختار فهذه الآيات الكريمة تبين ما وقع للإنسان قد كتب فعليه ألا يحزن ولا ييأس لأن الأمور بقضائه وقدره.

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وقد تربى المختار رحمه الله تعالى على الآيات القرآنية وأحاديث المصطفى ﷺ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (٢).

وهذه العقيدة الصحيحة كانت مستقرة فى قلب الشيخ الجليل رحمه الله، وتحولت إلى عمل فى حياته جسدته مواقف عقيدية ومشاهد بطولية ولا نكون مخطئين إن قلنا كانت مواقفه وسيرته العطرة تدل على أنه رجل عقيدة.

رابعًا: من مواقف العزة داخل السجن:

أراد الكمندتور رينسى «السكرتير العام لحكومة برقة» فى أمسية الرابع عشر من سبتمبر أن يقحم الشارف الغريانى فى موقف حرج مع عمر المختار وهو فى السجن وأبلغ الشارف الغريانى بأن المختار طلب مقابلتك والحكومة الإيطالية لاترى مانعًا من تلبية طلبه، وذهب الشارف الغريانى إلى السجن لمقابلة الشيخ الجليل وعندما التقيا خيم السكوت الرهيب ولم يتكلم المختار فقال الشارف الغريانى هذا المثل الشعبى مخاطبًا به السيد عمر «الحاصلة سقيمة والصقر ما يتخبل» وما كاد المختار

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٧٦).
(٢) انظر: أصول أهل السنّة والجماعة، اللالكائى، (جـ٢/ ص ١٠٩٥).

يسمع المثل المذكور حتى رفع رأسه ونظر بحدة إلى الشارف الغرياني وقال له: الحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه وسكت هنيهة ثم أردف قائلاً: رب هب لى من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، إننى لم أكن فى حاجة إلى وعظ أو تلقين إننى أؤمن بالقضاء والقدر، وأعرف فضائل الصبر والتسليم لإرادة الله، إننى متعب من الجلوس هنا فقل لى ماذا تريد؟، وهنا أيقن الشارف الغرياني بأنه غرر به فزاد تأثره وقال للمختار: ما وددت أن أراك هكذا، ولقد أرغمت نفسى للمجئ بناء على طلبك.. فقال الشيخ الجليل والجبل الشامخ: أنا لم أطلبك ولن أطلبك أبدًا، ولا حاجة لى عند أحد، ووقف دون أن ينتظر جوابًا من الشارف الغرياني، وعاد الأخير إلى منزله وهو مهموم حزين، وقد صرّح بأنه شعر فى ذلك اليوم بشىء ثقيل فى نفسه ما شعر به طيلة حياته، ولما سئل الشارف الغرياني عن نوع الثياب التى كان يرتديها عمر المختار أهى ثياب السجن أم ثيابه التى وقع بها فى الأسر، كان جوابه هو البيتان الآتيان مستشهدًا بهما:

عليه ثياب لو تقاس جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

خامسا: عمر المختار أمام غراسياني السفاح:

أراد المولى عز وجل لحكمة يريدها أن يقف البطل الأشم والطود الشامخ الذى حير إيطاليا الكافرة النصرانية الكاثوليكية، وأشاع الرعب فى قلوب جيوشها، أمام الرجل التافه الحقير المدعو غراسيانى هذا حقير النفسية، وضيع الأخلاق، من أولئك الذين يرتفعون فى كل عهد، ويأكلون على كل مائدة وكان من قادة الجيش الإيطالى، فلما جاء موسولينى ذلك البطل الأجوف، وادّعى الزعامة على إيطاليا وحشر نفسه حشرًا فى صفوف الزعامات العالمية، كان غراسيانى أول من صفق وقرع الطبول للزعامة الجديدة، وصار فاشيستيًا أكثر من الفاشيستيين أنفسهم، أمام هذا الرجل الحقير الذليل الخسيس التافه وقف البطل الأشم والطود الشامخ، فإن النفوس الحقيرة الوضيعة، لاتعرف الشرف، ولا الرجولة ولا الكرامة ولا الأخلاق، إذا خاصمت فما يكاد عدوها يقع فى يدها حتى تفعل به الأفاعيل، وتصنع به أصنافًا وألوانًا من العذاب!، يدفعها إلى ذلك شدة إحساسها، بحقدها وعظمة عدوها، وشدة شعورها بنقصها وكمال أسيرها[1].

ومن أجل ذلك دفعت الشماتة هذا الرجل الحقير أن يقطع رحلته إلى باريس وأن يعود فورًا إلى بنغازى، وأن يدعو المحكمة الطائرة إلى الانعقاد ودفعت غريزة الشماتة غراسيانى أن يستدعى البطل فى صبيحة اليوم نفسه، وقبل المحاكمة بقليل[2].

(١) انظر: عمر المختار لمحمود شلبى بتصرف، (ص١٤٢).
(٢) انظر: عمر المختار لمحمود شلبى بتصرف، (ص١٤٢).

يقول غراسياني في مذكراته: «وعندما حضر أمام مدخل مكتبي تهيأ لي أني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية يداه مكبلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، كان وجهه مضغوطًا لأنه كان مغطيًا رأسه «بالجراد» ويجر نفسه بصعوبة نظرًا لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال، منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوت هادئ، وواضح وكان ترجماني المخلص النقيب «كابتن» خليفة خالد الغرياني الذي أحضرته معي خصيصًا من طرابلس، ووجهت له أول سؤال: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة الفاشيستية؟[(١)].

[جـ] لأن ديني يأمرني بذلك[(٢)].

[س] هل كنت تأمل في يوم من الأيام أن تطردنا من برقة بإمكاناتك الضئيلة وعددك القليل؟

[جـ] لا، هذا كان مستحيلاً.

[س] إذًا ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

[جـ] لا شيء إلا طردكم من بلادي لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهو فرض علينا، وما النصر إلا من عند الله.

[س] لكن كتابك يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، بمعنى: لا تجلبوا الضرر لأنفسكم ولا لغيركم من الناس، القرآن يقول هذا.

[جـ] نعم.

[س] إذًا لماذا تحارب؟

[جـ] كما قلت من أجل وطني وديني[(٣)].

قال غراسياني: فما كان مني إلا أن قلت له: أنت تحارب من أجل السنوسية تلك المنظمة التي كانت السبب في تدمير الشعب والبلاد على السواء وفي الوقت نفسه كانت المنظمة تستغل أموال الناس بدون حق، هذا هو الحافز الذي جعلك تحاربنا لا الدين والوطن كما قلت.

---

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٧٩).
(٢) انظر: عمر المختار، (ص١٤٣).
(٣) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٨٠).

عمر المختار: نظر إليّ نظرة حادة كالوحش المفترس: لست على حق فيما تقول ولك أن تظن ما ظننت، ولكن الحقيقة الساطعة التي لا غبار عليها أنني أحاربكم من أجل ديني ووطني لا كما قلت، ظهر وجهه بعد أن زال الجراد من على رأسه، واستطردت في توجيه الأسئلة إليه:

[س] لماذا قطعت المهادنة السارية وأمرت بالهجوم على «قصر بندقين»؟.

[جـ] لأنه منذ شهر أرسلت إلى المارشال «بادوليو» ولم يجبني عنها وبقيت بدون رد حتى الآن.

يقول الجنرال: لا، أنت أردت قطع المهادنة لحاجة في نفسك وهاك الدليل وقرأت له البيان الذي نشره فوق الجرائد المصرية بتوقيعه؟، ولم يرد في بادئ الأمر وحنى رأسه مفكرًا ثم قال عمر المختار: نعم نشرت البيان في مصر بتوقيعي ولكن ليس هذا هو الدليل وإنما هو عدم تجاوبكم معنا في تنفيذ شروط الهدنة، ولم يزد شيئًا بل حنى رأسه إعياء.

[س] هل أمرت بقتل الطيارين هوبر وبياتي؟

[جـ] نعم، كل الأخطاء والتهم في الواقع هي مسئولية الرئيس، والحرب هي الحرب.

الجنرال: قلت له هذا صحيح لو كانت حربًا حقيقية لا قتل وسلب مثل حروبك.

عمر المختار: هذا رأي فيه إعادة نظر، وأنت الذي تقول هذا الكلام، ولا زلت أكرر لك الحرب هي الحرب.

الجنرال: بموقفك في موقعة «قصر بندقين» ضيعت كل أمل وكل حق في الحصول على رحمة وعفو الحكومة الإيطالية الفاشيستية.

عمر المختار: مكتوب «كلمة لتفسير معنى القضاء والقدر في العقيدة الإسلامية»، وعلى كل عندما وقع جوادي وألقي القبض عليّ كانت معي ست طلقات وكان في استطاعتي أن أدافع عن نفسي وأقتل كل من يقترب مني، حتى الذي قبض عليّ وهو أحد الجنود من فرقة الصواري المتطوعين معكم، وكان في إمكان كذلك أن أقتل نفسي.

الجنرال: ولماذا لم تفعل؟

عمر المختار: لأنه كان مقدرًا أن يكون.

الجنرال: ولكن قد تحقق فيما بعد إلقاء القبض عليه، كانت بندقيته فوق ظهره وبسقوطه على الأرض لم يستطع نزعها، وبالتالي لم يتمكن من استعمالها بسرعة وكذلك من أثر الجروح والكسر الذي بيده اليمنى وهذا في الحقيقة جدير بالاعتبار والتقدير[١].

(١) انظر: برقة الهادئة (ص٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢).

وهذا اعتراف من السفاح إبان تجبره وطغيانه ونشوة انتصاره يعترف بقوة عمر المختار ويقدر فيه بطولته وجهاده التي لم يُرَ لهما مثيل.

عمر المختار: كما ترى أنا طاعن في السن على الأقل اتركني بأن أجلس.

الجنرال: أشرت له فجلس على كرسيه أمام مكتبي وفي هذه الأثناء ظهر لي بوجهه بوضوح وقد زالت رهبة الموقف وقد تأملته جانبيًا فرأيت بعض الاحمرار في وجهه وبدأت أفكر كيف كان يحكم ويقود المعارك؟ ، وبينما هو يتكلم كانت نظراته ثابتة إلى الأمام وصوته نابع من أعماقه ويخرج من بين شفتيه بكلمات ثابتة وبكل هدوء، وفكرت ثانية هذا هو القديس، لأن كلامه عن الدين والجهاد يدل بكل تأكيد أنه مؤمن صادق يتكلم عن الدين بكل حماس وتأثير، ثم قلت له فجأة: بما لك من نفوذ وجاه كم يوم يمكنك أن تأمر العصاة «يعني المجاهدين» بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتنا وينهوا الحرب.

عمر المختار مجيبًا: أبدًا كأسير لايمكنني أن أعمل أي شيء واستطرد قائلاً: وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الآخر ولا نسلم أو نلقي السلاح، وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت هذا على ما أظن حقيقي وثابت عندكم.

الجنرال: قلت له وأنا متماسك يمكن ذلك لو تم تعارفنا في وقت سابق والخبرة طويلة التي أخذتها عليكم، لكان علينا أن نصل إلى أحسن حال في سبيل تهدئة البلاد وازدهارها.

عمر المختار: رفع حاجبيه بكل عمق، وبصوت جهوري، وثابت قال: ولم لا يكون اليوم هو ذلك اليوم الذي تقول عنه.

الجنرال: فأجبته: لقد فات الأوان.

وعند هذا الحد رأيت أن نوقف المحادثة فيما بيننا ربما عمر المختار فكر في تلك اللحظة أن الحكومة الإيطالية ستبعثه إلى الجبل من أجل أن يسلّم أتباعه السلاح ويخضعوا إلى سلطتنا ولكن لا: لقد قالها منذ لحظات بأنهم يموتون جميعًا ولن يستسلموا، وعليه لقد فات الأوان وقالها بنفسه، لا فائدة من المحاولة إن الأمل الذي لاح منذ قليل قد انهار ولم يعد، ثم قلت له: هل تعرف هذه؟ وعرضت عليه نظارته في إطارها الفضي.

عمر المختار: نعم إنها لي، وقد وقعت مني أثناء إحدى المعارك وهي معركة «وادي السانية».

الجنرال: فأجبته: منذ ذلك اليوم اقتنعت بأنك ستقع أسيرًا بين يدي.

عمر المختار :مكتوب : هل ترجعها لى لأنى لم أعد أبصر جيدًا بدونها .

واستطرد يقول : ولكن ما الفائدة منها الآن هى وصاحبها بين يديك؟

الجنرال:قلت له : مرة أخرى أنت تعتبر نفسك محميًا من الله تحارب من أجل قضية مقدسة وعادلة؟

عمر المختار :نعم وليس هناك أى شك فى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾[التوبة : ٥١] .

إذًا استمع إلى ما أقول لك ، أمام قواتى المسلحة من نالوت إلى الجبل الأخضر فى برقة كل مشايخ ورؤساء العصاة «يعنى رؤساء المجاهدين» منهم من هرب ، ومنهم من قُتل فى ميدان القتال ، ولم يقع منهم أى أحد حيًّا فى يدى أليس من العجيب أن يقع أسيرًا بين يدى حيا من كان يعتبر أسطورة الزمن الذى لم يغلب أبدًا المحمى من الله دون سواه؟

عمر المختار : تلك مشيئة الله . . قالها بصوت يدل على قوة وعزم .

الجنرال: قلت له : الحياة وتجاربها تجعلنى أعتقد وأؤمن بأنك كنت دائمًا قويًا ولهذا فإنى أتمنى أن تكون كذلك مهما يحدث لك ومهما تكن الظروف .

وعندما وقف ليتهيأ للانصراف ، كان جبينه وضاء كأن هالة من نور تحيط به فارتعش قلبى من جلال الموقف ، أنا الذى خاض المعارك والحروب العالمية ، والصحراوية ، ولقبت بأسد الصحراء ، ورغم هذا فقد كانت شفتاى ترتعشان ولم أستطع أن أنبس بحرف واحد فانتهت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه للمحاكمة فى المساء ، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتى ولكنه لم يتمكن ، لأن يديه كانت مكبلة بالحديد .

لقد خرج من مكتبى كما دخل علىّ وأنا أنظر إليه بكل إعجاب وتقدير(١) .

سادسًا: محاكمة عمر المختار - رحمه الله -:

فى الساعة الخامسة مساءً فى (١٥ سبتمبر ١٩٣١م) جرت تلك المحاكمة التى أعد لها الطليان مكان بناء «برلمان برقة» القديم وكانت محاكمة صورية شكلاً وموضوعًا .

ودليل ذلك أن الطليان - قبحهم الله - كانوا قبل بدء المحاكمة بيوم واحد قد أعدوا «المشنقة» وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره ، وإنك لتلمس ذلك فى نهاية الحديث الذى

(١) انظر : برقة الهادئة ، (ص٢٨٥) .

دار بين البطل وبين غراسيانى حيث قال: «إنى لأرجو أن تظل شجاعًا مهما حدث لك أو نزل بك».

وإنها لكلمات تفوح بالخبث والدناءة والشماتة، ومعناها إنك يا مختار سوف تعدم شنقًا، فلا تجبن أمام المشنقة ولا شك عندى لو كان غراسيانى فى موقف شيخنا لمات من الجبن قبل أن يُساق للمشنقة، ولكن شيخنا الجليل وأستاذنا الكريم وقائد الجهاد يزداد سمواً بعد سمو، ثم يقول: «إن شاء الله».

ويصف الدكتور العنيزى ذلك فيقول: «جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد، وحوله الحرس من كل جانب.. وكان مكانى فى القاعة بجوار السيد عمر، وأحضر الطليان أحد التراجمة الرسميين واسمه نصرت هرمس «فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد، بلغ التأثر بالترجمان، حداً جعله لايستطيع إخفاء تأثره وظهر عليه الارتباك، وهم لبروزو، من بين الحاضرين فى الجلسة «وقام لبروز بدور المترجم»، وكان السيد عمر رحمه الله جريئًا صريحًا، يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصًا حادث الطيارين الإيطاليين هوبر وبياتى[(١)].

وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعى العام بيدندو فطلب الحكم على السيد بالإعدام.

وعندما جاء دور المحامى المعهود إليه الدفاع عن السيد عمر وكان ضابطًا إيطاليًا يدعى الكابتن أونتانو، وقف وقال: كجندى لا أتردد البتة إذا وقعت عيناى على عمر المختار فى ميدان القتال، فى إطلاق الرصاص عليه وقتله، وأفعل ذلك كإيطالى أمقته وأكرهه، ولكننى وقد كلفت الدفاع عنه فإنى أطلب حكمًا هو فى نظرى أشد هولاً من الإعدام نفسه، وأقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظرًا لكبر سنه وشيخوخته.

وعندئذ تدخل المدعى العمومى، وقطع الحديث على المحامى وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستندًا فى طلبه هذا إلى أن الدفاع خرج عن الموضوع، وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيخوخته ووافقت المحكمة[(٢)]، أمر القاضى المحامى بأن لايخرج عن الموضوع ويتكلم بإيجاز، وهنا تكلم المحامى بحدة وقال: إن عمر المختار الذى هو أمامكم وليد هذه الأرض قبل وجودكم فيها ويعتبر كل من احتلها عنوة عدواً له، ومن حقه أن يقاومه بكل ما يملك من قوة حتى يخرجه منها أو يهلك دونها هذا حق أعطته له الطبيعة

(١) انظر: حياة عمر المختار، (١٥٣، ١٥٤، ١٥٥).
(٢) انظر: حياة عمر المختار، (ص ١٥٥).

والإنسانية، وهنا كثر الصياح من الحاضرين بإخراج المحامى وإصدار الحكم على المتهم الذى طالب به المدعى العام، ولكن المحامى استمر قائلاً العدالة الحقة لاتخضع لأى سلطان ولا لأية غوغاء، وإنما يجب أن تنبع من ضميرنا وإنسانيتنا وهنا قامت الفوضى خارج المحكمة، وقام المدعى العام محتجًا على المحامى، ولكن المحامى استمر فى دفاعه غير مبال بكل هذا بل حذر القاضى أن يحكم ضميره قائلاً: إن هذا المتهم عمر المختار الذى انتدبت من سوء حظى أن أدافع عنه شيخ هرم حنت كاهله السنون، وماذا بقى له من العمر بعدما أتم السبعين سنة؟! وإنى أطلب من عدالة المحكمة أن تكون رحيمة أن «تخفف» العقوبة عنه؛ لأنه صاحب حق ولايضر العدالة إذا أنصفته بحكم أخف، وإننى أحذر عدالة محكمتكم حكم التاريخ؛ لأنه لايرحم فهو عجلة تدور تسجل كل مايحدث فى هذا العالم المضطرب وهنا كثر الضجيج فى الخارج ضد المحامى ودفاعه.

ولكن المحامى استمر فى دفاعه قائلاً: سيدى القاضى حضرات المستشارين، لقد حذرت المحكمة من مغبة العالم الإنسانى، والتاريخ وليس لدى ما أضيفه إلا طلب تخفيف الحكم على هذا الرجل صاحب الحق من الذود عن أرضه ودينه وشكرًا».

وعندما قام المدعى العام لمواصلة احتجاجه قاطعه القاضى برفع الجلسة للمداولة وبعد مضى فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضى والمستشاران والمدعى العام بينما المحامى لم يحضر لتلاوة حكم القاضى بإعدام عمر المختار شنقًا حتى الموت وعندما ترجم الحكم إلى عمر المختار قهقه بكل شجاعة قائلاً: «الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف، إنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ما قاله السيد عمر، فسأل الترجمان أن ينقل إليه عباراته، ففعل وعندئذ بدا التأثير العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحكمة الصورية وأظهروا إعجابهم لشجاعة شيخ المجاهدين بليبيا الحبيبة وبسالته فى آن واحد.

وأما المحكمة فقد استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب، من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السادسة والربع، وكذلك قضت إرادة الله تعالى أن يتحكم الطليان فى مصير البطل، لتتم الإرادة الإلهية وتمضى الحكمة الربانية(٢).

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

---

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٨٦، ٢٨٧). (٢) انظر: حياة عمر المختار، (ص ١٥٦، ١٥٧).

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

سابعًا: إعدام شيخ الجهاد في بلادنا الحبيبة:

وفي (يوم ١٦ سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة ١٩٣١م) عند الساعة التاسعة صباحًا نفذ الطليان في «سلوق» جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقًا في شيخ الجهاد وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير.

ودفعت الخسة بالإيطاليين أن يفعلوا عجبًا في تاريخ الشعوب، وذلك أنهم حرصوا على أن يجمعوا حشدًا عظيمًا لمشاهدة التنفيذ فأرغموا أعيان بنغازي، وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ فحضر ما لايقل عن عشرين ألف نسمة، على حد قول غراسياني في كتاب «برقة الهادئة»(١).

ويقول الدكتور العنيزي: «لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات الاعتقال والنازلين في بنغازي على حضور المحاكمة، وحضور التنفيذ وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على المحاكمة، ولكني وقد استبد بي الحزن شأني في ذلك شأن سائر أبناء بلدتي، لم أكن أستطيع رؤية البطل المجاهد على حبل المشنقة فمرضت، ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشئوم، إلا عندما تيقنوا من مرضي وعجزي عن الحضور.

ويا لها من ساعة رهيبة تلك التي سار المختار فيها بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظل المختار يردد الشهادتين: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

لقد كان الشيخ الجليل يتهلل وجهه استبشارًا بالشهادة وارتياحًا لقضاء الله وقدره، وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض، وبصوت مدو لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار إذ ربما يتحدث إليهم أو يقول كلامًا يسمعونه، وصعد حبل المشنقة في ثبات وهدوء.

وهناك أعمل فيه الجلاد حبل المظالم فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، هذا وكان الجميع من أولئك الذين جاءوا يساقون إلى هذا المشهد الرهيب ينظرون إلى السيد عمر وهو يسير إلى المشنقة بخطى ثابتة، وكانت يداه مكبلتين بالحديد وعلى ثغره ابتسامة راضية، تلك

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص ٢٨٨).

الابتسامة التي كانت بمثابة التحية الأخيرة لأبناء وطنه، وقد سمعه بعض المقربين منه ومنهم ليبيون أنه صعد سلالم المشنقة وهو يؤذن بصوت هادئ أذان الصلاة وكان أحد الموظفين الليبيين من أقرب الحاضرين إليه، فسمعه عندما وضع الجلاد حبل المشنقة في عنقه يقول: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧) ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

لقد استجاب الله دعاء الشيخ الجليل وجعل موته في سبيل عقيدته، ودينه ووطنه، لقد كان يقول: «اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة»[1].

ولقد رثاه الشعراء وتكلم في تأبينه الأدباء والكتاب، ولو تتبعنا ذلك لوجدناها أكثر من مجلد[2].

ونختم استشهاد عمر المختار- رحمه الله- بقول الله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين (١٤٥) وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٥، ١٤٦].

ومن سيرة عمر المختار العطرة نستخلص دروسًا وعبرًا تفيدنا كثيرًا في حياتنا المعاصرة؛ ليس عمر المختار -رحمه الله- أول من جاهد ولا أول من استشهد ولكن حاله كما قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ومفتاح شخصيته الفذة أنه آمن بالله واستقرت معانيه في قلبه فأصبح لا يخشى إلا الله، وهذا الصنف من المسلمين هو أقوى ما عرفته البشرية وهو الإنسان الحر في أعلى معاني الحرية.

جرد قلبه من الأوهام ومن الشركيات والضلال، ومن الشبهات والشهوات، وخلص قلبه من كل ظلمة تحيل بينه وبين دخول التوحيد الصحيح إليه، كان كثير المراقبة لله، ومن هنا كان شديد الخوف من الله، يعلم أنه شديد العقاب، وخوفه من الله جعله أهلا لتوفيق الله، ولذلك كان راسخًا كالجبل الأشم[3].

فالفريد في سيرته، أنه أحيا شيئًا كاد يندثر، أحيا معاني الإيمان التي كان الناس قد بدأوا ينصرفون عنها. إنه بنيان أسس على التقوى فعاش مباركًا في حياته وفي مماته.

(١) انظر: عمر المختار للأشهب (ص١٥٩، ١٦٠).
(٢) انظر: إبراهيم سالم بن عامر، مترجم برقة الهادئة (ص٢٨٩).
(٣)) انظر: حياة عمر المختار (ص١٩٠).

والعبرة الثانية: أنه كان داعيًا إلى الله بإذنه، تربى على أيدى دعاة السنوسية فلما اكتمل وترعرع أدى الرسالة وبلغ الأمانة وأنذر وبشر، وخيركم من تعلم القرآن وعلمه.

والعبرة الأخرى: أنه كان على فهم صحيح لدينه، يأخذه كلا لا يتجزأ، فلا هو بالتدين المنحرف، ولا هو بالتدين البعيد عن جوهر الدين، وإنما هو رجل مؤمن يعلم أن الإسلام لا يصح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، وإنما عليه أن يعمل به كله، وكان فى حرارة الشباب وحيويتهم رغم شيخوخته، وتلك طبيعة المقاتلين فى سبيل الله الذين يخشون الله ولا يخشون أحدًا غيره.

والعبرة الأخرى: إنه لم يسع للشهرة، لأن المخلصين لا يبحثون عن الشهرة وإنما يبحثون عن رضى الله سبحانه وتعالى[(١)]، ولذلك جعل الله له ذكرًا فى الدنيا ونسأل الله أن يتغمده برحمته فى الآخرة.

إن أعداءه الأوروبيين أعجبتهم سيرته البطولية والكفاحية والجهادية فهذه صحيفة التايمز البريطانية فى مقال نشرته فى (١٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م) تحت عنوان: [نصر إيطالى]: «حقق الإيطاليون انتصارًا خطيرًا ونجاحًا حاسمًا فى حملتهم على المتمردين السنوسيين فى برقة، فلقد أسروا وأعدموا الرجل الرهيب عمر المختار شيخ القبيلة العنيف الضارى...» ثم تستمر الصحيفة حتى تقول: «ومن المحتمل جدًا أن مصيره سيشل مقاومة بقية الثوار، والمختار الذى لم يقبل أى منحة مالية من إيطاليا، وأنفق كل ما عنده فى سبيل الجهاد وعاش على ما كان يقدمه له أتباعه، واعتبر الاتفاقيات مع الكفار مجرد قصاصات ورق، كان محل إعجاب لحماسته وإخلاصه الدينى، إنه كان مرموقًا لشجاعته[(٢)].

وقد وصفه أحد الإيطاليين قائلا:

«كان عمر المختار مخلصًا وذكيًا، وكان عقل الثورة وقلبها ببرقة».

وقال آخر: كان إنجازه رائعًا، فقد حارب إيطاليا الفاشستية تسع سنوات فى حرب فدائية لم تكن ضعيفة فى ذاتها، وكان التحدى والتضحية والاستشهاد بالنفس عند عمر المختار وأتباعه شيئًا نبيلا[(٣)]. لقد كانت حياة عمر المختار شيخ المجاهدين فى الجبل الأخضر بليبيا مكرسة كلها للعلم والدعوة وتربية الناس على الإسلام والجهاد فى سبيل الله، وكان من رواد الحركة السنوسية فقضى حياته حين نادى منادى الجهاد معتليًا صهوة جواده ممسكًا سلاحه، لم يهادن ولم يستسلم بل قارع

(١) انظر: حياة عمر المختار (ص ١٩٣، ١٩٤).
(٢) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثانى (١٤٠٩هـ)، (ص٨٢).
(٣) انظر: جون رايت، تاريخ ليبيا، (ص١٥٨).

أعداء دينه مقارعة الند للند رغم قلة الإمكانات، ورغم عدم التكافؤ فى العدد والعدة ولكنه استعلاء الإيمان وقوة اليقين، اللذين زاداه صلابة وعمقًا فى ميادين الجهاد وساحات المعارك، إن جهاد عمر المختار رحمه الله سيظل معلمًا بارزًا فى تاريخ ليبيا خاصة، وتاريخ الأمة الإسلامية عامة، وسيظل دليلا على أن الإسلام صنع ولا يزال، نماذج عظيمة من البطولات على مر العصور، وعلى أن العطاء الحقيقى إنما هو عطاء الإيمان(١).

إن الشيخ الجليل عمر المختار -رحمه الله- مدرسة تستحق الدراسة والبحث فى جوانب متعددة فى شخصيته العلمية والدعوية والتربوية والجهادية ويعلم الله ما أعطيت الشيخ حقه ولا حتى بعض حقه، وأحس إحساسًا عميقًا صادقًا فى قرارة نفسى، أنه أعظم مما كتبت، وأجل مما توهمت، وأفضل مما عايشت من سيرة أبطال الجهاد فى ليبيا الحبيبة، فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان، وعلى إخوانه الميامين الكرام، ونفعنا الله بسيرته الزكية العطرة النقية.

وهكذا يا أخى الكريم يصنع الإسلام من أتباعه فى ميادين النزال وساحات القتال، وكذلك عند الوقوف أمام الطغاة والجلادين الظلمة؛ لأن العقيدة تحركه ورعاية الله تحفه وإن هذه الوقفات الخالدة من سيرة شيخ الجهاد فى ليبيا لحرى بنا أن نكتبها بحروف من ذهب ونعلمها للأجيال، ونربى عليها الأشبال لغد مشرق مجيد، قد بدأت بوادره تلوح فى عنان السماء ومظاهرها متجسدة فى رجوع شعوب المسلمين لدينها مع ما يحف هذا الرجوع من مخاطر عديدة من قبل اليهود والنصارى الملاحدة والحكام الظلمة، وأنى لهم أن يطفئوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

فما علينا إلا أن نستعين بالله فى تحقيق وتطبيق دينه على نفوسنا وأسرنا ومن حولنا، ثم على الناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

(١) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر (ص٨٢، ٨٣).

تاسعًا: آخر وثيقة من أحمد الشريف وصلت للمجاهدين في ليبيا:

وكانت آخر وثيقة أرسلها أحمد الشريف ردًا على رسالة المجاهد الكبير يوسف بو رحيل الذى تولى الأمر مؤقتًا بعد استشهاد عمر المختار -رحمه الله تعالى- وقد أعلم فى رسالته أحمد الشريف باستشهاد عمر المختار، وطلب منه أن يعين من يقوم بهذا الدور العظيم.

نص الرسالة التى بعث بها أحمد الشريف -رحمه الله-:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من عبد ربه سبحانه، خادم الإسلام، أحمد الشريف السنوسى.

إلى حضرة الفاضل المحترم والجليل المفخم، المجاهد الصادق، واللبيب الحاذق قائم مقام دور العواقير، ولدنا الشيخ عبد الحميد العبار، وكافة أولادنا العواقير، حفظهم الله ورعاهم وحرسهم وحماهم آمين آمين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وتحياته ورضوانه وعميم فضله وإحسانه، وبعد، فالمرجو من الله تعالى أن تكونوا جميعًا على أيسر الأحوال محفوظين بالله ومنصورين به، وإننا لن نغفل عنكم وقتًا من الأوقات من الدعاء، لكن عند بيت الله الحرام، وفى حضرة مولانا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعلى الله القبول، إنه أكرم مسئول، وخير مأمول، هذا وقد بلغنا ما أزعجنا وكدرنا غاية الكدر، وهو استشهاد حضرة النائب العام سيدى عمر المختار، رحمه الله ورضى الله عنه، وجعل جنة الفردوس مسكنه ومحله، وجزاه الله عنا وعن الإسلام أحسن الجزاء، فإنه كان عاملا صادقًا ناصحًا، وإننا لم نتكدر على نيله للشهادة بل نحمد الله على ذلك، ولا نقول إنه مات، بل إنه حى لقول الله: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾ [البقرة: ١٥٤]، وإنما كدرنا فقدانه من بينكم وغيابه عنكم، ولكن هذا أمر الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يمكننا إلا تسليمنا لله ورجوعنا إليه، ولا نقول إلا ما يقول الصابرون، إنا لله وإنا إليه راجعون، نعم استشهد سيدى عمر المختار ولكنه أبقى العمل الطيب والذكر الحسن إلى يوم القيامة، فهذا ليس بميت ولن يموت أبدًا ما دامت الدنيا، إنه شهيد، والشهيد ليس بميت لقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، فالله يا أولادى فى التمسك، وإياكم واليأس، وإياكم والقنوط، وإياكم

وأقاويل الناس الفاسدة، فجدوا واجتهدوا كما كنتم، واجعلوا أعمالكم لله، لأنه لنا ولا لغيرنا لأن من قاتل لله، فالله حي باق، ومن قاتل لغير الله فعمله لا يفيده شيئًا، واعلموا أن الله معكم، ولن يتركم أعمالكم، فاصبروا وصابروا واعلموا أن العاقبة للمتقين، وأن الله مخزى الكافرين، وما ترونه من الأهوال، فإنه والله ثم والله زائل عن قريب وسترون ما يسركم دنيا وأخرى، ففى الدنيا سترون بحول الله العز والنصر والفتح الذى لا يخطر لكم على بال، وفى الآخرة رضاء الله ورسوله والنعيم المقيم، فأنتم فى الخير أحياء وأموات، وها نحن نوبنا عنا عليكم حضرة أخيكم المجاهد الغيور الصادق، ولدنا الشيخ يوسف بو رحيل، فإنكم ستلقونه بعون الله وقوته، مثل السيد عمر وأكثر، ونحن ما قدمناه إلا بتقديم سيدى عمر له فى حياته، وامتثلوا أمره واسمعوا كلامه، وكونوا له عونًا معينًا، ومن خالفه منكم فلا يلومن إلا نفسه، ومن تبعه وامتثل أمره، فهو الذى منا وعلينا، وولدنا الشيخ المذكور هو النائب عنا عمومًا، فلا تروه إلا بالعين التى ترونا بها، وبذلك يتم بالله أمركم وتجتمع كلمتكم وتقهرون عدوكم، وإياكم ثم إياكم، والمخالفة والنزاع، قال الله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[الأنفال: ٤٦]، واعلموا يا أولادى أن العدو خيبه الله ساع بكل جهده فى القضاء عليكم فى هذه المدة القريبة، لا بلغه الله مناه، لأنه بعد مدة قليلة يقوم معه حرب عظيم يشغله عنكم وهو مع الفرنسيين والدول الأخرى، فعند ذلك لا يقدر على دوام القتال معكم، والحرب قريب النشوب، فجدوا فى عملكم، واصبروا وأبشروا بالنصر والفتح ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، قال تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾[يوسف: ١١٠]، ولا نشك يا أولادى أن الله منجز وعده، لأن الله لا يخلف الميعاد، وإنى والله ثم والله ما يمنعنى من الوصول إليكم إلا عدم الطريق، ولكن بحول الله، لا زلت مجتهدًا بكل جهدى فى وصولى إليكم، وعن قريب يتم ذلك بحول الله وقوته، وهذا وسلموا منا على عموم أولادنا المجاهدين والبارئ يحفظكم وينصركم ويجمعنا بكم عن قريب[1].

(١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٠هـ)

عاشراً: إيطاليا تحاول أن تستفيد بعد مقتل عمر المختار:

يقول غراسيانى عن عمر المختار فى كتابه «برقة الهادئة»:

إن خبر القبض على عمر المختار وإعدامه سرى فى كل مكان وفى الأوساط المحلية بين الأهالى الخاضعين لسلطاتنا، وبين الثوار الخارجين عن طاعتنا والمهاجرين فى مصر وفى كل البلدان من

(١) انظر: مجلة الإنقاذ، العدد (٣٩)، (١٤١٢هـ) ديسمبر (١٩٩١م)، (ص٢٥).

المشرق إلى المغرب، كلها تأثرت من هذا الحادث الجلل إعدام عمر المختار، ولكى ننتهز هذه الفرصة فى هذا الظرف الدقيق من أجل إثارة الفوضى بين القادة الذين خلفوا عمر المختار فى القيادة رأينا أن ننشر بيانًا إلى كافة أو البقية من العصاة نعلن لهم فيه أن الحكومة الإيطالية الفاشستية مستعدة أن تقبل استسلامهم وتسليم السلاح وتضمن لهم الحياة.

وفى (١٧ سبتمبر ١٩٣١م) نشرت التعليمات الآتية من أجل توزيعها وهى:

١- أن نعطى للثوار الإحساس بسخاء الدولة الإيطالية الفاشستية وكذلك للسكان المحليين.

٢- إفراد الحالة أمام العالم الإسلامى وغير الإسلامى بكل دقة وأن تصرفاتنا لا لبس فيها، فهى من اختصاصنا، وكذلك من مسئولياتنا فى كل العلمليات الحربية التى أجريت فى برقة، ولهذا فقد قامت طائرتنا بقذف المنشورات على المناطق الجبلية وعلى المدن والقرى وبها البيان الآتى:

إلى أدوار عمر المختار:

إن الرئيس العظيم رئيس الثوار عمر المختار يحارب منذ عشرين سنة كان يقودكم فيها إلى الخراب والدمار والتأخر والانحطاط، قبضت عليه قواتنا المظفرة قوات إيطاليا الفاشستية وقد حكمت عليه المحكمة الخاصة بالإعدام، وهذا انتقام الله من أجل المساكين الذين بسببه تركوا أراضيهم ومسقط رأسهم[1].

قال مترجم كتاب (برقة الهادئة) إبراهيم بن عامر عن هذا المنشور: سبحان الله يا جنرال من الذى هجر الناس من أراضيهم؟، ومن الذى أفنى ثمانين ألفًا من المواطنين فى المعتقلات، ألم تكن أنت الذى قضى على الناس وأموالهم؟، وفى نفس الصفحة تعترف بأن عمر المختار منذ عشرين سنة يحارب من أجل من؟، من أجل أن يطردك ويطرد قوات إيطاليا الغاصبة[2].

واستمر غراسيانى فى المنشور: يا أهل الدور إن الحكومة الإيطالية الفاشستية القوية والسخية تحذركم مرة أخرى إنه بعد وفاة واختفاء عمر المختار أنها مستعدة بأن تعفو عن كل الذين يخضعون لحكمنا ويسلمون أسلحتهم، ومن غير هذا فالحكومة كما قضت على عمر المختار ستقضى على كل الذين يواصلون العصيان إما عاجلاً وإما آجلاً، اسمعوا كلامى وسلموا أنفسكم، وفى نفس الوقت أصدرت الأوامر إلى قوات الجيش بعد أن قذفت الطائرات المنشور بالاستمرار فى القتال

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) انظر: برقة الهادئة، (ص٢٩٤، ٢٩٥).

دون توقف، بل بذل أكثر من الجهد دون تردد حتى نجعل أمام العصاة «يعني الثوار» الطريق الوحيد وهو الاستسلام دون قيد أو شرط، وخلاف ما ألقى بالطائرات (ما يزيد على ٣٥,٠٠٠ منشور)، وأكثر منها وزعت من الدوريات الكشافة على كل بئر وفي كل حقل ومرعى، وكل هذه الأماكن التي يمر بها العصاة «يعني المجاهدين» أما «المريشال بادوليو» من جانبه وجه إلى قوات الجيش البرقية التالية:

أوجه إلى قوات الجيش الشجاعة ببرقة أعظم الثناء وأحر تهنئتي على كل ما قاموا به من عمل مجيد وانتصار باهر في هذه الحروب، والنتيجة المرضية التي كنا نتمناها أن نهاية عمر المختار يجب أن لا تؤثر على السير فوق الطريق التي رسمناها وهي مصادرة العصاة أينما وجدوا واقتفاء أثرهم وضربهم بكل شدة ودون هوادة أو رحمة إلى آخر واحد منهم وليكن شعارنا: لا توقف ولا ارتخاء، واصلوا الزحف بكل حماس متجرد ولسوف نقضي على العصاة نهائيًا[1].

انظروا إخواني إلى هذا الحقد والبغض والكيد والمكر الذي ظهر من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وصدق الله حيث قال: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾[البقرة: ٢١٧].

الحادي عشر: تعيين يوسف بورحيل قائدا للحركة الجهادية:

وبعد سقوط عمر المختار رحمه الله في الأسر تجمع المجاهدون بين يوم وليلة وأجمعوا على تنصيب الشيخ المجاهد «يوسف بورحيل» قائدًا للجهاد الإسلامي، ووكيلاً عامًا للجهاد، وعلى أثر هذا التنصيب كلف الشيخ عبد الحميد العبار بالرحيل نحو شرق البلاد للقيام بحث الناس على الانخراط في جيش المجاهدين وحمل السلاح لمكافحة الجيوش والجهاد في سبيل العقيدة الإسلامية والدين، واستقبل المجاهدون خبر استشهاد قائدهم العظيم بالعزيمة والاستمرار ومواصلة السير، إما الشهادة أو النصر على النصارى الحاقدين.

وواصلت الحكومة الإيطالية حملات الانتقام ضد أولئك الأبطال، وبرز في تلك المرحلة الحاسمة والتي ندر فيها وجود الرجال الشيوخ الفرسان والقادة الأبطال والميامين الكرام أجدادنا البواسل، كل من عبد الحميد العبار ويوسف بو رحيل وعصمان الشامي، وحشدت إيطاليا قواتها وواصلت شن حملاتها بشراسة منقطعة النظير، وبعد قتال عنيف عند الحدود المصرية قرب الأسلاك الشائكة اجتاز الأسلاك بعض المجاهدين ببطولة منقطعة النظير وفروسية عالية القياس،

(٢) انظر: برقة الهادئة، (ص٢٩٦).

وقتل من قتل، وأسر من أسر وبقى الزعماء الأربعة يقاومون، فقتل حمد بو خير الله أحد الزعماء، وقتل يوسف بو رحيل، وجرح عصمان الشامى، فأخذ أسيرًا، وأما الفارس المغوار عبد الحميد العبار فاستطاع أن يجتاز الأسلاك الشائكة بجواده رغم مطاردة القوات الإيطالية له(١).

وبهذه النهاية المؤلمة الحزينة انكسرت شوكة المجاهدين وتعثرت خطواتهم وأخمدت حركة الجهاد وذهب الأجداد تاركين خلفهم تاريخًا بطوليًا كفاحيًا جهاديًا رائعًا من أجل العقيدة والدين والشرف والكرامة، فعلى طريق الإسلام نحن سائرون ومن أجل إعزاز دين الله عاملون، ورفع راية التوحيد مجاهدون، ونسأل الله المغفرة والرحمة والرضوان للأجداد والأبطال الكرام من أمثال رمضان السويحلى، وسليمان البارونى، والفضيل بن عمر وأحمد الشريف السنوسى، وصالح الأطيوش، وإبراهيم الفيل، وأحمد سيف النصر وعبد الحميد العبار وغيرهم كثير.

إن عبد الحميد العبار قد أمد الله فى عمره، وقد شاهدته مرات عديدة وأنا طفل لم أتجاوز الرابعة، وكنت أراه كل يوم بعد صلاة الفجر أمام بيته فى الحى الذى كنت أسكن فيه بمدينة بنغازى، والذى يسمى مدينة الحدائق بقرب مسجد السيد بالقسام أحمد الشريف السنوسى المعروف بمسجد الأنصار، وكان منظره وهو يتلو كتاب الله وقد تقدمت به السن مؤثرًا فى نفسى وبلادنا فى تلك الفترة عمها الفساد، وما كنا نرى ونحن أطفال من يحافظ على تلاوة القرآن الكريم بالكيفية المذكورة وأخبرت والدى عن ذلك الذى أسر قلبى بتلاوته القرآن الكريم، فقال لى: يا بنى ذلك الشيخ عبد الحميد العبار من كبار المجاهدين وبدأت جدتى وهى من قبائل برقة من قبيلة الدرسة وقد كانت ضمن المعتقلين بمعتقل المقرون تسرد لى أمورًا عجيبة عن جهاده وفروسيته وشجاعته ونجدته، ولا زالت صورته فى ذهنى إلى وقت كتابتى هذه، وعندما توفى -رحمه الله- كان لوفاته مأتم مشهود، وحضرت جموع غفيرة من شرق البلاد وغربها، واستمر المأتم أيامًا عديدة، فرحمة الله على أولئك الأبطال.

الثانى عشر: اضطهاد الشعب:

وباستشهاد عمر المختار ويوسف بو رحيل وأسر عصمان الشامى بعد جرحه وهجرة عبدالحميد العبار إلى مصر وقتل كثير من المجاهدين، انتهت حركة الجهاد الفعلية، ومع وجود معظم السكان فى معسكرات الاعتقال حكم الإيطاليون البلد من الحصون المحاطة بالأسلاك الشائكة والدوريات

(١) انظر: برقة الهادئة، (ص٣٠٤).

والمصفحات والسيارات المسلحة والرشاشات والأنوار الكاشفة والطائرات، وفى (يناير ١٩٣٢م) أعلن بادوليو حاكم ليبيا العسكرى الإيطالى أن الثورة قد انتهت كلية وتمامًا وأصرت إيطاليا على جعل ليبيا الشاطئ الرابع لإيطاليا، وأعلن موسولينى ذلك الطبل الأجوف (سنة ١٩٣٤م) بأن الحضارة الحقيقية هى ما تخلقها إيطاليا على الشاطئ الرابع لبحرنا «الحضارة الغربية بصفة عامة، والحضارة الفاشستية بصفة خاصة»، وأخذ الرأسماليون الإيطاليون يقسمون ممتلكات الشعب المسلم على بعضهم البعض ويرحلون الأسر الإيطالية للاستيطان الكامل فى ليبيا المسلمة، وأصبح الليبيون عمالاً مستأجرين وخدامًا للعائلات الإيطالية فى مزارعهم التى نزعت من أيديهم وسلمت للإيطاليين، وأصدرت وسنت القوانين التى تخدم مصالح الحكومة الإيطالية فى مصادرة الأملاك والاستيلاء عليها ونزعها من المواطنين بمبالغ زهيدة باسم المصلحة العامة، واهتمت إيطاليا بليبيا اهتمامًا بالغًا من أجل جعلها قطعة إيطالية لها دورها فى توسيع مستعمراتها نحو الجزائر ومالطا وجبل طارق وشجعت إيطاليا هجرة الألوف من العائلات الإيطالية ضمن شروط لابد من توفرها فى الراغبين بالاستيطان فى ليبيا المسلمة ومن هذه الشروط: كثرة عدد أفراد الأسرة بحيث تكون أكثر من سبعة، وأيضًا الصحة، والقراءة والكتابة وأن تكون هذه الأسرة من أعضاء الحزب الفاشستى، أو ذات الوعى السياسى، وكان معظم القادمين هم من المناطق الفقيرة فى شمال إيطاليا وخرجوا من إيطاليا وسط دعاية عالمية، واستقبلوا فى طرابلس وبنغازى استقبال الأبطال ونقلوا فى سيارات الجيش إلى القرى التى كانت جاهزة لهم، وكان بالبو يرافقهم من نابولى حتى القرى التى اغتصبوها من الشعب المسلم المسكين، وأعطيت كل أسرة منزلاً ومزرعة جاهزة للعمل، وكانت الحقول قد وزعت وفى كل اسطبل كان يوجد بقرة وبغل، وأدوات وحبوب وعلف، وكذلك عربات وخشب للوقود وفى كل بيت كان هناك طعام يكفى لأسبوع[1]، حتى الكبريت والشمع كان موجودًا جاهزًا، وسخر الشعب الليبى المسلم لخدمة النصارى واستبعد النصارى الحاقدون المسلمين فى حربهم لليبيا واهتموا بطرابلس ولبده وصبراته وشحات لجعلها دعاية للحكومة الإيطالية ودعوة انحلالية للخمر والدعارة فى حوض البحر المتوسط على مستوى عالمى، وكانت أهداف الإمبراطورية الفاشستية حسب تعبير الطبل الأجوف موسولينى «ليست تغييرًا إقليميًا حربيًا تجاريًا فحسب بل تغييرًا روحيًا وأخلاقيًا أيضًا» وعمل على انسلاخ المسلمين من أخلاقهم ودينهم ورضوا بأن يحصر دين المسلمين فى الشعائر التعبدية.

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣).

وقد أعلن بالبو مرة أنه «لن يكون في ليبيا حكام ومحكومون من جماعة، وبدلاً من ذلك سيكون فيها إيطاليون كاثوليك، وإيطاليون مسلمون، متحدين من جماعة مشتركة كعناصر بناءة في تنظيم جبار للإمبراطورية الفاشيستية» وحرموا الشعب الليبي المسلم من كل حقوقه الطبيعية فلا فرصة في التعلم والتعليم والثقافة والتثقيف، ولم يكن الفاشيستيون يرونها نهاية لوجودهم في بلادنا العزيزة وكانت الطبقة المثقفة الصغيرة إما في المنفى، أو لا صوت لها، وقد أخمدت كل معارضة بقسوة بالغة وأضعف البناء القبلي التقليدي زعيم لكل عدد من القبائل والفاشيستيون يأمرون والشعب المستضعف ينفذ بدون سؤال أو تعليل وكان التعليل الكافي الذي ربي عليه الشعب «يجب عليك لأنه يجب عليك أن تفعل كذا وكذا»، وكانت السياسة التعليمية الإيطالية رسمت من أجل تخريج عدد كبير من التلاميذ الليبيين الذين يتكلمون الإيطالية ويخلصون الولاء لإيطاليا(١).

وعملوا على القضاء على الأخلاق الإسلامية وبث روح الكثلكة في المدارس بين الأطفال، والقضاء على مصارف أهل البلاد والتعليم الديني وأغلقوا الكتاتيب ودور العلم الوطنية، وأكثروا من إقامة دور الفحش ومنعوا الليبيين من أداء فريضة الحج وازداد امتهانهم للدين الإسلامي بدرجة شنيعة فكان من سوء فعالهم، أن ألقى قائد طبرق الإيطالي بالمصحف الشريف إلى الأرض، ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة المسلمين «إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشراً ما دام هذا الكتاب بين أيديكم».

وسخروا المسلمين واستعبدوهم في بناء الطرق والقلاع والمزارع والقرى ونشط المبشرون الطليان في دعوتهم، وعمدت الحكومة إلى تشجيعهم وأرغمت النساء على التنصير والزواج من الطليان.

وزاحموا أهالي البلاد في الصناعة والتجارة وسيطروا عليها سيطرة كاملة ومنعوا الناس من التظلم، وقيدوا حرياتهم، فمنعوهم من محادثة بعضهم بعضاً، ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب، ومن مراسلة أقاربهم في الخارج، حتى صاروا في سجن داخل بلادهم محرومين من كل صلة تربطهم بالعالم العربي والإسلامي.

لقد كان من أحلام الفاشيست إعادة الإمبراطورية الرومانية الغابرة، فقرروا لذلك امتلاك البلدان الإسلامية القائمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم إبعاد أهل هذه البلاد وإفنائهم وتحويلها إلى رقعة لاتينية، وإنهاء لوقاحة منقطعة النظير أن يعمل شعب على إبادة شعوب ليحل

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص ١٦٤، ١٦٧، ١٧٠).

محلها بالقوة ولكن هذا هو منطق الصليبيين الحاقدين، وبلغ استهتارهم أنهم ألزموا خطباء الجمعة الدعاء على المنابر لملك إيطاليا، عم نويل الثالث، وعندئذ امتنع المسلمون عن صلاة الجمعة، فلما هاج الرأى العام الإسلامى على هذا الفعل، استكتبوا الأئمة تكذيبًا بتوقيعاتهم، جاء فيه أن الدعاء كان بمحض إرادتهم ومن تلقاء أنفسهم، ومن غير تدخل من جانب الحكومة الفاشيستية!!، فهل رأيت وقاحة أبلغ من هذه؟!!!.

وفى عهد بادوليو صاروا يمنعون الناس من أداء الحج ويضعون العراقيل فى سبيلهم، حتى يجبروا على تركه.

وكان أقبح ما فعل المارشال بادوليو أنه أمر بأن ترصف «الصالة» فى قصره بالبلاط المنقوش عليه «محمد ﷺ»، وبعد انتهاء مرحلة الحرب المسلحة كما علمنا نفذ الشرط الثانى من برنامج إبادة الليبيين وإفنائهم، ونعنى ذلك ما اغتصبه الطليان من الأراضى والمزارع وإعطائها للعائلات الفاشستية بالقوة، وترك أصحاب الأرض الحقيقيين وأبناء البلاد يتضورون جوعًا ويخدمون هؤلاء الحاقدين كخدم وعبيد(١).

وأراد الله أن ينتقم للمجاهدين من الطليان بقدرته وجبروته وعزته وحكمته النافذة التى لا يعلمها كثير من عباده، وبعد أن اطمأن النصارى الكاثوليك فى ليبيا جاءت الحرب العالمية الثانية قدرًا من الله وتسليطًا من الله من ظالم على ظالم ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وبعد أن اطمأنت الإمبراطورية الإيطالية إلى سلطانها، ودانت لها الأقطار الليبية من أقصاها إلى أقصاها من بعد استشهاد المختار عام (١٩٣١م حتى عام ١٩٤٢م)، أحد عشر عامًا من اليأس المطلق الذى لا يبشر بشىء من الأمل، وأهل الحل والعقد الليبيين بعيدون عن البلاد. ونصف الشعب أو يزيد أهلكوا أو أُخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، والبقية الباقية مستضعفة فى بلادها لا حول ولا قوة لها.

غراسيانى ينفخ أوداجه، ويختال على أرض المسلمين يمنة ويسرة، حيث شاء(٢).

ثم جاء من ورائه بادوليو المارشال العجوز ليتم قصة إبادة الشعب الليبى ويسلم الأراضى إلى رعاع الطليان.

---

(١) انظر: حياة عمر المختار، (ص ١٧٢).
(٢) انظر: حياة عمر المختار، (ص ١٨٥).

ليل هنا وليل هناك وظلام دامس، وظلم مخيم، ويأس مرير، وذلة أصابت المسلمين وعزة زائفة سيطرت على النصارى الحاقدين، وكانت قصة خروج الطليان من بلادنا غريبة جدًا ينبغى أن يتدبر فيها ليعلم الناس وليطمئنوا إلى عدل الله المنتقم الجبار ولو بعد حين، وكانت قصة هزيمة إيطاليا فى ليبيا بدأت فى الحرب الثانية فى سبتمبر وحرصت إيطاليا أول الأمر على عدم دخولها حتى إذا رأت فرنسا تنهار على أثر الزحف الألمانى الخاطف عليها، أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا فى (١٠ يوليو ١٩٤٠م) وبدأ الجبل الأخضر يضيق حول عنق الإمبراطورية الجوفاء العرجاء ودخلت إيطاليا الحرب بقيادة زعيمها موسولينى الطبل الأجوف طمعًا فى الغنائم، وكانت توقن أن الأرض قد دانت لحليفتها ألمانيا فأخلف الله ظنها وأفضى الأمر إلى زوالها نهائيًا من الوجود كإمبراطورية صاحبة مستعمرات واندحرت إيطاليا باندحار ألمانيا فى شمال إفريقيا، ولم تغرب شمس (يوم ٧ أبريل عام ١٩٤٣م) حتى كانت جيوش ألمانيا وإيطاليا بقيادة روميل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسى بأجمعه.

وكانت فرحة عظيمة شاملة عمت قلوب الناس وعبر عنه الملك السابق بقوله: «إنى أحمد الله الذى جعلنى أشهد خروج هؤلاء الطليان الظالمين من بلادنا»، وتدفق الليبيون إلى بلادهم التى ترعرعوا فيها وأُخرجوا منها ظلمًا وزورًا، وهكذا استدار الزمان، وسلط الله الإنجليز على الطليان، ونزل العار بهم[1].

لقد أرادت إيطاليا إبادة المسلمين فى ليبيا، فبادوا هم وبقى المسلمون فى ليبيا وأراد غراسيانى إعدام المختار فهلك وبقى المختار علمًا وقدوة لأجيال المسلمين.



(١) انظر: حياة عمر المختار، بتصرف، (ص ١٨٥ - ١٨٨).

الفصل الثالث:

الليبيون بين المهجر والاستقلال

المبحث الأول

الليبيون فى المهجر

هاجر الليبيون إلى تونس، والجزائر، وتشاد، وسوريا، والأردن، ولبنان، ومصر، والحجاز، وتركيا وتركوا أوطانهم بسبب الظلم والجور الذى وقع من الطليان، وشرعوا فى جمع شتاتهم فى المهجر استعدادًا ليوم قريب تتاح لهم فرصة تخليص بلادهم من الاحتلال الطليانى البغيض، وكانت قلوبهم تتقطع شوقًا للرجوع إلى ديارهم وتفجرت ملكاتهم الشعرية وتركوا لها بعض القصائد المعبرة عن الشوق للأوطان.

قال الشاعر أحمد رفيق فى هذه المعانى:

كادت تطير بأضلعى أشواقى — يوم الفراق فهل يكون تلاق
ودَّعته والله يعلم أننى — ودعت راحة قلبى الخفاق
لو كان قبل يوم قيامة — كان الفراق قيامة العشاق
وطنى من الإيمان حبك ليس لى — منٌّ عليك أنت ذو استحقاق

ويقول أيضًا:

يا أيها الوطن المقدس عندنا — شوقًا إليك فكيف حالك بعدنا؟
كنا بأرضك لا نريد تحولا — عنها ولا نرضى سواها موطنا
فى عيشة لو لم تكن ممزوجة — بالذل كانت ما ألذ وأحسنا
عفنا رفاة العيش فيك مع العدا — وأبى شمم النفوس وعزنا

إلى أن يقول:

جعلوك مسخرة بأيدى صبية — لا يبعدون عن الحمير تمدنا
قالوا لنا جئنا نمدن أرضكم — أين التمدن والذى قالوا لنا؟

هدمـــوا من الأخــــلاق فى أوطاننا   أضـعـاف مـا شـادوه فـيـهـا من بنا[(١)]

لقد ذاق المهاجرون ألوان العذاب فى المهجر، ومع ذلك فقد فقد واصلوا الجهاد وهم فى ديار الهجرة حتى ضاقت بهم إيطاليا ذرعًا وبرز من المجاهدين فى مصر السيد إدريس السنوسى الذى قال فى حقه الجنرال غراسيانى: «إذا أردنا أن نقضى مرة واحدة على العصيان يجب إن يغيب إدريس من عالم الوجود، فإذا مات هو مات معه التمرد والعصيان، يجب لتحقيق هذا أن نضغط على مصر حتى تسلمه لنا أو نقضى المهمة وراء ستار»[(٢)]، وأما فى بلاد الشام فقد ظهرت جهود بشير السعداوى واضحة العيان، فقد قام مع إخوانه الميامين بصور شتى من صور الجهاد، فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل، فتأسست فى دمشق فى (عام ١٩٢٨م) «جمعية الدفاع الطرابلسى والبرقاوى بالشام»، وانتخب بشير السعداوى رئيسًا لها، وكانت هذه الجمعية تضم إليها مجموعة من المجاهدين كسكرتير الجمعية عمر فائق شنيب «بك»، وأمين الصندوق فوزي النقاش ثم عبد الغنى الباجقمى، وكامل عياد، وعبد السلام أدهم، والبمباشى طارق، ومحمد ناجى التركى، ومصطفى بن نوح، وأحمد راسم، وأبو بكر قدوره، وأبو بكر التركى وخليفة بن شعبان، وعمل هؤلاء الإخوة الأبطال جميعًا على إعداد البحوث التى تكشف عن أعمال الطليان وفظائعهم فى القطر الليبى، وصاروا ينشرونها فى الصحف والجرائد، والمنشورات، وأظهر بشير السعداوى نشاطًا واسعًا ونشر بحوثًا ومقالات كثيرة، وسار عمر فائق شنيب على نفس المنوال، وفى (عام ١٩٢٩م) وضعت الجمعية الميثاق الوطنى المشهور للشعب الطرابلسى البرقاوى، فنصت المواد على التالى:

المادة الأولى: تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس وبرقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

المادة الثانية: دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

المادة الثالثة: انتخاب الأمة مجلسًا نيابيًا حائزًا على الصلاحية التى يخوله إياها الدستور.

المادة الرابعة: اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم.

المادة الخامسة: المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليد القطر فى جميع أرجائه.

المادة السادسة: العناية بالأوقاف وإداراتها من قبل لجنة إسلامية منتخبة.

المادة السابعة: العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.

(١) انظر: برقة العربية، (٥٣١، ٥٣٢).

(٢) انظر: برقة العربية، (ص٥٣١).

المادة الثامنة: تحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة خاصة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى(١).

وقامت الجمعية بفتح فرع لها فى تونس (عام ١٩٣٠م) برئاسة محمد عريقيب الزليطنى، وحققت الجمعية بعض النجاحات الكبيرة، وكان الأمير إدريس السنوسى قد أولاها عنايته الخاصة، وأمدها بالمساعدات القيمة، فيرسل لها الإعانات المالية حينًا، وبالمعلومات والأخبار الجديدة عن القطر الليبى حينًا آخر، وتمكنت الجمعية من دعم مركزها ومتابعة النشر والقيام بحملة صحفية واسعة تهيب بالأمة الإسلامية والعربية، أن تنهض للوقوف بجانب الشعبى الليبى بكل الطرق.

ونشرت اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية نص الميثاق وقدمت له بنداء خاطب فيه مواطنيها فى الأقطار العربية، جاء فيه: «أيها الإخوان الأعزاء: إن الواجب يقضى عليكم أن تعملوا لخير بلادكم وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع شملكم، وأن تؤلفوا فى كل قطر تسكنونه «جمعية» تلم شعثكم وتجمع شملكم، وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطنى؛ فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً؛ وارفعوا أصواتكم بالشكوى مما تلاقيه أمتكم البائسة من مظالم الإيطاليين، واملأوا الصحف بالمقالات والفضاء بالاحتجاجات وانشروا النشرات وقفوا للحوادث بالمرصاد، وانتهزوا الفرصة وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع؛ فالفكرة الناضجة تكوّن الأمم وتبعث فيها روح اليقظة والانتباه؛ ثم ربوا نشأكم على حب الوطن، والحرية والاستقلال، أرضعوهم هذه المبادئ مع اللبن، وانفثوها فى صدورهم منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار، علموهم مناقب السلف الصالح، وأبطال التاريخ والفتح الإسلامى، فإنها تثبت فى نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادئ الوطنية، وليكن شعاركم الاستقلال وتخليص وطنكم من الأغلال، وفكروا فى الوسائل التى تقربكم من هذه الغاية الشريفة؛ فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد بها الصلف والغرور؛ إذا رأتنا أمامها أمة ناهضة منتشرة فى الآفاق واقفة لها بالمرصاد، تحارب الظلم والاستبداد، ولا تدين لسُنن الاستعمار والاستعباد، لابد أن تذعن لمطالبنا الحقة، ولميثاقنا القومى الذى عاهدنا الله على تحقيقه ببذل النفس والنفيس، والله مع الصابرين»(٢).

لقد استطاعت الجمعية أن توسع دائرة نشاطها، وطلبت من شكيب أرسلان فى (عام ١٩٢٩م) أن يقف معها لما كان بالحجاز، ولبى الأمير شكيب نداء الليبيين وشرع فى نشر مخازى ومظالم الطليان فى الصحف والمجلات العالمية والعربية، وفى نشرات صغيرة حتى يسهل تداولها،

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٧٣).

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٧٤).

وحققت مقالات شكيب هدفها وانتبه العالم الإسلامى لما يفعله الطليان فى ليبيا بسبب مقالاته الرائعة التى دبجها بقلمه السيال.

واستمرت الجمعية فى نشاطها وتوالت نشراتها تصف فظائع الطليان، وتحذر الأمة من تصديق دعاياتهم الكاذبة المغرضة، وتسوق الحجج والبراهين والأدلة على انتهاك أبسط حقوق الإنسان فى ليبيا، وتفننت فى ابتكار وسائل عدة لإيصال هذه النشرات إلى داخل ليبيا وبذلت جهوداً عظيمة لتوزيع نشراتها فى جميع أنحاء العالم العربى، لقد نجحت فى حرب الأقلام وشاركت فى المؤتمر الإسلامى فى القدس وعرضت قضيتها، وهذا نص الوثيقة التاريخية التى قدمتها:

وثيقة تاريخية عن القضية الطرابلسية البرقاوية تقدمت بها الجمعية الطرابلسية للمؤتمر الإسلامى فى القدس:

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أخذ الأوروبيون يشنون الغارة على البلاد الإسلامية بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد إسلامية -بعد الأندلس- بمثل ما فجعت طرابلس -برقة- تلك البلاد التى منذ سطا الإيطاليون وسيوف نقمتهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة، حتى آلت إلى مجزرة بشرية تمثلت فيها أفظع الأدوار الهمجية.

لا نريد أن نطيل البحث فى مناقشة الوسائل التى تذرعت بها الدولة الإيطالية لاحتلال طرابلس -برقة- التى لا تربطها بها أية علاقة، ونكتفى هنا بنظرة عامة فى تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الإيطالى إلى يومنا هذا، إذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة.

لقد أغارت الدولة الإيطالية على القطر الطرابلسى -البرقاوى فى (٥ تشرين الأول سنة ١٩١١م) على حين غفلة من أهلها، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحماية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندى مبعثرين فى عدة مناطق، بيد أن سكان تلك البلاد الذين كلهم كتلة عربية- إسلامية واحدة قد أُفطموا على عزة النفس والإباء ولذلك قاموا فى وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياتهم بقلوب ملؤها الإيمان بالله والاعتماد عليه.

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن خلالها الجنود الإيطالية من التقدم شبراً عن مرمى مدافع أسطولهم، إلى أن اضطرت الدولة العثمانية إلى عقد صلح مع الإيطاليين منحت فيها الطرابلسيين استقلالهم الإدارى وسحبت جنودها وهى مرغمة.

وعقب ذلك أخذ الإيطاليون يدعون أهالى البلاد إلى السكينة ويُظهرون لهم حُسن النية لخير تلك البلاد فوضعت الحرب أوزارها، وألقى أكثر أهالى طرابلس وبرقة السلاح وعادت السيوف إلى أغمادها، ولكن رجال الدولة الإيطالية ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح، حتى قلبوا لهم ظهر المجن وأخذوا يسومونهم سوء العذاب، وينتقمون من كل من حرض الناس على قتالهم، فيخلقون لهم تهمًا واهية ويزجون ببعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض إلى جزر إيطاليا.

فثارت ثائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود، فانقضوا على إيطاليا، وكانت أول وقعة دموية وقعة تسمى بوقعة «القراضابية» وهو مكان قرب خليج سرت، جرت تلك الوقعة فى أوائل (سنة ١٩١٤م) أضاع فيها الإيطاليون ما ينيف على (٨٠٠٠ جندى)، وعقب ذلك ازداد حقد الإيطاليين على الأهلين فانهالوا على العرب بالقتل والتعذيب فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رميًا بالرصاص (٣٠٠ نسمة) فى فضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال والنساء والرجال.

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى بلادنا حرب سرى لهيبها فى كل ناحية من النواحى وظلت الفتن تتقد إلى أن نشبت الحرب العالمية، فأرسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير، عندئذ اضطرت الجنود الإيطالية أن تنسحب من كل المواقع التى أشغلتها أثناء السلم وتتحصن فى مدينة طرابلس، زواره، الخمس، بنغازى، درنة، طبرق، إلى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت إيطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمة تلو الهزيمة فى ساحات أوروبا.

ورغم ذلك ساقت عدة فيالق من جيوشها إلى طرابلس -برقة- وجهزت منهم مائة ألف جندى زحفت بهم على خطوط المجاهدين فى منطقة طرابلس.

وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة، وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة.

ولما باءت الدولة الإيطالية فى تلك التجربة بالفشل وعلمت أنها غير قادرة على إخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت إلى التضليل والتمويه فسنت قانونًا سمته «القانون الأساسى» وأعلنته فى (سنة ١٩١٩م)، ومع أنه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين فقد قبلوا به بغية حقن الدماء، وراحة الفريقين، وانتظروا من رجال الحكومة الإيطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم

اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يبثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لإيقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبين الأخ وأخيه.

وكادوا يصلون إلى رغائبهم ويوقعون البعض فى تلك الحبائل التى نسجتها أياديهم الأثيمة، لولا أن عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام فى مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلد فى (سنة ١٩٢٠م)، فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى.

وكان الجيش الإيطالى وقتئذ كما ذكرنا منحصراً فى بعض المدن الساحلية وبعد المداولة فى جلسات متوالية قرروا بالإجماع ما يلى:

«إن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحتمه الشرع الإسلامى من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة، لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة.

وقد تناقش المؤتمر فى ذلك بما لا يتنافى مع منافع دولة إيطاليا التى جاءت إلى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعى لراحتنا وسلامتنا وبين ثقته فى أن الشعب الإيطالى لا يرضى فى هذا الزمن الذى تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيها، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة فى سبيل النظام والأمن والعدل فى طرابلس الغرب، ولذلك لاتزال للأمة ثقة فى أن تسعف بضرورياتها وأن لا تصادم فى أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال بغيرها.

وقد أنبنا للمطالبة بذلك وفداً من حضرات نورى بك السعداوى ومحمد خالد بك القرقنى ومحمد فرحات بك، ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة فى القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم وأن يحقق أمانى أمتنا.

(حرر فى ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٣٩هـ)

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومية عهد إليها إدارة شئون البلاد الداخلية التى عمت فيها الفوضى؛ بسبب الفتن التى خلقها رجال الحكومة الإيطالية، وذهب الوفد المشار إليه فى ذلك الحين إلى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب، وأخذ يراجع المقامات الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الإيطالية سوى الإعراض والاستخفاف بمهمته.

أما هيئة الحكومة الوطنية التى عهدت إليها إدارة شئون البلاد فإنها أخذت فى إقرار دعائم الأمن وتنظيم الشئون الإدارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث من الطوارئ، فساد الأمن ورجعت الطمأنية بعد الخوف الذى استولى على النفوس وانصرف الأهلون إلى معائشهم ومصالحهم.

أما منطقة بنغازى فإن نورى باشا الذى أوفدته الحكومة العثمانية إليها خلال الحرب العالمية حمل الأهالى على التعرض على القطر المصرى وهى خطة رسمتها وزارة الحربية العثمانية فجهز جيشًا مؤلفًا من (٥٠٠٠ مجاهد) بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسى وتجاوزا به الحدود المصرية، وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه فى برقة ابن عمه السيد إدريس السنوسى.

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الإنجليزية وبعد حروب بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة واشتدت المجاعة.

فرأى السيد إدريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الإيطاليين وأوقفت رحى الحرب، وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوى بالإمارة ووافقت على ذلك الحكومة الإيطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين.

بيد أن رجال الحكومة الإيطالية كعادتهم فى كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود، فاضطر الأمير السيد إدريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية «سرت» المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والتضامن على المطالبة بحقوقهم معًا، وتنص المادة الخامسةمن هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين.

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الإيطاليون سواحل مصراتة فى منطقة طرابلس (سنة ١٩٢٢م)، فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب فى كل مناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الإيطاليون عن التقدم ولو كيلو مترًا، وضحت البلاد بألوف الخلق فى سبيل الدفاع، كما أن الإيطاليين خسروا أضعاف ذلك؛ لأنهم كانوا المهاجمين، ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم، وانتدبوا للمذاكرة السنوسية «بيلا» والسنيور «رابكس» وخرجا فى الموعد المضروب الذى قررته الحكومة الوطنية فى مكان يسمى «فندق الشريف».

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى:

«باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت فى البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج، فاضطرت الأمة إلى عقد مؤتمر فى غريان بلغت مقرراته الصائبة

إلى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه إلا الإعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق.

ولما حال الحوار على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرة على تلك السياسة المنفردة، وتحقق أهل القطرين طرابلس- برقة- أن حياتهما محفوفة بالخطر فى الحال والاستقبال، وأن ما داهم أحد القطرين لابد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية، لاسيما أن إدارتهما إلى عهد الاحتلال واحدة، عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الإخاء ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية فى سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسى.

فقرر الفريقان بالإجماع فى سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد إدارة القطرين وهو الحل النهائى الذى لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة، التى لاتزيدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد إلا تحكيمًا فى عقد الخلاف، فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الأمتان، فإن الأدوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا إلى صورة حل هذه المشكلة حلاً لاحظنا فيه المنافع الإيطالية سياسية كانت أو اقتصادية، وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الأمة وتكون له السلطات الإدارية جميعها مع السلطة الدينية، ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد إن تجردت عن ملاحظة الأشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها إلى الحقائق والجوهريات، كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعلمنا خلالها أن سفركم إلى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك، والحصول على إذن وصلاحية واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول إلى ما يرفع الخلاف الذى لا تتحمل البلاد دوامه، ورعاية لأحكام اتفاقية سرت المذكورة فإنا فى انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لإشعار سمو الأمير السيد محمد إدريس، ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التى لا نشك أنها ستبنى على أساس الإخلاص وحُسن النية والأمل وطيد فى أن دولتكم ستضم إلى تاريخ حياتكم السياسية فخرًا آخر فى حل المشكلات، واقبلوا يا دولة الوالى عاطر التحية وفائق الاحترام.

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والإيطاليون يراوغون فى أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لإعداد العدة للحرب، وقد تجلت فكرتهم هذه فى تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذى بيد الأهلين قبل أى حل وإلا الحرب، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدًا، من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب، واستؤنف القتال الذى لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

إن الحكومة الإيطالية بعد أن اتخذت كل ما فى وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامنًامستميتًا فى سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه عمدت إلى تنفيذ سياسة الشدة والإرهاق، خصوصًا بعد استلام الفاشيست زمام الحكم، فإنهم أضافوا إلى تلك الشدة فكرة إبادة ذلك الشعب وإمحائه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا فيها المستعمرين من أبناء بلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم، وهكذا أخذ الفاشيست فى تنفيذ سياستهم الغاشمة وما برحوا ينزلون بذلك الشعب العربى ضروب العذاب فلا يرحمون طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا.

فإنهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية، وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة فى كل بلد من ذلك القطر، فإدارة البلاد تحت حكم عسكرى مطلق اليد لا يسأل عما يفعل وله فى كل لواء وقضاء وناحية حاكم إدارى، وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم، وليس للأهلين مشاركة فى شئون بلادهم، ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضًا الذين يقفون على الأبواب، وجميع المعاملة باللغة الإيطالية، والأغرب من هذا كله أن جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونها من المكلف وهو لا يدرى ما عليه ولا يعرف بأية نسبة تجبى منه تلك الضريبة، بل إنه مرغم على أدائها عن يد وهو صاغر، وإذا سأل سائل عن أساس الضريبة يُعد خائنًا ويعاقب العقاب الأليم.

وبالجملة فإن السياسة المرهقة التى تتماشى عليها الحكومة الفاشيستية لم يسبق لها مثيل منذ أن عرف التاريخ، فسفك الدماء، وقتل النفوس البريئة، والتجاوز على الأعراض، والنفى والحكم بالسجن المؤبد، وسلب الأموال، وغصب الأملاك والأراضى من أيدى أصحابها، وقذف البشر من الطائرات، وإلقاء بعضهم مكبلين بالأغلال فى لجج البحر، وقتل الأسرى، وهتك حرمات الدين ودوس القرآن الكريم تحت الأقدام أمام جماهير من المسلمين، وهدم أضرحة بعض الصحابة الكرام والأولياء، واتخاذها إصطبلات للحيوانات والترنم بالأناشيد فى الطعن بالدين الإسلامى، فحدث عن ذلك ولا حرج، ولانريد أن نأتى فى هذه العجالة على ذكر الفظائع التى كتب فيها تأليف خالص يغنينا عن التفصيل فإن فيه من الفظائع ما تتفطر منه الأكباد ويذيب الفؤاد.

ومنه يعلم القارئ أن سياسية الفاشيست فى ذلك القطر ترمى إلى إبادة أهله فقد كان عدد الشعب الطرابلسى- البرقاوى قبل الاحتلال الإيطالى يربو على (١,٥٠٠,٠٠٠) نسمة، وقد صرح الجنرال غرسيانى قائد الحركات العسكرية إنه بعد الإحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس- برقة لم يتجاوز عددهم (٧٠٠ ألف) ولا ريب من أنهم قد قضوا على ذلك الشعب المسلم بين قتل

وتهجير والبقية الباقية أيضًا محكومة بالفناء؛ لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الأعناق لابد أن يؤدى إلى تلك النتيجة، وعدا ذلك فإن مرافق الحياة فى تلك البلاد قد استولى عليها جميعًا، فالمسلم لا يتمكن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة أو بأية حرفة تؤمن معاشة، فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول فى البلاد لتوسيع نطاق عمله، بل أنهم يحددون له المبالغ التى يمكنه أن يتاجر بها والأيام التى يمكنه أن يتغيبها فى الأقطار المجاورة وصنف البضاعة، وإذا تغيب عن الأجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له، تُسحب من يده إجازة ويعاقب؛ زد على ذلك أنهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط فى دياجير الجهل، فلم تكن فى تلك البلاد إلا بضع مدارس ابتدائية، أُسست فى عهد الترك يعلِّمون فيها الأطفال باللغة الإيطالية، للوصول إلى إماتة اللغة العربية، حتى لا تبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب، إلا ويقضى عليها القضاء المبرم.

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التى تقطن مختلف الأقطار الإسلامية ما أحاط ببلادها من الأخطار فكرت فى تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع، وانتخبت هذه اللجنة ووضعت أساسًا لعملها «الميثاق الوطنى» وهذه مواده:

١- تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس- برقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

٢- دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

٣- انتخاب الأمة مجلسًا حائزًا على الصلاحية التى يخوله إياها الدستور.

٤- اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم.

٥- المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليد القطرين فى جميع أرجائه.

٦- العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية.

٧- العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.

٨- تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى.

ومنذ تأسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها القضية بشتى الوسائل الداخلية فى حيز إمكانها، فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التى تتماشى عليها الدولة الإيطالية فى تلك البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل، وهى ترسل فى كل موسم حج إلى مكة المكرمة عشرات

الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين فى جميع الأقطار علمًا بما هو حادث فى تلك الديار النائية، ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست وبينت لهم عقم سياسة الحديد والنار التى يتعقبها فى طرابلس وبرقة، ولكن نصحها له لم يزده إلا غروراً وعتواً كبيراً، وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لا يرضيهم إلا تمزيق اللحوم والولوغ فى دم البشر.

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام بإخوانهم فى الدين والقومية فى البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت فى وجوههم السبل إلا سُبل الموت، وفى الموت راحة البائسين، ولطالما ملأنا الفضاء بأصواتنا ورفعنا شكوانا إلى العالم الإسلامى ليصرخ فى وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم رحمة بالإنسانية وشفقة على البشرية، ولكن أنى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعتهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب، ولما كان المؤتمر الإسلامى الموقر من ضمن واجبه التفكير فى مثل هذه الشئون المهمة فها نحن نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التى يجب العناية بها، فإن ذلك الشعب المفجوع فى وطنه ودينه إذا لم تشمله عناية المخلصين من إخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح «لا سمح الله» أثرًا بعد عين وفى ذلك ما فيه من المسئولية الكبرى والبلاء العظيم.

فيا أيها السادة الكرام:

إن الشعب الواقف فى وجوه أعدائكم منذ إحدى وعشرين سنة هو منكم، والدين المهان فى تلك الديار هو دينكم، وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الله هم شهداؤكم، هناك فى تلك الصحارى المحرقة؛ والفيافى المقفرة إخوان لكم ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أجل؛ إن إخوانكم فى تلك الديار النائية يستصرخونكم ويناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شئونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا، وبذلك تفقدون قطرًا إسلاميًا فتحه جدودكم الكرام، ورفعوا فيه راية الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا.

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التى خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء، تمطر ظلمًا وجوراً على إخوانكم البؤساء، هناك تسمعون الصراخ والعويل والبكاء والنحيب، هنالك الإنسانية المعذبة، هناك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار، ولا منجد ولا مغيث ولا معين.

فإن فى تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم، ويدافعون عن كيانهم، وعدوهم الجائر يتربض بهم الدوائر، فنرجو أن تفكروا فيما يخفف عنهم المصائب التى تحل قبل أن تمزقهم القوى الغاشمة، ولا نخال أنها تعوزكم الوسائل لمد يد المساعدة لأولئك البؤساء، وأنتم رجال الإسلام الذين يمثلون (٤٠٠ مليون مسلم) فى الكرة الأرضية، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه(١).

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات

الطرابلسية البرقاوية

بشير السعداوى

(٢٦ من رجب سنة ١٣٥٠هـ)

(٦ كانون الأول سنة ١٩٣١م)

لقد تزعم اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية السيد بشير السعداوى ويعتبر من الشخصيات الفريدة فى التاريخ الليبى المعاصر، فقد قام بدور فعال فى حركة الجهاد التى كانت تتصدى للاستعمار الإيطالى فى ليبيا، وبعد أن أخضعت إيطاليا منطقة طرابلس بالكامل وتوقفت حركة الجهاد من الإقليم اختار بشير السعداوى العيش فى المهجر ولكن نشاطه الجهادى السياسى المعادى للاستعمار الإيطالى فى الخارج لم يتوقف، وظل يحرض الليبيين على الصمود فى وجه الممارسات الإيطالية الغاشمة، وأخذ يحث الدول والشخصيات العربية والإسلامية على مساندة الشعب الليبى، وتقديم كافة صور الدعم الممكنة له، واستفاد من عمله كمستشار للملك عبد العزيز فى التعريف بالقضية الليبية.

استمرت الجمعية الطرابلسية البرقاوية فى عملها وفى (عام ١٩٤٠م) أعيد تشكيل الجمعية من جديد فى دمشق برئاسة الدكتور كامل عيد يضم إليه نخبة من أفاضل المجاهدين، كالسيد عبد الغنى الباجقمى أمينًا للسر، وأبى بكر قدورة وغيرهما، وبقيت الجمعية تعمل من ذلك الحين تحت إرشاد الأمير إدريس وتوجيهاته(٢).

إيطاليا تحتل الحبشة:

كانت إيطاليا تسعى حثيثًا لتحقيق طموحاتها الجنوبية الهادفة إلى إنشاء إمبراطوريتها القديمة فى إفريقيا الشرقية ولذلك أغارت على الحبشة واحتلتها بالقوة، وتمت السيطرة التامة فى (عام

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامى (٣/ ٣٨٥).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص٣٧٥).

١٩٣٦م) وكان الليبيون المجندون من قبل إيطاليا وقودًا لتلك المعارك المحرقة، حاولت عصبة الأمم أن تنزل العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ولكن بدون جدوى، وأصبحت الحبشة جزءًا من إمبراطورية إيطاليا واتخذ ملكها لقب إمبراطور إثيوبيا، وكان من نتائج ذلك الاحتلال أن تغيرت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا لمصلحة المجاهدين فى ليبيا.

وقامت بريطانيا بالاتصال بالأمير إدريس عن طريق الكولونيل برملو «بك» ورتب لقاءً بين إدريس السنوسى وأدميرال الأسطول الإنجليزى الرابض بالإسكندرية، وتحدث الأدميرال إلى الأمير السنوسى عن المستقبل الطيب الذى ينتظر بلاده، ولكن تلك المقابلة والأحاديث لم تؤت ثمارها، لأن بريطانيا لا ترغب فى إعلان الحرب على إيطاليا وكان رجال حكومتها شديدى الحرص على السلم فى أوروبا باسم سياسة التسكين والتهدئة، لذلك رفعت العقوبات الاقتصادية عن إيطاليا نهائيًا فى (عام ١٩٣٧م)، وترك أمر الليبيين لأهله، وهكذا منطق المصالح ينظر للأحداث.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية أصبح البريطانيون يسعون لإيجاد تحالف قوى مع المعارضة الليبية، ومدوا خيوطهم لجميع المعارضين، وخصوصًا أقواهم الأمير إدريس السنوسى.



المبحث الثاني

الحرب العالمية الثانية

إن الحرب العالمية الثانية آية من آيات الله فى تصريف أمر الدول والشعوب والأمم وفق سننه وقوانينه فى المجتمعات البشرية، ومن السنن الواضحة فى حياة الأمم أنه عندما تتجبر أمة من الأمم وتعلو فى الأرض ويصيبها البطر والكبرياء يهيء الله لها أسباب الانهيار والزوال، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

أى أمرناهم بالأمر الشرعى من فعل الطاعات وترك المعاصى؛ فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم، وفى قراءة ﴿أَمَّرْنَا﴾ [١]، بالتشديد أى: جعلناهم أمراء، والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله وليس كل ثراء ترفًا[٢].

إن هلاك الأمم يكون كذلك بفشو الظلم وعدم إقامة العدل، فلقد أمر سبحانه وتعالى بالعدل وحرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرمًا، كما فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» [٣].

لقد اختلت الموازين وانعدمت القيم وتحكم الجبابرة الطغاة فى المسلمين المستضعفين ووزع المجتمع بين سادة «الإيطاليين» وعبيد «الليبيين»، وأرادت حكمة الله ومشيئته أن يخلص الشعب المظلوم من القوى الباغية فجاءت الأسباب التى قادت الأمم المتجبرة إلى الحرب العالمية الثانية.

بدأت الحرب العالمية الثانية فى (سبتمبر ١٩٣٩م) بالهجوم الألمانى النازى على بولندة، وحرصت إيطاليا فى بداية الأمر على عدم الدخول فيها حتى إذا رأت فرنسا تسقط أمام الجيوش الألمانية؛ أعلنت

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٥٨).

(٢) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامى، للوابل (ص٦٥).

(٣) رواه مسلم، (٤/ ١٩٩٤)، رقم (٢٥٧٧).

الحرب على إنجلترا وفرنسا فى (١٠ يونية ١٩٤٠م) فمهدت بذلك العمل إلى زوال إمبراطوريتها الإفريقية وانهيار دولتها الفاشيستية فى النهاية، وكان دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا فرصة ثمينة بالنسبة لليبيين فى المهجر وفى أوطانهم ينتظرونها للتحرر والخلاص، واسترداد حقوقهم التى اغتصبها العدو فى أعوام طويلة، ، فما إن دخلت إيطاليا الحرب حتى شرع الليبيون فى العمل، واتصل فريق منهم بالمفوضية الفرنسية بالقاهرة وغادروا مصر فعلاً إلى الجزائر حيث اتصلوا بالجنرال «نوجس» واتفقوا معه على أن يجهزوا حملة من الليبيين الموجودين فى الجزائر وتونس للعمل ضد إيطاليا فى ليبيا إلا أن هذا المشروع لم ينفذ بسبب استسلام فرنسا للزحف الألمانى.

وكان الأمير إدريس فى مصر يتحين تلك الفرصة بمجرد أن تحقق بأن الحرب العالمية لا محالة واقعة، فشرع بجمع الزعماء الليبيين والتشاور معهم ودراسة احتمالات لموقف، ووضع الخطط المناسبة التى يجب أن يسيروا عليها، وعقد الزعماء الليبيون اجتماعًا تاريخيًا فى منزل الأمير إدريس السنوسى بالإسكندرية لبحث المستجدات واتخاذ قرار نهائى، وكان تاريخ ذلك الاجتماع (٦ من رمضان ١٣٥٨هـ/ ٢٠ من أكتوبر ١٩٣٩م) اجتمع فيه حوالى أربعون شيخًا من رؤساء الليبيين وزعمائهم الموجودين بمصر فى منزل الأمير إدريس فى جهة فكتوريا برمل الإسكندرية، وظلوا يبحثون ثلاثة أيام بتمامها، وأسفر تبادل الرأى عن اتخاذ قرار بتفويض الأمير فى أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية أو الحكومة الإنجليزية بشأن تكوين جيش سنوسى مهمته الاشتراك فى إفتتاح الأقطار الليبية واسترجاع أرض الوطن عند دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، ووقعوا على وثيقة تاريخية مهمة فى (يوم ٩ من رمضان ١٣٥٨هـ/ ٢٣ من أكتوبر ١٩٣٩م) جاء فيها:

«بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، قد اجتمع زعماء ومشايخ الجالية الطرابلسية البرقاوية المهاجرون بالديار المصرية فى اليوم السادس من شهر رمضان المعظم (١٣٥٨هـ) بالإسكندرية وتشاوروا فى حالتهم الاستقبالية وقر قرارهم على انتخاب من يمثلهم فى كل الأمور ويعرب عن آرائهم، وبذلك وضعوا ثقتهم فى سمو السيد محمد إدريس السنوسى الذى يمثلهم تمثيلاً حقيقيًا لما له من المكانة الرفيعة فى نفوسهم؛ حيث يرونه أحسن قدوة يقتدى بها، وقد قبل منهم ذلك على أن تكون هيئة منتخبة شورية مربوطة به ومربوط بها لتكون الأداة المبلغة والمعربة عن منتخبيها، وهى التى تمثل جميعهم تمثيلاً صحيحًا، وأن يعين وكيلاً لها يقوم مقامة فى حالة فى حالة الغياب ويكون من أفراد الهيئة فى حالة حضوره، وللهيئة الحق فى تثبيت هذا الوكيل أو رفضه بأغلبية الأصوات، وعليه حرر فى هذا التوقيع رؤساء القبائل الطرابلسية البرقاوية، والمولى سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه[1].

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٧٩).

وكان عدد الذين وقعوا على هذا التفويض من ترهونة، ومصراتة، وبنغازى وورفلة، وغريان والقصور، والمنفة والعواقير، والبراعصة، والعبيد، والمغاربة، والحاسة وغير ذلك من القبائل الطرابلسية البرقاوية، واحدًا وخمسين شيخًا منهم من المجاهدين القدماء، عبد السلام الكزة عن قبيلة العواقير، وصالح الأطيوش رئيس قبيلة المغاربة، وعبد الحميد العبار، وعون محمد سوف، وأحمد شتيوى، وعبد الحميد أبو مطارى، ومحمد توفيق الغريانى، وإبراهيم أحمد الشريف وغيرهم(١).

وبادرت «جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى» بعقد اجتماع فى دمشق فى يوم (٢٩ من شوال ١٣٥٨هـ)، واطلعت على صورة القرار عددًا م زعماء ورؤساء المجاهدين فى مصر بتاريخ (٩ من رمضان ١٣٥٨هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٩٣٩م) ووافقت عليه وقالت فى بيان لها: «إن جميع الزعماء ورؤساء القبائل وكبار المجاهدين بدون استثناء اتفقت كلمتهم وتعاهدوا جميعًا على أن يدينوا بالولاء والطاعة والإخلاص لسمو الأمير إدريس المهدى السنوسى، وأنهم عقدوا عليه الآمال فى حالهم ومستقبلهم، ليمثل أمام الحكومات والسلطات والهيئات أمانى القطر الطرابلسى البرقاوى تمثيلاً حقيقيًا صحيحًا، ويتكلم باسم الجميع على أن تكون هيئة منتخبة منهم وله نائب يقوم مقامه عند مسيس الحاجة، وتليت التوقيعات فتبين أنها هى توقعيات من بأيديهم الحل والعقد فى القطر الطرابلسى البرقاوى من الأحرار الذين عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وحقوق الأمة، فكان ما جاء فيه من الغاية السامية أبلغ الأثر فى نفوس الجميع؛ لأنه حقق رغباتهم الصادقة فى توحيد الكلمة، وبرهن على إثبات هذه الأمة فى المطالبة بحقوقها وولائها بالإمارة أولاً وآخرًا، وهو محط آمال الجميع فى الحاضر والمستقبل لإخلاصه للوطن ودفاعه عنه ولا يوجد من يشذ عن آرائه الصائبة ولا من يخالفه فى التضحية بالنفس والنفيس فى سبيل سعادة الوطن والأمة وإعلاء كلمة الله، وقرر الجميع تأييد قرار إخوانهم الطرابلسيين البرقاويين فى القطر المصرى بدون قيد ولا شرط، وكلفت الهيئة تنظيم هذا القرار الإجماعى للإعراب لسمو الأمير السيد محمد إدريس المهدى السنوسى عن الثقة التامة به والولاء الكامل له ما دام متمسكًا بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، متخذًا التأهبات اللازمة للقيام بعمل جدى حين تدعو الظروف إليه، وهذه تواقيعنا تشهد أمام الله والوطن بعهدنا هذا، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه، والله ولى الجميع»(٢).

وشرع إدريس السنوسى فى مفاوضة الإنجليز، فأسفرت مباحثاته عن السماح له بتشكيل فصائل من القبائل الليبية المهاجرة لاسترداد حريتها واستخلاص بلادها من العدو الإيطالى، وإعادة الاستقلال للبلاد، ودعا الأمير إدريس مشايخ القبائل وزعماء المجاهدين الموجودين

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٧٩).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٨٠).

بمصر، أو أولئك الذين كانوا فى خارجه، وذلك للاجتماع فى مكان بالقاهرة فى يوم الخميس (٨ من أغسطس سنة ١٩٤٠م)، من أجل دراسة الأحداث والتطورات الأخيرة.

وانعقد الاجتماع يومى (٨،٧ أغسطس، وفى يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٤٠م) وصلت الجمعية الوطنية الليبية إلى القرارات التالية:

١- وضع الثقة فى بريطانيا العظمى التى مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسى البرقاوى من براثن الاستعمار الإيطالى الغاشم.

٢- إعلان الإمارة السنوسية والثقة التامة بالأمير السيد محمد إدريس السنوسى المهدى المبايع له بالإمارة على القطرين.

٣- تعيين هيئة تمثل القطرين؛ طرابلس وبرقة تكون مجلس شورى للأمير المشار إليه.

٤- خوض غمار الحرب ضد إيطاليا بجانب الجيوش البريطانية وتحت علم الإمارة السنوسية.

٥- تعيين حكومة سنوسية تدير الشئون اللازمة فى الوقت الحاضر مؤقتًا.

٦- تعيين هيئة للتجنيد يكون مقرها ضمن مقر الحكومة السنوسية.

٧- التوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير المشار إليه بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد وإدارة الحكومة وتعيين ميزانية خاصة ونظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطنى حسب عوائد وتقاليد العرب.

٨- تفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية، والمالية، والحربية، التى توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله[١].

وفى يوم ٩ من أغسطس حضر الجنرال ويلسن إلى مكان الاجتماع فاستقبله سمو الأمير، وألقى الجنرال كلمة على الحاضرين قال فيها: «إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة فى سحق العدو المشترك هو تحرير لوطنكم واسترداد أملاككم وحريتكم واستقلالكم»؛ ثم أضاف إنه على استعداد لتزويد الجيش بكل ما يلزمه من أسلحة وعتاد[٢].

وقد تحدث الأمير إدريس السنوسى بنفسه عن تلك الأحداث فقال: «عندما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا بتاريخ (١٠ من يونية ١٩٤٠م) اتصل بى فى مقر إقامتى بمنقطة الحمام الجنرال

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٨١).
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٣٨٢).

ويلسون، وكان أمر القوات البريطانية فى مصر تحت قيادة الجنرال ويفل، وطلب منى المساعدة فى المجهود الحربى ضد الإيطاليين، فدعوت الزعماء الليبيين إلى عقد اجتماع بالقاهرة خلال شهر أغسطس، لمناقشة الإجراء الذى ينبغى لنا اتخاذه لتحديد موقفنا من الحرب، ولم يبد البرقاويون أى اعتراض على انتهاز الفرصة لاستئناف الجهاد ضد الطليان، وباعتبار أنه لا يمكن أن يعود علينا إلا بالكسب، فنحن لن نخسر أكثر مما خسرنا على أى حال.

ولكن موقف الطرابلسيين كان أكثر حرجًا بسبب الخوف من أن تنتهى الحرب بانتصار دول المحور، فيأخذ عليهم الطليان أنهم حاربوا فى صفوف الأعداء، وكنت شخصيًا على يقين كامل أن النصر النهائى سوف يكون من نصيب الحلفاء لإيمانى بحتمية انتصار الحرية على الطغيان، وعملت جهدى لإقناع الحاضرين بأن يضعوا ثقتهم فى قدرة بريطانيا، بحيث نوحد كلمتنا فى مساندتها فى الحرب.

وجاء قرار الأغلبية «باستثناء بعض الطرابلسيين» معبرًا عن الثقة فى الحكومة البريطانية، والاعتراف بى مفوضًا عن الليبيين فى علاقاتهم مع بريطانيا، والاتفاق على إنشاء جيش ليبى يسمى «القوة العربية الليبية» للقتال إلى جانب القوات البريطانية ضد الإيطاليين، فأصدرت تعليمات فورية بالبدء فى تجنيد جيش الليبيين المقيمين بمصر، وَعُين قائدًا للجيش ضابط بريطانى برتبة كولونيل «أى عقيد» يدعى بروميلو سبق له العمل فى خدمة القوات العربية العراقية، بينما أقيم مركز القيادة بفندق سميراميس فى القاهرة، بينما أقيم ضابط الاتصال الكولونيل آندرسون من خبرة المتخصصين فى الدراسات العربية، وقد أمضى فترة من الوقت، فخبرته بالشئون المحلية ساعدت كثيرًا فى تسهيل إنشاء الجيش.

وكان مكتبى فى شارع بركات ومحل سكنى شقة بالدور الأرضى فى مبنى من طابقين بشارع حشمت باشا فى حى الزمالك، والقوة العربية الليبية تكونت فى معظمها من البرقاويين اللاجئين بمصر، ومن ضمنهم بعض المجاهدين الذين فروا بعد اشتراكهم فى مقاومة الإيطاليين، ولم يلبث الجيش أن وصل إلى قوة قوامها أربع كتائب قتالية وكتيبة أركان، وكان مستودع السلاح والذخيرة ومعسكر التدريب يقع عند الكيلو (٩) بجوار الأهرام، استغرقنى العمل فى الإشراف على تجنيد المتطوعين ومعالجة المشاكل العديدة المتعلقة برفع مستوى القدرة القتالية للجيش الذى كان على أحر من الجمر لخوض المعركة، وبعد أول هزيمة لحقت بجيش غراسيانى قرب سيدى برانى فى (ديسمبر ١٩٤٠م) وقع فى الأسر آلاف الليبيين المجندين بالجيش الإيطالى ونقلوا إلى معسكرات أسرى الحرب فى منطقة قناة السويس؛ فأخذت أتردد على تلك المعسكرات لمحاولة إقناعهم

بالانضمام إلى القوة الليبية وامتنع أغلب الطرابلسيين خوفًا من تعريض عائلاتهم لانتقام الطليان من جهة؛ ولأنهم من جهة أخرى كانوا سعداء بمجرد الخروج من خضم الحرب، وفى الوقت نفسه كانت وحدات الجيش الليبى الناشىء ترسل إلى خطوط القتال أولاً بأول حالًا ينتهى تدريبها، ومنها كتيبتان شاركتا فى معركة الدفاع عن طبرق (عام ١٩٤١م)(١).

ووجه الأمير إدريس نداء نقلته أمواج الأثير إلى شعبه فى ليبيا بين لهم فيه تحالفه مع بريطانيا ضد إيطاليا، وحثهم على الجهد والعمل للتخلص من الاستعمار الإيطالى البغيض(٢).

أولاً: الليبيون فى الحرب:

قدم الليبيون بقيادة السيد إدريس كل ما عندهم لدعم الحلفاء ضد المحور، وكانت كتائب المجاهدين قد قامت بدور بارز فى حرب الصحراء، وكذلك الأهالى المدنيون فقد كانوا يقدمون للجيش البريطانى مساعدات جريئة بعد أن أصبحت بلادهم كلها ميدان قتال هائل مزروع بالألغام، وكانت قبائل برقة تأوى الجنود البريطانيين الفارين من الأسر، وقامت بتوصيلهم إلى مواقع وحداتهم التى ضلوا طريق العودة إليها فى بعض الأوقات، وكان هذا الموقف عظيم الأهمية والفائدة للوحدات البريطانية العاملة خلف خطوط الأعداء، مثل مفرزة العمليات الصحراوية البعيدة المدى التى كانت تغير على المواقع الأمامية للإيطالين فى الصحراء الليبية ومثل قوة بنياكوف لحرب العصابات التى اشتهرت باسم «جيش بوسكى الخصوصى».

وقد اعترف البريطانيون رسمياً بأهمية المساعدات التى قدمها السنوسيون أثناء الحرب، وذلك حين نوه بها وزير الخارجية إيدن فى تصريح أدلى به أمام مجلس العموم البريطانى بتاريخ (٨ من يناير ١٩٤٢م)(٣)، وفيما يلى نصه:

«اتصل السيد إدريس السنوسى بالسلطات البريطانية فى مصر قبل مضى شهر واحد على سقوط فرنسا، بينما كان موقفنا فى إفريقيا متأزمًا للغاية وبعدئذ تم إنشاء قوة سنوسية من بين أنصاره الذين فروا من الاضطهاد الإيطالى فى فترات مختلفة خلال العشرين سنة الماضية، وهذه القوة أدت عدة مهام جديرة بالاعتبار أثناء المعارك الظافرة التى دارت بالصحراء الغربية شتاء عام (١٩٤٠- ١٩٤١)، كما أنها تقوم بدور فعال فى سياق الحملة الجارية حاليًا، وأود أن أنتهز هذه الفرصة للتعبير عن مشاعر إدريس السنوسى وأنصاره دعمًا للمجهود الحربى البريطانى، ونحن

(١) انظر: السنوسية دين ودولة (ص ٦٤، ٦٥، ٦٦).
(٢) انظر: إدريس السنوسى، للأشهب، (ص ٧٦).
(٣) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا (ص ٦٦، ٦٧).

نرحب باشتراكهم مع قوات صاحب الجلالة فى مهمة دحر العدو المشترك، وأن حكومة صاحب الجلالة مصمِّمة على ألا يعود السنوسيون فى برقة بأى حال من الأحوال، للوقوع تحت السيطرة الإيطالية مرة أخرى لدى انتهاء الحرب»(١).

ثانيًا: وصف آثار الحرب على برقة:

كان غرب مصر وبرقة مسرحًا لأطول حملة فى الحرب العالمية الثانية، وضربت المدن والموانئ والقرى والمطارات والطرق والتركيبات التى أقامها الطليان، وتحطم أمل إيطاليا فى استعمار ليبيا، وخلال احتلال بريطانيا لبرقة (سنة ١٩٤٠م- ١٩٤١م) عندما طردت جيوش المحور مرة أخرى من برقة، كانت الديار الليبية ترزح تحت الدمار والخراب.

وقد كتب الصحفى البريطانى مورهيد عن ذلك فقال:

المدينة الجميلة «درنة» قد أحرقت ونهبت وخربت المزارع الإيطالية، وأما بنغازى فى (شتاء ١٩٤١م) «فلم تعد مدينة البتة» فقد حطمتها المتفجرات الثقيلة، وتركتها خالية خربة ومحزنة باردة، وأغلقت المتاجر والأسواق، وتتابع الخراب بعد الخراب واستمر سلاح الطيران البريطانى مدة عام كامل يقصف المدينة ليل نهار حتى أصبحت أثرًا بعد عين(٢)، ومرة أخرى أجبر البريطانيون على التخلى عن برقة، ولم يعودوا لاحتلالها إلا فى (خريف ١٩٤٢م) للمرة الثالثة والأخيرة، وأقلع الاستعماريون الإيطاليون الذين كانوا قبل سنوات أربع قد حاولوا أن يدفعوها بطابع الاستقرار، ولكنهم فرُّوا إلى إيطاليا هاربين، أما بقية المدنيين منهم فقد رجعوا لبلدهم أو هربوا إلى طرابلس برآ أو بحرآ أو جوآ.

تسليم طرابلس:

وفى يناير (١٩٤٣م) كان جيشان من جيوش الحلفاء يلتفَّان حول طرابلس؛ جيش مونتجمرى الثامن، وجيش فرنسى بقيادة ليكلرك الجنرال الفرنسى، ويصف حاكم طرابلس الإيطالى الذى سلم المدينة للحلفاء تلك اللحظات الرهيبة بالنسبة له: «كانت تلك المقابلة أول مقابلة مع القوات البريطانية، وكنا نتصور أنها ستكون لحظة مهيبة أو عنيفة، وكنا نتوقع عدوان المعتدى ونعد أنفسنا لما يجرى وأصبح الحاكم واحدًا من الفاشيست الكثيرين الذين ذهلوا فى ذلك الصباح، لقد ذهب كل القادة الذين أقسموا اليمين على الدفاع عن المدينة حتى آخر حجر -كلهم هربوا، وأقلعت آخر

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا (ص ٦٧).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا، (ص ١٧٢، ١٧٣).

سفينة إسعاف من زوارة- لا تحمل الجرحى، ولكن تحمل الضفائر الذهبية والصدور المحلاة بالحرير والأوسمة»، ويضيف حاكم طرابلس الإيطالي في مرارة «إن المدنيين الذين لا يحملون الأوسمة هم الذين بقوا هناك» وفي صباح (٢٣) يناير تسلّم «مونتجمرى» عند باب ابن غشير المدينة بصفة رسمية بحضور الحاكم ونائبه ورئيس البلدية واحتلت بقية البلاد وانتزعت من الهيمنة الإيطالية، بينما الطبل الأجوف موسوليني يحث شعبه على تحمّل خسارة طرابلس «بشجاعة ورجولة رومانية» وحينها كان وزير الدولة البريطاني لشئون الشرق الأوسط يعلن بأن قادة الفاشيست بليبيا سيعتقلون، وأن المنظمات الاجتماعية والنوادي الإيطاليةستغلق، وأن المدارس الفا شستية ستنتهي.

ثالثاً: أثر الليبيين في القتال:

لعب الجيش الليبي دوراً نشيطاً في حملات (١٩٤٠ - ١٩٤٣) وساعد المدنيون الليبيون جيوش الحلفاء المقطوعة خلف خطوط المحور، وترك المجندون الجيش الإيطالي كلما واتتهم الفرصة، والتحقوا بالبريطانيين، وقد انتقد بعض القادة من الليبيين سياسة إدريس في تأييد بريطانيا قبل أن يحصل على ضمانات أكيدة باستقلال ليبيا، وزاد ضغطهم لدرجة إن بعض القادة اضطر أن يهدد بالانسحاب من التعاون مع بريطانيا، وكان كل ما وعد به البريطانيون علانية هو أن أعلن إيدن وزير الخارجية في مجلس العموم في (٨ من يناير ١٩٤٢م) «بأن حكومة صاحب الجلالة مصممة في نهاية الحرب على أن لا يرجع السنوسيون في برقة بأي حال تحت السيطرة الإيطالية».

وإعلان «إيدن» المذكور لم يعد حتى باستقلال برقة، فضلاً عن عدم ذكره لمنطقة طرابلس، والواقع يمكن أن يفهم منه الإنذار المسبق بنية السيطرة البريطانية وقوة أخرى، ومع ذلك وبعد الرفض البريطاني لحق إدريس في المطالبة باستقلال ليبيا في فبراير من (١٩٤٢م) قنع إدريس بالوعود الشفوية التي أعطيت[1]، ومعلوم أن الضعيف لا يستطيع أن يملي شروطه في عالم السياسة والهيمنة على الشعوب، ولكن الضعيف إن دخل في هذه اللعبة عليه أن يسمع ويطيع وينفذ ويرضى على الموائد.

لقد اعترفت بريطانيا بالدور الخطير الذي قام به الليبيون في الحرب العالمية الثانية ضد المحور، وتحدثت الصحافة في تلك الفترة عن دور الليبيين في تلك الحرب، فبعنوان «صفحة جديدة في تاريخ ليبيا، للمستر هـ. م فوت» [H.M.Foot]، مساعد المعتمد البريطاني في عمان، ونائب

(١) انظر: تاريخ ليبيا، جون رابت، (ص ١٧٢، ١٧٣).

الحاكم العسكرى البريطانى فى برقة سابقًا، مجلة المنتدى الفلسطينية العدد السابع (أكتوبر من سنة ١٩٤٣م) قال:

قليل من الناس يذكر حملة الصحراء الغربية المصرية فى الحرب الماضية أيام كنا نحارب عدواً غير جيش ألمانيا الإفريقى وغير الجيوش الإيطالية، نعنى بهذا العدو جماعة صغيرة من الأعراب، كانت تركب الإبل وليس لديها من السلاح إلا النزر اليسير، ولكنها مع ذلك شغلت جزءاً هاماً من القوى البريطانية طول الحرب الماضية تقريبًا، ولم يكن بين هؤلاء الليبيين وبين بريطانيا العظمى خلاف، ولكنهم عقدوا النية على طرد الإيطاليين من بلادهم فتصدوا لمنازلة قوى الحلفاء الجبارة.

إن المقاومة التى أبداها هؤلاء العرب القلائل ضد الفرق الإيطالية تلك المقاومة الطويلة الباسلة، لهى قصة رائعة من قصص البطولة، فقد أمضوا فى كفاحهم ثلاثين عامًا بين تلال برقة وصحاريها، وفى أثناء ذلك علق زعماؤهم على أعواد المشانق وصودرت أملاكهم ومواشيهم.

أما الأهالى أنفسهم فإنهم سيقوا مع أطفالهم إلى معتقلات كبيرة فى صحراء العقيلة ومع كل ذلك لم يدب اليأس فى قلوبهم، وإنه ليتسنى للذين خالطوا هؤلاء العرب منا واستمعوا فى مضاربهم إلى حديث الثورة التى أشعلوا نيرانها ضد الطليان أن يتفهموا قوة كفاحهم، وما ينطوى عليه من مجد وفخار، فكثير من رجالهم مازالوا يحملون آثار جراح بليغة، ويندر أن تجد عائلة منهم لم تصب فى فردٌ من أفرادها على يد الإيطاليين.

إن تلك الشجاعة التى اشتهر بها الليبيون عن جدارة واستحقاق قد تبدت مرة أخرى فى الحملات الأخيرة، فنحن لا نزال نجهل قسطًا كبيراً من المساعدة التى قدموها لنا خلف خطوط الأعداء، كما أن مساعدتهم الفردية لكثير من الضباط البريطانيين شواهد ناطقة على الكرم العربى وحب العرب للمجازفة.

يقول هؤلاء الضباط إن كل خيمة عربية كانت بمثابة ملجأ، وإن كل عربى كان بمثابة دليل، ومن طريف ما يروى أن أحد المدفعيين البريطانيين أصيب بجراح فآواه عربى إلى أحد الكهوف وسهر على راحته ستة أشهر، فلما تماثل للشفاء حمله فوق جمله مسافة (٤٠٠ ميل) وأوصله إلى العلمين، قام العربى بكل ذلك وسلم الجندى الجريح إلى إحدى الوحدات دون أن يعلن عن اسمه أو يطلب مكافأة، وليس هذا الحادث هو الوحيد من نوعه، فإنه ما كان ليتسنى لمئات من جنودنا أن يعودوا إلى وحداتهم دون مساعدة العرب، تلك المساعدة التى كانوا يقومون بها عن طيب خاطر، والتى كانت تعرض حياتهم لخطر الموت، ولم يتطرق الوهن إلى قلوب العرب حى كنا نتراجع تراجعًا كليّاً، وحين ظن الناس أن الدائرة قد دارت علينا، بل كانوا أبدًا على استعداد لتقديم المساعدة.

وقد جرى أثناء احتفال عظيم فى درنة أقامة الطليان على أثر استيلاء المحور على طبرق أن كان بين النظارة ضابط بريطاني متخف، فلم يفكر واحد من الأهلين أن يكشف أمره ويفضحه.

ومن الطبيعى أن تتضاءل قوة العرب بعد كفاح دام ثلاثين سنة، فقد انتهت ثورتهم بسقوط الكفرة (١٩٢٩م)، وكانت النتيجة أن انتشر الليبيون المنفيون فى أنحاء الشرق الأدنى، أما الذين بقوا منهم فى برقة فقد أرغموا على قبول حكم الموظفين الطليان والقانون الإيطالى أيضًا، وشر من هذا أن اللغة الإيطالية حلت محل اللغة العربية فى المدارس وأخذ الجيل الناشئ ينسى العربية.

ولقد كنت أخشى أن نجد فيهم شعبًا متخاذلاً جبانًا، ولكن الأمر كان لحسن الحظ عكس ذلك، فالشيوخ والزعماء مستقيمون فى معاملاتهم، عادلون فى أحكامهم، يتصفون بالشجاعة والصراحة، نعم إن وقت التخلص من الاضطهاد قد جاء وكان مجيئه فى الوقت المناسب -قبيل فوات الأوان- لو تأخر الخلاص نصف جيل لتمت عملية تحويل الشباب العربى إلى خدم أذلاء لإيطاليا.

ولو سئلت عن أهم ما يستلفت النظر فى برقة لقلت إنه النشاط العجيب والعزيمة الماضية التى يتحلى بها قوم يجمعهم دين واحد، وتجمعهم شجاعة يمتاز بها كل واحد منهم، . ومقاومة مستمرة للاضطهاد، فقد مضى عليهم ثلاثون عامًا وهم يقاسون الأهوال، وترك ذلك فى نفوسهم أثرًا سيئًا فهم لا يتحلون باللطف الزائد والدماثة التى يتحلى بها العرب فى سائر الأقطار، وتنقصهم خبرة الآخرين ومعارفهم، أما التقاليد العربية القديمة وأعنى بها الكرم والشجاعة، فلا ينازعهم فيها منازع[(١)].

وأما الأستاذ «ف. بنيكون» فقد ألقى محاضر ة أذيعت فى محطة لندن اللاسلكية فى (٣١ من مايو سنة ١٩٤٧م) بعنوان: «عرب ليبيا الكرام» جاء فيها: اشتركت فى القتال أثناء الحرب الماضية بين بلدان مختلفة، مدة خمس سنوات متتالية، ومازلت أستعيد ذكراها جميعًا بالغبطة والسرور، لا لشيء سوى لأنى رجل حرب وقتال ونزال، ولكن المدة التى أحمل لها أطيب الذكريات هى تلك التى قضيتها فى برقة، بين الاحتلال البريطانى الثانى للجبل الأخضر وتحرير البلاد نهائياً بعد معركة العلمين، ومن أسباب ذلك أننى وإن كنت إنجليزيًا وربيت فى إنجلترا على الطريقة الإنجليزية، إلا أنى أجد الحياة مع العرب أخف ظلاً وأسعد حالاً من الحياة فى إحدى المدن الغربية الكبيرة، وهناك سبب آخر هو أنى وثقت عرى الصداقة مع بعض رجال القبائل العربية هناك، وهم رجال يمتازون بذكاء ووقار وشجاعة عظيمة، وخلال سامية وأخلاق فاضلة ولا تقل منزلتهم فى نفسى عن منزلة شخص آخر من بنى وطنى وجلدتى.

(١) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، د. محمد فؤاد شكري، (ص ١٠٧، ١٠٨).

ولعلى أحمل للجبل الأخضر هذه الذكريات الطيبة لسبب ثالث هو أن العرب هناك علّمونى طرقًا جديدة فى فنون الحرب والقتال، علّمتها، بدورى فيما بعد لزملائى الجنود، ومارسناها على نطاق واسع فى إيطاليا وغيرها بنجاح وتوفيق.

زرت الجبل الأخضر لأول مرة عندما احتللنا مدينة درنة فى (سنة ١٩٤١م)، وهناك وثّقت عرى الصداقة والمودة مع كثيرين من العرب، أخص بالذكر منهم الشيخ عبد القادر بوبريدان والشيخ علىّ بو حامد، وكلاهما من قبيلة العبيدات، وبعد بضعة شهور منيت الجيوش البريطانية بنكسات متوالية، واحتل العدو برقة مرة أخرى حتى بلدة غزالة غربى طبرق، وكانت هيئة القيادة البريطانية العليا فى القاهر ة فى حاجة ماسة إلى معلومات عن حركات العدو، فأرسلت بناء على طلبى لجمع تلك المعلومات بمساعدة العرب فى منطقة تمتد من بنى غازى إلى غزالة، ومن المهام الأخرى التى كلفت بها أن أنسف مستودعات العدو وطائراته.

أنزلتنى إحدى الدوريات مع جماعة فى إحدى الأمسيات بالقرب من «بلدة الزلخ» ومن هناك امتطيت صهوة الخيول والجمال إلى المكان الذى نقصده، وكان بين أفراد جماعتى عربيان: أحدهما الملازم سعد علىّ رحومة وهو من الجيش السنوسى التابع للشيخ السيد إدريس السنوسى، والآخر جندى عادى، وزرت فى المرحلة الأولى معظم قبائل العبيدات الغربية، وبعض قبائل البراعصة والدرسة، وقوبلنا فى كل مكان بالترحيب الودى وكرم الضيافة رغم أن البلاد بأسرها كانت فى قبضة العدو، ورغم ما يتعرض له العرب من أخطار محققة، إذا عُلم أنهم كانوا يأوون ضابطًا بريطانيًا، وآمل أن يكون كل من السيد عبد القادر بوبريدان والسيد علىّ بو حامد ما زالا على قيد الحياة إلى الآن، وأن يذكرا مجلسًا عقدناه فى ذلك الوقت مع مشايخ قبيلة العبيدات الآخرين فى مكان لا يبعد كثيرًا على درجة عظيمة من الخطورة والأهمية، بل ويمكننى أن أقول الآن: إن الحرب فى الصحراء ربما اتخذت شكلاً آخر بدون تلك المعلومات، ويرجع معظم الفضل فى ذلك إلى إخلاص العرب الذين يرقبون بعين لا يغمض لها جفن طريق مرتوبة، وأولئك الذين أخذوا يتنقلون من بنغازى إلى المرج إلى القبة إلى درنة إلى المخيلى للحصول على المعلومات عن حركات العدو وخططه الحربية.

وكان جمع المعلومات جزءًا يسيرًا من واجباتنا، فمن عملياتنا الهجومية الموفقة العديدة غزوة قما بها فى (شهر يوليو سنة ١٩٤٢م) بمساعدة العرب الذين وضعوا خطتها بدقة ومهارة لنسف مستودع كبير للبترول خارج بلدة العقبة مباشرة، وكانت تدور فى تلك الوقت معركة مهمة فى عين غزالة، وكان لخسارة العدو لتلك الكمية الهائلة من البترول فى هذا الوقت الحرج، أكبر الأثر فى عرقلة عملياته الحربية.

وأصبنا بعد ذلك بنكبات متوالية وفقدنا «طبرق» ولو لم تكن للعرب قلوب قدت من الصلب جرأة وشجاعة، لاعتقدوا أننا فقدنا كل شيء ولحاولوا الفرار بأنفسهم، ولكن أصدقاءنا العرب وقفوا إلى جانبنا قلبًا وقالبًا، ولم يخن من سكان الجبل الأخضر بأسره سوى شخص واحد يجدر بى أن لا أذكر اسمه لينطوى فى زوايا العار والنسيان، وقد ذهب إلى الجنرال بياتى القائد الإيطالى وأطلعه على أمرنا وأمر محطتنا اللاسلكية، ولكن خيانته لم تجده فتيلاً لأن القبائل ناصرتنا، وطافت بدوريات الجنرال الإيطالى فى كل مكان إلا لمكان الذى كنا فيه فجعلت مهم أضحوكة الصحراء بأسرها.

ولقد غررنا بالعدو مرات عديدة لا يتسع بى المقام لذكرها الآن، ولكن أريد أن أتحدث عن مغامرة لنا قدر لها النجاح والتوفيق بمساعدة إخواننا العرب، وقد ذهبت فى إحدى ليالى الصيف إلى درنة عقب سقوط طبرق وهناك رسمنا أنا والشيخ البرعصى خطة لتهريب عدد كبير من الأسرى البريطانيين الموجودين فى قبضة الطليان وكان بعضهم فى المستشفى وبعضهم الآخر فى المعسكر خارج المدينة التى كانت تعج بالجنود والألمان والطليان، وأنها كانت تضم بعض العناصر المعادية لبريطانيا فى ذلك الوقت، وكنت أثناء تلك الغارة أرتدى ملابس عسكرية كضابط محارب، فلم يكن عقابى إذا وقعت فى يد العدو يتجاوز الاعتقال حتى نهاية الحرب، ولكن إذا قدر سوء الطالع لأحد زملائى العرب أن يقع فى قبضة العدو لكان جزاؤه الموت على حبل المشنقة.

لن أنسى مأدبة العشاء التى أقامها لى السيد علىّ قبل رحيلى، حيث كنا على أحسن ما يكون من البهجة والسرور، فيمكنتى إذًا أن أخفى ما أشعر به من سعادة لذكريات الجبل الأخضر، وأنا أعلم أن الأخطار والمشاق والأهوال لم توهن من عزائم رجاله قيد شعرة، بل أطلقت ألسنتهم بالفرح والفكاهات.

ولم أكن الشخص الوحيد الذى نعم فى ظل العناية العربية الكريمة بالراحة والأمن والطمأنينة، فإن مئات من الطيارين والأسرى الفارين وغيرهم ممن ضلوا عن وحداتهم كانوا موضع عناية العرب وحُسن ضيافتهم إلى أن أعادوهم سالمين إلى صفوفهم، وتتجلى قيمة هذه المعونة إذا عرفنا أن العرب أنفسهم فى ذلك الوقت كانوا يعانون نقصًا فادحًا فى جميع ضروريات الحياة، فلم يكن لديهم ما يكفى من الملابس، وكان الشاى والسكر أثمن من الذهب، ومع ذلك كانوا لا يتاونون عن التضحية بالقليل الذى لديهم عن رضا وطيب خاطر.

ولعلى أكون مبالغًا إذا قلت إن جميع جنود الجيش البريطانى الذين قاتلوا فى الجبل الأخضر يدينون بالشكر للعرب، فكثير منا مدينون لهم بحياتهم، وسوف لا ننسى كيف مهد ولاء العرب وإخلاصهم وتضحياتهم طريق النصر الأخير الحاسم.

لقد مر عرب برقة على وجه خاص بوقت عصيب حقاً، فقد خاضوا غمار حروب مستمرة متواصلة مدة ثلاثين عاماً، فقدوا فيها نصف عددهم ولكن روحهم المعنوية مازالت قوية، ومازلوا يعيشون كما عاش آباؤهم وأجدادهم من قبل رجالاً محاربين أحراراً.

لقد أتيحت لى فرصة المعيشة مع هؤلاء القوم القليلين فى العدد الأقوياء بالروح، وأستطيع أن أقول إنى لا أثق فى شعب آخر مثل ثقتى بهم، وأرجو أن تتاح لى فرصة زيارة أصدقائى فى الجبل الأخضر مرة أخرى، وآمل أن أراهم جميعاً فى أحسن صحة وأسعد حال، وقد اتسعت مضارب خيامهم، وزادت أنعامهم وأصلحت آبارهم، ونشر السلام جناحيه على ربوعهم اليانعة الخضراء[(١)].

هذه بعض الوثائق التاريخية المهمة من بعض ضباط الجيش البريطانى من الذين شاركوا فى الحرب العالمية ضد دول المحور، وهى تدلنا على الدور العظيم الذى قام به المجاهدون لتحرير بلادهم من إيطاليا.

رابعاً: إعلان مونتجمرى بعد الاحتلال الثالث وحكم الإدارة البريطانى:

وفى أعقاب الاحتلال البريطانى الثالث لمنطقة برقة، أعلن الجنرال «مونتجمرى» فى (١١ من نوفمبر ١٩٤٢م) فى رسالة إلى الشعب بأن المنطقة ستدار من قبل حكومة عسكرية بريطانية حتى نهاية الحرب العالمية، وليس حتى نهاية الحرب فى شمال إفريقيا، وأضاف قائلاً: «لن تتدخل الحكومة العسكرية فى المسائل المتعلقة بالشئون السياسية الخاصة بالمستقبل ولكنها ستحكم بحزم وعدل وبالنظر إلى مصالح الشعب فى البلد».

وفى (يناير ١٩٤٣م) كانت ليبيا كلها قد احتلت، وأصبحت تحت الحكم العسكرى لقوتين: البريطانية فى منطقتى برقة وطرابلس، والفرنسية فى فزّان حسب اتفاق عقد بين الجنرال «إلكسندر» الإنجليزى والجنرال «ليكلرك» الفرنسى[(٢)].

الطريق نحو الاستقلال:

كان طريق ليبيا نحو الاستقلال فريداً من نوعه بالمقارنة مع جميع البلدان الأخرى، التى استقلت بعد الحرب العالمية الثانية، ففى (سنة ١٩٤٣م) أصبحت القوات الإيطالية، وكذلك سلطتها لا وجود لها فى البلد وحلت محلها القوات والسلطات البريطانية والفرنسية، وفى نهاية

(١) انظر: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، (ص ١١٠، ١١١، ١١٢).
(٢) انظر: تاريخ ليبيا، (ص ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨).

الحرب اشتركت كل من الولايات المتحدة وروسيا مع بريطانيا وفرنسا كقوى تريد «مصالح» لها فى ليبيا، وتريد أن يكون لها دور فى تقرير مصير مستقبلها، وكنتيجة لذلك وجهت حركة الاستقلال، لا كما حدث فى المستعمرات الأخرى ضد القوى الاستعمارية الحاكمة، بل ضد المقترحات التى ظهرت فى الحوار العالمى حول مستقبل ليبيا، والنقطة التى اتفق عليها فى هذا الحوار وهى اعتبار الليبيين غير أكفاء لحكم أنفسهم، وكان الرأى الغالب أن تقسم ليبيا وتوضع تحت وصاية قوتين أو ثلاثة لمدة أربع سنوات بعد الحرب.

وفى (سنة ١٩٤٥) ظهر رأى قوى ضد استقلال ليبيا وبموافقة الاتحاد السوفيتى أيضًا، وكان الضمان الوحيد الذى أعطى لليبيين حول مستقبلهم هو بيان «إيدن»، ولكن لم يطبق إلا فى منع رجوع الإيطالين إلى برقة، وكان شعبنا المنكوب فى تلك الفترة خاليًا من قيادة إسلامية رشيدة أو شخصيات إسلامية فعالة، إذ جل القادة والدعاة استشهدوا وقتلوا وماتوا فى الفترة العصيبة التى سبقت هذه الأحداث، فلم تبق إلا بعض الشخصيات السياسية الوطنية الخيرة والجمعية المحلية وبعض القيادات الدينية الضعيفة، وزعماء الحركة السنوسية الذين أصبحوا يعانون من ضغط الإنجليز وكان تعداد شعبنا قد بلغ أكثر من مليون بقليل، وكانت تجربته السياسية بسيطة وكان مستوى التعليم بينهم منخفضًا، وكانوا فقراء للغاية، إذ كان يقدر متوسط الداخل الفردى (١٥ جنيهًا) فى العام.

وقد تلا الحرب انهيار اقتصادى وتضخم خطير وانتشرت البطالة وحطمت الحرب المدن والقرى والمنشآت والطرق وخاصة فى منطقة برقة، وزرعت الأراضى بالألغام لذا كانت ليبيا (سنة ١٩٤٥م) -وهى تحت احتلال جيوش ثلاثة- ضحية حرب، وفى حاجة إلى مساعدات اقتصادية وطبية واجتماعية وفنية وغيرها.

وحكمت الإدارة الحربية البريطانية فى منطقتى طرابلس وبرقة، والإدارة الفرنسية فى فزّان حسب شروط اتفاقية «لاهاى» لسنة (١٩٠٧م) الخاصة بالتصرف الحربى والعسكرى.

واعتبرت ليبيا مقاطعة عدو محتلة، وكانت حكوماتها، حسب القانون الذى تقوم على أساس العناية والصيانة، وبقيت القوانين السارية المفعول زمن الاحتلال الإيطالى هى نفسها السارية المفعول بعد ذلك، مع تجريدها من العناصر الفاشيستية، ومن سوء حظ بلادنا العزيزة أن تبقى هذه الإدارات الأجنبية العسكرية طيلة تلك السنين العديدة، وأصبحت السلطات البريطانية العسكرية -التشريفية والإدارية والسياسية -كلها تصدر عن القائد العام لقوات الشرق الأوسط وعين (سنة ١٩٤٤م) العميد «بلاكلى» حاكمًا لطرابلس، والعميد «ويوكان كمنج» فى برقة[١].

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص١٧٨، ١٧٩).

وسيطرت بريطانيا على نواحى البلاد الإدارية واستعانت بعناصر ليبية وطورتها وأعدتها إعدادًا يخدم مصالحها، وبالنسبة لفزان فعزلت عن طرابلس وبرقة وأصبحت تابعة لفرنسا، التى جعلت من فزان قلعة لها فى الدفاع عن مصالحها فى إفريقيا، أما بريطانيا فكانت تنظر إلى منطقتى طرابلس وفزان على أنهما ذواتى أهمية استراتيجية، وأصبحت طبرق أشبه بوصلة فى سلسلة القواعد البريطانية من جبل طارق إلى سنغافورة، بينما صارت قاعدة العدم الجوية مركزًا مرحليًا على طريق جنوبى إفريقيا والمحيط الهندى والشرق الأقصى، وكانت بريطانيا تفكر فى أن تصبح منطقة برقة قاعدة بديلة فى الشرق الأوسط، إذا ما جلت عن قناة السويس، عند انتهاء الاتفاقية الأنجلو المصرية.

وقبل نهاية الحرب العالمية الثانية دخلت إلى ليبيا قوات غربية ثالثة بإقامة قاعدة «للوجود الأمريكى» وهى قاعدة أم عتيقية حاليًا، والملاحة سابقًا شرقى مدينة طرابلس، وقد ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أنفقت حتى (فبراير ١٩٤٥م) مبلغ مليون دولار؛ على تطوير قاعدة هويلس «سابقًا».

وأصبحت القاعدة الأمريكية الأولى فى إفريقيا التى لعبت فى الخمسينات دورًا مهمًا فى استراتيجية الحرب الباردة كواحدة من سلسلة القواعد الأمريكية من غربى أوروبا وشمال إفريقيا وجنوب شرقى آسيا التى تحيط بالكتلة الشيوعية[١].

وهذه الفوضى التى حدثت لبلادنا من أسبابها سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية التى حافظت على سلامة ديار المسلمين من نفوذ النصارى والملاحدة لقرون عديدة، وإن الأمة الإسلامية بدون خلافة رشيدة على منهج النبوة لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، وتكون ألعوبة فى أيدى الدول الاستعمارية الكبرى بأنماط وأشكال استعمارية متجددة، وتصبح لشعوبنا الإسلامية تبعية عمياء لغيرها فى أمورها العسكرية والسياسية والاقتصادية والتعليمية، وما وصل إليه شعبنا من انحدار شديد فى المجالات المتعددة إلا لبعده عن عقيدته وإسلامه ودينه.

خامسًا: اعتراض الليبيين لموقف الدول الكبرى من قضيتهم العادلة:

عارض المجاهدون الليبيون موقف الدول الكبرى من قضيتهم، ووجهوا نقدهم وسهامهم إلى الدول الكبرى وخصوصًا الحكومة البريطانية التى لم تلتزم بعهودها مع الليبيين، وبرر بعض الزعماء أسباب تحالفهم مع بريطانيا بأسلوب علمى أدبى رفيع، وهذه وثيقة تاريخية تثبت ما

(١) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت (ص ١٨٠، ١٨١).

ذهبت إليه وهى عبارة عن موضوع كتبه المجاهد عمر فائق شنيب فى (عام ١٩٤٥م) بعنوان «ليبيا مهد البطولة»، قال بعد أن افتتح موضوعه بالبسملة:

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

كثر الأخذ والرد فى قضية ليبيا الباسلة ذات الشعب المحارب فى صفوف الحلفاء من (سنة ١٩٤٠م)، ليبيا التى لم ترضخ للاستعمار الإيطالى فحاربت (٢١ سنة) بلا انقطاع ليبيا التى اشترك جيشها وشعبها فى طرد العدو منها، ليبيا المضحية بمليون نسمة من خيرة أبنائها فى سبيل عروبتها واستقلالها وحريتها، ليبيا التى رفعت رأس العروبة عاليًا من سنة (١٩١١ إلى ١٩٤٥م) وكثر عدد الطامعين فيها والمتزلفين إليها -بعد أن كان بعضهم علة شقاء عليها- وتعددت الدوافع فتباينت المنافع، وتضاربت الآراء فكثرت التكهنات وجلها -إن لم أقل كلها- كلا يخلو من غايات ومناورات ومساومات بعيدة عن محجة الصواب كل ذلك على حساب ليبيا الدامية.

وكل يدعى وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

حتى أبهم الأمر لا على المنصفين الذين يهتمون بلب الحقائق ليأخذوا منها درسًا وعبرة أو يجابهوا الموقف على ضوئها؛ بل على الليبيين أنفسهم الذين أصبحوا فى حيرة من أمرهم، وبمعزل عما يراد بهم، وهم الذين اشتهروا بالأفعال فى ميادين النضال، لا بزخرفة الأقوال، ولله در من قال:

إذا اشتبهت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

لذلك رأيت لزامًا على أن أصرخ بالحقيقة الناصعة ولو كانت مؤلمة جارحة من على منبر الصحافة العربية الحرة -التى أخذت فى هذه الأيام تشد أزر ليبيا والليبيين- لأضع أمام الرأى العام العربى ولو صورة «مصغرة» عن حقيقة ما قدمه الشعب الليبى من تضحيات قاسية فى سبيل حريته واستقلاله ومناصرته للحلفاء فى هذا الصراع العالمى، الذى قيل عنه إنه دفاع عن المبادئ الإنسانية الحرة للتخلص من الوحشية الغادرة، والاستعمار البغيض ليكون على بصيرة من قضية ليبيا العتيدة التى استهتر بها القريب وطمع فيها البعيد والتى لا تنفصل عن قضية العروبة المقدسة بأى حال من الأحوال.

١ - أقوال لإخوانى الليبيين -على اختلاف نزعاتهم وأهدافهم فى الطرق الموصلة لوحدتهم واستقلالهم-: احذروا ولا تنخدعوا، ووحدوا صفوفكم تحت راية أميركم، وأن ما ترون الآن فى جو السياسة هو الدعاية وأن ما تتصورونه منها هو الظن، وأن الظن لا يغنى عن الحق شيئًا،

فاعتمدوا على أنفسكم وأعدوا العدة لمستقبلكم، واشكروا كل من يناصركم لمبدأ العروبة الصادق الذي يحمى الجار ولا يرضى العار.

٢- وتيقنوا أن كان هناك ثمة عتاب أو لوم أو ما يسمى بمسئولية عما يقع فى ليبيا فى الحال، أو ما يقع لها فى الاستقبال فكل ذلك يقع بالدرجة الأولى على عاتق الدولة البريطانية، بل وعلى بعض رجالها الذين ائتمناهم على وطننا وأرواحنا، وسلمنا إليهم مقدراتنا، وذلك أمام التاريخ والإنسانية والوجدان، وبالدرجة الثانية على أنفسكم أنتم فيما إذا تخاذلتم وتفرقتم وغرتكم الأقوال المعسولة، فسبحتم فى بحر الأمانى المجهولة.

إن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، فشجرة الحرية رويتموها بدمائكم وستثمر بمجهوداتكم وتضامنكم، فالدولة البريطانية هى الدولة الوحيدة التى اشتهرت ببعد النظر وتقدير العواقب، ولكنها مع ذلك فى هذه القضية المهمة إن لم أقل أضرت بمصالحها الخاصة وبمصالح الليبيين عامة، أقول بصراحة إنها نسيت أو تناست لسوء حالها أو لسوء موقفها فى (سنة ١٩٤٠م) عندما كانت واقفة فى الميدان تجاه القوة الغازية الفاشستية وحدها بلا حليف ولا معين، مصيرها معلق فى كفة القدر، والعدو فى إبان منعته وسطوته يتقدم فى الأراضى المصرية بعد أن احتل موقع «سيدى برانى» وقد طعنت يومذاك فرنسا التى يقول عنها زعيمها المحنك الجنرال ديجول اليوم «يجب أن تعاد مستعمرات إيطاليا كلها» !!، طعنت من الخلف، فركعت على ركبتيها مسلمة للعدو، ولكن صدق من قال:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

ففى تلك الساعة العصيبة القاسية -على بريطانيا العظمى- كما قال عنها وزير خارجيتها المستر إيدن فى تصريحه لمجلس النواب البريطانى (يوم ٧ من يناير ١٩٤٢م) ما ندرجه بالحرف الواحد: «إنى أصرح بأن السيد إدريس السنوسى اتصل بالهيئات المسئولة بمصر، خلال شهر من انهيار فرنسا، فى وقت لم يكن الموقف العسكرى فى إفريقيا ملائمًا لنا على الإطلاق، فتألف جيش سنوسى يضم الذين تخلصوا من نير الظلم الإيطالى بين حين وآخر فى خلال العشرين سنة الماضية، وقام هذا الجيش بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية الموفقة فى الصحراء الغربية فى (شتاء ١٩٤٠م، ١٩٤١م) وهو الآن يقوم أيضًا بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية، فأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير العام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسى وأتباعه فى المجهود الحربى البريطانى، وإننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى مهمة سحق العدو

المشترك، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الإيطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال».

قلنا فى تلك الساعة العصيبة التى كانت فيها أعظم الدول ومنها فرنسا -لا الشعوب الصغيرة- ترتعد فرقًا وتنهار سراعًا تحت ضربات النازية الفاشستية الخاطفة، نعم فى تلك الساعة الرهيبة التى اقتنعت فيها الدول والشعوب بأن زوال بريطانيا من الوجود شىء مقدور، بل وأصبحت تحدد لانهيارها الأيام، لا الشهور تقدم أمير ليبيا الشجاع غير هياب ولا وجل وعقد مجلسًا حربيًا ضم ممثلى البلاد من قادة الحركة الوطنية قديمًا وحديثًا -وهم بقايا السيوف الأماجد ولم ينفض اجتماعهم التاريخى الذى حضره الجنرال ولسن (يوم ٩ من أغسطس ١٩٤٠م) وخطب فيهم قائلاً: «إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة فى سحق العدو المشترك هو لتحرير وطنكم واسترداد أملاككم وحريتكم واستقلالكم» ثم أعلن الحرب على إيطاليا وانضم إلى الحليفة البريطانية فى إبان محنتها وقدم لفخامة الجنرال ولسن قرار الجمعية الوطنية الليبية الذى رفعه بدوره إلى لندن، وبعد استعراض ما اتفق عليه زعماء المهاجرين بقيادة زعيمهم الأكبر إدريس السنوسى قال:

على هذا الأساس الواضح بنى جهاد ليبيا لحريتها واستقلالها، وعلى هذا الأساس سلمت ليبيا بأرواح أبنائها وثروتها ومدنها لبريطانيا العظمى، ولم يمض على هذا القرار برهة وجيزة حتى تكون الجيش الليبى بضباطه وجنوده، تحت علمه الوطنى الذى استعرضه الجنرال ولسن فى احتفال عسكرى رسمى، حيا فيه العلمين: الإنجليزى والليبى فأعجب به، وقد اشترك هذا الجيش فعليًا فى كل المعارك الدامية فى سيدى برانى وفى حصار طبرق، وفى طرد العدو من الوطن، وفى كل موقعة رأت القيادة العامة البريطانية وجوده فيها ضروريًا خلف خطوط الأعداء وخارجها، وفى الجبهة نفسها، وعلى قناة السويس وفى فلسطين -وغيرها- بكل شجاعة وبسالة وحزم.

وهل اكتفى أمير البلاد المطاع بذلك؟، كلا، بل أرسل الرسل إلى المدن والقرى ومواطن البادية ونشر فى طوال البلاد وعرضها أوامر كانت موفقة، ووقع النشرات التى كانت تلقى على الشعب من الطيارات، واستصرخ الشعب مناصرة بريطانيا من محطات الإذاعة وزود ضباط الاستعلامات البريطانية الذين يعملون خلف خطوط الأعداء سرًا بالرجال الأمناء والتوصيات للزعماء وأهل الوطن لإخفائهم وإرشادهم ومدهم بالمساعدات والمؤن.

فهب الشعب الليبى عن بكرة أبيه رجالاً ونساءً وشبابًا، كل يعمل على قدر استطاعته خلف خطوط الأعداء فى إخفاء ضباط الاستعلامات وتموينها، وإنقاذ الجرحى وتمريضهم وإخفائهم

وتهريب الأسرى من الضباط والجنود البريطانيين والطيارين الذين وقعوا فى قبضة الأعداء، وإبلاغهم مأمنهم وإظهار عورات الأعداء بواسطة الأدلاء على محال قواتهم واستحكاماتهم وطيرانهم ووقودهم، وتدمير أدوات حربهم ومؤنهم، حتى اضطر العدو أن يجعل فى ليبيا قوة عظيمة خاصة لمراقبة السكان والتنكيل بهم حيث ثبت لديه أن ضباط الاستعلامات البريطانيين كانوا يحضرون اجتماعات الأعداء سراً بدون أن يعرفوا بينهم، وذلك بفضل تدابير زعماء الوطن.

وقد استسلم ما ينيف عن (١٧,٠٠٠ جندى ليبى) -كان قد جندهم العدو قسراً- وذلك عندما شاهدوا أعلام وطنهم المقدسة تخفق على الدبابات ومزينة بها المصفحات وفى طلائع الجيوش؛ ثم اشترك معظم هؤلاء مع إخوانهم فى الدفاع عن أوطانهم وقد استشهد الكثير من جنود وضباط الجيش، كما أسر البعض منهم أثناء هذه الحرب براً وبحراً، ولم يزل بعضهم مفقوداً والبعض لا يعلم عنه شىء منذ وقع فى معتقلات الأعداء.

واستهدفت المدن للخراب الأبدى والدمار الذى لا يعوض، كطبرق التى أصبحت أثراً بعد عين، وبنغازى عاصمة برقة التى دمر ثلاثة أرباعها وقسماً من درنة وسرت وطرابلس وغيرها، وتعرض الكثير من المدنيين العزل للقتل والشنق والنهب، حتى أن الفاشيست شنقوا فى يوم واحد فى مدينة واحدة وهى المرج (٣٠٠ رجل)، وغير هذا كثير، حتى أنه فى ذلك اليوم صادر الفاشيست جميع ما فى الأسواق عنوة واقتداراً وهدما ما يقدر بنصف ثروة التجار، وتبددت ثروة البلاد وتشتت الأهلون سنين فى البرارى والقفار، بعد أن دمرت مدنهم وهدمت أملاكهم وقتلت نساؤهم وأطفالهم وضاعت ثروتهم، ولا مجال الآن لإيضاح موقف الليبيين فى انتصار العلمين، ذلك الانتصار الذى غير وجهة الحرب، وما قدموه من مجهودات كادت أن تقضى على البقية الباقية من الليبيين حيث نسفوا مخازن البنزين، ودمروا معدات الحرب التى أعدها الألمان والطليان كاحتياطى لهم فى برقة يعتمدون عليها فى تقدمهم على مصر، وهو ما يقدر بمئات الملايين، وسيخصص لذلك فصل مدعم بالأرقام والبراهين فى الكتاب الأبيض الذى ينشر على العالم قريباً عن موقف ليبيا المشرف فى هذه الحرب وعن معاملة أصدقائها الإنجليز لها، كما سيبين فيه عملهم ضد الطيارين الألمان الذين أنزلوا بعد الفتح بالبارشوات، أفبعد هذا كله، وبعد فتح ليبيا باشتراك أهلها وتضحياتهم هذه يجوز أن تكون ليبيا الباسلة موضع مساومة؟، أو يجوز أن تطبق فيها أحكام عسكرية جائرة وغير ملائمة لطبيعة أهلها؟، أو يطبق على شعبها المحارب فى صفوف الحلفاء ما يسمونه بالقانون الدولى؟، ذلك القانون الذى لم يطبق منه حرف واحد فى الحبشة لا، ولا حتى فى بلاد العدو المحتلة التى سلمت إدارتها لأهلها تحت أشراف الحلفاء، مع أن

وضع الحبشة لا يختلف عن وضع ليبيا دوليًا من حيث دخولها تحت الحكم الإيطالى والاعتراف الدولى بضمها إليها، وخروجها منه باشتراكها فى هذه الحرب؟، أو يبدل فى ليبيا استعمار باستعمار؟، أو تفكر إيطاليا الغادرة ناكثة العهود التى جربت حظها فى ليبيا، وخبرت ذلك الشعب العربى الأبى فى حروب متواصلة معه (٢١ سنة) أن تعود إليه؟.

اللهم إن هذا بعيد عن العدل، بعيد عن الإنصاف، وحتى عن أحكام القانون الدولى الذى قبر من يوم احتلال الحبشة فشيعت جنازته عصبة الأمم التى التحقت به (سنة ١٩٣٥م) وعن كافة الوعود والعهود وعن الغايات السامية التى قيل إن الدول الحليفة حاربت من أجلها، وعن الشرف البريطانى الذى لا يقر مثل هذا العمل فيما أظن بوجه من الوجوه.

فلو كانت الدولة البريطانية أقامت للحق والعدل والعهود أقل وزنًا أو قدرت هذه الجهود والتضحيات حق قدرها أو أعادت النظر فى موقفها (سنة ١٩٤٠م)- لأننا عند اشتراكنا معها لم تكن هناك روسيا ولا أمريكا ولا فرنسا- لما كانت فى هذا المأزق الحرج الدولى من جهة، ولكانت ليبيا اليوم تتمتع بحكومة وطنية تحت إدارة أميرها، مندمجة فى الجامعة العربية، ولما كان اختلف وضعها عن وضع الحبشة من يوم طرد العدو منهما.

ولكن الدولة البريطانية بجحود بعض رجالها لهذه التضحيات وبميلهم للأعداء -لأنهم إفرنج- وتخليهم عن الأصدقاء -لأنهم عرب-، أضروا بهذه القضية التى لها مساس بالسلم العالمى، وأساءوا لأهل ليبيا وهم الذين أخلصوا لهم فى إبان محنتهم، بل وعاملوهم معاملة لا تمت للإنصاف والمروءة بصلة فى كل مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية والكرامة والعزة القومية، وفى نفس الوقت واجهوا وسيواجهون مشكلات عديدة كانوا فى غنى عنها؛ لأن امتلاك القلوب أهم بكثير من استعبادها، والسيطرة على الشعوب بدون إرادتها معناه الحقيقى تكوين عداوتها.

٣- بتر ليبيا بل والشمال الإفريقى من جسم الجامعة العربية يوم انعقادها فى القاهرة كان أكبر محك دقيق للجامعة «فيما إذا كانت هى الجامعة» ولغاياتها وأهدافها المقدسة عند الدول التى تهتم بمعرفة قوة الاتحاد العربى وضعفه، بودنا يومئذ أن ألقينا أنفسنا فى أحضانها بصفتنا أمة عربية مجاهدة، أن تقف موقف المدافع عن الجميع والمطالب بحقوق الجميع، وتضمنا إليها شاءت -السياسة الغامضة- الفرقة للجامعة- أم أبت، فتكون بذلك أحييت عضواً منها تشد أزره فى الملمات، لأن ليبيا هى القنطرة الوحيدة التى تعبر منها العروبة إلى الشمال الإفريقى، أما اليوم فلا أدرى على الوجه الأصح هل يسمع صوتها بشأن ليبيا أم يصبح صرخة فى واد بعد أن تقاربت السياسات الاستعمارية التى كانت متباعدة يوم انعقادها، وأخشى ما أخشاه أن العرب رغم

يقظتهم ووحدتهم المبتورة سيواجهون تضحيات جديدة ومصاعب شديدة، وسيلعب بهم دور آخر يكونون فيه هم كبش الفداء -لا سمح الله- لأن الغرب لا يرتد والشرق لا يتعظ.

٤- مع استنكارنا الشديد واحتجاجنا القطعى الذى ليس عليه مزيد للضربة التى كانت ذكرتها جريدة «التايمز» وبعض الصحف الاستعمارية الأخرى والتقولات التى تقع أحيانًا من بعض المغرضين بأن الليبيين يكرهون المصريين، نقول بكل صراحة ما دمنا نقر الحقائق: إنها وقعت بعض غلطات مؤلمة من بعض رجال الإدارة فى الحدود الغربية المصرية، ولم تزل تقع أحيانًا منهم ومن غيرهم، وربما كانت تلك الغلطات مدبرة بعلة خفيت عنها لا يعلمها إلا الله، ثم الراسخون فى تفرقة الشعوب، وهى أنه بعد أن كان المصريون هم الذين آووا وأيدوا إخوانهم الليبيين من (سنة ١٩١١م) إلى يومنا هذا، ولهم عليهم الأيادى البيضاء فى جهادهم وهجرتهم، فعندما تقرر رحيل المهاجرين إلى وطنهم بعد فتحه كان الواجب يتحتم أن يودعوا بما هو لائق فى كل وسخاء وتسامح وصلة رحم وحق جوار، بل ومساعدات قيمة أدبية ومادية لمن هم منهم وإليهم، شأن المصريين الذين جبلوا على هذه المزايا العالية فى كل أدوار حياتهم، ولكن انعكست الآية فتصدى للمهاجرين بعض الموظفين الذين لا يقدرون العواقب، فجردوهم من أمتعتهم وأقواتهم وفتشوا نساءهم -بصورة مخجلة- وصادروا حليهن وما معهم من نقود جنوها فى هجرتهم، أو جلبوها معهم عند التجائهم واضطروهم بهذا العمل لتهريب ما يسدون به الرمق أو ما يسترون به العورة؛ لأن الحالة وقتئذ فى ليبيا بلغت درجة إلى أن دفن أهالى ليبيا أمواتهم بدون أكفان، وأصبحت نساؤهم لا يجدون ما يسترن به العورات بسبب منع التجارة عنهم والتضييق عليهم، وما زالت أموالهم وأشياؤهم محجوزة عند السلطات المصرية بحجة التهريب ومخالفة القوانين، نعم وإن كان للموظفين بعض العذر، وعلى الليبيين بعض الوزر للأسباب الآنفة الذكر، إلا أن هذا العمل الذى وقع بين شعب واحد ووطن واحد -كما يعتقد الليبييون وأبناء مصر- جرأ الغير على الاستخفاف بالعلائق الحسنة بين الشعبين، وأن ما وقع من الليبيين من تضحيات وما عانوه من مشقات وأزمات هى بين سمع إخوانهم المصريين وبصرهم فى وطنهم دفاعًا عن بلادهم التى هى الحصن الحصين لمصر العزيزة حيث كانت أرواحهم فداءً لها، ولو تدبروا الأمر بعين المصلحة والأخوة، ربما كانت تلك الغلطات مدبرة من الغير لتتخذ منها جريدة مثل «التايمز» والجرائد الاستعمارية مادة للحط من قيمة الروابط الودية بين الشعبين المتجاورين لغاية بعيدة المرمى ستظهر نتائجها فى الأيام المقبلة.

وإنى أعتقد عقيدة ثابتة أن الليبيين عامة والسنوسيين خاصة لم ينسوا ولن ينسوا فضل مصر ولا عطف مصر وزعماء مصر مهما حدث أو يحدث؛ لأن الشعب المصرى الكريم برىء من تلك الغلطات المدبرة ومصر هى الملجأ الوحيد ليس لليبيين فحسب، بل للعرب والعروبة لا سيما وتربط مصر وليبيا روابط لا انفصام لها من جهة الدين والحوار واللغة والنسب، ولا نريد أن نوضح أكثر من ذلك، فعظماء مصر وأكابرها يعلمون أكثر من هذه الحقائق ويعلمون ما يكنه الليبيون من إخلاص ومحبة للتاج المصرى وصاحبه المفدى، وسيأتى يوم يتضح فيه كل شىء بالوثائق؛ لأننا متَّنَّا هذه الروابط، وأدلينا بما فيه المصلحة للطرفين فى بدء الحركة (سنة ١٩٤٠م)، وفى أثناء الحرب (١٩٤٢م) قبل غيرنا ممن تبنى هذه المشاريع اليوم، ومع ذلك يشكر كل من يسعى لتوحيد الشعوب العربية ويعمل على إسعادها ولكل مجتهد نصيب.

كان بودنا أن لا تهمل الصحافة العربية الحرة ما قدمه الليبيون فى هذه الحرب من تضحيات قاسية من (سنة ١٩٤٠م)، حتى لا تفقد مادة قيمة تساعدها فى الدفاع اليوم عن الحق المهضوم، وتستعين بها على ما تسجله للتاريخ والأجيال المقبلة، ولكن السياسات التى كممت أفواه الصحف وكسرت أقلام الصحفيين حتى حظرت عليهم ذكر كلمة ليبيا، كانت جائرة عليها وعلينا وعلى التاريخ والإنسانية، وها نحن نستبشر اليوم بتعويض الصحافة، فلها خالص الشكر وعاطر الثناء.

وأخيرا:

بصفتى -أحد قادة الحركة الوطنية وعضو الجمعية الوطنية التى ارتبطت مع بريطانيا (يوم ٩ من أغسطس ١٩٤٠م)- أصرح بأن الوضع الحالى فى ليبيا شاذ، لا يتناسب فى شىء مع العدل والإنصاف ولا مع وعود الحلفاء بأى وجه كان، بل إن ما يعانيه الشعب الليبى اليوم لا يختلف عن الاستعمار البغيض، وإن الشعب الليبى يتطلب إقامة حكومة وطنية شرعية، تحت إدارة أميره المطاع «إدريس السنوسى»، بأسرع ما يمكن ليحق لها اختيار الجهة التى ترغب فى الارتباط بها.

أقول هذا لدول الحلفاء عامة ولدولة بريطانيا العظمى خاصة قبل أن يعم الاستياء الذى أخذ يتسرب إلى النفوس وتتبدل وجهات النظر من الإخلاص والمحبة والتعاون النزيه إلى المقت البغيض والمشاكسة ويطغى فتنعكس الآية ولا ينفع الندم، وإن ليبيا رغم قلة عددها وفقدان عددها ومعرفتها بأنها لا تقوى على مقاومة الدول المعظمة -مع أنها جربت فى حرب إيطاليا- تفضل أن تضرب يوميًا بألف، بل بمليون قنبلة ذرية حتى ينقطع فيها النسل والذرية على أن يطأ أرضها إيطالى أو أن تمس كرامتها أو ينقص شىء من حريتها واستقلالها وحقها فى الحياة، أو يقرر مصيرها الغير بدون إرادتها، وهى علمت الشعوب معنى التضحية فى سبيل الحرية والاستقلال

من (سنة ١٩١١م) إلى يومنا هذا والتاريخ شاهد عدل، وقد قلنا فى بعض مذكراتنا لرؤساء الوفود فى المؤتمر الذى كان منعقدًا فى سان فرانسيسكو -بعد أن شرحنا لهم الحالة يومئذ بوجه التفصيل- هذه العبارات: «هذا إذا كان هناك ما يسمى عدلاً أو ما يسمى حقًا، أما إذا كانت الوعود والعهود المقطوعة للشعوب الضعيفة، هى بمثابة الطابور الخامس عند الحلفاء، فلا حق لهذه الشعوب فى المطالبة بالحق وليس لها إلا أن تموت» وسنعود للموضوع مرة أخرى، ومن لم يعرف ليبيا على حقيقتها فعليه بالاختبار، فلا زال أشبال عمر المختار يعملون على ذلك الغرار.

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

هذا بعض ما كتبه ونشره السيد عمر فائق شنيب، وهو كما قدم نفسه أحد قادة الحركة، فبالإضافة إلى ذلك نقول أنه كان من خيرة أولئك القادة وقد لازم الحركة الوطنية، الأخيرة منذ (٩ من أغسطس ١٩٤٠) إلى أن توفاه الله سنة (١٩٥٣م)، فقد عين أمينًا عامًا لمكتب سمو الأمير، وكان ضمن أعضاء المؤتمر الوطنى البرقاوى، وذهب إلى هيئة الأمم المتحدة عضواً ورئيسًا للوفد الوطنى مرتين، ثم وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالجمعية الوطنية التأسيسية الليبية وانتخب نائبًا لرئيسها كما انتخب رئيسًا للجنة الدستورية، وعين وزيرًا للدفاع بالحكومة الليبية المؤقتة، التى عهد إليها أن تتسلم السلطات من الإدارتين «البريطانية والفرنسية» وأخيراً عين رئيسًا للديوان الملكى، وكان قد وضع بحثًا مفصلاً عن القضية الليبية كان صريحًا فى التفاصيل التى تناولها فى ذلك البحث، وقد أجاب فيه عن الكثير من الأمور الغامضة وقد لفت فيه نظر جهات معينة كان الكثير من حسان الظن قد تأثر بتصرفاتها، وأراد طبعه (سنة١٩٤٩م) فى مصر إلا أن الرقابة المفروضة يومذاك قد حذفت الكثير منه، ووافق على طبع ما وافقت عليه، فرفض شنيب الطبع إلا إذا كان كاملاً، ولا يزال ذلك البحث مفقودًا، نأمل أن تتكاثف الجهود ليرى النور، وتستفيد منه الأجيال الصاعدة(١).

سادساً: الجمعيات التى أسست خارج ليبيا:

أسست جمعية فى مصر بزعامة أحمد السويحلى وقامت بنشاط كبير وفتح (عام ١٩٤٣م) نادى طرابلس الغرب الثقافى وشكلت الجاليات الليبية التى تقطن مختلف أرجاء العالم الإسلامى لجنة للدفاع عن حقوق بلدها بزعامة بشير السعداوى واتخذت ميثاقًا وطنيًا لها قدمته إلى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى القدس (عام١٩٣١م)، وطالبت اللجنة المسلمين فى أقطار الأرض لتقديم المساعدة لإخوانهم المنكوبين فى ليبيا.

(١) انظر: إدريس السنوسى للأشهب، (ص١٠١ إلى ١١١).

وتحرك الأمير إدريس سياسيًا مع بداية الحرب العالمية الثانية، ومن الشخصيات التى كان لها أثر سياسى فى مصر فى تلك الفترة بالنسبة للجالية الليبية أحمد السويحلى، وأحمد المريض، وعون سوف، وتوفيق الغريانى، ومحمد العيساوى وعبد السلام الكزة، وعبد الحميد العبار.

وشكل الأمير إدريس السنوسى جيشًا وفوض أمره إلى سيف الدين السنوسى الذى جند (١٤,٠٠٠) من المهاجرين الليبيين، (١٢٠ ضابطًا)، وشكلت الجمعية الوطنية التى قررت إعلان بيعة السنوسى، وتفويضه بدون قيد أو شرط وخوض الحرب إلى جانب بريطانيا ورفض بعض زعماء الليبيين ذلك، وفى معركة العلمين حققت بريطانيا نصرًا حاسمًا على ألمانيا بقيادة روميل، وشارك السنوسيون مع الإنجليز رافعين العلم السنوسى، وكانت المعارك السياسية مستمرة ومستعرة بين الليبيين، ولكن الكفة رجحت لصالح السنوسيين.

وظهرت بعض الزعامات الوطنية المتناثرة فى بلادنا وعادت إلى الظهور الأحزاب التى أسست أثناء المفاوضات الليبية الإيطالية فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وأسست أحزاب جديدة على أيدى القادمين من المهجر وكانت الأحزاب بليبيا امتدادًا لتأثير الحركات الحزبية فى مصر وسوريا ولبنان وغيرها، بواسطة العائدين من المهجر، وكانت سرعة نموها كبيرة، لدرجة أن الليبيين وخاصة فى منطقة طرابلس أصبحوا بعد ست سنوات يقومون بالمظاهرات مما يدل على نمو الوعى السياسى.

وظهر فى (عام ١٩٤٢م) «نادى عمر المختار الرياضى» الذى كان له نشاط سياسى يهدف إلى توحيد برقة وطرابلس يقوده الشباب فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ بلادنا.

وفى مطلع (عام ١٩٤٤م) أصبح النادى يعلن بصراحة انتقاده للإدارة البريطانية ويظهر اتجاهًا وحدويًا مع الاتجاه الطرابلسى من أجل اتحاد وطنى.

ولم يكن الاتجاه الإسلامى فى هذه المرحلة المظلمة ممثلاً إلا فى شخصية الأمير السنوسى بكونه الوريث الشرعى للحركة السنوسية، وبعض الأفراد القلائل والشيوخ التقليدين.

وفى (سنة (١٩٤٧م) أصبح البريطانيون يرون الحاجة إلى منح برقة نوعًا من الحكومة الذاتية تحت زعامة إدريس، وأوصت لجنة بريطانيا ببرنامج استقلال على ثلاث مراحل وتحت الإشراف البريطانى، أما فى طرابلس فكان الوضع يختلف، وظهر الخوف هناك من عودة الحكم الإيطالى للمنطقة، وخاصة وجود الجالية الإيطالية الكبيرة بمطامعها وتطلعاتها.

واقتصرت غالبية الأحزاب والجماعات فى منطقتى برقة وطرابلس على حاجتهم لدولة متحدة وأصبح «نادى عمر المختار» يشدد انتقاده ضد البريطانيين وضد سياسة إدريس المتحالف مع بريطانيا(١).

سابعًا: حل الأحزاب وإنشاء المؤتمر الوطنى فى برقة واضطراب الأحزاب فى طرابلس:

وقام إدريس بإيقاف نشاط نادى عمر المختار، ومنع جميع الأحزاب السياسية عن العمل فى (ديسمبر ١٩٤٧م) وألف الأمير إدريس المؤتمر الوطنى بحجة التحدث باسم أهالى برقة جميعًا، إلا أن المؤتمر كان يتكون من الجيل القديم من قادة القبائل الموالين له، وكان المؤتمر برئاسة أخيه محمد رضا السنوسى، وفى طرابلس كانت الأحزاب السياسية فى اضطراب وبلبلة، ووجد فى المنطقة أكثر من عشرة أحزاب وجماعات ونواد ذات أهداف مختلفة، تسعى كلها للاستقلال وتوحيد مناطق طرابلس وبرقة وفزان، ولكن الاختلاف كان من يقود هذا الاتحاد، وهل هو ملكى أو جمهورى، وقد تكونت من الحزب الوطنى الكتلة الوطنية بقيادة أحمد الفقى حسن لمناهضة السنوسية والدعوة لإقامة جمهورية وكان يوجد حزب الاستقلال ولجنة التحرير الليبية المتعاونة مع الجامعة العربية، ويرأسها بشير السعداوى.

وبقى فى ليبيا (٤٨,٠٠٠ إيطالى)، وظهر بينهم حزب فاشيستى بدعم من روما وحزب معاكس له إيطالى.

وأرسلت الدول الكبرى لجنة لتقصى وضع ليبيا، فوجدوا رغبة عارمة فى الاستقلال التام، وأوضح تقرير اللجنة الرغبة الليبية الاجتماعية للاستقلال التام وأضافت اللجنة أن ليبيا لم تكن فى وضع اقتصادى يمكنها من الاعتماد على نفسها، وأيضًا غير مؤهلة للاستقلال. . . وقالت اللجنة فى تقريرها بأن حوالى (٩٤٪) من السكان أميون، ولا يوجد بها ما يزيد عن (١٥) ليبيا متخرجًا دون أن يكون فيهم طبيب واحد، وأن متوسط الدخل الفردى (١٥ جنيهًا) فى السنة، وأن نسبة الوفيات بين الأطفال (٤٠٪)، ورأت إيطاليا أن تكون برقة تحت الرعاية البريطانية، وأن تكون منطقة طرابلس تحت الوصاية الإيطالية، وفزان تحت الوصاية الفرنسية.

أما الولايات المتحدة فقد اتخذت موقفًا مغايرًا، إذ اقترحت أن توضع ليبيا كلها تحت وصاية الأمم المتحدة لمدة عشر سنوات، على أن تحتفظ أمريكا بقاعدة هويلس «الملاحة» الجوية

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص١٨١، ١٨٢، ١٨٣).

والتسهيلات الحربية الأخرى، وكانت بريطانيا مستعدة للموافقة على اقتراح الولايات المتحدة إلا أن فرنسا عارضت ذلك.

أما الاتحاد السوفيتي، فقد حبذ في البداية الخطة الأمريكية، بوصاية الأمم المتحدة، لكنه عارض فيما بعد الوصاية على منطقة طرابلس لمدة عشر سنوات، بحجة أنه لو حدث ذلك، فإن «النظام السوفياتي» لن يصل إلى منطقة طرابلس ولم تقبل بريطانيا أو فرنسا هذا العرض بارتياح.

وهكذا يا أخي القارئ، كانت بلادك منذ خمسين عامًا، لا تملك لنفسها خيرًا ولا نفعًا ولا حلاً ولا عقدًا، ومع نمو الوعي الوطني والحس السياسي قامت مظاهرات جماعية لم تدع شكًا في الشعور العام المعادي للخطة، وسارت الجماهير الكبيرة المنظمة عبر شوارع طرابلس محتجة ضد الوصاية الإيطالية على طرابلس، وقدر عدد الذين اشتركوا في المظاهرة بستين ألفًا، بما في ذلك مظاهرات جاءت من مدن أخرى، وكانت منظمة تنظيمًا محليًا، وصاحب المظاهرات دعاية واسعة جلبت رأي عالمي وعربي للقضية الليبية.

وفي خلال هذه المظاهرات اتحد الحزب الوطني والجبهة الوطنية المتعددة وغيرها في حزب المؤتمر الطرابلسي تحت قيادة بشير السعداوي واستمر حزب المؤتمر في تنظيم المظاهرات والاحتجاجات حتى رفضت نهائيًا خطة «بيفن -سفورزا» من قبل الأمم المتحدة، وكان هذا سببًا في بروز الحزب على أنه القوة السياسية الرائدة في منطقة طرابلس، وفي الجمعية العمومية في (١٨ من مايو ١٩٤٩م) كانت كل الدلائل تشير إلى أن قرار الخطة سوف يحصل على أغلبية الثلثين في منح استقلال ليبيا، ولكن مندوب هايتي «إميل لوت» عارض الوصاية الإيطالية على منطقة طرابلس وكانت النتيجة أن فشلت الخطة عند الاقتراع عليها، وذلك بسبب نقص صوت واحد كان مطلوبًا لتأمين الأغلبية التي أعطت أصواتها لقرار الخطة (٣٣ مقابل ١٧ وغياب ٨)، وكان الذي أقنع «إميل لوت» بالوقوف مع الشعب الليبي الدكتور/ علي العنيزي -رحمه الله تعالى-.

واستطاعت الوفود العربية في الأمم المتحدة أن تقنع بسهولة الوفد السوفياتي وبعض الوفود الأخرى المعارضة لمصلحة استقلال ليبيا، وبفشل التصويت على وضع الوصاية الإيطالية لم يعد هناك سبب يدعو كتلة أمريكا اللاتينية لدعم بقية القرار واقترعت ضده بالفعل مما سبب له هزيمته بأغلبية (٣٧ صوتًا ضد ١٤ وغياب ٧) أصوات، وقد دعم استقلال ليبيا دول إسلامية وعربية، مثل باكستان وسوريا ولبنان وكذلك الهند لمصالحها.

وقد تغير موقف الروس بشكل ملفت للنظر، فبعد أن كانوا فى وقت ما يريدون الوصاية السوفياتية على منطقة طرابلس، ثم إرجاع ليبيا لإيطاليا أصبحوا (سنة ١٩٤٩م) ينادون باستقلالها خلال ثلاثة أشهر وجلاء جميع القوات الأجنبية عنها.

وأصبحت بريطانيا ترى لمصلحتها استقلال ليبيا كلها، وخاصة إذا أمكن الحفاظ على القوات البريطانية في منطقتى طرابلس وبرقة.

ورفضت خطة «بيفن -سفورزا» وأعلن إدريس استقلال برقة بتأييد بريطانيا ونصب نفسه أميرًا عليها، وأصبحت الحكومة المحلية مسئولة عن الشئون الداخلية، أما الشئون القضائية والمالية فبقيت تحت مسئولية المستشارين البريطانيين، وكذلك ظلت الأمور الخارجية والدفاعية والأملاك الإيطالية تحت السيطرة البريطانية.

وأصبح استقلال ليبيا شيئًا لابد منه بالنسبة للأم المتحدة وأعيدت قضية ليبيا إلى اللجنة السياسية فى صيف (عام ١٩٤٩م) وسمح لإيطاليا بالاشتراك بالنقض، وكذلك لممثلين من المؤتمر الوطنى البرقاوى، وحزب المؤتمر الوطنى الطرابلسى، وممثلين من الجالية اليهودية بطرابلس، وفى أكتوبر بدأت لجنة فرعية فى وضع قرار يتضمن جميع النقاط الرئيسية الواردة فى مقترحات وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة، واتفق على القرار بأغلبية ساحقة فى الجمعية السياسية فى (٢١ من نوفمبر)، ثم قدم بعد أسبوع إلى الجمعية العامة [١].

❁❁❁

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص١٨٨، ١٩٠).

المبحث الثالث

قرار الأمم المتحدة بشأن ليبيا

وفى (٢١ من نوفمبر ١٩٤٩م) تبنت الجمعية العامة القرار الذى اقترحته وفود الهند والعراق وباكستان والولايات المتحدة وتبنته الجمعية بأغلبية (٤٨) صوتًا ضد صوت واحد «الحبشة» وغياب تسعة فيها فرنسا وخمس دول شيوعية.

ويتضمن القرار ما يلى:

١- أن تصبح ليبيا المكونة من مناطق برقة وطرابلس وفزان دولة مستقلة ذات سيادة.

٢- أن يصبح هذا الاستقلال سارى المفعول فى أسرع وقت ممكن وألا يتأخر بأى حال من الأحوال عن أول يناير (١٩٥٢م).

٣- أن يقرر دستور ليبيا، يضم شكل الحكومة من قبل ممثلين عن سكان مناطق برقة وطرابلس وفزان يجتمعون ويتشاورون معًا فى جمعية وطنية.

٤- ومن أجل مساعدة شعب ليبيا على وضع دستور وإقامة حكومة مستقلة يرسل مندوب من الأمم المتحدة إلى ليبيا، تعينه الجمعية العامة، ومعه مجلس لمساعدته ونصيحته.

٥- أن يقدم مندوب الأمم المتحدة بالمشاورة مع المجلس، تقريرًا سنويًا مع التقارير التى يعتبرها ضرورية، ويضاف إلى هذه التقارير مذكرة أو وثائق يرغب مندوب الأمم المتحدة أو أى عضو فى المجلس فى أن يضعها أمام انتباه الأمم المتحدة.

٦- أن يتكون المجلس من عشرة أعضاء وبالتحديد:

أ- ممثل ترشحه حكومة كل من البلدان التالية: مصر وفرنسا وإيطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

ب- ممثل عن شعب كل من المناطق الثلاث فى ليبيا، وممثل عن الأقليات.

٧- أن يعين مندوب الأمم المتحدة الممثلين المذكورين فى الفقرة (٦-ب) بعد التشاور مع القوى الإدارية ومع ممثلى الحكومات المذكورين فى الفقرة (٦-أ) ومع الشخصيات القيادة وممثلى الأحزاب السياسية والمنظمات فى المناطق المعينة.

٧- وإنجازًا لمهامه، يشاور مندوب الأمم المتحدة ويسترشد بمشورة أعضاء مجلسه، ويجب أن يكون معلومًا أن بإمكانه أن يقابل أشخاصًا مختلفين لسماع النصيحة بخصوص المناطق المختلفة أو المواضع المختلفة.

٩- يمكن لمندوب الأمم المتحدة أن يقدم المقترحات إلى الجمعية العامة، وإلى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وإلى السكرتير العام فيما يخص الإجراءات التى يمكن أن تتبناها الأمم المتحدة خلال الفترة الانتقالية بخصوص المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى ليبيا.

١٠- أن تقوم القوى الإدارية بالتعاون مع مندوب الأمم المتحدة:

أ- باتخاذ جميع الخطوات اللازمة حالاً لنقل السلطة إلى حكومة دستورية مستقلة.

ب- إدارة المناطق بهدف مساعدة أقسام الوحدة الليبية والاستقلال والتعاون فى تكوين الإدارات الحكومية وتنسيق نشاطاتها من أجل هذه الغاية.

جـ- تقديم تقرير سنوى للجمعية العامة حول الخطوات المتحدة لتطبيق هذه التوصيات.

١١- أن تدخل ليبيا الأمم المتحدة حسب المادة (٤) من الميثاق، بعد أن تصبح دولة مستقلة.

وبعد أسبوعين عينت الجمعية العامة مساعد السكرتير العام «أدريان بلت»، مندوبًا للأمم المتحدة فى ليبيا.

إن الخطوات المذكورة نحو الاستقلال- على حسب تقديرى وفهمى للحقيقة- لا نعتبره استقلالاً بمفهومه الذى وضع له هذا المصطلح، إن الأمة التى تحكم شرع ربها من ذاتيتها وشخصيتها وعقلها وقلبها وعقيدتها هى تلك الأمة المتحررة المستقلة التى رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدًا ﷺ نبيًا ورسولاً، بل انتقلت بلادنا من الاستعمار الإيطالى النصرانى الحاقد إلى استعمار من نوع آخر فى أموره الدستورية والسياسية والاقتصادية والتعليمية، فأين إذن الاستقلال ولا زال أمر الله وحكمه مغيبًا فى واقع شعبنا وحياته إلى كتابة هذه السطور، ولذلك فهو يئن من وطأة الظالمين الذين حكموا شعبنا بقوانين أرضية طينية وغيبوا شرع الله عنه ظلمًا وبهتانًا وزورًا، وعلى الأحرار من أبناء شعبنا أن يعملوا ليلاً ونهارًا، سرًا وإعلانًا من أجل الاستقلال الحقيقى وكسر القيود المكبل بها شعبنا، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يحكم شرع الله ودستور الإسلام الخالد على شعبنا المسلم الذى عانى ولا يزال يعانى من تكبيل حريته واستقلاله واتخاذ قراره وما ذلك على الله بعزيز.

وكان موعد استقلال ليبيا سيحل بعد (٧٠ يوم) من وصول مبعوث الأمم المتحدة لبدء مهمته، وعندما وصل المبعوث «أدريان بلت» إلى ليبيا فى رحلة استطلاعية لمدة أسبوعين فى (١٨ من يناير ١٩٥٠م) لخص مهمته على أنها لمساعدة شعب ليبيا على وضع دستوره وإقامة حكومة مستقلة[١].

وكان أول واجب عليه هو أن يكمل عضوية المجلس المنصوص عليه فى قرار الجمعية المكلف باستشارته، وقد عين ممثلوا مصر وفرنسا وإيطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة من قبل حكوماتهم المعنية، وطلب «بلت» مرشحًا متفقًا عليه من كل المناطق الليبية الثلاثة وممثلاً للجاليات الإيطالية واليهودية واليونانية بمنطقة طرابلس، وقدمت فزان مرشحًا واحدًا، إلا أن برقة قدمت ثمانية وطرابلس سبعة، والأقليات أربعة، وبعد التشاور مع القوى الحاكمة -الأجانب- عين «بلت» أسد الجربى ممثلاً لبرقة، ومصطفى مزران عن منطقة طرابلس، وأحمد الحاج السنوسى عن فزان، وجياكو مع مارشينو الإيطالى للأقليات وأنشىء مجلس ليبيا «المشهور بمجلس العشرة» فى (١٥ من أبريل ١٩٥٠م)، وكان يضم ثلاثة ليبيين وممثلين عن دولتين إسلاميتين مستقلتين «مصر وباكستان» وإيطاليين «واحد يمثل إيطاليا والآخر يمثل الأقليات الأجنبية بليبيا»، وثلاثة يمثلون قوى غربية هى: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، ولذلك يعتبر تكوين عضويته -أى المجلس- تحيزًا للغرب بمعدل سبعة مقابل ثلاثة، على اعتبار أن ممثلى برقة وفزان كانا خاضعين لتأثير بريطانيا وفرنسا، وأن الثلاثة الباقون و هم ممثلوا مصر وباكستان وطرابلس أيضًا تابعة للقوى الأجنبية المسيطرة.

وكانت معارضة قوية جدًا محتجة على دخول الإيطاليين والأقليات الأخرى فى تقرير مصير الشعب المسلم فى ليبيا لوجود تخوف من تدخل الإدارة البريطانية فى الانتخابات وبذلك ألغيت خطط «بلت».

إلا أنه لم ييأس واستطاع استدراج بعض الشخصيات الدينية والوطنية وشكل جمعية وطنية من طرابلس وفزان وألغيت كثيرًا من الاقتراحات وأخمدت الأصوات المعارضة[٢]، وبعد أن حازت الجمعية الوطنية السلطات كى تقرر الشكل التنظيمى والدستورى لمستقبل الدولة، وتختار من أعضائها لجنة لوضع الدستور عقدت الجمعية أول اجتماع لها فى طرابلس فى (٢٥ من يناير نوفمبر سنة ١٩٥٠م) وانتخب مفتى طرابلس رئيسًا لها، واتفقت خلال أسبوع على أن تكون ليبيا

---

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص١٩٣).

(٢) انظر: تاريخ ليبيا، (ص١٩٨، ١٩٩).

دولة ديمقراطية فيدرالية ذات سيادة، وأن تكون الدولة ملكية دستورية ودعم ممثلوا برقة وفزان الاتحاد بقوة وقبل الطرابلسيون ذلك.

وظهر بشير السعداوى كشخصية وطنية فذة وكان من أكبر المتحمسين للوحدة وكان له شعبية ومساندة معظم الوطنيين فى تطلعاته نحو وحدة البلاد ووقف ضد الجمعية الوطنية، وقاد حملات ضدها وتساءل بشير السعداوى -رحمه الله- عن أهلية الجمعية الوطنية فى نداء وجهه إلى الأمم المتحدة والجامعة العربية، واستمر بشير السعداوى يهاجم عدم أهلية الجمعية الوطنية طيلة النصف الأول من (عام ١٩٥١م) وكسب تأييد عبد الرحمن عزام، وقام عزام أيضًا بالهجوم على الجمعية الوطنية وأن قراراتها غير قانونية ومخالفة لرغبات الشعب الليبى وقررت اللجنة الدستورية للجامعة العربية أنه لا حاجة للاتحاد فى بلد يوحده الجنس واللغة والعادات والدين، وأكثر من ذلك فإن الجمعية لم ينتخبها الشعب، وليس لها سلطة البت فى أمور تؤثر على مستقبل البلاد وقام «بلت» بإرسال مفتى طرابلس وهو عضو من الجمعية الوطنية إلى مصر ليخطب ود الجامعة وتلاشت عداوة الجامعة العربية بالتدريج.

وفى (الرابع من ديسمبر ١٩٥٠م) أقرت الجمعية الوطنية العلم الليبى وانتخبت لجنة الدستور على أساس ستة أعضاء من كل منطقة لتحضير وتقديم مسودة دستور، وقامت اللجنة بدورها بتشكيل مجموعة عاملة من ستة أعضاء لكتابتها وتقديمها فصلاً بعد آخر للجنة وكان «بلت» وخبراء آخرون من الأمم المتحدة مستعدين لتقديم المشورة عند أول اجتماع للمجموعة العاملة فى (١١ من ديسمبر)، ودرست دساتير أحد عشر اتحادًا منها الهند وسويسرا وفنزويلا وقورنت ببعضها وأخذت دساتير مصر والعراق والأردن وسوريا، وكذلك حقوق الإنسان كنماذج لفصل الحريات الأساسية، وغيبت عن المسلمين فى ليبيا قواعد النظام الأساسى فى الإسلام، ومن هذه القواعد التى غيبت عن المسلمين مفهوم الحاكمية فمدلول لا إله إلا الله يعنى أنه لا خالق ولا رازق ولا محيى ولا مميت ولا نافع ولا ضار إلا الله، ويعنى أيضًا لا مشرع ولا محلل ولا محرم إلا الله، وغاب عن المسلمين فى ليبيا أن التحاكم إلى الدساتير الوضعية ووضع القوانين البشرية يتنافى مع بدهيات التصور الإسلامى والعقيدة الإسلامية، إن الله الذى جعل الإسلام دينًا هو الذى جعله عقيدة ونظامًا وإن الله ليأبى على الناس أن يبتغوا لأنفسهم دينًا غير هذا الدين﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

إن الذين أرادوا الفصل بين العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى إنما هم أعداء الإسلام ونحن نقول: إن الإسلام عقيدة وشريعة، فإن العقيدة والشريعة أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن

الآخر، وإن الفصل بينهما ضلال وكفر وردة فإن الإيمان بالعقيدة وترك الشريعة كفر، وإن الأخذ بالشريعة وترك العقيدة كفر.

وهذه الفعلة الشنيعة فى الجرى خلف الدساتير الأرضية وقوانين الدول الغربية العلمانية، وغيرها يدل دلالة قاطعة على خطورة الأمر الذى وصلت إليه بلادنا من الضعف العقدى والشرعى.

قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ [النساء: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [الشورى: ٢١].

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرع الله وأذن به كائنًا من كان، والله وحده هو الذى يشرع لعباده بما أنه -سبحانه- هو مبدع هذا الكون ومدبره بالنواميس، ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع الله بتلك النواميس، وكل ما عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور.

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة، فإن الكثيرين يجادلون فيها، أو لا يقتنعون بها وهم يجترئون على استمداد التشريع من غير ما شرع الله، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذى ينشئونه من عند أنفسهم، كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله، أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله، وليس أخيب من ذلك وأجرأ على الله[1].

والذى دفعنى إلى الوقوف عند هذه النقطة المظلمة من تاريخ بلادنا وهى اختيار دستورها من دساتير أرضية وتركهم لتشريع رب البرية هو كون شعبنا مسلمًا مؤمنًا، وإنما فرض عليه ذلك من أعدائه أعداء دينه، وإلا موقف المسلم من ذلك بين وواضح وإليك موقف المسلم كما بينه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ [الأعراف: ٣].

فالمسلم يهرع إلى شرع ربه ودستوره برضا وطواعية ورغبة وتسليم.

(١) انظر: سيد قطب فى ظلال القرآن، دار الشروق (٢/ ٣٥١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥].

فشريعتنا الإسلامية ربانية شاملة شمول العلم الإلهى، محطية بمشاكل البشر إحاطة العليم الخبير، لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أوجدت لها حلاً، وهى يسيرة سهلة تحقق اليسر والسهولة وترفع الحرج عن الناس؛ لأنها لا تكلفهم إلا وسعهم(١).

وتدخل الأمم المتحدة فى مصير الشعوب باسم مصلحة الشعوب وإسعادها والأخذ بيدها نحو الحرية والاستقلال والنور والديمقراطية يعلم الله إنهم لكاذبون ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

والتاريخ البشرى يشهد أن أسعد الفترات التى كانت تعيشها البشرية على الإطلاق، تلك الفترة التى تحكم فيها بشريعة الله سبحانه وتعالى حيث كانت تنعم بالأمن والإيمان والسلامة والسلام، وكان العدل والرخاء والاستقرار يسود المجتمعات التى حكمت بشرع الله(٢).

والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر.

لقد كان الضغط على البلاد عظيمًا، ولذلك لم يستطع الأمير إدريس وكذلك القوى الوطنية المسلمة من جعل دستور البلاد ربانيًا نابعًا من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، وبحيث يكون الإسلام هو المصدر الرئيسى والوحيد الذى يستمد الشعب منه قوانينه ودستوره كيف لا والله تعالى يقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، ومعلوم أن الإسلام دين ودولة وصالح لكل زمان ومكان.

والمصلح الإسلامى إن رضى لنفسه أن يكون فقيهًا مرشدًا يقرر الأحكام ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره فإن النتيجة الطبيعية أن يكون صوت هذا المصلح صرخة فى واد ونفخة فى رماد. قد يكون مفهومًا أن يقوم المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لإوامر الله، وتنفيذًا لأحكامه وإيصالاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ، أما والحال كما نرى؛ التشريع الإسلامى فى واد والتنفيذ فى واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من الذين لا يدينون الإسلام الحنيف(٣).

(١) انظر: االنظام السياسى فى الإسلام، أبو فارس (ص٣٠).
(٢) انظر: النظام السياسى فى الإسلام، أبو فارس (ص٣١).
(٣) انظر: رسائل حسن البنا، (ص٢٧٢).

ومضت المجموعة العاملة والمختصة من الجمعية الوطنية لمناقشة الجنسية الليبية واللغة وسلطات الملك، والمسئوليات الوزارية والبرلمان وتشكيل مجلس الشيوخ وقانون الانتخابات، وقد أجريت تعديلات عند تقديم الفصول إلى اللجنة وقدمت مسودة إلى الجمعية الوطنية فى (سبتمبر ١٩٥١م) واستمرت المناقشات ثلاثة أسابيع وكان هناك عدة خلافات، فكان البرقاويون يصرون على أن تكون بنغازى هى العاصمة، وأصر الطرابلسيون بتأييد الفزانيين على أن تكون طرابلس هى العاصمة واستقر الرأى على أن تكون طرابلس وبنغازى عاصمتين مشتركتين منعًا للنزاع، وأقر الدستور كله من (٢١٣) مادة بإشراف «بلت» مبعوث الأمم المتحدة.

وأشاد «بلت» بإنجاز الليبيين للدستور فى مدى عشرة أشهر، وتزايدت قوة الشعور بالوعى الوطنى الليبى واتحاد جميع الممثلين فى قراراتهم لإنشاء ليبيا المتحدة التى سماها الدستور «المملكة الليبية» وسميت المناطق الولايات بدلاً من دول، وكانت السلطة التشريعية مخولة للملك ومجلس الشيوخ والبرلمان على أن يكون أعضاء مجلس الشيوخ (٢٤) عضوًا ثمانية من كل ولاية نصفهم معين من قبل الملك والنصف الآخر منتخب، أما النواب فينتخبون من الذكور البالغين بمعدل واحد عن كل عشرين ألف من السكان، ويختار أعضاء الوزارة المركزية من البرلمان الاتحادى ويعين الملك رئيس الوزراء ووالى كل ولاية.

وبدأ تخطيط نقل السلطات من الإدارات البريطانية والفرنسية للاتحاد الليبى فى مطلع (سنة ١٩٥١م) وقسمت لجنة «بلت» نقل السلطان على أربع مراحل من سبتمبر إلى نهاية السنة، وفى (فبراير سنة ١٩٥١م) أصدرت الجمعية الوطنية قرارًا بتشكيل حكومات محلية لاستلام السلطة من السلطات الإدارية وفى (٣ من مارس) أصدرت الإدارة البريطانية بموافقة إدريس بيانًا بتأليف حكومة محلية فى طرابلس، ولم يكن حزب المؤتمر الوطنى الطرابلسى راض عن سير الأمور بتحكيم بريطانيا فى إجراءات نقل الوضع إلى السلطات المحلية[1].

وكان «بلت» قد دعا الأمم المتحدة منذ أول تقرير سنوى له إلى مساعدة ليبيا ماليًا بسبب فقرها وحاجتها، قال: «ما لم توجد الوسائل لتحسين الزراعة وخلق رأسمال استثمارى جديد، فهناك خطر كبير فى انهيار الاقتصاد الليبى وتحوله إلى اقتصاد رعوى، مع ما يترتب على ذلك من نتائج اجتماعية وسياسية ربما تعرض وجود الدولة الجديدة للخطر»، وقدمت الأمم المتحدة مساعدات للدولة الجديدة وقامت منظمة اليونسكو ومنظمة الصحة بمساعدة محدودة، واستطاعت المنظمة الدولية تقرير كيفية حصول ليبيا على الوسائل الإدارية والاجتماعية والاقتصادية لصيانة استقلالها

(١) انظر: تاريخ ليبيا، (ص٢٠٢، ٢٠٣).

المزيف وتعهدت بريطانيا بتقديم ما يسد العجز فى الميزانية للسنة المالية (٥٢/ ١٩٥٣م) لولايتى طرابلس وبرقة، وكذلك فرنسا لفزان، وكان التعليم من أهم حاجات البلاد وحاول «بلت» أن يقدم ما فى وسعه من أجل النهوض المطلوب للدولة الجديدة.

وأعلن استقلال بلادنا فى عام (٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٥١م) قبل أسبوع من الموعد النهائى الذى حددته الأمم المتحدة وأصبح الدستور معدًا للتنفيذ وتولت الحكومة المؤقتة البلاد وأصبح لها صلاحيات كاملة.

وكان أول رئيس للحكومة المؤقتة محمود المنتصر وفتحى الكيخيا نائبًا له ووزيرًا للعدل والمعارف، وأصبح عمر شنيب مديرًا للديوان الملكى، وعين إدريس حكام الولايات الثلاثة، وتقدم بطلب انضمام ليبيا للأمم المتحدة واليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية.

وأصبح المستر «بلت» صديقًا حميمًا لليبيين الذين اقتنعوا بالاستقلال وسمى باسم أدريان «بلت» شارعان مطلان على البحر فى كل من طرابلس وبنغازى، وكان حصول ليبيا على استقلالها تحت إشراف الأمم المتحدة دعاية ممتازة للمنظمة الدولية وغاب عن واقع الحياة فى ليبيا دستورها الربانى المستمد من عقيدة الشعب ودينه[1].

أولاً: أعضاء اللجنة التحضيرية المختصة بالإعداد للجمعية الوطنية:

١- الشيخ محمد أبو الأسعاد العالم.	٢- أبو الربيع البارونى.
٣- السيد سالم القاضى.	٤- السيد إبراهيم بن شعبان.
٥- السيد سالم المريض.	٦- السيد أحمد عون سوف.
٧- السيد على رجب.	٨- السيد على المخطوف.
٩- السيد طاهر الحريرى.	١٠- الحاج على بدوى.
١١- السيد أبو القاسم بوقيعة.	١٢- السيد أحمد الطبولى.
١٣- السيد محمد بن عثمان الصيد.	١٤- السيد المهدى «قاضى غدامس».
١٥- السيد خليل القلال.	١٦- السيد عمر فائق شنيب.
١٧- السيد أحمد عقيلة الكزة.	١٨- الحاج عبد الكافى السمين.

(١) انظر: تاريخ ليبيا، وزيادة وحذف، (ص٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٧).

١٩- السيد الطايع البيجو. ٢٠- السيد محمود بوهدمة.

٢١- الحاج رشيد الكخيا[١].

ثانيا: الجمعية الوطنية التأسيسية (لجنة الستين) كل من السادة:

١- عمر فائق شنيب. ٢- محمد السيفاط بوفروة.

٣- عبد الحميد دلاف. ٤- رفاع بوغيطاس.

٥- أحميدة المحجوب. ٦- سالم الأطرش.

٧- خليل القلال. ٨- الطايع البيجو.

٩- أحمد عقيلة الكزة. ١٠- محمود بوهدمة.

١١- عبد الكافى السمين. ١٢- سليمان الجربى.

١٣- محمد بورحيم. ١٤- عبد الجواد الفريطيس.

١٥- المبروك الجيبانى. ١٦- الكيلانى لطيوش.

١٧- طاهر العبلى. ١٨- عبد الله عبد الجليل سويكر.

١٩- حسين الجربوع. ٢٠- أبو بكر بوذان.

٢١- أحمد عون سوف. ٢٢- عبد العزيز الزقلعى.

٢٣- منير برشان. ٢٤- على تامر.

٢٥- أحمد السرى. ٢٦- مختار المنتصر.

٢٧- سالم المريض. ٢٨- محمد المنصورى.

٢٩- محمد الهنقاوى. ٣٠- محمد أبو الأسعاد العالم.

٣١- على الكالوش. ٣٢- عبد المجيد كعبار.

٣٣- عبد الله بن معتوق. ٣٤- محمد الهمالى.

(١) انظر: مجلة الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، جمادى الآخرة (١٤١٢هـ) ديسمبر (١٩٩١م)، السنة العاشرة، العدد (٣٩).

٣٥- إبراهيم بن شعبان. ٣٦- يحيى مسعود بن عيسى.
٣٧- أبو بكر بونعامة. ٣٨- محمود المنتصر.
٣٩- الطاهر القرمانلي. ٤٠- على بن سليم.
٤١- السنوسى حمادى. ٤٢- على بدوى.
٤٣- الفيتورى بن محمد. ٤٤- الشريف على بن محمد.
٤٥- طاهر القذافى بريدح. ٤٦- منصور بن محمد.
٤٧- المبروك بن على. ٤٨- طاهر بن محمد.
٤٩- محمد بن عثمان الصيد(١). ٥٠- محمد الأمير.
٥١- على عبد الله القطرونى. ٥٢- أبو القاسم بوقيلة.
٥٣- أحمد الطبولى. ٥٤- على السعداوى.
٥٥- أبو بكر بن أحمد. ٥٦- السيد سعد.
٥٧- الأزهر بن على. ٥٨- عبد الهادى بن رمضان.
٥٩- على المقطوف. ٦٠- السيد العكرمى(٢).

ثالثا: مبايعة الجمعية الوطنية التأسيسية للأمير محمد إدريس السنوسى ملكا دستوريا للمملكة الليبية المتحدة عام (١٩٥٠م):

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنَّ الَّذِين يُبايعُونك إنَّما يُبايعُون اللَّه يدُ اللَّه فوْق أيْديهِمْ فمن نَّكث فإنَّما ينكُثُ علىٰ نفْسِه ومنْ أوْفىٰ بما عاهد عليْهُ اللَّه فسيُؤْتيه أجْرًا عظيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

نحن ممثلو شعب ليبيا من برقة طرابلس وفزان، المجتمعون فى طرابلس الغرب من جمعية وطنية تأسيسية بإرادة الله، والمزودون بالصلاحيات الكاملة المعترف بصحتها واستيفائها الشكل القانونى، والعازمون على تأليف اتحاد بيننا وتكوين دولة اتحادية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة،

(١) مجلة الانقاذ الوطنى العدد (٣٩)، جمادى الآخرة (١٤١٢هـ) (١٩٩١م)، (ص٢٣، ٢٥).
(٢) مجلة الانقاذ الوطنى العدد (٣٩)، جمادى الآخرة (١٤١٢هـ) (١٩٩١م)، (ص٢٦).

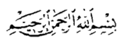
نظام الحكم فيها ملكي دستوري، نستهل عملنا بحمد الله وشكره على ما قد من علينا من نعمة فى تحرير بلادنا واستقلالها، وإننا اعترافًا بإخلاص صاحب السمو محمد إدريس السنوسى أمير برقة المعظم وجهادة الطويل المثمر لخير ليبيا وشعبها، وتحقيقًا لرغبة الشعب العامة وإقرارًا للبيعات الشرعية السابقة التى صدرت من ممثلى الشعب الشرعيين لسموه، وحرصًا على سعادة بلادنا واتحادها تحت تاج ملك نجد فيه المثل الأعلى للصفات التى يتطلبها هذا المنصب السامى.

فإننا ننادى بسمو الأمير السيد محمد إدريس السنوسى أمير برقة العظيم ونبايعه ملكًا دستوريًا للمملكة الليبية المتحدة، نرجو من جلالته أن يتفضل ويقبل ذلك، وإننا قررنا انتقال الجمعية الوطنية التأسيسية بكامل هيئتها إلى بنغازى لرفع هذا القرار التاريخى لجلالة الملك المعظم، وتلقى قبول جلالته لهذه البيعة.

طرابلس الغرب

(فى يوم السبت ٢٢ من صفر الخير سنة ١٣٧٠هـ)
(١)
(الموافق ٢ من ديسمبر سنة ١٩٥٠م)

رابعًا: خطاب الملك إدريس بإعلان استقلال ليبيا يوم ٢٤ من ديسمبر ١٩٥١م:



إلى شعبنا الكريم:

يسرنا أن نعلن للأمة الليبية الكريمة أنه نتيجة لجهادها وتنفيذًا لقرار هيئة الأمم المتحدة الصادر فى (٢١ من نوفمبر ١٩٤٩م)، قد تحقق بعون الله استقلال بلادنا العزيزة، وإنا لنبتهل إلى المولى بأخلص الشكر وأجمل الحمد على نعمائه ونوجه إلى الأمة الليبية أخلص التهانى بمناسبة هذا الحادث التاريخى السعيد، ونعلن رسميًا أن ليبيا منذ اليوم أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة، ونتخذ لنفسنا من الآن فصاعدًا لقب صاحب الجلالة ملك المملكة الليبية المتحدة، ونشعر أيضًا بأعظم الاغتباط لبداية العمل منذ الآن بدستور البلاد كما وضعته وأصدرته الجمعية الوطنية فى (٦ من محرم سنة ١٣٧١هجرية الموافق ٧ من أكتوبر ١٩٥١م)، وإنه لمن أعز أمانينا كما تعرفون أن تحيا البلاد حياة دستورية صحيحة، وسنمارس من اليوم سلطاتنا وفقًا لهذا الدستور، ونحن نعاهد الله فى هذه الفترة الخطيرة التى تجتازها البلاد أن نبذل كل جهدنا حتى تحتل بلادنا العزيزة المكان اللائق بها بين الأمم الحرة.

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره، (ص١٥٥).

وعلينا جميعًا أن نحتفظ بما اكتسبناه بثمن غال وأن ننقله بكل حرص وأمانة إلى أجيالنا القادمة.

وإننا في هذه الساعة المباركة نذكر أبطالنا ونستمطر شآبيب الرحمة والرضوان على أرواح شهدائنا الأبرار ونحيي العلم المقدس رمز الجهاد والاتحاد وتراث الأجداد، راجين أن يكون العهد خيرًا وسلامًا للبلاد ونطلب من الله أن يعيننا على ذلك ويمنحنا التوفيق والسداد، إنه خير معين(١).

وإن من أهم المراجع التي تكلمت عن المملكة الليبية ومعركة الدستور والاستقلال هي:

١- ليبيا في العصور الحديث، د. نيقولا زيادة.

٢- ليبيا الحديثة، د. مجيد خدوري ترجمة نيقولا زيادة.

٣- السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري.

٤- صفحات من المذكرات السرية، أ. عبد الرحمن عزام.

٥- إدريس السنوسي، للأشهب.

خامسا: قصيدة بمناسبة الاستقلال للشاعر الكبير أحمد رفيق المهدوي:

عيد عليه مهابة وجلال ... عيد وحسبك أنه استقلال
يوم عليه من السعادة بهجة ... وعليه من نور السرور جمال
يوم سعيد فيه نالت أمة ... ملكًا تمجد ذكره الأجيال
واستقبل التاريخ مظهر دولة ... فأهل برج السعود هلال
وبدا يسير إلى التكامل بدرها ... فتحققت بظهوره الآمال
وتحررت أعناقًا فتنفست ... أرواحنا وتبسم الإقبال
وتحطمت تلك القيود وكسرت ... تلك الكبول وفكت الأغلال
وإلى حياة حرة في عيدنا ... هذا تكلل بالنجاح نضال
أعظم بعيد السماء تهللت ... فرحًا به شهداؤنا الأبطال

(١) انظر: الانقاذ العدد (٣٩)، جماد الآخر (١٤١٢هـ)، ديسمبر (١٩٩١م).

وزها بتــاج النصــر شــعب قــاده ... ملك أغـــــر كـــــأنه الرئبـــــال

يا أيهــا الشــعب الكريم إلى العــلا ... ســر لا يعــوقك فى المســيــر كــلال

ســر كــالزمــان مع الزمــان مــلائمًــا ... إن الزمــان مــسيــرة اســتــعــجــال

قـــد أصــبح الطيـــار لا يرضى به ... عــصــره لعلم الضــوء فــيــه مــجــال

أضــحى جناح العلم قــاب القــوس ... من قــمــر الســمــاء ودونه أمــيــال

فــابنوا على العلم والبنا وأســســوا ... بــالعـــــدل ملكًا لا يليــــــه زوال

قــومــوا بأمــر الملك شــورى بينكم ... إن التـــــحكم والخـــــلاف وبال

ومــصــائب الأوطان من أخــرابهــا ... إن قــام بين المفــســـدين جــدال

وتخـــيــروا النواب عنكم واحــذروا ... من أن يقـــوم بأمـــركم جــهـــال

الملك مـــحـــتـــاج إلى تدبيـــره ... بعــقــول من عــركــتــهم الأحــوال

بالمخلصين وهم قليل فـــانظروا ... فـــيـــهم ولا تغـــرركم الأشكال

وإلى الشــبــاب الحى خــيــر تحــيــة ... فــهم الرجــاء . . وفــيــهم الآمــال

وعلى كـــواهلهم وفى أعناقـــهم ... عــهــد على أن يحــفظوا مــا نالوا

مــا بالقليل ولا الصــغـــيــر فــإنه ... فـــضل عظيم إنه اســـتـــقـــلال

نصـــر عـــزيز جل مـــانحـــه له ... من روحنا التكبـــيـــر والإجــلال

عـــاش المليك وشـــعــبـــه وبلاده ... فــيــعــز دســتــور زهاه كــمــال(١)

❁❁❁

(١) انظر: إدريس السنوسى، للأشهب (ص٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥).

المبحث الرابع

الملك إدريس -رحمه الله- وشيء من سيرته

أولا: اهتمامه بالدين والعلم والأخلاق:

كان الملك محمد إدريس -رحمه الله تعالى- يرى أن الحياة السعيدة لا تقوم إلا على الدين والعلم والأخلاق، ولتستمع إليه وهو يقول:

«إن سنن الإسلام السياسية تعتمد على دعائم متينة محكمة، فلو حفظت هذه السنن وسيست بها الحكومة الإسلامية لما أصاب دولة الإسلام ما أصابها، لا ريب أن ضعف المسلمين يرجع إلى إهمال هذا النظام وتركه، وإذا ما أراد المسلمون أن ينالوا مجدهم فليرجعوا إلى قواعد حكومتهم الأولى ولا يظنوا أن ذلك رجوعًا إلى الوراء؛ بل على العكس فهو التقدم والتكامل»(١).

وقال أيضًا: «إن بعث الروح الإسلامية أمر يحدث قوة لا يُستهان بها، ولا سبيل إلى بعث هذه الروح إلا إذا فرقنا بين المدنيتين الحقيقية والصناعية وأخذنا الأولى باليمين والأخرى بالشمال، وفتحنا باب الاجتهاد، ورجعنا إلى قواعد السياسة الإسلامية»(٢).

وقال أيضًا: «فمن تخلق منا بغير الأخلاق الإسلامية نجده فاسد التربية منحطًا في مستواه الأخلاقي، معطل الاستعداد الفكري الحر، مشوش العقل والاعتقاد، مقلدًا تقليدًا أعمى»(٣).

قال أيضًا: «إذا ما أراد المسلمون أن يصلحوا ما فسد من أحوالهم فليرجعوا إلى روح الإسلام، لأنه أكثر موافقة لرقي الأمم وسعادة الحياة ومدنيتها، ولن تتبدد هذه الغياهب المظلمة إلا بنور العلم؛ فالإسلام هو الدين الإنساني الطبيعي المسالم لكل من أحب السلام»(٤).

لقد كان الملك إدريس -رحمه الله- تعالى نصيرًا للدين والعلم والأخلاق ولذلك قام بتوجيه شعبه منذ تحرير بلادنا من الاستعمار الإيطالي إلى التعليم والإكثار من المدارس والاهتمام بالأطفال، ولما تولى أمر المملكة الليبية وجه المسئولين إلى وجوب العناية بالتعليم وتعميمه واهتم بوزارة المعارف، وتبرع بقصر المنار لوزارة المعارف ليكون نواة للجامعة الليبية.

وفي (عام ١٩٥٤م من شهر نوفمبر) أصدر الملك إدريس توجيهاته إلى حكام الولايات الثلاث: برقة وطرابلس وفزان لاتخاذ السبل الكفيلة بضرورة تدريس العلوم الدينية للطلبة في

(١)، (٢)، (٣) انظر: إدريس السنوسي (ص٢٤١).

(٤) انظر: إدريس السنوسي (٢٤١).

جميع المدارس كمادة أولية مفروضة، وفرض الصلاة فى أوقاتها «الخمس» على طلاب المدارس من بنين وبنات فى كافة أنحاء المملكة لإعداد هذا الجيل إعدادًا إسلاميًا رشيدًا.

واهتم بتطوير معهد السيد محمد بن على السنوسى حتى أصبح جامعة متميزة من حيث التعليم، والنظام والاستعداد وكان يحث شعبه على الصلوات الخمس ويحذرهم من المعاصى والذنوب، وقام بتوجيه رئيس الوزراء ورئيس الديوان والولاة الليبيين وحملهم مسئولية تهاون موظفى الدولة فى أداء الصلوات الخمس، ومسئولية شرب الخمر، وحملهم المسئولية العظمى أمام الله ثم أمام الملك، وكانت حيثيات هذا التوجيه مدعمة بالأحاديث النبوية الشريفة، وكان الإنذار الذى يحمله هذا التوجيه شديدًا(١)، وكان يرى أن أركان النصر للشعوب فى ثلاث ركائز بالتمسك بالدين الكامل، والخلق الفاضل والاتحاد الشامل؛ ولذلك قال: «أنصح العرب الأشقاء بالتمسك بالدين الكامل، والخُلق الفاضل، والاتحاد الشامل، فلن يغلب شعب يحرص على هذه الأركان»(٢).

وقال: «الاتحاد العربى ضرورى، والعصبية العربية مشروعة ومعقولة شريطة أن لا تتعارض مع الأخوة الإسلامية وأن لا تعتدى على حقوق الآخرين»(٣).

وقال: «يجب على العرب والمسلمين أن يحرروا الفكرة من قيود التقليد وأن يعتبروا الدين صديقًا للعلم»(٤).

وقال أيضًا: «لقد نبغ فى العرب رجال لو أنهم تماسكوا وتضافروا لأوجدوا فى البلاد العربية حركة فكرية»(٥)، وقال: «إن كل شىء يمكن نيله إذا ما انتصرت حرية الفكر فبدونها لا يحصل أى تقدم ولا أى رقى ولا أى صلاح، لا يمكننا الوقوف إلى جانب القوى التقدمية إلا إذا عممنا التربية والتعليم كما ينبغى، وبذلك ننشىء نشأ جديدًا يكون أهلاً للنظر والفكر والعمل»(٦).

إن الاهتمام بالدين والعلم والأخلاق عند الملك إدريس -رحمه الله- نابع من عقيدة الإسلام، ومن فهمه لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويرى أن الحضارة الصحيحة هى التى تقوم على الدين والعلم والأخلاق، وبهذه المقومات قامت الحركة السنوسية؛ فعندما سأله كاتب دنماركى أجرى معه مقابلة صحفية أثناء وجوده بالمنفى عن موقفه تجاه الاحتلال الإيطالى لليبيا آنذاك، فجاء رده مؤكدًا لنظرته للحياة الروحية باعتبارها أهم من الوجود المادى، إذ قال فى معرض حديثه: «إن الحضارة التى يريد الإيطاليون إدخالها فى بلادنا تجعل منا عبيدًا للظروف، ولذا وجب علينا أن

(١) انظر: إدريس السنوسى (٢ ٢٤٣).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) انظر: إدريس السنوسى.

نحاربهم، فهى تبالغ فى إضفاء الأهمية على قشرة الحياة الخارجية، كالتقدم الفنى والآلى مثلاً، وتعتبر مظاهر الأبهة والسلطان معياراً للحكم على قيمة الفرد أو الأمة، فى حين تستهين بالنمو الداخلى للإنسان، وأستطيع أن أقول لك شيئًا واحدًا وهو أنه حيث تسود الدعوة السنوسية يستتب السلام والرضا من كل جانب»[1].

ثانيًا: حبه للشعب وحب الشعب له:

عندما عينت الجمعية الوطنية التأسيسية الليبية حكومة مؤقتة فى شهر أبريل عام (١٩٥١م) برئاسة محمود المنتصر رأت الحكومة أهمية زيارة الملك إدريس لمنطقة طرابلس تلبية لرغبة الشعب الطرابلسى لهذه الزيارة؛ ولبى الملك تلك الرغبة وابتهجت المدن الليبية فى الغرب بهذه الزيارة، واستقبلته الوفود من الرجال والنساء والشيوخ والشباب، وعندما وصل موكبه إلى طرابلس واخترق شارع عمر المختار، كان بعض العملاء المندسين يتربصون بالملك الدوائر وقذف موكبه ببعض القنابل، ولكن الله سلم، وظهرت من الملك شجاعة نادرة، وثبات عجيب، فلم يهتز من بدنه شعرة واحدة، وما كاد يذاع نبأ هذه المحاولة الفاشلة فى ليبيا حتى اجتمعت جموع الشعب فى أسرع من لمح البصر من شدة حبها لزعيمها وقائدها وشرعت تهنئ بعضها بسلامة قائدها، وبهذه المناسبة قال أحمد رفيق المهدوى:

وقاك الله من شر الأعادى ... ودام علاك يا أمل البلاد
وعشت لأمة جعلتك رمزًا ... لوحدتها وروحًا للجهاد
حياتك بيننا لله نور ... أيطفئ نوره أهل الفساد؟
أتم الله نعمته علينا ... بحفظك واهتدائك للسداد
فدم ملكًا على عرش متين ... محاطًا بالمحبة والوداد[2]

وقد أجاب الملك إدريس عن هذه الحادثة فقال:

إن هذه الحادثة لم تكن أبدًا من ليبى، ولن يقدم عليها أحد من أبناء ليبيا، وإننى أحمد الله جلت قدرته الذى وقى هذه البلاد شر المصائب. إلى أن قال: والضرر الذى يلحق بقضية البلاد أخطر من الضرر الذى يلحق بشخصنا أو بأى شخص آخر، وقال: إننا لسنا من أى حزب ولن

(١) انظر: الإنقاذ العدد (٣٩)، (٢٩جمادى الآخرة ١٤١٢هـ)، (ديسمبر ١٩٩١م)، (ص٦٦).
(٢) انظر: إدريس السنوسى (ص ١٩١).

نتحزب لحزب دون آخر، وإنما نحن للجميع ونسعى لخير الكل ولصالحهم، هذا هو مبدؤنا الذى فطرنا عليه وعملنا من أجله زهاء ثلاثين سنة، ونحن لا نعتبر أنفسنا إلا فردًا من أفراد هذا الشعب، لا يهمه غير مصلحة الشعب ومستقبل البلاد(١).

وقام بزيارة ترهونة والزاوية وغريان، ويفرن ومصراته، وزليطن والخمس، وكان يستقبل من الشعب بالحب والود والوفاء، وقام الشعراء بنظم القصائد تعبيرًا عن فرحتهم بهذه المناسبة.

لقد كانت أعمال الملك من أسباب محبة الليبيين له، فقد أصدر أوامره بأن لا يعفى من الضريبة الجمركية كل ما يرد إلى الملك، وبأن لا يتلقب بصاحب الجلالة، تقدسًا بذات الله جل جلاله، وقال: إن الجلالة لله وحده، وما أنا إلا عبد من عباد الله(٢).

ويعتبر هذا الحدث سابقة تاريخية من أروع ما شهد فى دنيا الملوك، ولقد تأثر ريفلى رئيس جريدة «بريد طرابلس» التى كانت تصدر باللغة الإيطالية لهذا الحدث، وكتب مقالاً جاء فيه: «إن الرغبة التى أبداها الملك إدريس ليست فى حاجة إلى تعليق؛ لأنه عندما تبوأ العرش كان تواضعه معروفًا، وسهره المتواصل وعطفه ورعايته لشعبه، فإن دل هذا على شىء فإنما يدل على الديمقراطية التى تجلت فى أسمى معانيها، ولقد أتاح الحظ لليبيا -وهى لا تزال فى بداية حياتها- أن يكون على رأسها شخصية صالحة مختارة تخاف الله العلى الأجل، وعندما قبل مهمته الصعبة الخطيرة بأن يقود شعبه إلى ما كتبه له القدر من مصير، فإن ذلك كان استجابة لأمر ربه الذى يمده بنوره فيما يتخذ من قرارات وفى أعمال، وقد تبين له أن لقب «الجلالة» لقب ضخم لا يتفق مع أساسه الدينى الذى يرى أن المولى وحده صاحب الجلالة العظمى وهو وحده العلى الأعلى. . . ولم يكن هذا التصرف بغريب على الملك محمد إدريس المهدى السنوسى الذى ينحدر من سلالة شريفة أراد الله تعالى أن يمكن فى قلبها الإيمان والثقة به، وفى عالمنا هذا الذى يسير سيرًا حثيثًا نحو المادية فإن تصرف مثل هذا يتعدى أى احتمال ويدل دلالة قاطعة على أن أى مسبب حتى وإن كان ذلك المسبب ساميًا يمكنه أن يكون وسيلة لإظهار تواضع منبثق عن عقيدة راسخة فى عظمة الله»(٣).

وقد حدثنى السيد أحمد العرفى عندما كنا معًا فى السجن السياسى بطرابلس عن حادثة تدل على تعظيم الملك إدريس للمولى عز وجل، وهى أنه كان هناك مسجدٌ جديدٌ فى مدينة البيضاء، وجاء الملك لافتتاحه، ومع مجيئه ودخوله المسجد شرع الناس فى الهتاف بحياة الملك إدريس، فغضب وأمر الناس بالصمت، وقال لهم: هذا المكان لا ينبغى أن يذكر فيه غير اسم الله،

(١) انظر: إدريس السنوسى (ص ١٩١). (٢) انظر: إدريس السنوسى (ص ٢٣٢).
(٣) انظر: إدريس السنوسى (ص ٢٣٢).

واستشهد بقول الله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ [الجن: ١٨]، ولذلك أحبه شعبه وأحب شعبه المسلم، كانت الإرادات السامية تصدر من الملك لتجسد هذه المعانى الرفيعة من التواضع والبساطة والبعد عن المظاهر وتحاشى الشبهات، فقد أصدر إرادة سامية بأن لا يطلق اسمه على الشوارع، والمؤسسات بقصد التمجيد والتخليد محتسباً عند الله ما عمله لصالح أمته وشعبه، وأصدر إرادة سامية بأن لا تُنشر صور ذاته على العملة أو على طوابع البريد ابتعاداً عن المظاهر الدنيوية الزائلة، وأصدر إرادة سامية بأن لا يتخذ من ذكرى ميلاده عيداً رسمياً وأن لا تُقام الاحتفالات بهذه المناسبة، وذلك لأنه ليست مما جرى به العمل فى السلف الصالح رضوان الله عليهم(١).

وأصدر أمراً بتعديل قانون البيت المالك، وألغى بموجب ذاك الأمر حصانات وامتيازات الأسرة، كما ألغى ألقاب الإمارة والنبل من أعضاء البيت السنوسى، وأمر أيضًا بأن لا يقبل أية هدية يرى الشعب فرادى أو جماعات أن يقدمها له فى أية مناسبة تتعلق بذاته أو غيرها من المناسبات، وبهذه المناسبة صدر بلاغ من الديوان الملكى يتعلق بأحد المواضيع التى نحن بصددها: «بالنظر لما أشيع من أن هناك هيئات حكومية وشعبية ستقوم بتقديم هدايا ثمينة إلى حضرة مولانا الملك المعظم وذلك بمناسبة قرانه السعيد، فقد أمر حفظه الله بأنه لن يقبل هذه الهدايا بدون استثناء ويطلب من الذين يرغبون فى تقديمها إلى مقامه السامى أن يوزعوا المبالغ التى جمعت أو خصصت لهذا الغرض على الفقراء والمعوزين والله يجزى أجر من أحسن عملا»(٢).

كان الملك إدريس -رحمه الله- يقوم صباح كل يوم مبكراً لأداء صلاة الفجر فى وقتها، ويشرع فى قراءة القرآن الكريم، وأوراده اليومية ويتناول إفطاره حوالى الساعة العاشرة فيستقبل موظفى الديوان والخاصة الملكية لتصريف الأعمال اليومية، ويستقبل زواره من الضيوف ورجال الحكومة وأصحاب الحاجات من الحادية عشرة إلى الواحدة، ثم يتناول طعام الغداء بعد تأدية صلاة الظهر مباشرة، وكانت الجولة البرية من أحب الرياضات عنده وكان يستقبل بعض زواه قبل صلاة المغرب وبعد صلاة العشاء، يتناول الشاى عادة مع موظفى القصر وضيوفه وينام عادة حوالى الحادية عشرة مساءً.

وكان يحب المطالعة فى مكتبته الخاصة ويعكف عليها طويلاً وأحب ما عنده قراءة القرآن، ودراسة كتب الحديث، ومطالعة كتب التاريخ العام، وكان يحرص فى غالب الأحيان على استماع نشرات الأخبار من المذياع.

(١) انظر: مجلة الإنقاذ العدد (٢٩)، (ص ٧٦).
(٢) انظر: إدريس السنوسى (ص ٢٣٤).

وكان لا يهتم بالمظاهر فى تحركاته، وقد ذكر السيد عمر فائق شنيب قصة طريفة عندما كان رئيسًا للديوان الملكى: كان مولانا الملك يريد أن يتوجه من بنغازى إلى البيضاء وحضرت سيارات الحرس ولما شاهدنا قبل التحرك قال لى: لا داعى لأن تكن معنا فى هذه السيارات، ونكتفى بسيارة واحدة تحمل بعض الضروريات، وكان قد فاتنى أن أصدر هذا الأمر إلى قائد الحرس وبينما نحن فى الطريق لفت نظرى الملك إلى أمره السابق، وقال: لماذا يكون معنا هذا الحرس فقلت له يا مولاى: إن هذا لم يكن حرسًا لكم ولكنه محروسًا بكم[(١)].

كان الملك -رحمه الله- فى أحد الأيام راجعًا من جولته التقليدية ورأى سيارة تقف لسبب خلل فيها، وكان صاحبها الأستاذ محمد بن عامر، فأمر الملك سائق سيارته أن يقف حتى تلحق به سيارة الحرس، وأمر هذه السيارة بأن تعود إلى الأستاذ ابن عامر لتحمله حيث شاء[(٢)].

وخرج الملك إدريس ذات مرة فى جولته المسائية المعتادة ولم يصحب معه حرسًا ودخل إلى بعض المزارع فى منطقة البيضاء، وعندما دخل إلى أحد البساتين وجد صاحب البستان منهمكًا فى سقايته فحياه بتحية الإسلام، وكان البستانى لا يعرف الملك شخصيًا ولم يخطر بباله أن الملك يصل إلى ذلك الموقع بمفرده كأى شخص ترمى به الطريق، وبدأ الملك يسأل البستانى عن أنواع الشجر والمحصول وما إلى ذلك، وكان صاحبنا يجيب عن كل سؤال فى حين أنه منهمك فى عمله، وعندما فرغ الملك من الأسئلة وأراد أن ينصرف سأله البستانى قائلا: «من حضرتك من غيار صغاره» وهذا هو سؤال كل شخص فى برقة لمن لا يعرفه، فأجابه الملك بقوله: «أنا إدريس» ولشدة دهشة الرجل عندما سمع الإجابة قفز مسرعًا وعانق الملك قائلا: مرحبًا، مرحبًا، أنت سيدى إدريس ولد سيدى المهدى، مرحبًا مرحبًا، وأخذ يردد الترحاب والتساؤل فى استغراب[(٣)].

إن هذه الصفات الرائعة تدلنا على جوانب مضيئة فى شخصية الملك إدريس الإسلامية، وحبه لمعالى الأمور، واهتمامه بالتواضع والبساطة، كما تدلنا على أنه تحصل على قسط من التربية الإيمانية من حركة أجداده الميامين الطيبين الطاهرين.

ثالثًا: نصحه الزعماء العرب وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

كان كثير الاتصال بجميع إخوانه ملوك ورؤساء العرب والمسلمين مسترشدًا مستعينًا أو ناصحًا أمينًا، وقد بذل جهودًا كبيرة ومساعى جليلة لدى كل من الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى

(١)، (٢) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٣٧).
(٣) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٣٨).

حميد الدين أثناء الظروف العصيبة التى مرت بالسعودية واليمن، وكان بينهما من سوء التفاهم ما كاد أن يكون ثغرة يتسرب منها التدخل الأجنبى، كتب للملك عبد العزيز، والإمام يحيى ناصحًا أمينًا، أظهر كل من الزعيمين تقديره لشعور إدريس السنوسى، وقد تبودل بينه وبينهما عدد من الرسائل فى هذا الصدد، وهذه صورة من رسالة أرسلها إلى الملك عبد العزيز -رحمه الله- قال بعد البسملة: «إلى عين الملوك الكرماء وحامى حوزة الحنيفية السمحاء صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود، آدام الله بدور سعوده ولا زال يعمر الأنام بعدله العمرى وجوده.

وبعد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

لقد بلغنا عن حكمة جلالتكم البالغة ما شرح صدر كل ودود، وكمد كل معاند حسود، وجعل كل موحد يرقص لصنعكم طربًا، مفتخرًا بجلالتكم بين الملوك عجمًا وعربًا، فقد جاء حكم جلالتكم العادل فى تلك القضية التى كانت بين حكومة جلالتكم وبين حكومة جلالة ملك اليمن كالصاعقة على رءوس الذين يصطادون فى الماء العكر، وهم من بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر، فأسقط بحمد الله فى أيديهم ورد كيدهم فى نحرهم، بعدما كانوا يعتقدون أن الدولتين واقعتان لا محالة فى حرب، وكانت فى نظرهم على قاب قوسين أقرب، ولكن الله سلم وكفى الله المؤمنين القتال، بما أوتيتموه من حكمة وروية، فضربتم للناس خير مثال، وحمدنا الله كثيرًا على أن الدسائس لا تجد منفذًا لجنابكم الحصين، وذلك ليقظتكم وسهركم على مصالح الإسلام والمسلمين، فقد تداركتم الأمر بحكمتكم قبل الفوات، وحزتم بذلك من العالم العربى والإسلامى، أصدق الدعوات، وإنى أتقدم إليكم أيها الأخ الكريم بخالص شكرى القلبى على عدم تفضيلكم المصلحة الخاصة دون المصلحة العامة مما جعل الألسنة تلهج بالدعاء لجلالتكم، أبقاكم الله للإسلام ذخرًا وعضدًا، وللدين الحنيف ركنًا وسندًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإمضاء: محمد إدريس السنوسى(١)

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

بذل الملك إدريس -رحمه الله- ما فى وسعه فى القضايا التى تتنامى إلى سمعه فيغضب لله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإن كانت هناك أمور لم يتدخل فيها لكونها خارجة عن إرادته وقدرته بحكم الوجود البريطانى والأمريكى.

(١) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢٧).

وإليك أخى القارئ هذه الرسالة التى وجهها إلى الحكومة الاتحادية فى (١٣ من يوليو ١٩٦٠م) التى عممت على جميع الإدارات الحكومية، ثم نشرتها الصحف ووسائل الإعلام بسبب حصول ابن عمه عبد الله عابد السنوسى على امتياز تنفيذ طريق فزان بكيفية مريبة، فأطلق الملك صرخته المدوية «لقد بلغ السيل الزبى».

وكانت الرسالة موجهة إلى رئيس الحكومة الاتحادية والوزراء والوكلاء، وكل مسئول بها، وإلى والى طرابليس، ووالى برقة، ووالى فزان ونظارهن ومديريهن ومتصرفيه، وكل مسئول فيهن: إنه بلغ السيل الزبى، وما يصم الأذان من سوء سيرة المسئولين فى الدولة، من أخذ الرشوة سرًا وعلانية والمحسوبية القاضيتين على كيان الدولة وحسن سمعتها فى الداخل والخارج مع تبذير أموالها سرًا وعلانية، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ١٨٨].

ولقد قال رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لكم»

وقد قال رسول الله ﷺ فى حديثه: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»

وإننى بنعمة الله وقدرته سوف أغيره بيدى إن شاء الله ولن تأخذنى فى الله ولا فى طهارة سمعة بلادى لومة لائم، والسلام».

وبالرغم من أن التحقيقات التى أجريت قد أثبتت براءة ذمة حكومة كعبار من التهم التى علقت بها، إلا أن الملك رأى أن نزاهة الحكم لا تتحمل وجود مثل تلك الشبهات، فطلب من الحكومة تقديم استقالتها، فتقدمت بها وقبلها الملك فى (١٦ أكتوبر ١٩٦٠م)(١).

رابعًا: أدب العبارة فى خطاب الملك إدريس وسمو معانيها وتواضعها الجم والدعوة إلى الخير والتقوى:

تميزت خطابات ملك ليبيا السابق برصانة الأسلوب ومتانة التعبير، وقوة الحجة، وحرص الراعى على الرعية، ونصحه لشعبه وكانت خطاباته عامرة بالدعوة إلى الخير والتقوى ومكارم الأخلاق وهذا خطاب ألقاه بمناسبة توحيد الحكم فى المملكة وألغى الحكم الاتحادى فى (عام ١٩٦٣م يوم ٢٦ أبريل) مما يؤكد ما ذهبت إليه.

(١) انظر: مجلة الإنقاذ العدد (٢٩)، (ص٦٩، ٧٠).

مواطنى الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

فى هذه المناسبات التاريخية التى تمر بها أمتنا المجيدة، وفى هذه المرحلة التى يختارها ركبنا الصاعد يسرنى غاية السرور أن أعلن للشعب الليبى الكريم انتهاء العمل بشكل الحكم الاتحادى والبدء رسميًا فى نظام الوحدة الشاملة الكاملة تطبيقًا للتعديل الدستورى الذى وافقت عليه المجالس النيابية والتشريعية بالإجماع، وإننى لأحمد الله تعالى كثيراً وأتوجه إليه بالشكر العظيم والثناء الجميل على ما من به سبحانه وتعالى من نعمة حتى مشاهدة ولادة هذا الأمل الوطنى الكبير ووفقنا جميعًا بتأييده وعونه إلى تحقيق هذه الأمنية الغالية.

إن الوحدة التى تبدأ اليوم عهدها الميمون هدف جديد من أهدافنا الوطنية التى جاهدنا من أجلها وضحى شعبنا فى سبيلها، فهى ثمرة طيبة للجهاد ووفاء لأجر الصابرين، وهى بعد ذلك خير وبركة ورمز لاجتماع الكلمة وتآلف القلوب ووعاء للمحبة والتآخى والوئام ومبدأ يتبوأ مكان السمو فى عالم الأخلاق والفضيلة، وحبل الله المتين ، الذى أمرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام بعروته الوثقى، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهو الدين القويم دين سيدنا محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

فالحمد لله الذى جمع على المحبة قلوبنا، ووحد على الوفاق بلادنا، وجعلنا من أمة التوحيد التى هى خير أمة أخرجت للناس.

وإنى لأنتهز فرصة إعلان الوحدة المباركة السعيدة فأوصيكم جميعًا بتقوى الله تعالى ومراعاة وجهه فى السر والعلن، وأحثكم على مضاعفة الجهد وبذل المزيد من العمل حتى نوفر لبلادنا الازدهار والرخاء والرفاهية ونعيش جميعًا فى ظل الوحدة أمة قوية فى خُلقها، عزيزة فى شخصيتها، متينة فى بنائها، نظيفة فى سمعتها، إن الوحدة تلقى على كواهلنا مسئوليات جسامًا وتضع نصب أعيننا واجبات كثيرة، فعلينا أن نقوم بها ونحافظ عليها، كما نحافظ على استقلالنا ونحوطها بالرعاية والحدب، ونغذيها بمشاعر المحبة والوطنية حتى نستمر فى طريق النمو والاكتمال، فالوحدة ليست غاية فى ذاتها وإنما هى وسيلة إلى عمل الخير وطريق إلى آفاق الإصلاح والفلاح وواجبنا أن نأخذ منها القاعدة الصالحة للانطلاق إلى الأهداف العليا، ومصباح النور الذى ينير مواقع خطواتنا فى طريق العمل الدءوب والسعى المجدى والتعاون المثمر المفيد، إن كل مواطن مسئول عن حماية الوحدة وتفرض هذه المسئولية أن شعار الوحدة تحت لوائه الخفاق

كل السواعد العاملة والهمم المتوثبة، والكفاءات الخلاقة، ويشمل كل بقعة تستظل بسماء هذا الوطن العزيز ويستمتع كل مواطن بخيراتها العميمة، ويعيش فى كنفها عيشة الطمأنينة والسعادة والاستقرار، أبلغ شكر لنعمة ضيافتها، وأسمى مراتب الحق أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. وفقنا الله جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه، وألهمنا الرشد والصواب، وجعل وحدتنا فاتحة عهد سعيد يفيض خيره ويزيد نفعه وتعم بركاته، ونبدأ مرحلة تنشط فيها العزائم وتقوى الإرادات فإنه تعالى أقرب مسئول يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ومنه الهداية والتوفيق وإليه الملجأ والمصير[1].

إن هذا الخطاب ملىء بأدب العبارة وسمو المعانى، والتواضع الجم والدعوة إلى الخير والبر والتقوى.

خامسًا: اهتمام الملك إدريس بالثورة الجزائرية:

كان السنوسيون منذ زمن المؤسس الأول للحركة الإمام محمد بن على السنوسى مهتمين بأمر الجهاد فى الجزائر، وواصل الملك إدريس جهوده المادية والمعنوية لدعم ثورة الجزائر التى اندلعت فى (١/ ١١/ ١٩٥٤م)، وقد أثبتت الوثائق التاريخية جهوده العظيمة وأعماله الجسيمة فى هذا الباب، فقد ذكر السيد مصطفى أحمد بن حليم فى كتابه «صفحات مطوية فى تاريخ ليبيا السياسى»، فى الباب التاسع تحت عنوان: «ثورة الجزائر ودور ليبيا الخطير فى مساندتها ما يقيم الحجة والبرهان على صدق الملك إدريس لدعمه للثورة الجزائرية»، فقد ذكر السيد مصطفى بن حليم عندما كان بالقاهرة أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل به ودعاه لاجتماع منفرد به، وفاجأه قائلا: إنه يود أن يتحدث معه عن الثورة الجزائرية التى اندلعت، وشرح جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم أنه اتفق مع الملك سعود والأمير فيصل على أن تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم كافة الأموال اللازمة لشراء السلاح والعتاد والإمدادات اللازمة للثورة الجزائرية، وأن يقوم رجال الجيش المصرى والمخابرات بشراء ذلك السلاح والعتاد وإيصاله إلى الحدود الليبية وهو يأمل أن يشرف رئيس الحكومة «السيد مصطفى بن حليم» بنفسه بنقل ذلك السلاح والعتاد عبر ليبيا إلى الحدود الجزائرية حيث يستلمه منه ممثلو الثورة الجزائرية، ثم قال جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم: أو لعلك ستخشى الفرنسيين وتخاف بطشهم؟».

فرد عليه مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا سابقًا وقال له: «يا ريس لعلك لا تعرف أن جد الملك إدريس جاء إلى ليبيا من الجزائر هاربًا من الطغيان الفرنسى وأمضى حياته فى نشر الدعوة الإسلامية وإيقاظ الأمة الإسلامية لتقاوم موجة الطغيان والتنصير الفرنسى، ووالد الملك إدريس

(١) انظر: مجلة الإنقاذ العدد (٢٩)، (ص٦٣).

ظل يقاوم تغلغل المد الفرنسي في تشاد والسودان والنيجر، حتى لقى وجه ربه، والسيد أحمد الشريف والملك إدريس أفنيا عمرهما في الجهاد ضد الطليان. . .»[(١)].

ورد جمال عبد الناصر على هذه الإجابة المقنعة بقوله:

«ألا تستوعب الدعابة؟. إنني أعرف كل هذا وأعرف أن الليبيين أبطال جهاد ولكنني أرغب أن أرى رد فعلك. . . وتبين لى أنك مغربي حاد المزاج لا تتقبل الدعابة بروح مرحة»[(٢)].

كانت القوات البريطانية المتواجدة في ليبيا والمنتشرة على طول البلاد من طبرق إلى غرب طرابلس والجواسيس الإنجليز يسيطرون على مراكز حساسة، وموظفون من الإنجليز أيضًا في شرطة ولاية طرابلس، وفرنسا لا تزال تحتل جنوب ليبيا «فزان» ولسفاراتها في طرابلس وبنغازي جهاز مخابرات من الطراز الأول وله أعوان وعيون منتشرة في طول البلاد وعرضها، بين السيد ابن حليم تلك الملابسات لجمال عبد الناصر الذى أجاب: «إنني على علم تام بأن ما أطلبه منك عمل ينطوى على خطورة كبيرة ومغامرة خطيرة. . .»[(٣)]، ثم أضاف: «لولا أنني مطمئن لوطنية الملك إدريس ووطنيتك وحرصكما الشديد على تحرير الشمال الإفريقي من نير الاستعمار الفرنسي البغيض لما طلبت منكم ما طلبت، وعلى أية حال فأنا رهن إشارتكم لأي عون أو نصح أو مساعدة في سبيل هدفنا النبيل لتخليص الجزائر من ربقة الاستعمار»، بعد ذلك قام جمال عبد الناصر بتعريف مصطفى بن حليم بالسيد أحمد بن بله[(٤)].

كان قائد قوة دفاع برقة الفريق محمود بوقويطين لا يثق في جمال عبد الناصر ويراه حريصًا على تفجير القلاقل وزعزعة النظام داخل ليبيا، ولربما اتخذ من ستار مرور السلاح إلى الجزائر وسيلة لتوزيع السلاح داخل ليبيا ضد المملكة وعُرض الأمر على الملك -رحمه الله- فقال: «من ناحية لا يمكننا أن نرفض مساعدة ثوار الجزائر في جهادهم، هذا واجب ديني محتم علينا تلبيته ولا يمكننا أن نتردد في القيام به. . . ومن ناحية أخرى فإنني لا أريد أن أعرض استقلال هذا الوطن الذى ضحينا في سبيله بكل عزيز وغال، واستشهد فيه سبيله مئات الآلاف من الليبيين، ولا أود أن أقامر بهذا الاستقلال خصوصًا مع فرنسا التى خرجت عن طورها وترتكب كل يوم الكثير من الجرائم والحماقات في قمع كل حركة استقلالية في الشمال الإفريقي. . . ومع توتر علاقتنا مع فرنسا بعد طلبنا إجلاء قواتها عن فزان فإنها ستلتمس أى عذر لترتكب معنا حماقة كبرى. .»[(٥)].

---

(١)، (٢) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٥١).

(٣) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٥٣).

(٤) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٥٣).

(٥) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٥٣). .

لقد وافق الملك إدريس على تمرير السلاح من مصر عبر الأراضى الليبية، وقام بتوجيه رئيس الوزراء والمسئولين عن هذه الأمور باتخاذ الأسباب اللازمة للجمع بين الأمرين؛ مساعدة المجاهدين فى الجزائر، وعدم تعريض استقلال البلاد لأى هزة من أى نوع كانت؛ وقام مدير قوة دفاع برقة الفريق محمود بوقويطين باتخاذ إجراءات الرقابة التى ستصاحب قوافل السلاح عبر برقة، واتخذ رئيس الوزراء مجموعة خيرة من ضباط مدينة طرابلس يشرف عليهم المجاهد العقيد عبد الحميد بىّ درنه للإشراف على هذه المهمة الخطيرة وباشر الليبيون مع إخوانهم الجزائرين تنفيذ ما تفقوا عليه وتسرب السلاح من ليبيا إلى الجزائر تدريجيًا، واستمر هذا الحال فى سرية وكفاءة تامتين لمدة سنة تقريبًا، وكان الملك رحمه الله يبارك تلك الأعمال الجبارة(١).

ويحدثنا السيد مصطفى بن حليم عن قصة طريفة حدثت له مع السفير الفرنسى فى ليبيا حيث قال:

أذكر هنا قصة طريفة حدثت فى منتصف (سنة ١٩٥٥م)، فقد كنا فى أوائل الصيف وأذكر كان يوم الخميس وكنت على موعد مع الأخ أحمد بن بله «من زعماء ثورة الجزائر» وبعض مساعديه، دعوتهم للغداء ثم التباحث بعد ذلك فى أمور السلاح والعتاد والثورة... وأثناء النهار اتصلت بى وزارة الخارجية الليبية تقول: إن السفير الفرنسى يلح فى طلب مقابلتى حاملاً رسالة من إدجار فور رئيس الحكومة الفرنسية، وبدون تفكير قلت ليحضر السفير الساعة الخامسة إلى المنزل «منزل رئيس الحكومة» ناسيًا موعدى السابق مع ابن بله وجماعته، ورجعت إلى مسكنى عند الثالثة وتناولت الغداء مع الأخ أحمد وجماعته والعقيد بى درنه ومساعديه، ثم بدأنا مناقشة طويلة لاختيار أحسن المواقع التى تخزن فيها شحنات السلاح القادمة، وأثناء انهماكنا فى هذه المناقشة الدقيقة دخل كبير المباشرين، «وبرغم أوامرى بعدم دخول أحد علينا فى ذلك الاجتماع»، واستأذن وأسر فى أذنى أن السفير الفرنسى وصل وأدخله فى الصالون المجاور !!، وارتبكت ثم قلت للأخ أحمد بن بله أستأذنكم لبضع دقائق فقد حان موعد كنت نسيته مع السفير الفرنسى!، وأضفت لعله لم يسمع مناقشتنا..! وذهبت لاستقبال «ميسو دى مارساى» الذى كان يحمل لى رسالة عاجلة من رئيس وزراء فرنسا يرجو المساعدة فى القبض عن طريق العدالة الفرنسية على المدعو «ابن بله» وتمكنت بصعوبة كبيرة من السيطرة على عضلات وجهى وكتم ضحكة ساخرة... وقلت للسفير: أرجو أن تحضروا لنا صورًا للمجرم «ابن بله» صورًا مواجهة وصورًا جانبية ووصفًا دقيقًا للرجل، وتقدموا هذه المعلومات للسير يجادير جايلزبك فى طرابلس،

(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى. (ص٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦).

وللفريق بوقويطن في برقة، وسأصدر تعليماتي لهما لمساعدتكم بكافة الوسائل، وودعت السفير ثم استأنفت الاجتماع، فسألني الأخ أحمد عن سبب زيارة السفير قلت: أراد المساعدة في القبض عليك!، قال: وماذا قلت؟، قلت: وعدته بالمساعدة بعدما يقدم لي تفاصيل كافية تمكن رجال الشرطة من القبض عليك، وضحكنا كثيراً...»[١].

لقد تدهورت العلاقات بين ليبيا وفرنسا بعدما تأكد للحكومة الفرنسية أن ليبيا تقف وراء حركة الجهاد في الجزائر مؤيدة لها قولاً وفعلاً، وتسربت الأخبار عن الدور السري الخطير الذي كانت تقوم به ليبيا بزعامة ملكها في مساندة الشعب الجزائري ومده بالسلاح والعتاد بالإضافة إلى التأييد السياسي والمعنوي إثر اعتراض الطيران الفرنسي للطائرة التي كانت تحمل أحمد بن بله ورفاقه وهم في طريقهم من الرباط إلى تونس، وأرغمت الطائرة على الهبوط في مطار الجزائر وتم اعتقالهم هناك[٢].

لقد استشاط غضباً نواب اليمين في البرلمان الفرنسي، ووصلت حملتهم على دور ليبيا في نصرة حركة الجهاد في الجزائر حد الهستيريا، الأمر الذي جعل الحكومة الفرنسية تحاول التملص من تعهداتها بالجلاء عن الجنوب الليبي في فترة أقصاها (نوفمبر سنة ١٩٥٦م) وقامت فرنسا بإرسال السفير (بالائي) إلى الحكومة الليبية وأبلغها بأن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تنفذ جلاء قواتها عن فزان بعدما تبين لها مواقف الحكومة الليبية المعادية لفرنسا، وكان رد رئيس الوزراء الليبي بأن حكومته سوف ترفع القضية إلى مجلس الأمن وطلبت من الرئيس أيزنهاور الأمريكي لكي يتدخل وينصح حلفاءه الفرنسيين باحترام ميثاقهم مع ليبيا[٣].

لقد وقف الملك وحكومته وشعبه مع القضية الجزائرية، وكانت الحكومة الليبية شديدة الحرص على الادعاء بأنها تقف موقفًا محايداً تمامًا، فبينما تعطف على آمال الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال إلا أنها لا تساعد على أعمال العنف!، ولذلك فهي تدعو فرنسا وثوار الجزائر إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات للوصول إلى حل سلمي! كان كل هذا ستاراً دبلوماسيًا؛ لأن مساعدات ليبيا للجزائر زادت نوعًا ومقداراً، بل سمح للمؤسسات الشعبية في أنحاء ليبيا بتكوين جمعيات شعبية لنصرة الشعب الجزائري وجمع التبرعات، وإرسال برقيات التأييد للثورة الجزائرية، وبرقيات الشجب للحكومة الفرنسية، وكانت الحكومة الليبية برئاسة ابن حليم تدعي أن لا دخل لها بالأعمال الشعبية العفوية، وأن خير سبيل أمام فرنسا هو الاستجابة لنصائحها

(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص ٣٥٧، ٣٥٨).
(٢) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٥٩).
(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، (ص٣٦٠).

باتباع الطرق السلمية مع الثورة الجزائرية وإيقاف أعمال القمع والقتل والتشريد التى تقوم بها القوات الفرنسية فى الجزائر(١).

كان رئيس الحكومة الليبية مصطفى بن حليم متعاطفًا مع القضية الجزائرية ووجد دعمًا معنويًا من الملك نفسه، فمضى فى طريقته بثقة واطمئنان حتى أنه لما زار عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا ليبيا فى (عام ١٩٥٧م فى شهر فبراير) اختلى ابن حليم بعدنان مندريس وبدأ بحديثه عن دور الأتراك العظيم فى نشر الإسلام وزعامتهم للأمة الإسلامية عبر قرون عديدة من التاريخ الإسلامى المجيد، وشدد على روابط الدين التى تربط الأتراك ببقية الأمة الإسلامية، وعلى أن لتركيا دورها الإسلامى العظيم بالرغم من دعاوى العلمانية، ثم عرج بحديثه عن شمال أفريقيا وشرح لمندريس مدى الظلم والقتل والتشريد الذى يعانى منه شعب الجزائر المجاهد ومحاولات فرنسا قمع ثورته الإسلامية وتنصيره وفرنسته، ثم دخل فى صلب الموضوع وقال لعدنان بك: «أننى آمل أملاً قويًا أن تمد تركيا الشقيقة المسلمة الكبرى يد المساعدة لشعب الجزائر المجاهد فى محنته الراهنة».

وقال عدنان مندريس: إنه كمسلم يعطف بكل جوارحه على الشعوب الإسلامية جميعًا وبنوع خاص على شعوب الشمال الإفريقى وهو على إدراك تام بما يعانيه الشعب الجزائرى فى حربه الاستقلالية، ثم قال: ولقد بذلت تركيا الكثير من المساعى السرية الحميدة لدى حكومة باريس موصية وناصحة بأن مشكلة الجزائر لا تحل بالقوة والقمع، بل بحلول سياسية وتفاوض مع ممثلى سكان الجزائر، وأضاف إنه على استعداد لمضاعفة هذه المساعى بل وتوسيعها، بحيث تشمل ضغطًا وديًا لدى دول حلف الأطلنطى الأخرى مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا، وقام السيد مصطفى بن حليم بشكر مندريس على مساعيه الدبلوماسية الطيبة وحثه على المواصلة وقال له: «إن مساعدة شعب الجزائر تتطلب أكثر من المساعى الحميدة فهى تتطلب عونًا ماديًا، مالاً وسلاحًا، ونظر عدنان مندريس إلى مصطفى بن حليم وظهر على وجهه الاضطراب واختفت الابتسامة التى كانت تلازمه كثيرًا، ثم قال للسيد مصطفى بن حليم: يا أخى العزيز أنت تعرف أن تركيا عضو هام فى حلف الأطلسى فكيف ترى أن تقدم لثوار الجزائر سلاحًا من سلاح الحلف «الأطلسى» لكى يحاربوا به عضوًا هامًا آخر من ذات الحلف، أعنى فرنسا؟، فقال مصطفى بن حليم: أنا أعرف أن تركيا من أقوى الدول الإسلامية وهى التى كانت تتولى القيادة والريادة للأمة الإسلامية لقرون عديدة، فكيف ترى أنت يا أخى العزيز ألا تمد تركيا العون المادى للجزائريين المسلمين الذين تقتلهم قوات فرنسا وتشردهم أو تعذبهم أنكل التعذيب؟، وما لهم من ذنب إلا أن يسعون لنيل حريتهم واستقلالهم؟.

---

(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى، (ص٣٥٨، ٣٥٩).

كرر مندريس مخاوفه الشديد من عواقب اكتشاف أية شبهة بأن تركيا تمد الثورة الجزائرية بأى عون مادى . . . وكرر عدة مرات بأن هذا سيسبب طرد تركيا من حلف الأطلسى وهو الركيزة الرئيسية التى ترتكز عليها تركيا فى مواجهة الخطر الروسى العظيم، وكان ابن حليم يشعر بأن مخاوف عدنان مندريس حقيقية فهدأ من روعه وقال له: إن الثورة الجزائرية فى أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة، وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفًا مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموه أنتم إلى شقيقتكم ليبيا، فليس فى هذا ما يثير أى شك أو ريب لدى فرنسا، وقال مصطفى لعدنان: إن الليبيين سوف يقومون بتسريب السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجيًا، وواعده بأن لا يعلم هذا السر إلا القيادة الجزائرية العليا، بل عدد قليل من أفراد تلك القيادة العليا، وواصل ابن حليم حديثه مع ضيفه رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس، واستعرض له ماضى تركيا الإسلامى، وتاريخها فى الذود عن الإسلام، وإعلاء كلمته ومزج السياسة بالعاطفة الدينية، إلى أن قال عدنان مندريس: سنقدم لكم هدية السلاح، وأرجو الله أن يوفقكم فى إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها فى الدفاع عن دينهم، أما نحن فى تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش ليبيا الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية المطلقة، وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركى واستلمها الجيش الليبى فى احتفال عسكرى ثم بدأ تسريبها تدريجيًا إلى مجاهدى الجزائر[(١)].

كان الملك إدريس -رحمه الله- بعيد النظر، فبعد أن استقال السيد مصطفى بن حليم من الحكومة فى (آخر مايو عام ١٩٥٧م) عينه مستشارًا خاصًا له بمرتب رئيس وزراء، وأصر على بقاء ابن حليم فى خدمة الدولة، وشرح الملك لرئيس وزرائه السابق أنه سيحتاج إليه قريبًا، ثم عرض عليه أن يرسله سفيرًا لليبيا فى باريس، لأن علاقته ممتازة مع رجال الثورة الجزائرية، ولأن الحكومة الفرنسية قد وصلت لقناعة بأن قضية الجزائر لا تحل عسكريًا، وإنما بالمفاوضة مع سكان الجزائر، وعندما رد ابن حليم على الملك بقوله: إن الحكومة الفرنسية أصبحت على علم تام بالدور الذى قام به فى مساعدة الثورة الجزائرية وتهريب السلاح والعتاد لها، وإن الثقة منعدمة بينهم وبينه، رد الملك بأن هذا هو خير مؤهل يجعل الحكومة الفرنسية تستعمل مساعيك كقناة للوساطة مع الثورة الجزائرية لتأكدها من أن زعماء الجزائر سيتقبلون نصحك قبولاً حسنًا، ويثقون بما تنقل لهم من اقتراحات، وأضاف الملك: «عليك أن تكمل رسالتك نحو الثورة الجزائرية»[(٢)]، لقد كانت مهمة

(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى، (ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣).
(٢) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى، (ص٣٦٤).

سفير ليبيا فى فرنسا البحث مع الحكومة الفرنسية عن سبل سلمية لإعطاء شعب الجزائر حق تقرير مصيره، وتشجيع الحكومة الفرنسية على انتهاج سياسة التفاهم والتفاوض مع جبهة تحرير الجزائر والإقلاع عن سياسة القمع والعنف والتشريد ضد الشعب الجزائرى(١).

وبدأ السفير مصطفى بن حليم بتنفيذ دوره الذى رسمه له الملك، وقام الملك إدريس بطلب رسمى من الجنرال ديجول الذى أصبح رئيسًا للجمهورية بأن يطلق سراح أحمد بن بله ورفاقه من السجن، أو على الأقل أن يخفف وطأة السجن إلى إقامة جبرية أو شىء من هذا القبيل، وأجاب الجنرال ديجول على طلب الملك إدريس بواسطة سفير ليبيا بفرنسا، مصطفى بن حليم الذى حمله ديجول رسالة إلى الملك إدريس بأن مسعاه لن يذهب سدى، وبعد أيام نقل أحمد بن بله إلى فيلا فى ضاحية «شانتيبى» بجوار باريس(٢).

وفى (يناير عام ١٩٦١م)، زار ليبيا الكونت دوبارى موفدًا من طرف الجنرال ديجول رئيس الجمهورية آنذاك واستقبله محمد عثمان الصيد بصفته رئيسًا للحكومة فى طرابلس، وكان الكونت دوبارى يحمل رسالة خطية من ديجول للملك إدريس السنوسى، وأبلغ المبعوث الفرنسى السيد محمد الصيد رئيس الوزراء أن الجنرال ديجول يريد إبلاغ الملك إدريس عبر هذه الرسالة، أن فرنسا ستعمل قريبًا على إيجاد حل لقضية الجزائر يضمن مصلحة الجزائريين ويلبى المطامح العربية، لكنه يرجو من القادة العرب خاصة أولئك الذين تعرف عليهم إبان الحرب العالمية الثانية، ومنهم الملك إدريس تفهم ظروف فرنسا الداخلية، ومساعداته حتى يمكن إخراج هذا الحل إلى حيز الوجود، وبالفعل لم تمض أربعة أشهر حتى بدأت مفاوضات الاستقلال بين فرنسا والجزائر فى (٢٠ من مايو ١٩٦١م) فى إيفيان.

عقب إطلاق سراح أحمد بن بله ورفاقه الأربعة، وكان يطلق عليهم «الزعماء الخمسة» من السجون الفرنسية، قام هؤلاء الزعماء بزيارة إلى ليبيا، واحتفى بهم الليبيون حكومة وشعبًا احتفاء كبيرًا، واستقبلهم الملك إدريس السنوسى، وحثهم على التضامن ونكران الذات وذكرهم بالحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٣) وطلب منهم الاهتداء بهذا الحديث ودعاهم إلى نبذ جميع أشكال الخلاف والشقاق والأنانية التى تضر إن وجدت بالجزائر واستقلالها.

(١) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى، (ص٣٦٦).
(٢) انظر: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسى، (ص٣٧٤، ٣٧٥).
(٣) هذا قول أحد قواد الدولة الأموية، واسمه: إبراهيم بن عيله، وليس من قوله النبى ﷺ.

كانت الحكومة الليبية المتعاقبة بعد حكومة ابن حليم تدعم ثورة الجزائر وكان من وراء ذلك التأييد غير المنقطع الملك إدريس بتوجيهاته المستمرة، وكان يكن فى أعماقه عطفًا خاصًا على ثورة الجزائر الإسلامية.

إن المملكة الليبية بحكومتها وشعبها ساعدت ثوار الجزائر فى معركتهم المقدسة ضد فرنسا وقاموا بمد الثورة بالسلاح والذخائر والمساعدات وقد حدثنى السيد محمد القاضى عبد الكبير الذى كان معى فى المعتقل السياسى بطرابلس (عام ١٩٨٣م)، وكان حاكمًا لمنطقة فزان زمن المملكة أخبرنى عن إشراف الحكومة على مخازن الأسلحة وتوصيلها للمجاهدين فى الجزائر، وقد توفى -رحمه الله- بعد خروجه من السجن، وقد قضى فى سجون ليبيا من (عام ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٨٨م) وكان رجلاً عجيبًا فى دينه وصفاء فطرته، حفظ القرآن الكريم بعد الخامسة والأربعين من عمره، وكان يتحدث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وكان شعلة من النشاط والاجتهاد والتعليم، وقد جاوز الستين من عمره، وكان يحافظ على صيام السنن والنوافل، والقيام والرياضة البدنية، وكان يقول لى: إن أمله فى الله أن يغفر له ذنوبه وأن يكون سجنه تكفيرًا للذنوب والخطايا، وأن السجن وقفة مع الذات وفرصة لمحاسبة النفس لا تعوض أبدًا، وأن الذى أكرمنى الله به فى السجن لولا أن الله من على به ما تحصلت عليه أبدًا وما وصلت إليه، لقد كان فريدًا فى سنه، وفريدًا فى نشاطه، فرحمة الله عليه.

إن جميع الساسة والقادة العسكرية زمن المملكة الليبية والذين كانت لهم علاقة مباشرة بمد الثورة فى الجزائر يشهدون أن الملك -رحمه الله- كان مساندًا لحركة الثورة وحريصًا على نجاحها، ولم يقصر معها لا ماديًا ولا معنويًا.



المبحث الخامس

نظرة فى كتاب الملك إدريس -رحمة الله- فى اتحاد العرب وائتلاف الموحدين وبعض المقابلات الصحفية

هذا الكتاب ذكره المؤرخ الليبى محمد الطيب الأشهب -رحمه الله تعالى- ونقل لنا منه نقولا ولا ندرى أين الكتاب الآن، وكان هذا الكتاب قد وضعه إدريس السنوسى بقلمه كرسالة شاملة فى (عام ١٩٢٩م) شكلت بحثًا سياسيًا علميًا عامًا، تناول فيه المؤلف الموقف الإسلامى العربى والدولى من جميع الوجوه على حقيقته، فجاء بحثًا متميزًا مدعومًا بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، والأدلة التاريخية وتحدث فيه عن العوائق والمشاكل التى تواجه تقدم العالمين «الإسلامى والعربى» والأسباب التى أخرت المسلمين والعرب، والوسائل التى يجب اتخاذها لتمكين العرب من تحقيق وحدتهم التى يراها ضرورية، وتحدث عن الخلافة الإسلامية وما لها وما عليها، وعن سبب انهيارها، وتكلم عن المشاكل الدولية وعن الاستعمار وأهدافه وعن المدنية الإسلامية والحضارة العربية، وعن دولة الإسلام وما تلاها من دول وحكومات عربية، وتحدث عن الأخطاء التى ارتكبت فى مختلف عصور التاريخ الإسلامى والعربى، ثم انتقل من هذه المواضيع العامة إلى موضوع الوحدة العربية وما يقاسونه[1].

أولاً: حديثه عن الوحدة العربية وحالة العرب:

قال -رحمه الله-: كل إنسان يعرف أن جزيرة العرب كانت قبل البعثة النبوية مضطربة بفعل الجهالة والفوضى والشقاق إلى أن قال: وكان لابد من إصلاح أساس النظام، وعلى هذه الحاجة ظهر الإسلام.

وقال فى موضوع آخر من بحثه: صار العرب بعد زوال الحكومات العربية تابعين لكل متبوع، ولم يعنو برفعة أمتهم، ولم ينتبهوا من رقدتهم، وبالأخص منهم من كانت دياره محتلة بالحكومات غير العربية، لقد فسدت أخلاقهم وسجاياهم تحت سيطرة الدولة المحتلة، وظلوا ناسين عظمتهم ومدنيتهم وقد تعودوا طأطأة الرءوس للذل، ومن الطبيعى أن لا تحتفظ أمة ببأسها وسجاياها، وخصالها فى سلطان حكومة مستبدة، وهكذا شرع العرب يتغيرون ويفسدون، على أن العرب لن ينسوا جنسيتهم وقتًا ما، وليس فيهم من خرج عن عروبته.

---

(١) انظر: إدريس السنوسى (ص٢١٨).

إن عروبة العرب الماضية لتؤثر تأثيرها النفسي الآن، وإن التاريخ يعيد نفسه، وإن العربية مثل الإسلام صبغة لا تزول، واستطرد إدريس السنوسي في بحثه إلى أن قال: فإذا نال العرب استقلالهم أو استقلت كل مقاطعة عربية إداريًا، واتحدت مع بقية أخواتها فإنهن يقمن إمبراطورية عظيمة وحكومة متحدة على نسق واحد.

واستطرد في حديثه عن العرب إلى أن قال: إنهم محتاجون إلى تربية أخلاقية وتنمية عقولهم المنهوكة منذ مدة من الزمن حتى يستردوا شملهم العربي وأخلاقهم العالية، وفي الحقيقة أن جملة البلاد العربية أصبحت في سبات عما يراد بها من الممالك الأخرى، ولن تستيقظ إلا على أصوات مدافع المستعمرين، ورب أمة لا تعرف نفسها حتى تصاب بمظالم الأجانب(١).

ثانيا: الأخوة الإسلامية والعروبة:

قال: حقًا إن الإسلام يمنع تغلب الجنسية ولكن لا يأبى تكامل الأمم إذا لم يضر بسائر البلاد الإسلامية، ولم يضيع الأخوة الدينية والذي يمكنه الرقي في هذا العصر هو الذي يفهم الإحساس القومي، ولا يمكن الرقي بغير هذا؛ لأن الارتقاء رهين باتحاد الجماعات وتعاونها، والكمال لا يكون إلا بالأمة كلها، وما كان لرقي الأفراد إلى الآن إفادة كبيرة في الأمة، ولهذه الأمنية يربي السياسيون الأمم، والاتحاد القومي موجود بنفسه، ويكفي فيه أن يكون الإنسان عربيًا، فإن الفرد من هذه الأمة العربية يدرك بفطرته وبفكره الأول أنه ابن هذه الأمة التي زلزلت الأرض حينًا من الزمن، وحق له أن يفهم ذلك، وهذا العصر هو عصر القوميات، فلا تستطيع الأمة العربية أن تقف بعيدًا عن هذا التيار، والعرب هم أساس الإسلام ومنشؤه، فإذا ما تماسكوا وتكاتفوا وشدوا أزرهم ينهض الإسلام بلا ريب، ولا خوف على المسلمين من تفرق الكلمة إذا ما عرب الجزيرة نهضوا، ومن أجل هذا نرى أن العصبية العربية معقولة ومشروعة، بل وضرورية، على شرط ألا تتعارض مع الأخوة الإسلامية، وأن لا تتعدى على الآخرين وبهذه الوسيلة تقوى الأمة العربية ويقوى الإسلام معها(٢).

ثالثا: الحجاز هو قطب رحى الجزيرة العربية:

قال الملك إدريس -رحمه الله:

«لا ريب أن الحجاز هو قطب رحى الجزيرة العربية، ومنه منشأ الرجال الذين نشروا في العالم أسمى مبادئ الحرية، وعلَّموا الناس أجمل معاني العدل والتسامح والعلم، والقابض الآن على

(١)، (٢) انظر: إدريس السنوسي (ص٢١٨).

أزمة أموره هو جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وفى بلاد اليمن جلالة الإمام يحيى بن حميد الدين، وهذان الملكان المستقلان المسيطران على صميم أحفاد عدنان وقحطان لا ريب فى أنهما يشعران بثقل المسئولية أمام الله وأمام أهل الجزيرة وعموم المسلمين، وهما الآن أمام صحيفة يسطر لهما التاريخ فيها من جديد كما سطر لغيرهما فى الماضى، ولا يعزب عن ذكائهما كيف يجب أن تدار دفة الأمور لإعادة مجد العرب والإسلام، وتعريف الأمم ما تجهله من مدنيتهم وآدابهم وحضارتهم، وليس هناك ما يقرب بين الشعوب ويعرف بعضها بالبعض الآخر غير الأعمال المجيدة النافعة، والآخذة بأسباب الإصلاح من كل وجوهه المعلومة فى هذا العصر، عصر المعارف والفنون، فعليهما أن يعرفا كيف يقودان صميم الأمة العربية من أحفاد عدنان وقحطان فى القرن العشرين، إنهما يريدان أن يقفا بالأمة العربية فى مستوى واحد من الأمم التى سبقتهم الآن بمراحل، فعليهما إذن أن يستعدا للكفاح فى معترك هذه الحياة، وعليهما أن يخلقا فى أرض الجزيرة حيث لا امتيازات ولا عوائق مدنية جديدة وشعبًا قادرًا على السير وحده، ولن يكون هذا بالشىء العسير؛ لأن الفرصة سانحة للعمل[١].

رابعا: العمل الاصلاحى على وجهين: دينى ومادى:

وقال أيضًا: والعمل الإصلاحى على وجهين: دينى ومادى، أما الدينى فهو تحرير الفكر من قيد التقليد، واعتبار الدين صديقًا للعلم وحاكمًا عليه، وفهم الدين على طريقة السلف الصالح ووضع ترتيبات ونظام للحج يكفل راحة الحجاج ورفاهيتهم وأمنهم، وأما المادى فهو: الاتحاد وتحسين المواصلات فى البلاد العربية، ومد السكك الحديدية، وخطوط التلغراف، والتليفون وتعميمها، وتعبيد الطرقات لسير السيارات فبذلك ترتبط الممالك ارتباطًا منظمًا، ثم وضع برامج واسعة وثابتة لنشر المعارف فى عموم أنحاء المملكة بتعميم المدارس الدينية والثقافية، وتأسيس جماعة عربية بمكة لتعمل على ترقية الأمة العربية فنيًا وأدبيًا ولتنظيم الوحدة ومتجه السير وحرية الرأى، ثم المداومة على عقد المؤتمر الإسلامى فى كل سنة أوان الحج، وتنظيم طرق الدعاية إليه ونشرها فى عموم الأقطار الإسلامية والعربية[٢].

خامسًا: الزعيم الأساسى هو الذى يؤسس حكومة راسخة البنيان:

وقال: إن الزعيم الأساسى هو الذى يؤسس حكومة راسخة البنيان لا تزول بزوال الأفراد والأسر، وهو صاحب النظريات السامية التى تؤثر فى حياة الأجيال مع المحافظة على دوام السلام بقدر المستطاع ومراعاة الظروف الواقعية حتى لا يعترى بنيانه الخلل وهو لا يزال وليدًا[٣].

(١)، (٢) انظر: إدريس السنوسى (ص٢١٩). (٣) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢٠).

سادساً: أيها العرب اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص:

وقال أيضًا: أيها العرب اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فإن الواجب المقدس يدعوكم أن توحدوا صفوفكم وأن تجاهدوا جميعًا فى سبيل الذود عن حياض بلادكم ودينكم، وليس الجهاد هو القتال فحسب، بل إن أول الجهاد هو أن تعرفوا معنى الأخوة العربية وتوحيد السبيل، ثم تدافعوا بكل ما استطعتم كلما أمكنكم الدفاع، وأوله باليد، وليس معنى ذلك هو إشهار السلاح فقط، ولكنه التعلم، تعلم كل ما يمكن أن تتفوقوا به من الصنائع، وباللسان أى ببذل كل ما أوتيتم من النصيحة والإرشاد، وبالقلم، أى بتأسيس الصحف وارتباطها ببعضها لتوحيد الفكرة وتوجيه الرأى العام، وبعمل الملاجئ والمستشفيات للفقراء واليتامى والمرضى، حت لا يضطرون إلى الالتجاء للمؤسسات الأجنبية التى قد تدس لهم السم من عقائد دخيلة، ومذاهب فاسدة مفسدة، ثم إنشاء المدارس الوطنية وتشجيع التجارة الوطنية والاكتفاء بمصنوعات البلاد.

وبعد أن تحدث فى هذا الموضوع بإسهاب قال: والشعب العربى هو الآن على أبواب نهضة عظيمة ستتجاوز بعون الله ما كان عليه قبل قرون، وإن التاريخ سيعيد نفسه والأحفاد -كما قيل- هم سر الجدود.

إن الشعب العربى له مواهبه العظيمة فى الحرب والسياسة، وفى العلم والإقدام، وهذا ما لا ينكره أحد والبلاد العربية فى نظر عموم المسلمين متقدمة، ولها المكان المرموق لوجود البيت الحرام، وكذلك قبر النبى ﷺ وبيت المقدس(١).

وقال فى مكان آخر من البحث: «إن الإسلام معناه الاتحاد، والإسلام واحد لا يقبل التجزئة ولكن مع الأسف الشديد فقد أدى الجدل الكلامى إلى الاختلاف فتفرق المسلمون إلى معتزلة وأهل سُنَّة، وتفرقت المعتزلة شيعًا، وتفرق أهل السنة فى الاجتهاد إلى مذاهب، وهذا الاختلاف تجاذبته الأغراض السياسية، ولا سبيل لحسم هذا الخلاف إلا بالعودة إلى الإسلام الذى بيَّنه صاحب الرسالة على بساطة أسلوبه وسمو معانيه وجوهره(٢).

فلنفكر قليلاً فى إنصاف وتعقل، ولننظر إلى الحقيقة، ولنرجع إلى أوامر النبى ﷺ وكنه الإسلام، ونستعرض هذه المصائب التى انتابتنا منذ عصور طويلة، فإنه لا يوجد شىء مهلك مثل تنازعنا معشر المسلمين... إلى أن قال: إن هذه الفوضى أفسدت الجماعة الإسلامية جيلاً بعد جيل، وأفسدت الثبات والصبر والسعى المضطرد والاجتهاد والتفكير ثم قال: إن المسلمين لعدم

(١)، (٢) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢١).

تمسكهم بروح الإسلام أصبحوا فى ضعف وانحطاط، وقد ذهب استعدادهم الفكرى لانكبابهم على المنقولات، فالتقليد فى الفكر لم يكن فضيلة، فكيف نقف هكذا صغاراً أمام الماضى؟!، وكيف ننتظر من أسلافنا كل شىء كمن ينتظر الميراث ليعيش به؟!(١).

هذه بعض النقولات من كتابه «اتحاد العرب وائتلاف الموحدين» يعطى الباحث خطوطًا عريضة عن نظرة الملك إدريس -رحمه الله- لبعض القضايا التى تتعلق بنهوض الأمة وسعيها نحو التمكين.

وزيادة فى إيضاح المنهج السياسى الذى كان يتبناه الملك إدريس ننقل هذه المقابلة الصحفية التى أجريت (عام ١٩٤٢م)، بين الملك ومندوب جريدة «البصيرة» التى كانت تصدر فى الإسكندرية، حيث أجاب عن عدة أسئلة تتعلق بالوحدة العربية ونهوض الأمة فقال:

من المشاهد الآن أن العالم يسعى إلى التكتل داخل مجموعات قوية كبيرة، والعرب فى بلادهم المختلفة لا حياة لهم -أقصد حياة العز والقوة- إلا إذا اتحدوا داخل نطاق من التعاون التام، والتعاون الذى يجمع بين الثقافة والصناعة والاقتصاد، وبذلك تستطيع المجموعة العربية الكبيرة المؤلفة من ثمانين مليونًا أن تحتفظ لنفسها بين الأمم العالية بمكانة مرموقة محترمة، والوحدة العربية عندى أقرب إلى التحقيق فى وقتنا الحاضر من اتحاد شرقى إسلامى، فإنه من المشاهد فى بقاع الأرض المختلفة أن وحدة الدم واللسان والثقافة هى أكبر العوامل فى تقارب الشعوب واتحاد المصالح، وهذه الأمور جميعها متوافرة فى الأمم العربية أكثر من توافرها فى العالم الإسلامى، زد على هذا أن الأمم العربية متجاورة الحدود ومتقاربة التخوم مما يجعل الاتحاد بينها أقوى أثرًا وأسرع تنفيذًا.

وأجاب -رحمه الله- عن سؤال آخر لنفس المندوب بقوله:

إن الواجب المقدس الذى يحتمه الدين وتفرضه الوطنية على كل عربى، هو أن يجاهد الطغيان بجميع الوسائل التى يملكها حتى يزول هذا الرعب الزاحف، وتشرق شمس الحرية والكرامة الإنسانية على الأمم العربية والعالم أجمع من جديد(٢).

وعن سؤال آخر أجاب:

إن الأهداف التى نرمى إليها والتى طالما سفكنا دماءنا فى سبيل تحقيقها هى الحرية الكاملة، والاستقلال الشامل، ولا ننسى نحن الطرابلسيون واجباتنا حيال النهضة العربية الكبرى باعتبارنا

(١) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢٦).
(٢) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢٥).

وحدة من الوحدات التى تتكون منها المجموعة العربية، سنعمل كما عملنا فى السابق متعاونين مع الأحرار العالميين، على أن يسود الشرق العربى روح النهضة فى المرافق العلمية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية حتى يؤدى رسالته الإنسانية ويستعيد مجده الغابر(١).

وعندما التقت به مجلة «صوت الشرق» فى (فبراير عام ١٩٥٧م) وجهت له بعض الأسئلة فأجاب: إن ليبيا تمد يدها لكل بلد عربى شقيق بإخلاص، واضعة كل مالها وأناسها فى سبيل نصرة هذا البلد، وتأييده فى الذود عن حياضه وعزته وكرامته، ولن ننسى أبدًا نصرة وتأييد البلاد العربية الشقيقة، والبلاد الحرة الصديقة لنا فى جهادنا وكفاحنا فى سبيل تحقيق استقلال ليبيا وتحريرها من الاستعمار إلى أن قال: أنصح العرب الأشقاء بالتمسك بالدين الكامل، والخُلق الفاضل، والاتحاد الشامل، فلن يغلب شعب يحرص على هذه الأمور الثلاثة(٢).

إن دراسة كتابه المذكور وتصريحاته الصحفية تبين للباحث ضعف القول القائل بأن الملك إدريس لا يفهم فى أمور السياسة وأقرب إلى أهل التصوف من كونه رجل دولة، ولا توجد لديه رؤية سياسية واضحة ولا يعرف كيف تساس أمور الأمم والشعوب.

إن حياة هذا الرجل لغنية بالعبر والدروس والمواعظ، التى تحتاجها الأجيال الصاعدة التى تستلهم من الماضى ما يفيدها فى حاضرها ومستقبلها وفق رؤية وتصور نابع من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

سابعًا: مكانة الصحافة فى زمن الملك إدريس وحرية الصحافة فى مجلس النواب:

إن كثيرًا من الحكام والملوك والقادة لا يتحملون النقد، ولا كلمة الحق الموجهة إلى حكوماتهم أو ذواتهم ويقتدون بفرعون مصر الذى قال الله فيه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ويستعملون كافة الأساليب الوحشية لتكميم الأفواه، ومصادرة الحريات ويبررون مواقفهم أمام شعوبهم عند قمع الأخيار والمصلحين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وهكذا كل الطغاة يقولونها عندما يواجهون المصلحين، وكلما تواجه الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالى الزمان واختلاف المكان.

وهكذا الطغاة فى كل زمان ومكان، يقدمون أنفسهم على أنهم الحريصون على الفضائل الغيورون على الأخلاق، الراغبون فى التعمير والتقدم، والأمن والازدهار، بينما يقدمون أهل

(١)، (٢) انظر: إدريس السنوسى (ص٢٢٦).

الخير والصلاح على أنهم مفسدون مخربون ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورءوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الخبيثة(١).

إن الملك إدريس -رحمه الله- سمح للمصلحين أن يتكلموا وينقدوا الدولة والحكم، وشجع الصحافة والنواب على قول كلمة الحق، وحتى الذين يتجاوزون حدود القانون من المعارضة يعترفون بالمعاملة الحسنة التي يلاقونها من الشرطة، فقد ذكر الأستاذ محمد بشير المغيربي في كتابه: وثائق جمعية عمر المختار ما يدل على ما ذهبت إليه فقد قال: «لابد أن أقول بعد كل ذلك إننا طيلة تلك المرحلة، ونحن نعارض ونواجه بحدة وبشدة وتتخذ ضدنا إجراءات بالسجن والاعتقال والنفي وتحديد الإقامة، إننا لم نتعرض لإهانة أو إذلال معنوي أو جسدي، بل إن كل ما طبق علينا من تلك الإجراءات كان في جو من الاحترام وبما لا يجرح كرامتنا أو يحط من إنسانيتنا...»(٢).

إن من يدرس دور الصحافة في فترة الملك يلاحظ أنها كانت حرة ولكل شخص الحق في حرية التعبير عن رأيه وفي إذاعة الآراء والأنباء بمختلف الوسائل، وذلك في حدود الحق الدستوري المنظم لقانون المطبوعات الذي ظهر (عام ١٩٥٩م).

كان قانون المطبوعات يشترط موافقة مجلس الوزراء على وقف إصدار الصحيفة مما أعطاها منعة وحصانة ضد أي قرار تعسفي في حالة تفرد جهة معينة بذلك، وأعطت الحكومة الليبية زمن الملك السابق -رحمه الله- حرية للصحف في مباشرة نشاطها دون تدخل أو تعويق إداري، ورغم أنه بدرت من الحكومة بعض الممارسات التعسفية في حق بعض الصحف إلا أن طبيعة النظام الحاكم كانت تضمن للصحف والمجلات حقوقها، وعندما قامت الحكومة في (عام ١٩٥٢م)، بإغلاق صحيفة «التاج» عارضت الصحيفة ذلك القرار، ورفعت دعوى ضد الحكومة وألقى الشاعر أحمد رفيق المهدوي قصيدة في تجمع لرفض القرار جاء فيها:

«التاج» يشكو لرب التاج ما لاقى ... من الوزارة تعطيلاً وإغلاق

وزارة جاوزت ما لا يطاق فأكثرت ... على الشعب أعناقًا وإرهاق

وقد نشرت القصيدة في اليوم التالي في جميع الصحف ولم يتعرض الشاعر لأي أذى ويوم تعرضت صحيفتي «البلاغ» و«الميدان» للإغلاق ودخلت هذه الصحف في معارك قضائية عنيفة

(١) انظر: قصص السابقين، للخالدي، (٥/ ١٠٥).
(٢) انظر: وثائق جمعية عمر المختار، (ص٨).

ضد وزارة الإعلام كانت هذه الصحف تدافع عن وجهة نظرها علانية أمام الجميع وفى المحاكم. وكان هناك نوعان من الصحافة حكومية وأهلية :

أ- فالصحافة الحكومية من أشهرها «ليبيا الحديثة، برقة الجديدة، فزان، وطرابلس الغرب» ومع كونها حكومية إلا أنها لم تخل فى مرات عديدة من نقد واضح للسلطات الحاكمة، رغم كونها من أدواتها الإعلامية، ونذكر هنا بالقصيدة الشعبية التى نشرتها صحيفة حكومية :

«وين ثروة البترول يا سماسرة   اللى ع الجرائد نسمع بأخباره»

وقد تضمنت القصيدة رسالة جريئة وعنيفة فى مهاجمة الحكومة[1].

ب- أما الصحافة الأهلية وهى قائمة على الشكل التجارى فكانت تتلقى دعمًا غير مباشر من الحكومة على هيئة «إعلانات- اشتراكات» وبقدر ما كان ذلك يشكل دعمًا ماليًا بمثابة ضغط غير مباشر وربما قيدها أحيانًا عن التمتع بحرية كاملة، وقد ساهمت فى إنضاج الرأى العام المحلى وتوعيته سياسيًا، وقد عرفت صحف «كالبلاغ» و«الرقيب» بمقالاتها المنتقدة للحكومة، كما اشتهرت صحيفة «الحقيقة» بأسلوبها الساخر فى تناول الحكومة والتعريف بمساوئها، ولم تتوان الصحف بما فيها الحكومية عن نقدها وفضحها لبعض مشاريع الدولة، حتى تلك التى كان وراءها مقربون كعبد الله عابد السنوسى «مشروع طريق فزان»، حيث نشرت القصة لأول مرة فى صحيفة «المساء»، فى (٢٠/ ٨/ ١٩٦٠م) تقدمت المعارضة على أثرها بطلب إسقاط حكومة عبد المجيد كعبار عن طريق البرلمان وهو ما حدث فى (١٦/ ١٠/ ١٩٦٠م).

وأهم الصحف والجرائد التى ظهرت فى زمن المملكة الليبية وقبلها بقليل هى :

١- صحيفة «الوطن» أنشأها مصطفى بن عامر (١٩٤٣م).

٢- صحيفة «التاج» لصاحبها عمر الأشهب ظهرت عام (١٩٥١م).

٣- مجلة «ليبيا» أنشأها مصطفى بن عامر (١٩٥١م).

٤- صحيفة «شعلة الحرية» أنشأها أحمد زارم (١٩٥١م).

٥- صحيفة «الصريح» أسسها إبراهيم أحمد البكباك (١٩٥١م).

٦- صحيفة «الليبى» أنشأها على محمد الديب سنة (١٩٥١م).

٧- صحيفة «المنار» مؤسسها عمر الأشهب (١٩٥٢م).

---

(١) انظر : الإنقاذ، العدد (٣٩) بقلم طاهر أحمد، (ص٧٨، ٧٩).

٨- صحيفة «الدفاع» أسسها صالح بوصير (١٩٥٢م).

٩- صحيفة «اللواء» أسسها على رجب (١٩٥٢م).

١٠- صحيفة «البشائر» مؤسسها على زاقوب (١٩٥٣م).

١١- صحيفة «الزمان» أسسها عمر الأشهب (١٩٥٤م).

١٢- مجلة «طرابلس الغرب» أصدرها مكتب المطبوعات والصحافة والنشر الحكومى (سنة ١٩٥٤م).

١٣- صحيفة «طرابلس الغرب» رئيس تحريرها فخر الدين عبد السلام أبو خطوة (١٩٥٤م).

١٤- مجلة «صوت المربى» صدرت عن اللجنة الثقافية لرابطة المعلمين ظهرت (عام ١٩٥٥م).

١٥- مجلة «النور» صاحب الامتياز عقيلة بالعون العدد الأول (١/ ٥/ ١٩٥٧م).

١٦- مجلة «الأفكار» ورئيس تحريرها راسم قدرى (١٩٥٥)[١].

١٧- صحيفة «الرائد» أنشأها بشير يوسف الطوبى سنة (١٩٥٦م).

١٨- مجلة «الضياء» صاحب الامتياز عمر الأشهب أول عدد (١/ ٣/ ١٩٥٧م).

١٩- صحيفة «العمل» أحمد حسين أبو هدمه (١٩٥٨م).

٢٠- صحيفة «الطليعة» سالم على شيته (١٩٥٨م).

٢١- صحيفة «الرقيب» رئيس تحريرها رجب المغربى (١٩٦١م).

٢٢- مجلة «الهدى الإسلامى» الشيخ محمد أمين هلال رجب (١٣٨١هـ - ١٩٦١م).

٢٣- صحيفة «البلاغ» لصاحبها على وريث (١٩٦٣م).

٢٤- صحيفة «الأمة» رئيس تحريرها عبد الله عبد المجيد (١٩٦٣م).

٢٥- صحيفة «الميدان» فاضل المسعودى (١٩٦٤م).

٢٦- صحيفة «الحرية» رئيس تحريرها محمد عمر الطاشانى (١٩٦٤م).

٢٧- صحيفة «الحقيقة» صاحبها محمد بشير الهونى (١٩٦٦م).

---

(١) الإنقاذ، العدد (٣٩)، جمادى الآخرة (١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، (ص٨٠).

٢٨- صحيفة «الديلى نيوز» رئيس تحريرها عبد الرحمن خليفة الشاطر.

٢٩- صحيفة «الريبورتاج» رئيس تحريرها عبد القادر طه الطويل (١٩٦٧م).

٣٠- صحيفة «الشعلة» رئيس تحريرها حسين الكيلانى الضربريط (١٩٦٧م).

٣١- صحيفة «الفجر» محمد فريد سيالة.

٣٢- صحيفة «ليبيا الحديثة» رئيس تحريرها صالحين عبد الجليل عمر.

٣٣- ٣٧- مجلة الإذاعة الكشاف، صحف برقة، طرابلس، الرأى العام، ليبيا تايمز[1].

وهذا العرض لأسماء الصحف والجرائد يدل على نهضة فكرية وسياسية جيدة للغاية، كما يدل على مرونة الملك وحكومته وبعدهم عن مصادرة الأصوات المعارضة لسياسة الدولة.

الأستاذ مصطفى بن عامر وكلمة حول الميزانية العامة فى مجلس النواب:

كانت العناصر الحية والحريصة على مصلحة شعبنا تستطيع أن تتكلم بكل وضوح وصراحة فى مجلس الأمة ويحفظ لنا التاريخ مرافعة مهمة فى مجلس الأمة الليبى (عام ١٩٥٥م)، وقد تكلم الكثير ممن نقدوا سياسة الحكومة من أمثال الشيخ عبد العزيز الزقلعى وغيره، إلا أن مرافعة الأستاذ مصطفى بن عامر كانت أقوى بيانًا وأوضح حجة وأدق عبارة، وأسهل أسلوبًا، وفى مرافعته التاريخية يلاحظ الباحث وجود حرية فى القول والنقد والتعبير، تمتع بها نواب الشعب وتلك الحرية حسنة من حسنات ذلك النظام الذى كان يقوده الملك إدريس -رحمه الله-.

وقد جاء فى كلمة مصطفى بن عامر فى مرافعته:

«لقد سبق لى وأنا عضو فى المجلس حين وضعت المعاهدة البريطانية والاتفاقية الأمريكية أمامكم لتقولوا كلمتكم فيها، أن أبلغتكم آرائى عن هذين القيدين الحديدين اللذين صيغا للبلاد وأعدا لمنع تقدمها إلى طريق العزة والكرامة والحرية رغم ما قدمته بريطانيا وأمريكا إلى خزينة الحكومات من فتات الإعلانات، وفضلات المساعدات التى ظهرت أرقامًا ضخمة فى الميزانية الحالية والميزانيات السابقة، ولكن أى أثر أحدثته تلك الأرقام الضخمة فى النهضة الاقتصادية، وفى العدالة الاجتماعية اللهم إلا إذا أحدثنا تعريفًا لحقيقة النهضة، وحقيقة العدالة وفسرناها تفسيرًا يتماشى مع الأوضاع السائدة التى تقوم على ترف الأقلية، وبؤس الأغلبية، واعتبار الفساد ضرورة لابد منها، والإصلاح حلمًا من أحلام الطيش والغرور، لقد مددنا أيدينا للإنجليز والأمريكان وأخذنا منهم الشلنات والدولارات، وأعطيناهم أعز ما نملك وأكرم ما نحرص عليه

(١) الإنقاذ، العدد (٣٩)، (ص٨٠، ٨١).

فماذا عملنا بما أخذنا؟ لا شيء. . . أين موقفنا هذا من ذلك الموقف الذى كنا نقفه فى وجه الإدارة البريطانية السابقة عندما كانت تدعى وجود عجز فى الميزانية وما كان يبلغ نصف مليون جنيه، وكنا نعتبر هذا العجز مفتعل نتيجة الإسراف المقصود لإقامة حجة علينا؟، ومع ذلك فقد عاشت ليبيا تحت حكم الإدارة البريطانية تسعة أعوام تخللتها سنون عجاف كان الجفاف فيها أشد من الجفاف الآن، لكننا لم نشاهد بؤسًا كما نشاهد اليوم ولم يمت أحد من الجوع مثلما حدث فى هذا الوقت كما أعلن ذلك أحد النواب المحترمين فى قاعة هذا المجلس بالرغم من وجود القمح الأمريكى الذى ظن أنه لن يترك بيتًا جائعًا.

والآن نريد أن نعرف ما معنى أن نصبح دولة مستقلة ذات سيادة؟ معنى ذلك أن تضخم أرقام الميزانية حتى يقال إنها ميزانية ولا ميزانية مستعمرة ونبنى المنازل لسكنى الوزراء ونقيم العمارات ونؤثثها، وننشىء المكاتب الفاخرة ونستورد السيارات والسخانات وآلات التدفئة والمكانس الكهربائية ومكيفات الهواء وتنقل من عاصمة إلى عاصمة ونبعث بالسفراء والوزراء إلى أمريكا والشرق.

أمعنى ذلك أن نصبح جميعًا وزراء ونظارًا وأعضاء مجالس نيابية وتشريعية ورؤساء دوائر ومتصرفين ومدراء ومستشارين وسكرتيرين وكتابًا وطباعين ومباشرين، ونتقاضى الرواتب والمكافآت والعلاوات ونتطاحن على التعيينات والترقيات والدرجات؟، أمعنى ذلك أن نشمخ بأنوفنا حينما نقلد منصبًا حكوميًا ونمشى فى الأرض مرحًا ونأبى أن نخاطب إلا بالعرائض ومن وراء حجاب ونمسى ونصبح وإذا هنا خلق لا عهد له بهذه الدنيا ومن فيها؟، لعل هذا هو المعنى الذى أدركه المسئولون من إعلان الاستقلال وقيام دولة وممارسة السيادة لعل هذا هو المعنى الذى أدركوه وطبقوه وتفهموا فقراته على من تصرف الأموال وعلى من تنفق؟

لا بل انظروا حواليكم أيها السادة، كم كلفكم هذه الأثاث الفخم الذى يحيط بكم؟، ألم تكن هناك مقاعد صالحة ولائقة قبل هذه وإن كانت غير جميلة ولا أنيقة ولكنها كانت كافية، بل فوق الكافية؟

لم أنفقتم آلاف الجنيهات فى هذه المظاهر والمناظر وميزانيتكم تئن من العجز والأجنبى يحتل بلادكم وشعبكم يرزح تحت أثقال عيشة بائسة؟، أريد أن أعرف أهذا هو معنى الاستقلال أم هو الإسراف والتبذير والأبهة والترف؟، وأين الاقتصاد والإنتاج والعمل والاجتهاد؟، أريد الجلوس على الكرسى العادى والمناضد الخشبية قليلة التكاليف، فماذا يلحقنا من ضرر لو أننا فعلنا ذلك اللهم إلا الأجر عند الله والذكر الحسن عند الشعب ومن وراء ذلك خير الوطن ونفع البلاد، بل إنى أستطيع أن أتطرق فى التوفير وعدم التبذير إلى أبعد من ذلك.

وأتصور عندما أعلن استقلال ليبيا وقيل إن فى ميزانيتها عجزاً يحتاج تغطية من المساعدات الأجنبية واجتمع أول مجلس نيابى يمثل البلاد أتصور أن هذا المجلس رفض أن يكلف ميزانية الدولة الناشئة أى شىء لحساب أثاث قاعة وفضل أعضاؤه المحترمون البساطة على كل ما عداها وأن يأتى الزوار من هنا وهناك لينظروا إلى ممثلى الشعب وهم يضربون أروع المثل فى التقشف والعزوف عن المظاهر على حساب الأمة الفقيرة وهم يباشرون أعمالهم لمصلحة أمتهم على هذه الصورة الرائعة، الخالية من الزخرف والبهرجة كأنهم فى بيت من بيوت الله يعبدون الله بالعمل المجموع فنحن مسلمون، وشعار الإسلام فى كل عمل عبادة.

أيكونن ذلك لو كان دليلا على تأخر وانحطاط؟، لم لا يكون دليلاً على وعى كامل وشعور رفيع بالمسئولية وتفهم عال لحقيقة الاستقلال وبداية سليمة قوية فى تشييد الكيان السليم القويم؟ ولعل عشاق المظاهر يرون فى ذلك عاراً ومهزلة لا يليق أن توصم بهما دولتنا الفتية، وليس من الكرامة والشرف أن يجتمع مجلس الأمة على تلك الصورة، وإلى أولئك أذكر أن العار الذى يطمس الشرف هو أن يسمح لأقدام المحتلين أن تدوس أرضنا وهى عرضنا مقابل حفنة من المال ننفقها على مظاهر كاذبة ومناظر زائلة، والمهزلة التى تطيح بالكرامة هى أن نتجاهل قدر أنفسنا وحقيقة وضعنا وظروفنا وإمكاناتنا.

إنى أشعر وأنا أتصفح الميزانية بأسى عميق وأسف شديد، إذ أن ذاكرتى تعود بى إلى الماضى القريب الملىء بالآمال واستعراض الذكريات وأقارن بينها وبين الحاضر المشحون بالآلام إلى المستقبل، فلا أملك إلا التوجه إلى الله أن يلطف بنا ويهيىء لنا من أمرنا رشداً.

أذكر أيها السادة ذلك اليوم الأغر، الذى صدر فيه قرار هيئة الأمم المتحدة التاريخى باستقلال ليبيا (مساء ٢١ من نوفمبر ١٩٤٩م)، وأذكر أن جريدة كتبت فى اليوم التالى تعليق على هذا القرار: «منذ البارحة سيكون علينا أن نعمل وننتج أكثر مما قاتلنا وكافحنا، وسيكون علينا أن نكد ونجد حتى يفوق ما نصبه من عرق وما ذرفناه من دموع وأهرقناه من دماء، أمامنا تركة عهدين يتطلبان التصفية النهائية حتى لا نكون بعد ذلك مطالبين بميراث عهد الإيطاليين الذين خرجوا من ديارنا بعد صراع عنيف وضحايا جمة وخلفوا ممتلكات مدمرة وعامرة ولكنها كلها ملك شرعى فى أرض الوطن لأهل الوطن... وعهد البريطانيين الذين قسموا البلاد الواحدة واقتسموها سلباً حلال، وضيعوا عليها الفرص وشوهوا معالمها ووضعوا فى طريق نهضتها كل معرقل وعائق، أمامنا هذه التركة أو هذه المشكلة التى يجب أن يوضع لها حد، ثم أمامنا كل شعب مثلنا من الحاجة إلى إحصاء كل ماله وما عليه وتفهم كل دقيق من لوازمه وضرورياته وتنسيق جميع

متطلباته فى جدول تراعى فيه الأهمية والأسبقية ثم المباشرة فى العمل بما يستحق من العناية والإتقان فى صغير الأمور وكبيرها.

هذا الكلام قالته الجريدة منذخمسة أعوام وكأنها تلخص برنامجًا يجب أن تسير عليه الدولة الجديدة إذا أرادت أن تكون دولة، قالت هذا وقلوب الجميع مفعمة بالآمال، والآن أعود لتلاوة ما قلت ونفسى مليئة بالآلام، كيف لا أيها السادة؟ ونحن بدل أن نكد ونجد تخاذلنا وتكاسلنا، وبدل أن نقتصد ونجتهد أسرفنا وبذرنا، ولابد أن نصفى التركة المتروكة لنا جميعًا، نحن من أنفسنا أصبحنا تركة فى حاجة إلى تصفية.

وبدل أن نحل المشكلة التى تواجهنا زدنا عليها مشاكل لا يمكن حلها، وبدل أن ننتج أصبحنا نستجدى الإغاثة، ونجلس فى طلب الصدقة، بدلاً من أن نحصى ونتفهم ضرورياتنا ولوازمنا، صرنا نُفْرِط فى الكماليات حتى حعلناها ضرورة لازمة.

والاستقلال معناه أن نعيش فى بلادنا ونملك أمر نفوسنا، ولا نكون عالة على غيرنا فى أى أمر من الأمور... من أجل هذا الاستقلال بذلنا الأرواح، وأهرقنا الدماء، وذرفنا الدموع، ولكى نحافظ على هذا الاستقلال، بهذا المعنى كان يجب أن نعصر أجسامنا عرقًا نتيجة الكد والجهد، حتى نوفر المبالغ التى تسد عجزنا، ولكننا عكسنا الأمر وقلبنا الوضع، فلابد من التضحية ولابد من نكران الذات، وضرب الأمثال للأجيال القادمة، فى الإخلاص والتفانى إلى أبعد الحدود[1].

لقد كانت مرافعة الأستاذ مصطفى بن عامر فى مجلس الأمة فى (سنة ١٩٥٥م) مفخرة تاريخية للأجيال حيث أن من أجدادنا من هو بهذه الشجاعة والإخلاص والحرص على تحرير البلاد من الغاصبين والدعوة إلى الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى هذا السبيل، وإن شعبنا فى هذه الفترة الحرجة من تاريخه الجهادى لهو أحوج إلى أمثال الأستاذ مصطفى بن عامر لخوض معارك التحرير الفعلية فى جميع مجالاتها التشريعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية... إلى آخره.

فنحو أسلمة بلادنا الحبيبة وإرجاع عز الأمة التليد، نحن ساعون وعلى ربنا متوكلون.

ثامنًا: استقالة الملك عام (١٩٦٥م) الأولى، واستقالته الثانية قبل الانقلاب العسكرى بأشهر عام (١٩٦٩م):

مع مرور الزمن وتقدم السن رأى الملك إدريس أن يتخلى عن الملك وأن يقدم استقالته، ويترك للشعب أو ممثله إسناد الأمر إلى من هو أحق منه أو أقدر على حمل الأمانة والقيام بالواجب

(١) انظر: وثائق جمعية عمر المختار، لمحمد المغيربى (ص ٤١٠، ٤١٢).

المطلوب، ولذلك لم يتردد الملك إدريس فى (عام ١٩٦٥م)، فى عهد حكومة السيد محمود المنتصر الثانية أن يقدم استقالته بسبب التقدم فى العمر، وخشيته نتيجة لذلك من التقصير فى القيام بما عليه من الواجبات والمسئوليات إلى البرلمان الليبى تاركًا له أن يتخذ ما يراه مناسبًا من نظام للحكم لصالح البلاد، ومن رئيس للدولة فيها؛ ولكنه عندما تقاطرت إلى مدينة طبرق، حيث كان يقيم الملك الجماهير الغفيرة من مختلف أطراف البلاد، وفى مقدمتهم الكثيرون من كبار قادة البلاد بما فى ذلك قادة المعارضة فيها، وأحاط الآلاف منهم بالقصر عدة أيام يطالبون بإلحاح الملك المحبوب بالعدول عن استقالته، وبقائه ملكًا لبلاده إلى ما شاء الله؛ فإنه لم يكن بوسع الملك سوى الرجوع عن هذه الاستقالة، موضحًا أن استقالته هذه كان قد تحدث بشأنها من قبل مع بعض رؤساء الحكومات الليبية، الذين كان من بينهم السيد مصطفى بن حليم، والسيد محمد بن عثمان الصيد، وهى كانت فقط بسبب تقدمه فى السن وخشيته من أن يؤدى ذلك إلى التقصير فى حسن القيام بما عليه من المسئوليات، ولم تكن هذه الاستقالة بسبب خلاف مع الحكومة الليبية، أو البرلمان الليبى، حيث كان كل منهما كما ذكر الملك قائمًا بواجبه، وباذلاً جهده فى خدمة البلاد، ولكنه أمام معارضتهم لهذه الاستقالة، فلا يسعه إلا العدول عنها، على أن يكون لهم الحق فى رفع يده عن الحكم إذا ما شعروا، مستقبلاً بعجزه عن حمل ما عليه من الواجبات وتكليف من هو أقدر منه على حملها(١).

وقد كانت استقالة الملك إدريس الثانية والأخيرة هى تلك المؤرخة فى (٤/ ٨/ ١٩٦٩م)، والتى وجهها أثناء رحلة استشفائية إلى تركيا ثم اليونان إلى كل من رئيس وأعضاء مجلس الشيوخ ورئيس وأعضاء مجلس النواب، ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشيوخ عبد الحميد العبار ورئيس مجلس النواب مفتاح عريقيب، عندما جاءوا إلى تركيا فى ذلك الوقت للاجتماع بالملك بناءً على طلبه، وفى هذه الاستقالة أكد الملك إدريس أنه وقد تقدم به العمر حتى، وهن العظم منه وبلغ من العمر عتيًا، ولهذا فهو قد قرر التخلى عن العرش إلى الأمير ولى العهد الحسن الرضا السنوسى مشترطًا موافقة البرلمان على ذلك، ومن ثم عليه حلف اليمين واعتلاء العرش، ومطالبًا فى هذه الاستقالة الشعب الليبى بتقوى الله ومخافته وحمد الله تعالى وشكره على ما أكرم بلاده من النعم، وأفاض عليها من الخير، وأن عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وذلك خوفًا من أن يرفع الله تعالى عنه نعمه وخيره، ويوليها الأشرار من عباده.

---

(١) انظر: السنوسيون، مخطوطة لم تر النور بعد طلب منى مؤلفها عدم ذكر اسمه.

وكان نص هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

يا إخوتى الأعزاء رئيس وأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس النواب، يعنى مجلس الأمة الليبية، ورئيس الحكومة الليبية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أقدم لكم هذا الخطاب قائلاً:

منذ أن قلدتنى هذه الأمة الكريمة الليبية ثقتها الغالية بتبوئى هذا المقام الذى شغلته بعد إعلان استقلال بلادنا العزيزة ليبيا.

قمت بما قدر الله لى مما أراه واجبًا نحو بلادى وأهلها وقد لا يخلو عمل كل إنسان من التقصير، وعندما شعرت بالضعف قدمت استقالتى قبل الآن ببضع سنوات فرددتموها فطوعًا لإرادتكم سحبتها، وإنى الآن نسبة لتقدم سنى وضعف جسدى أرانى مضطرًا أن أقول ثانية إنى عاجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة ولا يخفى أننى أبليت فى سبيلها خمسة وخمسين سنة قبل الاستقلال وبعده وقد أوهنت جلدى مداولة الشئون وكما قال الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وقد مارست هذه القضية وعمرى (٢٧) والآن أنا فى الثانية والثمانين ولله الحمد أتركها فى حالة هى أحسن مما باشرت فى بلائى بها، فأسلمها الآن لولى العهد السيد «الحسن رضا المهدى السنوسى الأول» على أن يقوم بعبئها الثقيل أمام الله وأمام أهل هذه البلاد الكريمة على نهج الشريعة الإسلامية والدستور الليبى بالعدل والإنصاف، فاعتمدوه مثلى مادام على طاعة الله ورسوله والاستقامة.

وبعد اعتماده من مجلس الأمة يحلف اليمين الدستورية أمام مجلس الأمة قبل أن يباشر سلطاته الدستورية، وإنى إن شاء الله عقدت العزم الأكيد على اجتناب السياسة بتاتًا، الله على ما أقول وكيل.

والذى اختتم به قولى بأن أوصى الجميع من أبناء وطنى بتقوى الله فى السر والعلن، وإنكم جميعًا فى أرغد عيش وأنعم النعم من الله تبارك وتعالى.

فاحذروا من أن يصدق عليكم قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

فالله الله مما يغضب الله، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، ولا تفرقوا. قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسطلن الله عليكم شراركم. فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لكم»

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١).

محمد إدريس المهدى السنوسى

(فى جمادى الأولى ١٣٨٩هـ)

(الموافق ٤ أغسطس ١٩٦٩م)

تاسعاً: نزاهة ملك ليبيا وعفته وأقوال المؤرخين فيه ووفاته:

حينما وقع الانقلاب فى (سبتمبر ١٩٦٩م) كان الملك فى رحلة إلى تركيا واليونان ولم يكن معه مال خاص ينفق منه، ومع ذلك فحينما عرض عليه المسئول المالى للرحلة استلام ما تبقى فى عهدته من مخصصات رفض الملك ذلك بعزة نفس وقال له: «يا بنى أنا بالأمس كنت ملك ليبيا، ولكنى لم أعد كذلك اليوم، وبالتالى فإن المال لم يعد من حقى، ويجب أن يسلم إلى خزينة الشعب».

تقول الملكة فاطمة فى رسالة لها بتاريخ (١٣ من سبتمبر ١٩٦٩م) تصف فيها حالها ومآل زوجها الملك بعد وقوع الانقلاب: إننا نحمد الله على أن تيجان الملكية لم تبهرنا قط، ولا نشعر بالأسف لفقدها، فنحن كنا دائمًا نعيش حياة متواضعة، ولم يغب عن أذهاننا مثل هذا اليوم، كما نحمد الله كثيرًا على أننا لا نملك مليمًا واحدًا فى أى مصرف حتى يشغل بالنا بالمال، ولم نغير أبدًا معاملتنا لأصدقائنا وهى لن تتغير مع الأيام»(٢).

لقد تحدث الكثيرون عن سيرة ملك ليبيا السابق، ويجدر بنا أن نشير إلى بعض الذين عاصروه واتصلوا به شخيصيًا، واطلعوا عن قرب على الكثير من أخلاقه الرفيعة، ففى مقال نشر فى صحيفة «الشرق الأوسط» فى عددها بتاريخ (٢٣ من يونيو ١٩٨٣م) نعى السيد مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا السابق الملك محمد إدريس السنوسى وتحدث عن جهاد ليبيا تحت قيادته، وكان

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، (ص ١٦٥، ١٦٦).
(٢) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا (ص ١٥٣، ١٥٤).

ضمن ما قاله عن شخصيته: لقد عرفت الملك إدريس -رحمه الله- معرفة حميمة على مدى نصف قرن تقريبًا عرفته منذ كنت صبيًا، وعملت معه وزيرًا ثم رئيسًا لحكومته، ثم مستشارًا له، كما عرفته وأنا مواطن عادى، وكما عرفته وهو لاجىء فى مصر، وكنت دائم التردد عليه فى ملجئه فى القاهرة، وفى طول نصف القرن عرفت فيه المسلم الزاهد المتواضع لم يعر مباهج الدنيا أى اهتمام، وكان الملك المؤمن الورع والأب العطوف والقائد الحكيم المتواضع، كما كان يحن دائمًا للهجرة إلى مكة والمدينة والمنورة، ليجاور فى الأراضى المقدسة، مرة واحدة رأيته يتلوى ألمًا ويبكى دمًا ويهدر هديرًا، وهو الهادئ الصبور، كان ذلك يوم سقوط القدس الشريف فى أيدى الصهاينة، كان يخشى الله فى السر والعلانية، كان كريمًا ندى اليد خجولاً، طالما صرف مخصصاته الرسمية فى أوجه الخير سرًا، وفى (سنة ١٩٥٥م) عندما أنشئت الجامعة الليبية تبرع بقصر المنار فى بنغازى ليكون لها المقر، وكذلك فعل (سنة ١٩٥٦م) تنازل عن قصر الغدير كمقر للكلية العسكرية، كان دائمًا يتردد على الأراضى المقدسة للحج والعمرة[(١)].

ويقول الدكتور مجيد خدورى عن دوره فى إنشاء الدولة الليبية وتحقيق الوحدة الوطنية:

«إن الدور الذى قام به الملك إدريس فى إنشاء الدولة الليبية بالغ الأهمية إذ إنه لم يكتف بأن أقدم على العمل بجرأة لتخليص برقة من إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية فحسب، بل استعمل نفوذه الشخصى وحنكته السياسية لإقناع أصحاب النفوذ من الزعماء الطرابلسيين بوجوب الالتفاف حول النظام الاتحادى الذى لولاه ما كانت لتتم وحدة ليبيا قط، ولما كان حفيدًا وخليفة للسيد محمد السنوسى، فضلاً عن ذلك فقد كسب أيضًا ثقة زعماء القبائل البرقاوية وأحاط نفسه بنفر من الرجال المقتدرين الذين تفانوا فى تأييده، كان بعض هؤلاء الزعماء قد تبعوه إلى المنفى، والآخرين الذين ظلوا فى البلاد لمقاومة الإيطاليين قاموا بذلك بتوجيهه، فلما عاد إلى برقة بعد الحرب لم يكن ثمة مجال للتساؤل عمن يمكن أن تؤول إليه الرئاسة فى برقة، ولم يكن الزعماء الطرابلسيون يجهلون أثر الملك إدريس فى توحيد البلاد، إذ أنهم أدركوا أنه الشخص الوحيد الذى يكن له الجميع الاحترام، لكنهم اختلفوا على شكل الحكومة المنوى إنشاؤها، وعلى الحدود الدستورية لاختصاصاته. . . قبل عرض ليبيا بدافع من شعوره بالواجب الوطنى، ليزود البلاد المقسمة بالزعامة اللازمة لها»[(٢)].

---

(١) انظر: الإنقاذ، العدد (٣٩)، (ص ٦٤، ٦٥).

(٢) انظر: الإنقاذ، العدد (٣٩)، (ص٦٥).

وأما المؤرخ دى كاندول صاحب كتاب «الملك إدريس عاهل ليبيا» فقد قال:

«على الرغم من محاولات تشويه صورة الملك فى أذهان الناس وتهويل بعض نقاط الضعف التى لا ينفرد بها عن بقية البشر، إلا أن الحقبة الطويلة التى قضاها فى خدمة بلاده وأمته قد ترسخت فى أعماق التاريخ بما يكفى للصمود أمام كل المساعى الخبيثة، إن الملك إدريس رمز لعهد مضى ولن يعود، ولكنه عهد زاهر يجدر بالليبيين جميعًا والعرب عمومًا أن يعتزوا به»(١).

وقال أيضا: «كانت الدعاية التى رافقت الانقلاب كاذبة مفترية فى مزاعمها ضد الملك الذى حاولت أن تصوره مثل فاروق، فاسقًا متهتكًا، فاسد الذمة، وهو أبعد ما يكون عن تلك الصفات، فسمعته الشخصية كانت فوق مستوى الشبهات، سواء فى بلاده أو فى العالم العربى عامة، كرجل شديد الورع والتقوى، كرس حياته لحرية شعبه وكان فى سلوكه الخاص مثلاً للاعتدال والاستقامة الكاملة، وإن الحملة الدعائية التى تواصلت ضده على ذلك النحو كانت من نوع الإسفاف الرخيص الذى لا يقوم على أساس»(٢).

وفاته:

استقر الملك إدريس -رحمه الله تعالى- فى مصر حيث بقى مدة حياته الأخيرة بها، ولم يغادر مصر إلا مرتين، ذهب فيهما إلى مكة للحج، وكانت وفاته فى القاهرة بتاريخ (٢٥ من مايو ١٩٨٣م) وهو فى سن الرابعة والتسعين(٣).

وقد دفن الملك -رحمه الله- فى المدينة المنورة، وكان قد طلب من جلالة الملك خالد بن عبد العزيز فى لقاء لهما بموسم الحج (سنة ١٩٧٧م) أن يأذن بدفنه متى حانت المنية فى البقيع فكفل الملك خالد للملك إدريس رغبته -رحمهما الله- ثم إن الملك فهد بن عبد العزيز أجاز ذلك بعد وفاة الملك خالد بن عبد العزيز، ونقل جثمانه من القاهرة إلى المدينة المنورة فى طائرة خاصة(٤).

فنسأل الله له الرحمة والمغفرة والرضوان، ونقول ما قاله المولى عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر: ١٠].

لقد تركت ما يتعلق بالمملكة الليبية متعمداً ذلك إلى وقت آخر إن كان للعمر بقية، وأذن الله فى مواصلة هذه المرحلة الطويلة التى بدأتها من الفتح الإسلامى إلى هذا الكتاب؛ لأننى أشعر

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره (ص١٥٣، ١٥٤).
(٢) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، (ص١٤١).
(٣)، (٤) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، (ص ١٥١).

بضعف المادة التى أمامى فيما يتعلق بتلك الأحداث، لأن قضايا ذلك العصر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لملابساتها وآثارها الممتدة إلى عصرنا الحاضر، وخصوصًا وأننى قد بحثتُ فى أسباب سقوط المملكة بحثًا دقيقًا وطلبت من رجال عاشوا فى تلك المرحلة ليساهموا معى فى تتبع الأسباب التى أدت إلى سقوط المملكة الليبية، ولكن التفاعل كان ضعيفًا واعتذر البعض لأسباب أمنية، وقد علمت بأن بعض الذين عاصروا تلك الأحداث قد كتبو مذكرات مهمة عن المرحلة وينتظرون الوقت المناسب لنشرها؛ لذلك رأيت من الحكمة والتعقل التريث حيث يأذن الله فى نشرها؛ لأنها سوف تساهم فى إيجاد معلومات تساعد الباحثين على تقصى الحقائق للوصول إلى نتائج صحيحة مبنية على معلومات يقينية، ولا يفوتنى فى هذه الخاتمة أن أشيد بالمجهودات القيمة التى قام بها كل من الوزيرين السابقين: مصطفى بن حليم، ومحمد عثمان الصيد فى كتابة مذكراتهم ثم نشرها بغية استفادة الأجيال منها.

إن الجهود التى قام بها الوزيران السابقان تستحق الثناء والتقدير؛ لأنها أصبحت مرجعًا مهمًا لتلك المرحلة وأخذت قيمتها التاريخية والعلمية وتعتبر من المبادرات الرائعة والرائدة لأن أصحابها عاشوا تلك الأحداث وساهموا فى صناعتها، كما أنهم حطموا جدار الصمت، وكتبوا تاريخهم السياسى الذى فى حقيقته أصبح ملكًا للأجيال الصاعدة بغض النظر عن اختلاف الآراء حول تلك المذكرات.

إن فترة المملكة الليبية من (عام ١٩٥١ إلى ١٩٦٩م) غنية بالأحداث على المستوى المحلى والإقليمى والدولى، وهى تحتاج إلى دراسة واعية وباحث مدقق يتوخى العدل والإنصاف، ويعتمد على الله ثم على الوثائق والحجج والبراهين.

إن الاعتناء بتاريخ بلادنا وبلاد المسلمين تظهر أهميته فى هذا العصر الذى استخدم فيه التاريخ كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة فى فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأمم المتقدمة فى مكانة سامية لا يعلوها علم آخر.

إن دراسة التاريخ بوجه عام وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص، لا ينبغى فى دراسته تحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية ألا وهى إحياء الأمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالشعوب، واجتناب سنن السقوط والهبوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

هذا وقد انتهيت من كتابة هذه السلسلة التاريخية (يوم الثلاثاء ١ ربيع الأول ١٤٢٠هـ الموافق ١٥ من يونيو ١٩٩٩م)، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا

العمل قبولاً حسنًا وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأختم هذا الكتاب بقوله الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وبهذه الأبيات:

إليك وجـهـت يا مـولاى آمـالى	فاسمع دعائى وارحم ضعف أحوالى
أرجوك يا مولاى لا نفسى ولا ولدى	ولا صديقى ولا أهلى ولا مالى
لما عـرفـتك لم أنظر إلى أحـد	فلا الرعيـة أرجـوها ولا الوالى
فـلا تكلنى إلى من ليس يكلؤنى	وكن كفيلى فأنت الكافل الكالى[1]
واسـقنى كـأس حب من وداد	يا مولاى فهو شراب سلسل حالى
فـلا وحـقك مـا للقلب من شغف	إلا بحـبك فـاشـرح لى به بالى
وفـيـه سلوان قلبى عن علائقه	وسلسبيلى وسلوانى وسلسالى
ومنه أحيـا ومن فـقـدى له مرض	ومـرهـمى أبدًا منه وإبلالى[2]
أنا الفـقـير إلى مولاى يرحـمنى	إذ تقـضى بهـول الموت إمـهـالى
أنا الفـقـير إلى مـولاى يرحـمنى	فى بطن لحـد وحـيش مظلم خـالى
هناك لحـمى لدود القبـر فـاكـهـة	والعظم منى رمـيم فى الثـرى بالى
أنا الفـقـير إلى مـولاى يرحـمنى	يوم القـيـامـة من عنف وأهوال
أنا الفـقـير إلى مـولاى يحـشـرنى	فى زمـرة المصطفى المخـتـار والآل
صلى الإلـه على أرواحـهـم أبدًا	ضـعـفًا على قـدر زخـار وهطال[3].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

على محمد محمد الصلابى

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

(١) كلأه: إذا حفظه ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ [الأنبياء: ٤٢].
(٢) الإبلال: الشفاء من المرض.
(٣) الزخار: صفة للبحر، وهطال: صفة للغيث.

أهم مراجع ومصادر البحث

١- إمام التوحيد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الدعوة والدولة، تأليف أحمد القطان، محمد الزين، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية (١٩٨٨م).

٢- انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، (١٩٨٤م).

٣- إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن، للإمام محمد بن على السنوسى، طبع من المجموعة المختارة للإمام السنوسى، على نفقة محمد عبده بن غلبون وشقيقه هشام وعلى، فى جامعة مانشستر، بريطانيا عام (١٩٩٠م).

٤- برقة العربية أمس واليوم، محمد الطيب بن أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهوارى، شارع محمد على بمصر.

٥- البحر الرائق فى الزهد والرقائق، أحمد فريد، دار البخارى، القصيم السعودية، الطبعة الأولى (١٤١١هـ- ١٩٩١م).

٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى، دار المعرفة بيروت.

٧- تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، منشورات جامعة دمشق طبعة عام (١٤١١هـ- ١٩٩١م).

٨- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة بمصر.

٩- تفسير السعدى، المسمى تيسير الكريم الرحمن تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى، المؤسسة السعدية بالرياض (١٩٧٧م).

١٠- تفسير الإمام البغوى، المسمى معالم التنزيل، للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م).

١١- التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

١٢- توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م).

١٣- جند الله تخطيطًا، سعيد حوى، دار السلام بمصر.

١٤- الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، للخطيب البغدادى، مكتبة المعارف، الرياض (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

١٥- الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، القرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

١٦- المجتمع الليبى، د. عبد الجليل الطاهر، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، طبعة عام (١٩٦٩م).

١٧- المجتمع والدولة والاستعمار فى ليبيا، د. على عبد اللطيف حميدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٥م).

١٨- الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فيليب رفلة، القاهرة عام (١٩٦٥م).

١٩- حاضر العالم الإسلامى، تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان، دار الفكر.

٢٠- حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، محمد جميل المصرى، منشورات جامعة المدينة المنورة.

٢١- الحكمة فى الدعوة إلى الله، سعيد بن على القحطانى، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

٢٢- الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد سليمان المورعى، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

٢٣- الحركة السنوسية، نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر، أحمد الدجانى، الطبعة الأولى (١٩٦٧م) دار لبنان.

٢٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى، دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٥- دراسة وصور من تاريخ الحياة الأدبية فى المغرب العربى، د. محمد طه الحاجرى، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة أولى، عام (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

٢٦- دائرة المعارف، بطرس البستانى، مطبعة الهلال بمصر، طبعة عام (١٨٩٨م).

٢٧- دراسات فى التاريخ اللوبى، مصطفى بعيو، القاهرة، (١٩٤٥م).

٢٨- الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية، للإمام محمد بن على السنوسى، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسى، طبعت فى منشستر ببريطانيا عام (١٩٩٠م) على نفقة محمد عبده بن غلبون، وشقيقيه هشام وعلى.

٢٩- دولة الموحدين، من سلسلة صفحات التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى، د. على محمد محمد الصلابى، دار التابعين مصر، القاهرة، طبعة أولى (٢٠٠١م).

٣٠- الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. على محمد محمد الصلابى، منشورات دار التابعين.

٣١- ديوان الإمام الشافعى، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ) مكتبة المعارف.

٣٢- رحلة الحشائشى إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد عثمان الحشائشى التونسى، تحقيق على مصطفى المصراتى، دار لبنان، الطبعة الأولى (١٩٦٥م).

٣٣- سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م).

٣٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، الطبعة الرابعة (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م) بيروت، دمشق.

٣٥- سنن أبى داود سليمان بن الأشعث، تحقيق عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.

٣٦- سياحتى فى صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، مطبعة سى، إستانبول، عام (١٣١٤هـ).

٣٧- السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكرى، دار الفكر، طبعة (١٩٤٨م).

٣٨- السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين، للإمام محمد بن على السنوسى، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسى، طبعة منشستر عام (١٩٩٠م).

٣٩- السيد محمد رشيد رضا، محمد أحمد درنيقة، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان طرابلس، لبنان، طبعة أولى (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٤٠- الإسلام فى القرن العشرين، حاضره ومستقبله، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ، الطبعة الثانية (١٩٦٩م).

٤١- السنوسى الكبير، محمد الطيب بن إدريس الأشهب، مطبعة محمد عاطف، ميدان الخازندار بمصر.

٤٢- شرح الحماسة للمرزوقى، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م).

٤٣- شرح النووى على مسلم، للنووى ط ١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

٤٤- شرح مقدمة أبى زيد القيروانى، الأمين الحاج محمد أحمد، مكتبة دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

٤٥- صحيح البخارى، للإمام محمد بن إسماعيل البخارى، دار الطباعة العامرة باستانبول (١٣١٥هـ)، المكتب الإسلامى، إستانبول، تركيا.

٤٦- صحيح مسلم، للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).

٤٧- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتى، دار فارس.

٤٨- فقه التمكين فى القرآن الكريم، لعلى بن محمد الصلابى، دار التابعين، (٢٠٠١م).

٤٩- فى تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت الشيخ، دار الثقافة، طبعة (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).

٥٠- الفوائد الجليلة فى تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن على، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام (١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م).

٥١- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م).

٥٢- كتب فى الساحة الإسلامية، عائض القرنى، دار العميمى، ط (١٤١٢هـ).

٥٣- موسوعة التاريخ الإسلامى، محمود شاكر.

٥٤- موسوعة التاريخ الإسلامى، د. أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة العاشرة (١٩٩٥م).

٥٥- مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازى، دار الفكر، لبنان.

٥٦- مقدمة الإمام مالك، للإمام محمد بن على السنوسى، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسى، طبعت فى منشستر عام (١٩٩٠م) على نفقة ابن غلبون.

٥٧- المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق للإمام محمد بن على السنوسى، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسى.

٥٨- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم، بيروت، ط (١٣٩٠هـ- ١٩٧١م).

٥٩- الإمام البخارى، تقى الدين الندوى المظاهرى، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، دار القلم، بيروت، دمشق.

٦٠- مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود إدريس، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).

٦١- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى وشركاه، القاهرة.

٦٢- المسائل العشر، للإمام محمد بن على السنوسى، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسى، طبعت بمنشستر ببريطانيا، عام (١٩٩٠م) على نفقة آل ابن غلبون.

٦٣- الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دى كاندول، ترجمة ليبى، الناشر محمد عبده ابن غلبون.

٦٤- المهدى السنوسى، محمد الطيب الأشهب، مطبعة بلينوماجى، طرابلس.

٦٥- ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، د. نقولا زيادة، منشورات قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، طبعة (١٩٥٨م).

٦٦- الانحرافات العقدية والعلمية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما فى حياة الأمة، تأليف على بن بخيت الزهرانى، دار طيبة مكة، دار آل عمار الشارقة، الطبعة الثانية (١٤١٨هـ- ١٩٧١م).

٦٧- النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (١٣٩١هـ- ١٩٧١م).

٦٨- واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، مؤسسة المدينة المنورة.

٦٩- وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدى، المعارف، الرياض، طبعة (١٤٠٢هـ).

٧٠- الإذاعة لما كان وما يكون بين الساعة، لمحمد صديق حسن القنوجى البخارى، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، سنة (١٣٩٩هـ).

٧١- أشراط الساعة، يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل، دار ابن الجوزى، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٧٢- أعلام ليبيا، الطاهر أحمد، ط٢، طرابلس، مؤسسة الفرجانى (١٩٧١م).

٧٣- الأفعى فى معاقل الإسلام، عبد الله التل، الكتب الإسلامى.

٧٤- التواضع فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح، للإمام محمد علىّ الشوكانى.

٧٥- تفسير المنار، للعلامة محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٧٦- تهذيب شرح الطحاوية، د. محمد صلاح الصاوى، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧٧- تاريخ الإسلام، أنور الجندى.

٧٨- التعليم فى ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل.

٧٩- تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجانى، طرابلس، الطبعة الأولى (١٩٧٢م).

٨٠- تاريخ حرب طرابلس، محمد إبراهيم لطفى، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، بنها، (١٩٤٦م).

٨١- الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. جمعة الخولى، طبعة أولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٨٢- الثورة السنوسية، أو كاوض، نشر المركز النيجيرى للبحوث فى العلوم الإنسانية، نيامى (١٩٧٣م)، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط صاحب الكتاب ساليفو أندرى.

٨٣- جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد بن عثمان الحشائشى التونسى، تحقيق: علىّ مصطفى المصراتى، دار لبنان، الطبعة الأولى، بيروت (١٩٦٥م).

٨٤- جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب، والطاهر أحمد الزاوى، ط٣، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، (١٩٦٢م).

٨٥- جريدة المقطم، عدد (٦٩٤١، ٩ صفر، عام ١٣٣٠هـ).

٨٦- جريدة الأهرام، عدد (١٠٦١٣، فى ٢١ صفر عام ١٣٣١هـ).

٨٧- جريدة المقتبس، عدد (١٠١٤، فى ٥ ذى القعدة ١٣٣٠هـ)

٨٨- حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، (١٨٩٤م-١٤٠٤هـ).

٨٩- الحوليات الليبية، شارفيرو، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصاردها العربية ووضع مقدمتها النقدية، محمد عبد الكريم الوافى، دار الفرجانى، طرابلس- ليبيا.

٩٠- الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدى، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، طبعة (١٩٨٨م).

٩١- حروب البلقان والحركة العربية فى المشرق العربى العثمانى، د. عايض بن حزام الورقى، نشرته جامعة أم القرى طبعة عام (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٩٢- الحملة الإيطالية على ليبيا «دراسة وثائقية فى إستراتيجية الاستعمار والعلاقات الدولية»، دار الطباعة الحديثة، القاهرة (١٩٨٢م).

٩٣- حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى، جامعة الكويت، قسم التاريخ (١٩٨٢م).

٩٤- حياة سليمان البارونى، لأبى القاسم البارونى.

٩٥- الدولة العبيدية فى ليبيا، د، علىّ محمد الصلابى، دار البيارق، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

٩٦- دائرة معارف القرن العشرين.

٩٧- دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية فى المغرب العربى، د. محمد طه الحاجرى، دار النهضة العربية، بيروت، ط أولى، عام (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٩٨- دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية فى المغرب العربى، د. محمد طه الحاجرى، دار النهضة العربية، بيروت، ط أولى، عام (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٩٩- رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد العظم، إستانبول، عالم مطبعة سى (١٣١٤هـ).

١٠٠- رفع الستار عما جاء فى كتاب عم المختار، لمحمد العيساوى، القاهرة، مطبعة حجازى، (١٩٣٦م).

١٠١- السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكرى، دار الفكر، طبعة (١٩٤٨م).

١٠٢- السلطان عبد الحميد الثانى، مذكراتى السياسية، تقديم وترجمة د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

١٠٣- السودان بين يدى غوردن وكتشنر، إبراهم فوزى، الجزء الأول، (١٣١٩هـ).

١٠٤- سُنن ابن ماجَة، للإمام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى، حققه محمد فؤاد عبد الباقى، دار التراث العربى.

١٠٥- الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى.

١٠٦- صحيح الجامع الصغير وزياداته، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ).

١٠٧- صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة البارونى، بيروت (١٩٦٨م).

١٠٨- صلات بين ليبيا وتركيا «التاريخية والاجتماعية»، طرابلس الغرب، ليبيا (١٩٦٨م).

١٠٩- صحافة ليبيا فى نصف قرن، علىّ مصطفى المصراتى، دار الكشاف، بيروت، (١٩٦٠م).

١١٠- صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى عام (١٩٨٠م).

١١١- الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالى لليبيا، ط١، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، محمد عبد الكريم الوافى، دار الفرجانى طرابلس، ليبيا.

١١٢- الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، (١٩٨١م).

١١٣- عقيدة أهل السُّنَّة والأثر فى المهدى المنتظر، عبد المحسن العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ).

١١٤- العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد الليبى.

١١٥- العدوان والحرب بين إيطاليا وتركيا، مكتبة الفرجانى عام (١٩٦٥م)، محمد مصطفى بازامة.

١١٦- الغزو الإيطالى لليبيا، عبد المنصف حافظ البورى، الدار العربية للكتاب، طبعة (١٩٨٣م).

١١٧- قضية ليبيا، محمود الشنيطى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٥١م).

١١٨- قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب، الطبعة السابعة، عام (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) دار الفكر.

١١٩- كفاح الشعب الليبى فى سبيل حريته، عبد الرحمن عزام، ترجمة عماد غانم، «مخطوطة محفوظة بمركز الجهاد».

١٢٠- ليبيا فى العهد العثمانى الثانى (١٨٣٥-١٩١١م)، ترجمة يوسف العسلى، مطبعة الحلبى، القاهرة (١٩٤٦م).

١٢١- ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى، أحمد الدجانى.

١٢٢- منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور عبد الحفيظ سويد، مؤسسة الريان، الطبعة الخامسة (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م)، الناشر مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

١٢٣- المنار المنيف فى الصحيح والضعيف، للحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، طبع مكتب المطبوعات الإسلامية، جمعية التعليم الشرعى، حلب، (١٣٩٠هـ).

١٢٤- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون.

١٢٥ - مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

١٢٦ - مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الأولى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، يناير (١٩٧٩م).

١٢٧ - المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العباسية، محمود ثابت الشاذلى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى عام (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

١٢٧ - مجلة المنار، محمد رشيد، رضا، المجلد الثانى.

١٢٨ - المغرب الكبير، د. جلال يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة عام (١٩٨١م).

١٢٩ - مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، أورخان قول أوغلوا، ترجمة وجدى كلك، مراجعة. عماد حاتم، منشورات مركز ودراسات الجهاد الليبى، سلسلة المذكرات التاريخية، طبعة عام (١٩٧٩م).

١٣٠ - ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد شكرى، مطبعة الاعتماد، القاهرة، عام (١٩٥٧م).

١٣١ - «النهاية، الفتن، الملاحم»، للحافظ إسماعيل ابن كثير، د. طه زينى، دار النصر للطباعة، الناشر: دار الكتب الحديث، مصر الطبعة الأولى.

١٣٢ - نظم المتناثر فى الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسنى الإدريسى الكتانى، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٠هـ).

١٣٣ - نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة.

١٣٤ - أعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ابن القيم، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة (١٤٠٧هـ).

١٣٥ - إيطاليا والسنوسية، يوسيرا فبريتز، ترجمة محمد السيد أبو مدين نسخة مخطوطة بشعبة الوثائق، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى.

١٣٦ - برقة الدولة العربية الثامنة، زيادة نقولا، بيروت، طبعة عام (١٩٥٠م).

١٣٧ - برقة الهادئة، الجنرال رودلفو غراسيانى، ترجمة إبراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الأندلس، الطبعة الثالثة، يناير (١٩٨٠م).

١٣٨ - الثبات، د. محمد بن حسين بن عقيل، دار الأندلس الخضراء بجدة الطبعة الثانية (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

١٣٩- جذور النضال العربي في ليبيا، محمد عبد الرزاق مناع، ط٢، بنغازي الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

١٤٠- الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طبعة (١٩٨٨م).

١٤١- حياة عمر المختار، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة (٢٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ).

١٤٢- الدولة العربية المتحدة، أمين السعيد، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه عام (١٩٣٨م).

١٤٣- ذكريات عزام، الحلقة ٨، مجلة المصورة، القاهرة عام (١٣٣٢هـ/ ١٩٥٠م).

١٤٤- رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان، محمد مسعود فشيكة، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا، الطبعة الأولى (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م).

١٤٥- السنوسيون في برقة، بريتشارد إيفانز، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، طرابلس مكتبة الفرجاني.

١٤٦- سُنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

١٤٧- السُنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

١٤٨- سُنن النسائي، أحمد بن شعيب، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة، اللالكائي، تحقيق د. أحمد ابن سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض السعودية.

١٥٠- صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي، علي محمد الصّلابي، دار البيارق عمان، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

١٥١- عبد النبي بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، محمذ المرزوقي، الدار العربية للكتاب، عام (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

١٥٢- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ).

١٥٣- عمر المختار نشأته وجهاده من (١٨٦٢م إلى ١٩٣١م)، دراسات فى حركة الجهاد الليبى، أعمال الندوة العلمية التى عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، إشراف الدكتور عقيل محمد البربار، كلية الآداب والتربية، جامعة قاريونس.

١٥٤- عمر المختار، لمحمد الطيب الأشهب، سلسلة أبطال الجهاد والسياسة فى ليبيا.

١٥٥- قضية ليبيا، محمد الشنيطى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية (١٩٥١م).

١٥٦- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، مؤسسة الرسالة، قواعد التعامل مع العلماء. د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الوراق، السعودية، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٥٧- كفاح الليبيين فى بلاد الشام، تيسير بن موسى.

١٥٨- ليبيا اليوم، محمد الطيب الأشهب، بغداد، مطبعة أسعد، عام (١٩٥٥م).

١٥٩- ليبيا فى العصور الحديثة، نقولا زيادة، القاهرة، دار الرائد للطباعة (١٩٦٦م).

١٦٠- ليبيا الحديثة، مجيدى خدورى، ترجمة د. نقولا زيادة، دار الثقافة بيروت.

١٦١- المغرب الكبير، جلال يحيى، الإسكندرية، الدار القومية للطباعة والنشر (١٩٦٦م).

١٦٢- المغنى، لابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة موفق الدين، أبو محمد، على مختصر الخِرَقى ومعه الشرح الكبير على متن المقنع عبد الرحمن بن محمد بن بن أحمد قدامة المقدسى، دار الكتاب العربى، بيروت (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

١٦٣- المهذب فى فقه مذاهب الإمام الشافعى، إبراهيم بن علىّ بن يوسف الفيروزابادى الشيرازى- معه بأسفل الصفحة: النظم المستعذب فى شرح غريب المهذب، محمد بن أحمد بن بطال الركبى، مطبعة عيسى البابى الحلبى.

١٦٤- معجم معارك الجهاد فى ليبيا (١٩١١م- ١٩٣١م)، ط٣، خليفة محمد التليبى، دار الثقافة (١٩٧٣م).

١٦٥- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، السعودية.

١٦٦- مذكرات مجاهد، محمود الجهنى.

١٦٧- مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة عام (١٩٨٤م).

١٦٨- مجلة البيان، العدد الخامس، ربيع الثانى، (١٩٨٨م).

١٦٩- مجلة المنار، (جـ٩، م٣).

١٧٠- منهج كتابة التاريخ الإسلامى، محمد صامل العليانى السلمى، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ/ ١٩٩٦م).

١٧١- محطات من تاريخ ليبيا المعاصر، مذكرات محمد عثمان الصيد، إخراج طوب للاستثمار والخدمات، الرباط بالمغرب، الطبعة الأولى (١٩٩٦م).

١٧٢- نونية القحطانى، لأبى عبد الله بن محمد الأندلسى، الطبعة الثالثة (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م) مكتبة السوادى للتوزيع.

١٧٣- وثائق جمعية عمر المختار، محمد بشير المغربى، مؤسسة دار الهلال، الطبعة الأولى، يناير (١٩٩٣م).



الفهرس

فهرس الجزء الأول

الموضوع | الصفحة

فهرس الجزء الثانى

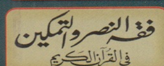
فهرس الجزء الثالث

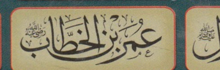


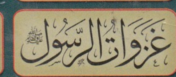
مؤلفات الدكتور علي محمد الصلابي

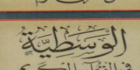




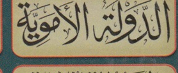




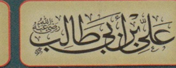






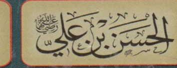


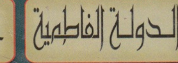


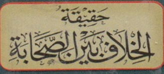


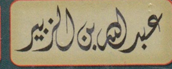


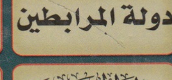






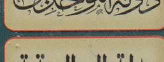


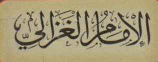


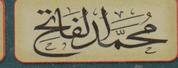


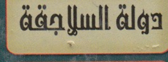








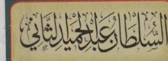


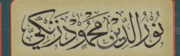




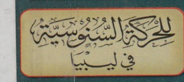


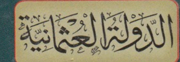












مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

